الجامع لأحكام القرآن

والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان

تأليف

أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي

(ت ٦٧١ هـ)

تحقيق

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

شارك في تحقيق هذا الجزء

كامل محمد الخراط غياث الحاج أحمد

الجزء الثامن عشر

مؤسسة الرسالة

الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م

مؤسسة الرسالة وطى المصيطبة – شارع حبيب أبي شهلا- بناية المسكن، بيروت-لبنان
للطباعة والنشر والتوزيع تلفاكس:٣١٩٠٣٩-٨١٥١١٢ فاكس: ٨١٨٦١٥ص.ب:١١٧٤٦٠
Al-Resalah PUBLISHERS
BEIRUT/LEBANON-Telefax:815112-319039 Fax:818615-P.O.Box:117460
Email:Resalah@Cyberia.net.lb

تفسير سورة الصافات

مكية في قول الجميع[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥)﴾

قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هذه قراءةُ أكثر القرّاء. وقرأ حمزةُ بالإدغام فيهنّ[2]. وهذه القراءة التي نَفَر منها أحمدُ بن حنبل لمَّا سَمِعَها.

النحاس[3]: وهي بعيدةٌ في العربية من ثلاث جهات: إحداهنّ: أن التاء ليست من مَخْرج الصاد، ولا من مَخْرَج الزاي، ولا من مَخْرَج الذال، ولا من أَخَواتهن، وإنما أُختاها الطاء والدال، وأختُ الزاي الصاد والسين، وأختُ الذال الظاء والثاء.

والجهة الثانية: أن التاء في كلمة، وما بعدها في كلمة أُخرى.

والجهة الثالثة: أنك إذا أدغمتَ جمعتَ بين ساكنين من كلمتين، وإنما يجوز الجمعُ بين ساكنين في مثل هذا إذا كانا في كلمة واحدة؛ نحو: دابَّة، وشابَّة. ومجازُ قراءة حمزة أن التاء قريبةُ المَخْرج من هذه الحروف.

«وَالصَّافَّاتِ» قَسَمٌ، الواو بدل من الباء. والمعنى: بربِّ الصَّافَّات، و«الزَّاجِراتِ» عطف عليه. ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جوابُ القسم. وأجاز الكسائي فتحَ إنَّ في القسم[4].

---

(١) زاد المسير ٧/ ٤٤ .

(٢) وهي قراءة أبي عمرو في رواية السوسي. السبعة ص٥٤٩ ، والتيسير ص١٨٥ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٩ ، وما قبله منه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٠ .

والمراد بـ «الصَّافَّاتِ» وما بعدها إلى قوله: «فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً» الملائكةُ في قول ابن عباس وابن مسعود وعِكرمة وسعيد بن جُبير ومجاهد وقتادة[١]، تصفُّ في السماء كصفوف الخَلْق في الدنيا للصلاة[٢]. وقيل: تَصُفُّ أجنحتَها في الهواء واقفةً فيه حتى يأمرَها الله بما يُريد. وهذا كما تقومُ العبيدُ بين أيدي ملوكهم صفوفاً. وقال الحسن: «صَفًّا» لِصفوفهم عند ربهم في صلاتهم[٣].

وقيل: هي الطير، دليلُه قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾[٤] [الملك: ١٩].

والصفُّ ترتيبُ الجمع على خطّ، كالصفّ في الصلاة. «وَالصَّافَّاتِ» جمع الجمع؛ يقال: جماعةٌ صافَّة، ثم يُجمَع صافَّات[٥].

وقيل: «الصّافات» جماعةُ الناس المؤمنين إذا قاموا صفًّا في الصلاة أو في الجهاد؛ ذكره القشيري[٦].

«فَالزَّاجِرَاتِ» الملائكةُ في قول ابن عباس وابن مسعود ومسروق وغيرهم على ما ذكرناه. إما لأنها تَزجُر السحابَ وتَسوقه في قول السُّدي. وإما لأنها تَزجُر عن المعاصي بالمواعظ والنصائح. وقال قتادة: هي زواجر القرآن.

«فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً» الملائكة، تقرأ كتابَ الله تعالى؛ قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وابن جُبير والسُّدي[٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٦ ، وزاد المسير ٧/ ٤٤ .

(٢) نزهة القلوب للسجستاني ص٢٩٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٦ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٢ ، وزاد المسير ٧/ ٤٤ .

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٤٩٢ بنحوه.

(٦) وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٧ . وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٤٩٤ .

وقيل: المراد جبريلُ وحده، فَذُكِرَ بلفظ الجمع؛ لأنه كبيرُ الملائكة، فلا يخلو من جنود وأتباع.

وقال قتادة: المراد: كلُّ من تلا ذِكْرَ الله تعالى وكُتُبَهُ[١]. وقيل: هي آياتُ القرآن، وَصَفَها بالتلاوة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [النمل: ٧٦]. ويجوز أن يقال لآيات القرآن: تاليات؛ لأن بعضَ الحروف يتبع بعضاً؛ ذكره القشيري.

وذكره الماوردي[٢]: أن المراد بـ «التَّالِيَات» الأنبياءُ يتلون الذِّكر على أُمَمِهم.

فإن قيل: ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفةً في الصفات؟ قيل له: إما أن تدلَّ على ترتُّب معانيها في الوجود، كقوله:

يا لَهْفَ زَيَّابَةَ للحارِث الصـ ... ـصابِح فالغَانِم فالآيِبِ[٣]

كأنه قال: الذي صَبَّحَ فَغَنِمَ فآبَ. وإما على ترتُّبها في التفاوت من بعض الوجوه، كقولك: خُذِ الأفضلَ فالأكمل، واعمَلِ الأحسنَ فالأجمل. وإما على ترتُّب موصوفاتها في ذلك، كقوله: رَحِمَ الله المُحلِّقين فالمقصِّرين. فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساقُ أمرُ الفاء العاطفة في الصفات قاله الزمخشري[٤].

«إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ» جوابُ القسم. قال مقاتل: وذلك أنَّ الكفار بمكة قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] وكيف يَسَعُ هذا الخَلْقَ فردٌ إله[٥]؟! فأقسمَ اللهُ بهؤلاء تشريفاً، ونزلت الآية.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٥، والكشاف ٣/ ٣٣٣.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٣٧.

(٣) البيت لابن زيَّابة التيمي، وهو في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٤٧ وأمالي ابن الشجري ٢/ ٥٠٨، وخزانة الأدب ٥/ ١٠٧. وزيَّابة اسم أمّ الشاعر، فيما قاله البغدادي.

(٤) في الكشاف ٣/ ٣٣٤.

(٥) ذكره بنحوه البغوي في تفسيره ٤/ ٢٢ دون نسبة.

قال ابن الأنباري[١]: وهو وقفٌ حسن، ثم تبتدئ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على معنى: هو ربُّ السماوات.

النحاس[٢]: ويجوز أن يكون «رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأرض» خبراً بعد خبرٍ، ويجوز أن يكون بدلاً من «وَاحِدٌ».

قلت: وعلى هذين الوجهين لا يوقف «لَوَاحِدٌ». وحكى الأخفش[٣]: «رَبَّ السَّماواتِ» و«رَبَّ الْمَشَارِقِ» بالنَّصْب على النعت لاسم «إن»[٤].

بيَّن سبحانه معنى وحدانيَّتِه وأُلوهيَّته وكمالِ قُدرته بأنه «رَبُّ السَّماواتِ والأرض» أي: خالقُهما ومالِكُهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ أي: مالكُ مطالعِ[٥] الشمس. ابن عباس: للشمس كلَّ يوم مشرقٌ ومغرب؛ وذلك أن اللهَ تعالى خلقَ للشمس ثلاثَ مئة وخمسةً وستين كَوَّة في مَطْلِعها، ومثلها في مَغْرِبها على عَدَد أيام السنة الشمسية، تطلُع في كل يوم في كَوَّة منها، وتغيبُ في كَوَّة، لا تطلعُ في تلك الكَوَّة إلا في ذلك اليوم من العام المُقبِل. ولا تطلعُ إلا وهي كارهةٌ فتقول: ربِّ لا تُطلِعني على عبادك، فإني أَراهم يعصونك[٦].

ذكرَ[٧] أبو عمر في كتاب «التمهيد»[٨]، وابنُ الأنباري في كتاب «الرد» عن عكرمة، قال: قلت لابن عباس: أرأيتَ ما جاء عن النبي ﷺ في أُميَّةَ بن أبي الصَّلْت:

---

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٧.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤١٠.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٠.

(٤) وهذا يجوز في اللغة لا في التلاوة.

(٥) في النسخ: مطلع، والمثبت من (م).

(٦) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٦٥٠) و (٦٧٢).

(٧) في (د) و (ز) و (م): ذكره، ولم تجود في (ظ)، والمثبت من (ف).

(٨) ٤/ ٧ - ٨.

«آمنَ شِعرهُ وكَفَرَ قَلْبُه»[١] قال: هو حقٌّ، فما أنكرتُم من ذلك؟ قلت: أنكرنا قوله:

والشمسُ تطلُعُ كلَّ آخِرِ ليلةٍ حمراءَ يُصبِحُ لونُها يتورَّدُ
ليستْ بطالعةٍ لَهم في رِسْلِها إلَّا مُعَذَّبةً وإلَّا تُجلَدُ[٢]

ما بالُ الشمس تُجْلَد؟ فقال: والذي نفسي بيده، ما طلعتْ شمسٌ قطُّ حتى يَنْخُسَها سبعون ألف مَلَك، فيقولون لها: اطلعي اطلعي، فتقول: لا أَطْلُعُ على قوم يعبدونني من دون الله، فيأتيها ملكٌ فيستقل لضياء بني آدم، فيأتيها شيطانٌ يريد أن يصدَّها عن الطُّلوع، فتطلعُ بين قَرْنيه فيحرقه الله تعالى تحتها، فذلك قولُ رسول الله ﷺ: «ما طلعتْ إلا بين قرنَيْ شيطان، ولا غربَتْ إلا بين قَرْني شيطان»[٣] وما غربَتْ قط إلا خَرَّتْ لله ساجدةً، فيأتيها شيطانٌ يريدُ أن يصدَّها عن السجود، فتغربُ بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها[٤]. لفظ ابن الأنباري.

وذَكَر عن عكرمة، عن ابن عباس قال: صدَّق رسولُ الله ﷺ أُميّةَ بن أبي الصَّلْت في هذا الشعر:

رَجُلٌ[٥] وثَوْرٌ تحتَ رِجلِ يَمينِهِ والنَّسر للأُخرى وليثٌ مُرْصَدُ
والشمسُ تَطلُعُ كلَّ آخرِ ليلةٍ حمراءَ يُصبِحُ لونُها يَتَورَّدُ

(١) سلف ٩/ ٣٨٤ بهذا اللفظ، وأخرجه مسلم (٢٢٥٥) من حديث الشَّريد بن سُويد ﷺ أن النبيَّ ﷺ، استنشده من شعر أمية فأنشده.. فقال النبي ﷺ: «فلقد كاد يُسلم في شعره».

(٢) ديوان أمية بن أبي الصلت ص٥٠ - ٥١ وصدر البيت الثاني فيه: تأبى فلا تبدو لنا في رسلها.

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وفي الباب عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا تَحيَّنوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها، فإنها تطلع بين قرني شيطان» أخرجه أحمد (٤٦١٢)، والبخاري (٣٢٧٣)، ومسلم (٨٢٨) : (٢٩٠).

(٤) بعدها في النسخ الخطية: فذلك قول رسول الله ﷺ: «ولا غربت إلا بين قرني شيطان» والمثبت من (م).

(٥) في (م): زحل، وهو كذلك في الإصابة ١/ ٢١١ ، والمثبت من النسخ الخطية، وديوان أمية ص٥٠-٥١ ، وخزانة الأدب ١/ ٢٤٨ .

ليست بطالعةٍ لهم في رِسْلِها إلا مُعذَّبةً وإلا تُجلَدُ

قال عكرمة: فقلت لابن عباس: يا مولاي، أتُجْلَدُ الشمس؟ فقال: إنما اضطره الرَّوِيّ إلى الجلد، لكنها تخافُ العقاب[١].

ودلَّ بذكر المطالع على المغارب؛ فلهذا لم يذكُر المغارب، وهو كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]. وخصَّ المشارقَ بالذِّكر؛ لأن الشُّروق قبل الغروب[٢]. وقال في سورة «الرحمن»: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الآية: ١٧] أراد بالمشرقين أقصى مَطْلِع تطلُع منه الشمسُ في الأيام الطِّوال، وأقصر يوم في الأيام القِصار على ما تقدَّم في «يس»[٣] والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ قال قتادة: خُلقت النجومُ ثلاثاً: رجوماً للشياطين، ونوراً يُهتدَى بها، وزينةَ السماء الدنيا[٤].

وقرأ مسروق والأعمش والنخعي وعاصم وحمزة: «بِزِينةٍ» مخفوض منوَّن «الكواكبِ» خفض على البدل من «زينةٍ» لأنها هي. وقرأ أبو بكر كذلك إلا أنه نصب «الكواكبَ»[٥] بالمصدر الذي هو «زينة». والمعنى: بأنْ زيَّنا الكواكبَ فيها.

ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني؛ كأنه قال: إنَّا زيَّنَّاها «بِزينة» أعني

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٤/ ٨ - ٩ دون قول عكرمة: يا مولاي، أتجلد الشمس.. وقول عكرمة هذا أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٦٥٠).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٧ -٣٨ ، وزاد المسير ٧/ ٤٥ - ٤٦ ، وينظر تفسير الطبري ١٩/ ٤٩٦ .

(٣) ١٥/ ٢٨ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٨ .

(٥) السبعة ص٥٤٦ ، والتيسير ص١٨٦ .

«الكواكِبَ». وقيل: هي بدل من «زينة» على الموضع.

ويجوز «بِزِينَةٍ الكواكبُ»[(١)] بمعنى: بأنَّ زينتَها الكواكبُ. أو بمعنى: هي الكواكب.

الباقون: «بِزِينَةِ الكواكبِ» على الإضافة. والمعنى: زيَّنا السماءَ بتزيين الكواكِبِ؛ أي: بُحسْنِ الكواكب. ويجوز أن يكون كقراءة من نوَّن إلا أنه حذفَ التنوين استخفافاً[(٢)].

﴿وَحِفۡظٗا﴾ مصدر؛ أي: حَفِظناها حِفْظاً ﴿مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ لمَّا أخبر أن الملائكة تنزل بالوحي من السماء، بيَّن أنه حَرَس السماءَ عن استراق السَّمع بعد أن زيَّنها بالكواكب.

والمارد: العاتي من الجنّ والإنس، والعرب تُسمِّيه شيطاناً[(٣)].

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ قال أبو حاتم: أي: لئلا يسمَّعوا، ثم حذفَ [اللام و] «أن» فرفع الفعل[(٤)].

الملأ الأعلى: أهلُ السماء الدنيا فما فوقها، وسمَّى الكلَّ منهم أعلى بالإضافة إلى ملأ الأرض. الضمير في «يَسَّمَّعُون» للشياطين.

وقرأ جمهورُ الناس: «يَسْمَعُونَ» بسكون السين وتخفيف الميم. وقرأ حمزةُ وعاصمٌ في رواية حفص: «لا يَسَّمَّعُونَ» بتشديد السين والميم، من التسميع[(٥)].

فينتفي على القراءة الأُولى سماعُهم وإنْ كانوا يستمعون، وهو المعنى الصحيح، ويعضُده قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢] وينتفي على القراءة

---

(١) حكاها الزهراوي كما في المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٦ .

(٢) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٠ - ٤١١ ، وينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٢١ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١١ .

(٤) ذكره السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٢٩٣ (وما بين حاصرتين منه) ثم قال: وفيه تعسُّف.

(٥) وهي قراءة الكسائي. السبعة ص٥٤٧ ، والتيسير ص١٨٦ .

الأخيرة أن يقعَ منهم استماعٌ أو سَماع.

قال مجاهد: كانوا يتسمَّعون، ولكن لا يسمعون. وروي عن ابن عباس: «لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الملأ» قال: هم يَسَّمَّعون ولا يَسْمَعون[١].

وأصل «يَسَّمَّعُونَ» يتسمَّعون، فأُدغِمَتِ التاءُ في السين لِقُربها منها. واختارها أبو عُبيد؛ لأن العربَ لا تكاد تقول: سمعتُ إليه، وتقول: تسمَّعت إليه[٢].

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي: يُرمَون من كل جانب؛ أي: بالشُّهب. ﴿دُحُورًا﴾ مصدر؛ لأن معنى «يُقْذَفُونَ» يُدْحَرون؛ دحرته دَحْراً ودُحُوراً، أي: طردته.

وقرأ السُّلَمي ويعقوب الحَضْرمي: «دَحُوراً» بفتح الدال[٣]، يكون مصدراً على فَعول. وأما الفرَّاء، فقدَّره[٤] على أنه اسمُ الفاعل. أي: ويُقْذَفون بما يَدْحَرهم، أي: بدحور، ثم حذف الباء؛ والكوفيون يستعملون هذا كثيراً [كما أنشدوا]:

تَـمـرُّون الـديـارَ ولـم تَـعـوجُـوا[٥]

واختُلف هل كان هذا القذف قبل المَبْعث، أو بعده لأجل المَبْعث؛ على قولين. وجاءت الأحاديثُ بذلك على ما يأتي من ذكرها في سورة «الجن»[٦] عن ابن عباس. وقد يُمكن الجمعُ بينهما أن يقال: إنَّ الذين قالوا: لم تكن الشياطين تُرْمَى بالنجوم قبل مَبْعث النبيِّ ﷺ، ثم رُميت؛ أي: لم تكن تُرمَى رمياً يَقْطَعُها عن السَّمع، ولكنها

---

(١) في (خ) و (د) و (ز) و (م): هم لا يسمعون ولا يتسمعون. وفي (ظ): هم لا يتسمعون. والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١١ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٨ ، وتفسير الرازي ٢٦/ ١٢٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٦ .

(٣) وهي غير المشهورة عن يعقوب، وقراءته المشهورة عنه كقراءة الجماعة، وقراءة السلمي في القراءات الشاذة ص١٢٧ .

(٤) في (م): فإنه قدَّره.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٢ ، وما بين حاصرتين منه. والبيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٢٧٨ ، وعجزه: كلامُكُمُ عليَّ إذاً حرامُ. ووقع صدره في الديوان: أتمضون الرسومَ ولا تُحيَّى. وهو برواية المصنف في الخزانة ٩/ ١٢١ .

(٦) في تفسير الآيات (٨ - ١٠).

كانت تُرمَى وقتاً ولا تُرمَى وقتاً، وتُرمى من جانب ولا تُرمَى من جانب. ولعل الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ إلى هذا المعنى، وهو أنهم كانوا لا يُقذَفون إلا من بعض الجوانب، فصاروا يُرمَوْن واصباً. وإنما كانوا من قبلُ كالمُتَجَسِّسة من الإنس، يبلغُ الواحدُ منهم حاجتَه ولا يبلُغها غيرُه، ويَسْلَمُ واحدٌ ولا يَسلَمُ غيره، بل يُقبَضُ عليه ويُعاقب وينكل.

فلما بُعث النبيُّ ﷺ زِيد في حِفظ السماء، وأُعِدَّت لهم شُهُبٌ لم تكن من قبل؛ لِيُدْحَروا عن جميع جوانب السماء، ولا يَقَرُّوا في مقعد من المقاعد التي كانت لهم منها؛ فصاروا لا يقدِرون على سماع شيء مما يجري فيها، إلا أن يَختطِفَ أحدٌ منهم بخفَّة حركته خطفةً، فيتبعه شهابٌ ثاقبٌ قبلَ أن يَنزِلَ إلى الأرض، فَيُلقيها إلى إخوانه فيحرقه؛ فبطلت من ذلك الكَهانة، وحصلت الرسالةُ والنبوَّة.

فإن قيل: إن هذا القذفَ إن كان لأجل النبوَّة فَلِمَ دامَ بعد النبي ﷺ؟ فالجواب: أنه دامَ بدوام النبوَّة، فإن النبي ﷺ أخبر ببطلان الكَهانة فقال: «ليس منَّا من تَكَهَّن»[1] فلو لم تُحرَسْ بعد موته لعادت الجنُّ إلى تسمُّعها؛ وعادت الكهانة. ولا يجوز ذلك بعد أن بطل، ولأنَّ قَطْعَ الحراسة عن السماء إذا وقع لأجل النبوّة فعادت الكهانة دخلت الشُّبهة على ضُعفاء المسلمين، ولم يُؤمَن أن يظنُّوا أنَّ الكهانة إنما عادت لِتناهي النبوّة، فصحَّ أن الحِكمة تقتضي دوامَ الحراسة في حياة النبي عليه الصلاة والسلام، وبعد أن توفَّاه الله إلى كرامته صلى الله عليه وعلى آله.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: دائم؛ عن مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس: شديد. الكلبي والسدّي وأبو صالح: مُوجِع؛ أي: الذي يَصِلُ وجعُه إلى القلب؛ مأخوذٌ من الوَصَب، وهو المرض[2].

---

(١) أخرجه البزار في البحر الزخار (٣٥٧٨) من حديث عمران بن حصين ﷺ بلفظ: «ليس منا تطيَّر أو تُطيِّر له، أو تكَهَّنَ أو تُكُهِّنَ له..» قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ١١٧ : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع، وهو ثقة. وسلف نحوه ٩/ ٣٠٧ .

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٥٠٦ - ٥٠٧ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٩ .

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ استثناء من قوله: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ وقيل: الاستثناء يرجِع إلى غير الوحي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢] فيسترقُ الواحدُ منهم شيئاً مما يَتفاوضُ فيه الملائكة مما سيكون في العالم قبلَ أن يعلمَه أهلُ الأرض؛ وهذا لِخفَّة أجسام الشياطين، فَيُرجَمون بالشُّهب حينئذ.

ورُوي في هذا الباب أحاديثُ صحاح، مضمنها: أن الشياطين كانت تَصعَدُ إلى السماء، فتقعد للسمع واحداً فوق واحد، فيتقدَّم الأجسرُ نحو السماء، ثم الذي يَليه، ثم الذي يَليه، فيقضي اللهُ تعالى الأمرَ من أمر الأرض، فيتحدَّث به أهلُ السماء، فيسمعه منهم الشيطان الأدنى، فَيُلقيه إلى الذي تحته، فربما أحرقَه شهاب وقد ألقى الكلامَ، وربما لم يُحْرِقه، على ما بيَّناه. فتنزل تلك الكلمةُ إلى الكُهَّان، فيكذِبون معها مئةَ كذبة، وتصدق تلك الكلمة، فَيُصدِّق الجاهلون الجميعَ، كما بيَّناه في «الأنعام»[1].

فلما جاء الله بالإسلام حُرِست السماء بشدَّة، فلا يُفلت شيطانٌ سمع بَتَّةً. والكواكبُ الراجمة هي التي يراها الناس تنقضّ. قال النقَّاش ومكِّي: وليست بالكواكب الجارية في السماء؛ لأن تلك لا تُرى حركتها، وهذه الراجمة تُرى حركتها؛ لأنها قريبة منا[2].

وقد مضى في هذا الباب في سورة «الحجر»[3] من البيان ما فيه كفاية. وذكرنا في «سبأ»[4] حديثَ أبي هريرة. وفيه: «والشياطينُ بعضُهم فوق بعض» وقال فيه الترمذي: حديث حسن صحيح. وفيه: عن ابن عباس: «ويختطفُ الشياطينُ السَّمْعَ، فَيُرمَوْن،

---

(١) ٨/ ٤٠٥ ، وذكر المصنف ثمة في هذا المعنى حديث عائشة رضي الله عنها، وهو عند البخاري (٣٢١٠)، وينظر حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند مسلم (٢٢٢٩)، وهذا الكلام وما بعده من المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٦ .

(٢) قال ابن عطية: في هذا نظر.

(٣) ١٢/ ١٨٧ وما بعدها .

(٤) ١٤/ ٢٩٦ .

فَيَقذِفُونه إلى أوليائهم، فما جاءوا به على وَجْهِهِ فهو حقٌّ، ولكنهم يُحرِّفونه ويَزيدون». قال: هذا حديثٌ حسن صحيح[١].

والخَطْف: أخذُ الشيء بسرعة؛ [يقال:] خَطَفَ وخَطِفَ وخَطَّفَ وخِطَّفَ وخِطِّف[٢]. والأصل في المُشدَّدات: اختطف، فأدغم التاء في الطاء لأنها أُختها، وفتحت الخاء؛ لأن حركةَ التاء أُلقيت عليها. ومَن كَسَرها فلالتقاء الساكنين. ومَن كَسَرَ الطاء أتبع الكسر الكسر[٣].

﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي: مُضيء؛ قاله الضحاك والحسن وغيرهما[٤]. وقيل: المراد كواكبُ النار تَتْبعهم حتى تُسقطهم في البحر. وقال ابن عباس في الشهب: تُحرقهم من غير موت[٥]. وليست الشُّهُب التي يرجم[٦] بها من الكواكب الثوابت. يدلُّ على ذلك رؤيةُ حركاتها، والثابتة تجري ولا تُرى حركاتُها لِبُعْدها. وقد مضى هذا.

وجمعُ شِهاب شُهُب، والقياسُ في القليل أَشْهِبة وإن لم يُسمَع من العرب[٧]. و«ثَاقِبٌ» معناه: مُضِيء؛ قاله الحسن ومجاهد وأبو مِجْلَز. ومنه قوله: وَزَنْدُكَ أَثْقَبُ أزنادِها[٨]. أي: أضوأ. وحكى الأخفش في الجمع: شُهُبٌ ثُقُبٌ، وثواقب وثقاب. وحكى الكسائي: ثَقَبتِ النارُ تَثقُبُ ثَقابةً وثقوبا، إذا اتَّقدت، وأثقبتُها أنا[٩]. وقال زيد ابن أسلم في الثاقب: إنه المستوقد؛ من قولهم: أَثْقِب زَنْدَك، أي: استوقد نارَك؛

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٢٤).

(٢) وهذه قراء الحسن وقتادة وعيسى كما في القراءات الشاذة ص١٢٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٩ عن الضحاك.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٠٨ .

(٦) بعدها في (م): الناس.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٣ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٣ ، والزَّند: خشبة يُستَقْدَح بها. اللسان (زند).

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٣ ، وينظر اللسان (ثقب).

قاله الأخفش. وأنشد قول الشاعر:

بينما المرءُ شِهابٌ ثاقبٌ ضربَ الدهرُ سَناهُ فَخَمدْ[(١)]

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ⑪ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ⑫ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ⑬ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ⑭ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ⑮ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ⑯ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ⑰﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ أي: سَلْهم، يعني أهلَ مكة؛ مأخوذٌ من استفتاء المُفتي. ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ﴾ قال مجاهد: أي: مَن خَلَقنا مِن السماوات والأرض والجبال والبحار. وقيل: يدخل فيه الملائكة ومَن سلف من الأُمم الماضية. يدلّ على ذلك أنه أخبر عنهم بـ«مَنْ» قال سعيد بن جُبير: الملائكة. وقال غيره: من الأُمم الماضية، وقد هلكوا، وهم أشدُّ خَلْقاً منهم[(٢)].

نزلت في أبي الأشدّ بن كَلَدَة، وسُمِّي بأبي الأشدّ لِشِدَّة بَطْشه وقوَّته[(٣)]. وسيأتي في «البلد»[(٤)] ذِكْره. ونظيرُ هذه: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ﴾[(٥)] [النازعات: ٢٧].

﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ أي: لاصق؛ قاله ابن عباس. ومنه قول عليّ ﷺ:

تَعَلَّمْ فَإنّ اللهَ زادكَ بَسطةً وأخلاقَ خيرٍ كلُّها لكَ لازِبُ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٩، وقول زيد بن أسلم أخرجه الطبري ١٩/ ٥٠٩، والبيت لعبد الله بن عبد الأعلى الشيباني، ذكره الجاحظ في «البرصان» ص١٢٢.

(٢) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٤٠، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٠.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٣٧، وأبو الأشدّ الجمحي قُتل كافراً، وذكر السهيلي في الروض الأنف ٢/ ٦٥ أنه قال للنبي ﷺ: إن صرعتَني آمنت بك، فصرعه رسول الله ﷺ مراراً فلم يؤمن.

(٤) في تفسير الآيات (٥ - ٩).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٣.

وقال قتادة وابن زيد: معنى «لَازِبٍ» لازق. الماوردي[١]: والفرقُ بين اللّاصق واللّازق: أن اللَّاصق: هو الذي قد لَصِقَ بعضُه ببعض، واللَّازق: هو الذي يلتزق بما أصابه.

وقال عِكرمة: «لَازِبٍ» لزج[٢]. سعيد بن جُبير: أي: جيد حرٌّ يَلْصَق باليد. مجاهد: «لَازِب» لاتم[٣]. والعرب تقول: طينٌ لازِبٌ ولازِمٌ، تبدل الباء من الميم. ومثله قولهم: لاتب و لاتم[٤]. على إبدال الباء بالميم. واللازب الثابت؛ تقول: صار الشيء ضَرْبَةَ لازب، وهو أفصحُ من لازم. قال النابغة:

ولا يَحْسِبُونَ الخيرَ لا شَرَّ بعدَهُ ... ولا يَحْسِبُونَ الشرَّ ضربةَ لَازِبِ[٥]

وحكى الفرّاء عن العرب: طين لاتب بمعنى لازِم[٦]. واللاتِب الثابت؛ تقول منه: لَتَب يَلْتُب لَتْباً ولُتُوباً، مثل: لَزَب يَلْزُب ـ بالضم ـ لُزوباً؛ وأنشد أبو الجرَّاح في اللَّاتب:

فإن يَكُ هذا من نَبيذٍ شربْتُهُ ... فإنِّيَ من شُربِ النَّبيذِ لَتائِبُ

صُداعٌ وَتَوْصيمُ العِظامِ وفَتْرَةٌ ... وغَمٌّ مع الإشْرَاقِ في الْجَوفِ لَاتِبُ

واللَّاتب أيضاً: اللَّاصق: مثل: اللَّازب، عن الأصمعي، حكاه الجوهري[٧].

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٤٠ ، وما قبله منه، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٣ .

(٢) أحرجه الطبري ١٩/ ٥١٢ .

(٣) تفسير مجاهد ٢/ ٥٤٠ ، وأخرجه الطبري ١٩/ ٥١٣ .

(٤) في (خ) و (ز) و (ف): لاثب ولاثم، وفي (د): لاثب و لازم، وفي (م): لاتب ولازم، والمثبت من (ظ). واللَّتْب واللَّتْم: الطعن في النحر. اللسان (لتم).

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٥١١ ، والصحاح (لزب) والبيت في ديوان النابغة ص١٣ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٤ ، ونسب هذه اللغة لقيس، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٣ .

(٧) في الصحاح (لتب) و (لزب) والبيتان فيه، والبيت الثاني في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٤ ، وتفسير الطبري ١٩/ ٥١١ ، وفيهما: وغثيٌ، بدل: وغمٌّ.

وقال السدي والكلبي في اللازب: إنه الخالص. مجاهد والضحَّاك: إنه المُنتن[١].

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ قراءةُ أهل المدينة وأبي عمر وعاصم بفتح التاء خِطاباً للنبي ﷺ[٢]؛ أي: بل عجبتَ مما نزل عليك من القرآن وهم يَسخرون به. وهي قراءة شُرَيح و[أنكر قراءة الضم وقال:] إن الله لا يعجب من شيء، وإنما يعجب من لا يعلم. وقيل: المعنى بل عجبت من إنكارها للبعث[٣].

وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بضم التاء[٤].

واختارها أبو عُبيد والفرّاء، وهي مرويَّة عن عليٍّ وابن مسعود؛ رواها شعبة عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ: «بَلْ عَجِبْتُ» بضم التاء. وتُروَى عن ابن عباس[٥].

قال الفرَّاء[٦] في قوله سبحانه: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ قرأها الناس بنصب التاء ورفعها، والرفعُ أحبُّ إليَّ؛ لأنها عن علي وعبد الله وابن عباس. وقال أبو زكريا الفراء: العجبُ إن أُسْنِد إلى الله عز وجل فليس معناه من الله كمعناه من العباد؛ وكذلك قوله ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٥] ليس ذلك من الله كمعناه من العباد. وفي هذا بيان الكسر لقول شُرَيْح حيث أنكر القراءة بها.

روى جرير عن الأعمش[٧] عن أبي وائل شَقِيق بن سَلَمة قال: قرأها عبد الله يعني ابن مسعود: «بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ» قال شُريح: إنَّ الله لا يعجبُ من شيء، إنما يعجبُ مَن لا يعلم. قال الأعمش: فذكرته لإبراهيم فقال: إنَّ شُريحاً كان يُعجبه

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٤.

(٢) السبعة ص٥٤٧، والتيسير ص١٨٦، والنشر ٢/ ٣٥٦.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٥، وما بين حاصرتين منه. وقال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٣٠٠: وإنكارها هذا غلط؛ لأن القراءة والرواية كثيرة، والعجبُ من الله عز وجل خِلافُه من الآدميِّين.

(٤) السبعة ص٥٤٧، والتيسير ص١٨٦، والنشر ٢/ ٣٥٦.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٣.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٤.

(٧) في (م): والأعمش. وجرير: هو ابن عبد الحميد الضبي.

رأيه، إن عبد الله كان أعلمَ من شُرَيح، وكان يقرؤها عبد الله: «بَلْ عَجِبْتُ»[١].

قال الهرويّ: وقال بعضُ الأئمة: معنى قوله: «بَلْ عَجِبْتُ»: بل جازيتهم على عجبهم[٢]؛ لأن الله تعالى أخبر عنهم في غير موضع بالتعجب من الحقّ؛ فقال: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ص: ٤]، وقالوا[٣]: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس: ٢] فقال تعالى: «بَلْ عَجِبْتُ» بل جازيتهم على التعجُّب.

قلت: وهذا تمامُ قول الفرّاء، واختاره البيهقي[٤].

وقال علي بن سليمان: معنى القراءتين واحد، والتقدير: قُلْ يا محمد: بل عجبت؛ لأن النبيَّ ﷺ مُخاطب بالقرآن. النحاس[٥]: وهذا قول حسن، وإضمارُ القول كثير.

البيهقي[٦]: والأول أصحّ.

المهدوي: ويجوز أن يكون إخبارُ اللهِ عن نفسه بالعجب محمولاً على أنه أظهر من أمره وسخطه على من كَفَر به ما يقوم مقامَ العجب من المخلوقين؛ كما يُحْمَل إخباره تعالى عن نفسه بالضَّحِك لمن يرضى عنه ـ على ما جاء في الخبر عن النبي ﷺ[٧] ـ على أنه أَظْهرَ له من رضاه عنه ما يقوم له مقام الضحك من المخلوقين مجازاً واتّساعاً.

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٩٩١).

(٢) نسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٥٠ لابن الأنباري.

(٣) في (م): وقال.

(٤) في الأسماء والصفات ٢/ ٤١٦.

(٥) في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٣، وما قبله منه.

(٦) في الأسماء والصفات ٢/ ٤١٦.

(٧) مثل حديث: «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد» أخرجه البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال الهرويّ: ويقال: معنى «عَجِبَ رَبُّكُم»: أي: رضي وأثاب؛ فسمَّاه عجباً، وليس بعجب في الحقيقة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] معناه: ويُجازيهم الله على مَكْرهم، ومثلُه في الحديث: «عَجبَ رَبُّكُمْ مِنْ إِلِّكُمْ وقُنوطكم»[١]. وقد يكون العجبُ بمعنى وقوع ذلك العمل عند الله عظيماً. فيكون معنى قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ أي: بل عَظُم فِعْلُهم عندي.

قال البيهقي[٢]: ويُشبه أن يكون هذا معنى حديثِ عُقبة بن عامر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «عَجِبَ ربُّك من شاب ليست له صَبْوة»[٣] وكذلك ما خرَّجه البخاري عن [أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «عَجِبَ اللهُ من قومٍ يدخلون الجنة في السلاسل»[٤]].

قال البيهقي: وقد يكون هذا الحديثُ وما ورد من أمثاله أنه يعجبُ ملائكته من كرمه ورأفته بعباده[٥]، حين حَمَلَهم على الإيمان به بالقتال والأَسْر في السلاسل، حتى إذا آمنوا أَدْخلهم الجنة.

وقيل: معنى «بَلْ عَجِبْتُ»: بل أنكرتُ. حكاه النقَّاش.

وقال الحسين بن الفَضْل: التعجبُ من الله إنكارُ الشيء وتعظيمه، وهو لغةُ العرب. وقد جاء في الخبر: «عَجِبَ ربُكم من إِلّكم وقُنوطكم».

﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ قيل: الواو واو الحال؛ أي: عَجِبتُ منهم في حال سُخريتهم.

---

(١) أورده أبو عبيد في غريب الحديث ٢/ ٢٦٩. وقال: فإن كان المحفوظ قوله: «من إلّكم» بكسر الألف، فإني أحسبها: من أَلِّكم، بالفتح، وهو أشبه بالمصادر. وهو أن يرفع الرجل صوته بالدعاء، ويجأر فيه.

(٢) في الأسماء والصفات ٢/ ٤١٧ -٤١٨.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٣٧١).

(٤) من قوله: وكذلك.. إلى هنا، ليس في (خ) و (د) و (ز) و (ظ)، ووقع في (ف): وكذلك ما خرجه البخاري عن، وبعده بياض إلى هنا، وما بين حاصرتين من صحيح البخاري (٣٠١٠)، وأخرجه أحمد (٩٢٧١).

(٥) الصواب إثبات صفة العَجَب لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته.

وقيل: تمَّ الكلام عند قوله: «بَلْ عَجِبْتَ» ثم استأنف فقال: «وَيَسْخَرُونَ» أي: مما جئتَ به إذا تلوتَه عليهم. وقيل: يَسخرون منك إذا دعوتَهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ أي: وُعظوا بالقرآن في قول قتادة ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ لاينتفعون به. وقال سعيد بن جُبير: أي: إذا ذُكر لهم ما حلَّ بالمُكَذِّبين من قبلهم أعرضوا عنه ولم يتدبَّروا[١].

﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً﴾ أي: معجزة ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي: يسخرون في قول قتادة. ويقولون: إنها سحر. واستسخر وسَخِرَ بمعنىً، مثل: استقر وقرَّ، واستعجب وعَجِبَ[٢].

وقيل: «يَسْتَسْخِرُونَ» أي: يستدعون السُّخْري من غيرهم[٣]. وقال مجاهد: يستهزئون[٤]. وقيل: أي: يظنُّون أن تلك الآية سُخرية.

﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: إذا عَجَزوا عن مقابلة المُعجزات بشيء قالوا: هذا سحرٌ وتَخييل وخِداع.

﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ أي: أَنُبعثُ إذا مِتنا؟. فهو استفهامُ إنكار منهم وسُخرية. ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ أي: أَوَ تُبعثُ آباؤنا. دخلت ألفُ الاستفهام على حرف العطف. وقرأ نافع: «أَوْ آبَاؤُنَا» بسكون الواو[٥]. وقد مضى هذا في سورة «الأعراف» في قوله تعالى: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ [الآية: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ۝١٨ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٢٠ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ أي: تُبعثون. ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: صاغرون أذلَّاء[٦]؛

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤١ بنحوه، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٥ .

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٣٧٠ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٤ .

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٥ - ٥١٦ .

(٥) قرأ بها نافع في رواية قالون، وابن عامر. السبعة ص٢٨٧ ، والتيسير ص١٨٦ .

(٦) زاد المسير ٧/ ٥٢ .

لأنهم إذا رأَوا وقوعَ ما أنكروه فلا محالةَ يَذِلُّون. وقيل: أي: ستقوم القيامةُ وإنْ كَرِهتم، فهو أمرٌ واقع على رغمكم وإنْ أنكرتموه اليومَ بزعمكم.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ أي: صيحةٌ واحدةٌ؛ قاله الحسن. وهي النفخة الثانية. وسُمِّيت الصيحةُ زجرةً؛ لأن مقصودَها الزجر[1]؛ أي: يُزْجَر بها كزجر الإبل والخيل عند السَّوق.

﴿فَإِذَا هُمۡ﴾ قِيَامٌ ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي: ينظر بعضهم إلى بعض. وقيل: المعنى: ينتظرون ما يفعل بهم. وقيل: هي مثل قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنبياء:٩٧]. وقيل: أي: ينظرون إلى البعث الذي أنكروه[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ نادَوْا على أنفسهم بالويل؛ لأنهم يومئذ يعلمون ما حلَّ بهم. وهو منصوبٌ على أنه مصدر عند البصريين. وزعم الفرّاء أن تقديره: يا وَيْ لَنَا، ووَيْ بمعنى حُزْن. النحاس[3]: ولو كان كما قال لكان منفصلاً، وهو في المصحف مُتَّصل، ولا نعلم أحداً يكتبه إلا مُتَّصلاً.

و«يَوْمُ الدِّينِ» يوم الحساب. وقيل: يوم الجزاء[4].

﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ قيل: هو من قول بعضهم لبعض؛ أي: هذا اليوم الذي كذَّبنا به. وقيل: هو من قول الله تعالى لهم[5]. وقيل: من قول الملائكة؛ أي: هذا يومُ الحكم بين الناس، فيبين المُحِقَ من المُبطل. فـ ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾[6] [الشورى:٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٦٨ بنحوه.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤١٤ ، وما قبله منه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٢ .

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٥١٨ .

(٦) تفسير الرازي ٢٦/ ١٣٠ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ هو مِن قول الله تعالى للملائكة: «احْشُرُوا» المشركين «وَأَزْوَاجَهُمْ» أي: أشياعَهم في الشِّرك، والشِّرك الظُّلم؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] فيُحشَر الكافر مع الكافر؛ قاله قتادة وأبو العالية.

وقال عمر بن الخطاب في قول الله عز وجل: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: الزاني مع الزاني، وشاربُ الخمر مع شاربِ الخمر، وصاحبُ السرقة مع صاحبِ السرقة. وقال ابن عباس: «وأَزْوَاجَهُمْ» أي: أشباهَهم. وهذا يَرجِعُ إلى قول عمر.

وقيل: «وَأَزْوَاجَهُمْ» نساءهم المُوافِقات عل الكُفر؛ قاله مجاهد والحسن، ورواه النعمان بن بَشير عن عمر بن الخطاب.

وقال الضحاك: «وَأَزْوَاجَهُمْ» قُرَناءهم من الشياطين. وهذا قولُ مقاتل أيضاً: يُحشَر كلُّ كافر مع شيطانه في سلسلة[1].

﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُون مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي: من الأصنام والشياطين وإبليس[2]. ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي: سُوقوهم إلى النار. وقيل: «فَاهْدُوهُمْ» أي: دُلُّوهم.

---

(١) الأقوال السالفة في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٥، والنكت والعيون ٥/ ٤٣، وزاد المسير ٧/ ٥٢. وقول ابن عباس وعمر رضي الله عنهم أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٩ - ٥٢٠.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٣.

يقال: هَدَيْتُه إلى الطريق، وهَدَيْتُه الطريق؛ أي: دَلَلْته عليه. وأهديتُ الهديَّةَ، وهَديتُ العروسَ، ويقال: أهديتها؛ أي: جعلتها بمنزلة الهديَّة[١].

قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ وحكى عيسى بن عمر: «أَنَّهُمْ» بفتح الهمزة. قال الكسائي: أي: لأنهم، وبأنهم[٢]، يقال: وَقفتُ الدابَّةَ أَقِفُها وَقْفاً فوقفتْ هي وقوفاً، يتعدَّى ولا يتعدَّى[٣]؛ أي: احبِسوهم. وهذا يكون قبلَ السَّوق إلى الجحيم؛ وفيه تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: قِفُوهم للحساب، ثم سُوقوهم إلى النار. وقيل: يُساقون إلى النار أولاً، ثم يُحشَرون للسؤال إذا قَرُبوا من النار.

«إِنَّهُمْ مسؤولون» عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم؛ قاله القُرَظي والكلبي. الضحاك: عن خطاياهم. ابن عباس: عن لا إله إلا الله[٤]. وعنه أيضاً: عن ظُلم الخَلْق.

وفي هذا كلِّه دليلٌ على أن الكافر يُحاسَب. وقد مضَى في «الحجر» الكلام فيه[٥].

وقيل: سؤالهم: أن يقال لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] إقامة للحجة. ويقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ على جهة التقريع والتوبيخ؛ أي: ينصُر بعضُكم بعضاً، فيمنعه من عذاب الله[٦].

وقيل: هو إشارةٌ إلى قول أبي جهل يومَ بدر: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾[٧] [القمر: ٤٤]. وأصلُه: تتناصرون، فطُرحت إحدى التاءين تخفيفاً. وشدَّد البَزِّي التاء في الوصل[٨].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٦، وقراءة عيسى بن عمر في القراءات الشاذة ص ١٢٧.

(٣) الصحاح (وقف).

(٤) هذه الأقوال في زاد المسير ٧/ ٥٣.

(٥) ١٢/ ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٤ بنحوه.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٩، وزاد المسير ٧/ ٥٣.

(٨) التيسير ص ٨٣.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ قال قتادة: مستسلمون في عذاب الله عز وجل[١]. ابن عباس: خاضعون ذليلون. الحسن: مُنقادون. الأخفش: مُلقون بأيديهم. والمعنى مُتقارب.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني: الرؤساء والأتباع ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يتخاصمون[٢].

ويقال: لا يتساءلون، فسقطت لا. النحاس[٣]: وإنما غلِطَ الجاهل باللغة، فتوهَّم أنَّ هذا من قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١]، إنما هو: لا يتساءلون بالأرحام، فيقول أحدُهم: أسألك بالرَّحِم الذي بيني وبينك لما نفعتني، أو أسقطتَ لي حقّاً لك عليَّ، أو وهبتَ لي حسنة. وهذا بيِّن؛ لأن قبلَه ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾. أي: ليس ينتفعون بالأنساب التي بينهم؛ كما جاء في الحديث «إنَّ الرجلَ لَيُسَرُّ بأن يصحَّ له على أبيه أو على ابنه حقٌّ فيأخذَه منه، لأنها الحسناتُ والسيئات»[٤]، وفي حديث آخر: «رَحِمَ اللهُ امرءا كان لأخيه عنده مَظْلِمةٌ من مال أو عِرْض، فأتاه فاستحلَّه قبل أن يُطالبَه به، فيأخذَ من حسناته، فإنْ لم تكن له حسناتٌ زِيد عليه من سيئات المُطالِب»[٥].

و«يَتَسَاءَلُونَ» هاهنا إنما هو أن يسألَ بعضُهم بعضاً ويُوبِّخه في أنه أضلَّه أو فتح له باباً من المعصية؛ يُبيِّن ذلك أن بعده ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾[٦].

قال مجاهد: هو قولُ الكفار للشياطين. قتادة: هو قولُ الإنس للجن. وقيل: هو من قول الأتباع للمتبوعين[٧]؛ دليلُه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٢٤ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤١٦ - ٤١٧ .

(٤) لم نقف عليه.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٤١٩) بنحوه من حديث أبي هريرة ﷺ. وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٧ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٦٩ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٥٢٤ .

رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ الآية [سبأ: ٣١].

قال سعيد عن قتادة: أي: تأتوننا عن طريق الخير وتصدُّوننا عنها. وعن ابن عباس نحو منه. وقيل: تأتوننا عن اليمين التي نُحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك من جهة النُّصح. والعربُ تتفاءل بما جاء عن اليمين وتُسمِّيه السانح. وقيل: «تَأْتُونَنَا عن اليمينِ» تأتوننا مجيء من إذا حلفَ لنا صدَّقناه[١]. وقيل: تأتوننا من قِبل الدِّين فتهوِّنون علينا أمرَ الشريعة وتُنفِّرونا عنها[٢].

قلت: وهذا القولُ حسنٌ جدّاً؛ لأن من جهة الدِّين يكون الخير والشرّ، واليمين بمعنى الدِّين؛ أي: كنتم تزيِّنون لنا الضَّلالة.

وقيل: اليمين بمعنى القوَّة؛ أي: تمنعوننا بقوّة وغلبة وقهر؛ قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: بالقوّة وقوّة الرجل في يمينه؛ وقال الشاعر:

إذا مَا رَايةٌ رُفِعتْ لمجدٍ تَلقّاها عَرابَةُ باليمينِ[٣]

أي: بالقوَّة والقُدرة. وهذا قولُ ابن عباس. وقال مجاهد: «تَأْتُونَنَا عَنِ اليمِينِ» أي: من قِبَل الحقّ أنه معكم[٤]؛ وكلُّه مُتقارب المعنى.

﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ قال قتادة: هذا قولُ الشياطين لهم[٥]. وقيل: من قول الرؤساء؛ أي: لم تكونوا مؤمنين قطُّ حتى ننقلكم منه إلى الكفر، بل كنتم على الكفر فأقمتُم عليه لِلإلف والعادة ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ أي: من حُجة في ترك الحق. ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي: ضالِّين مُتجاوزين الحدّ.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ هو أيضاً من قول المتبوعين؛ أي: وجب علينا وعليكم قولُ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٧.

(٢) زاد المسير ٧/ ٥٤ بنحوه.

(٣) قائله الشماخ بن ضرار، وهو في ديوانه ص ٣٣٦.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٥ - ٤٦.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٧.

ربِّنا، فكلنا ذائقو العذاب، كما كتب اللهُ وأخبرَ على ألسنة الرُّسل ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[١] [هود: ١١٩]. وهذا موافق للحديث: «إنَّ اللهَ جلّ وعزّ كتب للنار أهلاً وللجنة أهلاً، لا يُزادُ فيهم ولا ينقصُ منهم»[٢].

﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ أي: زيَّنا لكم ما كنتم عليه من الكفر ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ بالوسوسة والاستدعاء. ثم قال خبراً عنهم: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ الضالّ والمُضِلّ. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾ أي: مثل هذا الفعل ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي: المشركين.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: إذا قيل لهم: قولوا، فأضمرَ القولَ.

و«يَسْتَكْبرُونَ» في موضع نصب على خبر كان. ويجوز أن يكون في موضع رفع على أنه خبر إنّ، وكان مُلغاة[٣]. ولما قال النبي ﷺ لأبي طالب عند موته واجتماع قريش «قولوا: لا إله إلا الله، تَملِكوا بها العربَ، وتَدين لكم بها العَجَم»[٤] أبَوْا وأَنِفُوا من ذلك. وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «أنزل اللهُ تعالى في كتابه فذكَر قوماً استكبروا فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦] وهي: لا إلهَ إلا اللهُ محمدٌ رسولُ الله» استكبر عنها المشركون يومَ الحُدَيْبِيَة يومَ كاتَبهم رسولُ الله ﷺ

(١) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٣٦، وزاد المسير ٧/ ٥٤ - ٥٥.

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج نحوه أحمد (٦٥٦٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وإسناده ضعيف، وفي هذا المعنى عدة أحاديث ثابتة سلفت الإشارة إليها ٩/ ٣٧٦، منها حديث علي ﷺ، ولفظه: «ما منكم من أحدٍ، ما من نفس منفوسة إلا كُتِبَ مكانُها من الجنة والنار..» أخرجه أحمد (٦٢١)، والبخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٨.

(٤) أخرجه أحمد (٢٠٠٨)، والترمذي (٣٢٣٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه.

على قضية المُدَّة؛ ذكر هذا الخبرَ البيهقيُّ[١]، والذي قبله القشيري.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٧ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ۝٣٨ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ أي: لِقول شاعرٍ مجنون؛ فردَّ الله جل وعز عليهم فقال: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني القرآن والتوحيد ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فيما جاؤوا به من التوحيد.

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ الأصلُ: لذائقون، فَحُذِفَت النون استخفافاً وخُفضت للإضافة. ويجوز النصبُ كما أنشد سيبويه[٢]:

فَـأَلْـفَـيْـتُـهُ غـيـرَ مُـسْـتَـعْـتِـبٍ وَلَا ذَاكِــرِ الـلـهَ إِلَّا قَــلِــيــلاً[٣]

وأجاز سيبويه «وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةَ» [الحج: ٣٥][٤] على هذا.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إلا بما عَمِلتم من الشِّرك ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء ممن يذوق العذاب. وقراءة أهل المدينة والكوفة: «الْمُخْلَصِينَ» بفتح اللام[٥]، يعني الذين أخلصهم اللهُ لطاعته ودينه وولايته. الباقون بكسر اللام؛ أي: الذين أخلصوا لله العبادة. وقيل: هو استثناءٌ منقطع؛ أي: إنكم أيها المجرمون ذائقو العذاب، لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب[٦].

---

(١) في الأسماء والصفات (١٩٦)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (٢١٨).

(٢) في الكتاب ١/١٦٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/٤١٨.

(٣) قائله أبو الأسود الدؤلي، وسلف ٢/١٥.

(٤) قرأ بها ابن أبي إسحاق، كما ذكرناه ١٤/٣٩٣.

(٥) السبعة ص ٣٤٨، والتيسير ص ١٢٨.

(٦) تفسير الرازي ٢٦/١٣٦ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ۝ فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ۝ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ۝ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ۝ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ۝ كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾ يعني المخلَصين؛ أي: لهم عطيةٌ معلومةٌ لاتنقطع. قال قتادة: يعني الجنة. وقال غيره: يعني رزق الجنة. وقيل: هي الفواكهُ التي ذَكَر. قال مقاتل: حين يَشتهونه. وقال ابن السائب: إنه بمقدار الغَداة والعَشِيّ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم: ٦٢].

﴿فَوَٰكِهُ﴾ جمع فاكهة؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ﴾ [الطور: ٢٢] وهي الثِّمار كلُّها رَطْبها ويابسها؛ قاله ابن عباس[(١)].

﴿وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾ أي: ولهم إكرامٌ من الله جل وعز برفع الدرجات وسماع كلامه ولقائه .﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: في بساتين يتنعَّمون فيها. وقد تقدَّم أن الجِنان سبعٌ في سورة «يونس» منها النعيم[(٢)].

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ قال عكرمة ومجاهد: لا ينظر بعضُهم في قَفا بعض[(٣)]، تواصلاً وتحاباً. وقيل: الأَسِرَّة تدور كيف شاؤوا، فلا يرى أحدٌ قفا أحد. وقال ابن عباس: على سُرر مُكلَّلة بالدُّرّ والياقوت والزَّبرجد؛ السرير ما بين صنعاء إلى الجابية، وما بين عَدَن إلى أيلة[(٤)]. وقيل: تدور بأهل المنزل الواحد. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ﴾ لمَّا ذكَر مطاعِمَهم ذَكَر شرابَهم.

---

(١) زاد المسير ٧/ ٥٥ - ٥٦ .

(٢) ١٠/ ٤٨١ .

(٣) قول مجاهد أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٣/ ١٣٨ ، وقول عكرمة أورده النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٩ .

(٤) لم نقف عليه. وأيلة: جبل بين مكة والمدينة قرب ينبع.

والكأسُ عند أهل اللغة اسمٌ شامل لكلِّ إناء مع شرابه؛ فإنْ كان فارغاً فليس بكأس[١]. قال الضحاك والسدي: كلُّ كأس في القرآن فهي الخمر، والعربُ تقول للإناء إذا كان فيه خمرٌ: كأس، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا: إناء وقدح[٢].

النحاس[٣]: وحكَى من يُوثق به من أهل اللغة أن العرب تقول لِلقَدَح إذا كان فيه خمر: كأس؛ فإذا لم يكن فيه خمرٌ فهو قَدَح؛ كما يقال للخُوَان إذا كان عليه طعام: مائدة، فإذا لم يكن عليه طعام لم تقل له: مائدة. قال أبو الحسن بن كيسان: ومنه: ظَعينة، للهودج إذا كان فيه المرأة.

وقال الزجاج[٤]: «بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ» أي: من خمر تجري كما تجرى العيون على وجه الأرض. والمعين: الماء الجاري الظاهر[٥].

﴿بَيْضَآءَ﴾ صفةٌ للكأس. وقيل: للخمر. ﴿لَذَّةٍ لِلشَّرِبِينَ﴾ قال الحسن: خمرُ الجنة أشدُّ بياضاً من اللبن[٦]. «لَذَّةٍ»، قال الزجاج[٧]: أي: ذات لذَّة، فحذف المضاف. وقيل: هو مصدر جعل اسما، أي: بيضاء لذيذة؛ يقال: شرابٌ لذٌّ ولذيذ، مثل: نباتٌ غَضٌّ وغَضِيض. فأما قولُ القائل:

ولـذٍّ كـطَـعْـمِ الـصَّـرْخَـدِيِّ تـركـتُـهُ ... بـأرض الـعِدَا مِنْ خَشيـةِ الـحَدَثَانِ[٨]

---

(١) زاد المسير ٧/ ٥٦، وينظر تهذيب اللغة ١٠/ ٣١٤.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٥٣١.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤١٩.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٠٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٩.

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ١٦.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٧٢، وزاد المسير ٧/ ٥٦.

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٣٠٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٩.

(٨) البيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص١٨٦، وروايته:

ولـذٍّ كـطـعـم الـصـرخـدي طـرحـتُـه ... عشية خمس القوم والعين عاشقه

والبيت ذكره مثل رواية المصنف الأزهريُّ في تهذيب اللغة ١٤/ ٤٠٩، والزمخشري في الكشاف =

فإنه يريد النوم. وقيل: «بَيْضَاءَ» أي: لم يعتصرها الرجال بأقدامهم. ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: لا تغتال عقولهم، ولا يُصيبهم منها مرضٌ ولا صُداع[١].

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ أي: لا تذهبُ عقولُهم بشربها[٢]؛ يقال: الخمرُ غَوْل للحِلْم، والحربُ غولٌ للنفوس؛ أي: تذهبُ بها. ويقال: نُزِف الرجلُ يُنْزَف، فهو منزوفٌ ونَزِيفٌ، إذا سَكِرَ. قال امرؤ القيس:

وإذ هي تمشِي كمشي النَّزيـ ـفِ يَصْرَعُه بالكثيب البُهُرْ[٣]

وقال أيضاً:

نَزِيفٌ إذا قامتْ لِوجهٍ تمايلَتْ تُراشِي الفؤادَ الرَّخْصَ ألَّا تَختَّرا[٤]

وقال آخر:

فلثمتُ فاها آخِذاً بِقُرونها شُرْبَ النَّزيفِ ببرد ماءِ الحَشْرجِ[٥]

وقرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي[٦]؛ من أنزف القومُ، إذا حان منهم النَّزْف، وهو السُّكر. يقال: أحصدَ الزَّرعُ، إذا حان حَصادُه، وأَقطفَ الكرمُ، إذا حان قِطافُه، وأَركبَ المهرُ، إذا حان رُكوبه. وقيل: المعنى: لا يُنفِدون شرابَهم؛ لأنه دأبهم؛ يقال: أَنزف الرجل، فهو منزوف، إذا فَنِيتْ خمرُه. قال الحُطيئة:

= ٣/ ٣٤٠ . وصرخد: موضع ينسب إليه الشراب. اللسان (صرخد). قال الأزهري: أراد: أنه لما دخل ديار أعدائه لم ينم حذاراً لهم.

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧ ، وزاد المسير ٧/ ٥٦.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ديوان امرئ القيس ص ١٥٦ . قال شارحه: البهر: من الانبهار، وهو انقطاع النَّفَس.

(٤) ديوان امرئ القيس ص٦١. الرخص: الناعم. القاموس (رخص). قال شارح الديوان: أي: تداري فؤادها لتشتدّ عند المشي ولا تفتر.

(٥) البيت في الأغاني ١/ ١٩١ ضمن أبيات لعمر بن أبي ربيعة. وهو في اللسان (حشرج) وفيه: قال ابن بري: البيت لجميل بن معمر وليس لعمر بن أبي ربيعة. والنزيف: المحموم الذي مُنع من الماء. والحشرج: النُّقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو.

(٦) السبعة ص ٥٤٧ والتيسير ص ١٨٦ .

لَعَمْرِي لئن أنْزفْتُم أو صَحَوْتُم لَبئس النَّدامَى كنتمُ آلَ أبْجَرا[١]

النحاس[٢]: والقراءةُ الأولى[٣] أبينُ وأصحُّ في المعنى؛ لأن معنى «يُنْزَفُونَ» عند جِلَّة أهل التفسير ـ منهم مجاهد[٤] ـ: لا تذهب عقولهم؛ فنفى الله عز وجل عن خمر الجنة الآفاتِ التي تلحق في الدنيا من خمرها، من الصُّداع والسُّكر. ومعنى «يُنْزِفُونَ» الصحيح فيه أنه يقال: أنزف الرجل إذا نَفِدَ شرابُه، وهو يبعد أن يُوصَفَ به شرابُ الجنة؛ ولكن مجازه أن يكون بمعنى: لا يَنفَدُ أبداً.

وقيل: «لَايُنْزِفُونَ» بكسر الزاي: لا يَسْكَرون؛ ذكره الزجاج وأبو عليّ[٥] على ما ذكره القُشَيري.

المهدوي: ولا يكون معناه: يَسْكَرون؛ لأن قبلَه «لا فيها غَوْلٌ». أي: لا تغتال عقولَهم فيكون تكراراً؛ ويسوغ ذلك في «الواقعة»[٦].

ويجوز أن يكون معنى «لا فيها غَوْلٌ» لا يمرضون؛ فيكون معنى «ولاهُمْ عنها يُنْزَفُونَ» لا يَسْكَرون أو لا ينفَدُ شرابُهم[٧]. قال قتادة: الغول وجعُ البطن. وكذا روى ابنُ أبي نَجيح عن مجاهد: «لا فيها غَوْلٌ» قال: لا فيها وجعُ بطن. الحسن: صُداع. وهو قول ابن عباس «لا فيها غَوْلٌ»: لا فيها صُداع[٨]. وحكى الضحاك عنه أنه قال:

---

(١) لم نقف عليه في ديوان الحطيئة، ونسبه الطبري في تفسيره ١٩/ ٥٣٧، والجوهري في صحاحه (نزف)، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٧٢ للأُبَيْرد الرِّياحي، والكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٠٣، والحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٥٤ - ٥٥، والنكت والعيون ٥/ ٤٨، وزاد المسير ٧/ ٥٧، وكلهم أورد البيت شاهداً على أن أنزف بمعنى سَكِرَ.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤١٩.

(٣) يعني قراءة: «يُنْزَفون» بفتح الزاي.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٦.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٠٣، والحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٥٥.

(٦) في تفسير الآية (١٩).

(٧) الكلام بنحوه في الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٥٥.

(٨) أخرج هذه الأقوال ـ ماعدا قول الحسن ـ الطبري ١٩/ ٥٣٢ - ٥٣٣ وقول الحسن ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٢٧

في الخمر أربعُ خِصال: السُّكر والصُّداع والقيء والبول؛ فذكر الله خمرَ الجنة فنزَّهَها عن هذه الخِصال[١]. مجاهد: داء. ابن كيسان: مَغْص. وهذه الأقوالُ متقاربة.

وقال الكلبي: «لا فيها غَوْلٌ» أي: إثم[٢]؛ نظيره: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]. وقال الشعبي والسدي وأبو عُبيدة: لا تغتال عقولَهم فتذهب بها. ومنه قول الشاعر:

وما زالتِ الكأسُ تغتالُنا وتَذهبُ بالأولِ الأولِ[٣]

أي: تصرعُ واحداً واحداً.

وإنما صرفَ الله تعالى السُّكر عن أهل الجنة لئلا ينقطعَ الالتذاذ عنهم بنعيمهم.

وقال أهل المعاني: الغَوْل فسادٌ يلحق في خفاء. يقال: اغتاله اغتيالاً إذا أفسدَ عليه أمره في خُفية[٤]. ومنه الغَوْل والغِيلة: وهو القتل خُفية.

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: نساء قد قَصَرْنَ طرفهنَّ على أزواجهنَّ فلا ينظرن إلى غيرهم؛ قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغيرهم. عكرمة: «قَاصِرَات الطَّرْف» أي: محبوساتٌ على أزواجهنّ. والتفسير الأوّل أبينُ؛ لأنه ليس في الآية مقصورات، ولكن في موضع آخر: ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ [الرحمن: ٧٢] يأتي بيانُه[٥].

و«قاصرات» مأخوذ من قولهم: قد اقتصر على كذا، إذا اقتنع به وعدلَ عن غيره؛ قال امرؤ القيس:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ٢٧٤.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٦٩، وقول السدي أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٤، والبيت نسبه الرازي في تفسيره ٢٦/ ١٣٧ لمطيع بن إياس، وهو غير منسوب في تفسير الطبري ١٩/ ٥٣٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٧٢.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠، وقول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٧ - ٥٣٨.

من القاصراتِ الطَّرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ   مِن الذَّرِّ فَوْقَ الإتْبِ منها لأثَّرا[١]

ويروى: فوق الخد[٢]. والأوّل أبلغ. والإتْب القميص، والمُحْوِل: الصغير من الذر. وقال مجاهد أيضاً: معناه: لا يَغرْنَ[٣].

﴿عِينٌ﴾ عِظامُ العيون، الواحدة عَيْناء؛ وقاله السُّدي. مجاهد: «عِينٌ» حِسان العيون[٤]. الحسن: الشديداتُ بياض العين، الشديدات سوادها[٥]. والأوّل أشهرُ في اللغة. يقال: رجلٌ أعينُ، واسع العين، بيِّن العَيَن، والجمع: عِين، وأصله فُعْل بالضم، فكسرت العين؛ لئلا تنقلب الواو ياء. ومنه قيل لبقر الوحش: عِين، والثور أعينُ، والبقرة عَيْناء[٦].

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي: مصون. قال الحسن وابن زيد: شُبِّهن ببيض النَّعام، تَكُنُّها النعامة بالريش من الريح والغبار، فلونُها أبيضُ في صُفرة، وهو أحسنُ ألوان النساء. وقال ابن عباس وابن جُبير والسدي: شُبِّهن ببطن البيض قبل أن يُقْشَرَ وتَمَسُّه الأيدي. وقال عطاء: شُبِّهن بالسِّحاء الذي يكون بين القِشرة العليا ولُباب البَيْض[٧]. وسَحَاةُ كل شيء قِشْره، والجمع سَحًا؛ قاله الجوهري[٨]. ونحوه قول الطبري[٩]، قال: هو القِشر الرقيق، الذي على البيضة بين ذلك. ورَوَى نحوه عن النبيّ ﷺ[١٠].

---

(١) ديوان امرئ القيس ص ٦٨ .

(٢) ذكره بهذه الرواية الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٨، والكلام السالف فيه.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٨ ، وزاد المسير ٧/ ٥٨ ، وقول السدي أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٩ .

(٥) مجمع البيان ٢٣/ ٥٧ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠ ، والصحاح (عين).

(٧) هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٩/ ٥٤٠ ، والنكت والعيون ٥/ ٤٨، وتفسير البغوي ٤/ ٢٧ ، وزاد المسير ٧/ ٥٨ .

(٨) في الصحاح (سحا).

(٩) في تفسيره ١٩/ ٥٤١ .

(١٠) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، بلفظ: قلت: يا رسول الله، أخبرني عن قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ =

والعربُ تُشبّه المرأة بالبيضة لِصفائها وبياضها[(١)]؛ قال امرؤ القيس:

وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤها تَمتَّعتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ[(٢)]

وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحُسن والنظافة: كأنه بيضُ النعام المُغطَّى بالريش[(٣)]. وقيل: المكنون: المَصُون عن الكسر؛ أي: إنهنَّ عذارَى. وقيل: المرادُ بالبيض اللؤلؤ[(٤)]؛ كقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٣] أي: في أصدافه؛ قاله ابن عباس أيضاً. ومنه قول الشاعر:

وهي بيضاءُ مِثلُ لُؤلُؤة الغَوَّاصِ مِيزَتْ مِن جَوْهَرٍ مَكْنونِ[(٥)]

وإنما ذكر المكنون والبيض جمع؛ لأنه ردَّ النَّعت إلى اللَّفظ[(٦)].

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: يتفاوضون فيما بينهم

= قال: «رِقَّتُهنَّ كرِقَّة الجلدة التي رأيتها في داخل البيضة التي تلي القشرة..» وفي إسناده سليمان ابن أبي كريمة. ضعَّفه أبو حاتم، وقال ابن عدي: عامة أحاديثه مناكير، ميزان الاعتدال ٢/ ٢٢١.

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٨، و تفسير البغوي ٤/ ٢٧، وزاد المسير ٧/ ٥٨، وفيهما: والعرب تُشبِّه المرأة ببيضة النعامة.

(٢) ديوان امرئ القيس ص ١٣، والبيت من معلقته.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٤١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) قائله أبو دهبل، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ٥٤١، والنكت والعيون ٥/ ٤٨، وخزانة الأدب (طبعة دار صادر) ٣/ ٢٨٠ وعند الطبري والبغدادي: زهراء، بدل: بيضاء.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧.

أحاديثَهم في الدنيا. وهو من تمام الأُنس في الجنة. وهو معطوفٌ على معنى «يُطَاف عليهم» المعنى: يشربون فيتحادثون على الشَّراب كعادة الشُّرَّاب. قال بعضهم:

وما بَقِيَتْ من اللّذاتِ إلَّا أحاديثُ الكِرامِ على المُدام

فَيُقبِل بعضُهم على بعض يتساءلون عمَّا جرى لهم وعليهم في الدنيا؛ إلا أنه جيء به ماضياً على عادة الله تعالى في إخباره[1].

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من أهل الجنة: ﴿إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ أي: صديقٌ مُلازم ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ أي: بالمبعث والجَزاء. وقال سعيد بن جُبير: قرينه شريكه[2]. وقد مضى في «الكهف» ذكرهما وقصَّتهما والاختلافُ في اسميهما مستوفىً عند قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الآية: ٢٢]. وفيهما أنزل اللهُ جلّ وعزّ: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ إلى ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾.

وقيل: أراد القرين قرينَه من الشياطين، كان يُوسوس إليه بإنكار البعث[3].

وقرئ: «أئِنَّكَ لمنَ المُصَّدِّقِينَ» بتشديد الصاد. رواه عليّ بن كِيْسة عن سليم عن حمزة[4]. قال النحاس[5]: ولا يجوز «أئِنَّكَ لمنَ المُصَّدِّقِينَ» لأنه لا معنى للصَّدقة هاهنا.

وقال القشيري: وفي قراءة عن حمزة: «أئِنَّكَ لَمنَ المُصَّدِّقِينَ» بتشديد الصاد.

---

(١) تفسير الرازي ٢٦/ ١٣٨، والبيت فيه دون نسبة.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٩، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٥٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٩، وتفسير البغوي ٤/ ٢٨، وزاد المسير ٧/ ٥٩ عن مجاهد.

(٤) وهي غير المشهورة عن حمزة، والمشهورة عنه كقراءة الجماعة، وذكرها عن حمزة غير المصنف ابنُ الجوزي في زاد المسير ٧/ ٥٩ لكن من طريق بكر بن عبد الرحمن القاضي عنه. وعلي بن كِيْسة روى القراءة عن سليم، وهو ابن عيسى بن سليم أبو محمد الحنفي، مولاهم، الكوفي، المقرئ، توفي سنة (١٨٨ هـ). الإكمال لابن ماكولا ٧/ ١٥٧ - ١٥٨، وطبقات القراء ١/ ٣١٨.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢١.

واعتُرِضَ عليه بأنَّ هذا من التصديق لا من التصدُّق. والاعتراضُ باطل؛ لأن القراءة إذا ثَبتتْ عن النبيّ ﷺ فلا مَجال للطَّعن فيها. فالمعنى «أَئِنَّكَ لمنَ المُصَّدِّقِينَ» بالمال طلباً في ثواب الآخرة.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي: مَجْزِيُّون مُحاسَبون بعد الموت.

فـ ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لأهل الجنة: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾. وقيل: هو من قول المؤمن لإخوانه في الجنة: هل أنتم مُطَّلعون إلى النار لِننظُرَ كيف حالُ ذلك القرين[1].

وقيل: هو من قول الملائكة. وليس «هَلْ أَنتُم مُطَّلِعُونَ» باستفهام، إنما هو بمعنى الأمر، أي: اِطَّلِعوا؛ قال ابن الأعرابي[2] وغيره. ومنه لمَّا نزلت آية الخمر قام عمرُ قائماً بين يدي النبيّ ﷺ، ثم رفع رأسَه إلى السماء، ثم قال: يا ربّ، بياناً أشفى من هذا في الخمر. فنزلت: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١] قال: فنادى عمرُ: انتهينا يا ربَّنا[3].

وقرأ ابن عباس: «هل أنتم مُطْلِعُونَ» بإسكان الطاء خفيفة «فَأُطْلِعَ»، بقطع الألف مخفَّفة[4]، على معنى: هل أنتم مُقبلون فأقبل.

قال النحاس[5]: «فَأَطْلِعَ فَرَآهُ» فيه قولان: أحدهما أن يكون فعلاً مستقبلاً، معناه: فأطلع أنا، ويكون منصوباً على أنه جوابُ الاستفهام. والقول الثاني: أن يكون فعلاً ماضياً، ويكون اطَّلعَ وأطلع واحداً. قال الزجاج[6]: يقال: طَلَع وأَطْلَعَ واطَّلعَ بمعنىً واحد. وقد حُكي: «هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونِ» بكسر النون، وأنكره أبو حاتم[7] وغيره.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٨.

(٢) ياقوتة الصراط ص ٤٢٧ - ٤٢٨، وما بعده منه.

(٣) أخرجه أحمد (٣٧٨)، وأبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، وسلف ٨/ ٥٧.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢١٩.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٣.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٠٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٢.

(٧) نسبها أبو حيان في البحر ٧/ ٣٦١ لعمار بن أبي عمار، وإنكار أبي حاتم ذكره ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٢٠.

النحاس[١]: وهو لحنٌ لا يجوز؛ لأنه جمعٌ بين النون والإضافة، ولو كان مضافاً لكان: هل أنتم مُطْلِعيّ، وإن كان سيبويه والفرّاء قد حكيا مثلَه، وأنشدا:

هُـمُ الـقـائـلـونَ الـخـيـرَ والآمِـرونَـهُ إذا ما خَشَوا مِن مُحْدَثِ الأمرِ مُعْظَما[٢]

وأنشد الفراء: والفاعلونه. وأنشد سيبويه وحدَه:

ولـم يَـرْتـفِـق والـنـاس مُـحـتَـضِـرونـه[٣]

وهذا شاذٌّ خارجٌ عن كلام العرب[٤]، وما كان مثل هذا لم يُحتَجَّ به في كتاب الله عز وجل، ولا يدخل في الفصيح. وقد قيل في توجيهه: إنه أجرى اسمَ الفاعل مجرى المضارع لِقُربه منه، فجرى «مُطْلِعُونِ» مجرى يُطْلِعُونِ. ذكره أبو الفتح عثمان بن جني[٥] وأنشد:

أَرَيْـــتَ[٦] إن جِـئـتُ بـه أُمْـلُـودا مُـرَجَّـلاً ويَـلْـبَـسُ الـبُـرُودا

أَقـائِـلُـنَّ أَحـضِـروا[٧] الـشُّـهُـودا

فأجرى أقائلُنّ مجرى أَتَقولُن. وقال ابن عباس في قوله تعالى: «هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ فاطَّلَعَ فَرَآهُ» إنّ في الجنة كُوًى ينظر أهلُها منها إلى النار وأهلِها[٨]. وكذلك قال كعب

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٢.

(٢) الكتاب لسيبويه ١/ ١٨٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٦،

(٣) الشطر الثاني كما في الكتاب ١/ ١٨٨: جميعاً وأيدي المُعتَفين رَواهِقُه.

(٤) هذا قول النحاس، وقد قال قبله: أما البيتان اللذان أنشدهما سيبويه وشركه الفراء في أحدهما فلا يُعرف من قالهما، ولا تثبت بهما حجة، ا هـ. ونقل البغدادي في خزانة الأدب ٤/ ٢٧٠ عن النحاس قوله: وهذا لا يلزم سيبويه منه غلط؛ لأنه قد قال نصًّا: وزعموا أنه مصنوع، فهو عنده مصنوع لا يجوز، فكيف يلزمه منه غلط؟!

(٥) المحتسب ٢/ ٢٢٠.

(٦) في النسخ: أرأيت، والمثبت من الخزانة ١١/ ٤٢٠، قال البغدادي: أصله: أرأيت، بمعنى: أخبرني، حذفت الهمزة تخفيفاً.

(٧) في الخزانة: أحضري، قال البغدادي: رواه العيني: أحضروا، بواو الجمع، ولا وجه له. والأُملود: الناعم. وهذا من رجز أورده السكري في أشعار هذيل لرجل منهم.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٨، وزاد المسير ٧/ ٦٠.

فيما ذكر ابن المبارك، قال: إنَّ بين الجنة والنار كُوّى، فإذا أراد المؤمن أن ينظُرَ إلى عدوٌ كان له في الدنيا اطلع من بعض الكُوى؛ فقال الله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ﴾ أي: في وسط النار والحسَكُ حواليه؛ قاله ابن مسعود[١].

ويقال: تعبتُ حتى انقطع سَوَائي: أي وسطي. وعن أبي عُبيدة: قال لي عيسى بن عمر: كنتُ أكتبُ يا أبا عُبيدة حتى ينقطع سَوَائي[٢].

وعن قتادة قال: قال بعض العلماء: لولا أنَّ الله جلّ وعزّ عرَّفه إيَّاه لما عَرَفه، لقد تغيَّر حِبْرهُ وسِبْرهُ[٣]. فعند ذلك يقول: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ «إنْ» مُخففة من الثقيلة دخلتْ على كاد كما تدخل على كان. ونحوه ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ [الفرقان: ٤٢] واللامُ هي الفارقةُ بينها وبين النافية[٤].

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ في النار. وقال الكسائي: «لَتُرْدِينِ» أي: لَتُهْلِكني، والرَّدَى الهَلاك. وقال المبرد: لو قيل: «لَتُردِينِ» لَتُوقِعني في النار لكان جائزاً[٥]. «وَلَولا نِعْمَةُ رَبِّي» أي: عصمتُه وتوفيقُه بالاستمساك بعروة الإسلام والبراءة من القَرين السوء. وما بعد «لولا» مرفوعٌ بالابتداء عند سيبويه، والخبرُ محذوف.

«لَكُنْتُ مِنَ المُحْضَرِينَ» قال الفراء[٦]: أي: لَكنتُ معك في النار مُحضَراً. وأحضر لا يُستعمل مطلقاً إلا في الشرّ؛ قاله الماوردي[٧].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ وقرئ: «بِمائِتِين»[٨]، والهمزة في «أفَما»

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٣ .

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٧٠.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٤٨ عن قتادة عن مطرف بن عبد الله، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥٠ عن قتادة. وقوله: حبره وسبره، يعني: لونه وهيئته. الصحاح (حبر).

(٤) الكشاف ٣/ ٣٤١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٤ .

(٦) نقله المصنف عنه بواسطه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٤ ، وما قبله منه.

(٧) في النكت والعيون ٥/ ٥٠ .

(٨) قرأ بها زيد بن علي كما في البحر المحيط ٧/ ٣٦٢ .

للاستفهام دخلتْ على فاء العطف، والمعطوف محذوفٌ، معناه: أنحن مخَلَّدون مُنعَّمون فما نحن بميِّتين ولا مُعذَّبين[١]؟

﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ يكون استثناءً ليس من الأول، ويكون مصدراً؛ لأنه منعوت[٢]. وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يُذبَح الموت، «ويقال: يا أهلَ الجنة، خلودٌ ولا موت، ويا أهلَ النار، خلودٌ ولا موت»[٣].

وقيل: هو من قول المؤمن على جهة الحديث بنعمة الله في أنهم لا يموتون ولا يُعذَّبون؛ أي: هذه حالُنا وصفتُنا.

وقيل: هو من قول المؤمن توبيخاً للكافر لِمَا كان يُنكره من البعث، وأنه ليس إلا الموت في الدنيا. ثم قال المؤمن مُشيراً إلى ما هو فيه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٤] يكون «هو» مبتدأ، وما بعده خبرٌ عنه، والجملةُ خبرُ «إنّ». ويجوز أن يكون «هو» فاصلاً[٥]. ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ يَحتمِل أن يكونَ من كلام المؤمن لمَّا رأى ما أعدَّ اللهُ له في الجنة وما أعطاه قال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ العطاء والفَضْل ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾. نظير ما قال له الكافر: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]. ويَحتمِلُ أن يكون من قول الملائكة. وقيل: هو من قول الله عز وجل لأهل الدنيا؛ أي: قد سمعتم ما في الجنة من الخيرات والجزاء، و«لمثل هذا» الجزاء «فَلْيَعْمَلِ العاملُونَ»[٦].

النحاس: وتقدير الكلام ـ والله أعلم ـ: فَلْيعملِ العاملون لمثل هذا. فإن قال

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٤١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٤.

(٣) قطعة من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، أخرجه أحمد (١١٠٦٦)، والبخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩)، وأوله: «يُؤتَى بالموت كهيئة كبش أملح... فَيُذبَح»، وسلف بتمامه ١٣/ ٤٥٥.

(٤) زاد المسير ٧/ ٦٠ - ٦١.

(٥) إعراب النحاس ٣/ ٤٢٤.

(٦) زاد المسير ٧/ ٦١ بنحوه.

قائل: الفاء في العربية تدلُّ على أن الثاني بعد الأول، فكيف صار ما بعدها يُنوَى به التقديم؟ فالجواب أن التقديم كمثل التأخير؛ لأن حقَّ حروفِ الخفض وما بعدها أن تكون متأخرةً[1].

قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر، وهو من قول الله جل وعز. ﴿نُّزُلًا﴾ على البيان؛ والمعنى: أنعيمُ الجنة خيرٌ نُزلاً ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ خيرٌ نزلاً؟. والنُّزُل في اللغة: الرِّزق الذي له سَعَة. النحاس[2]: وكذا النَّزل والنُّزل[3]، إلا أنه يجوز أن يكون النُّزْل بإسكان الزاي لغة، ويجوز أن يكون أصلُه النُّزُل [فَحُذِفت الضَّمةِ لِثقلها]؛ ومنه: أُقيم للقوم نُزُلهم. واشتقاقُه أنه الغذاء الذي يصلُح أن ينزلوا معه ويُقيموا فيه. وقد مضى هذا في آخر سورة «آل عمران»[4]. وشجرةُ الزَّقُّوم مشتقةٌ من التزقُّم، وهو البَلْع على جهد لكراهتها ونَتْنها[5].

قال المفسرون: وهي في الباب السادس، وأنها تحيا بِلهَبِ النار كما تحيا الشجرة ببرد الماء[6]؛ فلابدَّ لأهل النار من أن ينحدرَ إليها مَن كان فوقها فيأكلون منها، وكذلك يصعَد إليها من كان أسفلَ.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٤.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٤، وما قبله منه، وما بين حاصرتين الآتي منه.

(٣) قوله: النَّزْل، ليست في (م).

(٤) ٥/ ٤٨٣ - ٤٨٤.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٥.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥١ عن يحيى بن سلام.

واختلف فيها هل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنها معروفةٌ من شجر الدنيا. ومن قال بهذا اختلفوا فيها؛ فقال قطرب: إنها شجرةٌ مُرَّة تكون بِتِهامة من أخبثِ الشجر. وقال غيره: بل هو كلُّ نبات قاتل. القول الثاني: إنها لا تُعرف في شجر الدنيا. فلما نزلت هذه الآية في شجرة الزقُّوم قالت كفار قريش: ما نعرف هذه الشجرة. فقَدِمَ عليهم رجلٌ من إفريقية، فسألوه فقال: هو عندنا الزُّبْد والتَّمر. فقال ابن الزِّبَعْرى: أكثرَ اللهُ في بيوتنا الزَّقُّوم. فقال أبو جهل لجاريته: زَقِّمينا؛ فأَتَتْه بِزُبْد وتمر. ثم قال لأصحابه تَزقَّموا؛ هذا الذي يُخوِّفنا به محمد؛ يزعمُ أن النار تُنبِتُ الشجر، والنارُ تَحرِقُ الشجر[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المشركين، وذلك أنهم قالوا: كيف تكون في النار شجرةٌ وهي تَحرِق الشجر؟ وقد مضَى هذا المعنى في «سبحان»[٢]. واستخفافُهم في هذا كقولهم في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]: ما الذي يُخصِّص هذا العَدَد؟ حتى قال بعضُهم: أنا أَكفيكم منهم كذا، فاكفُوني الباقين[٣]. فقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المدثر: ٣١] والفتنة الاختبار، وكان هذا القولُ منهم جهلاً، إذ لا يستحيل في العقل أن يخلُقَ اللهُ في النار شجراً من جنسها لا تأكلُه النار، كما يخلقُ اللهُ فيها الأغلالَ والقيود والحياتِ والعقاربَ وخَزَنَةَ النار.

وقيل: هذا الاستبعاد الذي وقع للكفار هو الذي وقع الآن للملحدة، حتى حملوا الجنةَ والنار على نعيم أو عقاب تتخلَّله الأرواح، وحملوا وزنَ الأعمال والصراط واللوح والقلم على معانٍ زوَّروها في أنفسهم، دون ما فَهِمه المسلمون من موارد

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٠ - ٥١ . وخبر أبي جهل أخرجه الطبري ١٩/ ٥٥٢ عن السدي، وسلف قوله وقول ابن الزبعرى ١٣/ ١١١-١١٢ .

(٢) ١٣/ ١١١ .

(٣) هو أبو الأشدّ الجمحي، وسيأتي خبره في تفسير الآية (٣٠) من سورة المدثر.

الشَّرع، وإذا ورد خبرُ الصادق بشيء موهوم في العقل، فالواجب تصديقُه وإن جاز أن يكون له تأويل، ثم التأويل في موضع إجماع المسلمين على أنه تأويلٌ باطلٌ لا يجوز، والمسلمون مُجمعون على الأَخْذِ بهذه الأشياء من غير مصير إلى علم الباطن وقيل: إنها فتنة، أي: عقوبة للظالمين؛ كما قال: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أي: قَعْر النار، ومنها منشؤها، ثم هي متفرِّعة في جهنم[١]. ﴿طَلْعُهَا﴾أي: ثمرها؛ سُمِّي طَلْعاً لِطلوعه ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ قيل: يعني: الشياطين بأعيانهم، شَبَّهها برؤوسهم لِقُبْحِهم، ورؤوس الشياطين متصوَّر في النفوس وإن كان غيرَ مرئيّ. ومن ذلك قولهم لكل قبيح: هو كصورة الشيطان، ولكلِّ صورة حسنة: هي كصورة مَلَك. ومنه قوله تعالى مُخبراً عن صَواحب يوسف: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] وهذا تشبيهٌ تخييلي؛ رُوي معناه عن ابن عباس والقُرَظي[٢]. ومنه قول امرئ القيس:

ومَسْنُونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أَغْوَالِ[٣]

وإن كانت الغولُ لا تُعرَف؛ ولكن لِمَا تصوَّر من قُبحها في النفوس[٤]. وقد قال الله تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] فمردةُ الإنس شياطينُ مرئية. وفي الحديث الصحيح: «ولَكأنَّ نَخْلها رؤوس الشياطين»[٥] وقد ادَّعى كثيرٌ من العرب رؤيةَ الشياطين والغيلان.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٦٣ عن الحسن بنحوه.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٩ بنحوه.

(٣) ديوان امرئ القيس ص ٣٣، وصدره: أَيَقتُلني والمَشْرَفيُّ مُضاجِعي. قال شارحه: المَشْرَفي: سيف نسب إلى قرى بالشام يقال لها: المشارف. وأراد بالمسنونة الزُّرق: سهاماً محدَّدة الأزجَّة صافية، شبَّهها بأنياب الأغوال تشنيعاً لها.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥١ - ٥٢ بنحوه.

(٥) قطعة من حديث سِحْر النبي ﷺ أخرجه أحمد (٢٤٣٠٠)، والبخاري (٥٧٦٦)، ومسلم (٢١٨٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقال الزجاج والفرّاء[١]: الشياطين حياتٌ لها رؤوس وأعراف، وهي من أقبح الحيَّات وأخبثها وأخفِّها جسماً. قال الراجز وقد شبَّه المرأة بحية لها عُرْف:

عَنْجَرِدٌ تَحْلِفُ حينَ أَحْلِفُ كمثلِ شيطانِ الحَمَاطِ أَعْرَفُ

الواحدة حَمَاطة[٢]. والأعرف: الذي له عُرْف.

وقال الشاعر يَصِفُ ناقته:

تُلاعِبُ مَثْنَى حَضْرَميٍّ كأنّه تَعَمُّجُ شيطان بذي خِرْوَعٍ قَفْرِ

التَّعَمُّج: الاعوجاج في السَّير. وسهم عَمُوج: يتلوَّى في ذهابه. وتَعمَّجَتِ الحية: إذا تلوَّتْ في سَيْرها. وقال يَصِفُ زِمام الناقة:

تُلاعِبُ مَثْنَى حَضْرَميٍّ كأنه تَعَمُّجُ شيطانٍ بذي خِرْوَعٍ قَفْرِ[٣]

وقيل: إنما شبه ذلك بِنَبْتٍ قبيح في اليمن يقال له: الأَسْتَن والشيطان. قال النحاس[٤]: وليس ذلك معروفاً عند العرب. الزمخشري[٥]: هو شجرٌ خَشِنٌ مُنتِنٌ مُرٌّ مُنكَر الصورة يُسمَّى ثمره رؤوسَ الشياطين. النحاس[٦]: وقيل: الشياطين ضربٌ من الحيات قِباح.

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ فهذا طعامُهم وفاكهتهم بدل رِزْق أهل الجنة. وقال في «الغاشية»: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الآية: ٦] وسيأتي.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي: بعد الأكل من الشجرة ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ الشوب

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٠٦، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٧.

(٢) الصحاح (حمط)، والرجز فيه وفي معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٧، وتفسير الطبري ١٩/ ٥٥٤ دون نسبة. وامرأة عَنْجَرِدٌ: خبيثة سية الخُلق. اللسان (عنجرد). والحَمَاط: شجر شبيهٌ بالتين أحبُّ شجر إلى الحيَّات. القاموس (حمط).

(٣) الصحاح (عمج)، والبيت فيه دون نسبة، ونسبه الجاحظ في الحيوان ٤/ ١٣٣ لطرفة.

(٤) في معاني القرآن ٦/ ٣٤، وما قبله منه.

(٥) في الكشاف ٣/ ٣٤٢.

(٦) في معاني القرآن ٦/ ٣٥.

الخلط، والشَّوْب والشُّوب لغتان[١]، كالفَقْر والفُقْر، والفتح أشهر. قال الفراء[٢]: شابَ طعامَه وشرابَه إذا خلطَهما بشيء، يشوبهما شَوْباً وشيابة. فأخبر أنه يُشاب لهم. والحميم: الماءُ الحار، ليكونَ أشنع؛ قال الله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

السّدي: يُشاب لهم الحميم بغسّاق أعينهم وصديدٍ من قيحهم ودمائهم[٣]. وقيل: يُمزَج لهم الزقُّوم بالحميم ليجمع لهم بين مرارةِ الزقُّوم وحرارةِ الحميم؛ تغليظاً لِعذابهم وتجديداً[٤] لبلائهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ قيل: إنَّ هذا يدلُّ على أنهم كانوا حين أكلوا الزقُّوم في عذابٍ في غيرِ النار، ثم يُرَدُّون إليها. وقال مقاتل: الحميم خارجُ الجحيم، فهم يُوردون الحميم لِشُربه، ثم يُرَدُّون إلى الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣-٤٤].

وقرأ ابن مسعود: «ثُمَّ إِنَّ مُنْقَلَبَهُم لإلى الجحيم»[٥] وقال أبو عُبيدة: يجوز أن تكون «ثم» بمعنى الواو. القشيري: ولعلَّ الحميمَ في موضع من جهنم على طَرَفٍ منها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ أي: صادفوهم كذلك فاقتَدَوا بهم ﴿فَهُمْ

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٠٧، وقال: الشَّوب المصدر، والشُّوب الاسم.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٥.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٥٥ عن ابن زيد.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٥٢ (والكلام منه): وتشديداً.

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٥٥٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٧٦، وتفسير البغوي ٤/ ٢٩.

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ أي: يُسرعون؛ عن قتادة. وقال مجاهد: كهيئة الهرولة[١]. قال الفراء[٢]: الإهراعُ الإسراع برِعْدة. وقال أبو عُبيدة[٣]: «يُهْرَعُونَ» يُستحَثُّون من خَلْفهم. ونحوه قول المبرّد. قال: المُهرَع المُستحثّ؛ يقال: جاء فلان يُهْرَع إلى النار إذا استحثَّه البردُ إليها[٤]. وقيل: يُزعَجون من شِدَّة الإسراع؛ قاله الفضل[٥]. الزجاج[٦]: يقال: هُرِع وأُهْرِع، إذا استحثَّ وأزعج.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: من الأُمم الماضية. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي: رُسُلاً أنذروهم العذاب فكفروا. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: آخر أمرهم. ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين استخلصهم اللهُ من الكفر. وقد تقدَّم[٧]. ثم قيل: هو استثناء من «المُنْذَرِينَ». وقيل: هو من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ من النداء الذي هو الاستغاثة؛ ودعا، قيل: بمسألة هلاك قومه. فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[٩] [نوح: ٢٦].

---

(١) أخرجهما الطبري ١٩/ ٥٥٧.
(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٥.
(٣) في مجاز القرآن ٢/ ١٧١.
(٤) إعراب القرآن ٣/ ٤٢٥.
(٥) ذكره النحاس في معاني القرآن ٦/ ٣٦ دون نسبة.
(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٠٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٦.
(٧) ١١/ ٣١٨ و١٢/ ٢١٢.
(٨) تفسير الرازي ٢٦/ ١٤٥.
(٩) تفسير الطبري ١٩/ ٥٥٩.

﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ قال الكسائي: أي: فَلَنِعْمَ المُجِيبُونَ له كنَّا[1]. ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ يعني أهلَ دِينه؛ وهم مَن آمن معه؛ وكانوا ثمانينَ على ما تقدَّم[2]. ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهو الغَرَق.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ قال ابن عباس: لمَّا خرج نوحٌ من السفينة مات مَن معه من الرجال والنساء إلا ولدَه ونساءه؛ فذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[3]. وقال سعيد بن المسيَّب: كان ولد نوح ثلاثة، والناس كلُّهم من ولد نوح: فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى. وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب: السِّند والهند والنوب والزنج والحبشة والقِبط والبربر وغيرهم. ويافث أبو الصقالبة والترك والأبر[4] والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك. وقال قوم: كان لغير ولد نوح أيضاً نسل[5]؛ بدليل قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣]. وقوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨] فعلى هذا معنى الآية: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ دون ذرية مَن كفَر؛ فإنَّا أغْرقنا أولئك.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: تركنا عليه ثناءً حسناً في كل أمة، فإنه مُحبَّب إلى الجميع؛ حتى إنَّ في المجوس من يقول: إنه أفريدون[6]. رُوي معناه عن مجاهد وغيره.

وزعم الكسائي أن فيه تقديرين: أحدهما: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ يقال: ﴿سَلَٰمٌ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٦.

(٢) ١١/ ١١٧.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥٣، والبغوي في تفسيره ٤/ ٣٠.

(٤) كذا في النسخ: الأبر، ولم نقف على من ذكر أُمة بهذا الاسم من أبناء يافث. وقول سعيد بن المسيَّب هذا ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٣٠.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٧٧ بمعناه، وقال ابن عطية: والأول أشهر عند علماء الأمة.

(٦) نسبه الطبري في تاريخه ١/ ٢١١ لبعض نسابي الفرس.

عَلَىٰ نُوحٍ﴾ أي: تركنا عليه هذا الثناء الحسن. وهذا مذهب أبي العباس المبرّد[١]. أي: تركنا عليه هذه الكلمة باقية؛ يعني: يُسلِّمون عليه تسليماً ويدعون له؛ وهو من الكلام المَحْكي؛ كقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ [النور: ١][٢].

والقول الآخر: أن يكون المعنى: وأبقينا عليه؛ وتمَّ الكلام، ثم ابتدأ فقال: «سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ» أي: سلامة له من أن يُذكر بسوء «في الآخرين». قال الكسائي: وفي قراءة ابن مسعود: «سلاماً» منصوب بـ«تركنا» أي: تركنا عليه ثناءً حسناً سلاماً[٣].

وقيل: «فِي الآخِرِينَ» أي: في أمة محمد ﷺ[٤]. وقيل: في الأنبياء إذْ لم يُبعث بعده نبيٌّ إلا أُمر بالاقتداء به؛ قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣].

وقال سعيد بن المسيَّب: وبلغني أنه مَن قال حين يُمسي: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ لم تَلْدغه عقرب. ذكره أبو عمر في «التمهيد»[٥]. وفي «الموطأ»: عن خولة بنت حكيم أن رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ نزلَ مَنزِلاً فليقل: أعوذُ بكلمات الله التامَّاتِ مِن شرِّ ما خَلَقَ، فإنه لن يضرَّه شيء حتى يَرتَحِلَ»[٦]. وفيه: عن أبي هريرة أن رجلاً مِن أَسلم قال: ما نمتُ هذه الليلة؛ فقال رسول الله ﷺ: «مِن أيِّ شيء» فقال: لَدغتني عقرب؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «أَمَا إنَّك لو قلتَ حين أمسيتَ: أعوذُ بكلماتِ الله التامّات من شرِّ ما خَلَق لم تضرَّك»[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٧ .

(٢) يعني كقولك: قرأت: «سورةٌ أنزلناها». الكشاف ٣/ ٣٤٣، والدر المصون ٩/ ٣١٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٧ ، وقراءة ابن مسعود ﷺ ذكرها أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٧٧ .

(٤) مجمع البيان ٢٣/ ٦٥ .

(٥) ٢١/ ٢٤١ .

(٦) الموطأ ٢/ ٩٧٨ ، وأخرجه أحمد (٢٧١٢٢)، ومسلم (٢٧٠٨).

(٧) الموطأ ٢/ ٩٥١ ، وأخرجه أحمد (٨٨٨٠)، ومسلم (٢٧٠٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: نُبقي عليهم الثَّناء الحسن. والكاف في موضع نصب؛ أي: جزاء كذلك. ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا بيانُ إحسانه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أي: مَن كَفر. وجمعه آخر[1]. والأصلُ فيه أن يكون معه «مِن» إلا أنها حُذفت؛ لأن المعنى معروف، ولا يكون آخر إلا وقبلَه شيء من جِنسه. و«ثمّ» ليس للتراخي هاهنا، بل هو لتعديد النِّعم؛ كقوله: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد:١٦-١٧] أي: ثم أُخبركم أني قد أغرقتُ الآخرين، وهم الذين تأخَّروا عن الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ۝٨٩ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝٩٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ قال ابن عباس: أي: من أهل دينه. وقال مجاهد: أي: على مِنهاجه وسُنَّته[2]. قال الأصمعي: الشِّيعة الأعوان، وهو مأخوذٌ من الشِّياع، وهو الحَطَبُ الصِّغار الذي يُوقَد مع الكبار حتى يستوقد. وقال الكلبي والفراء[3]: المعنى: وإنَّ من شيعة محمد لإبراهيم. فالهاء في «شيعته» على هذا لمحمد عليه الصلاة والسلام[4]. وعلى الأوّل لنوح، وهو أظهرُ؛ لأنه هو المذكور أوّلاً، وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيَّان: هود وصالح، وكان بين نوح وإبراهيمَ ألفان وستُّ مئة وأربعون سنة؛ حكاه الزمخشري[5].

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: مُخلص من الشِّرك والشَّك. وقال

---

(١) كذا في النسخ، والصواب: الآخَرين جمع آخَر. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٧ .

(٢) أخرجهما الطبري ١٩/ ٥٦٤ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥٤ ، وما قبله منه.

(٤) قال الشوكاني في فتح القدير ٤/ ٤٠١: ولايخفى ما في هذا من الضعف والمخالفة للسياق.

(٥) في الكشاف ٣/ ٣٤٤.

عوف الأعرابي: سألتُ محمد بن سيرين: ما القلب السليم؟ فقال: الناصحُ لله عز وجل في خلقه[١].

وذكر الطبري عن غالب القطّان وعوف وغيرهما عن محمد بن سيرين أنه كان يقول للحجّاج: مسكين أبو محمد، إن عذَّبه الله فبذنبه، وإنْ غَفَرَ له فهنيئاً له، وإن كان قلبه سليماً فقد أصاب الذنوبَ من هو خير منه. قال عوف: فقلتُ لمحمد: ما القلب السليم؟ قال: أن يعلمَ أن الله حقٌّ، وأن الساعةَ قائمة، وأن الله يبعثُ مَن في القبور[٢]. وقال هشام بن عروة: كان أبي يقول لنا: يا بَنيّ، لا تكونوا لَعَّانِين، ألم تَرَوْا إلى إبراهيم لم يلعن شيئاً قطّ، فقال تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٣].

ويَحتمِل مجيئه إلى ربّه وجهين: أحدهما عند دعائه إلى توحيده وطاعته، الثاني: عند إلقائه في النار[٤].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ وهو آزر، وقد مضى الكلام فيه[٥]. ﴿وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ تكون «ما» في موضع رفع بالابتداء و«ذا» خبره. ويجوز أن تكون «ما» و«ذا» في موضع نصب بـ «تعبدون». ﴿أَئِفْكًا﴾ نصب على المفعول به؛ بمعنى: أتُريدون إِفْكاً. قال المبرّد: والإفك أسوأُ الكذب، وهو الذي لا يثبتُ ويضطرب، ومنه ائتفكَتْ بهم الأرض. ﴿ءَالِهَةً﴾ بدل من إفك[٦].

﴿دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي: تعبدون. ويجوز أن يكون حالاً بمعنى: أتريدون آلهةً من دون الله آفكين[٧]. ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ما ظنُّكم به إذا لَقِيتموه وقد عَبَدْتم

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٧.
(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/ ١٩٠.
(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٦٥.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٥.
(٥) ٨/ ٤٣٢ وما بعدها.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٨.
(٧) الكشاف ٣/ ٣٤٤.

غيرَه[١]؟ فهو تحذير، مثل قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦] وقيل: المعنى: أي شيء توهَّمتموه[٢] حتى أشركتُم به غيره؟.

قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ قال ابن زيد عن أبيه: أَرسل إليه مَلِكُهم: إنَّ غداً عيدُنا فاخرُج معنا، فنظر إلى نجم طالع فقال: إنَّ هذا يطلُع مع سقمي[٣].

وكان علمُ النجوم مستعملاً عندهم منظوراً فيه، فأوهمهم هو من تلك الجِهة، وأراهم من مُعتقدهم عُذراً لنفسه؛ وذلك أنهم كانوا أهلَ رِعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يُحتاج فيهما إلى نظرٍ في النجوم[٤].

وقال ابن عباس: كان علمُ النجوم من النبوّة، فلما حَبَسَ الله تعالى الشمسَ على يوشع بن نون أبطل ذلك، فكان نظرُ إبراهيم فيها علماً نبويّاً. وحكى جُوَيبر عن الضحاك: كان عِلمُ النجوم باقياً إلى زمن عيسى عليه السلام، حتى دخلوا عليه في موضع لا يطلُع عليه منه، فقالت لهم مريم: من أين عَلِمتم بموضعه؟ قالوا: من النجوم. فدعا ربَّه عند ذلك فقال: اللهم لا تُفهمهم في عِلْمها، فلا يعلم علمَ النجوم أحدٌ؛ فصار حكمها في الشَّرع محظوراً، وعِلْمها في الناس مجهولاً.

قال الكلبي: وكانوا في قرية بين البصرة والكوفة يقال لها: هرمزجرد، وكانوا ينظرون في النجوم[٥]. فهذا قول.

وقال الحسن: المعنى: أنهم لما كلَّفوه الخُروجَ معهم تفكَّر فيما يعمل. فالمعنى على هذا: أنه نظرَ فيما نَجَمَ له من الرأي، أي: فيما طَلَع له منه، فعلم أن كلَّ حيٍّ

---

(١) تفسير الطبري ١٩/٥٦٦.

(٢) في (خ) و(ظ): توهموه، وفي (م): أوهمتموه، والمثبت من (د) و(ز) و(ف).

(٣) أخرجه الطبري ١٩/٥٦٧.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٤٧٨.

(٥) قول ابن عباس رضي الله عنهما وقول الضحاك وقول الكلبي في النكت والعيون ٥/٥٥ - ٥٦.

يَسْقَم فقال: «إِنِّي سَقِيم»[١].

الخليل والمبرّد: يقال للرجل إذا فكَّر في الشيء يدبِّره: نظرَ في النجوم. وقيل: كانت الساعةُ التي دَعَوْه إلى الخروج معهم فيها ساعةً تغشاه فها الحُمَّى. وقيل: المعنى: فنظر فيما نَجَمَ من الأشياء، فعلم أنَّ لها خالقاً ومُدبِّراً، وأنه يتغير كتغيرها فقال: «إِنِّي سَقِيمٌ»[٢]. وقال الضحاك: معنى «سَقِيمٌ»: سَأَسْقَم سَقَم الموت؛ لأنَّ من كُتب عليه الموت يَسْقَم في الغالب، ثم يموت، وهذا توريةٌ وتعريضٌ[٣]؛ كما قال للمَلِك لما سأله عن سارَّة: هي أختي؛ يعني أُخوَّةَ الدين[٤]. وقال ابن عباس وابن جُبير والضحاك أيضاً: أشار لهم إلى مرضٍ وسَقَمٍ يُعدي كالطاعون، وكانو يهربون من الطاعون[٥]، فلذلك «تَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ» أي: فارّين منه خوفاً من العَدْوى.

وروى الترمذيّ الحكيم قال: حدثنا أبي قال: حدثنا عمرو بن حماد، عن أسباط، عن السّديّ، عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس، وعن سَمُرةَ عن الهَمْداني، عن ابن مسعود قال: قال أبو إبراهيم: إنَّ لنا عيداً، لو خرجتَ معنا لأَعجبكَ دِينُنا. فلما كان يومُ العيد خرجوا إليه وخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه، وقال: إني سقيمٌ أشتكى رجلي، فوطئوا رِجْلَه وهو صريعٌ، فلما مضَوا نادى في آخرهم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾. قال أبو عبد الله: وهذا ليس بمعارِضٍ لما قال ابن عباس وابن جُبير؛ لأنه يَحتمِل أن يكون قد اجتمع له أمران.

قلت: وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «لم يكذبْ إبراهيمُ النبيُّ عليه السلام إلا ثلاثَ كَذَبات» الحديث. وقد مضى في سورة «الأنبياء»[٦]. وهو يدلُّ على أنه لم يكن

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٠.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٤٢٨ بنحوه.

(٤) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة ﷺ وأوله: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات..» وسلف ١٤/ ٢٢٢.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٦٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك بنحوه.

(٦) ١٤/ ٢٢٢، وينظر التعليق قبل السابق.

سقيماً، وإنما عَرَّضَ لهم. وقد قال جلّ وعزّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. فالمعنى: إني سقيمٌ فيما أستقبل، فتوهَّموا هم أنه سقيمٌ الساعة. وهذا من مَعاريض الكلام على ما ذكرنا[١]، ومنه المثل السائر: «كَفَى بالسلامة داءً»[٢]، وقول لَبيد:

فدعوتُ ربِّي بالسَّلامةِ جاهِداً ... لِيُصحّنِي فإذا السَّلامَةُ داءُ[٣]

وقد مات رجلٌ فجأة فالتفَّ عليه الناس فقالوا: مات وهو صحيح، فقال أعرابي: أصحيح مَنِ الموت في عنقه[٤]؟.

فإبراهيمُ صادق، لكن لما كان الأنبياءُ لِقُرب محلّهم واصطفائهم عُدَّ هذا ذنباً؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] وقد مضى هذا كلُّه مبيَّناً، والحمد لله.

وقيل: أراد: سقيم النفس لِكُفرهم[٥].

والنجوم يكون جمع نَجْم، ويكون واحداً مصدراً[٦].

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ قال السّدي: ذهبَ إليهم. وقال أبو مالك: جاء

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٨.

(٢) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٤٠٩) من حديث أنس ﷺ.

(٣) لم نقف عليه في ديوان لبيد، وقد نسبه له الزمخشري في الكشاف (والكلام منه) ٣/ ٣٤٤، ونسبه القيرواني في زهر الآداب ١/ ٢٢٣ لعمرو بن قميئة، ونسبه البغدادي في الخزانة ٢/ ٢١٧ لبعض شعراء الجاهلية.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٤٤.

(٥) المصدر السابق.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٨.

إليهم. وقال قتادة: مال إليهم. وقال الكلبي: أقبل عليهم. وقيل: عَدَل[١]. والمعنى مُتقارب. فراغ يَرُوغ رَوْغاً ورَوَغاناً، إذا مال. وطريقٌ رائغ، أي: مائل[٢]. وقال الشاعر:

ويُريكَ مِن طَرَفِ اللسانِ حَلَاوةً ... ويَروغ عنك كما يَرُوغ الثعلبُ[٣]

فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فخاطَبها كما يُخاطب مَن يعقِل؛ لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة. وكذا ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾[٤].

قيل: كان بين يدي الأصنام طعامٌ تركوه ليأكلوه إذا رجَعوا من العيد، وإنما تركوه لِتُصيبه بركةُ أصنامهم بزعمهم[٥]. وقيل: تركوه لِلسَّدَنة. وقيل: قرَّب هو إليها طعاماً على جهة الاستهزاء؛ فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾[٦].

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ خصَّ الضَّرب باليمين لأنها أقوى والضربُ بها أشدُّ؛ قاله الضحاك والربيع بن أنس. وقيل: المراد باليمين اليمين التي حَلَفها حين قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾[٧].

وقال الفراء وثعلب: ضرباً بالقوة، واليمين القوة[٨].

وقيل: بالعَدْل، واليمين هاهنا العَدْل. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٥] أي: بالعَدْل، فالعَدْل لليمين؛ والجَوْر للشمال. ألا

---

(١) هذه الأقوال في معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٢ - ٤٣، والنكت والعيون ٥/ ٥٧، وقولا السدي وقتادة أخرجهما الطبري ١٩/ ٥٧٠.

(٢) الصحاح (روغ).

(٣) لم نهتد إلى قائله.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٩.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥٧.

(٦) تفسير الطبري ١٩/ ٥٧٠ - ٥٧١ بنحوه.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٥٧، ومجمع البيان ٢٣/ ٦٩.

(٨) قول الفراء في زاد المسير ٧/ ٦٩، وقول ثعلب في النكت والعيون ٥/ ٥٧.

ترى أن العدوّ عن الشمال، والمعاصي عن الشمال، والطاعة عن اليمين؛ ولذلك قال: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات:٢٨] أي: من قِبل الطاعة. فاليمينُ هو موضع العَدْل من المسلم، والشِّمال موضع الجَوْر. ألا ترى أنه بايع اللهَ بيمينه يومَ المِيثاق، فالبيعةُ باليمين؛ فلذلك يُعطَى كتابَه غداً بيمينه؛ لأنه وفَّى بالبيعة، ويُعطَى الناكثُ للبيعة الهاربُ برقبته من الله بشماله؛ لأنَّ الجَوْرَ هناك. فقوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: بذلك العَدْل الذي كان بايعَ اللهَ عليه يومَ الميثاق، ثم وفَّى له هاهنا. فجعل تلك الأوثان جُذاذاً، أي: فُتاتاً كالجَذِيدة، وهي السَّوِيق، وليس من قَبيل القوة؛ قاله الترمذي الحكيم.

﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ قرأ حمزة: «يُزِفُّونَ» بضم الياء. الباقون بفتحها[١]. أي: يُسرعون؛ قاله ابن زيد[٢]. قتادة والسُّدي: يَمشون[٣]. وقيل: المعنى: يمشون بجمعهم على مَهَل آمنين أن يُصيب أحدٌ آلهتَهم بسوء. وقيل: المعنى: يتسلَّلون تسلُّلاً بين المَشْي والعَدْو؛ ومنه زَفِيف النَّعامة. وقال الضحاك: يسعَوْن. وحكى يحيى بن سلَّام: يُرْعَدون غَضَباً. وقيل: يختالون، وهو مشيُ الخُيَلاء؛ قاله مجاهد. ومنه أُخِذَ زِفاف العروس إلى زوجها[٤]. وقال الفرزدق:

وجاء قَرِيعُ الشَّولِ قبلَ إفَالِها يَزِفُّ وجاءتْ خَلْفَه وهي زُفَّفُ[٥]

ومن قرأ: «يُزِفُّون» فمعناه: يُزِفُّون غيرهم، أي: يَحملونهم على التزفيف. وعلى هذا فالمفعول محذوف. قال الأصمعي: أزففت الإبل، أي: حملتُها على أن تَزِفَّ[٦]. وقيل: هما لغتان، يقال: زَفَّ القوم وأزفُّوا.

---

(١) السبعة ص ٥٤٨، والتيسير ص ١٨٦.

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٣/ ٦٩.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٧٤ عن السدي، وذكره النحاس في معاني القرآن ٦/ ٤٤ عن قتادة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٧.

(٥) ديوان الفرزدق ص٢٧، وفيه: وراحت، بدل: وجاءت.

(٦) الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٥٧، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٢٥.

وزَفَفتُ العروسَ وأَزففتها وازدففتها بمعنًى، والمِزفّة: المِحَفّة التي تُزَفُّ فيها العروس؛ حُكي ذلك عن الخليل[1].

النحاس[2]: «يُزِفُّون» بضم الياء. زعم أبو حاتم أنه لا يعرف هذه اللغة، وقد عَرَفَها جماعةٌ من العلماء منهم الفراء[3] وشبَّهها بقولهم: أطردتُ الرجل، أي: صيَّرته إلى ذلك. وطردته نَحَّيته؛ وأنشد هو وغيره:

تَمنَّى حُصينٌ أن يَسودَ جِذَاعَهُ فأمسى حُصينٌ قد أَذَلَّ وأَقهَرا[4]

أي: صُيِّر إلى ذلك؛ فكذلك «يُزِفُّون» يَصيرون على الزفيف. قال محمد بن يزيد: الزفيف الإسراع. وقال أبو إسحاق[5]: الزفيفُ أول عَدْو النَّعام. وقال أبو حاتم: وزعم الكسائي أن قوماً قرؤوا: «فَأَقْبَلُوا إليه يَزِفُونَ»[6] خفيفة؛ من وَزَف يَزِف، مثل: وَزَن يَزِن.

قال النحاس[7]: فهذه حكايةُ أبي حاتم، وأبو حاتم لم يسمع من الكسائي شيئاً. وروى الفراء[8] ـ وهو صاحبُ الكسائي ـ عن الكسائي أنه لا يعرف «يَزِفُون» مخفَّفة.

---

(١) الصحاح (زفف).

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٩ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٩ .

(٤) البيت للمخبَّل السعدي يهجو به الزِّبرقان بن بدر ـ وهو حصين المذكور في البيت ـ وهو في أدب الكاتب ص٤٤٧ ، والخزانة ٨/ ١٠١ . والجِذاع: هم رهط حُصين. وهذه رواية الأصمعي للبيت ويروى: أُذِلَّ وأُقهِرا، بالبناء للمجول. ينظر الاقتضاب في شرح أدب الكاتب ٣/ ٢٨٠ .

(٥) هو الزجاج، وقوله في معاني القرآن ٤/ ٣٠٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٩ ، وما قبله وما بعده منه.

(٦) قرأ بها عبد الله بن يزيد كما سيأتي عند المصنف، وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٢١ ، وزاد أبو حيان في البحر ٧/ ٣٦٦ نسبتها لمجاهد والضحاك ويحيى بن عبد الرحمن المقرئ وابن أبي عبلة.

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٩ .

(٨) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٩ .

قال الفراء: وأنا لا أعرفُها. قال أبو إسحاق[١]: وقد عَرَفَها غيرهما [أنه يقال] وَزَف يَزِف إذا أسرعَ. قال النحاس: ولا نعلم أحداً قرأ: «يَزِفُون».

قلت: هي قراءةُ عبد الله بن يزيد فيما ذكر المهدوي.

الزمخشري[٢]: و«يُزَفُّون» على البناء للمفعول. و«يَزْفُونَ» من زَفَاه إذا حَدَاه؛ كأنَّ بعضَهم يزفو بعضاً لِتسارعهم إليه.

وذكر الثعلبي عن الحسن ومجاهد وابن السَّمَيْفع: «يَرفون» بالراء [من] رفيف النعام، وهو ركضٌ بين المَشْي والطيران.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ فيه حذف؛ أي: قالوا: مَن فَعل هذا بآلهتنا؟ فقال مُحتجّاً: «أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتونَ» أي: أتعبدون أصناماً أنتم تَنْحِتونها بأيديكم تَنْجُرُونها. والنَّحْت: النَّجْر والبَرْي؛ نَحَته يَنْحِتُه ـ بالكسر ـ نحتاً، أي: بَراه. والنُّحَاتةُ البُرَاية، والمِنْحَت: ما يُنْحَتُ به[٣].

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ «ما» في موضع نصب، أي: وخلق ما تعملونه من الأصنام[٤]، يعني الخشب والحجارة وغيرهما كقوله ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: ٥٦].

وقيل: إن «ما» استفهام، ومعناه: التحقير لِعملهم. وقيل: هي نَفْي، والمعنى: وما تعملون ذلك، لكنَّ اللهَ خالقُه. والأحسنُ أن تكون «ما» مع الفعل مصدراً، والتقديرُ: والله خَلَقَكم وعملكم[٥].

وهذا مذهبُ أهل السنة: أنَّ الأفعالَ خلقٌ لله عز وجل واكتسابٌ للعباد. وفي هذا إبطالُ

---

(١) هو الزجاج، وقوله في معاني القرآن ٤/ ٣٠٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٩ - ٤٣٠، وما بين حاصرتين الآتي منه.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٤٥.

(٣) الصحاح (نحت).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٠.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٥ - ٤٦.

مذاهب القَدَرية والجَبْرية. وروى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «إنَّ الله خالقُ كلِّ صانع وصَنْعته» ذكره الثعلبي. وخرَّجه البيهقي من حديث حُذَيفة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ عزّ وجلّ صنعَ كلَّ صانع وصَنْعتَه»[١] فهو الخالقُ، وهو الصانع سبحانه، وقد بيَّناهما في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا﴾ أي: تشاوروا في أمره لمَّا غَلَبهم بالحُجَّة حَسَبَ ما تقدَّم في «الأنبياء» بيانه[٣]. فـ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا﴾ تملؤونه حَطَباً فَتُضْرِمونه، ثم أَلقوه فيه، وهو الجحيم. قال ابن عباس: بَنَوْا حائطاً من حجارة طوله في السماء ثلاثون ذراعاً، ومَلَؤوه ناراً وطرحوه فيها[٤]. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: فلما صار في البُنيان قال: حسبي الله ونعم الوكيل[٥]. والألف واللام في «الجحيم» تدلُّ على الكناية؛ أي: في جحيمه؛ أي: في جحيم ذلك البُنيان[٦].

وذكر الطبري[٧]: أنَّ قائلَ ذلك اسمه الهيزن[٨]، رجلٌ من أعراب فارس، وهو

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (٣٧)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد ص ٢٥.

(٢) ص٣٣٤ و٣٤٤.

(٣) ١٤/ ٢٢٦.

(٤) ذكره الرازي في تفسيره ٢٦/ ١٥٠، والطبرسي في مجمع البيان ٢٣/ ٧٠.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٠.

(٦) تفسير الرازي ٢٦/ ١٥٠.

(٧) في تفسيره ١٦/ ٣٠٥، ونقله المصنف عنه بواسطة السهيلي في التعريف والإعلام ص ١٤٦، وقد أخرجه الطبري عن ابن عمر رضي الله عنهما ومجاهد وابن جريج. وسلف ١٤/ ٢٢٦.

(٨) اضطرب رسمها في النسخ، والمثبت من (م)، وتفسير الطبري والتعريف والإعلام. وقال أبو حيان في البحر ٦/ ٣٢٨: وذكروا لهذا القائل اسماً مختلفاً فيه لا يوقف منه على حقيقة لكونه ليس مضبوطاً بالشكل والنقط، وهكذا تقع أسماء كثيرة أعجمية في التفاسير لا يمكن الوقوف منها على حقيقة لفظ لعدم الشكل والنقط.

التُّرك[١]، وهو الذي جاء فيه الحديث: «بينما رجلٌ يمشي في حُلّة له يَتبخترُ فيها فَخُسِفَ به، فهو يَتجلْجَلُ في الأرض إلى يوم القيامة»[٢]. والله أعلم.

﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ أي: بإبراهيم. والكَيْد المَكْر؛ أي: احتالوا لإهلاكه ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ المقهورين المغلوبين إذْ نَفَذَتْ حُجَّته من حيث لم يُمكنهم دَفْعها، ولم يَنفُذْ فيه مكرُهم ولا كيدُهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: هذه الآيةُ أصلٌ في الهجرة والعزلة، وأوّل مَن فَعَلَ ذلك إبراهيمُ عليه السلام، وذلك حين خلَّصه الله من النار قال: «إِنِّي ذَاهِبٌ إِلى رَبِّي» أي: مُهاجر من بلدِ قومي ومولدي إلى حيث أتمكّن من عبادة ربي، فإنه «سَيَهْدينِ» فيما نويتُ إلى الصواب. قال مقاتل: هو أوَّلَ مَن هاجر من الخَلْق مع لوط وسارَّة إلى الأرض المقدَّسة، وهي أرضُ الشام. وقيل: ذاهبٌ بعملي وعبادتي، وقلبي ونيَّتي[٣]. فعلى هذا ذهابُه بالعمل لا بالبدن. وقد مضى بيانُ هذا في «الكهف» مستوفىً[٤]. وعلى الأوّل بالمهاجرة إلى الشام وبيت المَقْدس. وقيل: خرج إلى حرَّان، فأقام بها مُدَّة. ثم قيل: قال ذلك لمن فارقه من قومه؛ فيكون ذلك توبيخاً لهم. وقيل: قاله لمن هاجر معه من أهله؛ فيكون ذلك منه ترغيباً.

وقيل: قال هذا قبلَ إلقائه في النار. وفيه على هذا القول تأويلان: أحدهما: إني ذاهبٌ إلى ما قضاه عليَّ ربي. الثاني: إني ميِّت؛ كما يقال لمن مات: قد ذهب إلى

(١) كذا في النسخ والتعريف والإعلام: الترك، وفي المصادر: الكرد، وهو الصواب.

(٢) أخرجه أحمد (٩٣٤٦)، ومسلم (٢٠٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥٩.

(٤) ١٣/ ٢١٦ وما بعدها.

الله تعالى؛ لأنه عليه السلام تصوَّر أنه يموت بإلقائه في النار، على المعهود من حالها في تَلَفِ ما يُلقى فيها، إلى أن قيل لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء:٦٩] فحينئذ سَلِمَ إبراهيمُ منها.

وفي قوله: «سَيَهْدِينِ» على هذا القول تأويلان: أحدُهما: «سَيَهْدِينِ» إلى الخَلاص منها. الثاني: إلى الجنة[١].

وقال سليمان بن صُرَد - وهو ممن أدركَ النبيَّ ﷺ -: لما أرادوا إلقاءَ إبراهيم في النار جعلوا يجمعون له الحَطَب؛ فجعلت المرأةُ العجوز تحملُ على ظهرها وتقول: أذهبُ به إلى هذا الذي يذكُر آلهتنا؛ فلما ذُهب به لِيُطرح في النار «قال إِنِّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي»، فلما طُرح في النار قال: «حَسْبِيَ اللَّهُ ونِعْمَ الوَكِيل» فقال الله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء:٦٩] فقال أبو لوط - وكان ابنَ عمِّه -: إنَّ النارَ لم تحرِقْه من أجل قَرابته مني. فأرسل اللهُ عُنقاً من النار فأحرقه[٢].

الثانية: قول تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لما عرَّفه اللهُ أنه مُخَلِّصه دعا اللهَ لِيعضُدَه بولدٍ يأنَسُ به في غُرْبته. وقد مضى في «آل عمران» القولُ في هذا[٣]. وفي الكلام حذفٌ؛ أي: هَبْ لي ولداً صالحاً من الصالحين، وحذفُ مثل هذا كثيرٌ.

قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ أي: إنه يكون حليماً في كِبَره[٤]، فكأنه بُشِّر ببقاء ذلك الولد؛ لأنّ الصغيرَ لا يُوصف بذلك، فكانت البُشرى على ألسنة الملائكةِ كما تقدَّم في «هود»[٥]. ويأتي أيضاً في «الذاريات»[٦].

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٥٩ - ٦٠.

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٤/ ٣٢٢، والطبري ١٩/ ٥٧٧، وفيه: فقال ابن لوط، أو ابن أخي لوط.

(٣) ٥/ ١١٠.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٠.

(٥) ١١/ ١٥٧.

(٦) في تفسير الآية (٢٨).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾

فيه سبعَ عشرةَ مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي: فوهبنا له الغلام؛ فلما بلغ معه المبلغ الذي يَسعى مع أبيه في أمور دنياه مُعيناً له على أعماله ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾.

وقال مجاهد: «فلما بلغَ معه السَّعْيَ» أي: شبَّ وأدرك سَعْيُهُ سَعْيَ إبراهيم[(١)]. وقال الفراء[(٢)]: كان يومئذ ابنَ ثلاثَ عشرةَ سنة. وقال ابن عباس: هو الاحتلام[(٣)]. قتادة: مَشَى مع أبيه. الحسن ومقاتل: هو سعي العقل الذي تقومُ به الحُجَّة. ابن زيد: هو السَّعْي في العبادة. ابن عباس: صام وصلَّى، ألم تسمع اللهَ عزّ وجلّ يقول: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾[(٤)] [الإسراء: ١٩].

واختلف العلماءُ في المأمور بذبحه. فقال أكثرُهم: الذبيحُ إسحاق. وممن قال بذلك العباسُ بن عبد المطلب وابنه عبد الله[(٥)]، وهو الصحيحُ عنه. روى الثوريّ

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٧٩ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٩ .

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج الطبري ١٩/ ٥٧٩ عنه قال: السعي العمل.

(٤) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٦٠ ، وقولا قتادة وابن زيد أخرجهما الطبري ١٩/ ٥٨٠ .

(٥) أخرجه عنهما الطبري ١٩/ ٥٨٨ .

وابن جُريج يرفعانه إلى ابن عباس قال: الذبيح إسحاق. وهو الصحيحُ عن عبد الله بن مسعود أن رجلاً قال له: أنا ابن[١] الأشياخِ الكرام. فقال عبد الله: ذلك يوسفُ بن يعقوبَ بنِ إسحاقَ ذبيحِ الله بنِ إبراهيمَ خليلِ الله صلى الله عليهم وسلم.

وقد روى حمَّاد بن زيد يرفعه[٢] إلى رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بن إبراهيم» ﷺ.

وروى أبو الزبير عن جابر قال: الذبيح إسحاق. وذلك مَرويٌّ أيضاً عن عليّ بن أبي طالب ﷺ. وعن عبد الله بن عمر: أن الذبيحَ إسحاق. وهو قولُ عمر ﷺ.

فهؤلاء سبعةٌ من الصحابة. وقال به من التابعين وغيرهم عَلْقَمة والشَّعبي ومجاهد وسعيد بن جُبير وكعب الأحبار وقتادة ومسروق وعِكرمة والقاسم بن أبي بَزَّة وعطاء ومقاتل وعبد الرحمن بن سابط والزهريّ والسُّدي وعبد الله بن أبي الهُذيل ومالك بن أنس، كلُّهم قالوا: الذبيح إسحاق. وعليه أهلُ الكتابَيْن اليهود والنصارى، واختاره غير واحد، منهم النحاس والطبري وغيرهما[٣]. قال سعيد بن جُبير: أُرِيَ إبراهيمُ ذبحَ إسحاق في المنام، فسار به مَسيرة شهر في غَداة واحدة، حتى أتى به المَنْحر من مِنىً؛ فلما صرف اللهُ عنه الذَّبح وأمره أنْ يَذبحَ الكبشَ فذبحه[٤]، وسار به مسيرةَ شهر في

---

(١) في (ز) و(ظ): أيا ابن، وفي (د) و(ف) و(م): يا بن. والمثبت المصادر، والخبر أخرجه الطبري ١٩/ ٥٨٩، والطبراني في الكبير (٨٩١٦)، والحاكم ٢/ ٥٧١.

(٢) الكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣١، وفيه: وقد روى حماد بن زيد، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.. وذكر الحديث ا. هـ. وأخرجه أحمد (٩٣٨٠) من طريق حماد ابن سلمة عن محمد بن عمرو به، ولم نقف على الحديث في المصادر من طريق حماد بن زيد كما ذكر النحاس. وسلف ١١/ ٣٧١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣١ - والكلام السالف منه - وتفسير الطبري ١٩/ ٥٩٨، وليس فيهما نسبة القول لعمر ﷺ وقد ذكره عن عمر البغوي في تفسيره ٤/ ٣٢، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٧٢. وقد استبعد الدكتور محمد أبو شهبة في كتابه الإسرائيليات والموضوعات في التفسير ص ٢٥٧ أن يكون عمر ﷺ قال ذلك. قال: وكذلك اختُلف في عليّ ﷺ، فالبغوي على أنه يقول: إسحاق، وابن أبي حاتم [كما في تفسير ابن كثير ٧/ ٣٤] على أنه يقول: إسماعيل.

(٤) كذا في النسخ، ولعل الصواب: أمره أن يذبح الكبش فذبحه، دون واو، ولم ترد لفظة: فذبحه في (ظ). والخبر في تفسير البغوي ٤/ ٣٢ وفيه: فلما أمره الله تعالى بذبح الكبش ذبحه وسار به...

رَوْحة واحدة طُويت له الأودية والجبال. وهذا القولُ أقوى في النَّقل عن النبي ﷺ[١] وعن الصحابة والتابعين[٢].

وقال آخرون: هو إسماعيل. وممن قال ذلك أبو هريرة[٣] وأبو الطُّفيل عامر بن واثله[٤]. ورُوي ذلك عن ابن عمر وابن عباس أيضاً، ومن التابعين سعيدُ بن المسيَّب والشّعبي ويوسف بن مِهْران ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القُرَظيّ والكلبي وعلقمة[٥]. وسُئل أبو سعيد الضَّرير عن الذبيح فأنشد:

إنّ الذبيح هُدِيتَ إسماعيلُ ... نَطقَ الكتابُ بِذاك والتنزيلُ
شرفٌ به خصَّ الإلهُ نبيَّنا ... وأتى به التفسيرُ والتأويلُ
إن كنتَ أُمَّتَه فلا تُنْكِرْ له ... شرفاً به قد خصَّه التفضيل[٦]

وعن الأصمعي قال: سألتُ أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعيُّ، أين عَزَب عنك عقلك؟! ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمَنْحر بمكة[٧].

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/٥٨٨ من حديث العباس ﷺ مرفوعاً. قال الحافظ ابن كثير: في إسناده ضعيفان، وهما الحسن بن دينار البصري، متروك، وعلي بن زيد بن جُدعان، منكر الحديث.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/٣٢: وهذه الأقوال (يعني الواردة في أن الذبيح إسحاق عليه السلام) والله أعلم كلها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلم.. جعل يحدث عمر ﷺ عن كتبه.. ونقلوا عنه غثَّها وسمينَها، وليس لهذه الأمة حاجة إلى حرف واحد مما عنده.

(٣) ذكره عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٣١.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٩٥.

(٥) هذه الأقوال في تفسير البغوي ٤/ ٣٢، وزاد المسير ٧/ ٧٢ - ٧٣. وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ٣٣: وهو الصحيح المقطوع به. وينظر كتاب الإسرائيليات والموضوعات للدكتور محمد أبو شهبة ص٢٥٢ -٢٦٠.

(٦) ذكر هذه الأبيات الآلوسي في روح المعاني ٢٣/ ١٣٣.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٣.

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّ الذبيحَ إسماعيل[1].

والأوّل أكثرُ عن النبي ﷺ وعن أصحابه وعن التابعين.

واحتجُّوا بأنَّ اللهَ عزّ وجلّ قد أخبر عن إبراهيم حين فارق قومَه، فهاجر إلى الشام مع امرأته سارَّة وابن أخيه لوط فقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أنه دعا فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٤٩]؛ ولأنَّ اللَّه قال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فذكر أن الفداء في الغلام الحليم الذي بُشِّر به إبراهيم، وإنما بُشِّر بإسحاق؛ لأنه قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ [الصافات: ١١٢]، وقال هنا: ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ وذلك قبلَ أن يتزوَّج هاجرَ وقبلَ أن يُولَد له إسماعيل، وليس في القرآن أنه بُشر بولد إلا إسحاق.

احتجَّ من قال: إنه إسماعيل، بأن اللهَ تعالى وصفَه بالصبر دون إسحاق في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥] وهو صبرُه على الذَّبح، ووصفَه بِصِدْق الوَعْد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]؛ لأنه وعدَ أباه من نفسه الصبرَ على الذَّبح فوفَّى به؛ ولأن الله تعالى قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا﴾ [الصافات: ١١٢] فكيف يأمرُه بذبحه وقد وعدَه أن يكون نبيّاً، وأيضاً فإنَّ الله تعالى قال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] فكيف يُؤمَر بذبح إسحاق قبلَ إنجاز الوعد في يعقوب. وأيضاً ورد في الأخبار تعليقُ قَرْن الكبش في الكعبة، فدلَّ على أن الذبيحَ إسماعيل، ولو كان إسحاقَ لكان الذبحُ يقع ببيت المَقْدس[2].

وهذا الاستدلال كلُّه ليس بقاطع، أمَّا قولُهم: كيف يأمره بذبحه وقد وعدَه بأنه يكون نبيّاً، فإنه يَحتمِلُ أن يكونَ المعنى: وبشَّرناه بنبوَّته بعد أن كان من أمره ما كان؛

---

(١) لعله يريد حديث معاوية ﷺ أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا بن الذبيحين.. وهو ضعيف، وسيأتي بتمامه في المسألة السادسة عشرة.

(٢) تفسير الرازي ٢٦/١٥٣ - ١٥٥.

قاله ابن عباس. وسيأتي[١].

ولعلَّه أُمِرَ بذبح إسحاق بعد أن وُلِدَ لإسحاق يعقوب[٢]. أو يقال: لم يَرِدْ في القرآن أن يعقوبَ يُولَد من إسحاق.

وأما قولهم: ولو كان الذبيح إسحاقَ لكان الذبح يقع ببيت المقدس، فالجواب عنه ما قاله سعيد بن جُبير على ما تقدَّم.

وقال الزجاج[٣]: الله أعلمُ أيّهما الذبيح. وهذا مذهبٌ ثالث.

الثانية: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ قال مقاتل: رأى ذلك إبراهيمُ عليه السلام ثلاثَ ليال مُتتابعات[٤]. وقال محمد بن كعب: كانت الرُّسُل يأتيهم الوحيُ من الله تعالى أيقاظاً ورُقوداً؛ فإنَّ الأنبياءَ لا تنام قلوبُهم. وهذا ثابتٌ في الخبر المرفوع، قال ﷺ: «إنَّا معاشرَ الأنبياء تنامُ أعينُنا ولا تنامُ قلوبُنا»[٥]. وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وَحْيٌ؛ واستدلَّ بهذه الآية[٦].

وقال السّدي: لما بُشِّر إبراهيمُ بإسحاق قبلَ أن يُولَد له قال: هو إذاً لله ذبيح. فقيل له في منامه: قد نذرتَ نذراً فَفِ بنذرك[٧].

---

(١) في المسألة السادسة عشرة.

(٢) الكلام بمعناه في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٢ دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣١١.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٣.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ ابن سعد في طبقاته ١/ ١٧١ عن عطاء مرسلاً. وأخرج البخاري (٣٥٧٠) عن أنس بن مالك ﷺ قوله ضمن حديث الإسراء: وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم. وأخرج أحمد (٢٤٠٧٣)، والبخاري (٢٠١٣)، ومسلم (٧٣٨) حديث عائشة رضي الله عنها ولفظه: «يا عائشة، إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي» وفي الباب عن ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه أحمد (١٩١١)، والبخاري (١٣٨).

(٦) أخرجه ابن ابي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٧/ ٢٨ ، الطبراني في الكبير (١٢٣٠٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٧٦ : رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم، وهو ضعيف، وبقية رجاله رجال الصحيح. وأخرجه البخاري (١٣٨) من قول عُبيد بن عُمير.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٣.

ويقال: إنَّ إبراهيمَ رأى في ليلة التروية كأنَّ قائلاً يقول: إنَّ الله يأمركَ بذبح ابنك؛ فلما أصبحَ رَوَّى في نفسه، أي: فَكَّر؛ أهذا الحُلْم من الله أَمْ من الشيطان؟ فَسُمِّي يومَ التَّرْوية. فلما كانت الليلةُ الثانيةُ رأى ذلك أيضاً، وقيل له: الوعدَ، فلما أصبح عَرَفَ أن ذلك من الله، فَسُمِّيَ يومَ عَرَفة. ثم رأى مثلَه في الليلة الثالثة، فَهمَّ بنحره، فسُمِّي يومَ النَّحر[1]. ورُوي أنه لما ذَبحه قال جبريل: الله أكبرُ، الله أكبر. فقال الذبيح: لا إله إلا الله والله أكبر. فقال إبراهيم: الله أكبرُ والحمدُ لله؛ فبقي سُنَّةً. وقد اختلف الناسُ في وقوع هذا الأمر وهي:

الثالثة: فقال أهلُ السنة: إنَّ نفسَ الذَّبح لم يَقَعْ، وإنما وقع الأمرُ بالذبح قبل أن يقعَ الذَّبح، ولو وقع لم يُتصوَّر رَفْعُه، فكان هذا من باب النَّسخ قبل الفعل؛ لأنه لو حصل الفراغُ من امتثال الأمر بالذَّبح ما تحقَّق الفِداء[2]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَآ﴾. أي: حقَّقت ما نبَّهناك عليه، وفعلتَ ما أمكنكَ، ثم امتنعتَ لمَّا منعناك. هذا أصحُّ ما قيل به في هذا الباب.

وقالت طائفة: ليس هذا مما يُنسخ بوجه؛ لأن معنى ذبحت الشيء قطعته. واستدلّ على هذا بقول مجاهد: قال إسحاق لإبراهيم لا تنظر إليَّ فترحمَني، ولكن اجعَلْ وجهيَ إلى الأرض؛ فأخذَ إبراهيمُ السِّكين فأمَرَّها على حَلْقه فانقلبتْ. فقال له: ما لكَ؟ قال: انقلبتِ السِّكين. قال: اطعنِّي بها طَعْناً[3].

وقال بعضهم: كان كلما قطعَ جُزءاً اِلْتأم. وقالت طائفة: وجدَ حَلْقه نُحاساً أو مُغشّى بنحاس، وكان كلَّما أراد قطعاً وجدَ منعاً. هذا كلُّه جائزٌ في القُدرة الإلهيّة، لكنه يفتقرُ إلى نقل صحيح، فإنه أَمْرٌ لا يُدرك بالنَّظر وإنما طريقُه الخبر[4].

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٣٣ بنحوه عن محمد بن إسحاق، وفيه أن هذه القصة جرت مع إسماعيل عليه السلام.

(٢) تفسير الرازي ٢٦/ ١٥٥ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٦ بنحوه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٢ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٦ .

ولو كان قد جرى ذلك لَبيَّنه اللهُ تعالى تعظيماً لِرُتْبة إسماعيل وإبراهيم صلوات الله عليهما، وكان أولى بالبيان من الفِداء[١] .

وقال بعضُهم : إنَّ إبراهيم ما أُمر بالذَّبح الحقيقي الذي هو فَرْيُ الأوداج وإنهارُ الدم، وإنما رأى أنه أَضجعه للذبح فتوهَّم أنه أُمر بالذبح الحقيقي، فلما أتى بما أُمر به من الإضجاع قيل له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَآ﴾ .

وهذا كلُّه خارجٌ عن المفهوم. ولا يُظَنُّ بالخليل والذبيح أن يَفهما من هذا الأمر ما ليس له حقيقة حتى يكون منهما التوهُّم. وأيضاً لو صحَّتْ هذه الأشياءُ لما احتيج إلى الفِداء.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قرأ أهلُ الكوفة غير عاصم: «ماذَا تُرِي» بضم التاء وكسر الراء مِن: أُرِي يُرِي[٢]. قال الفرّاء[٣]: أي: فانظُر ماذا تري من صبرك وجَزَعك. قال الزجاج[٤]: لم يَقُلْ هذا أحدٌ غيره، وإنما قال العلماء: ماذا تُشير؛ أي: ما تُريك نفسُك من الرأي. وأنكر أبو عُبيد «تُرِي» وقال: إنما يكون هذا من رؤية العين خاصة. وكذلك قال أبو حاتم .

النحاس[٥]: وهذا غلطٌ، وهذا يكون من رؤية العين وغيرها، وهو مشهور، يقال: أَريت فلاناً الصواب، وأَريته رُشدَه، وهذا ليس من رؤية العين .

الباقون: «تَرَى» مضارع رَأَيت .

وقد رُوي عن الضحاك والأعمش: «تُرَى» غير مسمى الفاعل[٦]. ولم يقل له ذلك

(١) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٥٧ .

(٢) السبعة ص ٥٤٨، والتيسير ص ١٨٦ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٣ .

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣١٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٦/ ٤٧ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٣ ، وما قبله منه.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٣ ، وزاد المسير ٧/ ٧٥ .

على وجه المُؤامرة في أمر الله، وإنما شاوره لِيعلم صبرَه لأمر الله[١]؛ أو لِتقرَّ عينُه إذا رأى من ابنه طاعةً في أمر الله فـ ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: ما تُؤمر به، فحذفَ الجار كما حذف من قوله:

أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعلْ مَا أُمِرتَ بِهِ[٢]

فوصل الفعل إلى الضمير فصار: تُؤمره، ثم حذفت الهاء؛ كقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩] أي: اصطفاهم على ما تقدَّم. و«ما» بمعنى الذي.

﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ قال بعضُ أهل الإشارة: لما استثنى وفَّقه الله للصبر. وقد مضى الكلامُ في «يا أَبتِ» وكذلك في «يا بُنيَّ» في «يوسف» وغيرها[٣].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ أي: انقادا لأمر الله. وقرأ ابن مسعود وابن عباس وعليٌّ رضوان الله عليهم: «فلمَّا سَلَّما»[٤] أي: فوَّضا أمرَهما إلى الله. وقال ابن عباس: استسلما. وقال قتادة: أسلم أحدُهما نفسَه لله عز وجل وأسلمَ الآخرُ ابنَه[٥].

﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ قال قتادة: كَبَّه وحوَّل وجهَه إلى القِبلة. وجواب «لمَّا» محذوفٌ عند البصريين تقديره: «فلمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ للجبين» فديناه بكبش.

وقال الكوفيون: الجوابُ: «نَادَيْنَاهُ» والواو زائدة مُقْحَمة[٦]؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ﴾ [يوسف: ١٥] أي: أوحينا. وقوله: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ . وَٱقْتَرَبَ﴾ [الأنبياء: ٩٦-٩٧] أي: اقترب. وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٢٢.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٤٨، والبيت سلف بتمامه ٤/ ١٢٣، واختلف في قائله، وقد بيَّناه ثمة.

(٣) ١١/ ٢٤٥.

(٤) المحتسب ٢/ ٢٢٢.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٨٤.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٣.

﴿جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ﴾ [الزمر: ٧٣] أي: قال لهم. وقال امرؤ القيس:

فلمّا أَجَزْنا ساحةَ الحيِّ وانتحى[١]

أي: انتحى، والواو زائدة. وقال أيضاً:

حتّى إذا حَمَلَتْ بُطُونُكُمُ ورأيتُمُ أبناءَكم شَبُّوا
وَقَلَبْتُمُ ظهرَ المِجَنِّ لنا إنَّ اللئيمَ الفاجِرُ الخِبُّ[٢]

أراد: قلبتم. النحاس[٣]: والواو من حروف المعاني لا يجوز أن تُزاد.

وفي الخبر: إنَّ الذبيحَ قال لإبراهيم عليه السلام حين أراد ذبحه: يا أبت اشدُدْ رِباطي حتى لا أَضطرب، واكفف ثيابَك لئلا ينتضِحَ عليها شيء من دمي فتراه أُمِّي فتحزن، وأَسْرِعْ مَرَّ السِّكين على حَلْقي ليكونَ الموتُ أهونَ عليَّ، واقذُفني للوجه؛ لئلا تنظر إلى وجهي فترحمَني، ولئلا أنظرَ إلى الشَّفرة فأجزع، وإذا أتيتَ إلى أُمي فأقرئها مني السلام. فلما جَرَّ إبراهيمُ عليه السلام السِّكين ضربَ اللهُ عليه صفيحةً من نُحاس، فلم تعمل السكين شيئاً، ثم ضرب به على جبينه وحزَّ في قفاه فلم تعمل السِّكين شيئاً[٤]؛ فذلك قوله تعالى: «وَتَلَّهُ للجبينِ»، كذلك قال ابن عباس: معناه: كبَّه على وجهه[٥]، فنُودي ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ فالتفت فإذا بكبش؛ ذكره المهدوي. وقد تقدّمت الإشارة إلى عدم صحته[٦]، وأن المعنى لما اعتقد الوجوبَ وتهيَّأ للعمل؛ هذا بهيئة الذبح، وهذا بصورة المَذْبوح، أعطيا محلّاً للذبح فِداء، ولم

(١) سلف ٢/ ٨٥.

(٢) البيتان في معاني القرآن للفراء ١/ ١٠٧، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٢١، وخزانة الأدب ١١/ ٤٤، واللسان (قمل) من غير نسبة، وفيها: قَمِلَتْ، بدل: حملت، والعاجز، بدل: الفاجر. وقملت بطونكم، أي: كثرت قبائلكم. اللسان (قمل).

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٣.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٣٣ - ٣٤ بنحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٨٥.

(٦) في المسألة الثالثة.

يكن هناك مرُّ سكين[١]. وعلى هذا يتصوَّر النَّسخ قبل الفعل على ما تقدَّم[٢]. والله أعلم.

قال الجوهري: «وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ» أي: صرعه؛ كما تقول: كَبَّه لِوجهه[٣]. الهروي: والتَّلُّ: الدَّفْع والصَّرع؛ ومنه حديث أبي الدرداء ﷺ: وتركوك لِمَتَلِّكَ[٤]، أي: لمصرعك. وفي حديث آخر: «فجاء بناقةٍ كَوْماء فَتلَّها»[٥] أي: أناخها. وفي الحديث: «بينا أنا نائمٌ أُتيتُ بمفاتيح خَزائنِ الأرض فَتُلَّتْ في يدي»[٦]، قال ابن الأنباري: أي: فَأُلقيتْ في يدي؛ يقال: تَلَلْتُ الرجل، إذا ألقيته. قال ابن الأعرابي: فَصُبَّتْ في يدي؛ والتَّلُّ الصَّبُّ؛ يقال: تلَّ يتلُّ إذا صبَّ، وتَلَّ يَتِلّ ـ بالكسر ـ إذا سقط[٧].

قلت: وفي «صحيح مسلم»: عن سهل بن سعد السَّاعدي أن رسولَ الله ﷺ أُتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلامٌ وعن يساره أشياخ؛ فقال للغلام: «أَتأْذَنُ لي أن أُعطي هؤلاء» فقال الغلام: لا والله، لا أُوثر بنصيبي منك أحداً. قال: فتلَّه رسولُ الله ﷺ في يده[٨]؛ يُريد: جعله في يده.

وقال بعضُ أهل الإشارة: إنَّ إبراهيمَ ادَّعى محبةَ الله، ثم نظر إلى الولد بالمحبة، فلم يرضَ حبيبه محبةً مشتركة؛ فقيل له: يا إبراهيم، اذبح ولدَك في

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٧ بنحوه.

(٢) في المسألة الثالثة.

(٣) الصحاح (تلل).

(٤) ذكره ابن الجوزي في غريب الحديث ١/ ١١٠، وابن الأثير في النهاية (تلل).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٢/ ٤٠ - ٤١ مطولاً من حديث وائل بن حجر ﷺ. وفي الباب عن سُويد ابن غَفَلَة ﷺ أخرجه أحمد (١٨٨٣٧)، والنسائي ٥/ ٣٠ . وقوله: كوماء: أي: مشرفة السنام عالية. حاشية السندي على المجتبى.

(٦) أخرجه أحمد (١٠٥١٧)، والبخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وعند البخاري ومسلم: فَوُضِعَتْ، بدل: فَتُلَّت.

(٧) تهذيب اللغة ١٤/ ٢٥١ .

(٨) صحيح مسلم (٢٠٣٠)، وأخرجه أحمد (٢٢٨٢٤)، والبخاري (٢٤٥١).

مرضاتي، فشمَّر وأَخذ السكين وأَضجع ولدَه، ثم قال: اللهم تَقبَّلْهُ مني في مرضاتك. فأوحى الله إليه: يا إبراهيم لم يكن المرادُ ذبحَ الولد، وإنما المرادُ أن تَرُدَّ قلبك إلينا، فلما رددتَ قلبك بكُلِّيَّته إلينا رددنا ولدَك إليك[١].

وقال كعب وغيره: لما أُري إبراهيمُ ذبحَ ولده في منامه، قال الشيطان: والله، لئن لم أَفتن عند هذا آلَ إبراهيم لا أَفتن منهم أحداً أبداً. فتمثَّل الشيطانُ لهم في صورة الرجل، ثم أتى أُمَّ الغُلام وقال: أتدرينَ أين يذهب إبراهيمُ بابنك؟ قالت: لا. قال: إنه يذهبُ به لِيذبحه. قالت: كلاّ، هو أرأفُ به من ذلك. فقال: إنه يَزعُم أن ربَّه أمره بذلك. قالت: فإنْ كان ربُّه قد أمره بذلك فقد أحسنَ أن يُطيعَ ربَّه. ثم أتى الغُلام فقال: أتدري أين يذهبُ بك أبوك؟ قال: لا. قال: فإنه يذهب بك لِيذبحك. قال: ولم؟ قال: زَعم أنَّ ربَّه أمره بذلك. قال: فَلْيفعَلْ ما أمره اللهُ به، سمعاً وطاعةً لأمر الله. ثم جاء إبراهيمُ فقال: أين تُريد؟ والله، إني لأَظنُّ أن الشيطانَ قد جاءك في منامك، فأمرك بذبح ابنك. فَعَرفَه إبراهيمُ عليه السلام، فقال: إليك عني يا عدوَّ الله، فوالله لأَمضِينَّ لأمر ربي. فلم يُصب الملعونُ منهم شيئاً[٢].

وقال ابن عباس: لما أُمر إبراهيمُ بذبح ابنه عرضَ له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حَصَيَات حتى ذهب، ثم عرضَ له عند الجَمْرة الوسطى، فرماه بسبع حَصَيات حتى ذهب، ثم عرضَ له عند الجمرة الأُخرى، فرماه بسبع حَصَيات حتى ذهب، ثم مضَى إبراهيمُ لأمر الله تعالى[٣].

واختُلف في الموضع الذي أراد ذبحه [فيه] فقيل: بمكة في المقام[٤]. وقيل: في المَنْحر بمنى عند الجمار التي رمَى بها إبليسَ لعنه الله؛ قاله ابن عباس وابن عمر

(١) لطائف الإشارات ٣/ ٢٣٩ بمعناه.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٩٠، وذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ١٢٠، والبغوي في تفسيره ٤/ ٣٤.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٤.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٠١. عن عُبيد بن عُمير.

ومحمد بن كعب وسعيد بن المسيَّب .

وحُكي عن سعيد بن جُبير : أنه ذبحه على الصخرة التي بأصل ثَبِير بِمنىً. وقال ابن جُريج : ذبحه بالشام، وهو من بيت المقدس على مِيلين[(١)] .

والأول أكثر[(٢)] ؛ فإنه ورد في الأخبار تعليقُ قَرْن الكبش في الكعبة، فدلَّ على أنه ذبحه بمكة. وقال ابن عباس : فوالذي نفسي بيده، لقد كان أول الإسلام، وإنَّ رأسَ الكبش لَمعلَّق بقرنيه في مِيزاب الكعبة وقد يَبِسَ[(٣)] .

أجاب مَن قال بأنَّ الذبح وقع بالشام: لعلَّ الرأسَ حُمِلَ من الشام إلى مكة. والله أعلم[(٤)].

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: نَجزيهم بالخَلاص من الشدائد في الدنيا والآخرة .﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: النِّعمة الظاهرة؛ يقال: أبلاه الله إبْلاءً وبَلَاءً، إذا أنعم عليه. وقد يقال: بَلاهُ. قال زهير:

فأَبْلاهما خَيْرَ البلاءِ الذي يَبْلو[(٥)]

فزعم قومٌ أنه نجاء باللُّغتين. وقال آخرون: بل الثاني من: بَلاهُ يَبْلُوهُ إذا اختبره، ولا يقال من الاختبار إلا بَلاه يَبْلوه، ولا يقال من الابتلاء: يبلوه. وأصلُ هذا كلِّه من الاختبار أن يكون بالخير والشرّ؛ قال الله عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]. وقال ابن زيد[(٦)]: هذا في[(٧)] البلاء الذي نزلَ به في أن يذبحَ ابنه؛ قال:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٦٢ .

(٢) وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٨٣ : وما يستغرب في هذه الآية أن عُبيد بن عُمير قال: ذُبح في المقام.. وقال الجمهور: ذُبح بمنى.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٠٣ .

(٤) تفسير الطبري ١٩/ ٦٠٣ بنحوه.

(٥) شرح ديوان زهير ص١٠٩ ، وصدره: رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم. وفي رواية: جزى الله..

(٦) في النسخ: أبو زيد، وهو خطأ، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٤ والكلام منه. والخبر أخرجه الطبري ١٩/ ٥٨٧ عن ابن زيد.

(٧) في (م): من.

وهذا من البلاء المكروه.

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ الذِّبح اسمُ المَذْبوح وجمعه ذبوح؛ كالطِّحن اسم المَطْحون. الذَّبح بالفتح المصدر[١]. «عظِيمٍ» أي: عظيم القَدْر، ولم يُرِدْ عظيمَ الجُثَّة، وإنما عَظُم قدرُه لأنه فدى به الذبيح؛ أو لأنه مُتقبَّل.

قال النحاس[٢]: عظيم في اللغة يكون للكبير وللشريف. وأهلُ التفسير على أنه هاهنا للشريف، أي: المُتقبَّل.

وقال ابن عباس: هو الكبش الذي تقرَّب به هابيلُ، وكان في الجنة يرعى حتى فدى اللهُ به إسماعيل. وعنه أيضاً: أنه كبشٌ أرسله اللهُ من الجنة كان قد رعَى في الجنة أربعين خريفاً. وقال الحسن: ما فُدِيَ إسماعيلُ إلا بتيس من الأَرْوَى أُهبِطَ عليه من ثَبِير، فذبحه إبراهيم فِداءً عن ابنه، وهذا قولُ علي ﷺ[٣]. فلما رآه إبراهيمُ أخذَه فذبحه وأعتق ابنَه. وقال: يا بُنيَّ، اليومَ وُهِبتَ لي.

وقال أبو إسحاق الزجاج[٤]: قد قيل: إنه فُدِيَ بوَعْل، والوَعْل: التيس الجبليّ وأهلُ التفسير على أنه فُدِيَ بكبش.

الثامنة: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ الأُضحيَّةَ بالغنم أفضلُ من الإبل والبقر. وهذا مذهبُ مالك وأصحابه. قالوا: أفضلُ الضحايا الفُحول من الضَّأن، وإناثُ الضأن أفضلُ من فحل المَعْز، وفُحول المَعْز خيرٌ من إناثها، وإناثُ المَعز خيرٌ من الإبل والبقر. وحُجَّتهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي: ضخم الجُثَّة سمين، وذلك كبشٌ لا جملٌ ولا بقرةٌ.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٤.

(٢) في معاني القرآن ٦/ ٥١.

(٣) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٩/ ٦٠٠ - ٦٠٤. والأروى: غنم الجبل، وثبير: جبل بمكة. النهاية (أرو) و(ثبر).

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣١٢.

وروى مجاهد وغيره عن ابن عباس أنه سأله رجل: إني نذرتُ أن أنحرَ ابني؟ فقال: يجزيك كبشٌ سمين[١]، ثم قرأ: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

وقال بعضهم: لو علم اللهُ حيواناً أفضلَ من الكبش لَفدَى به إسحاق.

وضحّى رسول الله ﷺ بكبشين أمْلحين[٢]. وأكثر ما ضحّى به الكباش. وذكر ابن أبي شيبة عن ابن عُلَيَّة، عن الليث، عن مجاهد قال: الذِّبح العظيم الشاة[٣]؟

التاسعة: واختلفوا أيما أفضل: الأُضحيَّة أو الصدقة بثمنها. فقال مالك وأصحابه: الضَّحِيَّة أفضلُ إلا بمنىً؛ لأنه ليس موضع الأُضحيَّة؛ حكاه أبو عمر[٤].

وقال ابن المنذر: روينا عن بلال أنه قال: ما أُبالي ألّا أُضَحِّي إلا بديك، ولأَن أَضعَه في يتيم قد تَرِب فيه ـ هكذا قال المُحدِّث ـ أحبُّ إليَّ من أنْ أُضحِّيَ به[٥]. وهذا قولُ الشعبي: إنَّ الصدقةَ أفضلُ. وبه قال مالك وأبو ثور. وفيه قول ثانٍ: وهو أن الضَّحِيَّة أفضل؛ هذا قولُ ربيعةَ وأبي الزِّناد. وبه قال أصحاب الرأي. زاد أبو عمر[٦] وأحمد بن حنبل قالوا: الضحيَّة أفضلُ من الصدقة؛ لأن الضحيَّة سنةٌ وكيدة[٧] كصلاة العيد، ومعلومٌ أن صلاةَ العيد أفضلُ من سائر النوافل، وكذلك صلواتُ السُّنَن أفضلُ من التطوّع كلِّه.

قال أبو عمر[٨]: وقد رُوي في فضل الضحايا آثارٌ حِسان؛ فمنها ما رواه سعيدُ بن

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٥٩٠٤)، وفيه وفي التمهيد ٢٢/ ٢٩ ـ والكلام منه ـ أن السائل نذر أن ينحر نفسه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥٨)، ومسلم (١٩٦٦) من حديث أنس ﷺ، وسلف ١٤/ ٤٠٤.

(٣) التمهيد ٢٢/ ٢٩.

(٤) في التمهيد ٢٣/ ١٩٢.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٨١٥٦)، وفيه: .. ولأن أتصدَّق بثمنها على يتيم أو مغبرّ أحبُّ إليَّ..

(٦) في التمهيد ٢٣/ ١٩٢.

(٧) في (م): مؤكدة، وكلاهما بمعنى.

(٨) في التمهيد ٢٣/ ١٩٢ - ١٩٣.

داود بن أبي زَنْبَر[١]، عن مالك، عن ثور بن زيد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِنْ نفقةٍ بعد صِلَةِ الرحم أفضلُ عند الله من إهراق الدَّمِ». قال أبو عمر: وهو حديثٌ غريب من حديث مالك.

وعن عائشة قالت: يا أيها الناس، ضَحُّوا وطِيبوا أَنْفُساً؛ فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما مِنْ عبد توجَّه بأُضْحِيَّته إلى القِبلة إلا كان دَمُها وقَرْنُها وصوفُها حسناتٍ مُحضراتٍ في ميزانه يومَ القيامة، فإنَّ الدَّمَ إن وقعَ في التراب فإنما يقعُ في حِرْز الله حتى يُوفيه صاحبه يومَ القيامة» ذكره أبو عمر في كتاب «التمهيد». وخرَّجه الترمذي أيضاً عنها أن رسولَ الله ﷺ قال: «ما عَمِلَ آدميٌّ من عملٍ يومَ النَّحرِ أحبَّ إلى الله من إهراق الدم، إنها لَتأتي[٢] يومَ القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها، وإنَّ الدَّم ليقعُ من الله بمكانٍ قبل أن يقع إلى الأرض، فَطِيبوا بها نفساً» قال: وفي الباب عن عِمْران بن حُصَين وزيد بن أَرْقَم، وهذا حديث حسن[٣].

العاشرة: الضحيَّة ليست بواجبة، ولكنها سنّة ومعروف. وقال عكرمة: كان ابن عباس يَبعثني يومَ الأضحى بدرهمين أشتري له لحماً، ويقول: مَنْ لَقِيتَ فقل: هذه أُضْحِيَّة ابن عباس.

قال أبو عمر[٤]: ومَحْمل هذا وما رُوي عن أبي بكر وعمر أنهما لا يُضَحِّيان عند أهل العلم؛ لئلا يُعتقَدَ في المواظبة عليها أنها واجبةٌ فرض، وكانوا أئمةً يقتدي بهم

(١) قال فيه الحافظ ابن حجر في التقريب ص ١٧٥: صدوق، له مناكير عن مالك، ويقال: اختلط عليه بعض حديثه، وكذَّبه عبد الله بن نافع في دعواه أنه سمع من لفظ مالك.

(٢) في النسخ الخطية: إنه ليأتي، والمثبت من (م)، وهو الموافق لسنن الترمذي.

(٣) سنن الترمذي (١٤٩٣) وقول الترمذي فيه: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث هشام بن عروة: لا من هذا الوجه. قال ابن العربي في عارضة الأحوذي ٦/ ٢٨٨: ليس في فضل الأضحية حديث صحيح.

(٤) في التمهيد ٢٣/ ١٩٤ - ١٩٥ ، وما قبله منه. وخبر ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه عبد الزاق في مصنفه (٨١٤٦).

مَن بعدَهم ممن ينظر في دينه إليهم؛ لأنهم الواسطةُ بين النبي ﷺ وبين أُمَّته، فساغ لهم من الاجتهاد في ذلك ما لا يَسوغ اليومَ لغيرهم .

وقد حكى الطحاوي في «مختصره»[1]: وقال أبو حنيفة: الأُضْحِيَّةُ واجبةٌ على المقيمين الواجدين من أهل الأمصار، ولا تجبُ على المسافر.قال: ويجبُ على الرجل من الأُضحيَّة على ولده الصغير مثل الذي يجب عليه عن نفسه. وخالفه أبو يوسف ومحمد فقالا: ليست بواجبة، ولكنها سنةٌ غيرُ مُرخَّص لمن وجدَ السبيل إليها في تركها. قال: وبه نأخذ .

قال أبو عمر[2]: وهذا قولُ مالك؛ قال: لا ينبغي لأحدٍ تركُها مسافراً كان أو مقيماً، فإنْ تركها فبئس ما صنع إلا أن يكونَ له عذرٌ إلا الحاجَّ بمنىً. وقال الإمام الشافعي: هي سنة على جميع الناس وعلى الحاجِّ بمنىً، وليست بواجبة. وقد احتجَّ من أوجبها بأنَّ النبيَّ ﷺ أمر أبا بُرْدةَ بن نِيَار أن يُعيدَ ضَحِيَّةً أُخرى[3]؛ لأنَّ ما لم يكن فرضاً لا يُؤمر فيه بالإعادة .

احتجَّ الآخرون بحديث أُمِّ سلمةَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إذا دخلَ العشرُ وأَراد أَحُدكم أن يُضَحِّيَ»[4]قالوا : فلو كان ذلك واجباً لم يَجعلْ ذلك إلى إرادة المُضَحِّي. وهو قولُ أبي بكر وعمر وأبي مسعود البَدريّ وبلال.

الحادية عشرة: والذي يُضَحَّى به بإجماع المسلمين الأزواج الثمانية: وهي: الضأن، والمَعْز، والإبل، والبقر[5] .

قال ابن المنذر: وقد حُكي عن الحسن بن صالح أنه قال: يُضحَّى ببقرة الوحش

---

(١) ص٣٠٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عبد البر في التمهيد ٢٣/ ١٨٩ ، والاستذكار ١٥/ ١٥٨ .

(٢) في التمهيد ٢٣/ ١٩١ - ١٩٢ ، والاستذكار ١٥/ ١٥٥ - ١٥٦ .

(٣) أخرجه أحمد (١٦٤٨٥)، والبخاري (٩٥٥)، ومسلم (١٩٦١)، وسلف قسم منه ٢/ ٧٥ .

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٤٧٤)، ومسلم (١٩٧٧)، وتتمته: «.. فلا يمسَّ من شعره وبشره شيئاً».

(٥) التمهيد ٢٣/ ١٨٨ .

عن سبعة، وبالظَّبي عن رجل. وقال الإمام الشافعي[١]: لو نزا ثورٌ وحشيٌّ على بقرة إنسيّة، أو ثورٌ إنسيٌّ على بقرة وحشية لا يجوز شيء من هذا أُضْحِيَّةً. وقال أصحابُ الرأي: جائز[٢]؛ لأن ولدَها بمنزلة أُمِّه. وقال أبو ثور: يجوز إذا كان منسوباً إلى الأنعام.

الثانية عشرة: قد مضى في سورة «الحج»[٣] الكلامُ في وقت الذبح والأكل من الأُضحيَّة مستوفىً. وفي «صحيح مسلم»: عن أنس قال: «ضحَّى النبيُّ ﷺ بكبشين أَمْلحين أَقْرنين ذَبَحهما بيده وسمَّى وكبَّر، ووضع رِجْلَه على صِفَاحِهما». في رواية قال: «ويقول: بسم الله والله أكبر[٤]». وقد مضَى في آخر «الأنعام» حديثُ عِمران بن حُصَين[٥]، ومضَى في «المائدة» القولُ في التذكية وبيانها وما يُذَكَّى به، وأنَّ ذكاةَ الجنين ذكاةُ أُمِّه مستوفىً[٦].

وفي «صحيح» مسلم: عن عائشةَ أن رسولَ الله ﷺ أَمَر بكبشٍ أقرنَ يَطَأُ في سواد، ويبرك في سواد، وينظرُ في سواد فأتي به لِيُضَحِّيَ به، فقال لها: «يا عائشةُ، هَلُمِّي المُدْيَةَ» ثم قال: «اشْحَذِيها بحجر» ففعلت، ثم أَخذها وأخذَ الكبش فأَضجعه، ثم ذَبحه، ثم قال: «بسم الله، اللهمَّ تقبَّل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد» ثم ضحَّى به[٧].

وقد اختلف العلماءُ في هذا فكان الحسنُ البصري يقول في الأُضحيَّة: بسم الله واللهُ أكبر، هذا منكَ ولك، تقبَّل من فلان. وقال مالك. إنْ فَعَلَ ذلك فحسن، وإن لم

(١) في الأم ٢/١٦ .
(٢) يعني في الحالة الأولى.
(٣) ١٤/٣٦٦ وما بعدها.
(٤) صحيح مسلم (١٩٦٦)وسلف في المسألة الثامنة وفي ١٤/٤٠٣ .
(٥) ٩/١٤٣ .
(٦) ٧/ ٢٧٤ وما بعدها.
(٧) صحيح مسلم (١٩٦٧)، وهو في مسند أحمد (٢٤٤٩١).

يفعلْ وسمَّى اللهَ أجزأه. وقال الشافعي: والتسميةُ على الذبيحة: بسم الله، فإنْ زاد بعد ذلك شيئاً من ذِكْر الله، أو صلَّى على محمد عليه الصلاة والسلام لم أكرهه، أو قال: اللهم تقبَّلْ مني، أو قال: تقبَّلْ من فلان فلا بأس. وقال النعمان: يُكره أن يذكُرَ مع اسمِ الله غيرَه[١]؛ يُكره أن يقول: اللهمَّ تقبَّلْ من فلان عند الذَّبح. وقال: لا بأس إذا كان قبلَ التسمية وقبلَ أن يضجعَ للذبح. وحديث عائشة يردُّ هذا القولَ. وقد تقدَّم أن إبراهيمَ عليه السلام قال لما أراد ذبح ابنه: الله أكبرُ والحمد لله. فبقي سُنَّةً[٢].

الثالثة عشرة: روى البَرَاءُ بن عازِب أن رسولَ الله ﷺ سُئل: ماذا يُتَّقَى من الضحايا؟ فأشار بيده وقال: «أربعاً» وكان البراءُ يُشير بيده ويقول: يدي أقصرُ من يَدِ رسول الله ﷺ: «العَرْجاء البَيِّنُ ظَلَعُها، والعوراءُ البَيِّنُ عَوَرُها، والمريضةُ البَيِّن مرضُها، والعَجْفاءُ التي لا تُنْقي» لفظ مالك، ولا خلاف فيه[٣]. واختلف في اليَسير من ذلك.

وفي الترمذيّ: عن عليّ ﷺ قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نستَشرِفَ العينَ والأُذن وألَّا نُضَحِّيَ بمقابلة ولا مُدابَرة ولا شَرْقاء ولا خَرْقاء. قال: والمُقابلة: ما قُطِع طرفُ أُذنها، والمُدَابَرة: ما قطِع من جانب الأُذن، والشَّرقاء المشقوقة، والخَرْقاء المثقوبة؛ قال هذا حديثٌ حسن صحيح[٤].

وفي «الموطأ» عن نافع: أنَّ عبدَ الله بن عمر كان يَتَّقي من الضحايا والبُدْن التي لم تُسْنِنْ والتي نقصَ مِن خَلْقها. قال مالك: وهذا أحبُّ ما سمعتُ إليَّ[٥].

---

(١) ذكر قول أبي حنيفة وقول الحسن البصري السالف ابنُ قدامة في المغني ١٣/ ٣٩٠ - ٣٩١.

(٢) في المسألة الثانية.

(٣) الموطأ ص٤٨٢، وأخرجه أحمد (١٨٥١٠)، وأبو داود (٢٨٠٢)، والترمذي (١٤٩٧)، وعند أحمد وأبي داود: الكسير، بدل: العجفاء. وقوله: «لا تُنقي»؛ من: أنقى، إذا صار ذا نِقْي، أي: مخ، فالمعنى: التي ما بقي لها مخ من غاية العجف. حاشية السندي على مسند أحمد.

(٤) سنن الترمذي (١٤٩٨)، وهو في مسند أحمد (٨٥١). وسلف ٧/ ٣٧.

(٥) الموطأ ص٤٨٢.

قال القُتبي: لم تُسْنَنْ، أي: لم تَنبُتْ أسنانُها، كأنها لم تُعْطَ أسناناً. وهذا كما يقال: فلانٌ لم يُلْبَنْ، أي: لم يُعْطَ لبناً، ولم يُسْمَنْ، أي: لم يُعْطَ سمناً، ولم يُعسَلْ أي: لم يُعْطَ عسلاً[١]. وهذا مثل النهي في الأضاحي عن الهَتْماء.

قال أبو عمر[٢]: ولا بأسَ أن يُضحِّيَ عند مالك بالشاة الهَتْماء إذا كان سقوط أسنانها من الكِبَر والهَرَم وكانت سمينةً؛ فإنْ كانت ساقطةَ الأسنان وهي فتيةٌ لم يَجُزْ أن يُضحِّيَ بها، لأنه عيبٌ غير خفيف. والنقصان كلُّه مكروه، وشرحُه وتفصيلُه في كتب الفقه. وفي الخبر عن النبيِّ ﷺ: «استشرفوا ضحاياكم، فإنها على الصِّراط مَطَاياكم» ذكره الزمخشري[٣].

الرابعة عشرة: ودلَّت الآيةُ على أنَّ من نَذَرَ نَحْرَ ابنه أو ذبحه أنه يَفديه بكبش، كما فدَى به إبراهيمُ ابنَه؛ قاله ابن عباس. وعنه رواية أُخرى: يَنحر مئةً من الإبل كما فَدى بها عبدُ المطَّلب ابنَه؛ روى الروايتين عنه الشعبي. وروى عنه القاسم بن محمد: يَجزيه كفارةُ يمين. وقال مسروق: لا شيء عليه[٤].

وقال الشافعي: هو معصيةٌ يستغفر اللهَ منها. وقال أبو حنيفة: هي كلمةٌ يَلزمه بها في ولده ذبحَ شاة ولا يَلزمه في غير ولده شيء[٥]. وقال محمد: عليه في الحلف بنحر

---

(١) غريب الحديث لابن قتيبة ٢/ ٧٧، ونقله المصنف عنه بواسطة التمهيد ٢٠/ ١٧٠ وما بعده منه. وقوله: لم تسنن، قال ابن الأثير في النهاية (سنن): رواه القتيبي بفتح النون الأولى، قال الأزهري: وهم في الرواية، وإنما المحفوظ عن أهل الثبت والضبط بكسر النون، وهو الصواب في العربية. وقال الأزهري: وقوله أيضاً: لم يُلبَن ولم يُسمَن، أي: لم يُعطَ لبناً وسمناً خطأ أيضاً، وإنما معناهما: لم يُطعَم سمناً، ولم يُسْقَ عسلاً. ينظر تهذيب اللغة ١٢/ ٣٠٠، واللسان (سنن).

(٢) في الكافي ١/ ٤٢٢.

(٣) في الكشاف ٣/ ٣٤٩، قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٤/ ١٣٨: لم أره، ونقل عن ابن الصلاح قوله فيه: هذا الحديث غير معروف ولا ثابت فيما علمناه.

(٤) الاستذكار ١٥/ ٥٤، وأقوال ابن عباس رضي الله عنهما أخرجها عبد الرزاق في مصنفه (١٥٩٠٣) و(١٥٩٠٥) و(١٥٩٠٨) و(١٥٩١٠).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٧.

عبده مثل الذي عليه في الحلف بنحر ولده إذا حنث[١].

وذكره ابنُ عبد الحكم عن مالك فيمن قال: أنا أنحرُ ولدي عند مقام إبراهيم في يمين ثم حنثَ، فعليه هَدْيٌ. قال: ومَن نذَر أن ينحرَ ابنَه، ولم يقل: عند مقام إبراهيم ولا أراده[٢]، فلا شيء عليه. قال: ومَن جعل ابنَه هَدْياً أهدى عنه[٣].

قال القاضي ابن العربي[٤]: يلزمه شاةٌ كما قال أبو حنيفة؛ لأنَّ اللهَ تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعاً، فألزم اللهُ إبراهيمَ ذبح الولد، وأخرجه عنه بذبح شاة. وكذلك إذا نذَر العبدُ ذبح ولده يَلزمه أن يذبحَ شاة؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] والإيمانُ التزامٌ أصليٌّ، والنَّذر التزامٌ فرعيٌّ؛ فيجب أن يكونَ محمولاً عليه.

فإنْ قيل: كيف يُؤمر إبراهيمُ بذبح الولد وهو معصيةٌ، والأمرُ بالمعصية لا يجوز. قلنا: هذا اعتراضٌ على كتاب الله، ولا يكون ذلك ممن يعتقد الإسلامَ، فكيف بمن يُفتي في الحلال والحرام؟! وقد قال الله تعالى: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ والذي يجلو الإلباس عن قُلوب الناس في ذلك: أن المعاصي والطاعاتِ ليست بأوصافٍ ذاتية للأعيان، وإنما الطاعاتُ عبارةٌ عما تعلَّق به الأمرُ من الأفعال، والمعصيةُ عبارةٌ عمَّا تعلَّق به النَّهي من الأفعال؛ فلما تعلَّق الأمرُ بذبح الولدِ إسماعيلَ من إبراهيم صار طاعةً وابتلاء، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ في الصبر على ذبح الولد والنَّفس، ولما تعلَّق النهي بنا في ذبح أبنائنا صار معصية.

فإنْ قيل: كيف يصير نَذْراً وهو معصية؟. قلنا: إنما يكون معصيةً لو كان يقصِدُ ذبحَ الولد بنذره ولا يَنوي الفِداء. فإن قيل: فلو وقع ذلك وقصدَ المعصيةَ ولم ينوِ

---

(١) مختصر اختلاف العلماء ٢/ ٢٣٩.

(٢) في (م): أراد.

(٣) الاستذكار ١٥/ ٥٥.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٨ - ١٦٠٩، والكلام منه إلى آخر المسألة.

الفِداء؟ قلنا: لو قَصَدَ ذلك لم يَضُرَّه في قَصْده، ولا أَثَّر في نَذْره؛ لأنَّ نذرَ[1] الولد صار عبارةً عن ذبح الشاة شرعاً.

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: على إبراهيم ثناءً جميلاً في الأُمم بعدَه؛ فما من أُمَّة إلا تُصلِّي عليه وتُحِبُّه. وقيل: هو دعاءُ إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾[2] [الشعراء: ٨٤].

وقال عكرمة: هو السلامُ على إبراهيم[3]، أي: سلاماً منَّا. وقيل: سلامة له من الآفات مثل: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩] حَسَبَ ما تقدَّم. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من الذين أُعطوا العبودية حقَّها حتى استحقُّوا الإضافةَ إلى الله تعالى.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال ابن عباس: بُشِّر بنبوَّته، وذهب إلى أن البِشارة كانت مرتين[4]؛ فعلى هذا الذبيحُ هو إسحاقُ، بُشِّرَ بنبوَّته جزاءً على صَبْره ورِضاهُ بأمر ربِّه واستسلامه له.

﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ أي: ثَنَّينا عليهم النِّعمة وقيل: كثَّرنا ولدَهما؛ أي: باركنا على إبراهيم وعلى أولاده، وعلى إسحاق حين أخرجَ أنبياءَ بني إسرائيل من صُلبه. وقد قيل: إنَّ الكنايةَ في «عليه» تعودُ على إسماعيل وأنه هو الذبيحُ.

قال المفضَّل: الصحيحُ الذي يدلُّ عليه القرآن أنه إسماعيلُ، وذلك أنه قصَّ قِصَّة الذبيح، فلما قال في آخر القِصَّة: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ ثم قال: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على إسماعيل ﴿وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ كنَى عنه؛ لأنه قد تقدَّم ذِكره ثم قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ فدلَّ

---

(١) في (ظ) و(ف) وأحكام القرآن لابن العربي: ذبح.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٦٠٥ - ٦٠٦.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٦٣.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٥، وأخرجه الطبري ١٩/ ٦٠٧.

على أنها ذريَّة إسماعيل وإسحاق، وليس تختلف الرواةُ في أنَّ إسماعيل كان أكبرَ من إسحاق بثلاثَ عشرةَ سنةً[١].

قلت: قد ذكرنا أوَّلاً ما يدلُّ على أنَّ إسحاقَ أكبرُ من إسماعيل، وأن المُبَشَّر به هو إسحاق بنصِّ التنزيل[٢]؛ فإذا كانت البِشارة بإسحاق نصّاً، فالذبيحُ لاشكَّ هو إسحاق، وبُشِّر به إبراهيمُ مرتين؛ الأُولى بولادته، والثانية بنبوَّته؛ كما قال ابن عباس[٣]. ولا تكون النبوَّة إلا في حال الكِبَر.و«نَبِيّاً» نصب على الحال، والهاء في «عليهِ» عائدةٌ إلى إبراهيم، وليس لإسماعيل في الآية ذِكْر حتى ترجِعَ الكِنَاية إليه.

وأما ما رُوي من طريق معاوية قال: سمعتُ رجلاً يقول للنبي ﷺ: يا ابنَ الذَّبيحين؛ فضحك النبيُّ ﷺ. ثم قال معاوية: إنَّ عبد المُطَّلب لما حفر بئرَ زمزم، نذَر لله إنْ سهَّل عليه أمرَها لَيذبحنَّ أحدَ ولده لله، فسهَّلَ الله عليه أمرَها، فوقع السهمُ على عبد الله، فمنعه أخوالُ بنو مخزوم، وقالوا: افدِ ابنَك: فَفَداهُ بمئة من الإبل، وهو الذبيح، وإسماعيل هو الذبيحُ الثاني[٤]. فلا حُجَّةَ فيه؛ لأنَّ سندَه لا يثبتُ على ما ذكرناه في كتاب «الإعلام في معرفة مَوْلد المصطفى عليه الصلاة والسلام»؛ ولأن العربَ تجعلُ العم أباً؛ قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠] وهما أبوه وخالته. وكذلك ما رُوي عن الشاعر الفرزدق عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ[٥] لو صحَّ إسنادُه فكيف وفي الفرزدق نَفْسِه مَقَال؟!.

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره ٤/ ٥١٣، وسلف ذكر اختلاف العلماء في المأمور بذبحه في المسألة الأولى، ونقلنا ثمة قول ابن كثير أن الصحيح المقطوع به أنه إسماعيل عليه السلام

(٢) ١٨/ ٦٣ وما بعدها.

(٣) سلف قريباً.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٩٧ - ٥٩٨ . قال ابن كثير في تفسيره ٧/ ٣٥: وهذا حديث غريب جداً.

(٥) أخرج عبد بن حُميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٨١ عن الفرزدق قال: رأيت أبا هريرة ﷺ يخطب على منبر رسول الله ﷺ ويقول: إن الذي أُمر بذبحه إسماعيل.

السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ﴾ لمَّا ذكر البركةَ في الذرية والكَثْرة قال: منهم مُحسن، ومنهم مُسيء، وأن المُسيء لا تَنفعه بُنوَّةُ النبوَّة؛ فاليهودُ والنصارى وإن كانوا من ولد إسحاق، والعربُ وإنْ كانوا من ولد إسماعيل، فلابدَّ من الفرق بين المُحسن والمُسيء والمؤمن والكافر، وفي التنزيل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨] الآية؛ أي: أبناء رُسُلِ الله فرأَوْا لأنفسهم فَضْلاً. وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ لمَّا ذكر إنجاءَ إسحاق من الذبح، وما مَنَّ به عليه بعد النبوة، ذكر ما مَنَّ به أيضاً على موسى وهارون من ذلك. وقوله: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ قيل: من الرِّقِّ الذي لَحِقَ بني إسرائيل. وقيل: من الغَرَق الذي لَحِقَ فرعون.

﴿وَنَصَرْنَـٰهُمْ﴾ قال الفراء[1]: الضميرُ لموسى وهارون وحدَهما؛ وهذا على أنَّ الاثنين جمع؛ دليلُه قوله: «وآتيناهُما» «وهَدَيْناهُما». وقيل: الضميرُ لموسى وهارون وقومِهما، وهذا هو الصوابُ؛ لأنَّ قبلَه«ونَجَّيْناهُما وقَوْمَهُما»[2].

و﴿ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ التوراة؛ يقال: استبان كذا، أي: صار بَيِّناً، واستبانه فلانٌ مثل: تبيَّن الشيءُ بنفسه وتبيَّنه فلانٌ.

و﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الدِّين القَويم الذي لا اعوجاج فيه، وهو دينُ الإسلام.

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٥.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٥٣.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ يريدُ الثَّناء الجميل. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قال المفسرون: إلياسُ نبيٌّ من بني إسرائيل. ورُوي عن ابن مسعود قال: إسرائيلُ هو يعقوبُ، وإلياسُ هو إدريس[١]، وقرأ: «وإِنَّ إِدْرِيسَ»[٢]. وقاله عكرمة. وقال: هو في مصحف عبد الله: «وإِنَّ إِدْرِيس لَمِنَ المُرْسَلينَ» وانفرد بهذا القول. وقال ابن عباس: هو عمُّ اليَسع[٣].

وقال ابن إسحاق وغيره: كان القَيِّمُ بأمر بني إسرائيل بعد يوشع كالبَ بن يوقنا، ثم حِزقيل، ثم لمَّا قبض اللهُ حِزقيلَ النبيَّ عظمتِ الأحداثُ في بني إسرائيل، ونَسُوا عهدَ الله، وعبدوا الأوثان من دونه، فبعث اللهُ إليهم إلياسَ نبيّاً، وتَبِعه اليَسع وآمن به، فلما عتا عليه بنو إسرائيل دعا ربَّه أن يُريحَه منهم، فقيل له: اخرج يومَ كذا وكذا إلى موضع كذا وكذا فما استقبلكَ من شيء فارْكَبه ولا تَهَبْه. فخرج ومعه اليَسع فقال: يا إلياسُ، ما تأمرني، فقذفَ إليه بِكِسائه من الجوِّ الأعلى، فكان ذلك علامةَ استخلافه إيَّاه على بني إسرائيل، وكان ذلك آخرَ العَهْد به. وقطعَ اللهُ على إلياسَ لذَّةَ المَطْعَم والمَشْرَب، وكساه الرِّيش، وألبسه النَّور[٤]، فطار مع الملائكة، فكان إنسيّاً مَلَكيّاً سماويّاً أرضيّاً[٥].

---

(١) أخرجه الطبري ٩/ ٣٨٣.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢٢٤.

(٣) في تفسير البغوي ٤/ ٣٦ (والكلام فيه بنحوه): هو ابن عم اليسع.

(٤) النَّور: الزَّهر، أو الأبيض منه. القاموس (نور).

(٥) عرائس المجالس ص ٢٥٥ و٢٦٢، وينظر النكت والعيون ٥/ ٦٤، وتفسير البغوي ٤/ ٣٦.

قال ابن قتيبة: وذلك أنَّ اللهَ تعالى قال لإلياس: «سَلْني أُعطِكَ». قال: تَرفَعُني إليك وتُؤَخِّرعني مَذاقة الموت. فصار يطيرُ مع الملائكة.

وقال بعضهم: كان قد مَرِضَ وأحسَّ الموتَ فبكى، فأوحى الله إليه: لِمَ تبكِ؟ حرصاً على الدنيا، أو جزعاً من الموت، أو خوفاً من النار؟ قال: لا، ولا لشيء[1] من هذا وعِزَّتِك، إنما جَزَعي كيف يَحْمَدُك الحامدون بعدي ولا أَحْمَدُك، ويذكُرك الذاكرون بعدي ولا أَذْكُرك، ويصومُ الصائمون بعدي ولا أَصوم، ويُصلِّي المصلُّون ولا أُصلّي.

فقيل له: «يا إلياسُ، وعزَّتي لأُؤَخِّرنَّك إلى وقت لا يذكُرني فيه ذاكر». يعني يومَ القيامة.

وقال عبدُ العزيز بن أبي روَّاد: إنَّ إلياسَ والخَضِرَ عليهما السلام يصومان شهرَ رمضانَ في كلِّ عام ببيتِ المَقْدس يُوافيان الموسم في كل عام[2].

وذكر ابن أبي الدنيا أنهما يقولان عند افتراقهما عن الموسم: ما شاء الله، ما شاء الله، لا يسوقُ الخير إلا الله، ما شاء الله، ما شاء الله، لا يَصرِفُ السُّوء إلا الله، ما شاء الله، ما شاء الله، ما يكون من نعمة فمن الله، ما شاء الله، ما شاء الله، توكَّلت على الله، حسبُنا الله ونِعْم الوكيل. وقد مضَى في «الكهف»[3].

وذكر من طريق مكحول عن أنس قال: غَزَوْنا مع رسولِ الله ﷺ حتى إذا كُنَّا بفَجِّ الناقة عند الحِجْر، إذا نحن بصوت يقول: اللهمَّ اجعَلْني من أُمَّة محمدٍ المرحومة، المغفورِ لها، المَتوبِ عليها، المُستجابِ لها. فقال رسولُ الله ﷺ: «يا أنسُ، انظُرْ ما هذا الصوت». فدخلتُ الجبلَ، فإذا أنا برجلٍ أبيضِ اللِّحية والرأس، عليه ثيابٌ بِيْضٌ، طوله أكثرُ من ثلاث مئة ذراع، فلما نظر إليَّ قال: أنت رسولُ النبي؟ قلت:

(١) في (م): ولا شيء.
(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص ٢٨١.
(٣) ١٣/ ١٧٠.

نعم؛ قال: اِرْجِعْ إليه فأَقرِئْه مني السلام وقل له: هذا أخوك إلياسُ يُريد لِقاءك. فجاء النبي ﷺ وأنا معه، حتى إذا كنا قريباً منه، تقدَّم النبي ﷺ وتأخَّرت، فتحدَّثا طويلاً، فنزل عليهما شيء من السماء شبه السُّفرة فدَعَواني فأكلتُ معهما، فإذا فيها كَمْأة ورُمَّان وكَرَفْس، فلما أكلتُ قمتُ فتنحَّيتُ، وجاءت سحابةٌ فاحتملَتْه، فإذا أنا أنظرُ إلى بَيَاضِ ثيابِه فيها تَهوي به. فقلتُ للنبي ﷺ: بأبي أنت وأُمّي، هذا الطعامُ الذي أكلنا أَمِنَ السماء نزل عليه؟ فقال النبي ﷺ: «سألتُه عنه فقال: يأتيني به جبريلُ في كل أربعين يوماً أَكْلة، وفي كلِّ حول شَرْبة من ماء زمزم، وربما رأيتُه على الجُبِّ يملأ بالدَّلو فيشرب، وربما سَقَاني»[١].

قال ثعلب: اختلف الناسُ في قوله عز وجل هاهنا: «بَعْلاً» فقالت طائفة: البَعْل هاهنا الصَّنَم. وقالت طائفة: البعل هاهنا مَلَك. وقال ابن إسحاق: امرأة كانوا يعبدُونها. والأوّل أكثر.

وروى الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس: «أَتَدْعُونَ بَعْلاً» قال: صنماً.
وروى عطاء بن السائب عن عكرمة عن ابن عباس: «أَتَدْعُونَ بَعْلاً» قال: رَبّاً.

النحاس: والقولان صحيحان؛ أي: أتدعون صنماً عَمِلْتموه رباً. يقال: هذا بعلُ الدار، أي: ربُّها. فالمعنى: أتدعون ربّاً اختلقتموه، و«أَتَدْعُونَ» بمعنى أتُسمُّون. حكى ذلك سيبويه[٢].

وقال مجاهد وعكرمة وقتادة والسُّدي: البعل الربُّ بلغة اليمن[٣]. وسمع ابن عباس رجلاً من أهل اليمن يسومُ ناقةً بمنىً فقال: مَنْ بعلُ هذه؟[٤]. أي: مَن رَبُّها؛

(١) الهواتف لابن أبي الدنيا ص ٧٨ - ٧٩، وأخرجه بنحوه الحاكم ٢/ ٦١٧ ونقله المصنف عن ابن أبي الدنيا بواسطة السُّهيلي في التعريف والإعلام ص ١٠٧ -١٠٨. قال الذهبي في التلخيص: موضوع، قبَّح الله من وضعه، وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٢٧٥: موضوع. وقد سلفت الإشارة إليه في تفسير سورة الكهف [الآية: ٨٢] المسألة الرابعة.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٥، ومعاني القرآن له ٦/ ٥٥.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٦١٢ - ٦١٣.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٦١٣ بنحوه، ونقله المصنف من النكت والعيون ٥/ ٦٤.

ومنه سُمِّي الزوج بعلاً. قال أبو دؤاد:

ورأيـتُ بَـعْـلَـكِ فـي الـوغَـى مُـتـقـلِّـدا سـيـفـاً ورُمْـحـاً[1]

مقاتل: صنمٌ كسره إلياسُ وهربَ منهم. وقيل: كان مِن ذهب وكان طولُه عشرين ذراعاً، وله أربعةُ أوجه، فُتِنوا به وعظَّموه حتى أخدموه أربع مئة سادن وجعلوهم أنبياءه، فكان الشيطانُ يدخل في جوف بَعْل ويتكلَّم بشريعة الضلالة، والسَّدَنة يحفظُونها ويُعلِّمونها الناس، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام. وبه سُمِّيت مدينتهم بعلبك كما ذكرنا[2].

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي: أحسنَ من يقال له: خالق. وقيل: المعنى: أحسن الصانعين؛ لأن الناسَ يصنعون ولا يخلُقون[3].

﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالنصب في الأسماء الثلاثة قرأ الربيع بن خُثَيم والحسن وابن أبي إسحاق وابن وثَّاب والأعمش وحمزة والكسائي[4]. وإليها يذهب أبو عُبيد وأبو حاتم. وحكى أبو عُبيد أنها على النعت. النحاس[5]: وهو غلطٌ، وإنما هو على البَدَل، ولا يجوز النعت هاهنا؛ لأنه ليس بتحلية.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر وشيبة ونافع بالرفع[6]. قال أبو حاتم: بمعنى: هو اللهُ ربُّكم. قال النحاس: وأولى مما قال أنه مبتدأ وخبر بغير إضمار ولا حذف. ورأيتُ عليَّ بن سليمان يذهبُ إلى أن الرفع أولى وأحسن؛ لأن

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٦٤، وقول مقاتل التالي منه. والبيت لعبد الله بن الزِّبعرى كما في المصادر وليس لأبي دؤاد كما ذكر الماوردي، وقد سلف ١/ ٢٩١ وفي عدة مواضع أخر. وأبو دؤاد اسمه: جارية بن الحجَّاج، كان في عصر كعب بن مامَةَ الإيادي. الشعر والشعراء ١/ ٢٣٧

(٢) عرائس المجالس ص ٢٥٧.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٦٥.

(٤) وقرأ بها عاصم في رواية حفص. السبعة ص ٥٤٩، والتيسير ص ١٨٧.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١١٧، وما قبله منه.

(٦) السبعة ص ٥٤٩، والتيسير ص ١٨٧، والنشر ٢/ ٣٦٠.

قبلَه رأسُ آية، فالاستئنافُ أولى .

ابن الأنباري[١] : مَن نصبَ أو رفعَ لم يَقِفْ على «أَحسَنَ الخَالِقِينَ» على جهة التَّمام؛ لأنَّ اللهَ عزّ وجلّ مُترجمٌ عن «أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ» من الوجهين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أخبر عن قوم إلياس أنهم كذَّبوه .﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: في العذاب .﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: من قومه، فإنهم نَجَوْا من العذاب. وقُرِئ: «المُخلِصينَ» بكسر اللام، وقد تقدّم[٢] .﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ تقدَّم .

﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ ياسينَ﴾ قراءة الأعرج وشيبة ونافع[٣]. وقرأ عكرمةُ وأبو عمرو وابن كثير وحمزةُ والكسائي: «سَلَامٌ على إِلْيَاسِينَ»[٤]. وقرأ الحسن: «سَلَامٌ على الياسِينَ» بوصل الألف[٥]، كأنها «ياسين» دخلتْ عليها الألف واللام التي للتعريف. والمُراد إلياسُ عليه السلام، وعليه وقع التسليم، ولكنه اسمٌ أعجميٌّ. والعربُ تضطرب في هذه الأسماء الأعجمية ويَكثُر تغييرُهم لها[٦] .

قال ابن جِنِّي[٧] : العربُ تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعباً؛ فياسين وإلياس والياسِين شيء واحد .

الزمخشريّ[٨] : وكان حمزةُ إذا وصَلَ نصَبَ، وإذا وقَفَ رفَعَ. وقُرِئ: «على إلياسين» و«إِدْريسينَ وإِدْرَسين وَإِدْرَاسِينَ»[٩] على أنها لُغات في إلياس وإدريس. ولعلَّ

---

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٩ .

(٢) ١٨/ ٢٨ .

(٣) وهي قراءة ابن عامر.

(٤) وهي قراءة عاصم.

(٥) المحتسب ٢/ ٢٢٣ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٦ و٤٣٨ .

(٧) ذكره عنه السُّهيلي في الروض الأنف ١/ ٧٢ .

(٨) في الكشاف ٣/ ٣٥٢ .

(٩) المحتسب ٢/ ٢٢٥ .

لزيادةِ الياء والنون في السُّريانية معنى .

النحاس[١]: ومن قرأ: «سَلَامٌ على آلِ ياسِينَ» فكأنه ـ والله أعلم ـ جعل اسمه إلياس وياسين، ثم سلَّم على آله؛ أي: أهل دينه ومَن كان على مذهبه، وعَلِم أنه إذا سلَّم على آله من أجله، فهو داخلٌ في السلام؛ كما قال النبيّ ﷺ: «اللهم صلِّ على آل أبي أوفى»[٢] وقال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]. ومن قرأ: «إلياسِين» فللعلماء فيه غير قول. فروى هارون عن ابن أبي إسحاق قال: إلياسين مثل إبراهيم؛ يذهبُ إلى أنه اسمٌ له. وأبو عُبيدة[٣]يذهب إلى أنه جُمع جمعَ التسليم على أنه وأهل بيته سلّم عليهم؛ وأنشد:

قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ الخُبَيْبِينَ قَدِي[٤]

يقال: قدني وقَدِي لغتان بمعنى حَسْب. وإنما يُريد أبا خُبَيْب عبدَ الله بن الزبير، فجمعه على أنَّ مَن كان على مَذْهبه داخلٌ معه. وغير أبي عُبيدة يرويه: الخُبَيْبَيْن، على التثنية، يُريد عبد الله ومُصْعباً. ورأيت عليَّ بن سليمان يشرحه بأكثرَ من هذا؛ [قال]: فإن العربَ تُسمِّي قومَ الرجل باسم الرجل الجليل منهم، فيقولون: المهالِبة على أنهم سمَّوْا كلَّ رجل منهم بالمهلَّب. قال: فعلى هذا «سَلَامٌ عَلَى إِلْياسِينَ» سمَّى كلَّ رجل منهم بإلياس. وقد ذكر سيبويه في «كتابه»[٥] شيئاً من هذا، إلا أنه ذكَر أن العربَ تفعلُ هذا على جهة النِّسبة؛ فيقولون: الأشعرون، يريدون به النَّسب .

المهدوي: ومن قرأ: «إلياسِين» فهو جمع يدخل فيه إلياس، فهو جمع إلياسيّ،

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٦ .

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨)، وسلف ٢/ ٨٢ .

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ١٧٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس.

(٤) الرجز لحُمَيْد الأرقط، وبعده: ليس الإمام بالشَّحيح المُلحِدِ. وهو في الكتاب ٢/ ٣٧١ ، والخزانة ٥/ ٣٨٢ .

(٥) ٣/ ٤١٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس ٣/ ٤٣٧ ، وما قبله وما بين حاصرتين منه.

فحذفت ياء النِّسبة؛ كما حُذفت ياء النسبة في جمع المُكَسَّر في نحو المهالبة في جمع مهلبيّ، كذلك حُذفت في المسلَّم فقيل: المهلّبون.

وقد حكى سيبويه[1]: الأشعرون والنميرون، يُريدون الأشعريِّين والنميريِّين.

السهيليّ[2]: وهذا لا يصحُّ، بل هي لغةٌ في إلياس، ولو أراد ما قالوه لأدخلَ الألفَ واللام كما تدخلُ في المهالبة والأشعريين؛ فكان يقول: «سلامٌ على الإلياسِين» لأن العَلم إذا جُمع يُنكَّر حتى يُعرَّف بالألف واللام؛ لاتقول: سلام على زيدين، بل: على الزيدين، بالألف واللام. فإلياسُ عليه السلام فيه ثلاثُ لغات.

النحاس[3]: واحتجَّ أبو عُبيدة في قراءته: «سَلَامٌ على إِلْياسِينَ» وأنه اسمه كما أن اسمَه إلياس؛ لأنه ليس في السورة سلامٌ على «آل» لغيره من الأنبياء ﷺ، فكما سُمِّي الأنبياء كذا سُمِّي هو. وهذا الاحتجاجُ أصلُه لأبي عمرو، وهو غيرُ لازم؛ لأنَّا بيَّنا قولَ أهل اللغة أنه إذا سلَّم على آله من أجله، فهو سلام عليه. والقولُ بأن اسمه «إلياسين» يحتاجُ إلى دليل ورواية؛ فقد وقع في الأمر إشكال.

قال الماوردي[4]: وقرأ الحسن: «سلَامٌ على ياسِينَ» بإسقاط الألف واللام[5]، وفيه وجهان: أحدُهما: أنهم آلُ محمد ﷺ؛ قاله ابن عباس. الثاني: أنهم آل ياسين؛ فعلى هذا في دخول الزيادة في ياسين وجهان: أحدهما: أنها زِيدت لِتَساوي الآي، كما قال في موضع: ﴿طُورِ سَيْنَآءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وفي موضع آخر ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢]، فعلى هذا يكون السلام على أهله دونَه، وتكون الإضافة إليه تشريفاً له. الثاني: أنها دخلت للجمع فيكون داخلاً في جُملتهم فيكون السلامُ عليه وعليهم.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) في التعريف والإعلام ص ١٤٨.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٧.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٦٥.

(٥) سلف أن الحسن قرأ: «سلام على الياسين» بغير همز.

وقال السُّهيلي[١]: قال بعضُ المتكلّمين في معاني القرآن: آلُ ياسين آلُ محمد عليه الصلاة والسلام، ونزعَ إلى قول من قال في تفسير «يس»: يا محمد. وهذا القولُ يَبطُلُ من وجوه كثيرة: أحدها: أن سِياقة الكلام في قصة إلياسين يَلزم أن تكون كما هي في قصة إبراهيم ونوح وموسى وهارون، وأنَّ التسليم راجعٌ عليهم، ولا معنى للخروج عن مقصودِ الكلام لِقول قيل في تلك الآية الأُخرى مع ضَعْف ذلك القول أيضاً؛ فإنَّ «يس» و«حم» و«الم» ونحوَ ذلك القولُ فيها واحدٌ، إنما هي حروفٌ مُقطَّعة؛ إما مأخوذةٌ من أسماء الله تعالى كما قال ابن عباس، وإما من صفات القرآن، وإما كما قال الشعبي: لله في كلِّ كتاب سرٌّ، وسرُّه في القرآن فواتحُ القرآن[٢]. وأيضاً فإنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لي خمسةُ أسماء»[٣] ولم يذكُرْ فيها «يس». وأيضاً فإنَّ «يس» جاءت التلاوة فيها بالسكون والوقف، ولو كان اسماً للنبي ﷺ لقال: «ياسينُ» بالضم؛ كما قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف:٤٦] وإذا بطلَ هذا القولُ لِما ذكرناه؛ فـ«إلياسين» هو إلياسُ المذكور، وعليه وقع التسليم.

وقال أبو عمرو بن العلاء: هو مثل: إدريس وإدراسين، كذلك هو في مصحف ابن مسعود: ﴿وَإِنَّ إِدْرِيسَ لَمِنَ المُرسلينَ﴾ ثم قال: «سَلَامٌ على إدراسِين»[٤]. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ . إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ . إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾

---

(١) في التعريف والإعلام ص ١٤٨ .

(٢) سلفت هذه الأقوال، والكلام على الحروف المقطعة أول سورة البقرة ١/ ٢٣٧ .

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤) من حديث جبير بن مطعم ﷺ، وسلف ٩/ ٣٩٢ .

(٤) المحتسب ٢/ ٢٢٥ ، وسلفت الإشارة إليها قريباً.

تقدَّم قصة لوط(١). ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ أي: بالعقوبة. ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ خاطب العرب: أي تمرُّون على منازلهم وآثارهم «مُصْبِحِينَ» وقتَ الصَّباح ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ تمرُّون عليهم أيضاً. وتمَّ الكلام. ثم قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: تعتبرون وتتدبَّرون.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يونس: هو ذو النون، وهو ابن متَّى، وهو ابن العجوز التي نزل عليها إلياس، فاستخفى عندها من قومه ستةَ أشهر ويونسُ صبيٌّ يرضع، وكانت أُمُّ يونس تخدُمه بنفسها وتُؤانسه، ولا تدَّخر عنه كرامة تقدرُ عليها. ثم إن إلياس سئم ضِيقَ البيوت فلحق بالجبال، ومات ابنُ المرأة يونسُ، فخرجت في إثر إلياسَ تطوف وراءه في الجبال حتى وجدَتْه، فسألته أن يدعوَ اللهَ لها لعلّه يُحيي لها ولدها؛ فجاء إلياسُ إلى الصبي بعد أربعةَ عشر يوماً من موته، فتوضأ وصلَّى ودعا اللهَ، فأحيا اللهُ يونسَ بن متى بدعوة إلياس عليه السلام(٢).

وأرسل الله يونس إلى أهل نينَوَى من أرض المَوْصل وكانوا يعبدون الأصنام ثم تابوا، حسبما تقدَّم بيانه في سورة «يونس»(٣)، ومضى في «الأنبياء»(٤) قصة يونس في خروجه مُغاضِباً.

واختلف في رسالته هل كانت قبل التقام الحوت إيَّاه أو بعده.

قال الطبري(٥): عن شهر بن حَوْشَب: إن جبريل عليه السلام أتى يونس فقال:

---

(١) ١١/١٧٣ وما بعدها.
(٢) تفسير البغوي ٤/٣٩.
(٣) ١١/٥٤.
(٤) ١٤/٢٦٦، وما بعدها.
(٥) في تفسيره ١٩/٦٣٩.

انطلق إلى أهل نِينَوَى فأَنْذِرْهم أن العذاب قد حَضَرهم. قال: ألتمس دابَّة. قال: الأمرُ أعجلُ من ذلك. قال: ألتمس حذاءً. قال: الأمرُ أعجلُ من ذلك. قال: فغضب فانطلق إلى السفينة فركب، فلما ركب السفينةَ احتبست السفينةُ لا تتقدَّم ولا تتأخَّر. قال: فتساهموا، قال: فسُهِم، فجاء الحوتُ يُبصبص بذنبه؛ فنُودي الحوت: أيا حوت، إنَّا لم نجعل لك يونسَ رزقاً؛ إنما جعلناك له حِرْزاً ومسجداً. قال: فالتقمه الحوتُ من ذلك المكان حتى مَرَّ به إلى الأُبُلَّة[1]، ثم انطلق به حتى مرَّ به على دِجلة، ثم انطلق حتى ألقاه في نِينوى.

حدّثنا الحارث قال: حدثنا الحسن قال: حدثنا أبو هلال قال: حدثنا شهرُ بن حَوْشَب عن ابن عباس قال: إنما كانت رسالةُ يونس بعد ما نبذه الحوت، واستدلَّ هؤلاء بأن الرسولَ لا يخرج مُغاضباً لربِّه، فكان ما جرى منه قبل النبوَّة.

وقال آخرون: كان ذلك منه بعد دعائه من أرسل [إليهم][2] إلى ما أمره اللهُ بدعائهم إليه، وتبليغه إيَّاهم رسالةَ ربِّه، ولكنه وعدَهم نزولَ ما كان حذَّرهم من بأس الله في وقتٍ وَقَّته لهم، ففارقهم إذْ لم يتوبوا ولم يراجعوا طاعة الله، فلما أظلَّ القومَ العذابُ وغَشِيَهم ـ كما قال الله تعالى في تنزيله ـ تابوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم، وبلغ يونسَ سلامتُهم وارتفاعُ العذاب الذي كان وعدهموه، فغضب من ذلك وقال: وعدتهم وعداً فكذب وعدي. فذهب مغاضباً ربَّه وكَرِهَ الرجوع إليهم، وقد جرَّبوا عليه الكذب؛ رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس[3]. وقد مضى هذا في «الأنبياء»[4] وهو الصحيح على ما يأتي عند قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

---

(١) هي بلدة على شاطئ دجلة. معجم البلدان ١/ ٧٧.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٧٥ و٣٧٦.

(٤) ١٤/ ٢٦٦، وما بعدها.

ولم ينصرف يونسُ؛ لأنه اسمٌ أعجميّ، ولو كان عربيّاً لانصرف وإن كانت في أوّله الياء؛ لأنه ليس في الأفعال يُفْعُل كما أنك إذا سمَّيت بيُعْفُر صرفته؛ وإن سمَّيت بيَعْفُر لم تَصرِفْه[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ قال المبرِّد: أصلُ أَبَقَ تباعد؛ ومنه غلامٌ آبقٌ. وقال غيره: إنما قيل ليونس: أَبَقَ؛ لأنه خرج بغير أمر الله عز وجل مستتراً من الناس. ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: المملوءة. و«الفُلك» يُذكَّر ويُؤنَّث ويكون واحداً وجمعاً[٢]. وقد تقدّم[٣].

قال الترمذي الحكيم: سمَّاه آبقاً لأنه أَبَقَ عن العبودية، وإنما العبودية تركُ الهوى وبذل النفس عند أمور الله؛ فلما لم يبذل النَّفْسَ عندما اشتدَّت عليه العَزمة من المَلِك ـ حسَبما تقدَّم بيانُه في «الأنبياء»[٤] ـ آثرَ هواه لَزِمَه اسمُ الآبق، وكانت عزمة المَلِك في أمر الله لا في أمر نفسه، وبحظّ حقِّ الله لا بحظِّ نفسه؛ فتحرَّى يونسُ فلم يُصِبِ الصوابَ الذي عند الله، فسمَّاه: آبقاً، ومُلِيماً.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾ قال المبرّد: فقارع، قال: وأصلُه من السِّهام التي تُجَال. ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ قال: من المغلوبين. قال الفرّاء[٥]: دَحَضَتْ حُجَّتُه وأَدْحضها الله، وأصلُه من الزَّلَق؛ قال الشاعر:

قَتَلْنا الْمُدْحَضِينَ بكُلِّ فَجٍّ فقد قَرَّتْ بقَتْلِهِمُ العيونُ[٦]

أي: المغلوبين.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٩ .

(٣) ٢/ ٤٩٢ .

(٤) ١٤/ ٢٦٨ ، واسم الملك: حزقيا، كما سلف.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٩ ، وما قبله منه.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٦٧ ونسبه لأبي قيس.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: أتى بما يُلام عليه فأما المَلوم: فهو الذي يُلام، استحقَّ ذلك أو لم يستحقَّ[١].

وقيل: المُليم المعيب. يقال: لام الرجل إذا عمل شيئاً فصار معيباً بذلك العمل.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ قال الكسائي: لم تكسر «أن» لدخول اللام؛ لأن اللام ليست لها. النحاس[٢]: والأمر كما قال؛ إنما اللام في جواب «لولا». ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ أي: من المصلِّين ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: عقوبةً له؛ أي: يكون بطنُ الحوت قبراً له إلى يوم القيامة.

واختُلف كم أقام في بطن الحوت؟. فقال السديّ والكلبيّ ومقاتل بن سليمان: أربعين يوماً. الضحاك: عشرين يوماً. عطاء: سبعة أيام. مقاتل بن حيان: ثلاثة أيام. وقيل: ساعة واحدة[٣]. والله أعلم.

الخامسة: روى الطبري من حديث أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لما أراد اللهُ ـ تعالى ذِكْره ـ حَبْسَ يونس في بطن الحوت أَوحى اللهُ إلى الحوت أن خُذْه ولا تَخدِشْ لحماً، ولا تكسِرْ عظماً، فأخذه ثم هوَى به إلى مَسْكنه من البحر؛ فلما انتهى به إلى أسفل البحر سَمِعَ يونسُ حسّاً، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه وهو في بطن الحوت: إنَّ هذا تسبيحُ دوابِّ البحر» قال: «فسبَّحَ وهو في بطن الحوت» قال: «فسمعتِ الملائكةُ تسبيحَه فقالوا: يا ربَّنا، إنَّا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرضٍ غريبة» قال: «ذلك عبدي يونُس عصَاني فحبستُه في بطن الحوت في البحر. قالوا: العبدُ الصالح الذي كان يَصعَدُ إليك منه في كل يوم وليلة عملٌ صالح؟ قال: نعم. فشفعوا له عند ذلك فأمرَ الحوتَ بِقَذْفه في الساحل كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾»[٤].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٩.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٩، وما قبله منه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٨٦، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣.

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٣٨٥، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٨: فيه ابن إسحاق، وهو مدلس، وبقيه رجاله رجال الصحيح.

وكان سقمُه الذي وصفَه به الله تعالى ذكره: أنه ألقاه الحوتُ على الساحل كالصبيّ المَنْفوس قد نُشِر اللحمُ والعظم[١].

وقد رُوي: أن الحوتَ سار مع السفينة رافعاً رأسَه يتنفس فيه يونسُ ويُسبِّح، ولم يُفارقهم حتى انتَهَوْا إلى البرّ، فلفظَهُ سالماً لم يتغيَّر منه شيء فأَسلموا؛ ذكره الزمخشريّ في «تفسيره»[٢].

وقال ابن العربي[٣]: أخبرني غيرُ واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبي المعَالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجُويني: أنه سُئل: هل[٤] الباري في جهة؟ فقال: لا، هو يتعالَى عن ذلك. قيل له: ما الدليلُ عليه؟ قال: الدليلُ عليه قولُ النبي صله الله عليه وسلم: «لا تُفضِّلوني على يونسَ بن متَّى»[٥] فقيل له: ما وجهُ الدليل في هذا الخبر؟ فقال: لا أقوله حتى يأخُذَ ضيفي هذا ألفَ دينار يقضي بها دَيْناً[٦]. فقام رجلان فقالا: هي علينا. فقال: لا يتبع بها اثنين؛ لأنه يشقُّ عليه. فقال واحد: هي عليّ. فقال: إنَّ يونسَ بن متّى رمى بنفسه في البحر فالتقمه الحوت، فصار في قَعْر البحر في ظُلمات ثلاث، ونادى ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] كما أخبر الله عنه، ولم يكن محمدٌ ﷺ حين جَلَس على الرَّفرف الأخضر وارتقى به صعداً، حتى انتهى به إلى موضع يسمعُ فيه صَرِيفَ الأقلام، وناجاه ربُّه بما ناجاه به، وأوحى إليه ما أوحى، بأقربَ إلى الله تعالى من يونس في بطن الحوت في ظُلمة البحر.

السادسة: ذكر الطبري: أنَّ يونسَ عليه السلام لما رَكِبَ في السفينة أصابَ أهلَها

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٣ من قول ابن زيد.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٥٣.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٩.

(٤) في النسخ: عن، والمثبت من أحكام القرآن.

(٥) أخرجه البخاري (٣٤١٣)، ومسلم (٢٣٧٧) بنحوه، وسلف ٤/ ٢٥٤ و١٤/ ٢٧٤.

(٦) في أحكام القرآن: دينه.

عاصفٌ من الريح، فقالوا: هذه بخطيئة أحدِكم. فقال يونسُ وعَرَفَ أنه هو صاحبُ الذنب: هذه خطيئتي، فألقُوني في البحر، وأنهم أبَوْا عليه حتى أفاضوا بسهامهم ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ فقال لهم: قد أخبرتُكم أن هذا الأمرَ بذنبي. وأنهم أبَوْا عليه حتى أفاضوا بسهامهم الثانية، فكان من المدحضين، وأنهم أبَوْا أن يُلقوه في البحر حتى أعادوا سِهامهم الثالثةَ فكان من المدحضين. فلما رأى ذلك ألقى نفسه في البحر، وذلك تحت الليل فابتلعه الحوت.

ورُوي أنه لما رَكِبَ في السفينة تَقنَّع ورقدَ، فساروا غيرَ بعيد إذْ جاءتهم ريحٌ كادت السفينةُ أن تغرقَ، فاجتمع أهلُ السفينة فدعَوْا فقالوا: أيقظوا الرجلَ النائم يدعو معنا؛ فدعا اللهَ معهم فرفع اللهُ عنهم تلك الريح. ثم انطلق يونسُ إلى مكانه فرقد، فجاءت ريحٌ كادت السفينةُ أن تغرقَ، فأيقظوه ودعَوا اللهَ فارتفعت الريح.

قال: فبينما هم كذلك إذ رفع حوتٌ عظيم رأسَه إليهم أراد أن يبتلعَ السفينةَ، فقال لهم يونس: يا قوم، هذا من أجلي، فلو طرحتموني في البحر لَسِرْتُم، ولَذَهب الريح عنكم والرَّوْع. قالوا: لا نطرحك حتى نتساهم، فمن وقعت عليه رَمَيْناه في البحر. قال: فتساهموا، فوقع على يونس؛ فقال لهم: يا قوم، اطرحوني، فمن أجلي أُوتيتم؛ فقالوا: لا نفعل حتى نتساهم مرةً أُخرى. ففعلوا فوقع على يونس. فقال لهم: يا قوم، اطرحوني، فمن أجلي أُوتيتم؛ فذلك قولُ الله عز وجل: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ أي: وقع السهم عليه؛ فانطلقوا به إلى صَدْر السفينة لِيُلقوه في البحر، فإذا الحوت، فاتحٌ فاه، ثم جاءوا به إلى جانب السفينة، فإذا بالحوت، ثم رجَعوا به إلى الجانب الآخر، فإذا بالحوت فاتحٌ فاه؛ فلما رأى ذلك ألقى بنفسه فالتقمه الحوت؛ فأوحى الله تعالى إلى الحوت: إني لم أجعله لك رزقاً، ولكن جعلتُ بطنك له وعاءً. فمكث في بطن الحوت أربعين ليلة فنادى في الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ . فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨] وقد تقدم ويأتي.

ففي هذا من الفِقه أن القُرْعة كانت معمولاً بها في شرع مَن قبلنا، وجاءت في شرعنا على ما تقدَّم في «آل عمران»[١].

قال ابن العربي[٢]: وقد وردت القُرعة في الشَّرع في ثلاثة مواطن:

الأول: كان النبي ﷺ إذا أراد سفراً أَقرعَ بين نسائه، فأيتهنَّ خرج سَهْمها خرج بها معه[٣].

الثاني: أن النبي ﷺ رُفِعَ إليه أن رجلاً أَعتق ستةَ أَعْبُدٍ لا مالَ له غيرهم، فأَقرعَ بينهم؛ فأَعتق اثنين وأرقَّ أربعة[٤].

الثالث: أن رجلين اختصما إليه في مواريثَ قد دَرَسَتْ فقال: «اذهبا وتوخَّيا الحق واستَهِما ولِيُحلل كل واحدٍ منكما صاحبَه»[٥].

فهذه ثلاثةُ مواطن، وهي القَسْم في النكاح، والعِتق، والقِسمة. وجَريان القُرعة فيها لِرَفْع الإشكال وحَسْم داء التشهِّي.

واختلف علماؤنا في القُرعة بين الزوجات في الغزو على قولين؛ الصحيح منهما الاقتراع؛ وبه قال فقهاءُ الأمصار. وذلك أن السَّفر بجميعهن لا يُمكن، واختيار واحدة منهن إيثارٌ، فلم يبقَ إلا القُرعة. وكذلك في مسألة الأَعْبُد الستة؛ فإن كلَّ اثنين منهما ثلث، وهو القَدْر الذي يجوز له فيه العِتق في مرض الموت، وتعيينهما بالتشهِّي لا يجوز شرعاً؛ فلم يبقَ إلا القُرعة. وكذلك التشاجر إذا وقع في أعيان المواريث لم يُميِّز الحقَّ إلا القُرْعة، فصارت أصلاً في تعيين المستحقّ إذا أَشكل. قال: والحقُّ

---

(١) ٥/ ١٣٢ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦١٠ - ١٦١١ ، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٨٨)، ومسلم (٢٧٧٠)، وسلف ٥/ ١٣٣ .

(٤) أخرجه أحمد (١٩٩٣٢)، ومسلم (١٦٦٨) من حديث عمران بن حصين ﷺ.

(٥) قطعة من حديث أم سلمة رضي الله عنها، أخرجه أحمد (٢٦٧١٧)، وأبو داود (٣٥٨٤)، وأوله: «إنكم تختصمون إليّ، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم ألحنُ بحجته من بعض..» وأخرجه بأخصر منه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

عندي أن تجري في كل مُشكِل، فذلك أبينُ لها، وأقوى لفصل الحُكم فيها، وأجلى لرفع الإشكال عنها؛ ولذلك قلنا: إنَّ القرعة بين الزوجات في الطلاق كالقُرعة بين الإماء في العِتق.

السابعة: الاقتراع على إلقاء الآدمي في البحر لا يجوز. وإنما كان ذلك في يونس وزمانِه مقدِّمةً لتحقيق برهانه، وزيادةً في إيمانه؛ فإنه لا يجوز لمن كان عاصياً أن يُقتل ولا يُرمى به في النار أو البحر، وإنما تجري عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته. وقد ظنَّ بعضُ الناس أن البحر إذا هال على القوم فاضطروا إلى تخفيف السفينة أن القُرعة تُضْرَبُ عليهم، فَيُطرَح بعضُهم تخفيفاً؛ وهذا فاسدٌ؛ فإنها لا تخفُّ برمي بعض الرجال، وإنما ذلك في الأموال، ولكنهم يصبِرون على قضاء الله عز وجل[١].

الثامنة: أخبر اللهُ عز وجل أن يونسَ كان من المُسبِّحين، وأن تسبيحَه كان سببَ نَجاته؛ ولذلك قيل: إن العملَ الصالح يرفعُ صاحبَه إذا عَثَر. قال ابن عباس: «مِنَ المُسَبِّحِينَ» من المُصلِّين. قال قتادة: كان يُصلِّي قبلَ ذلك لحفظ الله عز وجل له فنجَّاه. وقال الربيع بن أنس: لولا أنه كان له قبلَ ذلك عملٌ صالح ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾قال: ومكتوب في الحكمة: إنَّ العملَ الصالح يرفع ربَّه إذا عَثَر[٢].

وقال مقاتل: «مِنَ المُسَبِّحِينَ»: من المصلِّين المُطيعين قبلَ المعصية. وقال وهب: من العابدين. وقال الحسن: ما كان له صلاةٌ في بطن الحوت؛ ولكنه قدَّم عملاً صالحاً في حال الرَّخَاء فذكره اللهُ به في حال البلاء، وإنَّ العملَ الصالحَ ليَرفع صاحبَه، وإذا عَثَر وجد مُتَّكَأً[٣]. قلت: ومن هذا المعنى قولُه ﷺ: «مَنْ استطاعَ منكم أن تكونَ له خَبيئةٌ مِن عَمَل صالحٍ فَليفعَلْ»[٤] فيجتهد العبد، ويَحرِص على خَصْلة من

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٠، وتنظر الأقوال في تفسير الطبري ١٩/ ٦٢٨ - ٦٣٠ .

(٣) ذكر قولي وهب والحسن البغوي في تفسيره ٤/ ٤٣ .

(٤) أخرجه الدارقطني في العلل ٤/ ٢٤٥ ، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٣٧٦) من حديث الزبير بن العوام ﷺ مرفوعاً، وأخرجه الدارقطني عنه موقوفاً، وقال: وهو الصحيح.

صالح عمله، يُخلص فيها بينه وبين ربِّه، ويدَّخرها ليوم فاقته وفَقْره، ويَخْبَؤُها بجهده، ويستُرها عن خَلْقه، يَصِلُ إليه نفعُها أحوجَ ما كان إليه. وقد خرَّج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينما ثلاثةُ نَفر ـ في رواية ممن كان قبلَكم ـ يتماشَوْن أخذَهم المطرُ، فَأَوَوْا إلى غارٍ في جبل فانحطَّت على فم الغار صخرةٌ من الجبل فانطبقَتْ عليهم، فقال بعضُهم لبعض انظُروا أعمالاً عَمِلْتُموها صالحةً لله، فادعوا اللهَ بها لعلَّه يَفرُجها عنكم» الحديث بكماله وهو مشهور[١] شُهْرتُه أغنتْ عن تمامه.

وقال سعيد بن جُبير: لما قال في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قَذَفهُ الحوتُ[٢]. وقيل: ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ من المُصلِّين في بطن الحوت.

قلت: والأظهرُ أنه تسبيحُ اللسان الموافق للجنان، وعليه يدلُّ حديثُ أبي هريرة المذكورقبل الذي ذكره الطبري. قال: فسبَّح في بطن الحوت. قال: فسمعت الملائكةُ تسبيحَه؛ فقالوا: يا ربَّنا، إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة[٣]. وتكون «كان» على هذا القول زائدةً؛ أي: فلولا أنه من المُسبِّحين. وفي كتاب أبي داود: عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «دعاءُ ذي النون في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لم يدعُ به رجلٌ مسلمٌ في شيء قطُّ إلا استُجيب له» وقد مضَى هذا في سورة «الأنبياء»[٤].

فيونس عليه السلام كان قبلُ مصلِّيا مُسبِّحاً، وفي بطن الحوت كذلك.وفي الخبر:

---

(١) أخرجه أحمد (٥٩٧٤) والبخاري (٢٣٣٣)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٣١.

(٣) سلف في المسألة الخامسة.

(٤) ١٤/ ٢٧٥، وقد ذكرنا ثمة أننا لم نقف عليه في سنن أبي داود ولا في تحفة الأشراف، وهو في سنن الترمذي (٣٥٠٥).

فنُودي الحوت: إنا لم نجعَلْ يونسَ لك رِزقاً؛ إنما جعلناك له حِرْزاً ومسجداً. وقد تقدَّم[١].

قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝١٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ . وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ روي أن الحوت قَذَفه بساحل قرية من المَوْصل. وقال ابن قُسَيْط عن أبي هريرة: طُرح يونس بالعراء وأنبت اللهُ يَقْطِينةً، فقلنا: يا أبا هريرة، وما اليقطينة؟ قال: شجرةالدُّبَّاء؛ هيَّأ اللهُ له أُرْوِيَّةً[٢] وحشيَّة تأكل من خَشَاش الأرض ـ أو هَشَاش الأرض ـ فتَفْشِج[٣] عليه فترويه من لَبنها كلَّ عشية وبُكرة حتى نبت. وقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: خرج به ـ يعني الحوت ـ حتى لَفَظه في ساحل البحر، فطرحه مثلَ الصبيِّ المنفوس لم ينقص من خَلْقه شيء[٤].

وقيل: إن يونس لما ألقاه الحوتُ على ساحل البحر أنبت اللهُ عليه شجرةً من يقطين، ـ وهي فيما ذُكر شجرةُ القرع ـ يتقطر عليه من اللبن حتى رَجَعت إليه قوَّته. ثم رَجَع ذاتَ يوم إلى الشجرة فوجدها يَبِسَتْ، فحزن وبكى عليها فعُوتب؛ فقيل له: أحَزِنت على شجرة وبكيتَ عليها، ولم تحزنْ على مئة ألف وزيادة من بني إسرائيل، من أولاد إبراهيمَ خليلي، أسرى في أيدي العدو، وأردتَ إهلاكهم جميعاً[٥]؟ .

وقيل: هي شجرة التين. وقيل: شجرة الموز تغطَّى بورقها، واستظلَّ بأغصانها، وأفطرَ على ثمارها. والأكثرُ على أنها شجرة اليقطين على ما يأتي .

---

(١) في المسألة السادسة.

(٢) الأُرْوِيَّة: أنثى الوعول. القاموس (روي).

(٣) الفَشْج: تفريج ما بين الرجلين.

(٤) أخرجهما الطبري ١٩/ ٦٣٥ و٦٣٢ .

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٦٣٥ - ٦٣٦ بنحوه.

ثم إن الله تبارك وتعالى اجتباه فجعله من الصالحين. ثم أمره أن يأتي قومَه ويُخبرهم أن الله تعالى قد تاب عليهم، فعمدَ إليهم حتى لقي راعياً فسأله عن قوم يونس وعن حالهم وكيف هم، فأخبره أنهم بخير، وأنهم على رجاء أن يرجعَ إليهم رسولُهم. فقال له: فأخبِرْهم أني قد لقيتُ يونس. فقال: لا أستطيعُ إلا بشاهد. فسمَّى له عنزاً من غنمه فقال: هذه تشهد لك أنك لقيتَ يونس. قال: وماذا؟ قال: وهذه البقعة التي أنت فيها تشهدُ لك أنك لقيتَ يونس. قال: وماذا؟ قال: وهذه الشجرةُ تشهد لك أنك لقيتَ يونس. وأنه رجَع الراعي إلى قومه فأخبرهم أنه لقي يونسَ فكذَّبوه، وهمُّوا به شرّاً فقال: لا تَعْجَلوا عليَّ حتى أُصبح، فلما أصبح غدا بهم إلى البقعة التي لقي فيها يونس، فاستنطقها فأخبرتهم أنه لقي يونس، واستنطق الشاةَ والشجرةَ فأخبرتاهم إنه لقي يونس، ثم إن يونس أتاهم بعد ذلك. ذكر هذا الخبرَ وما قبله الطبري رحمه الله[١].

«فَنَبَذْنَاهُ» طرحناه. وقيل: تركناه «بالعراءِ» بالصحراء؛ قاله ابن الأعرابي[٢]. الأخفش: بالفضاء. أبو عُبيدة: الواسع من الأرض.

الفراء: العراء المكان الخالي. قال: وقال أبو عُبيدة: العراء وجهُ الأرض[٣]؛ وأنشد لرجل من خُزاعة:

ورفعتُ رِجلاً لا أخافُ عِثارها ونَبَذْتُ بالبلدِ العَراءِ ثِيابِي[٤]

وحكى الأخفش[٥] في قوله: «وَهُوَ سَقِيمٌ» جمع سقيم [سَقْمى و] وسقامَى وسِقام.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١١/ ٥٤١ - ٥٤٢، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٨٨. وهو في عرائس المجالس ص ٤١٣ - ٤١٤.

(٢) ياقوتة الصراط ص٤٣٢.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ١٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٦/ ٥٧، وقول الفراء السالف منه وعبارة مجاز القرآن: بالعراء، أي: الأرض الفضاء.

(٤) أورده المبرد في الكامل ٤/ ٣٦٠، والطبري في تفسيره ١٩/ ٦٣١.

(٥) نقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٠، وما بين حاصرتين الآتي منه.

وقال في هذه السورة: «فَنَبَذْنَاهُ بِالعَرَاءِ» وقال في «نون والقلم»: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [الآية:٤٩] والجواب: أن الله عز وجل خبَّر هاهنا أنه نبذه بالعراء وهو غيرُ مذموم، ولولا رحمةُ الله عز وجل لَنُبِذَ بالعراء وهو مذموم؛ قاله النحاس.

وقوله: «وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ» يعني «عَلَيْهِ» أي: عنده؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ﴾ [الشعراء:١٤] أي: عندي. وقيل: «عَلَيْه» بمعنى له.

«شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ» اليقطين: شجر الدُّبَّاء: وقيل غيرها؛ ذكره ابن الأعرابي[١]. وفي الخبر: «الدُّبَّاء والبِطِّيخ من الجنة»[٢] وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة».

وقال المبرّد: يقال لكل شجرة ليس لها ساق يفترشُ ورقها على الأرض: يقطينة، نحو: الدُّبَّاء، والبطيخ، والحنظل، فإن كان لهاساق يُقِلُّها فهي شجرة فقط، وإنْ كانت قائمةً، أي: بعروق تفترش فهي نجمة، وجمعها: نَجْم[٣]؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن:٦] ورُوي نحوه عن ابن عباس والحسن ومقاتل. قالوا: كلُّ نبت يمتدُّ ويبسط على الأرض، ولا يبقى على استواء، وليس له ساق نحو القِثَّاء والبطيخ والقرع والحنظل فهو يقطين. وقال سعيد بن جبير: هو كلُّ شيء ينبتُ، ثم يموت من عامِه[٤]. فيدخل في هذا الموز.

قلت: وهو مماله ساق. الجوهري[٥]: واليقطين مالا ساق له كشجر القرع ونحوه. الزجاج[٦]: اشتقاق اليقطين من: قَطَنَ بالمكان، إذا أقام به، فهو يَفْعيل.

(١) ياقوتة الصراط ص ٤٣٢.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٠.

(٤) قولا ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير أخرجهما الطبري ١٩/ ٦٣٣.

(٥) الصحاح (قطن).

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣١٤.

وقيل: هو اسمٌ أعجميٌّ. وقيل: إنما خص اليقطين بالذكر؛ لأنه لا ينزل عليه ذباب[١]. وقيل: ما كان ثَمَّ يقطين فأنبته اللهُ في الحال.

القشيري: وفي الآية ما يدلُّ على أنه كان مفروشاً ليكون له ظلّ.

الثعلبي: كانت تُظِلُّه فرأى خُضرتها فأعجبته، فيبستْ فجعل يتحزن عليها؛ فقيل له: يا يونس، أنت الذي لم تَخلُق، ولم تَسقِ، ولم تُنبتْ تحزن على شُجيرة، فأنا الذي خلقتُ مئة ألف من الناس أو يزيدون تُريد مني أن أستأصِلَهم في ساعة واحدة، وقد تابوا وتبتُ عليهم؟! فأين رحمتي يا يونس، أنا أرحمُ الراحمين[٢].

ورُوي عن النبيّ ﷺ أنه كان يأكل الثَّريد باللحم والقرع. وكان يَحبُّ القرع ويقول: «إنها شجرةُ أخي يونس»[٣].

وقال أنس: قُدِّم للنبيّ ﷺ مَرَقٌ فيه دُبّاء وقَدِيد، فجعل يتَّبع الدُّبَّاء من حوالَى القَصْعة. قال أنس: فلم أَزَلْ أُحبُّ الدُّبّاء من يومئذ. أخرجه الأئمة[٤].

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قد تقدَّم عن ابن عباس أن رسالةَ يونس عليه السلام إنما كانت بعد ما نبذَه الحوت[٥]، وليس له طريقٌ إلا عن شَهْر بن حَوْشَب.

النحاس[٦]: وأجودُ منه إسناداً وأصحُّ ما حدَّثناه عليّ[٧] بن الحسين قال: حدّثنا الحسن بن محمد قال: حدّثنا عمرو بن العَنْقَزيّ قال: حدّثنا إسرائيل، عن أبي

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٨٧.

(٢) عرائس المجالس ص ٤١٣ - ٤١٤ بنحوه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) أخرجه البخاري (٥٤٣٩)، ومسلم (٢٠٤١).

(٥) ١٨/ ٩٢ - ٩٣.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٠، وما قبله منه.

(٧) في (م): عن علي.

إسحاق، عن عمرو بن ميمون قال: حدّثنا عبدُ الله بن مسعود في بيت المال عن يونس النبيّ ﷺ قال: إنَّ يونسَ وعدَ قومَه العذابَ وأخبرهم أنه[1] يأتيهم إلى ثلاثة أيام، ففرَّقوا بين كلِّ والدةٍ وولدِها، وخرجوا فجأروا إلى الله عز وجل واستغفروا، فكفَّ اللهُ عز وجل عنهم العذابَ، وغدا يونسُ عليه السلام ينتظر العذابَ فلم يَرَ شيئاً ـ وكان مَن كَذَب ولم تكن له بَيِّنةٌ قُتِلَ ـ فخرج يونسُ مُغاضِباً، فأتى قوماً في سفينة فحملوه وعَرَفوه، فلما دخل السفينة ركدت السفينةُ، والسُّفن تَسير يميناً وشِمالاً، فقالوا: ما لِسفينتكم؟ فقالوا: لا نَدري. فقال يونسُ عليه السلام: إنَّ فيها عبداً آبقاً من ربِّه جلَّ وعزَّ، وإنها لن تسيرَ حتى تُلقوه. قالوا: أمَّا أنت يا نبيَّ الله فإنَّا لا نُلقيك.

قال: فاقتَرِعوا، فمن قُرِع فَلْيقَعْ، فاقتَرعوا فقرعهم يونسُ فأبَوْ أن يدعوه، قال: فاقترِعوا ثلاثاً فمن قُرع فَلْيقع، فاقترَعوا فقرعهم يونسُ ثلاثَ مرات ـ أو قال: ثلاثاً ـ فوقع. وقد وكَّل الله به جلَّ وعزَّ حوتاً فابتلعه وهو يهوي به إلى قَرار الأرض، فسمع يونسُ عليه السلام تسبيح الحصى ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] قال: ظُلمة الليل، وظُلمة البحر، وظُلمة بطن الحوت.

قال: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ﴾ قال: كهيئة الفَرْخ الممعوط الذي ليس عليه ريش. قال: وأنبت اللهُ عليه شجرةً من يقطين فنبتت، فكان يستظلّ بها ويُصيب منها، فيبست فبكى عليها؛ فأوحى الله جل وعز إليه: أتبكي على شجرة يَبِستْ، ولا تبكي على مئة ألف أو يَزيدون أردتَ أن تُهلِكَهم[2]؟! قال: وخَرج رسولُ الله يونس فإذا هو بغلام يرعى؛ قال: يا غلام، من أنت؟ قال: من قوم يونس. قال: فإذا جئتَ إليهم فأخبرهم أنك قد لقيتَ يونس. قال: إن كنتَ يونس فقد علمتَ أنه من كذب قُتِل إذا لم تكن له بينة، فمن يشهدُ لي؟ قال: هذه الشجرة وهذه البقعة. قال: فَمُرْهما؛ فقال لهما

(١) في النسخ: أن، والمثبت من إعراب القرآن.

(٢) في (د) و(م): تهلكهم.

يونس: إذا جاءكُما هذا الغلامُ فاشهدا له. قالتا: نعم.

قال: فرجَع الغلام إلى قومه وكان في مَنَعة، وكان له إخوة، فأتى المَلِكَ فقال: إني قد لقيتُ يونسَ وهو يقرأ عليك السلام. قال: فأمرَ به أن يُقتل؛ فقالوا: إن له بيّنةً، فأرسلوا معه. فأتى الشجرة والبقعةَ فقال لهما: نشدتُكما بالله جل وعز، أتشهدانِ أني لقيتُ يونس؟ قالتا: نعم، قال: فرجعَ القومُ مذعورين يقولون له: شهدَتْ له الشجرة والأرض، فأتَوا الملكَ فأخبروه بما رأَوْا. قال عبد الله: فتناول الملكُ يدَ الغلام فأجلسه في مجلسه، وقال: أنت أحقُّ بهذا المكان مني.

قال عبد الله: فأقام لهم ذلك الغلام أمرَهم أربعين سنة.

قال أبو جعفر النحاس: فقد تبين في هذا الحديث أن يونسَ كان قد أُرسل قبل أن يلتقمه الحوتُ بهذا الإسناد الذي لا يُؤخَذ بالقياس.

وفيه أيضاً من الفائدة أن قوم يونس آمنوا ونَدِموا قبل أن يَرَوُا العذابَ؛ لأن فيه أنه أخبرهم أنه يأتيهم العذابُ إلى ثلاثة أيام، ففرَّقوا بين كل والدة وولدها، وضجُّوا ضجةً واحدة إلى الله عز وجل. وهذا هو الصحيح في الباب، وأنه لم يكن حكم الله عز وجل فيهم كحكمه في غيرهم في قوله عز وجل: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر:٨٥] وقوله عز وجل: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ الآية [النساء:١٨].

وقال بعض العلماء: إنهم رأَوْا مخائلَ العذاب فتابوا. وهذا لا يمنع[١]، وقد تقدَّم ما للعلماء في هذا في سورة «يونس» فَلْيُنظر هناك[٢].قوله تعالى: «أَوْ يَزِيدُونَ» قد مضَى في «البقرة»[٣] محاملُ «أو» في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾. وقال الفراء[٤]:

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٢ .

(٢) ١١/ ٥٤ - ٥٥.

(٣) ٢/ ٢٠٥ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٣ .

«أو» بمعنى بل. وقال غيره: إنها بمعنى الواو، ومنه قول الشاعر:

فلما اشتدَّ أمرُ الحربِ فينا تأمَّلنا رِياحاً أو رِزاما[١]

أي: ورِزاماً. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [النحل: ٧٧].

وقرأ جعفر بن محمد: «إلى مئة ألف ويزِيدون» بغير همز[٢]؛ فـ «يزِيدون» في موضع رفع بأنه خبر مبتدأ محذوف، أي: وهم يَزيدون.

النحاس[٣]: ولا يصحُّ هذان القولان عند البصريين، وأنكروا كونَ «أو» بمعنى بل وبمعنى الواو؛ لأن بل للإضراب عن الأوّل والإيجاب لما بعده، وتعالى الله عز وجل عن ذلك، أو خروج من شيء إلى شيء، وليس هذا موضعَ ذلك؛ والواو معناه خلافُ معنى «أو» فلو كان أحدُهما بمعنى الآخر لَبطلت المعاني؛ ولو جاز ذلك لكان: وأرسلناه إلى أكثرَ من مئة[٤] ألف أخصرَ.

وقال المبرد: المعنى: وأرسلناه إلى جماعة لو رأيتموهم لَقُلتم: هم مئةُ ألف أو أكثر، وإنما خُوطب العباد على ما يعرفون.

وقيل: هو كما تقول: جاءني زيد أو عمرو، وأنت تعرِف مَن جاءك منهما إلا أنك أبهمتَ على المُخاطَب.

وقال الأخفش والزجاج: أي: أو يزيدون في تقديركم[٥]. قال ابن عباس: زادوا على مئة ألف عشرين ألفاً. ورواه أُبيّ بن كعب مرفوعاً[٦]. وعن ابن عباس أيضاً:

---

(١) لم نقف عليه، وسلف ١٧/ ٣١٣.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٢٦.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٣.

(٤) في النسخ: مئتي ألف، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٥) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٦٩، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٣١٤.

(٦) أخرجه الترمذي (٣٢٢٩)، والطبري ١٩/ ٦٣٧. قال الترمذي: هذا حديث غريب.

ثلاثين ألفاً[(١)]. الحسن والربيع: بضعاً وثلاثين ألفاً. وقال مقاتل بن حيان: سبعين ألفاً[(٢)]. ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى مُنتهى آجالهم.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُواْ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ لما ذكر أخبارَ الماضين تسليةً للنبي ﷺ احتجَّ على كفار قريش في قولهم: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله؛ فقال: «فَاسْتَفْتِهِمْ». وهو معطوفٌ على مثله في أول السورة وإنْ تباعدَتْ بينهم المسافة؛ أي: فَسَلْ يا محمد أهلَ مكة: «أَلِرَبِّكَ البناتُ». وذلك أن جُهَينةَ وخُزاعةَ وبني مُلَيْح وبني سلمة وعبد الدار زعَموا أن الملائكةَ بناتُ الله. وهذا سؤالُ توبيخ.

﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ﴾ أي: حاضرون لِخَلْقنا إيَّاهم إناثاً؛ وهذا كما قال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩][(٣)]. ثم قال: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ وهو أسوأُ الكذب ﴿لَيَقُولُونَ . وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ في قولهم: إنَّ لله ولداً وهو الذي لَا يلِدُ ولا يُولد.

و«إنَّ» بعد «أَلَا» مكسورة؛ لأنها مبتدأة. وحكى سيبويه أنها تكون بعد أَمَا مفتوحةً أو مكسورة؛ فالفتح على أن تكون أَمَا بمعنى حقّاً، والكسر على أن تكون أَمَا بمعنى أَلَا.

النحاس[(٤)]: وسمعتُ علي بن سليمان يقول: يجوز فتحُها بعد أَلَا تشبيهاً بأَمَا،

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٣٧.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٣٧ من قول سعيد بن جبير.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٤ بنحوه.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٣ - ٤٤٤، وما قبله منه.

وأمّا في الآية فلا يجوز إلا كسرُها؛ لأن بعدَها اللام[١].

وتمامُ الكلام «لَكَاذِبُونَ». ثم يبتدئ ﴿أَصْطَفَى﴾ على معنى التقريع والتوبيخ كأنه قال: وَيْحَكم «أَصْطَفَى البناتِ» أي: أَختار البناتِ وتركَ البنين؟.

وقراءةُ العامة: «أَصْطَفَى» بقطع الألف؛ لأنها ألفُ استفهام دخلت على ألفِ الوصل، فَحُذفت ألفُ الوصل وبقيتْ ألفُ الاستفهام مفتوحةً مقطوعةً على حالها، مثل: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾[٢] [مريم:٧٨] على ما تقدَّم.

وقرأ أبو جعفر وشيبةُ ونافع وحمزة: «اصْطَفَى» بوصل الألف على الخبر بغير استفهام[٣]. وإذا ابتدأ كَسَرَ الهمزة. وزعم أبو حاتم أنه لا وجهَ لها؛ لأن بعدها ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ فالكلام جارٍ على التوبيخ. [قال أبو جعفر[٤]: هذه القراءة وإن كانت شاذة فهي تجوز من جهتين: إحداهما: أن يكون تبييناً وتفسيراً لما قالوه من الكذب ويكون ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ منقطعاً مما قبلَه. والجِهةُ الثانية: أنه قد حكى النحويون ـ منهم الفراء ـ أن التوبيخَ يكون باستفهام وبغير استفهام كما قال جل وعز: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف:٢٠].

وقيل: هو على إضمار القول، أي: ويقولون: «اصطفى البنات» أو يكون بدلاً من قوله: «وَلَدَ اللهُ»[٥] لأنَّ ولادةَ البناتِ واتخاذَهنَّ اصطفاءٌ لهنَّ، فأبدل مثالَ الماضي من مثال الماضي، فلا يوقف على هذا على «لَكاذِبُونَ».

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ في أنه لا يجوز أن يكونَ له ولد. ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ حُجَّة

---

(١) في النسخ: الرفع، والمثبت من إعراب القرآن.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٤ بنحوه.

(٣) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٦٠، وقراءة نافع وحمزة ـ وهي غير المشهورة عنهما ـ ذكرها النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤، والكلام منه بنحوه.

(٤) هو النحاس وما بين حاصرتين منه من إعراب القرآن له.

(٥) الكشاف ٣/ ٣٥٤ بنحوه.

وبُرهان. ﴿فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ﴾ أي: بحجكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ أكثرُ أهل التفسير أنَّ الجِنّة هاهنا الملائكة. روى ابن أبي نَجيح عن مجاهد قال: قالوا ـ يعني كفار قريش ـ: الملائكة بناتُ الله جل وتعالى. فقال: أبو بكر الصديق ﷺ: فمن أُمَّهاتُهنَّ. قالوا: مُخدَّرات الجنّ[١].

وقال أهل الاشتقاق: قيل لهم: جِنَّة، لأنهم لا يُرَوْن[٢]. وقال مجاهد: إنهم بطنٌ من بطون الملائكة يقال لهم: الجِنَّة[٣].

ورُوي عن ابن عباس. وروى إسرائيل عن السدي عن أبي مالك قال: إنما قيل لهم: جِنة؛ لأنهم خُزَّانٌ على الجِنان والملائكةُ كلُّهم جِنَّة[٤].

«نَسَباً» مصاهرة. قال قتادة والكلبي ومقاتل: قالت اليهودُ لَعَنهم الله: إنَّ الله صاهر الجِنّ، فكانت الملائكةُ من بينهم. وقال مجاهد والسُّدي ومقاتل أيضاً: القائلُ ذلك كِنانة وخُزاعة؛ قالوا: إنَّ الله خطبَ إلى سادَاتِ الجنّ فزوَّجوه من سَرَوات بناتهم، فالملائكةُ بناتُ الله من سَرَوات بنات الجنّ. وقال الحسن: أشركوا الشيطانَ في عبادة الله، فهو النَّسب الذي جعلوه[٥].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٦٥ ، وأخرجه الطبري ١٩/ ٦٤٥ مخدرات، جمع مخدرة، قال ابن الأثير في النهاية (خدر): الخِدْر: ناحية في البيت. . تكون فيه الجارية البكر، خُدِّرت، فهي مُخدَّرة. اهـ، وفي تفسير الطبري: سروات الجن. يعني أشرافهم. اللسان (سرو).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٤ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٧١ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٤ .

(٥) ذكر هذه الأقوال بنحوها الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٧٠ - ٧١ .

قلت: قولُ الحسن في هذا أحسنُ؛ دليلُه قوله تعالى: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٨] أي: في العبادة. وقال ابن عباس والضحاك والحسن أيضاً: هو قولُهم إنَّ الله تعالى وإبليسَ أخَوان؛ تعالى الله عن قولهم علوّاً كبيراً[١].

قوله تعال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾ أي: الملائكة ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني قائل هذا القول ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار؛ قاله قتادة. وقال مجاهد: للحساب[٢].

الثعلبي: الأولُ أولى؛ لأن الإحضار تكرَّر في هذه السورة، ولم يُرِدِ الله به غيرَ العذاب. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تنزيهاً لله عما يَصِفون. ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهم ناجون من النار.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ «ما» بمعنى الذي. وقيل: بمعنى المصدر، أي: فإنكم وعبادتَكم لهذه الأصنام. وقيل: أي: فإنكم مع ما تعبُدون من دون الله؛ يقال: جاء فلانٌ وفلان. وجاء فلانٌ مع فلان. ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على الله ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ بمضلِّين[٣].

النحاس[٤]. أهلُ التفسير مُجمعون فيماعلمت على أن المعنى: ما أنتم بمضلِّين أحداً إلا من قدَّر اللهُ عز وجل عليه أن يَضِلَّ.

وقال الشاعر:

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٤٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٧١ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٦٤٦ .

(٣) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/ ٣٥٥ ، وينظر الدر المصون ٩/ ٣٣٥ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٥ .

فـــردَّ بـــنـــعـــمـــتـــه كـــيـــدَهُ عـــلـــيـــهِ وكـــان لـــنـــا فـــاتِـــنـــا

أي: مُضِلّاً[١].

الثانية: في هذه الآية ردٌّ على القَدَرية. قال عمر[٢] بن ذرّ: قَدِمنا على عمر بن عبد العزيز فذُكِر عنده القَدَر، فقال عمر: لو أراد اللهُ ألَّا يُعْصَى ما خلقَ إبليسَ وهو رأسُ الخطيئة، وإن في ذلك لَعلماً في كتاب الله جل وعز، عَرَفه من عَرَفه، وجَهِلَه مَن جَهِلَه؛ ثم قرأ: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ إلا مَن كَتب الله عز وجل عليه أن يَصلَى الجحيم. وقال: فَصَلَتْ هذه الآيةُ بين الناس[٣].

وفيها من المعاني أن الشياطين لا يَصِلون إلى إضلال أحدٍ إلا مَن كَتَبَ الله عليه أنه لا يهتدي، ولو علم اللهُ جل وعز أنه يهتدي لَحَالَ بينه وبينهم؛ وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] أي: لستَ تَصِلُ منهم إلى شيء إلَّا إلى ما في علمي[٤]. وقال لَبيد بن ربيعة في تثبيت القدَرِ فأَحسنَ:

إنّ تَـقْـوى ربِّـنـا خـيـرُ نَـفَـلْ وبِـإذنِ الـلـه رَيْـثـي وعَـجَـلْ

أَحـمَـدُ الـلـهَ فـلا نِـدَّ لـهُ بِـيـديـهِ الـخـيـرُ مـا شـاء فَـعَـلْ

مَـنْ هَـدَاهُ سُـبُـلَ الـخـيـر اهـتـدى نـاعِـمَ الـبَـالِ ومَـنْ شـاء أَضَـلْ[٥]

قال الفراء[٦]: أهلُ الحجاز يقولون: فتنتُ الرجل، وأهل نجد يقولون: أَفتنته.

الثالثة: رُوي عن الحسن أنه قرأ: «إلَّا مَن هو صَالُ الجحيمِ» بضم اللام.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٧٢.

(٢) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): عمرو، والمثبت من (ف). وهو عمر بن ذر بن عبد الله بن زرارة الهَمْداني، المرهبي، أبو ذر الكوفي، رُمي بالإرجاء. تهذيب التهذيب ٣/ ٢٢٣.

(٣) أخرجه بنحوه الآجري في الشريعة ص ٢٣٠، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٢٤٥)، والبيهقي في الاعتقاد ص ١٠٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٥.

(٥) ديوان لبيد ص١٧٤، والبيت الأول سلف ٩/ ٤٤٣.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٥.

النحاس[١]: وجماعةُ أهل التفسير يقولون: إنه لحن؛ لأنه لا يجوزُ: هذا قاضُ المدينةِ. ومن أحسن ما قيل فيه ما سمعتُ عليَّ بن سليمان يقوله؛ قال: هو محمولٌ على المعنى؛ لأن معنى «مَنْ» جماعة؛ فالتقدير: صالون؛ فحذفت النون للإضافة، وحُذفت الواو لالتقاء الساكنين. وقيل: أصلُه فاعل إلا أنه قُلب من صالٍ إلى صايل، وحذفت الياء وبقيت اللام مضمومةً، فهو مثل: «شَفَا جُرُفٍ هَارٍ».

ووجهٌ ثالث: أن تحذف لام «صال» تخفيفاً، وتجري الإعراب على عينه، كما حُذف من قولهم: ما باليت به بالة. وأصلُها: بالية، من بالَى، كعافية من عافَى؛ ونظيرُه قراءةُ من قرأ: «وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ[٢]» [الرحمن: ٥٤]، «وَلَهُ الْجَوَارُ الْمُنْشَآتُ»[٣] [الرحمن: ٢٤] أجرى الإعرابَ على العين[٤]. والأصلُ في قراءة الجماعة: صالي، بالياء، فحذفها الكاتبُ من الخطّ لِسُقوطها في اللفظ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

هذا مِن قول الملائكة تعظيماً لله عز وجل، وإنكاراً منهم عبادةَ مَنْ عَبَدَهم. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ قال مقاتل: هذه الثلاثُ الآيات نزلتْ ورسول الله ﷺ عند سِدرة المُنتهى، فتأخَّر جبريلُ، فقال النبي ﷺ: «أَهُنا تُفارقني» فقال: ما أستطيع أن أتقدَّمَ عن مكاني[٥]. وأنزل الله تعالى حكايةً عن قول الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ الآيات.

والتقدير عند الكوفيين: وما منا إلا مَن له مقامٌ معلوم، فحذف الموصول.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٥ - ٤٤٦ ، وما قبله منه، وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص١٢٨ ، والمحتسب ٢/ ٢٢٨ .

(٢) لم نقف على من قرأ بها.

(٣) قرأ بها ابن مسعود والحسن كما في القراءات الشاذة ص١٤٩ .

(٤) الكشاف ٣/ ٣٥٦ ، وينظر البيان لأبي البركات الأنباري ٢/ ٣١٠ .

(٥) لم نقف عليه.

والتقدير عند الكوفيين: وما منا إلا مَن له مقامٌ معلوم، فحذف الموصول. وتقديره عند البصريين: وما منا مَلَكٌ إلا له مقامٌ معلوم[١]؛ أي: مكان معلومٌ في العبادة؛ قاله ابن مسعود وابن جُبير[٢]. وقال ابن عباس: ما في السماوات موضعُ شبرٍ إلا وعليه مَلَكٌ يُصلِّي ويُسبح[٣]. وقالت عائشة رضي الله عنها: قال النبي ﷺ: «ما في السماء موضعُ قَدَم إلا عليه مَلَكٌ ساجدٌ أو قائم[٤]».

وعن أبي ذرٍّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إني أرى ما لا تَرون، وأسمعُ ما لا تسمعون أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلا وَملَكٌ واضعٌ جبهتَه ساجداً لله، والله، لو تعلمون ما أعلمُ لَضَحِكْتُم قليلاً ولَبَكَيْتُم كثيراً، وما تلذَّذتُم بالنساء على الفُرش، ولخَرجتم إلى الصُّعُدات تَجْأرون إلى الله» لَوَدِدْتُ أني كنتُ شجرةً تُعضَد. خرجه أبو عيسى الترمذي[٥]، وقال فيه: حديث حسن غريب. ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذرّ قال: لَوَدِدْتُ أني كنت شجرةً تُعْضَد[٦]. ويروى عن أبي ذرّ موقوفاً[٧].

وقال قتادة: كان يُصلِّي الرجال والنساء جميعاً حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾. قال: فتقدَّم الرجال وتأخَّر النساء[٨].

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ قال الكلبي: صفوفُهم كصفوفِ أهل الدنيا في الأرض[٩].

وفي «صحيح مسلم»: عن جابر بن سَمُرةَ قال: خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ ونحن

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٦.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٧٢.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٥.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٥١.

(٥) في سننه (٢٣١٢)، وسلف ٥/ ٤٢٨.

(٦) أخرجه أحمد (٢١٥١٦).

(٧) أخرجه الحاكم ٤/ ٥٧٩ مختصراً على قوله: لو تعلمون ما أعلم... إلى آخره.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٧٢.

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٤٥.

كيف تَصُفُّ الملائكةُ عند ربِّها؟ قال: «يُتِمُّون الصفوفَ الأُول، ويتراصُّون في الصفّ»[١].

وكان عمر يقول إذا قام للصلاة: أَقيموا صُفوفَكم واستووا، إنما يريدُ الله بكم هَدْيَ الملائكة عند ربِّها ويقرأ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ تأخَّر يا فلان، تقدَّم يا فلان؛ ثم يتقدَّم فَيُكَبِّر[٢]. وقد مضى في سورة «الحجر» بيانُه[٣].

وقال أبو مالك: كان الناسُ يُصلُّون مُتبدِّدين، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ فأمرهم النبيُّ ﷺ أن يَصْطفُّوا[٤].

وقال الشعبي: جاء جبريلُ أو ملَكٌ إلى النبي ﷺ فقال: تقوم أَدنى من ثُلثي الليل ونِصْفَه وثُلُثَه؛ إنَّ الملائكة لَتُصلي وتُسبِّح، ما في السماء ملَك فارغ[٥].

وقيل: أي: لَنحن الصافُّون أجنحتنا في الهواء وقوفاً ننتظرُ ما نُؤمَر به. وقيل: أي: نحن الصافُّون حولَ العرش.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ أي: المُصلُّون؛ قاله قتادة. وقيل: أي: المُنزِّهون اللهَ عمَّا أضافه إليه المشركون[٦]. والمراد أنهم يُخبرون أنهم يعبدون اللهَ بالتسبيح والصلاة، وليسوا معبودين ولا بناتِ الله.

وقيل: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ من قول الرسول ﷺ والمؤمنين للمشركين؛ أي: لكل واحدٍ منا ومنكم في الآخرة مقامٌ معلوم، وهو مقامُ الحساب. وقيل: أي: مِنَّا من له مقامُ الخوف، ومِنَّا من له مقامُ الرَّجاء، ومِنا من له مقامُ الإخلاص، ومِنَّا مَن له مقامُ الشُّكر، إلى غيرها من المقامات.

---

(١) صحيح مسلم (٤٣٠)، وهو في مسند أحمد (٢٠٩٦٤).

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٥٣.

(٣) ١٢/ ٢٠١ - ٢٠٢.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٧٢.

(٥) ذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ١٢٦ دون نسبة.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٧٢.

قلت: والأظهرُ أن ذلك راجعٌ إلى قول الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ١٦٧ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٩ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ١٧٠﴾

عاد إلى الإخبار عن قول المشركين، أي: كانوا قبلَ بعثة محمد ﷺ إذا عُيِّروا بالجهل قالوا: ﴿لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: لو بُعِثَ إلينا نبيٌّ ببيان الشرائع لاتَّبعناه.

ولمّا خففت «إنْ» دخلتْ على الفعل ولَزِمتها اللامُ فَرْقاً بين النَّفي والإيجاب. والكوفيون يقولون: «إنْ» بمعنى ما، واللام بمعنى إلا[1]. وقيل: معنى ﴿لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا﴾ أي: كتاباً من كتب الأنبياء ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ أي: لو جاءنا ذكرٌ كما جاء الأوّلين لأخلصنا العبادةَ لله. ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ﴾ أي: بالذِّكر. والفراء[2] يُقدِّره على حذف؛ أي: فجاءهم محمد ﷺ بالذِّكر فكفروا به. وهذا تعجيبٌ منهم، أي: فقد جاءهم نبيٌّ وأُنزلَ عليهم كتابٌ فيه بيانُ ما يحتاجون إليه فكفروا وما وفَوْا بما قالوا.

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ قال الزجاج[3]: يعلمون مَغَبَّة كُفْرهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ١٧٤ وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ١٧٥ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ١٧٧ وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ١٧٨ وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ١٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ قال الفراء[4]: أي: بالسعادة.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٦ - ٤٤٧ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٧ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣١٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٧ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٧ .

وقيل: أراد بالكلمة قولَه عز وجل: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾[١] [المجادلة: ٢١] قال الحسن: لم يُقتَل من [الرُّسُل] أصحابِ الشرائع قطّ أحدٌ[٢].

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ أي: سبق الوعدُ بنصرهم بالحُجَّة والغَلَبة. ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ على المعنى، ولو كان على اللَّفظ لكان: هو الغالبَ مثل ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾. وقال الشَّيباني[٣]: جاء هاهنا على الجمع من أجل أنه رأسُ آية.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرِضْ عنهم. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال قتادة: إلى الموت. وقال الزجاج[٤]: إلى الوقت الذي أُمهلوا إليه. وقال ابن عباس: يعني القتل ببدر. وقيل: يعني فتح مكة. وقيل: الآيةُ منسوخةٌ بآية السيف[٥].

﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قال قتادة: سوف يُبصروه حين لا يَنفعهم الإبصارُ[٦]. وعسى من الله للوجوب[٧]، وعبّر بالإبصار عن تقريب الأمر؛ أي: عن قريبٍ يُبصرون. وقيل: المعنى: فسوف يُبصرون العذابَ يومَ القيامة.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ كانوا يقولون من فَرْط تكذيبهم: متى هذا العذابُ؛ أي: لا تستعجلوه، فإنه واقعٌ بكم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: العذاب. قال الزجاج[٨]: وكان عذابُ هؤلاء بالقتل. ومعنى «بِسَاحَتِهِمْ» أي: بدارهم؛ عن السُّدّي[٩] وغيره. والساحة

---

(١) زاد المسير ٧/ ٩٣ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٧٣، وما بين حاصرتين منه.

(٣) في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٧ (والكلام منه): الكسائي.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣١٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٨ ، وقول قتادة الذي قبله منه، وأخرجه الطبري ١٩/ ٦٥٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٧٣ بنحوه.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٥٩ .

(٧) كذا في النسخ، وليس في الآيات لفظ «عسى».

(٨) في معاني القرآن ٤/ ٣١٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٨ .

(٩) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٦٠ .

والسَّحْسَة في اللغة: فِناءُ الدار الواسع[1]. الفرّاء[2]: «نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ» ونزل بهم سواء.

﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: بئس صباحُ الذين أُنذروا بالعذاب. وفيه إضمارٌ، أي: فساءَ الصباحُ صباحُهم[3]. وخُصَّ الصباح بالذِّكر؛ لأن العذابَ كان يأتيهم فيه. ومنه الحديث الذي رواه أنس ﷺ قال: لما أتى رسولُ الله ﷺ خَيْبَر، وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المَسَاحي، فقالوا: محمدٌ والخميسُ، ورجَعوا إلى حِصْنهم؛ فقال ﷺ: «اللهُ أكبرُ، خَربت خيبرُ، إنا إذا نَزَلْنا بساحةِ قومٍ فساءَ صباحُ المُنذَرين»[4]. وهو يُبيِّن معنى ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يُريد النبيَّ ﷺ.

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ كرَّر تأكيداً، وكذا ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيدٌ أيضاً

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾ نَزَّه سبحانه نفسَه عما أضافَ إليه المشركون. ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ على البَدَل. ويجوزُ النصب على المَدْح، والرفعُ بمعنى: هو ربُّ العِزَّة[5].

﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: من الصاحبة والولد. وسُئل رسولُ الله ﷺ عن معنى «سبحانَ اللَّهِ» فقال: «هو تنزيهُ الله عن كلِّ سوء» وقد مضَى في «البقرة» مستوفى[6].

---

(١) العين ٣/ ١٦ .

(٢) معاني القرآن ٢/ ٣٩٦ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٧٠ .

(٤) أخرجه أحمد (١١٩٩٢)، والبخاري (٣٧١)، ومسلم (١٣٦٥) (٨٤) و(٨٧) مطولاً. والخميس: الجيش، سُمّي به لأنه مقسوم بخمسة أقسام: المقدمة، والساقة، والميمنة، والميسرة، والقلب، وقيل: لأنه تُخَمَّس فيه الغنائم. النهاية (خمس).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٨ .

(٦) ١/ ٤١٢ ، وهو حديث ضعيف.

الثانية: سُئل محمد بن سُحْنون عن معنى «رَبِّ العزَّة» لِمَ جاز ذلك، والعِزَّةُ من صِفات الذَّات، ولا يقال: ربُّ القُدرة ونحوها من صفات ذاته جلّ وعزّ؟ فقال: العِزَّة تكون صفةَ ذاتٍ وصفةَ فِعْل، فَصِفةُ الذات نحو قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠] وصفةُ الفعل نحو قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ والمعنى: ربّ العِزَّة التي يتعازُّ بها الخَلْق فيما بينهم، فهي من خَلْق الله عز وجل. قال: وقد جاء في التفسير: إنَّ العِزَّة هاهنا يُراد بها الملائكة.

قال: وقال بعض علمائنا[1]: مَن حلف بعزَّة الله، فإنْ أراد عزَّتَه التي هي صِفتُه فَحَنِثَ فعليه الكَفَّارة، وإنْ أراد التي جعلها اللهُ بين عبادِه فلا كفَّارةَ عليه.

الماوردي[2]: «رَبِّ العِزَّةِ» يَحتمِلُ وجهين: أحدهما: مالك العِزَّة، والثاني: ربّ كلِّ شيءٍ مُتعزِّز من مَلِك أو مُتجبِّر.

قلت: وعلى الوجهين فلا كفَّارةَ إذا نواها الحالفُ.

الثالثة: رُوي من حديث أبي سعيد الخُدريّ أن رسولَ الله ﷺ كان يقول قبلَ أن يُسلِّم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ إلى آخر السورة[3]؛ ذكره الثعلبي.

قلت: قرأتُ على الشيخ الإمامِ المُحدِّث الحافظ أبي عليّ الحسن بن محمد بن محمد بن محمد بن عمروك البكريّ بالجزيرة قُبالةَ المنصورة من الديار المصرية، قال: أخبرتنا الحُرَّة أمُّ المُؤيَّد زينبُ بنت عبد الرحمن بن الحسن الشَّعْري بنيسابور في المرة الأُولى، أخبرنا أبو محمد إسماعيل بن أبي بكر القارئ، قال: حدثنا أبو الحسن عبد القادر بن محمد الفارسيّ، قال: حدّثنا أبو سهل بِشرُ بن أحمد الإسفراييني، قال: حدَّثنا أبو سليمان داودُ بن الحسين البيهقي، قال: حدَّثنا أبو زكريا يحيى بن يحيى بن عبد الرحمن التميمي النيسابوري، قال: حدّثنا هُشَيم،

---

(١) هو محمد بن سحنون كما في المحرر الوجيز ٤/ ٤٩٠ .

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٧٤ .

(٣) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (١١٩)، والخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (٤٧٨).

عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخُدريّ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ غيرَ مرة ولا مرتين يقول في آخر صلاته أو حين ينصرف: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ . وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

قال الماوردي: روى الشعبي قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ سرَّه أن يكتالَ بِالمكيال الأوفى من الأجرِ يومَ القيامة فَلْيقُلْ آخرَ مَجْلسهِ حين يُريد أن يقوم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ . وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(١)]. ذكره الثعلبي من حديث عليّ ﷺ مرفوعاً[(٢)].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: الذين بلَّغوا عن الله تعالى التوحيد والرسالة.

وقال أنسٌ: قال النبي ﷺ: «إذا سلَّمتم عليَّ فسلِّموا على المُرسلين، فإنما أنا رسولٌ من المرسلين»[(٣)].

وقيل: معنى «وسلامٌ على المرسلين» أي: أمنٌ لهم من الله جلَّ وعزَّ يومَ الفَزَع الأكبر.

«والحمد لله ربِّ العالمين» أي: على إرسال المرسلين مُبشِّرين ومُنذرين. وقيل: أي: على جميع ما أنعم اللهُ به على الخَلق أجمعين[(٤)]، وقيل: أي: على هلاك المشركين[(٥)]؛ دليلُه: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

قلت: والكلُّ مُراد، والحمدُ يَعُمُّ. ومعنى «يَصِفُونَ» يكذِبون، والتقدير: عما يَصِفون من الكذب. تَمَّ تفسيرُ «الصافات».

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٣٤، وهو مرسل.

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره ٤/ ٤٦ من طريق الثعلبي عن علي ﷺ موقوفاً.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٩٢)، وأخرجه الطبري ١٩/ ٦٦١ عن قتادة مرسلاً.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٧٤.

(٥) زاد المسير ٧/ ٩٥.

سورة صٓ

مكيةٌ في قول الجميع[1]، وهي ستٌّ وثمانون آية. وقيل: ثمان وثمانون آية[2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ① بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ② كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ③﴾

قوله تعالى: ﴿صٓۚ﴾ قراءةُ العامة «صٓ» بجزم الدال على الوقف؛ لأنه حرفٌ من حروف الهجاء مثل: «الم» و«المر». وقرأ أبيّ بن كعب والحسن وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم: «صادِ» بكسر الدال بغير تنوين[3]. ولقراءته مذهبان: أحدهما: أنه من صادَى يُصادي إذا عارض، ومنه «فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى» [عبس:٦] أي: تعرَّض. والمصاداة المعارضة، ومنه الصَّدَى: وهو ما يُعارض الصوت في الأماكن الخالية.

فالمعنى: صادِ القرآنَ بعملك؛ أي: عارضه بعملك وقابله به، فاعمل بأوامره، وانتهِ عن نواهيه.

النحاس[4]: وهذا المذهب يُروى عن الحسن أنه فسَّر به قراءته رواية صحيحةً عنه[5]، أن المعنى: أُتْله وتعرَّض لقراءته. والمذهب الآخرُ أن تكونَ الدالُ مكسورةً لالتقاء الساكنين. وقرأ عيسى بن عمر «صادَ» بفتح الدال[6] مثله: «قافَ» و«نونَ» بفتح

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٧، وزاد المسير ٧/ ٩٦.

(٢) ذكرهما السيوطي في الإتقان ١/ ٢١٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحتسب ٢/ ٢٣٠.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٩.

(٥) في النسخ: وعنه، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وقول الحسن أخرجه الطبري ٢٠/ ٥.

(٦) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحتسب ٢/ ٢٣٠.

آخرها. وله في ذلك ثلاثةُ مذاهب: أحدهنَّ أن يكون بمعنى: اتْلُ صادَ[١]. والثاني: أن يكون فُتِحَ لالتقاء الساكنين، واختار الفتحَ للإتباع، ولأنه أخفُّ الحركات. والثالث: أن يكون منصوباً على القَسَم بغير حرف؛ كقولك: اللهَ لأفعلنَّ، وقيل: نُصب على الإغراء.

وقيل: معناه: صادَ محمدٌ قلوب الخَلْق واستمالها حتى آمنوا به[٢].

وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً: «صادٍ» بكسر الدال والتنوين على أن يكون مخفوضاً على حذف حرف القسَم، وهذا بعيدٌ، وإن كان سيبويه قد أجاز مثلَه. ويجوز أن يكون مشبهاً بما لا يتمكن من الأصوات وغيرها[٣].

وقرأ هارونُ الأعور ومحمد بن السَّمَيْفَع: «صادُ» و«قافُ»[٤] [ق: ١] و«نونُ»[٥] [القلم: ١] بضمِّ آخرِهن؛ لأنه المعروفُ بالبناء في غالب الحال، نحو: منذُ وقط وقبلُ وبعدُ.

و«صَ» إذا جعلته اسماً للسورة لم ينصرف؛ كما أنك إذا سمَّيتَ مؤنثاً بمذكر لا ينصرف وإن قلَّتْ حروفه[٦].

وقال ابن عباس وجابر بن عبد الله وقد سُئلا عن «صَ» فقالا: لا ندري ما هي[٧]. وقال عكرمة: سأل نافعُ بن الأزرق ابنَ عباس عن «صَ» فقال: «صَ» كان بحراً بمكة، وكان عليه عرشُ الرحمن إذ لا ليل ولا نهار.

وقال سعيد بن جُبير: «صَ» بحر يُحيي اللهُ به الموتى بين النَّفختين[٨].

---

(١) قوله: صاد، ليس في (م).

(٢) زاد المسير ٧/ ٩٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥١.

(٤) القراءات الشاذة ص١٢٩ و١٤٤ ونسبها للحسن.

(٥) زاد المسير ٨/ ٣٢٦، وستأتي في موضعها.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٠.

(٧) أخرجه عبد بن حُميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٩٦.

(٨) أورد هذا الخبر والذي قبله الآلوسي في روح المعاني ٢٣/ ١٦١، ثم قال: الله أعلم بصحة هذين =

وقال الضحاك: معناه: صدق الله[١]. وعنه: أن «صَ» قسمٌ أقسم اللهُ به، وهو من أسمائه تعالى. وقاله السدي، ورُوي عن ابن عباس[٢]. وقال محمد بن كعب: هو مفتاحُ أسماء[٣] الله تعالى: صمدٌ، وصانعُ المصنوعات، وصادقُ الوعد.

وقال قتادة: هو اسمٌ من أسماء الرحمن. وعنه أنه اسمٌ من أسماء القرآن. وقال مجاهد: هو فاتحة السورة[٤].

وقيل: هو مما استأثر اللهُ تعالى بعلمه، وهو معنى القول الأوّل. وقد تقدَّم جميعُ هذا في «البقرة»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ خفض بواو القسم، والواو بدل من الباء[٦]؛ أقسم بالقرآن تنبيهاً على جلالة قدره؛ فإنَّ فيه بيانَ كل شيء، وشفاءً لما في الصدور، ومعجزةً للنبيِّ ﷺ.

﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ خفض على النعت، وعلامة خفضه الياء، وهو اسم معتلٌّ، والأصل فيه: ذَوَي على فَعَل[٧].

قال ابن عباس: ومقاتل: معنى «ذِي الذِّكْرِ»: ذي البيان[٨]. الضحاك: ذي

= الخبرين. ونافع بن الأزرق من رؤوس الخوارج له أسئلة عن ابن عباس أخرج الطبراني بعضها في المعجم الكبير. لسان الميزان ٦/ ١٤٤ - ١٤٥ .

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٧ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/٦ .

(٣) في النسخ الخطية: اسم، والمثبت من (م) .

(٤) هذه الأقوال في معاني القرآن للنحاس ٦/ ٧٣ .

(٥) ١/ ٢٣٧ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٠ .

(٧) المصدر السابق .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٧٥، وزاد المسير ٧/ ٩٨ عن قتادة، وفيهما وفي تفسير الطبري ٢٠/ ٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩١ أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: معناه: ذي الشرف .

الشرف[١]، أي: مَن آمنَ به كان شرفاً له في الدارين؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي: شرفكم. وأيضاً القرآنُ شريفٌ في نفسه، لإعجازه واشتماله على ما لا يشتمل عليه غيره.

وقيل: «ذِي الذِّكْرِ» أي: فيه ذِكرُ ما يُحتاج إليه من أمر الدين. وقيل: «ذِي الذِّكْرِ» أي: فيه ذكرُ أسماء الله وتمجيده[٢]. وقيل: أي: ذي الموعظة والذِّكر.

وجوابُ القسم محذوفٌ. واختلف فيه على أوجه: فقيل جوابُ القسم «صَ»؛ لأن معناه: حقّ، فهي جواب لقوله: «وَالْقُرآنِ» كما تقول: حقّاً واللهِ، نزل واللهِ، وجب واللهِ؛ فيكون الوقفُ من هذا الوجه على قوله: «وَالْقُرآنِ ذِي الذِّكْرِ» حسَناً، وعلى «في عِزَّةٍ وَشِقَاق» تماماً؛ قاله ابن الأنباري[٣]. وحكى معناه الثعلبي عن الفراء[٤].

وقيل: الجواب ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ لأن «بل» نفيٌ لأمر سبقَ وإثباتٌ لغيره؛ قاله القتبيّ[٥]؛ فكأنه قال: «والقُرآنِ ذي الذِّكْرِ بَل الذين كَفَرُوا في عِزَّة وشِقاق» عن قَبول الحقّ وعداوة لمحمد ﷺ. أو «وَالْقُرْآنِ ذي الذِّكْرِ» ما الأمرُ كما يقولون من أنك ساحرٌ كذّاب؛ لأنهم يعرفونك بالصِّدق والأمانة، بل هم في تكبُّر عن قَبول الحقّ. وهو كقوله: ﴿قٓ . وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوٓا۟﴾ [ق:١-٢].

وقيل: الجواب «كَمْ أَهْلَكْنا» كأنه قال: والقرآنِ، لَكَمْ أهلكنا؛ فلما تأخَّرت «كَمْ» حُذفت اللام منها؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ثم قال: «قَدْ أَفْلَحَ» أي: لقد

---

(١) هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما كما ذكرنا في التعليق السابق، وفي المصادر أن الضحاك قال: معناه: ذي التذكير.

(٢) مجمع البيان ٢٣/٩٦ بنحوه.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٠ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٦ .

(٥) في تأويل مشكل القرآن ص٤٠٨ بنحوه.

أفلحَ. قال المهدوي: وهذا مذهبُ الفراء[(١)].

ابن الأنباري[(٢)]: فمن هذا الوجه لا يتمّ الوقف على قوله: «في عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ».

وقال الأخفش[(٣)]: جواب القسم ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص:١٤] ونحو منه قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:٩٧] وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ﴾ [الطارق:١ و٤]. ابن الأنباري[(٤)]: وهذا قبيحٌ؛ لأن الكلامَ قد طال فيما بينهما وكَثُرت الآياتُ والقصص.

وقال الكسائي[(٥)]: جوابُ القسم قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٦٤]. ابن الأنباري[(٦)]: وهذا أقبحُ من الأوّل؛ لأن الكلامَ أشدُّ طولاً فيما بين القسم وجوابِه.

وقيل: الجواب قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص:٥٤]. وقال قتادة: الجوابُ محذوفٌ تقديره «وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ» لَتُبعثُنَّ، ونحوه.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ﴾ أي: في تكبُّر وامتناع من قَبول الحق؛ كما قال جلّ وعزّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٦] والعِزَّة عند العرب: الغَلَبة والقَهْر. يقال: مَن عَزَّ بَزَّ[(٧)]؛ يعني: مَن غَلَب سَلَب. ومنه: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] أراد: غَلَبني.

وقال جرير:

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٧، وينظر زاد المسير ٧/ ٩٩ .

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٠ .

(٣) في معاني القرآن ٢// ٦٧٠ .

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٠ .

(٥) ذكره عنه البغوي في تفسيره ٤/ ٤٧، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٩٩ .

(٦) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦١ .

(٧) ذكره الميداني في مجمع الأمثال ٢/ ٣٠٧، والزمخشري في المستقصى ٢/ ٣٥٧ .

يَعُزُّ على الطريق بِمَنْكِبيهِ كما ابتَرَكَ الخَلِيعُ على القِداحِ[١]

أراد: يغلب. ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي: في إظهارِ خلافٍ ومُباينة. وهو من الشَّق، كأنّ هذا في شَقّ وذلك في شَقّ. وقد مضى في «البقرة» مستوفى[٢].

قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من قوم كانوا أمنعَ من هؤلاء. و«كم» لفظة التكثير ﴿فَنَادَوا﴾ أي: بالاستغاثة والتوبة. والنِّداء رفع الصوت، ومنه الخبر: «أَلْقِه على بلالٍ، فإنه أَنْدى منك صوتاً»[٣] أي: أرفع.

﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قال الحسن: نادَوْا بالتوبة وليس حين التوبة ولا حين ينفع العمل. النحاس[٤]: وهذا تفسيرٌ منه لقوله عز وجل: «ولات حين مَنَاصٍ» فأما إسرائيل فروى عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس «ولاتَ حين مَنَاص» قال: ليس بحين نَزْو ولا فِرار؛ قال: ضُبِط القومُ جميعاً[٥].

قال الكلبي: كانوا إذ قاتلوا فاضطُرُّوا قال بعضهم لبعض: مناص؛ أي: عليكم بالفِرار والهزيمة، فلما أتاهم العذابُ قالوا: مناص؛ فقال الله عز وجل: «ولاتَ حين مَنَاص».

قال القشيري: وعلى هذا فالتقدير: فنادَوا: مَناص، فحذف لدلالة بقيةِ الكلام عليه؛ أي: ليس الوقتُ وقتَ ما تُنادون به. وفي هذا نوع تحكُّم؛ إذْ يَبعُدُ أن يقال: كلُّ مَن هلك من القرون كانوا يقولون: مناص عند الاضطرار.

وقيل: المعنى «ولاتَ حين مَنَاص» أي: لا خلاص، وهو نصب بوقوع «لا» عليه. قال القشيري: وفيه نظر؛ لأنه لا معنى على هذا للواو في «ولاتَ حينَ مَنَاصٍ».

---

(١) ديوان جرير ١/ ٨٨.

(٢) ٢/ ٤١٩.

(٣) أخرجه أحمد (١٦٤٧٨)، وأبو داود (٤٩٩) من حديث عبد الله بن زيد ﷺ.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٠، وما قبله منه.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٣. والنَّزو: الوثوب. اللسان (نزو).

وقال الجُرجاني[١]: أي: فنادَوا حين لا مناص، أي: ساعةَ لا مَنْجى ولا فوت. فلما قدَّم «لا» وأخَّر «حين» اقتضى ذلك الواو، كما يقتضي الحال إذا جعل ابتداء وخبراً؛ مثل قولك: جاء زيد راكباً؛ فإذا جعلتَه مبتدأ وخبراً اقتضى الواو مثل: جاءني زيد وهو راكب فـ «حين» ظرف لقوله: «فَنَادَوْا». والمَناص بمعنى التأخّر والفرار والخَلاص؛ أي: نادَوا لطلب الخَلاص في وقتٍ لا يكون لهم فيه خلاص. قال الفرّاء:

أَمِنْ ذكرِ ليلى إذ نأتكَ تَنُوصُ[٢]

يقال: ناص عن قِرْنه يَنُوص نَوْصاً ومَناصاً، أي: فَرَّ وراغ. النحاس[٣]: ويقال: ناص ينوص إذا تقدَّم.

قلت: فعلى هذا يكون من الأضداد، والنَّوْص الحمار الوحشيّ. واستناص، أي: تأخَّر؛ قاله الجوهري[٤].

وتكلَّم النحويون في «ولاتَ حِينَ» وفي الوقف عليه، وكثَّر فيه أبو عُبيد[٥] القاسم ابن سلَّام في كتاب «القراءات» وكلُّ ما جاء به إلا يسيراً مردودٌ. فقال سيبويه[٦]: «لات» مُشبَّهة بليس والاسم فيها مضمر؛ أي: ليست أحيانُنا حينَ مناص. وحكَى أن من العرب من يرفع بها فيقول: ولات حِينُ مناص. وحكَى أن الرفعَ قليلٌ، ويكون

---

(١) ذكره عنه السمين الحلبي في الدر المصون ٩/٣٥٦ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٩٧، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (نوص)، وما بعده منه، والبيت في ديوان امرئ القيس ص١٧٧ ، وفيه سلمى، بدل: ليلى. وعجزه: فتقصُرُ عنها خطوة أو تبوصُ.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٤٥٠ .

(٤) في الصحاح (نوص).

(٥) في (م): أبو عبيدة، وهو خطأ.

(٦) في الكتاب ١/ ٥٧ – ٥٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥١، وما قبله وما بعده منه.

الخبرُ محذوفاً، كما كان الاسم محذوفاً في النصب؛ أي: ولات حينُ مناصٍ لنا. والوقفُ عليها عند سيبويه والفراء[1] «ولات» بالتاء، ثم تبتدئ «حينَ مَنَاص» وهو قولُ ابن كيسان والزجاج[2]. قال أبو الحسن بن كيسان: والقول كما قال سيبويه؛ لأنه شبَّهها بليس، فكما يقال: ليست، يقال: لات. والوقوف عليها عند الكسائي بالهاء: ولاهْ. وهو قول المبرد محمد بن يزيد. وحكى عنه علي بن سليمان أن الحُجَّة في ذلك أنها [لا] دخلتْ عليها الهاء لتأنيث الكلمة، كما يقال: ثُمَّة ورُبَّة[3].

وقال القشيري: وقد يقال: ثُمَّتْ بمعنى: ثُمَّ، ورُبَّتْ بمعنى: رُبَّ؛ فكأنهم زادوا في «لا» هاء، فقالوا: لاه، كما قالوا في ثُمَّ: ثُمَّهْ، عند الوصل صارت تاء.

وقال الثعلبي: وقال أهل اللغة: و«لاتَ حينَ» مفتوحتان كأنهما كلمة واحدة، وإنما هي «لا» زِيدتْ فيها التاء نحو: رُبَّ ورُبَّتْ، وثُمَّ وثُمَّتْ. قال أبو زُبيد الطائي:

طَلَبُوا صُلْحَنا ولَاتَ أَوَانٍ   فأَجَبْنَا أَنْ ليس حينَ بقَاءِ

وقال آخر:

تذكَّر حُبَّ ليلى لَاتَ حِينا   وأمسى الشَّيْبُ قد قَطَعَ القَرينا[4]

ومِن العرب من يخفض بها؛ وأنشد الفراء:

فَلَتَعْرِفَنَّ خَلَائقاً مَشْمُولَةً   ولَتَنْدَمَنَّ ولَاتَ ساعةِ مَنْدَمِ[5]

وكان الكسائي والفراء والخليل وسيبويه والأخفش[6] يذهبون إلى أن «ولاتَ

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٨.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٣٢٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥١، وما بين حاصرتين منه.

(٤) البيتان في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٩٧ - ٣٩٨، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٣، والخزانة ٤/ ١٦٩، والبيت الثاني غير منسوب.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٩٧، والذي فيه قوله: ولات ساعةِ مندم. ثم قال الفراء: ولا أحفظ صدره. والبيت بتمامه في الخزانة ٤/ ١٧٤ وقوله: مشمولة، أي: مشؤومة، وأخلاق سوء، كما في الخزانة.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٠.

حينَ» التاء منقطعة من حين، ويقولون: معناها: وليست. وكذلك هو في المصاحف الجُدُدِ والعُتُقِ بقطع التاء من حين. وإلى هذا كان يذهب أبو عُبيدة مَعْمَر بن المُثنَّى[1].

وقال أبو عُبيد القاسم بن سلّام: الوقفُ عندي على هذا الحرف «ولا»، والابتداء «تَحِينَ مَنَاص» فتكون التاء مع حين. وقال بعضهم: «لات» ثم يبتدئ فيقول: «حين مناص». قال المهدوي: وذكر أبو عُبيد أن التاء في المصحف متصلة بحين، وهو غلطٌ عند النحويين، وهو خلافُ قول المفسرين. ومن حُجَّة أبي عُبيد أن قال: إنَّا لم نجد العربَ تزيد هذه التاء إلا في حين وأوان والآن؛ وأنشد لأبي وَجْزَةَ السعديّ:

العاطِفُون تَحِينَ مامِنْ عاطِفٍ ... والمُطْعِمون زَمانَ أَيْنَ المُطْعِمُ[2]

وأنشد لأبي زُبيد الطائي:

طلبوا صُلْحَنا ولا تَأَوانٍ ... فأجبنا أنْ ليس حين بقاءِ[3]

فأدخل التاء في أوان. قال أبو عُبيد: ومِن إدخالهم التاء في الآن حديثُ ابن عمر وسأله رجلٌ عن عثمان بن عفان ﷺ، فذكر مَناقِبَه ثم قال: اذهبْ بها تَلَانَ معك[4].

وكذلك قول الشاعر:

نَوِّلِي قَبلَ نأيِ دَارِي جُمَانا ... وصِلِينا كما زَعَمْتِ تَلانا[5]

قال أبو عُبيد: ثم مع هذا كلِّه إني تعمَّدت النظر في الذي يقال له: الإمام ـ مصحف عثمان ـ فوجدتُ التاءَ مُتَّصلة مع حين قد كُتبت: تحين.

---

(١) في مجاز القرآن ٢/ ١٧٦ .

(٢) سلف ١/ ٤٧٨ .

(٣) سلف قريباً. وينظر الكلام السالف في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥١ - ٤٥٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩٢، والدر المصون ٩/ ٣٤٧ - ٣٤٩ .

(٤) أخرجه أحمد (٥٧٧٢)، والبخاري (٣٦٩٨) بلفظ: اذهب بها الآن معك. وأورده بلفظ المصنف ابن الأثير في النهاية (تلن).

(٥) نسب في اللسان (تلن) لجميل بن معمر، ونسب في الخزانة ٤/ ١٧٩ لابن الأحمر.

قال أبو جعفر النحاس[(١)]: أما البيت الأول الذي أنشده لأبي وَجْزة فرواه العلماء باللغة على أربعة أوجه، كلُّها على خِلاف ما أنشده؛ وفي أحدها تقديران؛ رواه أبو العباس محمد بن يزيد:

العاطفونَ ولاتَ ما مِن عاطِف

والرواية الثانية:

العاطفونَ ولَاتَ حِينِ تَعاطفِ

والرواية الثالثة رواها ابن كَيْسان:

العاطفونَةَ حِينَ ما مِن عاطِف

جعلها هاءً في الوقف وتاءً في الإدراج، وزعم أنها لِبَيان الحركة شُبِّهت بهاء التأنيث.

الرواية الرابعة:

العاطفونهُ حِين ما مِن عاطِفِ

وفي هذه الرواية تقديران؛ أحدهما ـ وهو مذهب إسماعيل بن إسحاق ـ أن الهاء في موضع نصب؛ كما تقول: الضاربون زيداً، فإذا كَنَيت قلت: الضاربوه. وأجاز سيبويه في الشعر: الضاربونهُ، فجاء إسماعيل بالبيت[(٢)] على مذهب سيبويه في إجازته مثلَه. والتقدير الآخر: العاطفونَهْ، على أن الهاء لِبَيان الحركة، كما تقول: مَرَّ بنا المُسلمونَهْ، في الوقف، ثم أُجريت في الوصل مُجراها في الوقف؛ كما قرأ أهلُ المدينة: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ . هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾[(٣)] [الحاقة: ٢٨-٢٩].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٣ .

(٢) في (م): بالتأنيث، والمثبت من (د) و(ز)، وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٣، والكلام منه، والعبارة ساقطة في (ظ) و(ف).

(٣) قرأ حمزة بحذف الهاءين في الوصل، والباقون بإثباتها في الحالين. التيسير ص٢١٤ .

وأما البيت الثاني فلا حُجَّة له فيه؛ لأنه يُوقف عليه: ولاتَ أوان، غيرَ أن فيه شيئاً مُشكلاً؛ لأنه يُروى: ولات أوانٍ؛ بالخفض، وإنما يقع ما بعد لات مرفوعاً أو منصوباً. وإنْ كان قد رُوي عن عيسى بن عمر أنه قرأ: «ولاتِ حينِ مناص» [بكسر التاء من لات والنون من حين، فإن الثبت عنه أنه قرأ: «ولاتِ حينَ مناص»][1] فبني «لاتِ» على الكسر، ونصبَ «حينَ».

فأما: ولاتَ أوانٍ، ففيه تقديران؛ قال الأخفش[2]: فيه مُضمر، أي: ولات حين أوان. قال النحاس[3]: وهذا القول بيِّنُ الخطأ. والتقدير الآخر عن أبي إسحاق[4] قال: تقديره: ولات أوانِنا فحذف المضاف إليه فوجب ألا يعرب، وكسره لالتقاء الساكنين[5]. وأنشده محمد بن يزيد: ولات أوانُ، بالرفع.

وأما البيت الثالث فبيتٌ مولّد لا يعرف قائله[6] ولا تَصِحُّ به حُجَّة. على أن محمد ابن يزيد رواه: كما زعمتِ الآن. وقال غيره: المعنى: كما زعمتِ أنتِ الآن. فأسقط الهمزةَ من أنت والنون.

وأما احتجاجُه بحديث ابن عمر، لما ذَكَر للرجل مناقبَ عثمان فقال له: اذهَبْ بها تَلَانَ إلى أصحابك، فلا حُجَّةَ فيه؛ لأن المُحدّث إنما يروي هذا على المعنى. والدليلُ على هذا أن مجاهداً يروي عن ابن عمر هذا الحديثَ وقال فيه: اذهب فاجهد

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٩، وما بين حاصرتين من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٣، والكلام منه.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٠ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٤، وما قبله منه.

(٤) هو الزجاج، وقوله في معاني القرآن ٤/ ٣٢٠ - ٣٢١ .

(٥) يعني: لما حذف المضاف إليه عوض من المضاف إليه تنويناً، والنون كانت في التقدير ساكنة كسكون ذال «إذ»، فلما لقيها التنوين ساكناً كسرت النون لالتقاء الساكنين، كما كسرت الذال من«إذ» لالتقاء الساكنين. سر صناعة الإعراب ٢/ ٥٠٩ .

(٦) نسبه في اللسان (تلن) لجميل بن معمر، وفي الخزانة ٤/ ١٧٩ لابن الأحمر، وقد ذكرناه عند تخريج البيت.

جهدك[١]. ورواه آخر: اذهب بها الآن معك[٢].

وأما احتجاجُه بأنه وجدَها في الإمام «تَحِينَ». فلا حُجَّةَ فيه؛ لأن معنى الإمام أنه إمامُ المصاحف، فإنْ كان مُخالفاً لها فليس بإمام لها، وفي المصاحف كلِّها «ولاتَ» فلو لم يكن في هذا إلا هذا الاحتجاج لكان مُقنعاً. وجمعُ مناصٍ مناوص.

قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ «أن» في موضع نصب، والمعنى: من أن جاءهم[٣]. قيل: هو مُتَّصل بقوله: ﴿فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أي: في عِزَّة وشِقاق وعَجِبوا، وقوله: «كم أَهْلَكْنا» مُعترِض. وقيل: لا، بل هذا ابتداءُ كلام، أي: ومِن جَهْلهم أنهم أظهروا التعجُّبَ مِن أنْ جاءهم منذرٌ منهم.

﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ﴾ أي: يجيء بالكلام المُموَّه الذي يخدعُ به الناس؛ وقيل: يُفرِّق بسحره بين الوالد وولده والرجلِ وزوجته ﴿كَذَّابٌ﴾ أي: في دعوى النبوّة.

قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ مفعولان، أي: صيَّر الآلهةَ إلهاً واحداً. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ أي: عجيب. وقرأ السُّلمي: «عُجَّابٌ» بالتشديد[٤]. والعُجَاب والعُجَّاب والعَجَب سواء. وقد فرّق الخليل بين عَجِيب وعُجَاب فقال: العَجِيب العَجَب، والعُجَاب الذي قد تجاوز حدَّ العَجَب، والطويل الذي فيه طول، والطُّوال، الذي قد تجاوز حدَّ الطُّول[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٤) من طريق سعد بن عبيدة، وابن حبان (٦٩٠٩) من طريق حبيب بن أبي مليكة كلاهما عن ابن عمر رضي الله عنهما. ولم نقف عليه من طريق مجاهد

(٢) أخرجه أحمد (٥٧٧٢)، والبخاري (٣٦٩٨).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٤.

(٤) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحتسب ٢/ ٢٣٠.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٧٨ بنحوه.

وقال الجوهري[١]: العَجِيب الأمرُ الذي يُتعجَّب منه، وكذلك العُجَاب بالضم، والعُجَّاب بالتشديد أكثرُ منه، وكذلك الأُعجوبة.

وقال مقاتل: «عُجَّابٌ» لغةُ أزد شنوءة[٢].

وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: مرض أبو طالب فجاءت قريش إليه، وجاء النبيُّ ﷺ، وعند رأس أبي طالب مجلسُ رجل، فقام أبو جهل كي يمنعَه، قال: وشكَوْه إلى أبي طالب، فقال: يا بنَ أخي ما تُريد من قومك؟ فقال: «يا عم، إنما أُريدُ منهم كلمةً تذلُّ لهم بها العربُ، وتُؤدِّي إليهم بها الجزيةَ العَجَمُ» فقال: وما هي؟ قال: «لا إله إلا الله» قال: فقالوا ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ قال: فنزل فيهم القرآن: ﴿صٓ . وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ . بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ حتى بلغ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ خرَّجه الترمذي أيضاً بمعناه. وقال: هذا حديثٌ حسن صحيح[٣].

وقيل: لما أسلمَ عمرُ بن الخطاب ﷺ شقَّ على قريش إسلامُه فاجتمعوا إلى أبي طالب وقالوا: اقضِ بيننا وبين ابنِ أخيك. فأرسل أبو طالب إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا ابنَ أخي، هؤلاء قومُك يسألونك ذا السَّواء[٤]، فلا تَمِلْ كلَّ الميل على قومك. قال: «وماذا يسألونني»؟ قالوا: ارفضنا وارفض ذِكْرَ آلهتنا وندعك وإلهكَ. فقال النبيُّ ﷺ: «أتُعطونني كلمةً واحدةً وتَمْلِكون بها العربَ، وتَدينُ لكم بها العَجَم» فقال أبو جهل: لله أبوك، لَنُعطِينَّكَها وعشرَ أمثالها. فقال النبيُّ ﷺ: «قولوا: لا إله إلا لله»؟ فنفروا من ذلك وقاموا، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ فكيف يَسَعُ الخَلْقَ كلَّهم إلهٌ واحد. فأنزل اللهُ فيهم هذه الآياتِ إلى قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الآية: ١٢][٥].

---

(١) في الصحاح (عجب).

(٢) ذكره الآلوسي في روح المعاني ٢٣/ ١٦٦ .

(٣) سنن الترمذي (٣٢٣٢)، وليس في مطبوعه قوله: صحيح. وأخرجه أحمد (٢٠٠٨)، والواحدي في أسباب النزول ص٣٨ . وفي إسناده يحيى بن عمارة، أو ابن عباد، أو عباد، مجهول، تفرَّد بالرواية عنه الأعمش فيما قاله الذهبي في الميزان ٤/ ٣٩٩ .

(٤) في (م): يسألونك السواء.

(٥) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٨٧، والبغوي في تفسيره ص٤/ ٤٨ .

قوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ «الملأ» الأشراف، والانطلاقُ الذَّهابُ بسرعة؛ أي: انطلق هؤلاء الكافرون من عند الرسول عليه الصلاة والسلام يقول بعضُهم لبعض: «أَن امْشُو» أي: امضُوا على ما كنتُم عليه، ولا تدخلوا في دينه ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾. وقيل: هو إشارة إلى مَشْيِهم إلى أبي طالب في مرضه كما سبق.

وفي رواية محمد بن إسحاق أنهم أبو جهل بن هشام، وشيبةُ وعُتبة ابنا[1] ربيعة ابن عبد شمس، وأميّة بن خلف، والعاص بن وائل، وأبو مُعيط؛ جاؤوا إلى أبي طالب فقالوا: أنت سيدُنا وأنصفُنا في أنفسنا، فاكْفِنا أَمْرَ ابنِ أخيك وسُفهاءَ معه، فقد تركوا آلهتَنا وطَعَنوا في ديننا؛ فأرسل أبو طالب إلى النبيِّ ﷺ فقال له: إنَّ قومَك يدعونك إلى السَّواء والنَّصَفَة. فقال النبيُّ ﷺ: «إنما أدعوهم إلى كلمةٍ واحدة» فقال أبو جهل: وعشراً. قال: «تقولون: لا إله إلا اللهُ» فقاموا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ الآيات[2].

«أَنِ امْشُوا»، «أن» في موضع نصب، والمعنى: بأن امشُوا. وقيل: «أن» بمعنى أي؛ أي: «وانْطَلَقَ المَلأُ منهم» أي: امشُوا؛ وهذا تفسيرُ انطلاقهم، لا أنهم تكلَّموا بهذا اللَّفظ.

وقيل: المعنى: انطلق الأشرافُ منهم فقالوا للعوامِّ: ﴿امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ أي: على عبادةِ آلهتكم «إنَّ هذا» أي: هذا الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام

---

(١) في (م): أبناء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٤ - ٤٥٥، وينظر السيرة النبوية ١/ ٢٦٤ - ٢٦٥، وقصة ذهاب كفار قريش إلى أبي طالب سلفت قريباً.

﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي: يُرادُ بأهلِ الأرض من زوالِ نعم قومٍ وغِيَر تنزِل بهم[١].

وقيل: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ كلمة تحذير؛ أي: إنما يُريد محمدٌ بما يقول الانقيادَ له لِيعلوَ علينا، ونكونَ له أتباعاً، فيتحكَّمَ فينا بما يُريد، فاحذروا أن تُطيعوه.

وقال مقاتل: إنَّ عمرَ لما أسلمَ وقَوِي به الإسلامُ شقَّ ذلك على قريش فقالوا: إنَّ إسلامَ عمر في قوّة الإسلام لَشيء يُراد[٢].

قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ قال ابن عباس والقُرظيّ وقتادة ومقاتل والكلبيّ والسُّديّ: يَعنون مِلَّةَ عيسى النصرانية، وهي آخرُ الملل. والنصارى يجعلون مع الله إلهاً. وقال مجاهد وقتادة أيضاً: يَعنون مِلّة قريش. وقال الحسن: ماسَمعنا أنَّ هذا يكون في آخر الزمان. وقيل: أي: ماسمعنا من أهل الكتاب أن محمداً رسولٌ حقٌّ[٣].

﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي: كذب وتخرُّص؛ عن ابن عباس وغيره[٤]. يقال: خَلَقَ واختلق، أي: ابتدع. وخلقَ اللهُ عزّ وجلّ الخَلْق من هذا؛ أي: ابتدعَهم على غيرِ مثال[٥].

قوله تعالى: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ هو استفهامُ إنكار، والذِّكر هاهنا القرآنُ؛ أنكروا اختصاصَه بالوَحْي من بينهم؛ فقال الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ أي: من وحيي، وهو القرآن. أي: قد عَلِموا أنك لم تَزَلْ صَدُوقاً فيما بينهم، وإنما شكُّوا فيما أنزلتُه عليك هل هو من عندي أمْ لا.

﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أي: إنما اغتَرُّوا بِطُول الإمهال، ولو ذاقوا عذابي على

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٥ . وقوله: غِيَر: في القاموس (غير): غِيَر الدهر: أحداثه المتغيرة.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٧٩ . وفيه:.. فقالوا: إن إسلام عمر فيه قوة للإسلام وشيء يُراد

(٣) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٧٩، وتفسير البغوي ٤/ ٤٩، وأقوال ابن عباس ﷺ والقرظي والسدي ومجاهد وقتادة أخرجها الطبري ٢٠/ ٢٢ - ٢٣ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٥ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٥ .

الشِّرك لَزال عنهم الشَّكُّ، ولمَا قالوا ذلك؛ ولكن لا ينفع الإيمانُ حينئذ[١]. و«لَمَّا» بمعنى لم، وما زائدةٌ، كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠] و﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ قيل: أمْ لهم هذا فيمنعوا محمداً عليه الصلاة والسلام مما أنعمَ اللهُ عز وجل به عليه من النبوة[٢]. و«أَمْ» قد تَرِدُ بمعنى التقريع إذا كان الكلام مُتَّصلاً بكلام قبلَه؛ كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [السجدة: ١-٣].

وقد قيل: إن قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ مُتَّصلٌ بقوله: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ فالمعنى: أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُرسل مَن يشاء؛ لأنَّ خزائنَ السماوات والأرض له[٣]، ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: فإنْ ادَّعَوْا ذلك ﴿فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أي: فَلْيصعدوا إلى السماوات، وليمنعوا الملائكةَ من إنزالِ الوحي على محمد. يقال: رَقِيَ يَرْقَى وارتقى، إذا صَعِدَ. ورَقَى يَرقي رَقْياً، مثل: رَمَى يرمي رَمْياً، من الرُّقْية[٤].

قال الربيع بن أنس: الأسبابُ أرقُّ من الشَّعر وأشدُّ من الحديد، ولكن لا تُرى. والسَّبب في اللغة: كل ما يُوصَل به إلى المَطلوب من حبلٍ أو غيره[٥].

وقيل: الأسباب: أبوابُ السماوات التي تنزلُ الملائكةُ منها؛ قاله مجاهد وقتادة. قال زهير:

ولَو رَامَ أسبابَ السماءِ بِسُلَّمِ[٦]

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٦ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٥ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٨١ بنحوه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٥ .

(٥) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٨ ، وفيه : أدقّ، بدل: أرق.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٨٢ - ٨٣، والبيت سلف ٣/ ٩ ، وقول مجاهد وقتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٧ .

وقيل: الأسبابُ السماواتُ نفسُها؛ أي: فيصعدوا سماءً سماءً. وقال السُّدي: «في الأسبابِ» في الفَضْل والدين. وقيل: أي: فَلْيعلوا في أسبابِ القوَّة إنْ ظنُّوا أنها مانعة. وهو معنى قول أبي عُبيدة[(١)]. وقيل: الأسبابُ الحبال؛ يعني: إنْ وجدوا حبلاً أو سبباً يصعدون فيه إلى السماء فَلْيرتقوا؛ وهذا أمرُ توبيخ وتعجيز[(٢)].

ثم وعدَ نبيَّه ﷺ النصرَ عليهم فقال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ «ما» صِلةٌ، وتقديره: هم جند، ف «جُنْدٌ» خبرُ ابتداء محذوف. ﴿مَهۡزُومٞ﴾ أي: مقموعٌ ذليلٌ قد انقطعتْ حُجَّتهم لأنهم لا يَصلون إلى أن يقولوا: هذا لنا. ويقال: تهزَّمت القِربة، إذا انكسرت، وهزمتُ الجيش: كسرته[(٣)]. والكلام مرتبطٌ بما قبل، أي: ﴿بَلِ الذين كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ وهم جندٌ من الأحزاب مهزومون، فلا تَغُمُّك عِزَّتُهم وشِقاقهم، فإني أهزمُ جمعَهم وأَسلُبُ عِزَّهم. وهذا تأنيسٌ للنبي ﷺ، وقد فُعِل بهم هذا في يوم بدر.

قال قتادة: وعدَ اللهُ أنه سَيهزمهم وهم بمكة، فجاء تأويلُها يومَ بَدْر[(٤)].

و«هنالك» إشارةٌ لِبدر، وهو موضعُ تحزُّبهم لِقتال محمد ﷺ. وقيل: المرادُ بالأحزاب الذين أَتَوا المدينةَ وتحزَّبوا على النبيِّ ﷺ. وقد مضَى ذلك في «الأحزاب»[(٥)]. والأحزابُ الجندُ، كما يقال: جندٌ من قبائلَ شتَّى. وقيل: أراد بالأحزاب القُرونَ الماضية من الكُفَّار[(٦)]. أي: هؤلاء جندٌ على طريقةِ أولئك؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ [البقرة:٢٤٩] أي: على ديني ومذهبي.وقال الفراء[(٧)]: المعنى: هم جندٌ مغلوب؛ أي: ممنوعٌ عن أن يَصعَدَ إلى السماء. وقال القتبي: يعني: أنهم جندٌ لهذه الآلهة مهزومٌ، فهم لايقدرون على أن

(١) النكت والعيون ٥/ ٧٩.

(٢) تأويل مشكل القرآن ص٢٧٢ بنحوه.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٨٣.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٩.

(٥) ١٧/ ٧٠ وما بعدها.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٩، وزاد المسير ٧/ ١٠٤ - ١٠٥.

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٦.

يدَّعوا الشيء من آلهتم، ولا لأنفسهم شيئاً من خزائن رحمة الله، ولا مِن ملك السماوات والأرض[١].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ذكرها تعزيةً للنبي ﷺ وتسليةً له[٢]؛ أي: هؤلاء من قومك يا محمد جندٌ من الأحزاب المتقدِّمين الذين تحزَّبوا على أنبيائهم، وقد كانوا أقوى من هؤلاء فأُهلكوا.

وذكر الله تعالى القوم بلفظ التأنيث، واختلف أهلُ العربية في ذلك على قولين: أحدهما: أنه قد يجوز فيه التذكيرُ والتأنيث. الثاني: أنه مذكَّر اللفظ، لا يجوز تأنيثه، إلا أن يقع المعنى على العشيرة والقبيلة، فيغلبُ في اللفظ حكمُ المعنى المُضمَر تنبيهاً عليه؛ كقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ ولم يقل: ذكَرها؛ لأنه لما كان المُضمَرُ فيه مذكَّراً ذكَّره، وإنْ كان اللفظُ مُقتضياً للتأنيث[٣].

ووصف فرعون بأنه ذو الأوتاد. وقد اختُلف في تأويل ذلك؛ فقال ابن عباس: المعنى: ذو البِناء المُحكَم. وقال الضحاك: كان كثيرَ البُنيان، والبُنيان يُسمَّى أوتاداً. وعن ابن عباس أيضاً وقتادة وعطاء: أنه كانت له أوتادٌ وأرسان وملاعبُ يُلْعَب له عليها. وعن الضحاك أيضاً: ذو القوَّة والبَطْش. وقال الكلبي ومقاتل: كان يُعذِّب الناس بالأوتاد، وكان إذا غَضِبَ على أحدٍ مدَّه مُستلقياً بين أربعة أوتاد في الأرض، ويُرسل عليه العقاربَ والحيَّاتِ حتى يموت. وقيل: كان يشبح المُعذَّب بين أربع

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٢٧٣، والعبارة فيه: .. لأنهم لا يقدرون أن يدَّعوا لآلهتهم شيئاً من هذا، ولا لأنفسهم.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٨٠ .

سَوارٍ، كلُّ طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وَتِد من حديد ويتركُه حتى يموت. وقيل: ذو الأوتاد، أي: ذو الجنود الكثيرة، فَسُمِّيت الجنودُ أوتاداً؛ لأنهم يُقوُّون أمرَه كما يُقوِّي الوَتِدُ البيت[1].

وقال ابن قتيبة: العربُ تقول: هم في عزٍّ ثابت الأوتاد، يُريدون: دائماً شديداً. وأصلُ هذا أن البيتَ من بيوت الشَّعر إنما يَثْبُتُ ويقوم بالأوتاد. قال الأسود بن يَعْفُر:

ولقد غَنَوْا فيها بأنعَمِ عِيْشةٍ في ظلِّ مُلْكٍ ثابت الأوتادِ[2]

وواحدُ الأوتاد وَتِد، بالكسر، وبالفتح لغة. وقال الأصمعي: يقال: وَتِدٌ واتدٌ، كما يقال: شُغلٌ شاغل. وأنشد:

لاقَتْ على الماءِ جُذَيْلاً وَاتِدا ولم يكن يُخْلِفُها المَوَاعِدا[3]

قال: شبَّه الرجلَ بالجِذْل.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ أي: الغيضة[4]. وقد مضى ذِكْرُها في «الشعراء»[5].

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر: «لَيْكَةَ» بفتح اللام والتاء من غير همز. وهمز الباقون وكسروا التاء[6]. وقد تقدَّم هذا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي: هم الموصوفون بالقوّة والكَثْرة، كقولك: فلانٌ هو الرجل.

﴿إِن كُلٌّ﴾ بمعنى: ما كلٌّ ﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: فنزلَ بهم العذابُ لذلك التكذيب.

---

(١) هذه الأقوال في تفسير البغوي ٤/ ٤٩ - ٥٠، وزاد المسير ٧/ ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) غريب القرآن ص٣٧٧. والبيت في المفضليات ص٢١٧

(٣) نسبه في اللسان (وتد) لأبي محمد الفقعسي، والكلام من الصحاح (وتد).

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣١ عن السدي.

(٥) ١٣/ ١٣٤.

(٦) السبعة ص٤٧٣، والتيسير ص١٦٦.

وأثبتَ يعقوبُ الياء في «عَذَابِي» و«عِقابِي» في الحالين، وحذفَها الباقون في الحالين[(١)]. ونظيرُ هذه الآيةِ قولُه عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ . مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ [غافر: ٣٠-٣١] فسمَّى هذه الأُمَمَ أحزاباً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾ «يَنْظُرُ» بمعنى ينتظر؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾[(٢)] [الحديد: ١٣]. «هؤلاء» يعني كُفَّار مكة. «إلَّا صَيْحَةً واحدةً» أي: نفخة القيامة. أي: ما ينتظرون بعد ما أُصيبوا ببدر إلا صيحةَ القيامة. وقيل: ما ينتظرُ أحياؤهم الآن إلا الصيحةَ التي هي النَّفخة في الصُّور، كما قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ . فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةً﴾[(٣)] [يس: ٤٩-٥٠]، وهذا إخبارٌ عن قُرب القِيامة والموت. وقيل: أي: ما ينتظر كُفَّارُ آخر هذه الأمة المُتديِّنين بدين أولئك إلا صيحةً واحدة، وهي النَّفخة. وقال عبد الله بن عمرو: لم تكن صيحةٌ في السماء إلا بغضبٍ من الله عزَّ وجلَّ على أهل الأرض[(٤)].

﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي: من ترداد؛ عن ابن عباس. مجاهد: ما لها رجوع. قتادة: مالها من مثنوية. السدِّي: مالها من إفاقة[(٥)].

وقرأ حمزة والكسائي: «ما لها مِنْ فُواقٍ» بضم الفاء. الباقون بالفتح[(٦)]. الجوهري[(٧)]: والفَواق والفُواق ما بين الحَلْبتين من الوقت؛ لأنها تُحلَب، ثم تُترَك

(١) النشر ٢/ ١٨٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٧.

(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ١٨٢ بنحوه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٧. وفي مطبوعه: عبد الله بن عمر.

(٥) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٠/ ٣٤ - ٣٥، وقوله: ما لها من مثنوية، ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٥٠ عن الضحاك، ثم قال: أي: صَرْفٌ وردٌّ.

(٦) السبعة ص٥٥٢، والتيسير ص١٨٧.

(٧) الصحاح (فوق).

سُويعة يرضَعها الفَصيل لِتَدِرَّ، ثم تُحلَب. يقال: ما أقام عنده إلا فُوَاقاً؛ وفي الحديث: «العِيادةُ قَدْر فُواق الناقة»[١]. وقوله تعالى: «مالها مِنْ فَوَاق» يقرأ بالفتح والضم، أي: مالها من نظرة وراحة وإفاقة. والفِيقة، بالكسر: اسمُ اللبن الذي يجتمع بين الحَلْبتين؛ صارت الواو ياءً لِكسر ما قَبْلَها؛ قال الأعشى يَصِفُ بقرةً:

حتى إذا فِيقَةٌ في ضَرعِها اجتمعتْ جاءتْ لِتُرضِع شِقَّ النَّفْسِ لو رَضَعا[٢]

والجمع فِيق، ثم أفواق، مثل: شِبر وأشبار، ثم أفاويق. قال ابن هَمَّام السَّلُوليّ:

وذَمُّوا لنا الدنيا وهم يَرْضَعُونها أَفَاوِيقَ حتى ما يَدُرُّ لها ثُعْلُ[٣]

والأفاويق أيضاً ما اجتمع في السحاب من ماء، فهو يمطر ساعةً بعد ساعة. وأفاقت الناقةُ إفاقةً، أي: اجتمعت الفِيقة في ضرعها؛ فهي مُفِيقٌ ومُفِيقَةٌ ـ عن أبي عمرو ـ والجمع مفاويق.

وقال الفرّاء وأبو عُبيدة وغيرهما: «مِنْ فَوَاقٍ» بفتح الفاء، أي: راحة لا يُفيقون فيها، كما يُفيق المريضُ والمَغْشيّ عليه. و«مِنْ فُواقٍ» بضم الفاء من انتظار[٤]. وقد تقدَّم أنهما بمعنىً، وهو ما بين الحَلْبتين.

قلت: والمعنى المُراد أنها مُمتدَّة لا تقطيع فيها. وروى أبو هريرة قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ ونحن في طائفة من أصحابه، الحديثَ، وفيه «يأمر اللهُ عزَّ وجلَّ إسرافيلَ بالنَّفخة الأُولى، فيقول: انفُخْ نَفْخةَ الفَزَع، فيفزَعُ أهلُ السماوات وأهلُ الأرض إلا مَن شاء الله، ويأمره فيمدُّها ويُديمها يُطوِّلها يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾» وذكر الحديثَ، خَرَّجه علي بن مَعْبد وغيرُه

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩٢٢٢)، في إسناده مندل بن علي أبو عبد الله العنزي الكوفي، ضعَّفه أحمد كما في تهذيب التهذيب ٤/ ١٥٢، وأورد الحديث السيوطي في الجامع الصغير ٤/ ٣٩٦ (فيض القدير) ورمز لصحته.

(٢) ديوان الأعشى ص١٥٥ .

(٣) الكامل للمبرد ١/ ٧٧، وسمط اللالئ ٣/ ٩٢٣ . والثُّعل: خِلْفٌ زائد صغير في أخلاف الناقة، وضرع الشاة، لا يدرّ. اللسان (ثعل).

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٠٠ ـ وليس فيه هذا التفريق ـ ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٧٩ .

كما ذكرناه في كتاب «التذكرة»[١].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ قال مجاهد: عذابَنا. وكذا قال قتادة: نصيبنا من العذاب. الحسن: نصيبنا من الجنة لِنتنعَّم به في الدنيا. وقاله سعيد بن جُبير[٢]. ومعروف في اللغة أن يقال للنصيب: قِطّ، وللكتاب المكتوب بالجائزة قطّ[٣]. قال الفراء[٤]: القِطُّ في كلام العرب: الحظُّ والنصيب. ومنه قيل للصكّ: قِطّ. وقال أبو عُبيدة والكسائي: القِطُّ الكتاب بالجوائز[٥]. والجمع القطوط؛ قال الأعشى:

ولا المَلِكُ النُّعمانُ يومَ لَقِيتُهُ ... بِغِبْطتهِ يُعطي القُطوطَ وَيَأْفِقُ[٦]

يعني كتب الجوائز. ويروى: بإمَّتِهِ، بدل: بغبطته، أي: بنعمته وحاله الجليلة، ويأفِق يصلحُ. ويقال: في جمع قِطّ أيضاً: قِطَطة، وفي القليل: أَقطّ وأقطاط. ذكره النحاس[٧].

وقال السدي: سألوا أن يُمَثِّلَ لهم منازلَهم من الجنةِ ليعلموا حقيقةَ ما يُوعَدون به. وقال إسماعيل بن أبي خالد: المعنى: عجِّل لنا أرزاقَنا[٨]. وقيل: معناه: عجِّل لنا ما يَكفينا؛ من قولهم: قَطْني؛ أي: يَكفيني. وقيل: إنهم قالوا ذلك استعجالاً

---

(١) ص١٧٣، والحديث أخرجه مطولاً إسحاق بن راهويه في مسنده (١٠)، والطبري ٢٠/ ٣٣، وهو حديث ضعيف، وسلف قسم منه ١٦/ ٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٠/ ٣٧ - ٣٨ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٧ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٠ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٥١، وقول أبي عُبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٧٩ .

(٦) ديون الأعشى ص٢٦٩ . وفيه، بإمَّته، بدل: بنعمته. وذكره برواية المصنف ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٩٦ .

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٧ . وما قبله منه.

(٨) أخرجهما الطبري ٢٠/ ٣٨ - ٣٩ .

لِكُتبهم التي يُعطَوْنها بأيمانهم وشَمائلهم حين تُلي عليهم بذلك القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة: ١٩]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠]، وأصلُ القِطّ القَطُّ، وهو القَطْع، ومنه: قَطَّ القلمَ؛ فالقِطُّ اسمٌ للقطعة من الشيء، كالقَسْمِ والقِسْم، فأُطلق على النصيب والكتاب والرِّزق لِقَطْعه عن غيره، إلا أنه في الكتاب أكثرُ استعمالاً وأقوى حقيقةً. قال أميةُ بن أبي الصَّلْت:

قَومٌ لهم ساحةُ العِراقِ وما يُجْبَى إليه والقِطُّ والقَلَمُ[١]

﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: قبلَ يومِ القيامة في الدنيا إنْ كان الأمرُ كما يقول محمد. وكلُّ هذا استهزاءٌ منهم.

قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أمرَ نبيَّه ﷺ بالصبر لما استهزؤوا به. وهذه منسوخةٌ بآية السيف[٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ لمَّا ذكر من أخبار الكفار وشِقاقهم وتقريعهم بإهلاك القُرون مِن قبلهم، أمَر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بالصبر على أذاهم، وسلَّاه بكلِّ ما تقدَّم ذِكْره. ثم أخذ في ذكر داودَ وقصص الأنبياء؛ لِيتسلَّى بصبر مَن صَبَر منهم؛ وليعلمَ أن له في الآخرة أضعافَ ما أُعْطِيَهُ داودُ وغيره من الأنبياء.

وقيل: المعنى: اصبِرْ على قولهم، واذكُر لهم أقاصيصَ الأنبياء؛ لتكون برهاناً على صحة نبوَّتك.

«ذا الأيْدِ» ذا القوَّة في العبادة. وكان يصومُ يوماً ويُفطر يوماً، وذلك أشدُّ الصوم

---

(١) ديوان أمية بن أبي الصَّلت ص١٢٨، وروايته فيه:

قوم لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعاً والقط والقلم

وذكره كرواية المصنف الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٨٣.

(٢) ذكره مكي في الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص٣٩١، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ١١٠.

وأفضلُه؛ وكان يُصلِّي نصفَ الليل، وكان لا يفرُّ إذا لاقى العدوّ[١]، وكان قويّاً في الدعاء إلى الله تعالى. وقوله: «عَبْدَنا» إظهاراً لِشَرَفِهِ بهذه الإضافة. ويقال: الأَيْد والآدُ، كما تقول: العيب والعاب[٢]. قال:

لـم يَـكُ يَـنْـآد فـأمْـسَـى انـآدا[٣]

ومنه: رجلٌ أَيِّدٌ، أي: قويّ. وتأيَّدَ الشيء تقوَّى، قال الشاعر:

إذَا الـقـوسُ وَتَّـرهَـا أَيِّـدٌ رَمَـى فَـأصـابَ الـكُـلـى وَالـذُّرا[٤]

يقول: إذا الله وَتَّر القوس التي في السحاب رَمَى كُلى الإبل وأَسْنِمَتَها بالشحم. يعني من النبات الذي يكون من المطر.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ قال الضحاك: أي: توَّاب. وعن غيره: أنه كلَّما ذكَر ذَنْبه أو خطَر على باله استغفر منه؛ كما قال النبي ﷺ: «إني لأستغفرُ اللهَ في اليومِ والليلة مئة مرة»[٥]. ويقال: آبَ يؤوب، إذا رَجَع، كما قال:

وكـلُّ ذي غَـيْـبَـةٍ يـؤوبُ وغـائـبُ الـمـوت لا يـؤوبُ[٦]

فكان داودُ رجَّاعاً إلى طاعة الله ورِضاه في كلِّ أمرٍ، فهو أهلٌ لأن يُقتدَى به.

---

(١) أخرج البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال له: «.. أحبُّ الصيام إلى الله صيامُ داود، وكان ينامُ نصفَ الليل، ويقوم ثُلثَه، وينام سُدسَه، ويصوم يوماً ويُفطر يوماً»، وفي رواية عند البخاري (٣٤١٩)، ومسلم (١١٥٩) (١٨٧): «.. ولا يَفِرُّ إذا لاقى». وهو في مسند أحمد (٦٤٧٧).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٨.

(٣) الرجز للعجاج كما في إصلاح المنطق ص١٠٧، وقبله: مِن أن تبدَّلتُ بآدي آدا. ولم نقف عليه في ديوانه.

(٤) في (م): الذُّوا، والبيت في مجالس ثعلب ص٤٤٧ والصحاح (أيد) والكلام منه.

(٥) أخرجه أحمد (١٧٨٤٨)، ومسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغرّ المزني ﷺ، وأوله: «إنه لَيُغَانُ على قلبي..» وسلف ٢/ ١١٧.

(٦) قائله عَبيد بن الأبرص، وهو في ديوانه ص٢٦. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٨.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾ «يُسَبِّحْنَ» في موضع نصب على الحال[١]. ذكر تعالى ما آتاه من البرهان والمُعجزة، وهو تسبيحُ الجبال معه.قال مقاتل: كان داودُ إذا ذكَر الله جلَّ وعزَّ ذكَرت الجبالُ معه، وكان يفقهُ تسبيحَ الجبال. وقال ابن عباس: «يُسَبِّحْنَ» يُصلِّين. وإنما يكون هذا معجزةً إذا رآه الناس وعَرَفوه. وقال محمد بن إسحاق: أُوتي داودُ من حُسن الصوت ما يكون له في الجبال دَويٌّ حَسَن، وما تصغَى لحسنه [الطير] وتُصوِّت معه، فهذا تسبيحُ الجبال والطير.

وقيل: سخَّرها اللهُ عز وجل لِتَسيرَ معه، فذلك تسبيحُها، لأنها دالَّةٌ على تنزيهِ الله عن شبه المخلوقين[٢]. وقد مضَى القولُ في هذا في «سبأ»[٣] وفي «سبحان» عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الآية: ٤٤] وأنَّ ذلك تسبيحُ مَقَال على الصحيح من الأقوال. والله أعلم.

﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ الإشراقُ أيضاً ابيضاضُ الشمس بعد طُلوعها. يقال: شَرَقَت الشمسُ، إذا طَلَعت، وأَشرقَتْ، إذا أضاءت[٤]. فكان داودُ يُسبِّح إثرَ صلاتهِ عند طُلوع الشمس وعند غُروبها.

الثانية: روي عن ابن عباس أنه قال: كنت أمرُّ بهذه الآية ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ ولا أَدري ماهي، حتى حدَّثتني أُمُّ هانئ أن رسولَ الله ﷺ دخلَ عليها، فدعا بِوَضوء فتوضأ،ثم صلَّى صلاةَ الضُّحى، وقال: «يا أُمَّ هانئ، هذه صلاةُ الإشراق»[٥]. وقال

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٨ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) ١٧/ ٢٦٠ وما بعدها.

(٤) الصحاح (شرق) .

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٤/ ٤٠٦، والبغوي في تفسيره ٤/ ٥١ . وفي إسناده حجَّاج بن نُصير وأبو بكر الهذلي وكلاهما ضعيف. ميزان الاعتدال ١/ ٤٦٥ و ٤/ ٤٩٧، ومجمع الزوائد ٢/ ٢٣٨ و٧/ ٩٩ .

عكرمة: قال ابن عباس: كان في نفسي شيء من صلاة الضُّحى حتى وجدتُها في القرآن ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾[(١)]. قال عكرمة: وكان ابن عباس لا يُصلِّي صلاةَ الضُّحى، ثم صلَّاها بعد[(٢)].

وروي أن كعب الأحبار قال لابن عباس: إني أَجِدُ في كُتُبِ اللهِ صلاةً بعدَ طُلوع الشمس هي صلاة الأوَّابين. فقال ابن عباس: وأنا أوجدك في القرآن ذلك في قصة داود ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾.

الثالثة: صلاةُ الضحى نافلةٌ مستحبة، وهي في الغَداة بإزاء العصر في العَشيّ، لا ينبغي أن تُصلَّى حتى تبيضَّ الشمسُ طالعةً؛ ويرتفع كَدَرُها؛ وتُشرق بنورها؛ كما لا تُصلَّى العصر إذا اصفرَّتِ الشمس[(٣)]. وفي «صحيح» مسلم عن زيد بن أرْقَم، أن رسولَ الله ﷺ قال: «صلاةُ الأوَّابين حين تَرْمَضُ الفِصالُ»[(٤)].

الفِصال والفُصلان جمع فَصيل، وهو الذي يُفطَم من الرضاعة من الإبل. والرَّمضاء شِدَّةُ الحر في الأرض. وخصَّ الفِصال هنا بالذِّكر؛ لأنها هي التي تَرْمَض قبلَ انتهاء شدَّة الحرّ التي تَرْمَض به[(٥)] أمهاتُها لِقلَّة جَلَدها، وذلك يكون في الضُّحى أو بعده بقليل، وهو الوقتُ المتوسط بين طلوع الشمس وزوالها[(٦)].

قال[(٧)] القاضي أبو بكر بن العربي[(٨)]: ومن الناس من يُبادر بها قبلَ ذلك

---

(١) أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٩٨ .

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٩٨ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٣ .

(٤) صحيح مسلم (٧٤٨)، وهو في مسند أحمد (١٩٢٧٠)، وفي هامش (ز) حاشية نصها: تَرْمَض بفتح التاء والميم، يقال: رَمِض يرمَض، كعلم يعلم، والرمضاء: الرَّمْل الذي اشتدت حرارته بالشمس، أي: حين تحترق أخفاف الفصال، وهي الصغار من أولاد الإبل، جمع فَصيل، من شدة حرّ الرمل، والأواب، المطيع، وقيل: الراجع إلى الطاعة. قاله النووي. اهـ [في شرح مسلم ٦/ ٣٠]

(٥) في (م): بها.

(٦) المفهم ٢/ ٣٥٩ .

(٧) في (م) و(د) و(ظ): قاله.

(٨) في أحكام القرآن ٤/ ١٦١٣ .

استعجالاً، لأجل شُغله فيخسر عملَه؛ لأنه يُصلِّيها في الوقت المَنْهي عنه، ويأتي بعملٍ هو عليه لا له.

الرابعة: روى الترمذي من حديث أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ صلَّى الضُّحى ثنتي عشرةَ ركعةً بنى اللهُ له قصراً مِن ذَهَبٍ في الجنة» قال: حديث غريب[١].

وفي «صحيح» مسلم: عن أبي ذرٍّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يُصبح على كلِّ سُلَامَى من أحدِكم صدقةٌ، فكلُّ تسبيحةٍ صدقةٌ، وكلُّ تهليلةٍ صدقةٌ، وكلُّ تكبيرةٍ صَدَقةٌ، وأمرٌ بالمعروف صدقةٌ، ونهيٌ عن المنكر صدقةٌ، ويُجزئ من ذلك ركعتان يَركَعهما من الضُّحى»[٢].

وفي الترمذي: عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ حافَظَ على شَفْعةِ الضُّحى غُفر له ذنوبُه وإنْ كانت مثلَ زَبَد البحر»[٣].

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: «أوصاني خليلي بثلاث لا أدعُهُنَّ حتى أموتَ: صومِ ثلاثةِ أيام من كلِّ شهر، وصلاةِ الضُّحى، ونومٍ على وتر» لفظ البخاري[٤]. وقال مسلم: «وركعتي الضحى»[٥]. وخرَّجه من حديث أبي الدرداء كما خرَّجه البخاري من حديث أبي هريرة[٦].

وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ أقلَّ الضحى ركعتان وأكثرَه ثنتا عشرة. والله أعلم.

وأصل السُّلامى - بضم السين - عظامُ الأصابع والأَكُفّ والأرجل، ثم استُعمل في سائر عظام الجسد وَمفَاصله[٧].

---

(١) سنن الترمذي، وفي إسناده موسى بن فلان بن أنس بن مالك، ويقال: موسى بن حمزة. قال الحافظ ابن حجر في التقريب: مجهول.

(٢) صحيح مسلم (٧٢٠)، وأخرجه أحمد (٢١٤٧٥).

(٣) سنن الترمذي (٤٧٦)، وفي إسناده نهَّاس بن قَهْم، ضعفه الحافظ ابن حجر في التقريب.

(٤) رقم (١١٧٨).

(٥) رقم (٧٢١)، وهو في مسند أحمد (٧٦٧١).

(٦) صحيح مسلم (٧٢٢)، وهو في مسند أحمد (٢٧٤٨١).

(٧) المفهم ٢/ ٣٦٠ .

وروي من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنه خُلِقَ كلُّ إنسان من بني آدمَ على ستين وثلاث مئة مَفْصِل، فمن كبَّر اللهَ، وحَمِدَ اللهَ، وهلَّل اللهَ، وسبَّح الله، واستغفرَ اللهَ، وعَزَلَ حجراً عن طريق الناس أو شوكةً أو عظماً عن طريق الناس، وأَمَرَ بمعروف، أو نَهَى عن مُنكر عَدَدَ تلك الستين والثلاث مئة سُلامَى فإنه يمشي يومئذ وقد زَحْزحَ نفسَه عن النار» قال أبو تَوْبة: وربما قال: «يُمْسي» كذا خرجه مسلم[(١)].

وقوله: «ويُجزئ من ذلك ركعتان» أي: يكفي من هذه الصَّدَقات عن هذه الأعضاء ركعتان. وذلك أن الصلاةَ عملٌ بجميع أعضاء الجسد؛ فإذا صلَّى فقد قام كلُّ عضو بوظيفته التي عليه في الأصل. والله أعلم[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ معطوف على الجبال. قال الفراء[(٣)]: ولو قرئ: «والطَّيْرُ محشورةٌ» لجاز[(٤)]؛ لأنه لم يظهر الفعل.

قال ابن عباس: كان داودُ عليه السلام إذا سبَّح جاوبَتْه الجبال واجتمعت إليه الطيرُ فسبَّحتْ معه. فاجتماعها إليه حَشْرُها[(٥)]. فالمعنى: وسخَّرنا الطيرَ مجموعة إليه لِتُسبِّح الله معه. وقيل: أي: وسخَّرنا الريح لِتَحْشُرَ الطيورَ إليه لِتسبِّح معه، أو أَمرنا الملائكةَ تحشر الطيور.

---

(١) في صحيحه (١٠٠٧).

(٢) المفهم ٢/ ٣٦١.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٤٠١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٩، وما قبله منه.

(٤) قرأ بها إبراهيم بن أبي عبلة كما في القراءات الشاذة ص١٢٩.

(٥) ذكره الفراء في معاني القرآن ٢/ ٤٠١، والطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٥، ولم ينسباه لأحد.

﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ﴾ أي: لداود ﴿أَوَّابٌ﴾ أي: مطيع؛ أي: تأتيه وتُسبِّحُ معه. وقيل: الهاء لله عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي: قوَّيناه حتى ثَبَتَ. قيل: بالهيبة وإلقاء الرُّعب منه في القُلوب. وقيل: بِكَثْرة الجنود. وقيل: بالتأييد والنَّصر. وهذا اختيارُ ابن العربي[١]، فلا ينفع الجيشَ الكثيرَ التفافُه على غيرِ منصور وغير مُعانٍ.

وقال ابن عباس ﷺ: كان داودُ أشدَّ مُلوك الأرض سلطاناً. كان يحرسُ محرابَه كلَّ ليلة نَيِّفٌ وثلاثون ألف رجل، فإذا أصبح قيل: ارجعوا فقد رضي عنكم نبيُّ الله[٢].

والمُلْك عبارة عن كَثْرة المِلْك، فقد يكون للرجلِ مِلك ولكن لا يكون مَلِكاً حتى يكثرَ ذلك؛ فلو مَلَكَ الرجلُ داراً وامرأة لم يكن مَلِكاً حتى يكون له خادمٌ يَكفيه مؤنةَ التصرف في المنافع التي يفتقر إليها لضرورة[٣] الآدمية[٤]. وقد مضى هذا المعنى في «براءة»[٥] وحقيقةُ الملك في «النمل» مستوفًى.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوَّة؛ قاله السدي. مجاهد: العَدْل. أبو العالية: العلم بكتاب الله تعالى. قتادة: السنة. شُريح: العلم والفقه.

﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي وقتادة: يعني: الفَصْلَ في القضاء. وهو قول ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل. وقال ابن عباس: بيانُ الكلام. عليّ ابن أبي طالب: هو البيِّنة على المدَّعي واليمينُ على مَن أنكر. وقاله شُرَيح والشعبي

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦١٤، وما بعده منه.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٥١ مختصراً.

(٣) في (د) و(م): لضرورته، وفي (ز): لضروريّة، والمثبت من (ظ).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٤.

(٥) ١٠/ ٢٥٠.

وقتادة أيضاً. وقال أبو موسى الأشعري والشعبي أيضاً: هو قوله: أما بعد، وهو أول مَن تكلَّم بها[١].

وقيل: «فَصْل الخِطاب» البيان الفاصلُ بين الحقّ والباطل. وقيل: هو الإيجازُ بجعل المعنى الكثير في اللَّفظِ القليل[٢]. والمعنى في هذه الأقوال متقاربٌ. وقولُ عليّ ﷺ يجمعه؛ لأن مدارَ الحُكم عليه في القضاء ما عدا قول أبي موسى.

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربى[٣]: فأما علمُ القضاء فَلَعَمْرُ إلهِك إنه لَنوعٌ من العلم مجرد، وفصلٌ منه مؤكَّد، غير معرفة الأحكام والبصر بالحلال والحرام؛ ففي الحديث: «أقضاكم عليٌّ، وأعلمُكم بالحلال والحرام معاذُ بن جبل»[٤]. وقد يكون الرجلُ بصيراً بأحكام الأفعال، عارفاً بالحلال والحرام، ولا يقوم بفصل القضاء.

يُروَى أن عليَّ بن أبي طالب ﷺ قال: لما بعثني رسولُ الله ﷺ إلى اليمن حَفَرَ قومٌ زُبْيَةً للأسد، فوقع فيها الأسدُ وازدحم الناسُ على الزُّبية فوقع فيها رجلٌ وتعلَّق بآخر، وتعلَّق الآخَرُ بآخر، حتى صاروا أربعةً، فجرحهم الأسدُ فيها فَهَلكوا، وحمل القومُ السلاحَ وكاد يكون بينهم قتال؛ قال: فأتيتُهم فقلت: أتقتلون مئتي رجل من أجل أربعة أناس؟! تعالوا أَقْضِ بينَكم بقضاء؛ فإنْ رَضِيتموه فهو قضاء بينكم، وإنْ أَبيتُم رفعتُم ذلك إلى رسول الله ﷺ فهو أحقُّ بالقضاء. فجعل للأوّل رُبُعَ الدِّيَة، وجعل للثاني ثُلثَ الدِّيَة، وجعل للثالث نصفَ الدِّيَة، وجعل للرابع الدِّيَة، وجعل الدِّيَاتِ على من حَفَر الزُّبْيَةَ على قبائل الأربعة؛ فَسَخِطَ بعضُهم ورضي بعضهم، ثم قدموا

---

(١) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٨ - ٥١، والنكت والعيون ٥/ ٨٤، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٥.

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٥ - ١٦١٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٥٤) من حديث أنس ﷺ مطولاً، ولفظه: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر،.. وأقضاهم عليّ.. وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل..» الحديث. وأخرجه أحمد (١٢٩٠٤)، والترمذي (٣٧٩١) دون ذكر علي ﷺ.

على رسول الله ﷺ فقصُّوا عليه القصة؛ فقال: «أنا أقضي بينكم» فقال قائل: إن علياً قد قضي بيننا. فأخبروه بما قضي عليّ، فقال رسولُ الله ﷺ: «القضاءُ كما قَضَى عليٌّ» في رواية: فأمضى رسولُ الله ﷺ قضاءَ عليّ[١].

وكذلك يُروَى في المعرفة بالقضاء أن أبا حنيفة جاء إليه رجلٌ فقال: إن ابن أبي ليلى ـ وكان قاضياً بالكوفة ـ جلد امرأةً مجنونة قالت لرجل: يا ابن الزانيين حدَّين في المسجد وهي قائمة. فقال: أخطأ من ستة أوجه.

قال ابن العربي[٢]: وهذا الذي قاله أبو حنيفة بالبديهة لا يُدركه أحدٌ بالروية إلا العلماء، فأما قضيةُ عليٍّ فلا يُدركها الشادي، ولا يلحقها بعد التمرُّن في الأحكام إلا العاكف المُتمادي. وتحقيقُها أن هؤلاء الأربعة مقتولون[٣] خطأً بالتدافع على الحُفرة من الحاضرين عليها، فلهم الدّيَات على مَن حَفَر[٤] على وجه الخطأ، بَيْد أن الأوّل مقتولٌ بالمُدافَعة قاتلُ ثلاثةٍ بالمُجاذَبة، فله الدِّيةُ بما قُتِل، وعليه ثلاثةُ أرباع الدية بالثلاثة الذين قتلهم. وأما الثاني فله ثلثُ الدِّيَة وعليه الثُّلثان بالاثنين اللذين قَتَلَهما بالمُجاذبة. وأما الثالث فله نصفُ الدِّية وعليه النصف؛ لأنه قتل واحداً بالمُجاذبة، فوقعت المحاصَّة، وغَرِمت العواقلُ هذا التقدير بعد القصاص[٥] الجاري فيه. وهذا من بديع الاستنباط.

وأما أبو حنيفة فإنه نَظَر إلى المعاني المتعلقة فرآها ستة: الأوّل: أن المجنون

---

(١) أخرجه أحمد (١٣١٠)، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١١١. وفي إسناده حنش بن المعتمر الكناني، قال البخاري: يتكلمون في حديثه، وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال ابن حبان: لا يُحتج به، يتفرد عن علي بأشياء. ميزان الاعتدال ١/ ٦١٩.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦١٥ - ١٦١٦، وما قبله منه.

(٣) في النسخ الخطية: المقتولون، وفي (م): المقتولين، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٤) في النسخ: حضر، والمثبت من أحكام القرآن.

(٥) في النسخ الخطية ونسخة من أحكام القرآن لابن العربي: القضاء، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

لا حدَّ عليه؛ لأن الجُنون يُسقِطُ التكليف. وهذا إذا كان القذفُ في حالة الجنون، وأما إذا كان يجنُّ مرةً ويُفيق أُخرى فإنه يُحَدُّ بالقذف في حالة إفاقته.

والثاني: قولها: يا ابن الزانيين، فجلدها حدَّين لكل أبٍ حدٌّ، فإنما خطَّأه أبو حنيفة [فيه بناءً][(١)] على مذهبه في أن حدَّ القذف يتداخل، لأنه عنده حقُّ اللهِ[(٢)] تعالى كحدِّ الخمر والزنى. وأما الشافعي ومالك فإنهما يَرَيان أن الحدَّ بالقذف حقٌّ للآدمي، فيتعدَّد بتعدُّد المقذوف.

الثالث: أنه جَلَد بغير مطالبة المقذوف، ولا تجوز إقامةُ حدّ القذف بإجماعٍ من الأمة إلا بعد المُطالبة بإقامته ممن يقول: إنه حق الله تعالى، ومن يقول: إنه حقُّ الآدمي. وبهذا المعنى وقع الاحتجاج لمن يرى أنه حقٌّ للآدميّ؛ إذْ لو كان حقاً لله لمَا توقّف على المطالبة كحدِّ الزِّنى.

الرابع: أنه والَى بين الحَدَّين، ومَن وجب عليه حدَّان لم يُوالَ بينهما، بل يُحَدُّ لأحدِهما ثم يُترَكُ حتى يندمِلَ الضرب، ثم يقام عليه الحدُّ الآخر.

الخامس: أنه حدَّها قائمةً، ولا تُحَدُّ المرأةُ إلا جالسةً مستورة؛ قال بعض الناس: في زنبيل.

السادس: أنه أقام الحدَّ في المسجد، ولا تُقام الحدود فيه إجماعاً. وفي القضاء[(٣)] في المسجد والتعزيز فيه خلافٌ.

قال القاضي: فهذا هو فصلُ الخِطاب وعلم القضاء الذي وقعت الإشارةُ إليه على أحد التأويلات في الحديث المرويّ «أقضاكم عليّ»[(٤)]. وأما مَن قال: إنه الإيجاز فذلك للعرب دون العَجَم، ولمحمد ﷺ دون العرب؛ وقد بيَّن هذا بقوله: «وأُوتيتُ

---

(١) ما بين حاصرتين من أحكام القرآن لابن العربي.
(٢) في أحكام لقرآن لابن العربي: حقٌّ لله.
(٣) في أحكام القرآن لابن العربي: القصاص.
(٤) سلف أول المسألة.

جوامعَ الكَلِم»[١].

وأما من قال: إنه قوله: أمَّا بعد؛ فكان النبيُّ ﷺ يقول في خُطبته: «أما بعد»[٢].

ويُروى أن أوّل من قالها في الجاهلية سحبان بن وائل، وهو أوّلُ من آمنَ بالبعث، وأوّل من توكَّأ على عصا، وعُمِّر مئة وثمانين سنة. ولو صحَّ أن داود عليه السلام قالها، لم يكن ذلك منه بالعربية على هذا النَّظم، وإنما كان بلسانه. والله أعلم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُواْ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾

فيه أربع وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ «الخَصْمُ» يقع على الواحد والاثنين والجماعة[٤]؛ لأن أصلَه المصدر. قال الشاعر:

وَخَصْمٍ غضابٍ يَنْفُضُونَ لِحَاهُمُ   كنفضِ البَرَاذينِ العِرابِ المَخَالِيا[٥]

---

(١) سلف ١٢/ ٢٩٥.

(٢) ثمة عدة أحاديث في أن النبي ﷺ كان يقول في خطبته: «أما بعد» منها حديث الكسوف، هو عند البخاري (٩٢٢)، ومسلم (٩٠٥). وقد ترجم له البخاري: باب من قال في الخطبة بعد الثناء: أما بعد. وترجم في موضع آخر من صحيحه (١٠٦١): باب: قول الإمام في خطبة الكسوف: أما بعد.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٧.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٩٤.

(٥) قائله الراعي النميري، وهو في ديوانه ص٢٩١.

النحاس[١]: ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يُراد به هاهنا مَلَكان.

وقيل: «تَسَوَّرُوا» وإن كانا[٢] اثنين حملاً على الخَصْم، إذ كان بلفظ الجمع ومضارعاً له، مثل الرَّكْب والصَّحْب. تقديره للاثنين: ذوا خَصْم، وللجماعة: ذوو خَصْم.

ومعنى: «تَسَوَّرُوا المِحرابَ» أَتَوْه مِن أعلى سُوره. يقال: تسوَّر الحائطَ: تسلَّقه، والسُّور: حائطُ المدينة، وهو بغير همز، وكذلك السُّوَرُ جمع سورةٍ، مثل: بُسْرَة وبُسَر، وهي كلُّ منزلة من البناء. ومنه سورةُ القرآن؛ لأنها منزلةٌ بعد منزلةٍ مقطوعة عن الأخرى[٣]. وقد مضى في مقدّمة الكتاب بيانُ هذا[٤]. وقول النابغة:

ألم تَرَ أنَّ اللَّه أعْطاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دونها يتذبذب[٥]

يريد شرفاً ومنزلة. فأما السؤر بالهمز، فهو بقيةُ الطعام في الإناء. ابن العربي[٦]: والسُّؤر: الوليمة بالفارسي. وفي الحديث: أن النبيَّ ﷺ قال يومَ الأحزاب: «إنَّ جابراً قد صنع لكم سؤراً فحيَّ هلا بكم»[٧].

والمحراب هنا الغُرفة؛ لأنهم تسوَّروا عليه فيها؛ قاله يحيى بن سلام. وقال أبو عُبيدة[٨]: إنه صَدْر المَجْلس، ومنه محرابُ المسجد. وقد مضى القولُ فيه في غير موضع[٩].

---

(١) في معاني القرآن ٦/ ٩٤.

(٢) في (ظ): كانوا، وفي (م): كان.

(٣) الصحاح (سور).

(٤) ١/ ١٠٦.

(٥) ديوان النابغة ص١٨، وسلف ١/ ١٠٦.

(٦) في أحكام القرآن ٤/ ١٩١٨، وما قبله منه.

(٧) أخرجه البخاري (٤١٠٢)، ومسلم (٢٠٣٩) مطولاً من حديث جابر ﷺ، وأخرجه أحمد بنحوه مطولاً (١٥٠٢٨).

(٨) في مجاز القرآن ٢/ ١٨٠ بنحوه، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٨٥، وما قبله منه، وقول يحيى بن سلام فيه: إنه المسجد.

(٩) ٥/ ١٠٧ و١٣/ ٢٢٨.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ جاءت «إِذْ» مرتين؛ لأنهما فِعْلان. وزَعم الفرّاء[١] أن إحداهما بمعنى لمَّا. وقول آخر أن تكون الثانيةُ مع ما بعدها تبييناً لما قبلَها.

قيل: إنهما كانا إنسيين؛ قاله النقَّاش. وقيل: مَلَكَين؛ قاله جماعة. وعيَّنهما جماعة، فقالوا: إنهما جبريلُ وميكائيل[٢]. وقيل: مَلَكين في صورةِ إنسيَّين بعثهما اللهُ إليه في يوم عبادته. فمنعهما الحرسُ الدخول، فتسوَّروا المحراب عليه، فما شعر وهو في الصلاة إلا وهما بين يدَيْه جالسين؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي: عَلَوْا ونزلُوا عليه من فوق المحراب؛ قاله سفيان الثوري وغيره[٣].

وسببُ ذلك ما حكاه ابن عباس أن داود عليه السلام حدَّث نفسَه إن ابتُلي أن يعتصم. فقيل له: إنك ستُبتلى وتَعْلَمُ اليومَ الذي تُبتلَى فيه فَخُذْ حِذرك. فأخذ الزبور ودخل المحرابَ، ومنع من الدخول عليه، فبينا هو يقرأ الزبورَ إذ جاء طائرٌ كأحسن ما يكون من الطير، فجعل يَدرُج بين يديه. فهمَّ أن يتناولَه بيده، فاستدرج حتى وقعَ في كَوَّة المحراب، فدنا منه لِيأخُذَه فطار، فاطلع لِيُبصِرَه فأشرفَ على امرأة تغتسل، فلما رأته غطَّت جسدَها بشعرها. قال السدّي: فوقعت في قلبه.

قال ابن عباس: وكان زوجها غازياً في سبيل الله وهو أوريا بن حنان، فكتب داودُ إلى أمير الغُزاة أن يجعل زوجَها في حَمَلَةِ التابوت، وكان حَمَلَةُ التابوت إما أن يَفتح اللهُ عليهم أو يُقتلوا، فقدَّمه فيهم فقتل، فلما انقضت عِدَّتها خطبها داود، واشترطت عليه إن ولدتْ غلاماً أن يكون الخليفةَ بعده، وكتبت عليه بذلك كتاباً، وأشهدتْ عليه خمسين رجلاً من بني إسرائيل، فلم تستقرَّ نفسُه حتى ولدتْ سليمانَ وشَبَّ، وتسوَّر الملكان وكان من شأنهما ما قصَّ اللهُ في كتابه. ذكره الماوردي وغيره.

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٤٠١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٩، وما قبله منه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٩.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٥٣، وزاد المسير ٧/ ١١٥.

ولا يصح[١].

قال ابن العربي[٢]: وهو أمثلُ ما رُوي في ذلك.

قلت: ورواه مرفوعاً بمعناه الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول» عن يزيدَ الرَّقاشيِّ، سمع أنس بن مالك يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ داودَ النبيَّ عليه السلام حين نظرَ إلى المرأة فهمَّ بها قطع على بني إسرائيل بَعْثاً، وأوصى صاحبَ البَعْث فقال: إذا حضر العدوُّ قَرِّب فلاناً، وسمَّاه، قال: فقرَّبه بين يدي التابوت. قال: وكان ذلك التابوتُ في ذلك الزمان يُستنصَر به، فمن قُدِّم بين يدي التابوت لم يرجعْ حتى يُقتلَ أو ينهزمَ عنه الجيش الذي يُقاتله، فقُدِّم، فَقُتِل زوجُ المرأة، ونزل المَلَكان على داود، فقصَّا عليه القصّة»[٣].

وقال سعيد عن قتادة: كتبَ إلى زوجها وذلك في حصار عَمَّان مدينة بلقاء أن يأخذوا بحلقة الباب، وفيه الموت الأحمر، فتقدَّم فقتل.

وقال الثعلبي[٤]: قال قومٌ من العلماء: إنما امتحنَ اللهُ داودَ بالخطيئة؛ لأنه تمنَّى يوماً على ربِّه منزلةَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وسأله أن يمتحنه نحوَ ما امتحنهم، ويُعطيه نحو ما أعطاهم. وكان داودُ قد قسمَ الدهرَ ثلاثةَ أيام، يومٌ يقضي فيه بين الناس، ويومٌ يخلو فيه بعبادة ربّه، ويومٌ يخلو فيه بنسائه وأشغاله.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٨٥ – ٨٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢ ، وزاد المسير ٧/ ١١٥ . وينظر قول الحافظ ابن كثير الذي سنذكره في التعليق بعد التالي.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٢ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٧٤ ، وابن أبي حاتم والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، فيما ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٠٠ وضعَّف إسناده. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ٦٠: قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرَّقَاشي عن أنس، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة. اهـ .

(٤) في عرائس المجالس ص٢٨١ – ٢٨٣ ، والكلام إلى نهاية المسألة فيه، وفي تفسير البغوي ٤/ ٥٢ – ٥٣ بنحوه.

وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فَضْلَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب. فقال: يا رب، إنَّ الخيرَ كلَّه قد ذهب به آبائي؛ فأوحى الله تعالى إليه: إنهم ابتُلوا ببلايا لم يُبتَلَ بها غيرُهم فصبروا عليها؛ ابتُلي إبراهيمُ بنمروذ، وبالنار، وبذبح ابنه، وابتُلِيَ إسحاقُ بالذبح، وابتُلي يعقوبُ بالحزن على يوسف وذهاب بصره، ولم تُبتَلَ أنت بشيء من ذلك. فقال داود عليه السلام: فابتلني بمثل ما ابتليتهم، وأَعطني مثلَ ما أَعطيتَهم، فأوحى الله تعالى إليه: إنك مُبتلىً في شهر كذا في يوم الجمعة. فلما كان ذلك اليوم دخلَ محرابَه، وأغلق بابَه، وجعل يُصلِّي ويقرأ الزبور. فبينا هو كذلك إذ مثلَ له الشيطانُ في صورة حمامة من ذهب، فيها من كلّ لون حَسَن، فوقف بين رجليه، فمدَّ يدَه لِيأخُذَها فيدفعها لابنٍ له صغير، فطارتْ غيرَ بعيد، ولم تُؤيسه من نفسها، فامتدَّ إليها لِيأخُذَها فتنحَّت، فتبعها فطارتْ حتى وقعتْ في كَوَّة، فذهب لِيأخُذَها فطارت، ونظرُ داودَ يرتفع في إثرها ليبعثَ إليها من يأخذُها، فنظر امرأةً في بستان على شَطِّ بركة تغتسل؛ قاله الكلبي.

وقال السُّدي[1]: تغتسل عُريانة على سطحٍ لها؛ فرأى أجملَ النساء خَلْقاً، فأبصرت ظِلَّه فنفضتْ شعرَها فغطَّى بَدَنَها، فزاده إعجاباً بها. وكان زوجُها أوريا بن حنان في غزوة مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود، فكتب داودُ إلى أيوبَ أن ابعثْ بأوريا إلى مكان كذا وكذا، وقَدِّمه قبلَ التابوت، وكان مَن قُدِّم قبل التابوت لا يَحِلُّ له أن يرجعَ وراءه حتى يفتحَ اللهُ عليه أو يستشهد. فقدَّمه ففتح له، فكتب إلى داود يُخبره بذلك.

قال الكلبي: وكان أوريا سيفَ الله في أرضه في زمان داود، وكان إذا ضربَ ضربةً وكبَّر كبَّر جبريلُ عن يمينه وميكائيلُ عن شماله، وكبَّرت ملائكةُ السماء بتكبيره حتى ينتهي ذلك إلى العرش، فتُكبِّر ملائكةُ العرش بتكبيره. قال: وكان سيوفُ الله ثلاثة؛ كالب بن يوفنا في زمن موسى، وأوريا في زمن داود، وحمزة بن عبد المطَّلب

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٦٦.

في زمن رسول الله ﷺ[١].

فلما كتب أيوبُ إلى داود يُخبره أن الله قد فتح على أوريا كتبَ داودُ إليه: أن ابعثه في بَعْثِ كذا وقدِّمه قبل التابوت؛ ففتح الله عليه، فقُتل في الثالثة شهيداً. فتزوَّج داودُ تلك المرأةَ حين انقضت عِدَّتها. فهي أُمُّ سليمان بن داود.

وقيل: سببُ امتحان داود عليه السلام أن نَفْسَه حدَّثته أنه يُطيق قطعَ يومٍ بغير مُقارفة شيء.

قال الحسن: إن داود جزَّأ الدهر أربعةَ أجزاء؛ جُزءاً لنسائه، وجُزءاً للعبادة، وجُزءاً لبني إسرائيل يُذاكرونه ويُذاكرهم ويبكونه ويبكيهم، ويوماً للقضاء. فتذاكروا هل يمرُّ على الإنسان يومٌ لا يُصيب فيه ذنباً؟ فأضمر داودُ أنه يُطيق ذلك؛ فأغلق البابَ على نفسه يومَ عبادته، وأمر ألا يدخل عليه أحد، وأكبَّ على قراءة الزبور، فوقعت حمامةٌ من ذهب بين يديه. وذكر نحو ما تقدَّم.

قال علماؤنا: وفي هذا دليل، وهي:

الثانية: على أنه ليس على الحاكم أن ينتصب للناس كلَّ يوم، وأنه ليس للإنسان أن يترك وطءَ نسائه وإن كان مشغولاً بالعبادة. وقد مضَى هذا المعنى في «النساء». وحَكَم كعبٌ بذلك في زمن عمرَ بمحضره رضي الله عنهما[٢]. وقد قال عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو[٣]: «إنّ لِزوجِكَ عليك حقّاً» الحديث.

وقال الحسن أيضاً ومجاهد: إن داودَ عليه السلام قال لبني إسرائيلَ حين استُخلِفَ: والله لأَعْدِلَنَّ بينكم، ولم يَسْتَثْنِ فابتُلي بهذا.

وقال أبو بكر الورَّاق: كان داودُ كثيرَ العبادة فأُعجب بعمله، وقال: هل في

---

(١) الذي في الصحيح أن خالد بن الوليد ﷺ هو من سمَّاه رسول الله ﷺ سيفاً من سيوف الله. أخرجه البخاري (٣٧٥٧) من حديث أنس ﷺ، وأحمد (٤٣) من حديث أبي بكر ﷺ.

(٢) سلف ٦/ ٣٦ - ٣٧.

(٣) في (م) عمر، والحديث أرجه أحمد (٦٨٦٧)، والبخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩).

الأرض أحدٌ يعمل كعملي. فأتاه جبريل[١]؛ فقال: إنَّ الله تعالى يقول لك: أُعجِبْتَ بعبادتك، والعُجب يأكلُ العبادة كما تأكل النارُ الحَطَبَ، فإنْ أُعجبتَ ثانية وَكَلْتُكَ إلى نفسك. قال: يا رب، كِلْني إلى نفسي سنةً. قال: إنَّ ذلك لَكثير. قال: فشهراً. قال: إنَّ ذلك لكثير. قال: فيوماً. قال: إنَّ ذلك لَكثير. قال: يا ربِّ، فَكِلْني إلى نفسي ساعةً. قال: فشأنك بها. فوكل الأحراسَ، ولَبِسَ الصُّوفَ، ودخل المحرابَ، ووضع الزَّبور بين يديه؛ فبينما هو في عبادته إذ وقع الطائرُ بين يديه، فكان من أمرِ المرأة ما كان.

وقال سفيان الثوري: قال داود ذاتَ يوم: يا ربِّ، ما مِنْ يوم إلا ومِن آل داود لك فيه صائم، وما مِنْ ليلةٍ إلا ومِن آل داود لك فيها قائم. فأوحى الله إليه: يا داودُ، منك ذلك أو مني؟ وعِزَّتي لأَكِلَنَّك إلى نفسك. قال: يا رب، اعفُ عنِّي. قال: أَكِلُكَ إلى نفسك سنةً. قال: لا بِعزَّتك. قال: فشهراً. قال: لا بِعزَّتك. قال: فأُسبوعاً. قال: لا بِعزَّتك. قال: فيوماً. قال: لا بعزَّتك. قال: فساعة قال: لا بعزَّتك. قال: فلحظةً. فقال له الشيطان: وما قدرُ لحظة. قال: كِلْني إلى نفسي لحظةً. فَوَكَلَهُ اللهُ إلى نفسه لحظةً. وقيل له: هي في يوم كذا في وقت كذا. فلما جاء ذلك اليومُ جعله للعبادة، ووكل الأحراسَ حول مكانه. قيل: أربعة آلاف. وقيل: ثلاثين ألفاً، أو ثلاثة وثلاثين ألفاً. وخلا بعبادة ربِّه، ونشر الزبور بين يديه، فجاءت الحمامةُ فوقعت له، فكان من أمره في لحظته مع المرأة ما كان. وأرسلَ اللهُ عزّ وجلّ إليه المَلَكين بعد ولادة سليمان، وضَرَبا له المثل بالنِّعاج؛ فلما سمع المَثَلَ ذكَر خطيئته فخرَّ ساجداً أربعين ليلةً على ما يأتي.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لأنهما أتياه ليلاً في غير وقت دخول الخصوم. وقيل: لِدخولهم عليه بغير إذنه. وقيل: لأنهم تسوَّروا عليه المحراب ولم يأتوه من الباب[٢].

---

(١) في النسخ: فأوحى الله إليه جبريل، والمثبت من عرائس المجالس ص٢٨٣ ، والكلام منه.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٤ ، وزاد المسير ٧/ ١١٨ بنحوه.

قال ابن العربي[١]: وكان محرابُ داودَ عليه السلام من الامتناع بالارتفاع، بحيث لا يَرتقي إليه آدميٌّ بحيلة إلا أن يُقيم إليه أياماً أو أشهراً بحسب طاقته، مع أعوانٍ يَكثُر عَدَدُهم، وآلاتٍ جمَّة مختلفة الأنواع. ولو قلنا: إنه يوصَل إليه من باب المحراب لما قال الله تعالى مُخبراً عن ذلك: ﴿تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ إذ لا يقال: تسوَّر المحرابَ والغُرفةَ لمن طلع إليها مِن دَرَجِها، وجاءها مِن أسفلها إلا أن يكون ذلك مَجازاً؛ وإذا شاهدت الكَوَّة التي يقال: إنه دخل منها الخَصْمان علمت قطعاً أنهما مَلَكان؛ لأنها من العُلُوِّ بحيث لا يَنالها إلا عُلْويّ.

قال الثعلبي: وقد قيل: كان المُتسوِّران أخوين من بني إسرائيل لأب وأم. فلما قضى داوُد بينهما بقضية قال له مَلَك من الملائكة: فهلا قضيتَ بذلك على نفسكَ يا داود. قال الثعلبي: والأول أحسنُ؛ أنهما كانا مَلَكين نَبَّها داودَ على ما فَعَل.

قلت: وعلى هذا أكثرُ أهل التأويل. فإن قيل: كيف يجوز أن يقول الملكان: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وذلك كَذِبٌ، والملائكة عن مثله مُنزَّهون. فالجواب عنه أنه لابد في الكلام من تقدير؛ فكأنهما قالا: قَدِّرنا كأننا خَصْمان بَغَى بعضُنا على بعض فاحكُمْ بيننا بالحق، وعلى ذلك يُحمل قولُهما: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ لأن ذلك وإن كان بصورة الخبر فالمرادُ إيرادُه على طريق التقديرِ لينبّه داود على ما فعل؛ والله أعلم[٢].

الرابعة: إن قيل: لِم فَزِعَ داودُ وهو نبيٌّ، وقد قَوِيتْ نفسُه بالنبوّة، واطمأنَّت بالوحي، ووَثِقَتْ بما آتاه الله من المنزلة، وأظهر على يديه من الآيات، وكان من الشجاعة في غاية المكانة؟! قيل له: ذلك سبيل الأنبياء قبلَه، لم يأمنوا القتل والأذِية، ومنهما كان يخاف. ألا ترى إلى موسى وهارون عليهما السلام كيف قالا: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥] فقال الله عز وجل: ﴿لَا تَخَافَآ﴾. وقالت الرُّسل

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦١٩ .

(٢) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٦٠ .

للوط: ﴿لَا تَخَفْ﴾ [هود: ٧٠] ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١] وكذا قال الملكان هنا: «لَا تَخَفْ»[1].

قال محمد بن إسحاق: بعث اللهُ إليه مَلَكين يختصمان إليه وهو في محرابه مثلاً ضربه اللهُ له ولأوريا، فرآهما واقفين على رأسه؛ فقال: ما أدخلكما عليّ؟ قالا: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فجئناك لِتقضيَ بيننا.

الخامسة: قال ابن العربي[2]: فإنْ قيل: كيف لم يأمُرْ بإخراجهما إذ قد علم مَطْلبهما، وهلَّا[3] أدَّبهما وقد دخلا عليه بغير إذن؟ فالجواب عليه من أربعة أوجه:

الأوّل: أنّا لم نعلمْ كيفيةَ شَرْعه في الحجاب والإذن، فيكون الجوابُ بحسب تلك الأحكام، وقد كان ذلك في ابتداء شَرْعنا مُهملاً في هذه الأحكام، حتى أوضحها اللهُ تعالى بالبَيان.

الثاني: أنّا لو نزَّلنا الجواب على أحكام الحجاب، لاحتملَ أن يكون الفزعُ الطارئ عليه أذهله عما كان يجبُ في ذلك له.

الثالث: أنه أراد أن يَستوفيَ كلامهما الذي دخلا له حتى يعلَمَ آخرَ الأمر منه، ويرى هل يَحتمِلُ التقحُّم فيه بغير إذن أَمْ لا؟ وهل يقترِن بذلك عذرٌ لهما أن لا يكون لهما عذرٌ فيه؟ فكان من آخرِ الحال ما انكشف أنه بلاءٌ ومحنة، وَمَثَلٌ[4] ضربه اللهُ في القصة، وأدبٌ وقع على دعوى العِصمة.

الرابع: أنه يحتملُ أن يكون في مسجد ولا إذنَ في المسجد لأحد إذ لا حَجْرَ فيه على أحد.

قلت: وقولٌ خامس ذكره القشيري؛ وهو أنهما قالا: لمَّا لم يَأذنْ لنا المُوكَّلون بالحجاب، توصَّلنا إلى الدخول بالتَّسُّور، وخفنا أن يتفاقمَ الأمرُ بيننا. فَقَبِلَ داودُ

---

(١) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٩ بنحوه.

(٢) أحكام القرآن ٤/ ١٦١٩ - ١٦٢٠ .

(٣) في النسخ الخطية: ولا، والمثبت من (م).

(٤) في النسخ الخطية: مثلاً، والمثبت من (م).

عُذْرَهم، وأَصغى إلى قولهم.

السادسة: قوله تعالى: «خَصْمانِ» إن قيل: كيف قال: «خَصْمانِ» وقبلَ هذا: «إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْراب» فقيل: لأن الاثنين جمع؛ قال الخليل: كما تقول: نحن فعلنا إذا كنتما اثنين. وقال الكسائي: جمع لما كان خبراً، فلما انقضى الخبرُ وجاءت المُخاطبة، خبَّر الاثنان عن أنفسهما فقالا: خَصْمان.

وقال الزجاج[١]: المعنى: نحن خَصْمان. وقال غيره: القولُ محذوف؛ أي: يقول خَصْمانِ بَغَى بعضُنا على بعض. قال الكسائي: ولو كان بغى بعضُهما على بعض لجاز.

الماوردي[٢]: وكانا مَلَكين، ولم يكونا خَصْمين ولا باغيين، ولا يتأتَّى منهما كَذِب؛ وتقديرُ كلامهما ما تقول: إنْ أتاك خَصْمان قالا: بغى بعضُنا على بعض.

وقيل: أي: نحن فريقان من الخصوم بغَى بعضنا على بعض.

وعلى هذا يحتمل أن تكون الخُصومةُ بين اثنين ومع كلٍّ واحد جمع. ويحتملُ أن يكون لكلٍّ واحد من هذا الفريق خُصومةٌ مع واحد[٣] من الفريق الآخر، فحضروا الخُصوماتِ، ولكن ابتدأ منهم اثنان، فعرفَ داودُ بذِكْر النكاح القصة. وأغنى ذلك عن التعرُّض للخُصومات الأُخَر.

والبَغْي التعدِّي والخُروج عن الواجب. يقال: بغى الجُرْح إذا أفرطَ وَجَعُه وترامَى إلى ما يَفحُشُ، ومنه: بَغَتِ المرأةُ إذا أَتَتِ الفاحشةَ.

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: لا تَجُرْ؛ قاله السُّدِّي[٤]. وحكى أبو عبيد: شَطَطت عليه، وأشططتُ، أي: جُرت. وفي حديث تميم الداريّ:

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٣٢٦، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٩ - ٤٦٠، وما قبله وما بعده منه.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٨٦.

(٣) في (م): كل واحد.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٨٦.

إنكَ لشَاطّي. أي: جائر عليَّ في الحُكم[١].

وقال قتادة: لا تَمِلْ. الأخفش: لا تُسرِف[٢]. وقيل: لا تُفرط. والمعنى متقارب.

والأصلُ فيه البُعد، من شَطَّتِ الدارُ، أي: بَعُدَتْ؛ شَطَّتِ الدار تَشِطُّ وتَشُطُّ شطّاً وشطوطاً: بَعُدَتْ. وأشطَّ في القضية، أي: جار، وأَشطَّ في السَّوْم واشتط، أي: أبعد، وأشطُّوا في طلبي، أي: أمعنوا. قال أبو عمرو: الشَّطَطُ مجاوزةُ القَدْر في كلِّ شيء. وفي الحديث: لها مهرُ مِثْلِها لا وَكْسَ ولا شَطَط[٣]. أي: لا نُقصان ولا زيادة[٤]. وفي التنزيل: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤] أي: جوراً من القول وبُعداً عن الحق.

﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي: أَرشدنا إلى قَصْدِ السبيل.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ أي: قال المَلَك الذي تكلَّم عن أوريا «إِنَّ هذا أَخي» أي: على ديني، وأشار إلى المُدَّعى عليه. وقيل: أخي، أي: صاحبي[٥] «له تِسْعٌ وتِسعون نَعْجةً».

وقرأ الحسن: «تَسْعٌ وَتَسْعُونَ نَعْجَةً» بفتح التاء فيهما، وهي لغةٌ شاذة، وهي الصحيحة من قراءة الحسن؛ قاله النحاس[٦]. والعرب تَكْني عن المرأة بالنعجة والشاة؛ لِمَا هي عليه من السكون والمَعْجَزة وضَعْف الجانب. وقد يُكْنَى عنها بالبقرة

---

(١) الصحاح (شطط)، وقول أبي عبيد في غريب الحديث ٤/ ٣٠٨، وقول تميم الداري ﷺ ذكره أبو عبيد، وابن الأثير في النهاية (شطط). وقصته: أن رجلاً كلَّمه في كثرة العبادة، فقال: أرأيت إن كنتُ مؤمناً ضعيفاً وأنت مؤمن قويّ، إنك لشاطِّي حتى أحمل قوتك على ضعفي، فلا أستطيع فأنبتّ.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٨٦.

(٣) هذا قول ابن مسعود ﷺ في رجل تزوج امرأة لم يفرض لها ولم يدخل بها حتى مات. وسلف ٤/ ١٥٩.

(٤) الصحاح (شطط).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٨٧.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٤٦٠، وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص ١٣٠، والمحتسب ٢/ ٢٣١.

والحِجر[١] والناقة؛ لأنَّ الكلَّ مَرْكوب. قال ابن عون:

أنـا أبـوهـنَّ ثـلاثٌ هُـنَّـهْ رابـعـةٌ فـي الـبـيـت صُـغْـرا هُـنَّـهْ
ونـعـجـتـي خـمـسـاً تُـوفِّـيـهـنَّـهْ أَلَا فـتـىً سـمـحٌ يُـغـذِّيـهـنَّـهْ
طَـيّ الـنَّـقَـا فـي الـجـوع يَـطْـوِيـهـنَّـهْ ويـلُ الـرَّغـيـفِ ويـلَـهُ مِـنْـهُـنَّـهْ[٢]

وقال عنترة:

يـا شـاةَ مـا قَـنَـصٍ لِـمـن حَـلَّـتْ لـه حَـرُمـتْ عـلـيَّ وَلـيـتَـهـا لـم تَـحْـرُمِ
فَـبَـعَـثْـتُ جـاريـتـي فـقـلـتُ لـهـا اذْهَـبي فـتَـجَـسَّـسِـي أخـبـارَهـا لـي واعْـلَـمـي
قـالـت رأيْـتُ مِـن الأعـادي غِـرَّةً والـشّـاةُ مُـمْـكِـنَـةٌ لـمـن هـو مُـرْتَـمِ
فـكـأنَّـمـا الـتَـفَـتَـتْ بِـجـيـدِ جَـدايـةٍ رَشَـأٍ مِـنَ الـغِـزْلانِ حُـرٍّ أَرْثَـمِ[٣]

وقال آخر:

فـرَمَـيْـتُ غَـفْـلَـةَ عَـيْـنِـهِ عـن شَـاتـهِ فـأَصَـبْـتُ حَـبَّـةَ قَـلْـبِـهـا وطِـحَـالَـهـا[٤]

وهذا من أحسنِ التعريض حيث كَنَى بالنِّعاج عن النساء. قال الحسين بن الفَضْل: هذا من المَلَكين تعريضٌ وتنبيهٌ كقولهم: ضربَ زيدٌ عَمراً، وما كان ضربٌ ولا نعاج على التحقيق، كأنه قال: نحن خَصْمان هذه حالُنا[٥]. قال أبو جعفر النحاس: وأحسنُ ما قيل في هذا: أنَّ المعنى: يقول خصمان بغَى بعضُنا على بعض، على جهة المسألة؛ كما تقول: رجلٌ يقول لامرأته كذا؛ ما يجب عليه؟[٦]

---

(١) في (د) و(ظ) و(م): والحجرة، والمثبت من (ز)، وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي، والكلام منه ٤/ ١٦٢٠، والحِجْر: الأنثى من الخيل، اللسان (حجر).

(٢) أورد البيتان الأول والثاني الآلوسي في روح المعاني ٢٣/ ١٨٠.

(٣) ديوان عنترة ص ٢٨. الجداية: الغزال. والرشأ: الظبي إذا قوي ومشى مع أمه. القاموس (جدي) و(رشأ).

(٤) قائله الأعشى، وهو في ديوانه ص ٧٧.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٥٤ بنحوه.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٩٥.

قلت: وقد تأوَّل المُزنيّ صاحبُ الشافعي هذه الآيةَ وقولَه ﷺ في حديث ابن شهاب الذي خرَّجه «الموطأ» وغيره: «هو لكَ يا عبدُ بن زَمْعَة[1]» على نحو هذا؛ قال المُزني: يحتمِل هذا الحديثُ عندي ـ والله أعلم ـ أن يكون النبيُّ ﷺ أجاب عن المسألة فأعلمهم بالحُكم أنَّ هذا يكون إذا ادَّعى صاحبُ فراش وصاحبُ زِنى، لا أنه قَبِلَ على عُتبة قولَ أخيه سعد، ولا على زَمْعَة قولَ ابنه: إنه ولدُ زنى، لأن كلَّ واحد منهما أخبرَ عن غيره. وقد أجمع المسلمون أنه لا يقبل إقرار أحدٍ على غيره. وقد ذكر الله سبحانه في كتابه مثلَ ذلك في قصة داود والملائكة؛ إذ دخلوا عليه فَفَزِعَ منهم، قالوا: لا تَخَفْ خَصْمان، ولم يكونوا خَصْمين، ولا كان لواحد منهم تسعٌ وتسعون نَعْجة، ولكنهم كلَّموه على المسألة لِيعرِفَ بها ما أرادوا تعريفَه. فيحتمِل أن يكون النبي ﷺ حكم في هذه القصة على المسألة، وإنْ لم يكن أحدٌ يُؤنسني على هذا التأويل في الحديث، فإنه عندي صحيح[2]. والله أعلم.

التاسعة: قال النحاس[3]: وفي قراءة ابن مسعود: «إنَّ هذا أخِي كان له تِسْعٌ وتسعونَ نعجةً أُنْثَى[4]» و«كان» هنا مثل قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فأما قوله: «أنثى» فهو تأكيد، كما يقال: هو رجلٌ ذكرٌ، وهو تأكيد. وقيل: لمَّا كان يقال: هذه مئةُ نعجة وإنْ كان فيها من الذكور شيءٌ يسير، جاز أن يقال: أُنثى ليعلم أنه لا ذَكَرَ فيها. وفي التفسير: له تسع وتسعون امرأة.

قال ابن العربي[5]: إنْ كان جميعهن أحراراً فذلك شَرْعُه، وإن كنَّ إماءً فذلك شرعُنا. والظاهرُ أن شرع مَن تقدَّم قبلنا لم يكن محصوراً بعدد، وإنما الحصر في

---

(١) الموطأ ٢/ ٧٣٩ ، وأخرجه أحمد (٢٤٠٨٦)، والبخاري (٢٠٥٣) ومسلم (١٤٥٧) مطولاً، وفيه قصة.

(٢) التمهيد ٨/ ١٨٦ .

(٣) معاني القرآن ٦/ ٩٧ - ٩٨ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٠ .

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٠ .

شريعة محمد ﷺ، لِضَعْفِ الأبدان وقلَّة الأعمار.

وقال القشيري: ويجوز أن يقال: لم يكن له هذا العدد بعينه، ولكن المقصود ضرب مثل، كما تقول: لو جئتني مئةَ مرة لم أقضِ حاجتَك، أي: مراراً كثيرة.

قال ابن العربي[١]: قال بعض المفسرين: لم يكن لداود مئة امرأة، وإنما ذكر التسعة والتسعين مثلاً؛ المعنى: هذا غنيٌّ عن الزوجة وأنا مُفتقِرٌ إليها. وهذا فاسدٌ من وجهين: أحدهما: أن العدول عن الظاهر بغير دليل لا معنى له، ولا دليل يدلُّ على أن شرعَ من قبلنا كان مقصوراً من النساءِ على ما في شرعنا. الثاني: أنه روى البخاري وغيره أن سليمانَ قال: «لأطوفنَّ الليلةَ على مئة امرأة تَلِدُ كلُّ امرأة غلاماً يُقاتل في سبيل الله، ونَسِيَ أن يقول: إن شاء الله»[٢]. وهذا نصٌّ.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي: امرأة واحدة: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: انزل لي عنها حتى أَكْفُلَها، وقال ابن عباس: أعطنيها. وعنه: تحوَّل لي عنها. وقاله ابن مسعود. وقال أبو العالية: ضُمَّها إليَّ حتى أَكْفُلَها. وقال ابن كيسان: اجعلها كِفْلي ونصيبي، ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي: غلبني. قال الضحاك: إنْ تكلَّم كان أفصحَ مني، وإن حارب كان أبطشَ مني[٣].

يقال: عزّه يَعُزُّه ـ بضم العين في المستقبل ـ عَزّاً: غلبه. وفي المثل: مَنْ عَزَّ بَزَّ؛ أي: من غَلَبَ سَلَبَ. والاسمُ العِزَّة، وهي القوّة والغَلَبة[٤]. قال الشاعر:

قَطاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فباتَتْ ... تُجاذِبُهُ وقد عَلِقَ الجناحُ[٥]

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢١ .

(٢) صحيح البخاري (٥٢٤٢)، وأخرجه أحمد (٧٧١٥)، ومسلم (١٦٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) هذه الأقوال في المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٠ ، والنكت والعيون ٥/ ٨٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٤ .

(٤) الصحاح (عزز). والمثل: من عزَّ بزَّ. سلف ١٨/ ١٢٥ .

(٥) اختلف في قائله، فقيل: مجنون ليلى، وقيل: نُصَيب بن رباح، وقيل: توبه بن الحُمَيِّر. ينظر ديوان مجنون ليلى ص ٩٠ ، وشعر نُصيب بن رباح ص٧٤ ، والكامل للمبرد ٢/ ٩٢٩ ، وشرح ديوان الحماسة البصرية ٣/ ١٥١ .

وقرأ عبدُ الله بن مسعود وعُبيد بن عُمير: «وعَازَّني في الخطَابِ»[(١)] أي: غالبني؛ من المُعَازَّة، وهي المغالبة؛ عازَّه، أي: غالبه.

قال ابن العربي[(٢)]: واختُلف في سبب الغَلَبة؛ فقيل: معناه: غلبني ببيانه. وقيل: غَلَبني بسلطانه؛ لأنه لمَّا سأله لم يستطِعْ خِلافَه.

كان ببلادنا أميرٌ يقال له: سير بن أبي بكر[(٣)]، فكلَّمته في أن يسأل لي رجلاً حاجة، فقال لي: أما علمتَ أنَّ طلبَ السلطان للحاجة غَصْبٌ لها. فقلت: أما إذا كان عَدْلاً فلا. فعجبتُ من عُجمته وحفظه لما تمثَّل به وفِطنته، كما عَجِبَ من جوابي له واستغربه.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ قال النحاس[(٤)]: فيقال: إن هذه كانت خطيئةَ داود عليه السلام؛ لأنه قال: لقد ظَلمك من غير تثبُّت بينة، ولا إقرار من الخَصْم؛ هل كان هذا كذا أو لم يكن. فهذا قول. وسيأتي بيانُه في المسألة بعد هذا، وهو حسنٌ إن شاء الله تعالى.

قال أبو جعفر النحاس[(٥)]: فأما قولُ العلماء الذين لا يُدفَع قولُهم؛ منهم عبد الله ابن مسعود وابن عباس، فإنهم قالوا: ما زاد داودُ صلى الله على نبينا وعليه على أن قال للرجل: اِنزل لي عن امرأتك. قال أبو جعفر: فعاتبه اللهُ عزّ وجلّ على ذلك ونبَّهه عليه، وليس هذا بكبير من المعاصي، ومَن تخطَّى إلى غير هذا فإنما يأتي بما لا يصحُّ عن عالم، ويلحقه فيه إثمٌ عظيم. كذا قال في كتاب «إعراب القرآن».

وقال: في كتاب «معاني القرآن»[(٦)] له بمثله. قال ﷺ: قد جاءت أخبارٌ وقصصٌ في أمر داود عليه السلام وأوريا، وأكثرها لا يصحُ! ولا يتصل إسنادُه، ولا ينبغي أن

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٠، ونسبها في القراءات الشاذة ص ١٣٠ لمسروق وأبي وائل والحسن.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢١ .

(٣) أحد أمراء السلطان يوسف بن تاشفين. نفح الطيب ٤/ ٣٧٣ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦١ .

(٥) المصدر السابق.

(٦) ٦/ ٩٨ - ١٠١ وما بين حاصرتين الآتي منه.

يُجترأ على مثلها إلا بعد المعرفة بصحتها. وأصحُّ ما روي في ذلك ما رواه مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: ما زاد دوادُ عليه السلام على أن قال: «أكفِلْنِيها» أي: اِنزل لي عنها. وروى المِنهال عن سعيد بن جُبير [عن ابن عباس] قال: ما زاد داود ﷺ على أن قال: «أكْفِلْنِيها» أي: تحوَّل لي عنها وضُمَّها إليَّ[1].

قال أبو جعفر: فهذا أجلُّ ما رُوي في هذا، والمعنى عليه: أن داود عليه السلام سأل أُوريا أن يُطلِّق امرأته كما يسأل الرجلُ الرجلَ أن يَبيعه جاريتَه، فنبَّهه الله عز وجل على ذلك، وعاتبه لمَّا كان نبيّاً وكان له تسعٌ وتسعون أنكر عليه أن يتشاغل بالدنيا بالتزيُّد منها، فأما غير هذا فلا ينبغي الاجتراءُ عليه.

قال ابن العربي[2]: وأما قولهم: إنها لمَّا أَعجبته أمرَ بتقديم زوجها للقَتْل في سبيل الله، فهذا باطلٌ قطعاً؛ فإن داود ﷺ لم يكن لِيُريقَ دمَه في غَرَضِ نَفْسه، وإنما كان من الأمر أن داود قال لبعض أصحابه: اِنْزِلْ لي عن أهلك، وعَزَمَ عليه في ذلك، كما يطلبُ الرجلُ من الرجل الحاجة برغبةٍ صادقة؛ كانت في الأهل أو في المال. وقد قال سعدُ[3] بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف حين آخى رسولُ الله ﷺ بينهما: إنَّ لي زوجتين أَنزِلُ لك عن أحسنهما؛ فقال له: بارك الله لك في أهلك[4]. وما يجوز فِعلُه ابتداءً يجوز طَلَبُه، وليس في القرآن أن ذلك كان، ولا أنه تزوَّجها بعد زَوال عِصْمةِ الرجل عنها، ولا ولادتها لسليمان، فعمن يُروَى هذا ويُسنَد؟! وعلى مَن في نَقْله يُعتمَد، وليس يَأْثُره عن الثِّقات الأَثْبات أحدٌ.

أما أن في سورة «الأحزاب» نكتةً تدلُّ على أن داودَ قد صارت له المرأةُ زوجةً،

---

(١) أخرجهما الطبري ٢٠/ ٥٩ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٤ -١٦٢٥ .

(٣) في (م) سعيد، وهو خطأ.

(٤) أخرجه أحمد (١٣١٢٣)، والبخاري (٣٧٨١) من حديث أنس ﷺ.

وذلك قوله: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ [الآية:٣٨] يعني في أحد الأقوال تزويج داود المرأة التي نظر إليها، كما تزوَّج النبي ﷺ زينبَ بنت جحش[1]؛ إلا أن تزويج زينب كان من غير سؤال للزوج في فِراق، بل أمره بالتمسُّك بزوجته، وكان تزويجُ داود للمرأة بسؤال زوجها فراقَها. فكانت هذه المَنْقَبة لمحمد ﷺ على داودَ مُضافةً إلى مَناقبه العَلِيَّة ﷺ.

ولكن قد قيل: إن معنى ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ تزويج الأنبياء بغير صَداق مَنْ وهبتْ نفسَها لهم من النساء بغير صَداق. وقيل: أراد بقوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ أن الأنبياءَ صلواتُ الله عليهم فُرِضَ لهم ما يمتثلونه في النكاح وغيره. وهذا أصحُّ الأقوال.

وقد روى المفسرون أن داود عليه السلام نكح مئةَ امرأة؛ وهذا نصُّ القرآن. وروي أن سليمانَ كانت له ثلاث مئة امرأة وسبع مئة جارية؛ وربُّك أعلم[2].

وذكر الكيا الطبري في «أحكامه»[3] في قول الله عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ الآية: ذكر المُحققون الذين يَرون تنزيهَ الأنبياء عليهم السلام عن الكبائر أن داودَ عليه السلام كان قد أقدمَ على خِطبة امرأة قد خَطَبها غيرُه، يقال: هو أوريا؛ فمال القومُ إلى تزويجها من داودَ راغبين فيه، وزاهدين في الخاطب الأوّل، ولم يكن بذلك داود عليه السلام عارفاً، وقد كان يُمكنه أن يعرف ذلك فيعدل عن هذه الرغبة، وعن الخِطبة بها، فلم يفعل ذلك، من حيث أُعجِبَ بها إمَّا وصفاً أو مشاهدةً على غير تَعمُّد؛ وقد كان لداود عليه السلام من النساء العَدَدُ الكثير، وذلك الخاطبُ لا امرأةَ له، فنبَّهه الله تعالى على ما فعل بما كان مِن تسوُّر المَلَكين، وما أورداه من التمثيل على وجه التعريض؛ لكي يَفهمَ من ذلك موقعَ العَتَب فيعدل عن

---

(١) سلف ١٤/١٨٩ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٢٥ .

(٣) ٤/٣٥٩ - ٣٦٠ .

هذه الطريقة، ويستغفر ربَّه من هذه الصغيرة.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ فيه الفتوى في النازلة بعد السماع من أحد الخَصْمين، وقبلَ أن يسمع من الآخر بظاهر هذا القول. قال ابن العربي[١]: وهذا مما لا يجوز عند أحد، ولا في مِلَّة من الملل، ولا يمكن ذلك للبشر. وإنما تقديرُ الكلام أن أحد الخَصْمين ادَّعى والآخر سلَّم في الدعوى، فوقعت بعد ذلك الفتوى. وقد قال النبي ﷺ: «إذا جلسَ إليك الخَصْمان فلا تَقْضِ لأحدِهما حتى تسمعَ من الآخر»[٢].

وقيل: إن داودَ عليه السلام لم يَقْضِ للآخر حتى اعترف صاحبه بذلك. وقيل تقديره: لقد ظَلَمك إنْ كان كذلك. والله أعلمُ بتعيين ما يمكن من هذه الوجوه.

قلت: ذكر هذين الوجهين القشيري والماورديّ[٣] وغيرهما. قال القشيري: وقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ مِن غير أن يسمعَ كلامَ الخَصْم مُشكل؛ فيمكن أن يقال: إنما قال هذا بعد مُراجعة الخَصْم الآخر وبعد اعترافه. وقد رُوي هذا وإنْ لم تَثبُتْ روايتهُ، فهذا معلومٌ من قرائن الحال. أو أراد: لقد ظَلمك إنْ كان الأمرُ على ما تقول، فسكَّته بهذا وصبَّره إلى أن يسألَ خَصْمَه. قال: ويَحتمِلُ أن يقال: كان من شَرْعهم التعويلُ على قول المُدَّعي عند سُكوت المُدَّعى عليه إذا لم يظهر منه إنكارٌ بالقول.

وقال الحَليمي أبو عبد الله في كتاب «منهاج الدين»[٤] له: ومما جاء في شكر النعمة المنتظرة إذا حضرت، أو كانت خافيةً فظهرت السجودُ لله عزّ وجلّ. قال: والأصل في ذلك قوله عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ إلى قوله: ﴿وَحُسْنَ

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٥ ، وما قبله منه.

(٢) أخرجه أحمد (٨٨٢)، وأبو داود (٣٥٨٢)، والترمذي (١٣٣١) وقد قال النبي ﷺ ذلك لعليٍّ ﷺ لما بعثه قاضياً إلى اليمن.

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٨٧ – ٨٨ .

(٤) ٢/ ٥٥١ – ٥٥٢ .

مَئَابٍ﴾، أخبر الله عزّ وجلّ عن داود عليه السلام: أنه سمع قولَ المُتظلِّم من الخَصْمين، ولم يُخبَر عنه أنه سأل الآخر، إنما حُكي أنه ظَلَمه، فكان ظاهرُ ذلك أنه رأى في المُتكلِّم مخائلَ الضَّعْف والهَضيمة، فحمل أمره على أنه مظلومٌ كما يقول، ودعاهُ ذلك إلى ألّا يسألَ الخَصْمَ؛ فقال له مستعجلاً: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ مع إمكان أنه لو سأله لكان يقول: كانت لي مئة نعجة ولاشيء لهذا، فسرق مني هذه النعجة، فلما وجدتُها عنده قلت له: ارْدُدْها، وما قلت له: أكفلنيها، وعلم أني مُرافعه إليك، فجرَّني قبل أن أجرَّه، وجاءك مُتظلِّماً مني[1] قبل أن أُحضره، لِتَظُنَّ أنه هو المُحِقُّ وأني أنا الظالم. ولما تكلَّم داود بما حملته العَجَلة عليه، عَلِمَ أن الله عزّ وجلّ خلَّاه ونفسَه في ذلك الوقت، وهو الفتنةُ التي ذكرها[2]، وأن ذلك لم يكن إلا عن تقصير منه، فاستغفر ربَّه وخرَّ راكعاً لله تعالى شُكراً على أن عَصَمهُ، بأن اقتصر على تظليم المَشْكُوِّ، ولم يَزِدْهُ على ذلك شيئاً من انتهارٍ أو ضرب أو غيرهما، مما يَليق بمن تصوَّر في القلب أنه ظالم، فغفر اللهُ له، ثم أقبلَ عليه يُعاتبه؛ فقال: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦] فَبانَ بما اقتصَّه[3] الله تعالى من هذه الموعظة التي توخَّاه بها بعد المغفرة أن خطيئته إنما كانت التقصيرَ في الحكم، والمُبادرةَ إلى تظليم مَن لم يَثبُتْ عنده ظُلمه. ثم جاء عن ابن عباس أنه قال: سجدَها داودُ شكراً، وسجدها النبيُّ ﷺ اتِّباعاً[4]، فثبت أن السجودَ للشُّكر سنةٌ متواترةٌ عن الأنبياء صلوات الله عليهم.

﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ أي: بسؤاله نعجتَك؛ فأضاف المصدر إلى المفعول، وألقى الهاء من السؤال، وهو كقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ [فصلت:٤٩] أي: مِن دعائه الخير.

---

(١) في (م): من.

(٢) في (د) و(م): ذكرناها، والمثبت موافق للمنهاج.

(٣) في (م): بما قصَّه.

(٤) أخرجه النسائي في المجتبى ٢/١٥٩ بلفظ: أن النبي ﷺ سجد في «صٓ» وقال: سجدها داود توبة، ونسجدها شكراً.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ يقال: خلِيط وخُلطاء، ولا يقال: طويل وطُولاء، لِثِقَل الحركة في الواو[1]. وفيه وجهان: أحدهما: أنهما الأصحاب. الثاني: أنهما الشُّرَكاء[2].

قلت: إطلاقُ الخُلَطاء على الشُّرَكاء فيه بُعْد، وقد اختلف العلماءُ في صفة الخُلَطاء، فقال أكثر العلماء: هو أن يأتي كلُّ واحد بغنمه فيجمعها[3] راعٍ واحدٌ والدَّلو والمَراح. وقال طاوس وعطاء: لا يكون الخُلطاء إلا الشُّركاء. وهذا خلاف الخبر؛ وهو قوله ﷺ: «لا يُجْمَع بين مُفْتَرِق ولا يُفَرَّق بين مُجتمع خشيةَ الصدقة، وما كان مِن خليطين فإنَّهما يتراجعان بينهما بالسَّوِيَّة»[4]، ورُوي: فإنهما يترادَّان الفَضْل[5]. ولا موضع لترادِّ الفَضْل بين الشُّركاء؛ فاعلمه.

وأحكامُ الخُلْطة مذكورةٌ في كتب الفقه. ومالك وأصحابه وجمعٌ من العلماء لا يرون [الصدقة][6] على مَن ليس في حصَّته ما تجب فيه الزكاة. وقال الربيع واللَّيث وجمع من العلماء منهم الشافعي: إذا كان في جميعها ما تجب فيه الزكاة أُخذت منها الزكاة. قال مالك: وإن أخذ المُصَدِّق بهذا ترادُّوا بينهم للاختلاف في ذلك. وتكون كحكم حاكم اختلف فيه.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يتعدَّى ويظلم. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهم لا يظلمون أحداً. ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ يعني الصالحين، أي: وقليل هم، فـ«ما» زائدة. وقيل: بمعنى: الذين، وتقديره: وقليلٌ الذين هم[7]. وسمع

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٨٨ .

(٣) في (م): فيجمعهما.

(٤) أخرجه البخاري (١٤٥٠)، وسلف ٤/ ٣٩٩ .

(٥) لم نقف على هذه الرواية، وذكره مالك في الموطأ ١/ ٢٦٣ من قوله.

(٦) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٨٨ .

عمرُ ﷺ رجلاً يقول في دعائه: اللهمَّ اجعلني من عبادك القليل. فقال له عمر: ما هذا الدعاء؟.فقال: أردتُ قولَ الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ فقال عمر: كلُّ الناس أفقهُ منك يا عمر[1].

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ﴾ أي: ابتليناه. و«ظَنَّ» معناه أيقن. قال أبو عمرو والفراء: ظنَّ بمعنى أيقن، إلا أن الفراء شرحه بأنه لا يجوز في المُعاين أن يكون الظن إلا بمعنى اليقين[2]. والقراءة «فَتَنَّاهُ» بتشديد النون دون التاء. وقرأ عمر بن الخطاب ﷺ: «فتّنَّاه» بتشديد التاء والنون على المبالغة، وقرأ قتادة وعُبيد بن عمير وابن السَّمَيْفَع: «فَتَنَاهُ» بتخفيفهما. ورواه علي بن نَصْر عن أبي عمرو، والمُراد به المَلَكان اللذان دخلا على داود عليه السلام[3].

السادسة عشرة: قيل: لما قضَى داودُ بينهما في المسجد، نظر أحدُهما إلى صاحبه فضحك، فلم يَفْطُنْ داود؛ فأحبَّا أن يعرِفهما، فَصَعِدا إلى السماء حِيالَ وجهه، فعلم داودُ عليه السلام أن الله تعالى ابتلاه بذلك، ونبَّهه على ما ابتلاه.

قلت: وليس في القرآن ما يدلُّ على القضاء في المسجد إلا هذه الآية، وبها استدلَّ من قال بجواز القضاء في المسجد، ولو كان ذلك لا يجوز كما قال الشافعي لَمَا أقرَّهم داود على ذلك. ويقول: انصرفا إلى موضع القضاء. وكان النبيُّ ﷺ والخلفاء يقضُون في المسجد[4]، وقد قال مالك: القضاء في المسجد من الأمر

---

(١) سلف ١٤/ ٢٧٧ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦١ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٠٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠١ ، والقراءتان في القراءات الشاذة ص ١٣٠ ، والمحتسب ٢/ ٢٣٢ .

(٤) ترجم البخاري قبل الحديث (٧١٦٥): باب من قضى ولا عَنَ في المسجد، ولا عن عمر عند منبر النبي ﷺ وقضى شريح والشعبي ويحيى بن يعمر في المسجد، وقضى مروان على زيد بن ثابت باليمين عند المنبر، وكان الحسن وزُرارة بن أوفى يقضيان في الرحبة خارجاً من المسجد. ثم ترجم بعده: باب: من حكم في المسجد حتى إذا أتى على حدٍّ أمر أن يخرج من المسجد فيُقامَ، وذكر حديث أبي هريرة ﷺ في الرجل الذي قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، إني زنيت،... فلما شهد على نفسه أربعاً، قال: «أبِكَ جنون»؟! قال: لا، قال: «اذهبوا فارجموه».

القديم. يعني في أكثر الأمور. ولا بأس أن يَجلِسَ في رحبته؛ لِيصل إليه الضعيفُ والمُشرك والحائض، ولا يُقيم فيه الحدود؛ ولا بأس بخفيف الأدب. وقد قال أشهب: يقضي في منزله وأين أحبَّ[١].

السابعة عشرة: قال مالك رحمه الله: وكان الخلفاءُ يَقضُون بأنفسهم، وأوّل من استقضى معاوية[٢]. قال مالك: وينبغي للقُضاة مُشاورة العلماء. وقال عمر بن عبد العزيز: لا يستقضي حتى يكون عالماً بآثار مَن مضى، مستشيراً لذوي الرأي، حليماً نَزِهاً. قال: ويكون ورعاً. قال مالك: وينبغي أن يكون متيقظاً كثيرَ التحذُّر من الحِيل، وأن يكون عالماً بالشروط، عارفاً بما لا بُدَّ له منه من العربية؛ فإن الأحكامَ تختلف باختلاف العباراتِ والدعاوى والإقرارات والشهادات والشروط التي تتضمَّن حقوقَ المحكوم له. وينبغي له أن يقول قبلَ إنجاز الحكم للمطلوب: أبَقِيتْ لك حُجَّةٌ؟ فإن قال: لا، حَكَمَ عليه، ولا يقبل منه حُجَّةً بعد إنفاذ حكمه إلا أن يأتي بما له وجهٌ أو بيِّنة. وأحكامُ القضاء والقُضاة فيما لهم وعليهم مذكورةٌ في غير هذا الموضع.

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ اختلف المفسرون في الذنب الذي استغفر منه على أقوال ستة:

الأوّل: أنه نَظَر إلى المرأة حتى شَبِعَ منها. قال سعيد بن جُبير: إنما كانت فتنته النَّظرة. قال أبو إسحاق[٣]: ولم يتعمَّدْ داودُ النظر إلى المرأة، لكنه عاودَ النظر إليها، فصارت الأُولى له والثانية عليه.

الثاني: أنه أغزى زوجَها في حَمَلَةِ التابوت.

الثالث: أنه نوى إنْ مات زوجُها أن يتزوَّجها.

الرابع: أن أوريا كان خطب تلك المرأةَ، فلما غاب خطَبها داودُ، فَزُوِّجت منه

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٢٦ بنحوه.

(٢) التمهيد ١١/٩٧ .

(٣) هو الثعلبي، وقوله في عرائس المجالس ص ٢٨٤، وقول سعيد بن جبير الذي قبله منه.

لجلالته، فاغتمَّ لذلك أوريا، فَعَتَبَ اللهُ على داود إذْ لم يتركها لخاطبها، وقد كان عنده تسعٌ وتسعون امرأة.

الخامس: أنه لم يَجزعْ على قتل أوريا، كما كان يجزع على من هَلَكَ من الجند، ثم تزوَّج امرأته، فعاتبه الله تعالى على ذلك؛ لأن ذنوبَ الأنبياء وإن صَغُرتْ فهي عظيمةٌ عند الله.

السادس: أنه حَكَم لأحد الخَصْمين قبلَ أن يسمعَ من الآخر.

قال القاضي ابن العربي[(١)]: أما قولُ مَن قال: إنه حَكَم لأحدِ الخَصْمين قبل أن يسمعَ من الآخر، فلا يجوز على الأنبياء، وكذلك تعريضُ زوجها للقتل. وأما من قال: إنه نَظَر إليها حتى شَبعَ، فلا يجوز ذلك عندي بحال؛ لأن طُموحَ النظر لا يَليق بالأولياء المتجرِّدين للعبادة، فكيف بالأنبياء الذين هم وسائطُ الله المُكاشَفون بالغيب.

وحكى السديّ عن عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: لو سمعتُ رجلاً يذكر أن داود عليه السلام قارفَ من تلك المرأة محرَّماً لَجلدته ستين ومئة؛ لأن حدَّ الناسِ ثمانون وحدَّ الأنبياء ستون ومئة. ذكره الماوردي[(٢)] والثعلبي أيضاً.

قال الثعلبي[(٣)]: وقال الحارث الأعور[(٤)] عن عليّ: مَن حدَّث بحديث داود على ما تَرويه القُصَّاص مُعتقِداً جلدته حدَّين؛ لِعظم ما ارتكب برمي مَن قد رَفَع اللهُ محلَّه، وارتضاه من خَلْقه رحمةً للعالمين، وحُجَّة للمجتهدين.

قال ابن العربي[(٥)]: وهذا مما لم يَصِحَّ عن عليّ. فإن قيل: فما حُكمه عندكم؟

---

(١) في أحكام القرآن ٤/١٦٢٦ -١٦٢٧ ، وما قبله منه بنحوه.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٨٩ .

(٣) عرائس المجالس ص ٢٨٤ .

(٤) هو الحارث بن عبد الله الهَمْداني، صاحب علي ﷺ، كذَّبه الشعبي في رأيه، ورُمي بالرفض، وفي حديثه ضعف. تقريب التهذيب ص ٨٦.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٧ .

قلنا: أما مَن قال: إن نبيًّا زنى، فإنه يُقتل، وأما مَن نَسب إليه ما دون ذلك من النظر والمُلامسة، فقد اختلف الناس في ذلك؛ فإنْ صمَّم أحدٌ على ذلك فيه ونَسبه إليه قتلته، فإنه يُناقض التعزير المأمور به. فأما قولهم: إنه وقع بصرُه على امرأة تغتسل عُريانةً، فلما رأته أسبلتْ شعرَها فسترتْ جسدَها، فهذا لا حرجَ عليه فيه بإجماع من الأمة؛ لأن النظرةَ الأُولى تَكشِفُ المنظور إليه ولا يأثم الناظرُ بها، فأما النظرة الثانية فلا أصلَ لها[1].

وأما قولهم: إنه [نوى] إن مات زوجُها تزوَّجها فلا شيء فيه إذْ لم يُعرِّضْهُ للموت. وأما قولهم: إنه خَطَب على خِطبة أوريا فباطلٌ يَردُّه القرآن والآثار التفسيرية كلُّها.

وقد روى أشهبُ عن مالك قال: بلغني أن تلك الحمامةَ أَتَتْ فوقعتْ قريباً من داود عليه السلام وهي مِن ذَهبٍ، فلما رآها أعجبته فقام لِيأخُذَها فكانت قُربَ يده، ثم صنع مثلَ ذلك مرتين، ثم طارت واتَّبعها ببصره فوقعتْ عينُه على تلك المرأة وهي تغتسل ولها شعرٌ طويل؛ فبلغني أنه أقام أربعين ليلة ساجداً حتى نبت العُشب من دموع عينيه.

قال ابن العربي[2]: وأما قولُ المفسرين: إن الطائرَ درج عنده فهمَّ بأخذه واتَّبعه فهذا لا يُناقض العبادة؛ لأنه مُباحٌ فِعْلُه، لاسيما وهو حلالٌ، وطلبُ الحلال فريضة، وإنما اتّبع الطيرَ لذاته لا لجماله، فإنه لا منفعةَ له فيه، وإنما ذِكْرهم لحسن الطائر خرقٌ[3] في الجهالة. أما أنه روي أنه كان طائراً من ذهب فاتَّبعه لِيأخُذَه؛ لأنه من فضل الله سبحانه وتعالى كما روي في الصحيح: «إنَّ أيوبَ عليه السلام كان يغتسلُ عُرياناً، فخرَّ عليه رِجْلٌ من جراد [من ذهب] فجعل يَحثي منه ويجعلُ في ثَوْبه؛ فقال الله تعالى له: «يا أيوبُ، ألم أكن أَغنيتُكَ؟» قال: «بلى يا رب، ولكنْ لا غِنى لي عن

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٢٤ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٤ و١٦٢٧ ، وما قبله وما بين حاصرتين السالف منه.

(٣) في أحكام القرآن: حذق.

بركتك»[١].

وقال القشيري: فهمَّ داودُ بأنْ يأخذَه لِيدفعه إلى ابن له صغير، فطار ووقع على كَوَّة البيت؛ وقاله الثعلبي أيضاً، وقد تقدّم[٢].

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أي :خرَّ ساجدًا، وقد يُعبَّر عن السجود بالركوع. قال الشاعر:

فخرَّ على وَجهِه راكِعاً وتابَ إلى الله مِنْ كُلِّ ذنب[٣]

قال ابن العربي[٤]: لا خلافَ بين العلماء أن المُرادَ بالركوع هاهنا السجود؛ فإن السجودَ هو المَيْل، والركوع هو الانحناء، وأحدُهما يدخل[٥] على الآخر، ولكنه قد يختصُّ كلُّ واحد بهيئته، ثم جاء هذا على تسمية أحدِهما بالآخر، فَسُمِّي السجود ركوعاً.

وقال المهدوي: وكان ركوعهم سجوداً. وقيل: بل كان سجودُهم ركوعاً. وقال مقاتل: فوقع من ركوعه ساجداً لله عزّ وجلّ. أي: لما أحسَّ بالأمر قام إلى الصلاة، ثم وقع من الركوع إلى السجود؛ لاشتمالهما جميعاً على الانحناء.

﴿وَأَنَابَ﴾ أي: تاب من خطيئته ورَجَعَ إلى الله.

وقال الحسين بن الفضل: سألني عبدُ الله بن طاهر ـ وهو الوالي ـ عن قولِ الله عز وجل: «وَخَرَّ رَاكعاً» فهل يقال للراكع: خَرَّ؟. قلت: لا. قال: فما معنى الآية؟ قلت: معناها: فخرَّ بعد أن كان راكعاً، أي: سَجَدَ[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٨١٥٩)، والبخاري (٣٣٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وما بين حاصرتين منهما، وسلف ٤/ ٤٨٣ .

(٢) ١٥/ ١٦٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٨٩ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٧ .

(٥) في أحكام القرآن: يدلّ.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٥٧ ، وعبد الله بن طاهر: هو أبو العباس، الأمير العادل، حاكم خراسان وما وراء النهر، مات سنة (٢٣٠ هـ) السير ١٠/ ٦٨٤ .

الموفية عشرين: واختُلف في سجدة داودَ هل هي من عزائم السجودِ المأمور به في القرآن أم لا؟ فروى أبو سعيد الخُدري أن النبيَّ ﷺ قرأ على المنبر: «ص والقرآنِ ذِي الذِّكْر» فلما بلغَ السجدةَ نزلَ فسجدَ وسَجَدَ الناسُ معه، فلما كان يومٌ آخرُ قرأ بها فتَشَزَّنَ الناسُ للسجود، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنها توبةُ نبيٍّ، ولكني رأيتُكم تَشَزَّنتم للسجود» ونزلَ وسجدَ. وهذا لفظ أبي داود(١).

وفي البخاري وغيره: عن ابن عباس أنه قال: «صَ» ليست من عزائم القرآن، وقد رأيتُ النبيَّ ﷺ يسجدُ فيها(٢).

وقد رُوي من طريق عن ابن مسعود أنه قال: «صَ» توبةُ نبيٍّ، ولا يُسجد فيها؛ وعن ابن عباس أنها توبةُ نبيٍّ ونبيُّكم ممن أُمِرَ أن يَقتديَ به(٣).

قال ابن العربي(٤): والذي عندي أنها ليست موضعَ سجود، ولكن النبيَّ ﷺ سجدَ فيها فسجدنا بالاقتداء به. ومعنى السجود أن داودَ سجدَ خاضعاً لِربِّه، مُعترفاً بذنبه، تائباً من خطيئته؛ فإذا سجدَ أحدٌ فيها فَلْيسجد بهذه النِّيَّة، فلعلَّ الله أن يغفرَ له بحرمة داودَ الذي اتَّبعه، وسواء قلنا: إن شَرْعَ من قبلنا شرعٌ لنا أم لا؟ فإن هذا أمرٌ مشروع في كلِّ أمة لكلِّ أحد. والله أعلم.

الحادية والعشرون: قال ابن خُوَيْز مَنْداد: قوله: «وخَرَّ راكِعاً وأَنَابَ» فيه دلالةٌ على أن السجودَ للشُّكر مُفرداً لا يجوز؛ لأنه ذَكر معه الركوع؛ وإنما الذي يجوز أن يأتي بركعتين شكراً، فأمَّا سجدةٌ مفردةٌ فلا؛ وذلك أن البِشاراتِ كانت تأتي رسولَ الله ﷺ والأئمة بعده، فلم يُنقَلْ عن أحدٍ منهم أنه سجد شُكراً، ولو كان ذلك مفعولاً لهم لَنُقِلَ نقلاً متظاهراً لحاجة العامة إلى جوازه وكونه قُربة.

---

(١) في السنن (١٤١٠). والتشزُّن: التأهُّب والتهيّؤ للشيء. النهاية (شزن).

(٢) صحيح البخاري (١٠٦٩)، وهو في مسند أحمد (٣٣٨٧).

(٣) أخرجهما البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٣١٩.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٨، وما قبله منه.

قلت: وفي «سنن» ابن ماجه: عن عبد الله بن أبي أَوفَى أن رسولَ الله ﷺ صلَّى يومَ بُشِّرَ برأس أبي جهل ركعتين[١]. وخرَّج من حديث أبي بَكْرةَ أن النبيَّ ﷺ كان إذا أتاه أمرٌ يَسُرُّه ـ أو يُسَرُّ به ـ خرَّ ساجداً شكراً لله[٢]. وهذا قول الإمام الشافعي وغيره.

الثانية والعشرون: روى الترمذي وغيره ـ واللفظ للغير ـ: أن رجلاً من الأنصار على عهدِ رسول الله ﷺ كان يُصلِّي من الليل يستتر بشجرة وهو يقرأ: «صٓ والقرآنِ ذِي الذِّكْرِ» فلما بلغ السجدةَ سجدَ وسجدت معه الشجرة، فسمعها وهي تقول: اللهمَّ أَعْظِمْ لي بهذه السجدة أجراً، وارزُقني بها شُكراً[٣].

قلت: خرَّج ابن ماجه في «سننه» عن ابن عباس قال: كنتُ عند النبيّ ﷺ، فأتاه رجلٌ فقال: إني رأيتُ البارحة فيما يرى النائم كأني أُصلِّي إلى أصل شجرة، فقرأت السجدةَ [فسجدتُ] فسجدتِ الشجرةُ لِسُجودي، فسمعتها تقول: اللهمَّ احطُطْ بها عني وِزْراً، واكتُبْ لي بها أجراً، واجعلها لي عندك ذُخراً. قال ابن عباس: فرأيتُ رسولَ الله ﷺ قرأ: «السجدة» فسجدَ، فسمعتُه يقول في سجوده مثلَ الذي أخبره الرجلُ عن قول الشجرة[٤].

ذكره الثعلبي عن أبي سعيد الخدري؛ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، رأيتُني في النوم كأني تحت شجرة والشجرةُ تقرأ «صٓ» فلما بلغتِ السجدةَ سجدَتْ فيها، فسمعتُها

---

(١) سنن ابن ماجه (١٣٩١)، وفي إسناده سلمة بن رجاء عن الشعثاء، وسلمة قال فيه ابن عدي: حدَّث بأحاديث لا يتابع عليها، وعدَّ منها هذا الحديث. ميزان الاعتدال ٤/ ١٨٩ . والشعثاء ـ وهي بنت عبد الله، الأسدية الكوفية ـ قال الحافظ ابن حجر في التقريب ص ٦٦٦ : لا تُعرف.

(٢) سنن ابن ماجه (١٣٩٤)، وأخرجه أبو داود (٢٧٧٤)، والترمذي (١٥٧٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث بكار بن عبد العزيز، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، رَأَوْا سجدة الشكر.

(٣) سنن الترمذي (٥٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه، والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٢٨ ، وينظر الحديث التالي.

(٤) سنن ابن ماجه (١٠٥٣)، وما بين حاصرتين منه.

تقول في سجودها: اللهمَّ اكتُبْ لي بها أجراً، وحُطَّ عني بها وزراً، وارزقني بها شُكراً، وتقبَّلها مني كما تقبَّلت من عبدك داودَ سجدتَه. فقال لي النبيّ ﷺ: «أفسجدْتَ أنت يا أبا سعيد» فقلت: لا والله يا رسولَ الله. فقال: «لقد كنتَ أحقَّ بالسُّجود من الشجرة» ثم قرأ النبيّ ﷺ «صَ» حتى بلغ السجدةَ فسجد، ثم قال مثلَ ما قالت الشجرة[١].

الثالثة والعشرون: قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: فغفرنا له ذَنْبَه. قال ابن الأنباري[٢]: «فغفرنا له ذلك» تامٌّ، ثم تبتدئ: «وإن له» وقال القشيري: ويجوز الوقف على «فغفرنا له» ثم تبتدئ «ذلك وإنَّ له» كقوله: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ [ص:٥٥] أي: الأمر ذلك.

وقال عطاء الخُراساني وغيره: إنَّ داودَ سجدَ أربعين يوماً حتى نبتَ المَرْعَى حولَ وجهه وغمر رأسَه، فَنُودي: أجائعٌ فَتُطعَم، وأعارٍ فَتُكْسَى؛ فنَحَبَ نحبةً هاج المَرْعى من حرِّ جوفه، فَغُفِر له وسُتِرَ[٣] بها.فقال: يا رب، هذا ذنبي فيما بيني وبينك قد غَفَرْتَه، وكيف بفلان وكذا وكذا رجلاً من بني إسرائيل، تركت أولادهم أيتاماً، ونساءهم أرامل؟ قال: يا داود، لا يُجاوزني يومَ القيامة ظلمٌ، أُمَكِّنه منك ثم أَستوهِبُك منه بثواب الجنة. قال: يا ربِّ، هكذا تكون المغفرة الهَنيئة[٤]. ثم قيل: يا داود، ارفَعْ رأسَك. فذهب لِيَرفَعَ رأسَه فإذا به قد نَشِبَ في الأرض،فأتاه جبريلُ فاقتلعه عن وجه الأرض كما يُقتلَع من الشجرة صَمْغها. رواه الوليد بن مسلم عن ابن جابر[٥] عن عطاء.

قال الوليد: وأخبرني مُنير بن الزبير[٦]، قال: فَلَزِقَ مواضعُ مساجده على الأرض

(١) عرائس المجالس ص ٢٨٧ .

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٢ .

(٣) في نوادر الأصول ص ١٨٨ (والكلام منه): وبُشِّر.

(٤) في (م): الهيِّنة، والمثبت موافق لنوادر الأصول.

(٥) هو عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الأزدي، الشامي. تهذيب التهذيب ٢/ ٥٦٦ .

(٦) الشامي، أبو ذر الأزدي، قال ابن حبان: يأتي عن الثقات بالمعضلات، لا تحل الرواية عنه إلا على سبيل الاعتبار. تهذيب التهذيب ٤/ ١٦٤ .

من فَروة وجهه ما شاء الله. قال الوليد: قال ابن لهيعة: فكان يقول في سجوده: سبحانك هذا شرابي دموعي، وهذا طعامي في رماد بين يدي. وفي رواية: إنه سجدَ أربعين يوماً لا يرفع رأسَه إلا للصلاة المكتوبة، فبكى حتى نبتَ العُشْب من دموعه[1].

وروي مرفوعاً من حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: «إنَّ داودَ مَكَثَ أربعين ليلةً ساجداً حتى نبت العُشْبُ من دموعه على رأسه، وأكلتِ الأرضُ من جبينه وهو يقول في سجوده: يا ربِّ، داودُ زلَّ زلَّةً بَعُدَ بها ما بين المشرق والمغرب، ربِّ، إن لم ترحَمْ ضَعْفَ داود وتغفِرْ ذَنْبَه جعلت ذَنْبَه حديثاً في الخَلْق من بعده، فقال له جبريل بعد أربعين سنة: يا داود، إن اللهَ قد غَفَرَ لك الهَمَّ الذي هممتَ به»[2].

وقال وهب: إنَّ داودَ عليه السلام نُودي: إني قد غفرتُ لك. فلم يرفع رأسَه حتى جاءه جبريل فقال: لِمَ لا ترفع رأسَك وربُّك قد غَفَرَ لك؟ قال: يا رب، كيف وأنت لا تظلم أحداً. فقال الله لجبريل: اذهَبْ إلى داودَ فقل له يذهب إلى قبر أوريا فَيتحلَّل منه، فأنا أُسْمِعُه نداءَه[3]. فلبس داودُ المُسوحَ، وجلس عند قبر أوريا، ونادى: يا أوريا، فقال: لبيك، من هذا الذي قطعَ عليَّ لَذَّتي وأيقظني؟ فقال: أنا أخوك داودُ، أسألك أن تجعلني في حِلٍّ، فإني عرَّضتك للقتل؛ قال: عرَّضتني للجنة، فأنت في حِلّ.

وقال الحسن وغيره: كان داودُ عليه السلام بعد الخطيئة لا يُجالس إلا الخاطئين، ويقول: تعالوا إلى داود الخَطَّاء، ولا يشربُ شراباً إلا مزجَه بدموع عينيه. وكان يجعل خبزَ الشعير اليابس في قَصْعة، فلا يزال يبكي حتى يبتلَّ بدموعه، وكان

---

(١) هذه الأخبار من الإسرائيليات، وأوردها بنحوها الطبري ٢٠/ ٦٨ وما بعدها، والثعلبي في عرائس المجالس ص ٢٨٤ وما بعدها، والبغوي ٤/ ٥٥ وما بعدها. وسنذكر أقوال العلماء في ردّ هذه الأخبار ص٢٠٣-٢٠٤ من هذا الجزء، ينظر ثمة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٧٤ ، والثعلبي في عرائس المجالس ص ٢٨٤ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٥٥ ، من حديث أنس ﷺ، وسلف قسم منه ١٨/ ١٥٨ ، وهو حديث ضعيف، كما ذكرنا سابقاً.

(٣) في النسخ الخطية: نداءك.

يَذُرُّ عليه الرماد والملح فيأكل ويقول: هذا أكلُ الخاطئين. وكان قبل الخطيئة يقومُ نصف الليل ويصومُ نصفَ الدّهر، ثم صام بعده الدهرَ كلَّه وقام الليل كلَّه. وقال: يا رب، اجعلْ خطيئتي في كفِّي، فصارت خطيئته منقوشةً في كفِّه. فكان لا يبسطُها لطعام ولا شرابٍ ولا شيء إلا رآها فأبْكته، وإنْ كان ليُؤتى بالقَدَح ثُلثاه ماء، فإذا تناوله أبصرَ خطيئته فما يضعه عن شَفَته حتى يفيضَ من دموعه(١). وروى الوليد بن مسلم: حدَّثني أبو عمرو الأوزاعي أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثلُ عيني داودَ مثلُ القِرْبتين تَنْطُفان، ولقد خدَّد الدموع في وجه داود خديدَ الماء في الأرض»(٢).

قال الوليد: وحدَّثنا عثمانُ بن أبي العاتكة أنه كان من قول داود إذ هو خُلُوٌّ من الخطيئة شدَّة قوله في الخطَّائين أن كان يقول: اللهمَّ لا تغفِرْ للخطَّائين. ثم صار إلى أن يقول: اللهمَّ ربّ اغفر للخاطئين لكي تغفرَ لداود معهم؛ سبحان خالق النور. إلهي، خرجتُ أسأل أطباءَ عبادك أن يداووا خطيئتي فكلُّهم عليك يَدُلُّني. إلهي، أخطأتُ خطيئةً قد خِفتُ أن تجعل حصادَها عذابَك يومَ القيامة إنْ لم تغفرها؛ سبحان خالق النور. إلهي، إذا ذكرتُ خطيئتي ضاقت الأرضُ بِرَحْبها عليَّ، وإذا ذكرتُ رحمتَك ارتدَّ إليَّ روحي.

وفي الخبر: أن داودَ عليه السلام كان إذا علا المنبر رفع يمينه فاستقبلَ بها الناسَ لِيُريهم نَقْشَ خطيئته؛ فكان يُنادي: إلهي، إذا ذكرتُ خطيئتي ضاقت عليَّ الأرض بِرَحْبها، وإذا ذكرتُ رحمتك ارتدَّ إليَّ روحي؛ ربِّ اغفِرْ للخاطئين كي تغفر لداود معهم. وكان يقعدُ على سبعة أفرشة من اللِّيف محشوَّة بالرماد، فكانت تستنقع دموعه تحت رجليه حتى تَنْفذَ من الأفرشة كلِّها.

وكان إذا كان يومُ نَوْحه نادى مُناديه في الطُّرق والأسواق والأودية والشِّعاب وعلى رؤوس الجبال وأفواه الغيران: ألا إنَّ هذا يومُ نَوحِ داود، فمن أراد أن يبكيَ على ذنبه فليأتِ داودَ فيسعده؛ فيهبط السُّياح من الغيران والأودية، وترتجُّ الأصواتُ

---

(١) عرائس المجالس ص ٢٨٨ .

(٢) أورده الحكيم في نوادره ص ١٨٨ ، والبغوي في تفسيره ٥٨/٤ ، وإسناده هكذا معضل.

حولَ منبره، والوحوش والسِّباع والطير عُكَّفٌ؛ وبنو إسرائيل حول منبره؛ فإذا أخذ في العَويل والنَّوح، وأثارت الحرقات منابعَ دموعه، صارت الجماعة ضجةً واحدة نوحاً وبكاء، حتى يموت حول منبره بَشَرٌ كثير في مثل ذلك اليوم[١].

ومات داود عليه السلام فيما قيل يوم السبت فجأة[٢]. أتاه مَلَك الموت وهو يصعَدُ في محرابه وينزل؛ فقال: جئتُ لأقْبِضَ روحك. فقال: دعني حتى أنزلَ أو أرتقي. فقال: مالي إلى ذلك سبيل؛ نَفِدَت الأيامُ والشهور والسُّنون والآثار والأرزاق، فما أنت بمُؤثر بعدها أثراً. قال: فسجد داودُ على مَرْقاة من الدَّرج فقبضَ نفسَه على تلك الحال. وكان بينه وبين موسى عليهما السلام خمسُ مئة وتسعٌ وتسعون سنة. وقيل: تسع وسبعون.

وعاش مئةَ سنة، وأوصى إلى ابنه سليمان بالخلافة[٣].

الرابعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ قال محمد بن كعب ومحمد بن قيس: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ قُربة بعد المغفرة. ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ قالا: والله، إن أوَّل من يشربُ الكأسَ يومَ القيامة داود[٤]. وقال مجاهد عن عبد الله ابن عمر: الزُّلفى الدنوُّ من الله عز وجل يوم القيامة[٥].

وعن مجاهد: يُبعث داودُ يومَ القيامة وخطيئته منقوشةٌ في يده، فإذا رأى أهاويلَ يوم القيامة لم يجد منها محرزاً إلا أن يلجأ إلى رحمة الله تعالى. قال: ثم يرى خطيئته فيقلق، فيقال له: هاهنا؛ ثم يرى فيقلق، فيقال له: هاهنا، ثم يرى فيقلق، فيقال له:

---

(١) عرائس المجالس ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ، ونوادر الأصول ص ١٨٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٨ . وهذه الأخبار من الإسرائيليات، ينظر ما سنذكره في ردِّها ص٢٠٣-٢٠٤ من هذا الجزء.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٣٣ من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) عرائس المجالس ص ٢٩٤ .

(٤) عرائس المجالس ص ٢٨٧ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦١ .

هاهنا؛ فذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ ذكره الترمذي الحكيم. قال: حدّثنا الفضل بن محمد، قال: حدّثنا عبد الملك بن الأصبغ قال: حدّثنا الوليد بن مسلم، قال: حدّثنا إبراهيم بن محمد الفزاري، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن مجاهد فذكره[1].

قال الترمذي: ولقد كنت أمُرُّ زماناً طويلاً بهذه الآيات فلا ينكشفُ لي المُراد والمعنى من قوله: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص:١٦] والقِطّ الصحيفة في اللغة؛ وذلك أن رسولَ الله ﷺ تلا عليهم: «﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾» [الحاقة:١٩]: وقال لهم «إنكم سَتجدون هذا كلَّه في صَحائفكم تُعطَوْنَها بشمائلكم»[2] قالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: صحيفتنا ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾، قال الله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص:١٧]، فقصَّ قصةَ خطيئته إلى مُنتهاها، فكنت أقول: أمره بالصبر على ما قالوا، وأمره بذكر داود، فأي شيء أُريدَ من هذا الذِّكر؟ وكيف اتَّصل هذا بذاك؟ فلا أَقِفُ على شيء يسكن قلبي عليه، حتى هداني اللهُ له يوماً فأُلْهِمتُه؛ أن هؤلاء أنكروا قولَ أنهم يُعطَوْن كُتبهم بشمائلهم، فيها ذنوبهم وخطاياهم استهزاءً بأمر الله؛ وقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ فأوجعه ذلك من استهزائهم، فأمره بالصبر على مَقَالتهم، وأن يذكر عبدَه داودَ؛ سأل تعجيلَ خطيئته أن يراها منقوشةً في كفِّه، فنزل به ما نزل من أنه كان إذا رآها اضطرب وامتلأ القَدَح من دموعه، وكان إذا رآها بكى حتى تَنفُذَ سبعة أفرشة من اللِّيف مَحشوة بالرَّماد، فإنما سألها بعد المغفرة وبعد ضَمان تَبِعَة الخَصْم، وأن الله تبارك وتعالى اسمه يستوهبه منه، وهو حبيبه ووَلِيُّه وصَفِيُّه؛ فرؤية نَقْش الخطيئة بصورتها مع هذه المرتبة صَنعت به هكذا، فكيف كان يحلّ بأعداء الله وبِعُصاته من خَلْقه وأهل خِزْيه، لو عُجِّلت لهم صحائفهم فنظروا إلى صورة تلك الخطايا التي عملوها على الكفر والجُحود، وماذا يَحُلُّ بهم إذا نظروا إليها

---

(١) وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/٢٩٧ من طريق صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم، به بنحوه.

(٢) لم نقف عليه.

في تلك الصحائف، وقد أخبر الله عنهم فقال: ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩]، فداود صلوات الله عليه مع المغفرة والبُشرى والعطف لم يقم لرؤية صورتها. وقد روينا في الحديث: إذا رآها يومَ القيامة منقوشةً في كفِّه قَلِقَ حتى يقال له: هاهنا، ثم يرى فيقلق، ثم يقال له: هاهنا، ثم يرى فيقلق، حتى يقرب فيسكن[1].

قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ﴾ أي: ملَّكناك لِتأمُرَ بالمعروف وتنهى عن المنكر، فتخلُفَ مَن كان قبلكَ من الأنبياء والأئمة الصالحين[2]. وقد مضى في «البقرة» القولُ في الخليفة وأحكامه مستوفى[3]، والحمد لله.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل. وهو أمرٌ على الوجوب وقد ارتبط هذا بما قبله، وذلك أن الذي عُوتب عليه داودُ طلبُه المرأةَ مِن زوجها وليس ذلك بعدل[4]. فقيل له بعد هذا: فاحكُمْ بين الناس بالعَدْل ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ أي: لا تَقْتدِ بهواك المُخالف لأمر الله ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: عن طريق الجنة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يَحيدون عنها ويتركونها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في النار ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ أي: بما تركوا من سلوك طريق الله؛ فقوله: «نَسُوا» أي: تركوا الإيمان به، أو تركوا العملَ به فصاروا كالنَّاسين. ثم قيل: هذا لداود لمَّا

---

(١) سلف قريباً بنحوه من قول مجاهد.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦١ .

(٣) ١/ ٣٩٥ وما بعدها.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٢٩ .

أكرمه الله بالنبوّة. وقيل: بعد أن تاب عليه وغَفَر خطيئته.

الثالثة: الأصل في الأقضية قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾، وقوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤٩]، وقوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ الآية [المائدة:٨]. وقد تقدَّم الكلامُ فيه.

الرابعة: قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال: إن ارتفع لك الخَصْمان فكان لك في أحدِهما هوىً، فلا تشتهِ في نفسك الحقَّ له لِيَفْلُجَ[1] على صاحبه، فإنْ فعلتَ محوتُ اسمك من نبوَّتي، ثم لا تكون خليفتي ولا أهلَ كرامتي[2].

فدلَّ هذا على بيان وجوب الحكم بالحقّ، وألّا يميلَ إلى أحد الخَصْمين لِقَرابةٍ أو رجاء نَفْع، أو سبب يقتضي المَيْل من صُحبة أو صداقة، أو غيرهما[3].

وقال ابن عباس: إنما ابتُلي سليمانُ بن داود عليهما السلام، لأنه تقدَّم إليه خَصْمان فَهَوِيَ أن يكون الحقُّ لأحدهما[4].

وقال عبد العزيز بن أبي روّاد: بلغني أن قاضياً كان في زمن بني إسرائيل بلغ من اجتهاده أن طلبَ إلى ربِّه أن يجعل بينه وبينه عَلَماً، إذا هو قضى بالحقّ عَرَفَ ذلك؛ وإذا هو قصَّر عَرَفَ ذلك، فقيل له: ادخل منزلك، ثم مُدَّ يدكَ في جدارك، ثم انظر حيث تبلغُ أصابعك من الجدار فاخطُطْ عندها خطّاً؛ فإذا أنت قمتَ من مجلس القضاء، فارجع إلى ذلك الخطّ فامدُدْ يدكَ إليه، فإنك متى ما كنتَ على الحقّ فإنك

(١) الفَلْج: الظَّفَر والفوز. القاموس (فلج).

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي كما في الدر المنثور ٥/ ٣٠٦ .

(٣) أحكام القرآن للكيا ٣/ ٣٦١ .

(٤) نوادر الأصول ص١٨٧ بنحوه.

ستبلغه، وإن قصَّرت عن الحق قصَّر بك، فكان يغدو إلى القضاء وهو مجتهد، فكان لا يقضي إلا بحقّ، وإذا قام من مَجْلسه وفرغَ لم يَذُقْ طعاماً ولا شراباً، ولم يُفْضِ إلى أهله بشيء من الأمور حتى يأتي ذلك الخطّ، فإذا بلغه حَمِدَ الله وأفضى إلى كلّ ما أحلَّ الله له من أهل أو مَطْعم أو مَشْرب. فلما كان ذاتَ يوم وهو في مجلس القضاء، أقبل إليه رجلان يُريدانه، فوقع في نفسه أنهما يُريدان أن يختصما إليه، وكان أحدُهما له صديقاً وخِدْناً، فتحرَّك قلبه عليه محبةَ أن يكون الحقُّ له فيقضيَ له، فلما أن تكلَّما دار الحقُّ على صاحبه فقضَى عليه، فلما قام من مَجْلسه ذهب إلى خطّه كما كان يذهب كلَّ يوم، فمدَّ يده إلى الخطّ فإذا الخطُّ قد ذهب وتشمَّر إلى السَّقف، وإذا هو لا يبلغه فخرَّ ساجداً وهو يقول: يا ربّ شيئاً لم أتعمَّدْه ولم أُرِده، فَبيِّنْه لي. فقيل له: أتحسبنَّ أن الله تعالى لم يطَّلع على خيانة قلبك، حيث أحببتَ أن يكون الحقُّ لِصديقك فتقضيَ[1] له به، قد أردته وأحببتَه، ولكن الله قد ردَّ الحقَّ إلى أهله وأنت كاره.

وعن ليث قال: تقدَّم إلى عمر بن الخطاب خَصْمان فأقامهما، ثم عادا فأقامهما، ثم عادا فَفَصَلَ بينهما، فقيل له في ذلك، فقال: تقدَّما إليَّ فَوَجَدتُ لأحدهما ما لم أجِدْ لصاحبه، فكَرِهتُ أن أفصل بينهما على ذلك، ثم عادا فَوَجَدتُ بعضَ ذلك له، ثم عادا وقد ذهب ذلك ففصلتُ بينهما[2].

وقال الشعبي: كان بين عمر وأُبَيٍّ خُصومةٌ، فتقاضيا إلى زيد بن ثابت، فلما دخلا عليه أشار لعمر إلى وسادته، فقال عمر: هذا أوَّلُ جَوْرك؛ أجلسني وإيَّاه مَجْلساً واحداً؛ فجلسا بين يديه[3].

الخامسة: هذه الآيةُ تمنعُ من حُكم الحاكم بعلمه؛ لأن الحُكَّام لو مُكِّنوا أن

(١) في (م): لتقضي.

(٢) ذكر هذا الخبر والذي قبله الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٣) أخرجه ابن شبّه في تاريخ المدينة المنورة ٢/ ٧٥٥ .

يحكموا بعلمهم، لم يشأ أحدُهم إذا أراد أن يحفظَ وليَّه ويُهْلِكَ عدوَّه إلا ادَّعى عِلْمَه فيما حكم به. ونحو ذلك رُوي عن جماعة من الصحابة منهم أبو بكر؛ قال: لو رأيتُ رجلاً على حدٍّ من حدود الله، ما أخذُته حتى يشهدَ على ذلك غيري[1].

وروي أن امرأةً جاءت إلى عمرَ فقالت له: احكُمْ لي على فلان بكذا، فإنك تعلمُ ما لي عنده. فقال لها: إنْ أردتِ أن أشهدَ لك فنعم، وأما الحُكم فلا[2]. وفي «صحيح» مسلم: عن ابن عباس: أن رسولَ الله ﷺ قضَى بيمين وشاهِد[3]. ورُوي عن النبي ﷺ أنه اشترى فرساً فجحده البائع، فلم يَحكُمْ عليه بعلمه وقال: «مَنْ يَشهَد لي» فقام خُزيمةُ فَشهِدَ فحكم. خرَّج الحديثَ أبو داود وغيره، وقد مضى في «البقرة»[4].

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ أي: هَزْلاً ولَعِباً. أي: ما خلقناهما إلا لأمرٍ صحيح، وهو الدلالة على قُدرتنا. ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: حُسبان الذين كفروا أن الله خَلَقَهما باطلاً.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ثم وبَّخهم فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والميم صِلة تقديره: أنجعلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٤٤ من قول الزهري عن أبي بكر ﷺ.

(٢) لم نقف عليه، وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ٦/٥٣٨ عن الضحاك قال: اختصم رجلان إلى عمر ابن الخطاب ادَّعيا شهادته، فقال لهما عمر: إن شئتما شَهدتُ ولم أقضِ بينكما، وإن شئتما قضيت ولم أشهد.

(٣) صحيح مسلم (١٧١٢)، وأخرجه أحمد (٢٢٢٤).

(٤) ٤/ ٤٦٢، والحديث أخرجه أحمد (٢١٨٨٣)، وأبو داود (٣٦٠٧).

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ فكان في هذا ردٌّ على المُرجئة؛ لأنهم يقولون: يجوز أن يكون المُفسد كالصالح أو أرفعَ درجةً منه. وبعده أيضاً: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أي: أنجعل أصحابَ محمد عليه الصلاة والسلام كالكفار؛ قاله ابن عباس. وقيل: هو عامٌّ في المسلمين المتقين والفُجَّار الكافرين، وهو أحسن، وهو ردٌّ على مُنكري البعث الذين جعلوا مصيرَ المُطيع والعاصي إلى شيء واحد[١].

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾ أي: هذا كتاب ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ يا محمد ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ أي: لِيتدبروا، فأُدغمت التاء في الدال. وفي هذا دليلٌ على وجوب معرفة معاني القرآن، ودليلٌ على أن الترتيلَ أفضلُ من الهَذِّ؛ إذ لا يَصِحُّ التدبُّر مع الهَذِّ[٢]، على ما بيَّناه في كتاب «التذكار». وقال الحسن: تدبُّر آيات الله اتّباعُها[٣].

وقراءة العامة: «لِيَدَّبَّرُوا». وقرأ أبو جعفر وشيبة: «لِتَدَبَّرُوا» بتاء وتخفيف الدال[٤]، وهي قراءة عليّ ﷺ[٥]، والأصلُ: لِتَتَدبَّروا، فحذف إحدى التاءين تخفيفاً.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أصحابُ العقول، واحدُها لُبٌّ، وقد جمع على أَلُبّ، كما جمع بُؤسٌ على أبؤس، ونُعْم على أَنْعُم؛ قال أبو طالب:

قلبي إليه مُشرِفُ الأَلُبِّ

وربما أظهروا التضعيف في ضرورة الشعر؛ قال الكُمَيت:

إليكم ذوِي آلِ النبيِّ تَطَلَّعَتْ نوازعُ من قلبي ظِماءٌ وَأَلْبُبُ[٦]

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٢ بنحوه دون قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٣ بنحوه. والهذّ: سرعة القراءة. القاموس (هذذ).

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٦٠ .

(٤) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٦١ .

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٠ .

(٦) لم نقف عليه في ديوانه، وهو في الصحاح (لبب). والكلام منه.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ لما ذكرَ داودَ ذكَرَ سليمان. و«أوَّابٌ» معناه مُطيع. ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ يعني الخيل، جمع جواد للفرس إذا كان شديدَ الحُضْر[١]؛ كما يقال للإنسان: جواد، إذا كان كثيرَ العَطِيَّة غزيرَها؛ يقال: قومٌ أجواد وخيلٌ جِياد[٢]، جاد الرجلِ بماله يجود جُوداً، فهو جواد، وقومٌ جُود مثال: قَذَال وقُذُل، وإنما سكنت الواو لأنها حرف عِلَّة، وأجواد وأجاوِد وجُوداء، وكذلك امرأةٌ جَوَاد، ونسوة جُود مثل: نَوارٍ ونُور، قال الشاعر:

صَنَاعٌ بإشْفاها حَصانٌ بِشَكْرِها ... جَوادٌ بِقُوتِ البَطْنِ والعِرْقُ زاخِرُ[٣]

وتقول: سِرنا عُقْبةً جَوَاداً، وعُقْبتين جَوَادين، وعُقَباً جِياداً. وجاد الفرس، أي: صار رائعاً يجود جُودة ـ بالضم ـ فهو جَواد للذَّكر والأُنثى، من خيلٍ جِياد وأجياد وأجاوِيد.

وقيل: إنها الطِّوال الأعناق، مأخوذٌ من الجِيد وهو العُنق؛ لأن طُولَ الأعناق [في] الخيل من صفات فَراهتها[٤].

وفي «الصَّافِنات» أيضاً وجهان: أحدهما أن صُفونها قيامُها. قال القتبي والفراء:

---

(١) الحُضر: ارتفاع الفرس في عَدْوه. القاموس (حضر).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٢ .

(٣) قائله أبو شهاب الهذلي، كما في الصحاح (جود) والكلام الذي قبله والذي بعده منه، وقوله: صَناع بإشفاها: قال ابن السكيت: امرأة صَناع: إذا كانت رقيقة اليدين تُسوِّي الأشافي وتَخرِزُ الدِّلاء وتفريها، وامرأة صَناع: حاذقة بالعمل. والإشفى: المِثْقَب. والشُّكْر: الفرج. وقوله: العرق زاخر: أي: تجود بقُوتها عند الجوع وهيجان الدم والطبائع. اللسان (صنع) و(شفي) و(شكر) و(جود).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٩٢ .

الصافن في كلام العرب الواقفُ من الخيل أو غيرها[١]. ومنه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ سرَّه أن يقومَ له الرجالُ صفوناً فَلْيتبَوَّأْ مَقْعَدَه من النار»[٢] أي: يُديمون له القيام؛ حكاه قُطرب أيضاً وأنشد قول النابغة:

لنا قُبَّةٌ مَضْروبةٌ بِفِنائِها عِتاقُ المَهارى والجِيَاد الصَّوَافن[٣]

وهذا قول قتادة. الثاني: أن صُفونها رَفْعُ إحدى اليدين على طرف الحافر حتى يقومَ على ثلاث؛ كما قال الشاعر:

أَلِفَ الصُّفونَ فما يَزَالُ كَأَنَّهُ مِمَّا يقومُ على الثَّلاثِ كَسِيرا[٤]

وقال عمرو بن كُلْثوم:

تَرَكْنا الخيلَ عاكِفَةً عليهِ مُقَلَّدَةً أعِنَّتَها صُفونا[٥]

وهذا قول مجاهد[٦]. قال الكلبي: غزا سليمانُ أهلَ دمشق ونَصِيبِين فأصابَ منهم ألفَ فرس. وقال مقاتل: وَرِثَ سليمانُ من أبيه داودَ ألفَ فرس، وكان أبوه أصابها من العمالقة. وقال الحسن: بلغني أنها كانت خيلاً خرجتْ من البحر لها أجنحة[٧]. وقاله الضحاك. وأنها كانت خيلاً أُخرجت لسليمان من البحر منقوشة ذاتَ أجنحة.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٠٥، وغريب القرآن للقتبي ص٣٧٩، وعبارة الفراء: وقد رأيت العرب تجعل الصافن القائمَ على ثلاث أو على غير ثلاث، وأشعارهم تدل على أنها القيام خاصة.

(٢) نقله المصنف بهذا اللفظ عن الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٩١، وما بعده منه. قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٤٢: لم أجده هكذا. اهـ وقال ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٣٥: هذا حديث موضوع. اهـ. وأخرج الترمذي (٢٧٥٥) من حديث معاوية ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سرَّه أن يَتمثَّل له الرجال قياماً فَلْيتبوَّأ مقعده من النار».

(٣) ليس في ديوانه المطبوع، ونسبه له الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٩١، وأبو حيان في البحر ٣٨٨/٧.

(٤) لم نقف على قائله، وهو في النكت والعيون ٥/ ٩٢، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٣٠.

(٥) معلقة عمرو بن كلثوم بشرح ابن كيسان ص٦٠.

(٦) تفسير مجاهد ٢/ ٥٤٩، وأخرج الطبري ٢٠/ ٨٢.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٦٠، ومجمع البيان ٢٣/ ١١٣.

ابن زيد: أخرج الشيطانُ لسليمان الخيل من البحر من مُروج البحر، وكانت لها أجنحة. وكذلك قال عليٌّ ﷺ: كانت عشرين فرساً ذواتِ أجنحة. وقيل: كانت مئة فرس. وفي الخبر عن إبراهيم التيمي: أنها كانت عشرين ألفاً[(١)]، فالله أعلم.

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ يعني بالخير الخيل، والعربُ تُسميها كذلك، وتُعاقِب بين الراء واللام؛ فتقول: انهملَتِ العين، وانهمرَتْ، وخَتلتُ وخَترتُ، إذا خَدَعْتَ[(٢)]. قال الفراء[(٣)]: الخيرُ في كلام العرب والخيلُ واحد. النحاس[(٤)]: في الحديث: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[(٥)] فكأنها سُمِّيت خيراً لهذا. وفي الحديث: لما وفد زيدُ الخيل على النبي ﷺ، قال له: «أنت زيدُ الخير»[(٦)] وهو زيدُ بن مُهَلهِل الشاعر.

وقيل: إنما سُمِّيت خيراً لما فيها من المنافع. وفي الخبر: إن الله تعالى عَرَضَ على آدم جميعَ الدوابِّ، وقيل له: اختر منها واحداً فاختار الفرس؛ فقيل له: اخترتَ عِزَّك؛ فصار اسمه الخير من هذا الوجه. وسُمِّي خيلاً؛ لأنها موسومةٌ بالعزّ. وسُمِّي فرساً لأنه يفترس مسافاتِ الجو افتراسَ الأسد وثباناً، ويقطعها كالالتهام بيديه على كل شيء خبطاً وتناولاً. وسمِّي عربيًّا لأنه جِيء به من بعد آدم لإسماعيل جزاءً عن رفع قواعد البيت، وإسماعيلُ عربيٌّ فصارت له نِحْلةً من الله؛ فسمِّي عربيًّا[(٧)].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٦٠، وزاد المسير ٧/ ١٢٨، ونسبا قول علي ﷺ لإبراهيم التيمي، وقولَ إبراهيم التيمي لعكرمة. قال أبو حيان في البحر ٧/ ٣٩٧: وقد اختلفوا في عدد هذه الخيل على أقوال متكاذبة سوَّدوا الورق بذكرها.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٦٠ بنحوه.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٥.

(٤) معاني القرآن ٦/ ١٠٩-١١٠، وقول الفراء الذي قبله منه.

(٥) أخرجه البخاري (٨٩٩)، ومسلم (٤٤٢)، وسلف ٣/ ٢٤١.

(٦) ذكره ابن حجر في الإصابة ٤/ ٦٨-٦٩، وذكر أن ابن شاهين رواه من طريق بشير مولى بني هاشم، وأخرجه ابن عدي في ترجمة بشير وضعَّفه. وسلف ٧/ ٢٩٨.

(٧) سلف ٥/ ٥١.

و«حُبَّ» مفعول في قول الفراء[١]. والمعنى: إني آثرتُ حُبَّ الخير. وغيره يُقدِّره مصدراً أُضيفَ إلى المفعول؛ أي: أحببت الخير حبًّا فألهاني عن ذِكْر ربي. وقيل: إن معنى «أَحْبَبْتُ» قعدتُ وتأخَّرتُ، من قولهم: أَحَبَّ البعيرُ، إذا برك وتأخَّر. وأحبَّ فلانٌ، أي: طأطأ رأسه. قال أبو زيد: يقال: بعير مُحِبٌّ، وقد أحبَّ إحباباً، وهو أن يُصيبه مرضٌ أو كَسْرٌ فلا يبرح مكانه حتى يبرأ أو يموت. وقال ثعلب: يقال أيضاً للبعير الحسير: مُحِبٌّ[٢]؛ فالمعنى: قعدتُ عن ذكر ربي. و«حُبَّ» على هذا مفعول له. وذكر أبو الفتح الهَمْداني في كتاب «التبيان»: أحببتُ بمعنى لَزِمت؛ من قوله:

مِثْلَ بعيرِ السَّوْءِ إذْ أَحَبَّا[٣]

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ يعني الشمس، كناية عن غير مذكور؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥] أي: على ظهر الأرض؛ وتقول العرب: هاجت باردةً، أي: هاجت الريحُ باردة. وقال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة:٨٣] أي: بلغت النفس الحلقوم. وقال تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات:٣٢] ولم يتقدَّم للنار ذِكْر. وقال الزجاج[٤]: إنما يجوز الإضمارُ إذا جرى ذِكْر الشيء أو دليلُ الذكر، وقد جرى هاهنا الدليل، وهو قوله: «بِالعَشِيِّ». والعشيُّ ما بعد الزوال، والتواري الاستتارُ عن الأبصار، والحِجاب جبلٌ أخضرُ محيطٌ بالخلائق؛ قاله قتادة وكعب. وقيل: هو جبلُ قاف. وقيل: جبلٌ دون قاف. والحجابُ الليلُ؛ سُمِّي حجاباً لأنه يستُر ما فيه[٥].

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٤٠٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٦٣ .

(٢) الصحاح (حبب).

(٣) الكشاف ٣/ ٣٧٣ . والرجز لأبي محمد الفقعسي كما في اللسان (حبب) وقبله: حُلْتُ عليه بالقفيل ضرباً. والقفيل: السوط.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٣١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٩٣ بنحوه، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٦٠ .

وقيل: «حتَّى تَوارَتْ» أي: الخيل في المسابقة. وذلك أن سليمانَ كان له ميدانٌ مستديرٌ يُسابق فيه بين الخيل، حتى توارى[١] عنه وتغيبَ عن عينه في المسابقة؛ لأن الشمس لم يَجْرِ لها ذِكْر.

وذكر النحاس أن سليمانَ عليه السلام كان في صلاة، فجيء إليه بخيل لِتُعرض عليه قد غُنمت فأشار بيده، لأنه كان يُصلِّي حتى توارت الخيل، وسترتها جُدر الاصطبلات، فلما فرغَ من صلاته قال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ أي: فأقبل يمسحها مسحاً. وفي معناه قولان: أحدُهما أنه أقبل يمسحُ سُوقَها وأعناقها بيده إكراماً منه لها، ولِيرى أن الجليلَ لا يقبحُ أن يفعل مثلَ هذا بخيله. وقال قائلُ هذا القول: كيف يقتلها؟ وفي ذلك إفسادُ المال ومعاقبةُ مَنْ لا ذنبَ له. وقيل: المَسْح هاهنا هو القَطْع، أُذِن له في قَتْلها[٢].

قال الحسن والكلبي ومقاتل: صلَّى سليمانُ الصلاةَ الأُولى وقعد على كرسيه وهي تُعرَض عليه، وكانت ألفَ فرس؛ فَعُرِضَ عليه منها تسع مئة فتنبَّه لصلاة العصر، فإذا الشمسُ قد غربت وفاتت الصلاة، ولم يُعلَم بذلك هيبةً له، فاغتمَّ فقال: «رُدُّوها عليَّ» فَرُدَّت، فعقرها بالسيف قُربةً لله وبقي منها مئة، فما في أيدي الناس من الخيل العِتاق اليوم فهي من نَسْل تلك الخيل[٣].

وقال القشيري: وقيل: ما كان في ذلك الوقت صلاةُ الظهر ولا صلاة العصر، بل كانت الصلاة نافلةً فَشُغِلَ عنها. وكان سليمانُ عليه السلام رجلاً مَهِيباً، فلم يُذكِّره أحدٌ ما نسي من الفرض أو النفل، وظنُّوا التأخُّر مباحاً[٤]، فتذكَّر سليمانُ تلك الصلاةَ الفائتة، وقال على سبيل التلهُّف: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ أي: عن الصلاة، وأمر بردِّ الأفراس إليه، وأمر بضرب عَراقيبها وأعناقها، ولم يكن ذلك

(١) في (م): توارت.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٣ .

(٣) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٤ : وهذا بعيد. وينظر النكت والعيون ٥/ ٩٤ .

(٤) زاد المسير ٧/ ١٢٩ بنحوه.

معاقبةً للأفراس؛ إذْ ذَبْح البهائم جائزٌ إذا كانت مأكولةً، بل عاقب نَفْسَه حتى لا تَشْغَلَه الخيلُ بعد ذلك عن الصلاة(١). ولعله عَرْقَبها لِيذبحها فحبسها بالعرقبة عن النِّفار، ثم ذبحها في الحال لِيتصدَّق بلحمها؛ أو لأن ذلك كان مباحاً في شرعه فأتلفها لمَّا شغلته عن ذكر الله، حتى يقطع عن نفسه ما يشغله عن الله، فأثنى اللهُ عليه بهذا، وبيَّن أنه أثابه بأن سخَّرَ له الريح، فكان يقطع عليها من المسافة في يومٍ ما يقطع مثلَه على الخيل في شهرين غُدوًّا ورَواحاً(٢).

وقد قيل: إن الهاء في قوله: «رُدُّوها عليَّ» للشمس لا للخيل. قال ابن عباس: سألت عليًّا عن هذه الآية فقال: ما بلغك فيها؟ فقلت: سمعتُ كعباً يقول: إن سليمان لما اشتغل بعرض الأفراس حتى توارت الشمسُ بالحجاب وفاتته الصلاةُ، قال: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ أي: آثرتُ حُبَّ الخير عن ذِكْرِ رَبِّي، الآية ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ يعني الأفراس، وكانت أربعَ عشرةَ؛ فضرب سُوقَها وأعناقَها بالسيف، وأن الله سلبه مُلكه أربعةَ عشرَ يوماً؛ لأنه ظلم الخيل. فقال علي بن أبي طالب: كذب كعب؛ لكن سليمان اشتغل بعرض الأفراس للجهاد حتى توارت؛ أي: غربت الشمسُ بالحجاب؛ فقال بأمر الله للملائكة المُوكَّلين بالشمس: «رُدُّوها» يعني الشمس، فَرَدُّوها حتى صلَّى العصر في وقتها، وأن أنبياءَ الله لا يَظْلِمون؛ لأنهم معصومون(٣).

قلت: الأكثر في التفسير أن التي توارت بالحجاب هي الشمس، وتركها لِدَلالة السامع عليها بما ذُكر مما يرتبط بها ويتعلَّق بذِكْرها، حسب ما تقدَّم بيانه. وكثيراً ما يُضمرون الشمس؛ قال لبيد:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٩٤ بنحوه.

(٢) زاد المسير ٧/ ١٣٢ بنحوه.

(٣) مجمع البيان ٢٣/ ١١٣ . قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٢٢٢ : أورد هذا الأثر جماعة ساكتين عليه جازمين بقولهم: «قال ابن عباس: قلت لعلي» وهذا لا يثبت عن ابن عباس ولا عن غيره، والثابت عن جمهور أهل العلم بالتفسير من الصحابة ومن بعدهم أن الضمير المؤنث في قوله: «ردوها» للخيل، والله أعلم.

حتّى إذا أَلْقَتْ يَداً في كافِرٍ وأجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغورِ ظَلاَمُها[١]

والهاء في «رُدُّوها» للخيل. ومَسْحُها؛ قال الزهري وابن كيسان: كان يمسح سُوقَها وأعناقَها، ويكشف الغبارَ عنها حُبًّا لها[٢]. وقاله الحسن وقتادة وابن عباس[٣].

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ رُئِيَ وهو يمسحُ فرسَه بردائه. وقال: «إني عُوتبتُ الليلةَ في الخيل»، خرّجه «الموطأ» عن يحيى بن سعيد مُرسلاً[٤]. وهو في غير «الموطأ» مسندٌ متصلٌ عن مالك عن يحيى بن سعيد عن أنس[٥]. وقد مضى في «الأنفال» قوله عليه الصلاة والسلام: «وامسحوا بنواصيها وأكْفالها»[٦].

وروى ابن وهب عن مالك أنه مسحَ أعناقَها وسُوقها بالسيوف[٧].

قلت: وقد استدلَّ الشِّبلي وغيره من الصوفية في تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا. وهو استدلالٌ فاسد؛ لأنه لا يجوز أن يُنسب إلى نبيٍّ معصوم أن فَعَل الفساد. والمفسرون اختلفوا في معنى الآية؛ فمنهم من قال: مسحَ على أعناقها وسُوقها إكراماً لها وقال: أنتِ في سبيل الله؛ فهذا إصلاح. ومنهم من قال: عَرْقبها ثم ذبحها، وذَبْحُ الخيل وأكلُ لحمها جائز. وقد مضى في «النحل» بيانه[٨]. وعلى هذا فما فَعَل شيئاً عليه فيه جُناح.

---

(١) ديوان لبيد ص٣١٦. قال شارحه: كافر: ليل ساتر. عورات الثغور: مواضع المخافة منها.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٦١.

(٣) أخرج أقوالهم الطبري ٢٠/ ٨٦-٨٧، لكن قول الحسن وقتادة عنده وفي تفسير البغوي ٤/ ٦١، والنكت والعيون ٥/ ٩٣ أنه عقرها وضرب سوقها وأعناقها.

(٤) الموطأ ١/ ٤٦٨.

(٥) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ١٠٠. وقال: وقد رُوي عن مالك مسنداً عن يحيى بن سعيد عن أنس، ولا يصح.

(٦) ١٠/ ٥٨، والحديث أخرجه أحمد (١٩٠٣٢) وهو ضعيف.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٣٦.

(٨) ١٢/ ٢٨١ وما بعدها.

فأما إفسادُ ثوب صحيح لا لغرض صحيح فإنه لا يجوز. ومن الجائز أن يكون في شريعة سليمان جوازُ ما فعل، ولا يكون في شرعنا.

وقد قيل: إنما فعل بالخيل ما فعل بإباحة الله جلّ وعزّ له ذلك. وقد قيل: إنَّ مَسْحه إيّاها: وَسَمَها بالكَيِّ وجَعَلَها في سبيل الله؛ فالله أعلم. وقد ضُعِّف هذا القول من حيث إن السُّوق ليست بمحلٍّ للوسم بحال[1].

وقد يقال للكيِّ على الساق: عِلاطٌ، وعلى العُنق وِثاق. والذي في «الصحاح» للجوهري[2]: عَلَط البعيرَ عَلْطاً، كواه في عُنقه بسمة العِلاَط. والعِلاطان جانبا العُنق.

قلت: ومَن قال: إن الهاء في «رُدُّوها» ترجع للشمس، فذلك من معجزاته. وقد اتَّفق مثلُ ذلك لنبينا ﷺ؛ خرَّج الطحاوي في «مشكل الحديث» عن أسماء بنت عُمَيْس من طريقين أن النبي ﷺ كان يُوحَى إليه ورأسه في حِجْر عليّ، فلم يُصَلِّ العصر حتى غربت الشمس؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «أصليتَ يا علي» قال: لا. فقال رسولُ الله ﷺ: «اللهمَّ إنه كان في طاعتك وطاعةِ رسولك فارْدُدْ عليه الشمس» قالت أسماء: فرأيتُها غربَتْ، ثم رأيتها بعد ما غربَتْ طلعَتْ على الجبال والأرض، وذلك بالصَّهْباء في خيبر. قال الطحاوي: وهذان الحديثان ثابتان، ورواتُهما ثِقات[3].

قلت: وضعَّف أبو الفرج ابن الجوزي هذا الحديث[4] فقال: وغلوُّ الرافضة في حُبِّ عليٍّ عليه السلام حملهم على أن وضعوا أحاديثَ كثيرةً في فضائله؛ منها أن

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٣٧ .

(٢) الصحاح (علط).

(٣) شرح مشكل الآثار (١٠٦٧) و(١٠٦٨)، وليس فيه قول الطحاوي: وهذان الحديثان ثابتان، ونقله المصنف عن الطحاوي بواسطة القاضي عياض في الشفا ١/٥٤٨-٥٤٩ وينظر التعليق التالي.

(٤) الموضوعات لابن الجوزي ١/٢٦٦ ، وقال: هذا حديث موضوع بلا شك... ونقل ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/٣٧٩ عن الذهبي في تلخيص الموضوعات أن أسانيد هذا الحديث ساقطة ليست بصحيحة. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/٢٢٢ : وقد أخطأ ابن الجوزي بإيراده له في «الموضوعات» وكذا ابن تيمية في كتاب «الرد على الروافض» في زعم وضعه، والله أعلم.

الشمسَ غابت ففاتَتْ علياً عليه السلام العصر فَرُدَّت له الشمس، وهذا من حيث النقلُ محال، ومن حيث المعنى، فإن الوقتَ قد فات وعَوْدُها طلوعٌ مُتجدِّد لا يردُّ الوقت.

ومن قال: إن الهاء ترجِعُ إلى الخيل، وأنها كانت تبعدُ عن عين سليمان في السباق، ففيه دليلٌ على المسابقة بالخيل، وهو أمرٌ مشروع. وقد مضى القولُ فيه في «يوسف»[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ قيل: فُتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنة عشرين سنة؛ ذكر الزمخشري[٢].

و«فَتَنَّا» أي: ابتلينا وعاقبنا. وسببُ ذلك ما رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: اختصم إلى سليمان عليه السلام فريقان؛ أحدُهما من أهل جرادة امرأة سليمان؛ وكان يُحبها، فهوى أن يقع القضاءُ لهم، ثم قضى بينهما بالحق، فأصابه الذي أصابه عقوبةً لذلك الهوى.

وقال سعيد بن المسيَّب: إن سليمان عليه السلام احتجب عن الناس ثلاثةَ أيام لا يقضي بين أحد، ولا يُنصف مظلوماً من ظالم؛ فأوحى الله تعالى إليه: إني لم أستخلفك لِتحتجبَ عن عبادي، ولكن لِتقضيَ بينهم وتُنصف مظلومَهم[٣].

---

(١) ١١/ ٢٨١ وما بعدها.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٣٤ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٩٤-٩٥ .

وقال شَهْر بن حَوْشَب ووهب بن مُنبِّه: إن سليمانَ عليه السلام سبى بنتَ ملكٍ غَزاهُ في البحر، في جزيرة من جزائر البحر يقال لها: صيدون. فأُلقيت عليه محبتُها وهي تُعرض عنه، لا تنظر إليه إلا شَزْراً، ولا تُكلمه إلا نَزْراً، وكان لا يرقأُ لها دمعٌ حزناً على أبيها، وكانت في غايةٍ من الجمال، ثم إنها سألته أن يصنعَ لها تِمثالاً على صورة أبيها حتى تنظرَ إليه، فأمر فَصُنِعَ لها، فعظَّمته وسجدَتْ له، وسجدت معها جواريها، وصار صنماً معبوداً في داره وهو لا يعلم، حتى مضت أربعون ليلة، وفشى خبره في بني إسرائيل، وعلم به سليمانُ فكسره، وحرقه ثم ذراه في البحر[1].

وقيل: إن سليمانَ لما أصاب ابنةَ ملك صيدون ـ واسمها جرادة، فيما ذكر الزمخشري[2] ـ أُعجب بها، فعرض عليها الإسلام فأبَتْ، فخوَّفها فقالت: اقتلني ولا أسلم، فتزوَّجها وهي مُشركة، فكانت تعبدُ صنماً لها من ياقوت أربعين يوماً في خُفية من سليمان؛ إلى أن أسلمتْ، فَعُوقِبَ سليمانُ بزوال مُلكه أربعين يوماً[3].

وقال كعب الأحبار: إنه لمَّا ظلم الخيل بالقتل سُلب مُلكه.

وقال الحسن: إنه قارب بعضَ نسائه في شيء من حيض أو غيره[4]. وقيل: إنه أُمِرَ ألاّ يتزوَّج امرأة إلا من بني إسرائيل، فتزوَّج امرأةً من غيرهم، فَعُوقب على ذلك؛ والله أعلم[5].

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ قيل: شيطان في قول أكثرِ أهل التفسير؛ ألقى اللهُ شبهَ سليمان عليه السلام عليه، واسمه صخر بن عمير صاحب البحر، وهو

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٩٥، وتفسير البغوي ٤/ ٦١.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٧٤.

(٣) عرائس المجالس ص٣٢٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٩٤.

(٥) عرائس المجالس ص٣٢٧. وهذه الأخبار من الإسرائيليات، وينظر ما سنذكره من الردّ عليها في آخر القصة.

الذي دلَّ سليمان على الماس حين أمر سليمان ببناء بيت المقدس[١]، فصوتت الحجارة لمَّا صُنعت بالحديد، فأخذوا الماس فجعلوا يقطعون به الحجارة والفصوص وغيرها ولا تصوت.

قال ابن عباس: كان مارداً لا يقوى عليه جميع الشياطين، ولم يزل يحتال حتى ظَفِرَ بخاتم سليمان بن داود، وكان سليمان لا يدخل الكَنيف بخاتمه، فجاء صخر في صورة سليمان حتى أخذ الخاتم من امرأةٍ من نساء سليمان أمِّ ولدٍ له يقال لها: الأمينة؛ قاله شَهْرٌ ووهب.

وقال ابن عباس وابن جبير: اسمها جرادة. فقام أربعين يوماً على مُلك سليمانَ وسليمانُ هارب، حتى ردَّ الله عليه الخاتم والمُلْك.

وقال سعيد بن المسيَّب: كان سليمان قد وضع خاتمه تحت فراشه، فأخذه الشيطان من تحته. وقال مجاهد: أخذه الشيطان من يدِ سليمان؛ لأن سليمان سأل الشيطان ـ وكان أسمه آصف ـ: كيف تُضِلُّون الناس؟ فقال له الشيطان: أعطني خاتمك حتى أُخبرك. فأعطاه خاتمه، فلما أخذ الشيطانُ الخاتم جلس على كرسيِّ سليمان، مُتَشبِّهاً بصورته، داخلاً عل نسائه، يقضي بغير الحقّ، ويأمر بغير الصواب.

واختلف في إصابته لنساء سليمان، فَحُكي عن ابن عباس ووهب بن منبّه: أنه كان يأتيهنّ في حيضهنّ[٢]. وقال مجاهد: مُنِعَ من إتيانهنَّ. وزال عن سليمانَ مُلكه، فخرج هارباً إلى ساحل البحر يتضيَّف الناس؛ ويحمل سموكَ الصيادين بالأجر، وإذا أخبر الناسَ أنه سليمان أكذبوه. قال قتادة[٣]: ثم إن سليمانَ بعد أن استنكر بنو إسرائيل حُكم الشيطان أخذ حُوتة من صياد. قيل: إنه استطعمها. وقال ابن عباس: أخذها أُجرةً في حمل حوت. وقيل: إن سليمان صادها، فلما شقَّ بطنها وجد خاتمه فيها،

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٤.

(٢) هذا من أقبح الإسرائيليات التي ذُكرت في قصة سيدنا سليمان عليه السلام، كما ذكر الألوسي في روح المعاني ٢٣/١٩٩، وقال: الله أكبر، هذا بهتان عظيم، وخطب جسيم.

(٣) كذا في (ز) و(ظ) و(م)، وفي (د): قاله قتادة، غير أن سياق الكلام في النكت والعيون ٥/ ٩٦-٩٧ (وعنه نقل المصنف) لا يدل أنه من كلام قتادة.

وذلك بعد أربعين يوماً من زوال مُلكه: وهي عدد الأيام التي عُبِدَ الصنم في داره، وإنما وجد الخاتم في بطن الحوت؛ لأن الشيطانَ الذي أخذه ألقاه في البحر[١].

وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: بينما سليمان على شاطئ البحر وهو يَعبثُ بخاتمه، إذ سقط منه في البحر، وكان مُلكه في خاتمه[٢].

وقال جابر بن عبد الله: قال النبي ﷺ: «كان نقشُ خاتم سليمان بن داود: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله»[٣].

وحكى يحيى بن أبي عمرو السيباني[٤] أن سليمان وجد خاتمه بِعَسْقَلان، فمشى منها إلى بيت المقدس تواضعاً لله تعالى. قال ابن عباس وغيره: ثم إن سليمان لما ردَّ الله عليه مُلكه، أخذ صخراً الذي أخذ خاتمه، ونقر له صخرةً وأدخله فيها، وسدَّ عليه بأخرى وأوثقها بالحديد والرصاص، وختم عليها بخاتمه وألقاها في البحر؛ وقال: هذا مَحْبِسُكَ إلى يوم القيامة[٥].

وقال علي ﷺ: لما أخذ سليمانُ الخاتم، أقبلتْ إليه الشياطين والجن والإنس والطير والوحش والريح، وهرب الشيطانُ الذي خلف في أهله، فأتى جزيرةً في البحر، فبعث إليه الشياطينُ فقالوا: لا نقدر عليه، ولكنه يَرِد علينا في الجزيرة في كل سبعة أيام يوماً، ولا نقدِرُ عليه حتى يسكر. قال: فنزح سليمان ماءها، وجعل فيها خمراً، فجاء يومَ وُروده فإذا هو بالخمر، فقال: والله، إنك لشرابٌ طَيِّب إلا أنكِ

---

(١) النكت والعيون ٥/٩٦-٩٧ ، وهذه الأخبار من الإسرائيليات، وينظر ما سنذكره من الرد عليها آخر القصة.

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/٣١٦ .

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/١٣٦٨ ، وفي إسناده شيخ بن أبي خالد، قال ابن عدي: أحاديثه مناكير. وقال الذهبي في الميزان ٢/ ٢٨٦ : متهم بالوضع، وذكر هذا الحديث وعدَّه من أباطيله.

(٤) في النسخ: الشيباني، وهو خطأ، والمثبت من تقريب التهذيب والأنساب ٧/ ٢١٤ قال الحافظ ابن حجر: وهو أبو زرعة الحمصي، ثقة، روايته عن الصحابة مرسلة، مات سنة (١٤٨هـ) أو بعدها.

(٥) النكت والعيون ٥/٩٨ .

تُطيشين الحليم، وتُزيدين الجاهل جهلاً. ثم عَطِشَ عطشاً شديداً، ثم أتاها[١] فقال مثلَ مَقَالته، ثم شربها، فغلبت على عقله؛ فأرَوه الخاتم فقال: سمعاً وطاعة. فأتَوا به سليمانَ فأوثقه وبعث به إلى جبل، فذكروا أنه جبل الدخان، فقالوا: إنَّ الدخان الذي ترون من نَفَسه، والماء الذي يخرج من الجبل من بَوْله[٢].

وقال مجاهد: اسم ذلك الشيطان آصف. وقال السُّدي: اسمه حبقيق؛ فالله أعلم[٣].

وقد ضُعِّفَ هذا القول من حيث إن الشيطان لا يَتصوَّر بصورة الأنبياء، ثم من المُحال أن يلتبس على أهل مملكة سليمان الشيطانُ بسليمان حتى يظنُّوا أنهم مع نبيهم في حقّ، وهم مع الشيطان في باطل.

وقيل: إن الجسد وَلَدٌ وُلِدَ لسليمان، وأنه لما وُلد اجتمعت الشياطين؛ وقال بعضهم لبعض: إنْ عاش له ابن لم ننفكَّ مما نحن فيه من البلاء والسُّخرة، فتعالَوا نقتل ولده أو نُخبِّله. فعلم سليمانُ بذلك فأمر الريحَ حتى حملته إلى السَّحاب، وغدا ابنه في السحاب خوفاً من مَضرَّة الشياطين، فعاقبه الله بخوفه من الشياطين، فلم يشعر إلا وقد وقع على كرسيه ميتاً. قال معناه الشعبي. فهو الجسد الذي قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾[٤].

وحكى النقاش وغيره: إنَّ أكثر ما وَطِئ سليمان جواريه طلباً للولد، فَوُلد له نصفُ إنسان، فهو كان الجسد المُلقى على كرسيه جاءت به القابلة فألقته هناك[٥].

---

(١) في (م): أتاه.

(٢) هذا الكلام لا يُعوَّل عليه، ولا يخفى على القارئ بطلانه.

(٣) النكت والعيون ٥/٩٧، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٠/٨٩، والمشهور أن آصف اسم الرجل الذي عنده علم من الكتاب. كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/٤٥٩.

(٤) عرائس المجالس ص٣٢٧-٣٢٨.

(٥) النكت والعيون ٥/٩٦. والعبارة فيه: إنه أكثر من وطء جواريه طلباً للولد... وسلف قريباً أن أكثر =

وفي «صحيح» البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قال سليمانُ: لأَطُوفنَّ الليلةَ على تسعين امرأةً كلُّهن تأتي بفارس يُجاهد في سبيل الله؛ فقال له صاحبه: قل: إن شاء الله، فلم يَقُلْ: إنْ شاء الله، فطاف عليهنَّ جميعاً، فلم تحمل منهنَّ إلا امرأةٌ واحدةٌ جاءتْ بشِقِّ رجل، وايمُ الذي نفسُ محمد بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»[1].

وقيل: إن الجسد هو آصف بن برخيا الصدّيق كاتب سليمان، وذلك أن سليمان لما فُتِنَ سقط الخاتم من يده وكان فيه مُلكه، فأعاده إلى يده فسقط، فأيقن بالفتنة؛ فقال له آصف: إنك مفتون، ولذلك لا يتماسك في يدك، فَفِرَّ إلى الله تعالى تائباً من ذلك، وأنا أقومُ مقامك في عالمك إلى أن يتوب اللهُ عليك، ولك من حين فُتنت أربعةَ عشرَ يوماً. فَفرَّ سليمانُ هارباً إلى ربه، وأخذ آصف الخاتم فوضعه في يده فثبت، وكان عنده علمٌ من الكتاب. وقام آصفُ في ملك سليمان وعياله، يسير بسيره ويعمل بعمله، إلى أن رَجَعَ سليمان إلى منزله تائباً إلى الله تعالى، وردَّ الله عليه مُلكه؛ فأقام آصفُ في مَجْلسه، وجلس على كرسيه وأخذ الخاتم[2].

وقيل: إنَّ الجسد كان سليمانَ نَفْسَه؛ وذلك أنه مرض مرضاً شديداً حتى صار جسداً. وقد يُوصف به المريض المُضنى، فيقال: كالجسد المُلقى[3].

= المفسرين قالوا: الجسد الملقى شيطان، قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٤٦١ : وهو المعتمد، والنقاش صاحب مناكير.

(١) صحيح البخاري (٦٦٣٩)، وصحيح مسلم (١٦٥٤)، وسلف ١٨/ ١٦٦ .

(٢) عرائس المجالس ص٣٢٧ .

(٣) هذه القصص التي ذكرها المفسرون في قصة سيدنا سليمان عليه السلام كلها من الإسرائيليات فيما قاله الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ٦٨-٦٩ وقد ذكر الكثير منها، وقال فيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس ـ إن صح عنه ـ من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه السلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه، ولهذا كان في السياق منكرات أشدُّها ذكر النساء.. وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف.. وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب.

وذكر أبو حيان في البحر ٧/ ٣٩٧ أنها من وضع اليهود والزنادقة، وأنه لا يحل نقلها، ويجب براءة =

صفة كرسيّ سليمان ومُلكه

روي عن ابن عباس قال: كان سليمانُ يُوضع له ستُّ مئة كرسيّ، ثم يجيء أشراف الناس فيجلسون مما يَليه، ثم يأتي أشرافُ الجن فيجلسون مما يلي الإنس، ثم يدعو الطير فَتُظِلُّهم، ثم يدعو الريح فَتُقِلُّهم، وتسير بالغَداة الواحدة مسيرة شهر[1].

وقال وهب وكعب وغيرهما: إن سليمان عليه السلام لما مَلَك بعد أبيه، أمر باتِّخاذ كرسيٍّ لِيجلسَ عليه للقضاء، وأمر أن يُعمل بَديعاً مَهولاً بحيث إذا رآه مُبطِلٌ أو شاهدُ زور ارتدع وتهيَّب؛ فأمر أن يُعمل من أنياب الفيلة مُفصَّصة بالدُّرِّ والياقوت والزبرجد، وأن يُحَفَّ بنخيل الذهب؛ فَحُفَّ بأربع نَخَلات من ذهب، شماريخها الياقوت الأحمر والزُّمُرُّد الأخضر، على رأس نخلتين منهما طاووسان من ذهب، وعلى رأس نخلتين نسران من ذهب بعضها مقابلٌ لبعض، وجعلوا من جنبي الكرسيّ أسدين من ذهب، على رأس كل واحد منهما عمودٌ من الزُّمُرُّد الأخضر. وقد عقدوا على النخلات أشجارَ كروم من الذهب الأحمر؛ واتخذوا عناقيدَها من الياقوت الأحمر، بحيث أظلَّ عريش الكروم النخلَ والكرسي.

وكان سليمان عليه السلام إذا أراد صُعودَه وضع قدميه على الدرجة السُّفلى، فيستدير الكرسيّ كلُّه بما فيه دورانَ الرَّحى المُسرعة، وتنشر تلك النُّسور والطواويس أجنحتَها، ويبسط الأسدان أيديَهما، ويضربان الأرض بأذنابهما. وكذلك يُفعل في كل درجة يَصْعَدها سليمان، فإذا استوى بأعلاه أخذ النَّسران اللذان على النخلتين تاجَ سليمان فوضعاه على رأسه، ثم يستدير الكرسي بما فيه، ويدور معه النَّسران

= الأنبياء منها، وقال: لم يُبيِّن الله الفتنة ما هي ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان، ويستحيل عقلاً وجود بعض ما ذكروه، كتمثل الشيطان بصورة نبي حتى يلتبس أمره عند الناس، ويعتقدون أن ذلك المتصور هو النبي، ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبي، وإنما هذه مقالة مسترقة من زنادقة السوفسطائية، نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها. قال الدكتور أبو شهبة في كتابه الإسرائيليات في التفسير ص٢٧٤ : وأيُّ مُلك أو نبوة يتوقف أمرهما على خاتم يدومان بدوامه، ويزولان بزواله.. وإذا كان خاتم سليمان عليه السلام بهذه المثابة، فكيف يُغفِل الله شأنَه في كتابه الشاهد على الكتب السماوية؟!!..

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/٥٣٦ ، وفيه: ست مئة ألف كرسي.

والطاووسان والأسدان، مائلان برؤوسهما إلى سليمان، وينضحن عليه من أجوافهن المِسْك والعنبر، ثم تُناوله حمامةٌ من ذهب قائمةٌ على عمود من أعمدة الجواهر فوق الكرسي التوراة، فيفتحها سليمان عليه السلام ويقرؤُها على الناس ويدعوهم إلى فَصْل القضاء.

قالوا: ويجلس عظماءُ بني إسرائيل على كراسي الذهب المُفصَّصة بالجواهر، وهي ألفُ كرسيّ عن يمينه، ويجلس عظماءُ الجن على كراسي الفضة عن يساره، وهي ألفُ كرسيّ، ثم تحفُّ بهم الطير تُظِلُّهم، ويتقدَّم الناسُ لفصل القضاء. فإذا تقدَّمت الشهود للشهادات، دار الكرسيّ بما فيه وعليه دورانَ الرَّحى المُسرعة، ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما، وينشر النَّسران والطاووسان أجنحتهما، فتفزع الشهود فلا يشهدون إلا بالحق.

وقيل: إن الذي كان يدور بذلك الكرسيّ تِنِّين من ذهب، ذلك الكرسيُّ عليه، وهو عظيم مما عمله له صخر الجنيّ؛ فإذا أحسَّتْ بدورانه تلك النسور والأسد والطواويس التي في أسفل الكرسيّ إلى أعلاه دُرْن معه، فإذا وقفن وقَفْن كلُّهن على رأس سليمان وهو جالس، ثم ينضحن جميعاً على رأسه ما في أجوافهنّ من المسك والعنبر. فلما توفي سليمانُ بعث بُختَنصَّر فأخذ الكرسيّ، فحمله إلى أنطاكية، فأراد أن يصعدَ إليه، ولم يكن له علم كيف يصعد إليه؛ فلما وضع رِجْلَه ضرب الأسدُ رِجْلَه فكسرها، وكان سليمان إذا صَعِدَ وضع قدميه جميعاً. ومات بُخْتَنصَّر، وحُمل الكرسيّ إلى بيت المقدس، فلم يستطع قطّ مَلِكٌ أن يجلسَ عليه، ولكن لم يدرِ أحدٌ عاقبة أمره، ولعله رُفع[1].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رَجَعَ إلى الله وتاب. وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ أي: اغفِرْ لي ذنبي ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره ٧/ ٦٩-٧٠ وعزاه لابن أبي حاتم، وقال: هو غريب جداً.

﴿مِنْ بَعْدِىٓ﴾ يقال: كيف أقدم سليمانُ على طلب الدنيا، مع ذمِّها من الله تعالى، وبُغضه لها، وحقارتها لديه؟. فالجواب أن ذلك محمولٌ عند العلماء على أداء حقوق الله تعالى وسياسةِ مُلْكه[1]، وترتيب منازل خَلْقه، وإقامةِ حدوده، والمحافظة على رسومه، وتعظيم شعائره، وظُهور عبادته، ولُزوم طاعته، ونَظْم قانون الحُكم النافذ عليهم منه، وتحقيق الوعود في أنه يعلم ما لا يعلم أحدٌ من خلقه حَسَبَ ما صرَّح بذلك لملائكته فقال: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وحُوشي سليمان عليه السلام أن يكون سؤاله طلباً لنفس الدنيا؛ لأنه هو والأنبياء أزهدُ خلق الله فيها، وإنما سأل مملكتها لله، كما سأل نوحٌ دمارَها وهلاكَها لله؛ فكانا محمودين مُجابين إلى ذلك، فأُجيب نوحٌ فأُهْلِكَ من عليها، وأُعطي سليمان المملكة.

وقد قيل: إن ذلك كان بأمرٍ من الله جلّ وعزّ على الصِّفة التي علم الله أنه لا يضبطه إلا هو وحده دون سائر عباده، أو أراد أن يقول: مُلكاً عظيماً فقال: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾[2]، وهذا فيه نظر. والأوّل أصح.

ثم قال له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، قال الحسن: ما من أحد إلا ولله عليه تبعةٌ في نِعَمِهِ غيرَ سليمان بن داود عليه السلام، فإنه قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ الآية[3].

قلت: وهذا يردُّ ما روي في الخبر: إنَّ آخرَ الأنبياء دخولاً[4] الجنةَ سليمانُ بن داود عليه السلام لمكان مُلكه في الدنيا. وفي بعض الأخبار: يدخل الجنةَ بعد الأنبياء بأربعين خريفاً؛ ذكره صاحب «القوت» وهو حديث لا أصل له؛ لأنه سبحانه إذا كان عطاؤه لا تبعةَ فيه؛ لأنه من طريق المِنَّة، فكيف يكون آخرَ الأنبياء دخولاً الجنة، وهو

(١) الكلام بمعناه في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٣٧ .

(٢) الكشاف ٣/ ٣٧٥ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٠٠ .

(٤) في (م): دخول.

سبحانه يقول: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾. وفي الصحيح: «لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابة، فتعجَّلَ كلُّ نبيٍّ دعوته» الحديث[١]، وقد تقدَّم، فجعلَ له من قَبْلِ السؤال حاجةً مقْضيَّةً، فلذلك لم تكن عليه تَبِعة.

ومعنى قوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ أي: أن يسأله. فكأنه سأل منعَ السؤال بعده، حتى لا يتعلَّق به أملُ أحد، ولم يسأل منع الإجابة. وقيل: إنَّ سُؤالَه مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده؛ ليكون محلَّه وكرامته من الله ظاهراً في خلق السماوات والأرض؛ فإن الأنبياء عليهم السلام لهم تنافُسٌ في المحلّ عنده، فكلٌّ يُحِبُّ أن تكون له خُصوصيةٌ يستدلُّ بها على محلِّه عنده، ولهذا لما أخذ النبيُّ ﷺ العِفْريت الذي أراد أن يقطعَ عليه صلاته وأمكنه اللهُ منه، أراد رَبْطه، ثم تذكَّر قولَ أخيه سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ فردَّه خاسِئاً[٢].

فلو أُعطي أحدٌ بعدَه مِثْلَه ذهبت الخُصوصية، فكأنه كَرِهَ ﷺ أن يُزاحمه في تلك الخُصوصية، بعد أن عَلِمَ أنه شيء هو الذي خُصَّ به من سخرة الشياطين، وأنه أُجيب إلى ألا يكون لأحدٍ بعده. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً﴾ أي: لَيِّنة مع قوَّتها وشِدَّتها حتى لا تضرَّ بأحد، وتحمله بعسكره وجنوده وموكبه. وكان موكبه فيما رُوي فرسخاً في فرسخ، مئة درجة بعضُها فوق بعض، كلُّ درجة صنفٌ من الناس، وهو في أعلى درجة مع جواريه وحَشَمه وخَدَمه؛ صلوات الله وسلامه عليه.

وذكر أبو نعيم الحافظ قال: حدّثنا أحمد بن جعفر، قال: حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال حدّثنا أحمد بن محمد بن أيوب، قال: حدّثنا أبو بكر بن عياش، عن إدريس بن وهب بن مُنبِّه، قال: حدَّثني أبي قال: كان لسليمان بن داود عليه السلام ألفُ بيت أعلاه قواريرُ وأسفله حديد، فركب الريح يوماً فمرَّ بحَرَّاث،

---

(١) أخرجه أحمد (٧٧١٤)، ومسلم (١٩٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٦٩)، والبخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٩/ ١٨٩ .

فنظر إليه الحرَّاث فقال: لقد أُوتي آلُ داود مُلكاً عظيماً، فحملت الريح كلامَه فألقته في أُذن سليمان، قال: فنزل حتى أتى الحرَّاث فقال: إني سمعتُ قولك، وإنما مشيتُ إليك لئلا تتمنَّى ما لا تَقدِرُ عليه؛ لَتسبيحةٌ واحدة يقبلُها الله منك خيرٌ مما أُوتي آل داود. فقال الحرَّاث: أذهبَ اللهُ هَمَّك كما أذهبتَ هَمِّي[١].

قوله تعالى: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: أراد؛ قاله مجاهد[٢]. والعرب تقول: أصاب الصوابَ، وأخطأ الجواب. أي: أراد الصوابَ، وأخطأ الجواب؛ قاله ابن الأعرابي[٣]. وقال الشاعر:

أَصَابَ الكَلامَ فَلَم يَستَطِعْ فأَخْطَا الجوابَ لَدَى المفصلِ[٤]

وقيل: أصاب أراد بلغة حِمْير[٥]. وقال قتادة: هو بلسان هَجَر. وقيل: «حَيْثُ أَصَابَ» حيثما[٦] قصد، وهو مأخوذٌ من إصابة السَّهم الغرضَ المقصود[٧]. ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي: وسخَّرنا له الشياطين، وما سُخِّرت لأحدٍ قبلَه. «كُلَّ بَنَّاءٍ» بدل من الشياطين، أي: كل بنَّاء منهم، فهم يبنون له ما يشاء. قال:

إلاَّ سليمانَ إذ قال الإلهُ له قُمْ في البريَّةِ فاحْدُدْها عن الفَنَد

وَخَيِّسِ الجِنَّ إني قد أذِنْتُ لهم يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ[٨]

«وغَوَّاص» يعني: في البحر يستخرجون له الدُّرّ. فسليمانُ أوَّل من استُخرِجَ له اللؤلؤ من البحر[٩].

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٥٩ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٩٧ .

(٣) ياقوتة الصراط ص٤٤٠ وينظر النكت والعيون ٥/ ٩٩ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٦ .

(٥) عرائس المجالس ص٢٩٥ .

(٦) في (م): حينما.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٩٩ .

(٨) البيتان للنابغة الذبياني، وهما في ديوانه ص٣٣ ، وقد سلفا ١٧/ ٢٦٧ ، والبيت الأول سلف ١٢/ ٧ .

(٩) النكت والعيون ٣/ ٤٦١ .

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي: وسخَّرنا له مردةَ الشياطين حتى قرنهم في سلاسل الحديد وقيود الحديد؛ قاله قتادة. السُّدّي: الأغلال[1]. ابن عباس: في وثاق. ومنه قال الشاعر:

فآبوا بالنِّهاب وبالسَّبايا وأُبنا بالملوك مُصَفَّدِينا[2]

قال يحيى بن سلاّم: ولم يكن يفعل ذلك إلا بكُفَّارهم، فإذا آمنوا أطلقهم ولم يُسخِّرهم[3].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ الإشارةُ بهذا إلى المُلك، أي: هذا الملك عطاؤنا، فأَعْطِ مَن شئتَ أو امنع مَن شئتَ، لا حسابَ عليك؛ عن الحسن والضحاك وغيرهما[4].

قال الحسن: ما أنعم اللهُ على أحدٍ نعمةً إلا عليه فيها تبعة إلا سليمان عليه السلام؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[5].

وقال قتادة: الإشارة في قوله تعالى: «هَذَا عَطَاؤُنَا» إلى ما أُعطيه من القوّة على الجماع، وكانت له ثلاث مئة امرأة وسبع مئة سُرِّيّة، وكان في ظهره ماء مئة رجل؛ رواه عكرمة عن ابن عباس[6]. ومعناه في البخاري[7]. وعلى هذا «فَامْنُنْ» من المنيّ؛ يقال: أَمْنَى يُمني، ومَنَى يَمني لغتان، فإذا أمرتَ من أمنى قلت: أَمْنِ؛ ويقال من

---

(١) أخرجهما الطبري ٢٠/ ٩٨-٩٩ .

(٢) قائله عمرو بن كلثوم، وهو في معلقته ص١٠٠ (بشرح ابن كيسان).

(٣) النكت والعيون ٥/ ٩٩ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٩٩.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٩٩ ، وسلف ١٨/ ٢٠٦ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٠٠ . قال أبو حيان في البحر ٧/ ٣٩٩ : ولعله لا يصح عن ابن عباس؛ لأنه لم يجرِ هنا ذكر النساء ولا ما أوتي من القدرة على ذلك.

(٧) يُشير إلى حديث: «قال سليمان: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة.....» وهو في صحيح البخاري (٦٦٣٩)، وسلف ١٨/ ٢٠٣ .

مَنَى يَمْني في الأمر: امنِ، فإذا جئتَ بنون الفعل نون الخفيفة قلتَ: امْنِنْ. ومن ذهب به المِنّة قال: مَنَّ عليه؛ فإذا أخرجه مُخرجَ الأمر أبرزَ النونين؛ لأنه كان مضاعفاً فقال: امننْ. فَيُروى في الخبر أنه سخَّر له الشياطين، فمن شاء مَنَّ عليه بالعِتْق والتخلية، ومَنْ شاء أَمْسكه؛ قاله قتادة والسُّدي[١]. وعلى ما روى عكرمةُ عن ابن عباس: أي: جامِعْ مَنْ شئتَ من نسائك، واتركْ جِماعَ مَنْ شئتَ منهنَّ لا حسابَ عليك[٢]. ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: إنْ أنعمنا عليه في الدنيا فله عندنا في الآخرة قُربةٌ وحُسْنُ مَرْجع.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ أمرٌ للنبي ﷺ بالاقتداء بهم في الصبر على المَكاره. «أَيُّوبَ» بدل.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ وقرأ عيسى بن عمر: «إنّي» بكسر الهمزة، أي: قال. قال الفراء[٣]: وأجمعت القُرَّاء على أن قرؤوا: «بِنُصْبٍ» بضم النون والتخفيف. النحاس: وهذا غلطٌ وبعده مُناقضة وغلطٌ أيضاً؛ لأنه قال: أجمعت القُرَّاء على هذا، وحكى بعده أنهم ذكروا عن يزيدَ بن القعقاع أنه قرأ: «بِنَصَب» بفتح النون والصاد، فَغَلِطَ على أبي جعفر، وإنما قرأ أبو جعفر: «بِنُصُب» بضم النون والصاد[٤]؛ كذا حكاه أبو عُبيد وغيره، وهو مَرْوي عن الحسن[٥].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٠٢.

(٢) ذكره الطبري ٢٠/ ١٠٣ ولم ينسبه لأحد.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس ٣/ ٤٦٥، وما قبله منه، وقراءة عيسى ابن عمر في المحرر الوجيز أيضاً ٤/ ٥٠٧.

(٤) النشر ٢/ ٣٦١.

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٠.

فأما «بِنَصَب» فقراءة عاصم الجحدريّ ويعقوب الحضرميّ[١]. وقد رُويت هذه القراءة عن الحسن. وقد حكي «بِنَصْب» بفتح النون وسكون الصاد عن أبي جعفر. وهذا كلُّه عند أكثر النحويين بمعنى النَّصَبِ؛ فَنُصْب ونَصَب كَحُزْن وحَزَن.

وقد يجوز أن يكون نُصْب جمع نَصَب كوَثَن ووُثْن. ويجوز أن يكون نُصْب بمعنى نُصُب حُذفت منه الضَّمة، فأما ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة:٣] فقيل: إنه جمع نصاب. وقال أبو عُبيدة[٢] وغيره: النُّصْبُ الشرّ والبلاء. والنّصَب التَّعب والإعياء.

وقد قيل في معنى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أي: ما يلحقه من وسوسته لا غير. والله أعلم. ذكره النحاس[٣].

وقيل: إن النُّصْب ما أصابه في بدنه، والعذاب ما أصابه في ماله[٤]؛ وفيه بُعْد.

وقال المفسرون: إن أيوبَ كان رُوميًّا من البَثَنِيَّة[٥]، وكُنيته أبو عبد الله، في قول الواقدي؛ اصطفاه الله بالنبوّة، وآتاه جملةً عظيمةً من الثروة في أنواع الأموال والأولاد. وكان شاكراً لِأنعُم الله، مُواسياً لعباد الله، بَرّاً رحيماً. ولم يُؤمن به إلا ثلاثةُ نفر. وكان لإبليس موقفٌ من السماء السابعة في يوم من الأيام، فوقف به إبليس على عادته؛ فقال الله له، أو قيل له عنه: أَقَدَرْتَ من عبدي أيوبَ على شيء؟! فقال: يا رب، وكيف أقدِرُ منه على شيء، وقد ابتليتَهُ بالمال والعافية، فلو ابتليتَه بالبلاء والفقر ونزعْتَ منه ما أعطيتَه لحال عن حاله، ولَخرج عن طاعتك. قال الله: قد سلَّطتك على أهله وماله.

---

(١) النشر ٢/ ٣٦١.

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ١٨٤.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦٥.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٠١ عن السدي.

(٥) قال ابن إسحاق ـ كما في روح المعاني ٢٣/ ٢٠٥ ـ: الصحيح أنه كان من بني إسرائيل. والبَثَنِيَّة: ناحية من نواحي دمشق. معجم البلدان ١/ ٣٣٨.

فانحطَّ عدوُّ الله فجمع عفاريتَ الجن، فأعلمهم، وقال قائل منهم: أكون إعصاراً فيه نارٌ أُهلِكُ مالَه فكان؛ فجاء أيوبَ في صورة قَيِّم ماله فأعلمه بما جرى؛ فقال: الحمد لله، هو أعطاه وهو مَنَعه. ثم جاء قصرَه بأهله وولده، فاحتمل القصر من نواحيه حتى ألقاه على أهله وولده، ثم جاء إليه وأعلمه فألقى التراب على رأسه، وصَعِدَ إبليس إلى السماء، فسبقته توبةُ أيوب.

قال: يارب سلِّطني على بدنه. قال: قد سلَّطتك على بدنه إلا على لسانه وقلبه وبصره، فنفخ في جسده نفخة اشتعل [منها] فصار في جسده ثآليلُ، فحكَّها بأظفاره حتى دَمِيتْ، ثم بالفَخَّار حتى تساقط لحمه. وقال عند ذلك: «مَسَّنِيَ الشيطانُ». ولم يخلص إلى شيء من حشوة البطن؛ لأنه لا بقاءَ للنَّفْس إلا بها، فهو يأكل ويشرب، فمكث كذلك ثلاثَ سنين.

فلما غلبه أيوبُ اعترض لامرأته في هيئةٍ أعظمَ من هيئة بني آدم في القدر والجمال، وقال لها: أنا إلهُ الأرض، وأنا الذي صنعتُ بصاحبكِ ما صنعت، ولو سجدتِ لي سجدةً واحدة لَرَدَدْتُ عليه أهلَه[1] ومالَه وهم عندي. وعرض لها في بطن الوادي ذلك كلَّه في صورته؛ أي: أظهره لها، فأخبرت أيوبَ، فأقسم أن يضربها إنْ عافاه الله[2].

وذكروا كلاماً طويلاً في [سبب بلائه و][3] مراجعته لِرَبِّه وتبرُّمه من البلاء الذي نزل به، وأن النَّفر الثلاثةَ الذين آمنوا به نَهَوْهُ عن ذلك واعترضوا عليه؛ وقيل: استعان به مظلومٌ فلم ينصره، فابتُلي بسبب ذلك. وقيل: استضاف يوماً الناس فمنع فقيراً الدخولَ، فابتُلِيَ بذلك. وقيل: كان أيوبُ يغزو مَلِكاً، وكان له غنم في ولايته، فداهنه

(١) في النسخ الخطية: حاله، والمثبت من (م).

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٣٤ وما بعدها عن وهب بن منبه، وما بين حاصرتين منه، وسلفت قصة أيوب عليه السلام ١٤/ ٢٥٦ وما بعدها، وذكرنا ثمة أن ما ورد من أخبار في مرضه المنفر كلها من الإسرائيليات، وسيذكر المصنف قريباً ردَّ ابن العربي على هذا الخبر.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، وقد أضافها محققو (م).

لأجلها بترك غزوه فابتُلي[١]. وقيل: كان الناس يتعدّون امرأته، ويقولون: نخشى العَدْوى، وكانوا يستقذرونها؛ فلهذا قال: «مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ».

وامرأته ليا بنت يعقوب. وكان أيوب في زمن يعقوب وكانت أمه ابنةَ لوط[٢]. وقيل: كانت زوجةُ أيوب رحمةَ بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام. ذكر القولين الطبري رحمه الله[٣].

قال ابن العربي: ما ذكره المفسرون من أن إبليسَ كان له مكان في السماء السابعة يوماً من العام فقولٌ باطل؛ لأنه أُهبط منها بلعنة وسخطٍ إلى الأرض، فكيف يرقَى إلى محلِّ الرِّضا، ويجول في مقامات الأنبياء، ويخترق السماواتِ العُلى، ويعلو إلى السماء السابعة إلى منازل الأنبياء، فَيقِفُ موقفَ الخليل؟! إن هذا لخطبٌ من الجهالة عظيم.

وأما قولهم: إن الله تعالى قال له: هل قدرتَ من عبدي أيوب على شي فباطلٌ قطعاً؛ لأن الله عز وجل لا يُكلِّم الكفار الذين هم من جند إبليس الملعون؛ فكيف يُكلِّم من تَوَلَّى إضلالَهم؟!.

وأما قولهم: إن الله قال: قد سلَّطتك على ماله وولده، فذلك مُمكن في القُدرة، ولكنه بعيدٌ في هذه القصة. وكذلك قولهم: إنه نفخَ في جسده حين سلَّطه عليه، فهو أبعدُ، والباري سبحانه قادرٌ على أن يخلقَ ذلك كلَّه من غير أن يكون للشيطان فيه كَسْبٌ حتى تَقَرَّ له ـ لعنةُ الله عليه ـ عينٌ بالتمكُّن من الأنبياء في أموالهم وأهليهم وأنفسهم.

وأما قولهم: إنه قال لزوجته: أنا إله الأرض، ولو تركتِ ذكرَ الله وسجدتِ أنتِ لي لَعافيته، فاعلموا، وإنكم لَتعلمون أنه لو عرضَ لأحدكم وبه ألمٌ، وقال هذا الكلام

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٦.
(٢) النكت والعيون ٥/ ١٠١.
(٣) التعريف والإعلام للسهيلي ص١٥٠.

ما جاز عنده أن يكون إلهاً في الأرض، وأنه يسجد له، وأنه يُعافي من البلاء، فكيف أن تستريبَ زوجةُ نبيٍّ؟! ولو كانت زوجةَ سواديّ أو فَدْم[1] بربريّ ما ساغ ذلك عندها.

وأما تصويرُه الأموالَ والأهلَ في وادٍ للمرأة، فذلك ما لا يقدر عليه إبليسُ بحال، ولا هو في طريق السِّحر، فيقال: إنه من جنسه.

ولو تُصُوّر لَعلمت المرأة أنه سحرٌ كما نعلمه نحن، وهي فوقَنا في المعرفة بذلك؛ فإنه لم يخلُ زمان قطّ من السِّحرِ وحديثه وجَرْيه بين الناس وتصويره.

قال القاضي: والذي جَرَّأهم على ذلك وتذرَّعوا به إلى ذِكْر هذا قولُه تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فلما رَأوْه وقد شكا مَسَّ الشيطان أضافوا إليه من رأيهم ما سبق من التفسير في هذه الأقوال.

وليس الأمرُ كما زعموا والأفعال كلُّها خيرها وشرها، في إيمانها وكفرها، طاعتها وعصيانها، خالقها هو الله لا شريكَ له في خلقه، ولا في خلق شيء غيرها، ولكن الشرَّ لا يُنسب إليه ذِكراً، وإن كان موجوداً منه خَلْقاً؛ أدباً أدَّبنا به، وتحميداً علَّمناه، وكان من ذِكْر محمد ﷺ لربه به قوله من جملته: «والخيرُ في يديكَ، والشرُّ ليس إليك»[2] على هذا المعنى. ومنه قول إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وقال الفتى للكليم: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣].

وأما قولهم: إنه استعان به مظلومٌ فلم ينصره، فمن لنا بصحة هذا القول. ولا يخلو أن يكون قادراً على نصره، فلا يحلّ لأحدٍ تركُه فيُلام على أنه عصى وهو مُنزَّه عن ذلك. أو كان عاجزاً فلا شيء عليه في ذلك، وكذلك قولهم: إنه منع فقيراً من الدخول؛ إن كان علم به فهو باطلٌ عليه، وإن لم يعلم به فلا شيء عليه فيه.

---

(١) الفَدْم من الناس: العَيِيُّ عن الحُجة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم. اللسان (فدم).

(٢) أخرجه أحمد (٧٢٩)، ومسلم (٧٧١)، وسلف مطولاً ٩/ ١٤٠ .

وأما قولهم: إن داهن على غَنَمه الملكَ الكافر، فلا تقل: داهن، ولكن قل: دارَى. ودفعُ الكافر والظالم عن النفس أو المال بالمال جائز؛ نعم وبحسن الكلام.

قال ابن العربي القاضي أبو بكر ﷺ: ولم يصحَّ عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين؛ الأولى قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] والثانية في «صٓ» ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

وأما النبي ﷺ فلم يصحّ عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله: «بينا أيوبُ يغتسلُ إذ خَرَّ عليه رِجلٌ مِن جرادٍ من ذَهَب» الحديث[١].

وإذ لم يصحَّ عنه فيه قرآن ولا سُنة إلا ما ذكرناه، فمن الذي يُوصل السامع إلى أيوب خبره، أم على أيِّ لسان سمعه؟ والإسرائيليات مرفوضةٌ عند العلماء على البَتات؛ فأعرِضْ عن سُطورها بصرك، واصممْ عن سماعها أُذنيك، فإنها لا تُعطي فِكْرك إلا خيالاً، ولا تزيد فؤادَك إلا خبالاً.

وفي الصحيح ـ واللفظ للبخاري ـ أن ابن عباس قال: يا معشرَ المسلمين، تسألون أهلَ الكتاب وكتابكم الذي أُنزِلَ على نبيكم أحدثُ الأخبار بالله، تقرؤونه مَحْضاً لم يُشَبْ، وقد حدَّثكم أن أهل الكتاب قد بدَّلوا من كتب الله وغيَّروا وكتبوا بأيديهم الكتب؛ فقالوا: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩] ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، فلا والله، ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أُنزل عليكم[٢]. وقد أنكر النبي ﷺ في حديث «الموطأ» على عمر قراءتَه التوراة[٣].

قوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ الرَّكْض الدَّفع بالرجل. يقال: رَكَض الدابةَ ورَكَض ثوبه برجله. وقال المبرّد: الرَّكْض التحريك؛ ولهذا قال الأصمعي: يقال: رُكِضَت

---

(١) سلف ٤/ ٤٨٣ و١٥/ ١٨٢ .

(٢) صحيح البخاري (٧٥٢٣). وقوله: لم يُشَب، أي: لم يُخالطه غيره

(٣) أخرجه أحمد (١٥١٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه، وفي إسناده مجالد بن سعيد، وهو ضعيف، كما في التقريب. ولم نقف عليه في الموطأ. .

الدابّة. ولا يقال: رَكَضَت هي؛ لأن الركضَ إنما هو تحريكُ راكبها رجليه ولا فعلَ لها في ذلك. وحكى سيبويه: رَكَضتُ الدابةَ، فركضتْ، مثل: جَبرتُ العظم فَجبَر، وحزنته فحزن؛ وفي الكلام إضمار: أي: قلنا له: «ارْكُضْ» قاله الكسائي[١]. وهذا لمَّا عافاه الله.

﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي: فَركَضَ فنبعتْ عينُ ماء فاغتسل به، فذهب الداءُ من ظاهره، ثم شرب منه فذهب الداءُ من باطنه.

وقال قتادة: هما عينان بأرض الشام في أرض يقال لها: الجابية، فاغتسل من إحداهما، فأذهب اللهُ تعالى ظاهرَ دائه، وشَرِبَ من الأُخرى، فأذهب الله تعالى باطنَ دائه. ونحوه عن الحسن[٢] ومقاتل؛ قال مقاتل: نَبعتْ عينٌ حارّة واغتسل فيها، فخرج صحيحاً، ثم نبعت عينٌ أُخرى فشرب منها ماءً عذباً. وقيل: أُمر بالرَّكض بالرجل لِيتناثرَ عنه كلُّ داء في جسده.

والمغتسَلُ الماء الذي يُغتسَل به؛ قاله القتبي[٣]. وقيل: إنه الموضع الذي يُغتسل فيه؛ قاله مقاتل[٤].

الجوهري[٥]: واغتسلت بالماء، والغَسُول: الماء الذي يُغتسَل به، وكذلك المُغتسَل، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ والمُغتسل أيضاً: الذي يُغتسل فيه، والمَغْسِل والمَغْسَل بكسر السين وفتحها: مَغْسِل الموتى، والجمع المغاسل.

واختُلف كم بقي أيوبُ في البلاء؛ فقال ابن عباس: سبع سنين وسبعة أشهر

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٥ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٠٢ ، وقول الحسن أخرجه الطبري ١٦/ ٣٦٤ مطولاً.

(٣) في غريب القرآن ص٣٨٠ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٠٢ .

(٥) الصحاح (غسل).

(٦) ذكره الرازي في تفسيره ٢٢/ ٢٠٧ عن مقاتل.

وسبعة أيام وسبع ساعات[1]. وقال وهب بن منبِّه: أصاب أيوبَ البلاءُ سبعَ سنين، وتُرك يوسف في السجن سبع سنين، وعُذِّب بُخْتَنصَّر وحُوِّل في السباع سبع سنين. ذكره أبو نعيم[2]. وقيل: عشر سنين. وقيل: ثمانَ عشرةَ سنة. رواه أنس مرفوعاً فيما ذكر الماوردي[3].

قلت: وذكره ابن المبارك؛ أخبرنا يونس بن يزيد، عن عُقَيل عن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ ذكر يوماً أيوب وما أصابه من البلاء، وذكر أن البلاء الذي أصابه كان به ثمانَ عشرةَ سنة[4]. وذكر الحديث القشيري. وقيل: أربعين سنة.

قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ تقدّم في «الأنبياء» الكلامُ فيه[5]. ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: نعمة منا. ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: عبرةً لذوي العقول.

قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

فيها سبع مسائل:

الأولى: كان أيوبُ حلف في مرضه أن يضربَ امرأته مئة جلدة؛ وفي سبب ذلك أربعة أقوال:

أحدها: ما حكاه ابن عباس أن إبليسَ لَقِيَها في صورة طبيب فدعته لمداواة أيوب؛ فقال: أُداويه على أنه إذا بَرِئ قال: أنتَ شفيتَني، لا أُريد جزاءً سواه. قالت: نعم، فأشارتْ على أيوب بذلك فحلف لَيضرِبَنَّها. وقال: وَيْحَكِ ذلك الشيطان.

الثاني: ما حكاه سعيد بن المسيَّب، أنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه من الخبز، فخاف خيانتَها فحلف لَيضرِبَنَّها.

---

(١) في الحلية ٤/ ٥٣ .

(٢) في النكت والعيون ٥/ ١٠٢ . والحديث سلف تخريجه ١٤/ ٢٦٠ ، وذكرنا ثمة أن الحافظ ابن كثير قال: وهذا رَفْعُه غريب جداً، والأشبه أن يكون موقوفاً.

(٣) الزهد لابن المبارك (١٧٩) (زوائد نعيم)، وهو مرسل، وسلف مطولاً ١٤/ ٢٦٠ ينظر الكلام عليه ثمة .

(٤) ١٤/ ٢٦١ وما بعدها.

الثالث: ما حكاه يحيى بن سلاّم وغيره: أن الشيطان أغواها أن تحمل أيوبَ على أن يذبح سخلةً تقرُّباً إليه وأنه يبرأ؛ فذكرتْ ذلك له، فحلف لَيضْرِبنَّها إنْ عُوفي مئةً[١].

و[الرابع] قيل: باعت ذوائبها برغيفين إذ لم تجد شيئاً تحمله إلى أيوب، وكان أيوبُ يتعلَّق بها إذا أراد القيام، فلهذا حلف لَيضْرِبَنّها[٢]. فلما شفاه الله أمره أن يأخُذَ ضِغْثاً فيضرب به، فأخذ شماريخ قدر مئة، فضربها ضربةً واحدة. وقيل: الضِّغث قبضةُ حشيش مختلطة الرَّطب باليابس. وقال ابن عباس: إنه إثكال النخل الجامع بشماريخه[٣].

الثانية: تضمَّنت هذه الآيةُ جوازَ ضرب الرجل امرأته تأديباً. وذلك أن امرأة أيوبَ أخطأت فحلف لَيضْرِبنَّها مئة، فأمره الله تعالى أن يضربها بعُثكول من عثاكيل النخل. وهذا لا يجوز في الحدود. إنما أمره الله بذلك لئلا يضرب امرأته فوقَ حدِّ الأدب. وذلك أنه ليس للزوج أن يضرب امرأته فوقَ حدِّ الأدب؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «واضْرِبُوهُنَّ ضرباً غير مُبَرِّح» على ما تقدَّم في «النساء» بيانه[٤].

الثالثة: واختلف العلماء في هذا الحكم هل هو عامٌّ أو خاصٌّ بأيوب وحده؛ فروي عن مجاهد أنه عام للناس. ذكره ابن العربي[٥].

وحُكي عن القشيري أن ذلك خاص بأيوب.

وحكى المهدوي عن عطاء بن أبي رباح أنه ذهب إلى أن ذلك حُكْمٌ باقٍ، وأنه إذا ضرب بمئة قضيب ونحوه ضربة واحدة بَرَّ. ورُوي نحوه عن الشافعي[٦]. ورُوي نحوه

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٠٣ .

(٢) ذكره ابن العربي بنحوه في أحكام القرآن ٤/ ١٦٣٩ ، وسلف ١٤/ ٢٥٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٠٣ .

(٤) ٦/ ٢٨٦ ، والحديث أخرجه مسلم (١٢١٨) مطولاً جداً من حديث جابر ﷺ.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٤٠ .

(٦) ذكره الكيا في أحكام القرآن ٤/ ٣٦١ . وقع في (د) و(ز): وروى نحوه عنه الشافعي، وفي (م): وروى نحوه الشافعي، والمثبت من (ظ).

عن النبي ﷺ في المُقْعَد الذي حملت منه الوليدة، وأَمَر أن يُضْرَبَ بعُثكول فيه مئة شمراخ ضربةً واحدة[١].

وقال القشيري: وقيل لعطاء: هل يُعمل بهذا اليوم؟ فقال: ما أُنزل القرآنُ إلا لِيُعْمَلَ به ويُتَّبع.

ابن العربي[٢]: ورُوي عن عطاء أنها لأيوبَ خاصَّة. وكذلك روى أبو زيد عن ابن القاسم عن مالك: من حلف لَيضربنَّ عبدَه مئةً، فجمعها، فضربه بها ضربةً واحدة لم يبرَّ. قال بعض علمائنا: يريد مالك قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي: إن ذلك منسوخٌ بشريعتنا.

قال ابن المنذر[٣]: وقد روينا عن عليٍّ أنه جلد الوليدَ بن عقبة بسوط له طرفان أربعين جلدة[٤]. وأنكر مالك هذا وتلا قول الله عز وجل: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] وهذا مذهبُ أصحاب الرأي. وقد احتجَّ الشافعي لقوله بحديث، وقد تُكلِّم في إسناده؛ والله أعلم.

قلت: الحديث الذي احتجَّ به الشافعي خرجه أبو داود في «سننه»[٥] قال: حدثنا أحمد بن سعيد الهَمْداني، قال: حدثنا ابن وهب، قال: أخبرني يونس عن ابن شهاب، قال: أخبرني أبو أُمامةَ بن سهل بن حُنَيْف أنه أخبره بعض أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، أنه اشتكى رجلٌ منهم حتى أُضْنِي، فعاد جِلدةً على عظم، فدخلت عليه جاريةٌ لبعضهم فهش لها، فوقع عليها، فلما دخل عليه رجالُ قومه يَعودونه أخبرهم

---

(١) سيأتي قريباً بتمامه.

(٢) أحكام القرآن ٤/ ١٦٤٠ .

(٣) في الإشراف ٢/ ٢٨-٢٩ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٣٥٤٤) بهذا اللفظ، وأصله عند مسلم (١٧٠٧)، وليس فيه أنه جلده بسوط له طرفان.

(٥) الحديث (٤٤٧٢). وأخرجه أحمد (٢١٩٣٥)، والنسائي في الكبرى (٧٢٦٨) من حديث سعيد بن سعد ابن عبادة رضي الله عنهما.

بذلك وقال: استفتوا لي رسولَ الله ﷺ؛ فإني قد وقعتُ على جاريةٍ دَخلتْ عليَّ. فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، وقالوا: ما رأينا بأحد من الناس من الضُّرِّ مثلَ الذي هو به؛ لو حملناه إليك لَتفسَّخَتْ عِظامُه، ما هو إلا جلدٌ على عَظْم؛ فأمر رسولُ الله ﷺ أن يأخذوا له مئة شمراخ فيضربوه بها ضربةً واحدة.

قال الشافعي: إذا حلف لَيضربنَّ فلاناً مئة جلدة، أو ضرباً شديداً، ولم يقل: ضرباً شديداً، ولم ينوِ ذلك بقلبه يكفيه مثلُ هذا الضرب المذكور في الآية ولا يحنَث[(١)].

قال ابن المنذر[(٢)]: وإذا حلف الرجل: لَيضربنَّ عبده مئةً فضربه ضرباً خفيفاً، فهو بارٌّ عند الشافعي وأبي ثور وأصحاب الرأي. وقال مالك: ليس الضربُ إلا الضربَ الذي يُؤلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ دليلٌ على أن الاستثناء في اليمين لا يرفع حُكماً إذا كان مُتراخياً. وقد مضى القول فيه في «المائدة»[(٣)] يقال: حَنِثَ في يمينه يَحنَثُ، إذا لم يَبَرَّ بها. وعند الكوفيين الواو مقحمة، أي: فاضرِبْ لا تحنَثْ.

الخامسة: قال ابن العربي[(٤)]: قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ يدلُّ على أحد وجهين: إما أن يكون أنه لم يكن في شرعهم كفارةٌ، وإنما كان البرّ والحِنْث. والثاني: أن يكون صَدَرَ منه نذرٌ لا يمين، وإذا كان النذر مُعيَّنًا فلا كفارةَ فيه عند مالك وأبي حنيفة. وقال الشافعي: في كل نذر كفارة.

قلت: قوله: إنه لم يكن في شرعهم كفارة ليس بصحيح؛ فإن أيوبَ عليه السلام لما بقي في البلاء ثمانَ عشرةَ سنة، كما في حديث ابن شهاب: قال له صاحباه: لقد أذنبتَ ذنباً ما أظنُّ أحداً بلغه. فقال أيوب ﷺ: ما أدري ما تقولان، غير أنَّ ربي عز

(١) الأم ٧/ ٧٣.
(٢) في الإشراف ١/ ٤٧٣.
(٣) ٨/ ١٥١.
(٤) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٤٠.

وجل يعلم أني كنتُ أَمُرُّ على الرجلين يتزاعمان، فكلٌّ يحلف بالله، أو على النَّفر يتزاعمون، فأنقلب إلى أهلي، فأُكفِّر عن أيمانهم إرادةَ ألاّ يأثم أحدٌ يذكره، ولا يذكره إلا بحقّ فنَادى ربَّه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وذكر الحديث[١]. فقد أفادك هذا الحديث أن الكفارة كانت من شرع أيوب، وأن من كفَّر عن غيره بغير إِذْنه فقد قام بالواجب عنه وسقطت عنه الكفارة.

السادسة: استدلَّ بعض جُهَّال المتزهِّدة؛ وطَغَام المتصوّفة بقوله تعالى لأيوب: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ على جواز الرَّقْص.

قال أبو الفرج الجوزي[٢]: وهذا احتجاجٌ بارد؛ لأنه لو كان أُمِرَ بضرب الرِّجل فرحاً كان لهم فيه شُبهة، وإنما أُمِرَ بضرب الرِّجل لِينبَعَ الماء.

قال ابن عَقيل: أين الدلالة في مُبتلًى أُمر عند كشف البلاء بأن يضرب برجله الأرض لِينبَعَ الماءُ إعجازاً من الرَّقص؟!، ولئن جاز أن يكون تحريكُ رِجْلٍ قد أنحلها تحكُّم الهوامّ دلالة على جواز الرقص في الإسلام، جاز أن يُجعلَ قولُه سبحانه لموسى: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ دلالةً على ضرب الجماد[٣] بالقُضبان! نعوذ بالله من التلاعب بالشَّرع.

وقد احتجَّ بعضُ قاصِريهم بأنَّ رسولَ الله ﷺ قال لعليّ: «أنت منّي وأنا منك» فحَجلَ، وقال لجعفر: «أشبهت خَلْقي وخُلُقي» فَحَجل، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» فَحَجل[٤].

ومنهم من احتجَّ بأنَّ الحبشة زَفَنت والنبي ﷺ ينظر إليهم[٥]. والجواب ـ أما

---

(١) سلف مطولاً ١٤/ ٢٦٠ ، ينظر الكلام عليه ثمة، وسلف مختصراً ص٢١٧ من هذا الجزء.

(٢) في تلبيس إبليس ص٢٤٩ .

(٣) في (د) و(ز): المخاد، وفي (م): المحاد، والمثبت من تلبيس إبليس.

(٤) أخرجه أحمد (٧٧٠) و(٨٥٧) من حديث علي ﷺ، وإسناده حسن دون ذكر الحجل، فقد تفرد بذكره هانئ بن هانئ، ومثله لا يحتمل تفرده.

(٥) أخرجه أحمد (٢٤٨٥٤)، وبنحوه البخاري (٤٥٤)، ومسلم (٨٩٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الحَجْل فهو نوع من المشي يُفعَل عند الفرح، فأين هو والرقص؟!، وكذلك زَفْن الحبشة نوعٌ من المشي يُفعل عند اللِّقاء للحرب.

السابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ أي: على البلاء. ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: توَّاب رجَّاع مُطيع. وسُئل سفيان عن عبدين ابتُلي أحدُهما فصبر، وأُنعم على الآخر فشكر؛ فقال: كلاهما سواء؛ لأن الله تعالى أثنى على عبدين، أحدهما صابر والآخر شاكر ثناءً واحداً؛ فقال في وصف أيوب: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ وقال في وصف سليمان: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[1] [ص: ٣٠].

قلت: وقد ردَّ هذا الكلامَ صاحبُ «القوت»[2] واستدلَّ بقصة أيوب في تفضيل الفقير على الغنيّ وذكر كلاماً كثيراً شيَّد به كلامَه، وقد ذكرناه في غير هذا الموضع من كتاب «منهج العباد ومَحجَّة السالكين والزُّهاد»، وخَفِيَ عليه أن أيوب عليه السلام كان أحدَ الأغنياء من الأنبياء قبل البلاء وبعده، وإنما ابتُلي بذهاب ماله وولده وعظيم الداء في جسده، وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه صبروا على ما به امتُحِنوا وفُتِنوا. فأيوب عليه السلام دخل في البلاء على صفة، فخرج منه كما دخل فيه، وما تغيَّر منه حال ولا مقال، فقد اجتمع[3] مع أيوب في المعنى المقصود، وهو عدمُ التغيُّر الذي يفضل فيه بعض الناس بعضاً. وبهذا الاعتبار يكون الغنيُّ الشاكر والفقير الصابر سواء. وهو كما قال سفيان. والله أعلم.

وفي حديث ابن شهاب عن النبي ﷺ: «إنَّ أيوبَ خرج لِمَا كان يخرج إليه من حاجته فأوحى الله إليه: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاغتسل، فأعاد اللهُ لحمه وشعره وبَشَره على أحسن ما كان، ثم شَرِبَ، فأذهب الله كلَّ ما كان في جوفه من ألَمٍ أو ضَعْف، وأنزل اللهُ عليه ثوبين من السماء أبيضين فائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر، ثم أقبل يمشي إلى منزله ورَاثَ[4] على امرأته، فأقبلتْ حتى لقيته، وهي لا تعرفه،

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب ١/ ٢٠٢ ونسبه لبعض القدماء.

(٢) ١/ ٢٠٢-٢٠٣.

(٣) يعني سليمان عليه السلام.

(٤) أي: أبطأ. القاموس (ريث).

فسلَّمتْ عليه وقالت: أي يرحمك الله، هل رأيتَ هذا الرجل المُبتلَى؟ قال: من هو؟ قالت: نبيُّ الله أيوب، أما والله، ما رأيتُ أحداً قط أشبهَ به منك إذ كان صحيحاً. قال: فإني أيوبُ، وأخذ ضِغْثاً فضربها به».

فزعم ابن شهاب أن ذلك الضِّغْث كان ثُماماً[١]. وردَّ الله إليه أهله ومِثْلَهم معهم، فأقبلت سحابةٌ حتى سَجَلتْ في أَنْدَرِ[٢] قمحِهِ ذهباً حتى امتلأ، وأقبلت سحابةٌ أُخرى إلى أنْدَر شعيره وقطانيه[٣]، فسَجَلت فيه وَرِقاً حتى امتلأ[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وقرأ ابن عباس: «عَبْدَنا» بإسناد صحيح؛ رواه ابن عُيَينة عن عمرو عن عطاء عنه[٥]، وهي قراءةُ مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصن وابن كثير[٦]؛ فعلى هذه القراءة يكون «إبراهيم» بدلاً من «عبدنا» و﴿وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ عطف. والقراءة بالجمع أبين، وهي اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم، ويكون «إبراهيم» وما بعده على البدل.

النحاس[٧]: وشرحُ هذا من العربية أنك إذا قلت: رأيتُ أصحابَنا زيداً وعمراً وخالداً، فزيد وعمرو وخالد بدل، وهم الأصحاب، وإذا قلت: رأيتُ صاحبنا زيداً

(١) الثُّمام: عشب من الفصيلة النجيلية. المعجم الوسيط (ثمم).

(٢) الأندر: البيدر. القاموس (ندر). وسجل الماء: صبَّه صبًّا متصلاً. المعجم الوسيط (سجل).

(٣) القطاني: الحبوب التي تدخر كالحِمَّص والعدس والباقلا.. معجم متن اللغة (قطن).

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٧٩) (زوائد نعيم)، وسلف قسم منه ١٤/ ٢٦٠ ، ينظر تتمة تخريجه ثمة.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ١١٤ .

(٦) السبعة ص٥٥٤ ، والتيسير ص١٨٨ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٤٦٦ ، وينظر ما قبله فيه.

وعمراً وخالداً، فزيدٌ وحدَه بدل، وهو صاحبنا، وعمرو وخالد[١] عطف على صاحبنا وليسا بداخلين في المصاحبة إلا بدليلٍ غيرِ هذا، غير أنه قد علم أن قوله: ﴿وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ داخل في العبودية.

وقد استدلَّ بهذه الآية من قال: إن الذبيح إسحاق لا إسماعيل[٢]، وهو الصحيح[٣] على ما ذكرناه في كتاب «الإعلام بمولد النبي عليه السلام».

﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ قال النحاس[٤]: أما «الأَبْصَار» فمتفقٌ على تأويلها أنها البصائر في الدين والعلم. وأما «الأيدي» فمختلفٌ في تأويلها؛ فأهلُ التفسير يقولون: إنها القوّة في الدين. وقوم يقولون: «الأيدي» جمعُ يد، وهي النعمة؛ أي: هم أصحاب النِّعم؛ أي: الذين أنعم الله عز وجل عليهم. وقيل: هم أصحاب النِّعم والإحسان؛ لأنهم قد أحسنوا وقدَّموا خيراً. وهذا اختيارُ الطبري.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي: الذين اصطفاهم من الأدناس واختارهم لرسالته. ومُصطفَين جمع مصطفى، والأصلُ مصتفي، وقد مضى في «البقرة» عند قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [الآية: ١٣٢] «والأخيار» جمع خَيِّر.

وقرأ الأعمش وعبد الوارث والحسن وعيسى الثقفي: «أُولي الأيدِ» بغير ياء في الوصل والوقف[٥] على معنى أُولي القوّة في طاعة الله. ويجوز أن يكون كمعنى قراءة الجماعة، وحُذفت الياء تخفيفاً[٦].

---

(١) في النسخ: وزيد وعمرو، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٩، وقال: هذا ضعيف كله.

(٣) هذا رأي المصنف رحمه الله، والصواب أن الذبيح إسماعيل عليه السلام، وهو الصحيح المقطوع به فيما ذكره الحافظ ابن كثير وغيره، وسلفت هذه المسألة مطولة ١٨/ ٦١ وما بعدها، فينظر أقوال العلماء فيها ثمة.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦٧ .

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٠ ، والمحتسب ٢/ ٢٣٣ .

(٦) تفسير الطبري ٢٠/ ١١٦ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾[(١)] قراءة العامة «بِخَالِصَةٍ» منونة، وهي اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم. وقرأ نافع وشيبة وأبو جعفر وهشام عن ابن عامر: «بخالصةِ ذِكرى الدَّارِ» بالإضافة[(٢)]، فمن نوَّن خالصة فـ«ذِكْرَى الدَّار» بدل منها؛ التقدير: إنا أخلصناهم بأن يذكروا الدار الآخرة ويتأهَّبوا لها، ويرغبوا فيها ويُرَغِّبوا الناس فيها.

ويجوز أن يكون «خَالِصَةٍ» مصدراً لخلص و «ذِكْرَى» في موضع رفع بأنها فاعله، والمعنى: أخلصناهم بأن خلصتْ لهم ذكرى الدار؛ أي: تذكير الدار الآخرة.

ويجوز أن يكون «خالصة» مصدراً لأخلصَتْ، فحذفت الزيادة، فيكون «ذِكْرَى» على هذا في موضع نصب، التقدير: بأن أخلصوا ذكرى الدار.

والدار يجوز أن يُراد بها الدنيا؛ أي: ليتذكَّروا الدنيا ويزهَدوا فيها، ولتخلص لهم بالثناء الحسن عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ [مريم: ٥٠] ويجوز أن يراد بها الدار الآخرة وتذكير الخلق بها. ومن أضاف خالصة إلى الدار فهي مصدر بمعنى الإخلاص، والذكرى مفعول به أُضيف إليه المصدر؛ أي: بإخلاصهم ذكرى الدار. ويجوز أن يكون المصدر مضافاً إلى الفاعل والخالصة مصدر بمعنى الخلوص؛ أي: بأن خلصت لهم ذكرى الدار، وهي الدار الآخرة أو الدنيا على ما تقدّم[(٣)].

وقال ابن زيد: معنى أخلصناهم، أي: بذكر الآخرة؛ أي: يذكرون الآخرة ويرغبون فيها ويزهدون في الدنيا. وقال مجاهد: المعنى: إنا أخلصناهم بأن ذكرنا الجنة لهم[(٤)].

---

(١) هذه الآية قبل الآية السابقة لكن المصنف رحمه الله ذكر تفسيرها آخراً!

(٢) قراءة نافع وهشام عن ابن عامر في السبعة ص٥٥٤ ، والتيسير ص١٨٨ .

(٣) هذا الكلام بنحوه في الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٢٣١-٢٣٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٠٩ .

(٤) أخرجهما بنحوهما الطبري ٢٠/ ١١٨ .

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ مضى ذكر اليسع في «الأنعام»[(١)] وذكر ذي الكفل في «الأنبياء»[(٢)].

﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي: ممن اختير للنبوّة. ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ بمعنى هذا ذكر جميل في الدنيا وشرف يُذكَرون به في الدنيا أبداً.

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: لهم مع هذا الذِّكر الجميل في الدنيا حسنُ المَرْجع في القيامة. ثم بيّن ذلك بقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ والعَدْن في اللغة الإقامة؛ يقال: عَدَنَ بالمكان إذا أقام. وقال عبد الله بن عمرو[(٣)]: وجنة عَدْن قصر في الجنة له خمسةُ آلاف باب على كل باب خمسةُ آلاف خَيْرة[(٤)]، لا يدخله إلا نبيّ أو صِدِّيق أو شهيد.

﴿مُّفَتَّحَةً﴾ حال ﴿لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ رفعت الأبوابُ لأنه اسم ما لم يُسمَّ فاعله. قال الزجاج[(٥)]: أي: مفتحة لهم الأبواب منها. وقال الفرّاء: مفتحة لهم أبوابها. وأجاز الفرّاء[(٦)]: «مُفَتَّحَةً لهم الأبوابَ» بالنصب. قال الفرّاء: أي: مفتحة الأبوابِ، ثم جئت بالتنوين فنصبت. وأنشد هو وسيبويه:

---

(١) ٨/٤٤٨-٤٥٠.

(٢) ١٤/٢٦٣-٢٦٤.

(٣) في (د) و(ز) و(م): عمر، والمثبت من (ظ)، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/٤٦٨.

(٤) في (م): حِبَرة، وهو خطأ. والخيرة: يعني ذات خير، والجمع: خيرات، والمراد الحور العين. وسلف الخبر ١٢/٥٩-٦٠ والله أعلم بصحته.

(٥) في معاني القرآن ٤/٣٣٧.

(٦) في معاني القرآن ٢/٤٠٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس ٣/٤٦٨، والكلام منه.

ونـأخـذُ بـعـدهُ بِـذِنَـابِ عَـيْـشٍ أجَـبَّ الـظَّـهْـرَ لـيـس لـه سَـنَـام[١]

وإنما قال: «مُفَتَّحَةً» ولم يقل: مفتوحة؛ لأنها تُفتح لهم بالأمر لا بالمس. قال الحسن: تُكلَّم: انفتحي فتنفتح، انغلقي فتنغلق[٢]. وقيل: تَفْتحُ لهم الملائكةُ الأبواب.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ هو حال قُدمت على العامل فيها، وهو قوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ أي: يَدْعُون في الجنات مُتكئين فيها[٣]. ﴿بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أي: بألوان الفواكه ﴿وَشَرَابٍ﴾ أي: وشراب كثير، فحذف لدلالة الكلام عليه.

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: على أزواجهنَّ، لا ينظرن إلى غيرهم، وقد مضى في «الصافات»[٤]. ﴿أَتْرَابٌ﴾ أي: على سِنّ واحد، وميلاد امرأة واحدة، وقد تساوَيْن في الحُسن والشَّباب، بنات ثلاث وثلاثين سنة[٥]. قال ابن عباس: يُريد الآدميات[٦]. و«أَتْرَابٌ» جمع تِرْب، وهو نعت لقاصرات؛ لأن «قَاصِرَاتُ» نكرة وإن كان مضافاً إلى المعرفة. والدليل على ذلك أن الألف واللام يدخلانه كما قال:

مِن القاصِراتِ الطَّرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ مـن الـذَّرِّ فـوقَ الإتْـبِ مـنـهـا لأثَّـرا[٧]

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: هذا الجزاءُ الذي وُعِدتم به.

---

(١) قائله النابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١١٠ ، وفيه: ونُمسِك، بدل: ونأخذ، وسلف ١٠/١٢٩ ، وهو في الكتاب ١/١٩٦ .

(٢) تفسير الطبري ٢٠/١٢٢ .

(٣) تفسير الرازي ٢٦/٢١٩ .

(٤) في الصفحة ٣٣ من هذا الجزء.

(٥) النكت والعيون ٥/١٠٦ عن يحيى بن سلام.

(٦) ذكره الآلوسي في روح المعاني ٢٣/ ٢١٤ .

(٧) قائله امرؤ القيس، وسلف ص٣٤ من هذا الجزء، وينظر شرحه ثمة، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/٤٦٨ .

وقراءة العامة بالتاء، أي: ما تُوعدون أيها المؤمنون. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب بالياء على الخبر[١] ـ وهي قراءة السُّلَمي واختيار أبي عُبيد وأبي حاتم ـ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ فهو خبر. «لِيومِ الحسابِ» أي: في يوم الحساب، قال الأعشى:

المُهِينينَ مَا لَهُمْ لِزمانِ السَّـ ـوءِ حتى إذا أفاقوا أفاقوا[٢]

أي: في زمان السوء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ دليلٌ على أن نعيمَ الجنة دائمٌ لا ينقطع؛ كما قال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] وقال: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت:٨].

قوله تعالى ﴿هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ لما ذَكَر ما للمتقين ذَكَر ما للطّاغين. قال الزجاج[٣]: «هذا» خبر ابتداء محذوف، أي: الأمرُ هذا، فيوقف على «هذا»، قال ابن الأنباري[٤]: «هذا» وقف حسن، ثم تبتدئ «وإنَّ لِلطَّاغينَ» وهم الذين كذَّبوا الرُّسل. ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ أي: مُنقلَب يصيرون إليه. ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: بئس ما مهَّدوا لأنفسهم، أو بئس الفراش لهم. ومنه مَهْد الصبيّ. وقيل: فيه حذف، أي: بئس موضع المهاد. وقيل: أي: هذا الذي وصفتَ لهؤلاء المتقين، ثم قال: وإن للطاغين لَشرُّ مَرْجعٍ، فيوقف على «هذا» أيضاً.

---

(١) قراءة ابن كثير وأبي عمرو في السبعة ص٥٥٥ ، والتيسير ص١٨٨ .

(٢) ديوان الأعشى ص٢٦٣ .

(٣) في معاني القرآن ٤/٣٣٨ .

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/٨٦٣ .

قوله تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ «هذا» في موضع رفع بالابتداء وخبره «حَمِيمٌ» على التقديم والتأخير؛ أي: هذا حميم وغسَّاق فليذوقوه. ولا يُوقَف على «فَلْيَذُوقُوهُ» ويجوز أن يكون «هذا» في موضع رفع بالابتداء و«فَلْيَذُوقُوهُ» في موضع الخبر، ودخلت الفاء للتنبيه الذي في «هذا» فيوقف على «فَلْيَذُوقُوهُ» ويرتفع «حَمِيمٌ» على تقدير: هذا حميم.

قال النحاس[١]: ويجوز أن يكون المعنى: الأمر هذا، وحميم وغسَّاق إذا لم تجعلهما خبراً، فَرفْعُهما على معنى: هو حميم وغسّاق. والفرّاء[٢] يرفعهما بمعنى: منه حميم ومنه غسَّاق، وأنشدَ:

حتّى إذا ما أَضَاءَ الصُّبْحُ في غَلَسٍ وغُودِرَ البَقْلُ مَلْوِيٌّ ومَحْصُودُ[٣]

وقال آخر:

لَهَا مَتَاعٌ وأَعْوانٌ غَدَوْنَ بِهِ قِتْبٌ وغَرْب إذا ما أُفْرِغَ انْسَحَقا[٤]

ويجوز أن يكون «هَذا» في موضع نصب بإضمار فعل يُفسِّره «فَلْيَذُوقُوهُ» كما تقول: زيداً اضربه. والنصب في هذا أولى[٥]، فيوقف على «فَلْيَذُوقُوهُ» وتبتدئ «حَمِيمٌ وغَسَّاقٌ» على تقدير: الأمر حميم وغسَّاق[٦].

وقراءةُ أهل المدينة وأهل البصرة وبعض الكوفيين بتخفيف السين في «وغَسَاق». وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائي: «وغسَّاق» بالتشديد[٧]، وهما لغتان

---

(١) في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٩، وينظر ما قبله فيه وفي مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٢٧.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤١٠.

(٣) وذكره الطبري في تفسيره ٢٠/ ١٢٦ دون نسبة.

(٤) قائله زهير، وهو في ديوانه ص٦٧ (برواية الشنتمري) وسلف ٥/ ٢١٠ قال شارحه الشنتمري. قوله: لها متاع، أي: لهذه الناقة التي يُستقى عليها، وقوله: قِتْب وغَرْبٌ تبيين للمتاع، والقِتْب: أداة السانية، والغرب: الدلو العظيمة.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٤٦٩-٤٧٠.

(٦) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٢١ بنحوه.

(٧) وقرأ بها عاصم في رواية حفص وخلف. السبعة ص٥٥٥، والتيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦١.

بمعنى واحد في قول الأخفش[١]. وقيل: معناهما مختلف؛ فمن خفّف فهو اسمٌ مثل: عَذاب وجَواب وصوَاب، ومَن شدَّد قال: هو اسمُ فاعل نُقل إلى فعّال للمبالغة، نحو ضرّاب وقتّال، وهو فعّال من غَسَق يَغسِق، فهو غسّاق وغاسِق.

قال ابن عباس: هو الزمهرير يُخوِّفهم ببرده. وقال مجاهد ومقاتل: هو الثلج البارد الذي قد انتهى برده. وقال غيرهما: إنه يحرق ببرده كما يحرق الحميم بحرِّه.

وقال عبد الله بن عمرو: هو قيحٌ غليظٌ لو وقع منه شيء بالمشرق لأنتن مَنْ في المغرب، ولو وقع منه شيء في المغرب لأنتنَ مَنْ في المشرق.

وقال قتادة: هو ما يسيل من فروج الزُّناة ومن نَتْن لحوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح والنَّتْن[٢].

وقال محمد بن كعب: هو عُصارة أهل النار. وهذا القول أشبه باللغة؛ يقال: غَسَق الجرح يغسِق غسقاً إذا خرج منه ماء أصفر؛ قال الشاعر:

إذا ما تَذَكَّرْتُ الحياةَ وطِيبَها ... إليَّ جَرَى دَمْعٌ من العين[٣] غاسِقُ

أي: بارد. ويقال: ليل غاسق؛ لأنه أبرد من النهار. وقال السدّي: الغسّاق الذي يسيل من أعينهم ودموعهم يُسقَوْنه مع الحميم[٤]. وقال ابن زيد: الحميم دموعُ أعينهم، يُجمع في حياض النار فيُسقَوْنه، والصديد الذي يخرج من جُلودهم. والاختيار على هذا «وغَسّاق» حتى يكون مثل سيّال[٥].

وقال كعب: الغسّاق عين في جهنم يسيل إليها سُمُّ كلِّ ذي حُمَةٍ من عقرب

(١) نقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٠٧ .

(٢) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٠/ ١٢٨-١٣٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٠ .

(٣) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): الليل، والمثبت من (ف)، والبيت لعمران بن حِطّان، ذكره أبو بكر الأنباري في الأضداد ص٥ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٢٨ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٢٩ .

وحيةٍ[١]. وقيل: هو مأخوذٌ من الظُّلمة والسواد. والغَسَقُ أوّل ظُلمة الليل، وقد غَسَقَ الليلُ يغسِق، إذا أظلم[٢].

وفي الترمذي[٣] من حديث أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ قال: «لو أن دَلْواً من غَسَّاق يُهَرَاق في الدنيا لأنتنَ أهلُ الدنيا».

قلت: وهذا أشبه على الاشتقاق الأوّل كما بينا، إلا أنه يحتمل أن يكون الغسَّاق مع سيلانه أسودَ مُظلماً فيصحّ الاشتقاقان. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ قرأ أبو عمرو: «وَأُخَرُ» جمع أُخرى مثل الكبرى والكُبَر. الباقون: «وَآخَرُ» مفرد مذكر[٤]. وأنكر أبو عمرو «وَآخَرُ» لقوله تعالى: «أزواج» أي: لا يُخبر بواحد عن جماعة. وأنكر عاصم الجحدري: «وأُخَرُ» قال: ولو كانت «وَأُخَرُ» لكان: من شكلها.

وكلا الردَّين لا يلزم، والقراءتان صحيحتان.

«وآخَرُ» أي: وعذابٌ آخَرُ سوى الحميم والغسَّاق[٥]. «مِنْ شَكْلِهِ» قال قتادة: من نحوه. قال ابن مسعود: هو الزمهرير[٦].

وارتفع «وآخرُ» بالابتداء و«أَزْوَاجٌ» مبتدأ ثانٍ و«مِنْ شَكْلِهِ» خبره، والجملة خبر «آخر». ويجوز أن يكون «وآخر» مبتدأ والخبر مُضمَر دلَّ عليه «هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ» لأن فيه دليلاً على أنه لهم، فكأنه قال: ولهم آخر، ويكون «مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ» صفةً لآخر، فالمبتدأ متخصص بالصفة و«أَزْوَاجٌ» مرفوع بالظرف[٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/١٠٦ .

(٢) الصحاح (غسق).

(٣) الحديث (٢٥٨٤).

(٤) السبعة ص٥٥٥ ، والتيسير ص١٨٨ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٣٠ .

(٦) أخرجهما الطبري ٢٠/ ١٣١-١٣٢ .

(٧) مشكل إعراب القرآن ٢/٦٢٨ بنحوه.

ومن قرأ: «وَأُخَرُ» أراد: وأنواعٌ من العذاب أُخَرُ، ومن جمع ـ وهو يريد الزمهرير ـ فعلى أنه جعل الزمهرير أجناساً فجمع لاختلاف الأجناس. أو على أنه جعل لكل جزء منه زمهريراً، ثم جمع كما قالوا: شابَتْ مفارقُه. أو على أنه جمع، لِمَا في الكلام من الدلالة على جواز الجمع؛ لأنه جعل الزمهرير الذي هو نهاية البرد بإزاء الجمع في قوله: «هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ»، والضمير في «شَكْلِهِ» يجوز أن يعود على الحميم أو الغسّاق. أو على معنى: «وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ» ما ذكرنا. ورفع «أُخَرُ» على قراءة الجمع بالابتداء، و«مِنْ شَكْلِهِ» صفةٌ له، وفيه ذِكْر يعود على المبتدأ، و«أَزْوَاجٌ» خبر المبتدأ. ولا يجوز أن يُحمل على تقدير: ولهم أُخَر. و«مِنْ شَكْلِهِ» صفة لأخر، و«أَزْوَاجٌ» مرتفعة بالظرف كما جاز في الإفراد؛ لأن الصفة لا ضمير فيها من حيث ارتفع «أَزْوَاجٌ» بالظرف، ولا ضمير في الظرف، والهاء في «شَكْله» لا تعود على أُخَر لأنه جمع، والضمير[1] مفرد؛ قاله أبو علي[2]. و«أَزْوَاجٌ» أي: أصناف وألوان من العذاب. وقال يعقوب: الشَّكْل بالفتح: المِثل، وبالكسر: الدَّلّ[3].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ قال ابن عباس: هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع، قالت الخزنة للقادة: «هَٰذَا فَوْجٌ» يعني الأتباع، والفوج الجماعة، «مقْتَحِمٌ معَكُمْ» أي: دخل النار معكم؛ فقالت السادة: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أي: لا اتَّسعت منازلهم في النار. والرُّحب السّعة[4]، ومنه رحبة المسجد وغيره. وهو في مذهب الدعاء، فلذلك نصب؛ قال النابغة:

لا مَـرْحَـبـاً بِـغَـدٍ ولا أهْـلاً بِـهِ إنْ كـانَ تَـفْـرِيـقُ الأَحِـبَّـةِ فـي غَـدِ[5].

(١) من قوله: بالظرف، ولا ضمير.. إلى هنا سقط من (م).

(٢) في الحجة ٦/ ٨٠، وينظر اللام السالف فيه وفي مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٠.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٣١. والدَّلُّ: غُنْج المرأة. الصحاح (دلل).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٦٧.

(٥) ديوان النابغة الذبياني ص٣٨.

قال أبو عبيدة[١]: العرب تقول: لا مرحباً بك؛ أي: لا رَحُبَتْ عليك الأرض ولا اتَّسعت.

﴿إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ قيل: هو من قول القادة، أي: إنهم صالوا النار كما صَلَيناها. وقيل: هو من قول الملائكة متصل بقولهم: «هَذَا فَوْجٌ مقْتَحِمٌ معَكُمْ»، و« قَالُوا بَلْ أنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ» هو من قول الأتباع[٢].

وحكى النقَّاش أن الفوج الأوّل قادة المشركين ومطعموهم يوم بدر، والفوج الثاني أتباعهم ببدر[٣].

والظاهر من الآية أنها عامَّة في كل تابع ومتبوع.

﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي: دعوتمونا إلى العصيان ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ لنا ولكم. ﴿قَالُوا﴾ يعني الأتباع ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ قال الفراء: من سوّغ[٤] لنا هذا وسَنَّه. وقال غيره: مَن قدَّم لنا هذا العذابَ بدعائه إيَّانا إلى المعاصي ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ [أي: عذاباً بكفره][٥] وعذاباً بدعائه إيانا فصار ذلك ضعفاً.

وقال ابن مسعود: معنى عذاباً ضعفاً في النار الحيات والأفاعي[٦]. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾[٧] [الأعراف:٣٨].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾ يعني أكابر المشركين ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ

---

(١) في مجاز القرآن ٢/١٨٦ .

(٢) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٤/٥١١ ، وتفسير الرازي ٢٦/٢٢٢ .

(٣) النكت والعيون ٥/١٠٨ .

(٤) في معاني القرآن للفراء ٢/٤١١ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٠ (والكلام منه): شرع.

(٥) ما بين حاصرتين من إعراب القرآن للنحاس.

(٦) تفسير البغوي ٤/٦٨ .

(٧) تفسير الرازي ٢٦/٢٢٢ .

ٱلْأَشْرَارِ﴾ قال ابن عباس: يريدون أصحابَ محمد ﷺ؛ يقول أبو جهل: أين بلال، أين صُهَيْب، أين عَمّار[١]. أولئك في الفردوس. واعجباً لأبي جهل! مسكين؛ أسلم ابنُه عكرمة، وابنته جُوَيرية، وأسلمتْ أُمُّه، وأسلم أخوه، وكفر هو؛ قال:

ونـوراً أضـاءَ الأرضَ شَـرْقـاً ومَـغْـربـاً ومـوضـعُ رِجلـي مِـنْـهُ أسْـوَدُ مُـظْـلِـمُ[٢]

﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ قال مجاهد: أتَّخذناهم سخرياً في الدنيا فأخطأنا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فلم نعلم مكانَهم. قال الحسن: كل ذلك قد فعلوا؛ اتَّخذوهم سخرياً، وزاغت عنهم أبصارهم في الدنيا مَحْقَرةً لهم.

وقيل: معنى «أمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأبصَارُ» أي: أهم معنا في النار فلا نراهم[٣]؟. وكان ابن كثير والأعمش وأبو عمرو وحمزة والكسائي يقرؤون: «مِنَ الأشْرَارِ اتَّخَذْنَاهُمْ» بحذف الألف في الوصل. وكان أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم وابن عامر يقرؤون: «أتَّخَذْنَاهُمْ» بقطع الألف على الاستفهام[٤]، وسقطت ألف الوصل؛ لأنه قد استُغني عنها؛ فمن قرأ بحذف الألف لم يقف على «الأشْرَارِ» لأن «اتَّخَذْنَاهُمْ» حال. وقال النحاس[٥] والسجستاني: هو نعتٌ لرجال. قال ابن الأنباري[٦]: وهذا خطأ؛ لأن النعت لا يكون ماضياً ولا مستقبلاً. ومن قرأ: «أَتَّخذناهم» بقطع الألف وقف على «الأشْرَارِ».

قال الفراء[٧]: والاستفهام هنا بمعنى التوبيخ والتعجب، «أمْ زاغت عنهم الأبصار»؛ إذا قرأتَ بالاستفهام كانت أم للتسوية، وإذا قرأتَ بغير الاستفهام فهي بمعنى بل.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٣٦ بنحوه من قول مجاهد.

(٢) قائله البحتري، وهو في ديوانه ٣/ ١٩٧٦ ، وفيه: وبدر، بدل: ونوراً.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٠٩ .

(٤) السبعة ص٥٥٦ ، والتيسير ص١٨٨ ، والنشر ٢/ ٣٦٢ ، وقراءة ابن كثير المتواترة عنه بقطع الألف.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤٧١ . وينظر ما قبله فيه.

(٦) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٤-٨٦٥ ، وما قبله منه.

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٤١١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس ٣/ ٤٧١ .

وقرأ أبو جعفر ونافع وشيبة والمفضَّل وهبيرة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي: «سُخْرِيّاً» بضم السين. الباقون بالكسر[١]. قال أبو عبيدة[٢]: من كسر جعله من الهُزْء، ومن ضم جعله من التسخير. وقد تقدم[٣].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ «لَحَقٌّ» خبر إنَّ و«تَخَاصُمُ» خبر مبتدأ محذوف بمعنى: هو تخاصم. ويجوز أن يكون بدلاً من حق. ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر. ويجوز أن يكون بدلاً من ذلك على الموضع[٤]. أي: إن تخاصم أهل النار في النار لحقٌّ. يعني قولهم: «لَا مَرْحَبًا بِكُمْ» الآية، وشبهه من قول أهل النار.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ أي: مخوفٌ عقابَ الله لمن عصاه، وقد تقدّم. ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي: معبود. ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ الذي لا شريك له ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ بالرفع على النعت، وإن نصبت الأول نصبته. ويجوز رفع الأول ونصب ما بعده على المدح[٥]. «والْعَزِيزُ» معناه المنيع الذي لا مثل له. «الغَفَّارُ» الستَّار لذنوب خلْقه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ أي: وقل لهم يا محمد: «هُوَ نَبأٌ عَظِيمٌ» أي: ما أُنذركم به من الحساب والثواب والعقاب خبرٌ عظيم القدر، فلا ينبغي أن يُستخفَّ به.

---

(١) السبعة ص٥٥٦ ، والتيسير ص١٦٠ ، والنشر ٢/ ٣٢٩ .

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ١٨٧ .

(٣) ١٥/ ٩٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧١ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٢٩ .

(٥) وهذا يجوز في غير التلاوة، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٢ .

قال معناه قتادة[(١)]. نظيره قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ . عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١-٢]. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: يعني القرآن الذي أنبأتُكم[(٢)] به خبر جليل[(٣)]. وقيل: عظيم المنفعة ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ الملأ الأعلى هم الملائكة في قول ابن عباس والسّدي اختصموا في أمر آدم حين خُلق فـ ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] وقال إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[(٤)] [ص: ٧٦].

وفي هذا بيانٌ أن محمداً ﷺ أخبر عن قصة آدم وغيره، وذلك لا يُتصوَّر إلا بتأييد إلهي؛ فقد قامت المُعجزة على صِدقه، فما بالهم أعرضوا عن تدبُّر القرآن ليعرفوا صِدْقه؛ ولهذا وصل قوله بقوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ . أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

وقولٌ ثانٍ رواه أبو الأشهب عن الحسن قال: قال رسولُ الله ﷺ: «سألني ربي فقال: يا محمد، فِيم اختصم الملأ الأعلى، قلت: في الكفارات والدرجات قال: وما الكفارات، قلت: المشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في السَّبَرَات والتعقيب في المساجد بانتظار الصلاة بعد الصلاة قال: وما الدرجات؟ قلت: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاةُ بالليل والناسُ نِيام»[(٥)] خرجه الترمذي بمعناه عن ابن عباس، وقال فيه: حديث غريب، وعن معاذ بن جبل أيضاً وقال: حديث حسن صحيح[(٦)]. وقد كتبناه بكماله في كتاب «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»،

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ١٥٤ .

(٢) في (د) و(م): أنبأكم.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٤٠-١٤١ عن مجاهد والسدي وشريح، وذكره عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة الطبرسي في مجمع البيان ٢٣/ ١٣١ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٤٢ بنحوه.

(٥) نقله المصنف من النكت والعيون ٥/ ١١٠ ، وهو هكذا مرسل، وينظر ما بعده. وأبو الأشهب: هو جعفر بن حيان العطاردي البصري، مات سنة (١٦٥هـ). تهذيب التهذيب ١/ ٣٠٣ . وقوله: السَّبَرات: جمع سَبْرة، وهي شدة البرد. النهاية (سبر).

(٦) سنن الترمذي (٣٢٣٤) و(٣٢٣٥)، والحديثان في مسند أحمد (٣٤٨٤) و(٢٢١٠٩). قال ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٣٤ : أصل هذا الحديث وطرقه مضطربة. وينظر تتمة تخريجه والكلام عليه في مسند أحمد.

وأوضحنا إشكاله والحمد لله.

وقد مضى في «يس» القولُ في المشي إلى المساجد، وأن الخُطَا تُكفِّر السيئات، وترفع الدرجات[١].

وقيل: الملأ الأعلى الملائكة، والضمير في «يَخْتَصِمُونَ» لفرقتين. يعني قول من قال منهم: الملائكة بنات الله، [ومن قال: آلهة تعبد]. وقيل: الملأ الأعلى هاهنا قريش؛ يعني اختصامهم فيما بينهم سِرّاً، فأطلع الله نبيَّه على ذلك[٢].

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إن يُوحى إليَّ إلا الإنذار، وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع: «إلاَّ إنَّما» بكسر الهمزة[٣]؛ لأن الوحيَ قولٌ، كأنه قال: يقال لي: إنما أنت نذيرٌ مبين، ومَن فتحها جعلها في موضع رفع؛ لأنها اسمُ ما لم يُسمَّ فاعلُه. قال الفراء[٤]: كأنك قلت: ما يُوحَى إليَّ إلا الإنذار، النحاس[٥]: ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى: إلا لأنما. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ «إذْ» من صلة «يَخْتَصِمُونَ» المعنى: ما كان لي من علم بالملأ الأعلى حين يختصمون حين ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾.

وقيل: «إذْ قال» بدل من «إذْ يَخْتَصِمُونَ»[٦]، و«يَخْتَصِمُونَ» يتعلَّق بمحذوف؛ لأن

---

(١) ١٧/ ٤٢٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥١٣-٥١٤، وما بين حاصرتين منه بنحوه.

(٣) النشر ٢/ ٣٦٢.

(٤) معاني القرآن ٢/ ٤١٢.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٤٧٢.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٥١٤.

المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملأ الأعلى وقتَ اختصامهم.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ «إذَا» تردُّ الماضي إلى المستقبل؛ لأنها تُشبه حروفَ الشرط وجوابُها كجوابه[١]؛ أي: خلقته.

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أي: من الروح الذي أَمْلكه ولا يَمْلكه غيري. فهذا معنى الإضافة، وقد مضى هذا المعنى مجوَّداً في «النساء» في قوله في عيسى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [الآية: ١٧١].

﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ نصب على الحال. وهذا سجودُ تحية لا سجودَ عبادة. وقد مضى في «البقرة»[٢].

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أي: امتثلوا الأمر وسجدوا له خضوعاً له وتعظيماً لله بتعظيمه ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ أَنِفَ من السجود له جهلاً بأنَّ السجودَ له طاعةٌ لله، والأَنَفَة من طاعة الله استكباراً كُفرٌ، ولذلك كان من الكافرين باستكباره عن أمر الله تعالى. وقد مضى الكلامُ في هذا في «البقرة» مستوفى[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾ أي: صرفك وصَدَّك ﴿أَن تَسْجُدَ﴾ أي: عن أنْ تسجد ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ أضاف خَلْقه إلى نفسه تكريماً له، وإن كان خالقَ كل شيء،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٢ .

(٢) ١/ ٤٣٦ .

(٣) ١/ ٤٤١ .

وهذا كما أضاف إلى نفسه الرُّوح والبيت والناقة والمساجد؛ فخاطب الخلق[١] بما يعرفونه في تعاملهم، فإنَّ الرئيس من المخلوقين لا يُباشر شيئاً بيده إلا على سبيل الإعظام والتكرُّم، فَذِكْر اليد هنا بمعنى هذا.

قال مجاهد: اليد هاهنا بمعنى التأكيد[٢] والصلة؛ مجازه: لِمَا خلقتُ أنا، كقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧] أي: يبقى ربك. وقيل: التشبيه في اليد في خلق الله تعالى دليلٌ على أنه ليس بمعنى النعمة والقوة والقدرة؛ وإنما هما صِفتان من صفات ذاته تعالى. وقيل: أراد باليد القدرة[٣]، يقال: ما لي بهذا الأمر يدٌ. وما لي بالحِمْل الثقيل يَدَانِ. ويدلُّ عليه أن الخَلْقَ لا يقع إلا بالقدرة بالإجماع. وقال الشاعر:

تَحمَّلْتُ مِن عَفْرَاءَ[٤] ما ليس لي بِه ولا لـلـجِـبـالِ الـرّاسِـيـاتِ يَـدَانِ

وقيل: «لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ» لما خلقت بغير واسطة.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ أي: عن السجود ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ أي: المُتكبرين على ربِّك.

وقرأ محمد بن صالح، عن شِبْل، عن ابن كثير وأهل مكة: «بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ» موصولة الألف على الخبر[٥]، وتكون أم منقطعة بمعنى: بل، مثل: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» وشبهه. ومن استفهم: «أم» معادلة لهمزة الاستفهام، وهو تقرير وتوبيخ[٦]. أي: استكبرتَ بنفسك حين أبيتَ عن السجود لآدم، أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت لهذا[٧].

---

(١) في (م): الناس.

(٢) في (م): التأكد.

(٣) مذهب السلف أن صفة اليد ثابتة لله سبحانه، فَنُثبت ما أثبته الله لنفسه من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل. وينظر الكلام السالف بمعناه في الأسماء والصفات ٢/ ١٢٧.

(٤) في النسخ الخطية: دلفاء، والمثبت من المصادر، والبيت لعروة بن حزام، وعفراء ابنة عمه. الخزانة ٣/ ٢١٥ و٣٧٨، والنكت والعيون ٥/ ١١١.

(٥) ذكرها ابن مجاهد في السبعة ص٥٥٦، وهي غير المشهورة عن ابن كثير.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٥١٥ بنحوه.

(٧) زاد المسير ٧/ ١٥٧.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ قال الفرّاء: من العرب من يقول: أنا أخيرُ منه وأشرُّ منه؛ وهذا هو الأصل إلا أنه حذف منه[١] لكثرة الاستعمال.

﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ فضَّل النارَ على الطين، وهذا جهلٌ منه؛ لأن الجواهر متجانسةٌ، فقاسَ فأخطأ القياس. وقد مضى في «الأعراف» بيانه[٢].

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ يعني من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: مرجومٌ بالكواكب والشُّهب[٣] ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ أي: طردي وإبعادي من رحمتي ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ تعريفٌ بإصراره على الكُفر؛ لأن اللَّعنَ منقطعٌ حينئذ، ثم بدخوله النار يظهر تحقيق اللعن، ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أراد الملعون ألا يموت، فلم يُجَبْ إلى ذلك، وَأُخِّر إلى الوقت المعلوم، وهو يوم يموت الخلقُ فيه، فَأُخِّر إليه تهاوناً به.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لما طرده بسبب آدم حلفَ بِعزَّة الله أنه يُضِلُّ بني آدم بتزيين الشهوات وإدخال الشُّبَه عليهم، فمعنى: «لَأُغْوِيَنَّهُمْ»: لأستدعِيَنَّهم إلى المعاصي، وقد عَلِمَ أنه لا يَصِلُ إلا إلى الوسوسة، ولا يُفسد إلا مَن كان لا يصلحُ لو لم يوسوسه[٤]؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين أخلصتَهم لعبادتك، وعَصَمتَهم مني. وقد مضى في «الحجر» بيانه[٥].

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ هذه قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة

---

(١) يعني: حُذفت منه الألف كما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٣ . وسقطت لفظة «منه» من (م).

(٢) ٩/ ١٦٥ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٣ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) ١٢/ ٢١٢ .

والكسائي. وقرأ ابن عباس ومجاهد وعاصم والأعمش وحمزة برفع الأول[١]. وأجاز الفرّاء[٢] فيه الخفض[٣]. ولا اختلاف في الثاني في أنه منصوبٌ بـ«أقول» ونُصِبَ الأوّل على الإغراء، أي: فاتَّبِعوا الحقَّ، واستمعوا الحق، والثاني: بإيقاع القول عليه. وقيل: هو بمعنى أُحِقُّ الحَقَّ، أي: أفعله[٤].

قال أبو علي[٥]: الحقّ الأوّل منصوبٌ بفعل مضمر، أي: يُحِقُّ اللهُ الحقَّ، أو على القسم وحُذف حرف الجر كما تقول: اللهِ لأفعلنَّ، ومجازه: قال: فبالحقِّ، وهو الله تعالى أقسم بنفسه. و«الحَقَّ أَقُولُ» جملة اعترضت بين القسم والمُقسم عليه، وهو توكيد القصة، وإذا جعل الحقّ منصوباً بإضمار فعل كان «لأملانّ» على إرادة القسم.

وقد أجاز الفرّاء[٦] وأبو عُبيد أن يكون الحق منصوباً بمعنى حقّاً «لَأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ» وذلك عند جماعة من النحويين خطأ؛ لا يجوز: زيداً لأضربنّ؛ لأن ما بعد اللام مقطوعٌ مما قبلها فلا يعمل فيه. والتقدير على قولهما: لأملأنَّ جهنم حقًّا. ومن رفع «الحقّ» رفعه بالابتداء؛ أي: فأنا الحقُّ، أو الحقُّ مني. رُويا جميعاً عن مجاهد. ويجوز أن يكون التقدير: هذا الحقُّ.

وقول ثالث على مذهب سيبويه والفراء أن معنى: فالحقّ لأملأن جهنم بمعنى: فالحق أن أملأ جهنم.

وفي الخفض قولان ـ وهي قراءة ابن السَّمَيْفَع وطلحة بن مُصَرِّف ـ: أحدهما أنه

---

(١) السبعة ص٥٥٧، والتيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦٢، وقراءة الأعمش وابن عباس رضي الله عنهما في القراءات الشاذة ص١٣٠.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤١٣ بنحوه، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٧٤، وما قبله منه.

(٣) ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٠ أن عيسى بن عمر قرأ: فالحقِّ والحقِّ، بالجر فيهما. قال ابن خالويه: الصواب أن يخفض الثانية، لأن القسم يكون بالواو ولا يكون بالفاء.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٤.

(٥) في الحجة ٦/ ٨٧-٨٨.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٤١٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٧٤، والكلام منه.

على حذف حرف القسم. هذا قول الفراء قال: كما يقول: اللهِ لأفعلنّ. وقد أجاز مثل هذا سيبويه وغلطه فيه أبو العباس ولم يُجز الخفض؛ لأن حروف الخفض لا تُضمر، والقول الآخر: أن تكون الفاء بدلاً من واو القسم؛ كما أنشدوا:

فَمِثْلِكِ حُبْلَى قد طَرَقْتُ ومُرْضِعٍ(١)

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ أي: من نفسك وذُرِّيتك ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ من بني آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: من جُعْل على تبليغ الوحي، وكنَى به عن غير مذكور. وقيل: هو راجع إلى قوله: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص:٨].

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: لا أتكلَّف ولا أتخرَّص ما لم أُؤمر به.

وروى مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: من سُئل عما لم يعلم فليقل: لا أعلم، ولا يتكلَّف؛ فإن قوله: لا أعلم عِلمٌ، وقد قال الله عز وجل لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾(٢). وعن رسول الله ﷺ: «لِلْمُتَكلِّفِ ثلاث علامات: يُنازِع مَن فوقَه، ويَتَعاطى ما لا يُنال، ويقولُ ما لا يَعلم»(٣).

---

(١) الكلام في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٤ ، والبيت لامرئ القيس، وهو من معلقته ينظر شرح القصائد السبع للنحاس ١/ ١٢، وعجزه: فألهيتُها عن ذي تمائم مُحْوِل. ورواية الديوان ص١٢ : ومرضعاً، وهي كذلك في (د) و(ز) و(ظ)، بدل: ومرضع. ومُغيَل، بدل: مُحْوِل. والمُغيَل: المُرضَع وأمه حبلى. والمُحْوِل: الذي أتى عليه الحول، وينظر تحصيل عين الذهب للأعلم ص٢٩٩ . قال النحاس في شرح القصائد السبع: وخفض «فمثلِك» على معنى: رُبَّ مثلِك، والعربُ تبدل من «رُبَّ» الواو، وتُبدل من الواو الفاء لاشتراكهما في العطف.

(٢) بنحوه ضمن حديث طويل أخرجه أحمد (٤١٠٤)، والبخاري (٤٨٢٢)، ومسلم (٢٧٩٨)، ونقله المصنف عن النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٧٤ .

(٣) أخرجه الثعلبي. فيما ذكره الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٤٢ . من طريق محمد بن عون. . . وذكر إسناده إلى سلمة بن نفيل ﷺ مرفوعاً. ومحمد بن عون، قال النسائي: متروك، وقال البخاري: منكر الحديث. الميزان ٣/ ٦٧٦ ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٤/ ٤٧ من قول وهب بن منبه، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٠٦٤) من قول أرطاة بن المنذر.

وروى الدَّارَقُطْني من حديث نافع عن ابن عمر قال: خرج رسولُ الله ﷺ في بعض أسفاره، فسار ليلاً فمروا على رجل جالس عند مَقْرَاة له، فقال له عمر: يا صاحب المَقْرَاة، أوَ لَغت السِّباع الليلة في مَقْرَاتك؟ فقال له النبي ﷺ: «يا صاحبَ المَقْرَاة، لا تُخبره، هذا مُتكلِّف، لها ما حملتْ في بطونها، ولنا ما بقي شرابٌ وطَهُور»(١).

وفي «الموطأ» عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: أن عمر بن الخطاب خرج في ركب فيهم عمرو بن العاص حتى وَردوا حوضاً، فقال عمرو بن العاص: يا صاحب الحوض، هل تَرِدُ حوضَك السِّباع؟ فقال عمر: يا صاحب الحوض، لا تُخبرنا، فإنا نَرِدُ على السِّباع وتَرِدُ علينا(٢). وقد مضى القول في المياه في سورة «الفرقان»(٣).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ يعني القرآن ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ من الجن والإنس.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ أي: نبأ الذِّكر ـ وهو القرآن ـ أنه حقٌّ «بعد حِين» قال قتادة: بعد الموت(٤). وقاله الزجاج(٥). وقال ابن عباس وعكرمة وابن زيد: يعني يوم القيامة(٦).

وقال الفراء(٧): بعد الموت وقبله. أي: لتظهر لكم حقيقةُ ما أقول: «بعدَ حِين» أي: في المستأنف، أي: إذا أخذتكم سيوفُ المسلمين. قال السُّدي: وذلك يومَ بدر. وكان الحسن يقول: يابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين(٨).

---

(١) سنن الدارقطني (٣٤). والمقراة: الحوض الذي يجتمع فيه الماء. النهاية (قري).
(٢) الموطأ ١/ ٢٣-٢٤ .
(٣) ١٣/ ٤٥ .
(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٥١ .
(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٤٢ .
(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٥٢ عن ابن زيد.
(٧) في معاني القرآن ٢/ ٤١٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٧٤ .
(٨) النكت والعيون ٥/ ١١٢ ، وقول الحسن في تفسير الطبري ٢٠/ ١٥١ .

وسُئل عكرمة عمن حلف: لَيصنعنَّ كذا إلى حين. قال: إنَّ من الحين ما لا تُدركه كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ ومنه ما تُدركه؛ كقوله تعالى: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ﴾ من صِرام النخل إلى طُلوعه ستة أشهر. وقد مضى القولُ في هذا في «البقرة» و«إبراهيم»[1] والحمد لله.

(١) ١/٤٧٧ و ١٢/١٣٥ ، وقول عكرمة سلف ١٢/١٣٦ .

سورة الزُّمَر

ويقال: سورة الغرف. قال وهب بن مُنبِّه: مَن أحبَّ أن يعرفَ قضاءَ الله عز وجل في خَلْقه فَلْيقرَأ سورة الغرف[1]. وهي مكيةٌ في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد. وقال ابن عباس: إلا آيتين نزلتا بالمدينة؛ إحداهما: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الآية:٢٣] والأُخرى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ الآية [٥٣]. وقال آخرون: إلا سبعَ آيات؛ من قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ إلى آخر سبع آيات نزلت في وحشيٍّ وأصحابه على ما يأتي[2].

روى الترمذي عن عائشة قالت: كان رسولُ الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ «الزمر» وبني إسرائيل[3]. وهي خمسٌ وسبعون آية[4]. وقيل: اثنتان وسبعون آية[5].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ۝٣ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٤٧ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١١٣ ، وينظر زاد المسير ٧/ ١٦٠ .

(٣) سنن الترمذي (٣٤٠٥).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٧١ .

(٥) ذكره السيوطي في الإتقان ١/ ٢١٤ .

ويجوز أن يكون مرفوعاً بمعنى: هذا تنزيلٌ، قاله الفراء[١]. وأجاز الكسائي والفراء أيضاً «تَنْزِيلَ» بالنصب على أنه مفعول به[٢]. قال الكسائي: أي: اتَّبِعوا واقرؤوا «تنزِيلَ الكتاب». وقال الفراء: هو على الإغراء، مثل قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٤] أي: الزموا[٣]. والكتاب القرآن سُمِّي بذلك لأنه مكتوب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: هذا تنزيلُ الكتاب من الله، وقد أنزلناه بالحقّ؛ أي: بالصِّدق، وليس بباطل وهَزْل.

﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا﴾ فيه مسألتان:

الأولى: «مُخْلِصاً» نصب على الحال، أي: مُوحِّداً لا تُشرك به شيئاً ﴿لَّهُ ٱلدِّينَۚ﴾ أي: الطاعة. وقيل: العبادة[٤]. وهو مفعول به.

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ أي: الذي لا يَشوبه شيء. وفي حديث الحسن عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، إني أَتصدَّق بالشيء، وأصنع الشيء أُريد به وجهَ الله وثَناءَ الناس. فقال رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسُ محمد بيده، لا يقبلُ اللهُ شيئاً شُورك فيه» ثم تلا رسولُ الله ﷺ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾[٥].

وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» و«النساء» و«الكهف» مستوفىً[٦].

الثانية: قال ابن العربي[٧]: هذه الآيةُ دليلٌ على وجوب النية الخالصة[٨] في كل عمل، وأعظمُه الوضوء الذي هو شَطْر الإيمان، خلافاً لأبي حنيفة والوليد بن مسلم

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٤١٤ .

(٢) قرأ بها عيسى بن عمر وإبراهيم بن أبي عبلة، كما في القراءات الشاذة ص١٣١ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١١٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤ ، والحديث لم نقف عليه.

(٦) ٤/ ٣٢٣ - ٣٢٤ و٦/ ٢٩٧ وما بعدها و١٣/ ٣٩٨ وما بعدها.

(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٤٤ .

(٨) قوله: الخالصة، ليس في (م) ولا في أحكام القرآن.

عن مالك اللَّذَيْن يقولان: إن الوضوء يكفي من غير نية، وما كان ليكون من الإيمان شطراً، ولا لِيُخرِجَ الخطايا من بين الأظافر والشعر بغير نية.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني الأصنام، والخبر محذوف. أي: قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1] قال قتادة: كانوا إذا قيل لهم: مَن ربُّكم وخالقُكم؟ ومَن خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماءً؟ قالوا: الله، فيقال لهم: ما معنى عبادتكم الأصنامَ؟ قالوا: ليُقرِّبونا إلى الله زُلفى، ويشفعوا لنا عنده[2].

قال الكلبي: جواب هذا الكلام في «الأحقاف»: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ [الآية:٢٨] والزُّلفى القُربة؛ أي: لِيقرِّبونا إليه تقريباً، فوضع «زُلْفَى» في موضع المصدر[3].

وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس ومجاهد: «والذين اتَّخذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قالوا ما نَعبُدُهم إلَّا لِيقرِّبونا إلى الله زُلْفَى» وفي حرف أُبَيّ: «والذين اتَّخذُوا مِنْ دُونه أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُكُمْ إلَّا لِتُقَرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى» ذكره النحاس[4]. قال: والحكاية في هذا بيِّنة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين أهل الأديان يومَ القيامة فيُجازي كلاً بما يستحقّ[5]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: مَنْ سبق له القضاء بالكُفر لم يهتدِ؛ أي: للدِّين الذي ارتضاه، وهو دين الإسلام؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة:٣] وفي هذا ردٌّ على القدرية وغيرهم على ما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي: لو أراد

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٥١٨.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤.

(٤) في معاني القرآن ٦/ ١٥٠ - ١٥١، وذكرالقراءتين ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥١٨.

(٥) زاد المسير ٧/ ١٦٢.

أن يُسمِّيَ أحداً من خَلْقه بهذا ما جعله عزَّ وجلَّ إليهم. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزيهاً له عن[1] الولد ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: هو القادرُ على الكمال، المُستغني عن الصاحبة والولد، ومَن كان هكذا فحقُّه أن يُفرَدَ بالعبادة، لا أنه يُشرَكُ به. ونبَّه بهذا على أن له أن يَتعبَّد العباد بما شاء، وقد فعل.

قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ قال الضحاك: أي: يُلقي هذا على هذا وهذا على هذا. وهذا على معنى التكوير في اللغة[2]، وهو طرح الشيء بعضه على بعض؛ يقال: كوَّر المَتاع، أي: ألقى بعضَه على بعض؛ ومنه كَوْر العِمامة[3].

وقد رُوي عن ابن عباس [غير] هذا في معنى الآية. قال: ما نقصَ من الليل دخلَ في النهار، وما نقصَ من النهار دخلَ في الليل[4]. وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١].

وقيل: تكوير الليل على النهار: تَغْشيته إيَّاه حتى يُذهِبَ ضوءَه، ويُغشي النهار

---

(١) في النسخ الخطية وإعراب القرآن للنحاس (والكلام منه) ٤/ ٤ : من، والمثبت من (م).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤ .

(٣) زاد المسير ٧/ ١٦٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤ ، وما بين حاصرتين منه.

على الليل فَيُذهب ظُلمته، وهذا قول قتادة[1]. وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: بالطُّلوع والغُروب لمنافع العباد. ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: في فَلَكه إلى أن تنصرمَ الدنيا، وهو يومُ القيامة حتى[2] تنفطر السماء وتنتثر الكواكب. وقيل: الأجلُ المسمى هو الوقتُ الذي ينتهي فيه سَيْرُ الشمس والقمر إلى المنازل المرتبة لِغُروبها وطُلوعها.

قال الكلبي: يسيران إلى أقصى منازلهما، ثم يرجعان إلى أدنى منازلهما لا يُجاوزانه. وقد تقدَّم بيانُ هذا في سورة «يَس»[3]. ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ «ألا» تنبيه، أي: تنبَّهوا، فإني أنا «العزيزُ» الغالب «الغفَّارُ» الساتر لذنوب خلقه برحمته.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني آدمَ عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني: لِيحصل التناسلُ، وقد مضى هذا في «الأعراف»[4] وغيرها.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أخبر عن الأزواج بالنُّزول، لأنها تكوَّنت بالنبات، والنبات بالماء المُنزَل. وهذا يُسمَّى التدريج[5]؛ ومثله قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ الآية [الأعراف: ٢٦]. وقيل: أنزل: أنشأ وجعل. وقال سعيد بن جُبير: خَلَق. وقيل: إنَّ الله تعالى خَلَق هذه الأنعامَ في الجنة، ثم أنزلها إلى الأرض[6]؛ كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فإنَّ آدمَ لما هبطَ إلى الأرض أُنزل معه الحديد.وقيل: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: أعطاكم. وقيل: جعل الخلق

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١١٥، وأخرجه الطبري ٢٠/ ١٦٠ بنحوه.

(٢) كذا في النسخ: حتى، وفي هامش (ز): لعلّه حين. قلنا: هو أوجه.

(٣) ١٧/ ٤٥٠ وما بعدها، وسلف قول الكلبي ١٧/ ٤٤٤ .

(٤) ٩/ ٤٠٨ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٠ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١١٥ .

إنزالاً؛ لأن الخَلْق إنما يكون بأمر ينزل من السماء. فالمعنى: خلقَ لكم كذا بأمره النازل[١].

قال قتادة: من الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضَّأْن اثنين، ومن المَعْز اثنين، كل واحد زوج[٢]. وقد تقدّم هذا[٣].

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ قال قتادة والسّدّي: نُطفةً، ثم علقةً، ثم مُضْغةً، ثم عظماً، ثم لحماً. ابن زيد: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾: خلقاً في بطون أُمهاتِكم من بعد خَلْقكم في ظهر آدم. وقيل: في ظهر الأب، ثم خلقاً في بطن الأمّ، ثم خلقاً بعد الوضع. ذكره الماوردي[٤].

﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظُلمة البطن وظُلمة الرحم وظُلمة المَشِيمَة. قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك[٥]. وقال ابن جُبير: ظُلمة المَشيمَة وظُلمة الرَّحِم وظُلمة الليل[٦]. والقول الأول أصح. وقيل: ظلمة صُلْب الرجل وظُلمة بطن المرأة وظُلمة الرَّحِم. وهذا مذهب أبي عُبيدة[٧]. أي: لا تمنعه الظُّلمة كما تمنع المخلوقين[٨]. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: الذي خلق هذه الأشياء ﴿رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: كيف تنقلبون وتنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره[٩].

وقرأ حمزة: «إِمِّهَاتِكُمْ» بكسر الهمزة والميم. والكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم. الباقون بضم الهمزة وفتح الميم[١٠].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٠ بنحوه.
(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٦٣.
(٣) ٩/ ٧٦.
(٤) النكت والعيون ٥/ ١١٥، وأقوال قتادة والسدي وابن زيد أخرجها الطبري ٢٠/ ١٦٤ - ١٦٥.
(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٦٥ - ١٦٦.
(٦) النكت والعيون ٥/ ١١٦ دون نسبة.
(٧) مجاز القرآن ٢/ ١٨٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٦/ ١٥٤.
(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤.
(٩) تفسير الطبري ٢٠/ ١٦٧.
(١٠) قراءة حمزة والكسائي في الوصل. السبعة ص٢٢٧ - ٢٨٨، والتيسير ص٩٤.

قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ شرط وجوابه. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي: أن يكفروا، أي: لا يُحبُّ ذلك منهم. وقال ابن عباس والسّدي: معناه: لا يرضى لعباده المؤمنين الكُفر، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢]، وكقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٦] أي: المؤمنون[١]. وهذا على قول مَن لا يُفرق بين الرِّضا والإرادة.

وقيل: لا يرضى الكُفْرَ وإن أراده؛ فالله تعالى يُريد الكفر من الكافر وبإرادته كَفَر، ولايرضاه[٢] ولا يُحِبُّه، فهو يريد كون ما لا يرضاه، وقد أراد الله عز وجل خَلْقَ إبليس وهو لا يرضاه، فالإرادة غير الرِّضا. وهذا مذهبُ أهل السنة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يرضى الشُّكر لكم؛ لأنّ «تَشْكُرُوا» يدلُّ عليه. وقد مضَى القولُ في الشُّكر في «البقرة»[٤] وغيرها. ويَرضى بمعنى يُثيب ويُثني، فالرِّضا على هذا إما ثوابُه فيكون صفةَ فعل ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]، وإما ثناؤه، فهو صفةُ ذات.

و«يَرْضَهْ» بالإسكان في الهاء قرأ أبو جعفر[٥] وأبو عمرو وشيبة وهُبيرة عن عاصم. وأشبع الضَّمَّة ابنُ ذكوان وابنُ كثير وابنُ محيصن والكسائي وورش عن

(١) تفسير البغوي ٤/٧٢، وأخرجه بنحوه عنهما الطبري ٢٠/١٦٨.

(٢) في (م): كفر لا يرضاه.

(٣) ذكر هذه المسألة الرازي في تفسيره ٢٦/٢٤٦-٢٤٧.

(٤) ٢/١٠٤ وما بعدها.

(٥) قراءة أبي جعفر في رواية ابن جمّاز.

نافع[١]. واختلس الباقون.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تقدَّم في غير موضع[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ﴾ يعني الكافر ﴿ضُرٌّ﴾ أي: شدّة من الفقر والبلاء ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: راجعاً إليه، مُخْبِتاً مطيعاً له، مُستغيثاً به في إزالة تلك الشِّدَّة عنه.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي: أعطاه وملّكه. يقال: خوّلك الله الشيء، أي: ملّكك إياه؛ وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد:

هُنَالِكَ إِن يُسْتَخْوَلُوا المالَ يُخْوِلوا ... وإِن يُسْأَلُوا يُعْطُوا وإِن يَيْسِروا يُغْلُوا[٣]

وخَوَلُ الرجل: حَشَمُه، الواحد خائل[٤]. قال أبو النّجم:

أَعْطَى فلم يَبْخَلْ ولم يُبَخَّلِ ... كُومَ الذُّرى مِن خَوَلِ المُخَوَّلِ[٥]

---

(١) المشهور عن ورش أنه قرأ بضم الهاء من غير صلة. السبعة ص٥٦٠، والتيسير ص١٨٩، والنشر ١/٣٠٧ - ٣٠٨.

(٢) ٩/١٤٥ و١٣/٤٢.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/١٥٥، والبيت لزهير، ويروى: هنالك إن يُسْتَخْبَلُوا يُخْبِلوا.. وقد سلف بهذه الرواية ١/٤٤٨. وقوله: إن يَيْسِروا يُغلوا، أي: إذا قامروا بالميسر يأخذون سمان الجزر فيقامرون عليها، ولا ينحرون إلا غالية. قاله الشنتمري في شرح ديوان زهير ص٢٢.

(٤) الصحاح (خول).

(٥) ديوان أبي النجم ص١٧٥.

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: نسي ربَّه الذي كان يدعوه من قبل في كَشْف الضُّر عنه. فـ «ما» على هذا الوجه لله عز وجل، وهي بمعنى الذي. وقيل: بمعنى مَنْ، كقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣] والمعنى واحد. وقيل: نسي الدعاءَ الذي كان يتضرع به إلى الله عز وجل. أي: ترك كونَ الدعاء منه إلى الله، فـ «ما» والفعل على هذا القول مصدر[١]. ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: أوثاناً وأصناماً. وقال السّدي: يعني: أنداداً من الرجال يعتمدون عليهم في جميع أمورهم[٢]. ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: ليقتديَ به الجُهَّال.

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي: قُلْ لهذا الإنسان: «تَمَتَّع» وهو أمرُ تهديد، فمتاع الدنيا قليل. ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: مصيرك إلى النار.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ بيَّن تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذي مضَى ذِكْره. وقرأ الحسن وأبو عمرو وعاصم والكسائي: «أَمَّنْ» بالتشديد. وقرأ نافع وابن كثير ويحيى بن وثَّاب والأعمش وحمزة: «أَمَنْ هو» بالتخفيف على معنى النداء[٣]؛ كأنه قال: يا من هو قانت. قال الفراء[٤]: الألف بمنزلة يا، تقول: يا زيدُ أَقبِلْ، وأَزَيدُ أَقبِلْ. وحُكِيَ ذلك عن سيبويه وجميع النحويين؛ كما قال أوسُ بن حَجَر:

أَبَنِي لُبَيْنَى لستُمُ بِيَدٍ ... إِلَّا يداً ليست لها عَضُدُ[٥]

وقال آخر هو ذو الرُّمّة:

أداراً بِحُزْوَى هِجْتِ لِلعينِ عَبْرةً ... فماءُ الهوى يَرْفَضُّ أو يَتَرَقْرَقُ[٦]

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٢ بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٧٣ بنحوه.

(٣) السبعة ص٥٦١، والتيسير ص١٨٩.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٤١٦.

(٥) ديوان أوس بن حَجَر ص٢١.

(٦) ديوان ذي الرُّمة ١/ ٤٥٦. قال شارحه أبو نصر: ماء الهوى، أراد الدمع الذي يدمعه من الهوى، يرفضّ: يسيل متفرقاً.

فالتقدير على هذا ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ يا مَنْ هو قانتٌ، إنَّك من أصحاب الجنة؛ كما يقال في الكلام: فلانٌ لا يُصلِّي ولا يصوم، فيا من يُصلِّي ويَصوم أبْشِرْ؛ فحذف لدلالة الكلام عليه.

وقيل: إنَّ الألفَ في «أَمَنْ» ألفُ استفهام، أي: «أَمَنْ هو قَانتٌ آناءَ الليل» أفضلُ؟ أمْ مَنْ جعل لله أنداداً؟ والتقدير: الذي هو قانتٌ خيرٌ.

ومَنْ شدَّد «أَمَّنْ» فالمعنى: العاصون المتقدِّم ذِكْرهم خيرٌ «أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ»؟، فالجملة التي عادلت أمْ محذوفة، والأصل: أمْ مَنْ، فأدغمت في الميم. النحاس[١]: وأم بمعنى بل، ومَن بمعنى الذي؛ والتقدير: بل[٢] الذي هو قانتٌ أفضلُ ممن ذُكِرَ.

وفي قانت أربعةُ أوجه: أحدها: أنه المُطيع؛ قاله ابن مسعود. الثاني: أنه الخاشعُ في صلاته؛ قاله ابن شهاب. الثالث: أنه القائم في صلاته؛ قاله يحيى بن سلّام. الرابع: بأنه الداعي لربه[٣]. وقول ابن مسعود يجمع ذلك. وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «كلُّ قنوتٍ في القرآن فهو طاعةٌ لله عزّ وجلّ»[٤]. ورُوي عن جابر عن النبي ﷺ أنه سُئل: أيُّ الصلاة أفضل؟ فقال: «طولُ القنوت»[٥] وتأوَّله جماعةٌ من أهل العلم على أنه طُول القيام.

وروى عُبيد الله[٦] عن نافع عن ابن عمر سُئل عن القنوت فقال: ما أعرفُ القنوت إلا طولَ القيام، وقراءة القرآن. وقال مجاهد: من القنوت طولُ الركوع وغضُّ البصر، وكان العلماء إذا وقفوا في الصلاة غضُّوا أبصارَهم، وخضعوا ولم يلتفتوا في

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٥ - ٦ وما قبله منه بنحوه، وينظر الحجة للفارسي ٦/ ٩٢ - ٩٣.

(٢) في النسخ: أم، والمثبت من البحر المحيط ٧/ ٤١٩.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١١٧.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٨٢٩) وفي إسناده رِشْدين بن سعد، وهو ضعيف، كما في التقريب وسلف ١٦/ ٤١٦.

(٥) أخرجه مسلم (٧٥٦)، وسلف ٢/ ٣٣٤.

(٦) في (د) و(م) وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦ (والكلام منه): عبد الله، والمثبت موافق لمصادر التخريج، وهو عبيد الله بن عمر العمري، والأثر أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٣٠٦، والطبري ٢٠/ ١٧٦.

صلاتهم، ولم يعبثوا ولم يذكروا شيئاً من أمر الدنيا إلا ناسين.

قال النحاس[١]: أصلُ هذا أن القنوت الطاعة، فكلُّ ما قيل فيه فهو طاعة لله عز وجل، فهذه الأشياء كلُّها داخلةٌ في الطاعة وما هو أكثر منها كما قال نافع: قال لي ابن عمر: قُمْ فصلِّ، فقمتُ أُصلِّي وكان عليَّ ثوبٌ خَلَقٌ، فدعاني فقال لي: أرأيتَ لو وجَّهتك في حاجة، أكنتَ تمضي هكذا؟ فقلت: كنت أتزيَّن، قال: فاللهُ أحقُّ أن تتزيَّن له[٢].

واختلف في تعيين القانت هاهنا، فذكر يحيى بن سلام أنه رسولُ الله ﷺ. وقال ابن عباس في رواية الضحاك عنه: هو أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال ابن عمر: هو عثمانُ ﷺ. وقال مقاتل: إنه عمَّار بن ياسر. الكلبي: صُهَيب وأبو ذرّ وابن مسعود. وعن الكلبي أيضاً أنه مرسلٌ فيمن كان على هذه الحال[٣].

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ قال الحسن: ساعاته؛ أوله وأوسطه وآخره. وعن ابن عباس: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ جوف الليل[٤]. قال ابن عباس: مَن أحبَّ أن يُهوِّن الله عليه الوقوفَ يومَ القيامة، فَلْيَرَهُ اللهُ في ظُلمة الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة، ويرجو رحمةَ ربِّه[٥]. وقيل: ما بين المغرب والعشاء[٦]. وقول الحسن عامّ.

﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ قال سعيد بن جُبير: أي: عذاب الآخرة[٧].

﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ أي: نعيم الجنة. ورُوي عن الحسن أنه سُئل عن رجل يتمادى

---

(١) في إعراب القرآن ٤/ ٦ ، وما قبله منه.

(٢) أخرجه بنحوه عبد الرزاق في المصنف (١٣٩٠) و(١٣٩١).

(٣) النكت والعيون ٥/ ١١٧ ، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٧٣ ، وزاد المسير ٧/ ١٦٦ - ١٦٧ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٣ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١١٧ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦ .

في المعاصي ويرجو فقال: هذا مَتَمَنٍّ[١].

ولا يقف على قوله: «رَحْمَةَ رَبِّهِ» مَن خفَّف «أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ» على معنى النداء؛ لأن قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ متصلٌ إلا أن يُقدَّر في الكلام حذفٌ، وهو أيسر[٢]، على ما تقدَّم بيانُه. قال الزجاج[٣]: أي: كما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون كذلك لا يستوي المُطيع والعاصي.

وقال غيره: الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به فهو بمنزلة مَن لم يعلم.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أصحاب العقول من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: قل: يا محمد لعبادي المؤمنين: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: اتقوا معاصِيَه، والتاء مُبدَلة من واو، وقد تقدم[٤]. وقال ابن عباس: يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة[٥]. ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ يعني بالحسنة الأُولى الطاعة، وبالثانية الثواب في الجنة. وقيل: المعنى: للذين أحسنوا في الدنيا حسنة في الدنيا، يكون ذلك زيادةً على ثواب الآخرة، والحسنة الزائدة في الدنيا الصحةُ والعافية والظَّفَر والغَنيمة[٦]. قال القُشَيري: والأول أصحُّ؛ لأن الكافر قد ينال[٧] نِعَمَ الدنيا.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٢ - ٥٢٣.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٤٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٧، وما بعده منه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧، وتقدم ١/ ٢٤٨ وما بعدها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٣ دون نسبة.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١١٨ بنحوه.

(٧) في (م): نال.

قلت: وينالها معه المؤمن ويُزاد الجنةَ إذا شكر تلك النِّعم. وقد تكون الحسنة في الدنيا الثناءَ الحسن، وفي الآخرة الجزاء.

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فهاجِروا فيها ولا تُقيموا مع من يعمل بالمعاصي. وقد مضى القولُ في هذا مستوفى في «النساء»[١]. وقيل: المراد أرضُ الجنة؛ رغَّبهم في سَعَتها وسَعَةِ نعيمها[٢]؛ كما قال: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] والجنة قد تُسمَّى أرضاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤] والأول أظهرُ، فهو أمر بالهجرة. أي: ارحلوا من مكةَ إلى حيث تأْمَنوا[٣].

الماوردي[٤]: ويَحتمِلُ أن يُريدَ بسعة الأرض سَعَةَ الرِّزق؛ لأنه يرزقُهم من الأرض فيكون معناه: ورِزْقُ الله واسعٌ، وهو أشبهُ؛ لأنه أخرج سعتها مُخْرَجَ الامتنان.

قلت: فتكون الآيةُ دليلاً على الانتقال من الأرض الغالية إلى الأرض الراخية؛ كما قال سفيان الثوري: كن في موضعٍ تملأ فيه جِرابك خبزاً بدرهم.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير تقدير. وقيل: يُزاد على الثواب؛ لأنه لو أُعطيَ بقدر ما عَمِلَ لكان بحساب. وقيل: «بغير حسابٍ» أي: بغير متابعة ولا مُطالبة كما تقع المطالبة بنعيم الدنيا[٥].

و«الصَّابِرُونَ» هنا الصائمون؛ دليله قولُه عليه الصلاة والسلام مُخبراً عن الله عزَّ وجلَّ: «الصومُ لي وأنا أجزي به»[٦]. قال أهل العلم: كلُّ أجرٍ يُكال كيلاً ويُوزَن

---

(١) ٧/ ٦٥ وما بعدها.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١١٨ .

(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٥٣ بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١١٨ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧ .

(٦) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١)، وسلف ٢/ ٦٧ .

وزناً إلا الصبر[١]، فإنه يُحثَى حَثْواً ويُغرَف غَرْفاً؛ وحُكي عن علي ﷺ.

وقال مالك بن أنس في قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال: هو الصبرُ على فجائع الدنيا وأحزانها. ولا شكَّ أن كل مَن سلَّم فيما أصابه، وترك ما نُهي عنه، فلا مقدارَ لأجره[٢].

وقال قتادة: لا والله، ما هناك مِكيال ولا ميزان؛ حدثني أنس أن رسولَ الله ﷺ قال: «تُنصَبُ الموازين، فَيُؤتَى بأهل الصَّدَقة فَيُوفَّون أُجورَهم بالموازين، وكذلك الصلاة والحج، ويُؤتَى بأهل البلاء فلا يُنصب لهم ميزان ولا يُنشر لهم ديوان، ويُصَبُّ عليهم الأجر بغير حساب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حتى يتمنى أهلُ العافية في الدنيا أن أجسادهم تُقرَض بالمقاريض مما يذهبُ به أهل البلاء من الفضل»[٣].

وعن الحسن بن علي[٤] رضي الله عنهما قال: سمعتُ جدي رسول الله ﷺ يقول: «أَدِّ الفرائضَ تكن من أعبدِ الناس، وعليك بالقُنوع تكن من أغنى الناس، يا بُنيّ، إن في الجنة شجرةً يقال لها: شجرة البلوى، يُؤتَى بأهل البلاء فلا يُنصب لهم ميزان، ولا يُنشر لهم ديوان، يُصبُّ عليهم الأجر صبّاً، ثم تلا النبيُّ ﷺ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾»[٥].

ولفظ صابر يُمدح به، وإنما هو لمن صَبَر عن المعاصي، وإذا أردتَ أنه صبر على

---

(١) في النسخ: الصوم، والمثبت موافق لمعنى ما في المصادر. ينظر النكت والعيون ٥/ ١١٩، وتفسير البغوي ٤/ ٧٤.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٤٤ - ١٦٤٥.

(٣) قول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ١٧٩، وحديث أنس ﷺ أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ٣٢٣.

(٤) في (د) و(ز) و(ف) و(م): الحسين بن علي، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لمصادر الحديث.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٧٦٠) دون قوله: «. . إن في الجنة شجرة. .» إلى آخره، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٣٥: وفيه سعد بن طريف، وهو ضعيف جداً. قلنا: قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: متروك، ورماه ابن حبان بالوضع. وقوله منه: «أدِّ الفرائض تكن من أعبد الناس، وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس» أخرجه الدارقطني في العلل ٥/ ٨٤ من حديث ابن مسعود ﷺ، وقال الدارقطني: رفعه وهم، والصحيح من قول ابن مسعود ﷺ.

المصيبة قلت: صابر على كذا؛ قاله النحاس[١]. وقد مضى في «البقرة» مستوفى[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ تقدَّم أولَ السورة ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأُمة، وكذلك كان؛ فإنه كان أولَ من خالفَ دينَ آبائه، وخلع الأصنام وحطَّمها، وأسلم لله وآمنَ به، ودعا إليه ﷺ.

واللام في قوله: «لِأَنْ أكُونَ» صلة زائدة؛ قاله الجُرجاني وغيره. وقيل: لام أجْل. وفي الكلام حذف، أي: أُمرت بالعبادة «لِأَنْ أكُونَ أَوَّلَ المسلمين».

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يريد عذابَ يوم القيامة. وقاله حين دعاه قومُه إلى دين آبائه؛ قاله أكثرُ أهل التفسير[٣].

وقال أبو حمزة الثُّمالي وابن المسيَّب: هذه الآية منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فكانت هذه الآيةُ من قبل أن يُغفر ذنبُ النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ «اللهَ» نصب بـ «أَعْبُدُ»[٤] ﴿مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ طاعتي وعبادتي. ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أمرُ تهديد ووعيد وتوبيخ؛ كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]. وقيل: منسوخة بآية السيف[٥].

---

(١) في إعراب القرآن ٤/ ٧.

(٢) ٢/ ٤٦٣ وما بعدها.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٧٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧.

(٥) زاد المسير ٧/ ١٦٩، قال ابن الجوزي: وهذا باطل، لأنه لو كان أمراً، كان منسوخاً، فأما أن يكون بمعنى الوعيد فلا وجه لنسخه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ قال ميمون بن مِهْران عن ابن عباس: ليس من أحد إلا وقد خلق اللهُ له زوجةً في الجنة، فإذا دخل النارَ خَسِرَ نَفْسَه وأهلَه[1]. وفي رواية عن ابن عباس: فمن عَمِلَ بطاعة الله كان له ذلك المنزل والأهل إلا ما كان له قبلَ ذلك[2]، وهو قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠].

قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ سمَّى ما تحتهم ظُللاً؛ لأنها تُظِلُّ مَن تحتهم، وهذه الآية نظيرُ قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[3] [الأعراف: ٤١]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ قال ابن عباس: أولياءه. ﴿يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: يا أوليائي فخافون. وقيل: هو عامٌّ في المؤمن والكافر. وقيل: خاصٌّ بالكفار.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ قال الأخفش[4]: الطاغوت جمع، ويجوز أن تكون واحدةً مؤنثة. وقد تقدم[5]. أي: تباعدوا من الطاغوت، وكانوا منها على جانب فلم يعبدوها. قال مجاهد وابن زيد: هو الشيطان. وقال الضحاك والسدي: هو الأوثان. وقيل: إنه الكاهن. وقيل: إنه اسمٌ أعجمي مثل:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٦٧١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٨.

(٥) ٦/ ٤٦١.

طالوت وجالوت وهاروت، ماروت. وقيل: إنه اسم عربي مشتق من الطُّغيان[١]، و«أن» في موضع نصب بدلاً من الطاغوت، تقديره: والذين اجتنبوا عبادةَ الطاغوت. ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: رَجَعوا إلى عبادته وطاعته. ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ في الحياة الدنيا بالجنة في العُقبى.

رُوي أنها نزلت في عثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد وسعيد وطلحة والزبير ﷺ؛ سألوا أبا بكر ﷺ فأخبرهم بإيمانه فآمنوا. وقيل: نزلت في زيد بن عمرو ابن نُفيل وأبي ذرّ وغيرهما ممن وحّد الله تعالى قبل مبعث النبي ﷺ[٢].

وقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ . ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ قال ابن عباس: هو الرجلُ يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكفُّ عن القبيح فلا يتحدَّث به[٣]. وقيل: يستمعون القرآنَ وغيره فيتَّبعون القرآن[٤]. وقيل: يستمعون القرآن وأقوالَ الرسول فيتَّبعون أحسنه، أي: محكمه فيعملون به. وقيل: يستمعون عَزْماً وترخيصاً فيأخذون بالعزم دون الترخيص. وقيل: يستمعون العقوبةَ الواجبةَ لهم والعفوَ فيأخذون بالعفو[٥].

وقيل: إنَّ أحسنَ القول على من جعل الآية فيمن وحَّد الله قبلَ الإسلام «لا إله إلا الله».

وقال عبد الرحمن بن زيد: نزلت في زيد بن عمرو بن نُفيل وأبي ذرّ الغفاري وسلمان الفارسي، اجتنَبوا الطاغوتَ أن يعبدوها في جاهليتهم، واتَّبعوا أحسنَ ما صار من القول إليهم[٦].

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٢٠، وزاد المسير ٧/ ١٧٠، وقول مجاهد وابن زيد أخرجه الطبري ٢٠/ ١٨٣.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧٥، وزاد المسير ٧/ ١٧٠.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٢١ بنحوه.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٦٣.

(٥) المصدر السابق.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٢١، وأخرجه الطبري ٢٠/ ١٨٥.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ لما يرضاه. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: الذين انتفعوا بعقولهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ كان النبي ﷺ يَحرِصُ على إيمان قوم وقد سبقت لهم من الله الشَّقاوة، فنزلت هذه الآية. قال ابن عباس: يُريد أبا لهب وولده ومَن تخلَّف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان[1]. وكرَّر الاستفهام في قوله: «أَفَأَنْتَ» تأكيداً لِطُول الكلام، وكذا قال سيبويه في قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥] على ما تقدَّم. والمعنى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أفأنت تُنقذه. والكلام شرط وجوابه. وجيء بالاستفهام؛ ليدلَّ على التوقيف والتقرير. وقال الفراء[2]: المعنى: أفأنتَ تُنقذ من حقَّت عليه كلمةُ العذاب. والمعنى واحد. وقيل: إنَّ في الكلام حذفاً، والتقدير: أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب ينجو منه، وما بعده مُستأنَف.

وقال: «أفمن حَقَّ عليه» وقال في موضع آخر: ﴿حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [يونس: ٣٣] لأن الفعلَ إذا تقدَّم ووقع بينه وبين الموصوف به حائلٌ جاز التذكير والتأنيث، على أن التأنيثَ هنا ليس بحقيقي، بل الكلمة في معنى الكلام والقول؛ أي: أفمن حقَّ عليه قول العذاب.

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ لما بيَّن أن للكفار ظُللاً من النار مِن فوقهم

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٥ بنحوه.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤١٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٦/ ١٦٣ - ١٦٤، وما قبله وما بعده فيه بنحوه.

ومن تحتهم بيَّن أن للمتقين غُرَفاً فوقَها غرف؛ لأن الجنةَ درجاتٌ يعلو بعضُها بعضاً و«لَكِن» ليس للاستدراك؛ لأنه لم يأت نفي، كقوله: ما رأيتُ زيداً لكن عَمراً، بل هو لترك قصةٍ إلى قصة مُخالفةٍ للأولى، كقولك: جاءني زيدٌ لكن عمرو لم يأتِ.

﴿غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ قال ابن عباس: مِن زَبَرجد وياقوت ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي: هي جامعةٌ لأسباب النُّزهة.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر؛ لأن معنى «لهم غُرَفٌ»: وَعَدَهم الله ذلك وعداً. ويجوز الرفع بمعنى: ذلك وَعْدُ الله[1]. ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي: ما وعدَ الفريقين.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: إنه لا يُخلف الميعاد في إحياء الخَلْق، والتمييز بين المؤمن والكافر، وهو قادرٌ على ذلك كما أنه قادرٌ على إنزال الماء من السماء.

«أنزلَ مِنَ السَّماءِ» أي: من السَّحاب «ماءً» أي: المطر ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ أي: فأدخله في الأرض وأسكنه فيها؛ كما قال: ﴿فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون:١٨]. ﴿يَنَـٰبِيعَ﴾ جمع يَنْبُوع وهو يَفْعُول من نَبَع يَنْبُع ويَنْبَع ويَنْبِعُ، بالرفع والنصب والخفض ـ النحاس[2]: وحكى لنا ابنُ كَيْسان في قول الشاعر:

يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ[3]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/٨.

(٢) في إعراب القرآن ٤/٨، وما قبله منه.

(٣) قائله عنترة، وهو من معلقته. الديوان ص٢٢. وعجزه: زيَّافة مثل الفنيق المُكْدَم. والذِّفرى من القفا: الموضع الذي يعرق من الإبل خلفَ الأذن، والغضوب: الناقة العبوس، والجَسْرة: الماضية في سيرها، والزيَّافة: مبالغة زائف؛ إذا تبختر في مشيه، والفنيق: الفحل. والمُكْدَم: الذي لا يُؤذى ولا يُركَب لكرامته على أهله. خزانة الأدب ١/ ١٢٤ - ١٢٥.

أنَّ معناه: يَنْبَع، فأشبع الفتحةَ فصارتْ ألفاً ـ نُبوعاً: خرج. واليَنْبوع عينُ الماء والجمع الينابيع[١]. وقد مضى في «سبحان»[٢].

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ﴾ أي: بذلك الماء الخارج من ينابيع الأرض ﴿زَرْعًا﴾ هو للجنس، أي: زروعاً شتى لها ألوانٌ مختلفة، حُمرة وصُفرة وزُرقة وخُضرة ونوراً. قال الشعبي والضحاك: كلُّ ماء في الأرض فمن السماء نزل، إنما ينزل من السماء إلى الصخرة، ثم تقسم منها العيون والرَّكايا. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: ييبس. ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ أي: بعد خُضرته ﴿مُصْفَرًّا﴾[٣].

قال المبرد: قال الأصمعي: يقال: هاجت الأرض تهيجُ إذا أدبر نَبْتُها وولَّى. قال: وكذلك هاج النبتُ. قال: وكذلك قال غير الأصمعي[٤].

وقال الجوهري[٥]: هاج النبتُ هِياجاً، أي: يَبِسَ. وأرضٌ هائجة يَبِسَ بَقْلُها أو اصفرَّ، وأهاجت الريحُ النَّبْتَ: أيْبسَتْه، وأهيجنا الأرضَ، أي: وجدْناها هائجةَ النبات، وهاج هائجه، أي: ثار غضبه، وهدأ هائجه، أي: سكنت فَوْرته.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أي: فُتاتاً مُكَسَّراً، من: تحطَّم العودُ، إذا تَفتَّتَ من اليبس[٦]. والمعنى: أن مَن قَدَر على هذا قَدَر على الإعادة. وقيل: هو مَثَلٌ ضربه الله للقرآن ولصدور مَن في الأرض، أي: أنزل من السماء قرآناً فسلكه في قلوب المؤمنين ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: ديناً مُختلفاً بعضُه أفضلُ من بعض، فأما المؤمن فيزداد إيماناً ويقيناً، وأما الذي في قلبه مرضٌ فإنه يهيج كما يهيج الزرع. وقيل: هو مثلٌ ضربه الله للدنيا؛ أي: كما يتغير النبت الأخضر فيصفرّ كذلك الدنيا بعد بَهْجتها. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

---

(١) الصحاح (نبع).
(٢) ١٣/ ١٧٤.
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٧٦ بنحوه، وقول الشعبي أخرجه الطبري ٢٠/ ١٨٨.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨ - ٩.
(٥) في الصحاح (هيج).
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ شرحَ: فتح ووسَّع. قال ابن عباس: وسَّع صدره للإسلام حتى ثبتَ فيه. وقال السدي: وسَّع صَدْره بالإسلام للفرح به والطُّمأنينة إليه؛ فعلى هذا لا يجوز أن يكون هذا الشرح إلا بعد الإسلام؛ وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون الشَّرح قبلَ الإسلام[١].

﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ أي: على هُدىً من ربِّه كمن طبع على قلبه وأقساه. ودلَّ على هذا المحذوف قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾[٢]. قال المبرد: يقال: قسا القلبُ، إذا صَلُب، وكذلك عتا وعسا مقاربة لها. وقلبٌ قاسٍ، أي: صُلْب لا يرقّ ولا يَلين[٣]. والمراد بمن شرح الله صَدْرَه هاهنا فيما ذكر المفسرون عليٌّ وحمزةُ رضي الله عنهما[٤]. وحكى النقَّاش أنه عمرُ بن الخطاب ﷺ. وقال مقاتل: عمار بن ياسر. وعنه أيضاً والكلبي: رسولُ الله ﷺ[٥].

والآية عامةٌ فيمن شرح اللهُ صَدْره بِخَلْق الإيمان فيه.

وروى [عمرو بن] مُرَّة [عن أبي عبيدة][٦] عن ابن مسعود قال: قلنا: يا رسولَ الله، قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ كيف انشرح صدره؟ قال: «إذا دخلَ النورُ القلبَ انشرح وانفتح»قلنا: يا رسولَ الله، وما علامةُ ذلك؟. قال: «الإنابةُ إلى دار الخُلود، والتجافي عن دار الغُرور، والاستعداد للموت

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٢١ ، ونسب القول الأول لابن عباس رضي الله عنهما والسدي، ولم ينسب الثاني.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٧ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٢٢ .

(٦) ما بين حاصرتين من مصادر التخريج، وينظر التعليق التالي.

قبلَ نُزوله»[١]، وخرجه الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث ابن عمر: أن رجلاً قال: يا رسول الله، أي: المؤمنين أكيسُ؟ قال: «أكثرُهم للموت ذِكْراً، وأحسنُهم له استعداداً، وإذا دخل النورُ في القلب انفسح واستوسع» قالوا: فما آيةُ ذلك يا نبيَّ الله؟ قال: «الإنابةُ إلى دار الخُلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعدادُ للموت»[٢] فذكر ﷺ خِصالاً ثلاثة، ولا شكَّ أن من كانت فيه هذه الخِصال فهو الكامل الإيمان، فإنَّ الإنابةَ إنما هي أعمال البر؛ لأن دارَ الخُلود إنما وضعت جزاءً لأعمال البر، ألا ترى كيف ذكره الله في مواضعَ في تنزيله، ثم قال بعقب ذلك: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧] فالجنةُ جزاء الأعمال؛ فإذا انكمش العبدُ في أعمال البر فهو إنابتُه إلى دار الخلود، وإذا خَمَد حِرْصه عن الدنيا، ولَها عن طلبها، وأَقبل على ما يُغنيه منها فاكتفى به وقَنِعَ، فقد تجافى عن دار الغرور. وإذا أَحكم أموره بالتقوى فكان ناظراً في كل أمر، واقفاً متأدِّباً مُتثبِّتاً حَذِراً يتورَّع عما يُريبه إلى ما لا يُريبه، فقد استعدَّ للموت. فهذه علامتُهم في الظاهر. وإنما صار هكذا لرؤية الموت، ورؤية صرف الآخرة عن الدنيا، ورؤية الدنيا أنها دارُ الغرور، وإنما صارت له هذه الرؤيةُ بالنور الذي وَلَج القلب[٣].

وقوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ قيل: المراد أبو لهب وولده، ومعنى: «مِنْ ذِكْرِ اللهِ» أن قلوبهم تزداد قسوةً من سماع ذِكْره. وقيل: إن «مِن» بمعنى عن والمعنى: قَسَتْ عن قَبول ذِكْر الله. وهذا اختيار الطبري[٤].

---

(١) وهو حديث ضعيف جداً، قال الدارقطني في العلل ٥/ ١٨٩ : يرويه عمرو بن مرة، واختلف عنه... وذكر عدة طرق له ثم قال: وكلها وهم، والصواب: عن عمرو بن مرة عن أبي جعفر عبد الله بن المسور مرسلاً عن النبي ﷺ، كذلك قاله الثوري، وعبد الله بن المسور هذا متروك. اهـ قلنا: وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه ابن مسعود ﷺ، وقد سلف الحديث ٩/ ٢٣ ، ينظر ما ذكرناه ثمة.

(٢) نوادر الأصول ص١٢٥ - ١٢٦ . وأخرجه مختصراً ابن ماجه (٤٢٥٩) وفي إسناده نافع بن عبد الله عن فروة بن قيس، وهما مجهولان كما في التقريب.

(٣) نوادر الأصول ص١٢٧ .

(٤) تفسير الطبري ٢٠/ ١٩٠ ، وينظر زاد المسير ٧/ ١٧٤ .

وعن أبي سعيد الخُدري أن رسولَ الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: اطلُبوا الحوائج من السُّمَحاء، فإني جعلتُ فيهم رحمتي، ولا تطلبوها من القاسية قُلوبهم، فإني جعلتُ فيهم سَخَطي»[١].

وقال مالك بن دينار: ما ضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظمَ من قسوة قلب، وما غَضِبَ اللهُ على قوم إلا نَزَعَ الرحمةَ من قلوبهم[٢].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن لما قال: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ بيَّن أن أحسنَ ما يُسمع ما أنزله الله، وهو القرآن. قال سعدُ بن أبي وقّاص: قال أصحابُ رسول الله ﷺ: لو حدَّثتنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ فقالوا: لو قصصتَ علينا فنزل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] فقالوا: لو ذكّرتنا فنزل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية[٣] [الحديد: ١٦].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن أصحابَ رسول الله ﷺ مَلُّوا مَلَّة فقالوا له: حدِّثنا، فنزلتْ[٤].

---

(١) أخرجه ابن حبان في المجروحين ٢/ ٢٨٦ ، بلفظ: «إن الله يقول: اطلبوا الفضل من الرُّحَماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم، ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم...». وفي إسناده محمد بن مروان السدي كان ممن يروي الموضوعات عن الأثبات، لا يحل كتابة حديثه إلا على جهة الاعتبار، قاله ابن حبان، وينظر لسان الميزان ٣/ ٤٤٦ - ٤٤٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٧٦ .

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٢/ ٤٠٨ ، وسلف ١١/ ٢٤٠ دون قولهم: لو ذكّرتنا...

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٨ - ٢١٩ .

والحديث ما يُحدِّثُ به المُحدِّث. وسُمِّي القرآن حديثاً؛ لأن رسولَ الله ﷺ كان يُحدِّث به أصحابَه وقومَه، وهو كقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وقوله: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ [النجم: ٥٩] وقوله: ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]. وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] وقوله: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤].

قال القشيري: وتوهَّم قومٌ أن الحديثَ من الحُدوث، فليدلَّ على أن كلامه مُحدَث، وهو وهم؛ لأنه لا يُريد لفظَ الحديث على ما في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] وقد قالوا: إنَّ الحُدوث يرجع إلى التلاوة لا إلى المَتْلوّ، وهو كالذِّكر مع المذكور، إذا ذكرنا أسماءَ الربّ تعالى.

﴿كِتَٰبًا﴾ نصب على البدل من «أَحْسَنَ الحَدِيثِ» ويَحتمل أن يكون حالاً منه. ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ يُشبه بعضُه بعضاً في الحُسن والحِكمة ويُصدِّق بعضُه بعضاً[1]، ليس فيه تناقضٌ ولا اختلاف. وقال قتادة: يُشبه بعضه بعضاً في الآي والحروف. وقيل: يُشبه كُتبَ الله المُنزلة على أنبيائه؛ لما يتضمَّنه من أمر ونهي وترغيب وترهيب وإنْ كان أعمَّ وأعجز[2]. ثم وصفه فقال: ﴿مَّثَانِىَ﴾ تُثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام، وثُني للتلاوة فلا يُمَلّ.

﴿تَقْشَعِرُّ﴾ تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد. ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عند آية الرحمة. وقيل: إلى العمل بكتاب الله والتصديق به. وقيل: «إلى ذِكْرِ اللهِ» يعني الإسلام.

الثانية: عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: كان أصحابُ النبي ﷺ إذا قرئ عليهم القرآن كما نَعَتَهم الله؛ تدمع أعينُهم وتقشعرُّ جلودهم. قيل لها: فإن أناساً اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خرَّ أحدُهم مَغْشِيّاً عليه. فقالت: أعوذُ بالله

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ١٩١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٢٢، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ١٩١.

من الشيطان الرجيم.

وقال سعيد بن عبد الرحمن الجُمحي: مرَّ ابنُ عمر برجل من أهل القرآن ساقط فقال: ما بال هذا؟ قالوا: إنه إذا قُرئ عليه القرآن وسَمِعَ ذِكْر الله سقط. فقال ابن عمر: إنا لَنخشى الله وما نسقط. ثم قال: إن الشيطانَ يدخلُ في جوف أحدِهم؛ ما كان هذا صنيعَ أصحاب محمد ﷺ[١].

وقال عمر بن عبد العزيز: ذُكر عند ابن سيرين الذين يُصرعون إذا قُرئ عليهم القرآن، فقال: بيننا وبينهم أن يقعد أحدُهم على ظهر بيت باسطاً رجليه، ثم يُقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره فإنْ رمى بنفسه فهو صادق[٢].

وقال أبو عِمران الجوني: وعظ موسى عليه السلام بني إسرائيل ذاتَ يوم فشقّ رجلٌ قميصه، فأوحى الله إلى موسى: قل لصاحب القميص: لا يشقَّ قميصَه، فإني لا أُحِبُّ المُبذرين؛ يشرح لي عن قلبه[٣].

الثالثة: قال زيد بن أسلم: قرأ أُبيّ بن كعب عند النبي ﷺ ومعه أصحابه[٤] فرقّوا، فقال النبيُّ ﷺ: «اغتنموا الدُّعاء عند الرِّقة، فإنها رحمةٌ»[٥]. وعن العباس أن رسول الله صلى عليه وسلم قال: «إذا اقشعرَّ جلدُ المؤمن من مَخافةِ الله تحاتَّتْ عنه خطاياه كما يَتحاتُّ عن الشجرة البالية ورقُها»[٦].

وعن ابن عباس أن رسولَ الله ﷺ قال: «ما اقشعرَّ جلدُ عبدٍ من خَشيةِ الله إلا حرَّمه اللهُ على النار»[٧]. وعن شهر بن حَوْشَب عن أُمِّ الدرداء قالت: إنما الوجل في

(١) أخرج الخبرين البغوي في تفسيره ٤/ ٧٧، وذكرهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٨.
(٢) المصدران السابقان دون ذكر عمر بن عبد العزيز ﷺ، ولم نقف عليه من قوله.
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣١٤ - ٣١٥.
(٤) قوله: ومعه أصحابه، من (م).
(٥) أخرجه الشهاب في مسنده (٦٩٢) وهو مرسل، فإن زيداً لم يدرك أُبيّاً ﷺ.
(٦) أخرجه البزار في مسنده (١٣٢٢).
(٧) لم نقف عليه.

قلب الرجل كاحتراق السَّعفة، أما تَجِدُ إلا قُشَعْريرة؟ قلت: بلى؛ قالت: فادعُ اللهَ، فإن الدعاء عند ذلك مُستجاب[(١)]. وعن ثابت البُنَاني قال: قال فلان: إني لأعلمُ متى يُستجاب لي. قالوا: ومن أين تعلم ذلك؟ قال: إذا اقشعرَّ جلدي، ووَجِلَ قلبي، وفاضتْ عيناي، فذلك حين يُستجاب لي[(٢)].

يقال: اقشعرّ جلدُ الرجل اقشعراراً فهو مُقْشَعِرّ، والجمع قشاعر، فَتُحذَف الميم، لأنها زائدة؛ يقال: أخذَتْه قُشَعْريرة[(٣)]. قال امرؤ القيس:

فَبِتُّ أكابِدُ ليلَ التِّمَا ... مِ والقلبُ مِن خشيةٍ مُقْشَعِرّ[(٤)]

وقيل: إن القرآنَ لما كان في غاية الجَزالة والبلاغة، فكانوا إذا رَأَوْا عَجْزَهم عن معارضته، اقشعرَّت الجلودُ منه إعظاماً له، وتَعجُّباً من حُسن ترصيفه[(٥)] وتَهَيُّباً لِمَا فيه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] فالتصدُّع قريبٌ من الاقشعرار، والخُشوع قريبٌ من قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ومعنى لين القلب رِقَّته وطمأنينته وسُكونه.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي: القرآن هُدَى الله. وقيل: أي: الذي وهبه اللهُ لهؤلاء من خَشية عقابه ورجاء ثوابه هُدَى الله[(٦)].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي: مَن خَذَله فلا مُرشِدَ له. وهو يردُّ على القَدَرية وغيرهم. وقد مضى معنى هذا كلِّه مستوفىً في غير موضع، والحمد لله.

ووقف ابن كثير وابن مُحيصن على قوله: «هادٍ» في الموضعين بالياء، الباقون بغير ياء[(٧)].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١١٣٨).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (١١٣٩)، وذكره الحكيم في نوادر الأصول ص١١٤ .

(٣) الصحاح (قشعر).

(٤) ديوان امرئ القيس ص١٥٨ . قال شارحه: ليل التِّمام: أطول ليل في الشتاء.

(٥) في (م): ترصيعه.

(٦) المحرر الوجيز ٤/٥٢٨ ، وزاد المسير ٧/١٧٨ بمعناه.

(٧) السبعة ص٣٦٠ ، والتيسير ص١٣٣ .

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال عطاء وابن زيد: يُرْمَى به مكتوفاً في النار، فأوّل شيء تَمَسُّ منه النار وجهه. وقال مجاهد: يُجَرُّ على وجهه في النار. وقال مقاتل: هو أن الكافر يُرمى به في النار مغلولةً يداه إلى عنقه، وفي عنقه صخرة عظيمة كالجبل العظيم من الكبريت، فتشتعل النار في الحجر وهو مُعلَّق عنقه، فحرُّها ووَهجها على وجهه؛ لا يُطيق دَفْعها عن وجهه من أجل الأغلال[١].

والخبر محذوف. قال الأخفش[٢]: أي: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أفضلُ أَمْ من سَعِدَ، مثل: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: وتقول الخَزنة للكافرين: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: جزاءَ كَسْبِكُم من المعاصي. ومثله: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تقدّم معناه[٣]. وقال المبرد: يقال لكلِّ ما نال الجارحة من شيء: قد ذاقته، أي: وصل إليها كما تَصِلُ الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما. قال: والخِزي المكروه[٤]، والخَزاية من الاستحياء[٥].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٧.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٩.

(٣) ٢/ ٣٢٤.

(٤) في (م): من المكروه.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩ - ١٠.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: مما أصابهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل مثل يحتاجون إليه؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] وقيل: أي: ما ذكرنا[1] من إهلاك الأُمم السالفة مَثَلٌ لهؤلاء ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتّعظون.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الحال. قال الأخفش[2]: لأن قوله جلّ وعزّ: «في هذا القرآن» معرفة. وقال علي بن سليمان: «عَرَبيّاً» نصب على الحال، و«قُرْآناً» توطئة للحال كما تقول: مررتُ بزيد رجلاً صالحاً، فقولك: صالحاً هو المنصوبُ على الحال. وقال الزجاج[3]: «عَرَبيّاً» منصوب على الحال و«قُرْآناً» توكيد.

﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ النحاس[4]: أحسنُ ما قيل فيه قول الضحاك: قال: غير مختلف. وهو قول ابن عباس، ذكره الثعلبي[5]. وعن ابن عباس أيضاً: غير مخلوق، ذكره المهدوي[6] وقاله السدي فيما ذكره الثعلبي. وقال عثمان بن عفان: غير مُتضاد. وقال مجاهد: غير ذي لَبْس. وقال بكر بن عبد الله المُزَني: غير ذي لَحْن[7]. وقيل: غير ذي شكٍّ. قاله السُّدي فيما ذكره الماوردي[8]. قال:

---

(١) في (م): ما ذكرناه.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٧١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٠ وما بعده منه.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٥٢ .

(٤) في إعراب القرآن ٤/ ١٠ ، وما قبله منه.

(٥) وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٩ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٧٨ .

(٦) وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ١٧٩ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٩ .

(٨) في النكت والعيون ٥/ ١٢٤ .

وقـد أتـاكَ يـقِـيـنٌ غـيـرُ ذي عِـوَجٍ مِـن الإلـهِ وقـولٌ غـيـرُ مـكـذوبِ[١]

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الكُفرَ والكذب.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ قال الكسائي: نصب «رَجُلاً» لأنه ترجمةٌ للمَثَل وتفسيرٌ له[٢]، وإن شئتَ نصبته بنزع الخافض، مجازه: ضرب الله مثلاً برجل ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾[٣].

قال الفرّاء[٤]: أي: مختلفون. وقال المبرّد: أي: متعاسرون، من: شَكِسَ يَشْكَسُ شَكَساً، فهو شَكِسٌ، مثل: عَسِرَ يَعْسَرُ عَسَراً، فهو عَسِرٌ، يقال: رجل شَكِسٌ وشَرِسٌ وضَرِسٌ وضَبِسٌ. ويقال: رجل ضَبِسٌ وضَبِيسٌ، أي: شَرِسٌ عَسِر شَكِسٌ؛ قاله الجوهري[٥].

الزمخشري[٦]: والتشاكسُ والتشاخسُ الاختلافُ. يقال: تشاكسَتْ أحوالُه وتشاخسَتْ أسنانُه.

ويقال: شاكسني فلان، أي: ما كسني وشاحّني في حقِّي. قال الجوهري[٧]: رجل شَكْس ـ بالتسكين ـ أي: صَعْب الخُلُق. قال الراجز:

شَـكْـسٌ عَـبُـوسٌ عَـنْـبَـسٌ عَـذَوَّرُ

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٩٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧٨ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٩ .

(٤) معاني القرآن ٢/ ٤١٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٠ وما بعده منه.

(٥) في الصحاح (ضبس).

(٦) في الكشاف ٣/ ٣٩٧ .

(٧) في الصحاح (شكس).

وقوم شُكْسٌ، مثال: رَجلٌ صَدْق، وقوم صُدْق. وقد شَكِس ـ بالكسر ـ شَكَاسةً. وحكى الفراء[١]: رجل شَكِسٌ. وهو القياس، وهذا مَثَلُ مَنْ عَبَدَ آلهةً كثيرة.

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي: خالصاً لِسيِّد واحد، وهو مَثَلُ مَنْ يعبد اللهَ وحدَه. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ هذا الذي يخدُم جماعةَ شُركاءَ، أخلاقُهم مختلفة، ونيَّاتهم مُتباينة، لا يلقاه رجلٌ إلا جرَّه واستخدمه؛ فهو يَلقى منهم العَناء والنَّصَب والتعب العظيم، وهو مع ذلك كلِّه لا يُرضي واحداً منهم بخدمته لِكَثْرة الحقوق في رقبته، والذي يخدُم واحداً لا يُنازعه فيه أحد، إذا أطاعه وحدَه عَرَفَ ذلك له؛ وإن أخطأ صَفَحَ عن خطئه، فأيهما أقلُّ تعباً أو على هُدى مستقيم[٢].

وقراءة أهل الكوفة وأهل المدينة: «وَرَجُلاً سَلَماً» وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وعاصم الجَحْدَري وأبو عمرو وابن كثير ويعقوب: «وَرَجُلاً سَالِماً»[٣] واختاره أبو عُبيد لِصحة التفسير فيه. قال: لأن السالمَ الخالصُ ضدُّ المُشتَرك، والسَّلم ضِدّ الحرب، ولا موضعَ للحربِ هنا.

النحاس[٤]: وهذا الاحتجاجُ لا يلزم، لأن الحرفَ إذا كان له مَعنيان لم يُحمل إلا على أولاهما، فهذا وإن كان السَّلمُ ضدَّ الحرب فله موضعٌ آخر؛ كما يقال: لك في هذا المنزل شُركاء فصار سَلَماً لك. ويلزمه أيضاً في سالم ما ألزم غيره؛ لأنه يقال: شيء سالم، أي: لا عاهةَ به. والقراءتان حسنتان قرأ بهما الأئمة.

واختار أبو حاتم قراءةَ أهل المدينة «سَلَماً» قال: وهذا الذي لا تنازع فيه. وقرأ سعيد بن جُبير وعكرمة وأبو العالية ونصر: «سِلْماً» بكسر السين وسكون اللام[٥].

---

(١) نقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (شكس).

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ١٢٤ ، والكشاف ٣/ ٣٩٦ - ٣٩٧ ، وزاد المسير ٧/ ١٧٩-١٨٠ .

(٣) السبعة ص ٥٦٢ ، والتيسير ص١٨٩ ، والنشر ٢/ ٣٦٢ .

(٤) في إعراب القرآن ٤/ ١٠ - ١١ ، وما قبله منه.

(٥) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٠ عن سعيد بن جبير.

وسِلْماً وسَلَماً مصدران، والتقدير: ورجلاً ذا سلم فحذف المضاف. و«مَثَلاً» صفةٌ، على التمييز، والمعنى: هل تستوي صِفتاهما وحالاهما. وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لِبيان الجنس[١]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحقَّ فيتبعونه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وقرأ ابن مُحيصن وابن أبي عَبْلة وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق: «إنَّكَ مَائِتٌ وإنَّهُمْ مَائِتُونَ» وهي قراءةٌ حسنةٌ، وبها قرأ عبدالله ابن الزُّبير[٢]. النحاس[٣]: ومثل هذه الألف تُحذف في الشواد[٤]، و«مائت» في المستقبل كثيرٌ في كلام العرب؛ ومثلُه: ما كان مريضاً وإنه لمارض من هذا الطعام.

وقال الحسن والفراء والكسائي: الميّت بالتشديد: من لم يَمُتْ وسيموت، والمَيْت بالتخفيف: مَنْ فارقته الروح؛ فلذلك لم تُخفف هنا[٥]. قال قتادة: نُعِيتْ إلى النبي ﷺ نَفْسُه، ونُعِيَتْ إليكم أنفسُكم[٦]. وقال ثابت البُناني: نَعَى رجلٌ إلى صِلَة ابن أَشْيَم أخاً له فوافقه يأكل، فقال: ادْنُ فَكُلْ، فقد نُعِيَ إليَّ أخي منذ حين؛ قال: وكيف وأنا أوّل من أتاك بالخبر. قال: إن الله تعالى نعاه إليّ فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[٧].

وهو خطابٌ للنبي ﷺ أخبره بموته وموتهم؛ فاحتمل خمسةَ أوجه: أحدها أن

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٧ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٣١ .

(٣) إعراب القرآن ٤/ ١١ ، وما قبله منه.

(٤) في (د) و(ز) و(م): الشواذ، والمثبت من (ظ) وإعراب القرآن.

(٥) ذكر قول الفراء والكسائي البغوي في تفسيره ٤/ ٧٨ .

(٦) ذكره العيني في عمدة القاري ١٨/ ٦٠ .

(٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٣٨ . وصلة بن أشْيَم: أبو الصهباء، العدوي، البصري، زوج العالمة معاذة العدوية، مات سنة (٦٢هـ). السير ٣/ ٤٩٧ .

يكون ذلك تحذيراً من الآخرة. الثاني: أن يُذكِّره حثّاً على العمل. الثالث: أن يُذكِّره توطئة للموت. الرابع: لئلا يختلفوا في موته كما اختلفت الأُمَمُ في غيره، حتى إن عمرَ ﷺ لما أنكر موتَه احتجَّ أبو بكر ﷺ بهذه الآية فأمسك. الخامس: لِيُعْلمه أن الله تعالى قد سوَّى فيه بين خلقه مع تفاضلهم في غيره؛ لِتكثر فيه السَّلوة وتقلَّ فيه الحَسْرة[١].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ يعني تخاصم الكافر والمؤمن والظالم والمظلوم؛ قاله ابن عباس[٢] وغيره. وفي خبر فيه طول: إن الخصومةَ تبلغ يومَ القيامة إلى أن يُحاجَّ الروحُ الجسد[٣].

وقال الزبير: لما نزلت هذه الآية قلنا: يا رسول الله، أيُكَرَّر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواصِّ الذنوب؟ قال: «نعم، لَيُكرَّرنَّ عليكم حتى يؤدَّى إلى كل ذي حقٍّ حقَّه» فقال الزبير: والله إن الأمر لشديد[٤].

وقال ابن عمر: لقد عِشنا بُرهةً من دهرنا ونحن نرى هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابَيْن ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فقلنا: وكيف نختصمُ ونبينا واحد وديننا واحد، حتى رأيتُ بعضنا يضربُ وجوهَ بعض بالسيف؛ فعرفتُ أنها فينا نزلت[٥].

وقال أبو سعيد الخُدري: كنا نقول: ربنا واحد، وديننا واحد، ونبيُّنا واحد فما هذه الخصومة. فلما كان يوم صِفِّين وشدَّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا: نعم هو هذا.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٢٥ ، وخبر إنكار عمر ﷺ موتَ النبي ﷺ عند البخاري (١٢٤١) وسلف ٥/ ٣٤٢ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠١ بنحوه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٠ .

(٤) أخرجه أحمد (١٤٣٤) بهذا اللفظ، وأخرجه الترمذي (٣٢٣٦) بنحوه مختصراً.

(٥) ذكره بهذا اللفظ البغوي في تفسيره ٤/ ٧٨ ، وأخرجه بنحوه النسائي في الكبرى (١١٣٨٣)، والطبري ٢٠/ ٢٠٢ ، وقوله: حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف. يعني فتنة مقتل عثمان ﷺ.

وقال إبراهيم النَّخَعي: لما نزلت هذه الآية جعل أصحابُ رسول الله ﷺ يقولون: ما خصومتنا بيننا؟ فلما قُتل عثمان ﷺ قالوا: هذه خصومتنا بيننا(١).

وقيل: تخاصُمهم هو تحاكُمهم إلى الله تعالى، فيستوفي من حسنات الظالم بقدر مَظْلِمته، ويردُّها في حسنات مَن وَجَبتْ له.

وهذا عامٌّ في جميع المظالم، كما في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المُفْلس؟» قالوا: المُفْلس فينا مَن لا درهمَ له ولا مَتاع. قال: «إنَّ المفلسَ من أمّتي مَن يأتي يومَ القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شَتَم هذا، وقذفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفكَ دم هذا، وضرب هذا، فيعطَى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإنْ فَنِيتْ حسناتُه قبل أن يُقْضَى(٢) ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فَطُرِحت عليه، ثم طُرِحَ في النار» خرجه مسلم(٣). وقد مضى هذا المعنى مجوَّداً في «آل عمران».

وفي البخاري عن أبي هريرة أن رسولَ الله ﷺ قال: «من كانت له مَظْلِمةٌ لأحد(٤) من عِرْضه أو شيء فَلْيتحلله منه اليومَ قبل ألا يكونَ دينارٌ ولا دِرهم، إن كان له عملٌ صالح أُخِذَ منه بقدر مَظْلِمته وإن لم تكن له حسناتٌ أُخِذَ من سيئات صاحبه فحمل عليه»(٥) وفي الحديث المسند: أوّلُ ما تقع الخُصومات في الدنيا(٦). وقد ذكرنا هذا الباب كلَّه في «التذكرة» مستوفى(٧).

---

(١) ذكر هذا الخبر والذي قبله البغوي في تفسيره ٤/ ٧٨ . وقول إبراهيم النخعي أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠٢ .

(٢) في النسخ: قبل انقضاء، والمثبت من (م) وهو الموافق لصحيح مسلم، والحديث منه كما سيأتي.

(٣) الحديث (٢٥٨١)، وسلف ٥/ ٤١٤ .

(٤) في النسخ: من كانت له عنده لأخيه مظلمة. والمثبت من (م) وهو الموافق لصحيح البخاري.

(٥) صحيح البخاري (٢٤٤٩) وسلف ٢/ ٧٦ .

(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد (برواية نعيم بن حماد) (٣٨٨) من قول ابن مسعود ﷺ مطولاً بلفظ: إن الله يجمع الناس في صعيد واحد... ثم يكون أول ما يبدؤون من الخصومات في الدنيا، فيؤتى بالقاتل والمقتول...

(٧) ص٢٦٧ .

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحدَ أظلمُ ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ فزعم أنَّ له ولداً وشريكاً ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ يعني القرآن، ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ﴾ استفهامُ تقرير ﴿مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي: مقامٌ للجاحدين[1]، وهو مشتقٌّ من: ثَوَى بالمكان، إذا أقام به يَثْوِي ثَوَاء وثُوِيّاً، مثل: مَضَى مَضَاء ومُضيّاً[2]، ولو كان من أَثْوَى لكان مُثْوًى. وهذا يدلّ على أن ثَوَى هي اللغةُ الفصيحة. وحكى أبو عُبيدة[3]: أثوى، وأنشد قول الأعشى:

أَثْــوَى وقَــصَّــر لَــيْــلَــةً لِــيُــزَوَّدا ومَضَى وأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِدا[4]

والأصمعيُّ لا يعرف إلا ثَوَى، ويروي البيت: أَثَوَى، على الاستفهام. وأَثْوَيتُ غيري يتعدَّى ولا يتعدَّى[5].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ في موضع رفع بالابتداء، وخبره ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[6]، واختلف في الذي جاء بِالصدقِ وصَدَّقَ بِهِ؛ فقال عليٌّ ﷺ: «الذي جاءَ بالصِّدْق» النبيُّ ﷺ، «وَصدَّقَ بِهِ» أبو بكر ﷺ[7]. وقال مجاهد: النبيُّ عليه الصلاة والسلام وعليّ ﷺ[8]. السّدي: الذي جاء بالصِّدق جبريلُ ﷺ، والذي صدَّق به

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٩ .

(٢) الصحاح (ثوي).

(٣) في النسخ: أبو عبيد، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١ ، والكلام منه. وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٠٧ .

(٤) ديوان الأعشى ص٢٧٧ .

(٥) الصحاح (ثوي).

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠٤ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣١ .

محمدٌ ﷺ[١]. وقال ابن زيد ومقاتل وقتادة: «الذي جاءَ بِالصِّدْق» النبيُّ ﷺ «وَصَدَّقَ به» المؤمنون. واستدلوا على ذلك بقوله: «أولئك هم المُتَّقُونَ»[٢]، كما قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال النَّخَعي ومجاهد: «الذي جاءَ بالصِّدْقِ وصَدَّقَ به» المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يومَ القيامة فيقولون: هذا الذي أعطيتمُونا قد اتَّبعنا ما فيه[٣]؛ فيكون «الذي» على هذا بمعنى جمع، كما تكون مَنْ بمعنى جمع، وقيل: بل حُذفت منه النون لِطُول الاسم. وتأوَّله الشعبي على أنه واحد، وقال: «الذي جاءَ بِالصِّدْقِ» محمد ﷺ، وصدَّق به محمد ﷺ[٤]، فيكون على هذا خبره جماعة؛ كما يقال لمن يُعظَّم: هو فعلوا، وزيد فعلوا كذا وكذا.

وقيل: إن ذلك عامٌّ في كل مَن دعا إلى توحيد الله عز وجل؛ قاله ابن عباس وغيره، واختاره الطبري[٥].

وفي قراءة ابن مسعود: «والذي جَاؤُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ»[٦] وهذه قراءة على التفسير. وفي قراءة أبي صالح الكوفي: «والذي جاءَ بِالصِّدْق وصَدَقَ به» مُخَفَّفاً على معنى: وصَدَقَ بمجيئه به، أي: صَدَقَ في طاعة الله عز وجل[٧]، وقد مضى في «البقرة» الكلامُ في «الَّذِي» وأنه يكون واحداً ويكون جمعاً[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧٩، وقول قتادة وابن زيد أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠٥.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠٦ عن مجاهد.

(٤) قوله وصدَّق به محمد ﷺ، ليس في (د) و(ز) و(م)، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢ وعبارته: الذي جاء بالصدق محمد ﷺ، وصدَّق به أبو بكر الصديق ﷺ والصحابة. والمثبت من (ظ) ونسخة من إعراب القرآن للنحاس أشار إليها محققه، وهو الصواب.

(٥) في تفسير الطبري ٢٠/ ٢٠٦، وأخرج قول ابن عباس ﷺ ٢٠/ ٢٠٤.

(٦) القراءات الشاذة ص١٣٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٣١، والدر المصون ٩/ ٤٢٧، ووقع في القراءات الشاذة: جاء، بدل: جاؤوا.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢، وقراءة أبي صالح في المحتسب ٢/ ٢٣٧.

(٨) ١/ ٣٢٠ - ٣٢١.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ﴾ أي: من النعيم في الجنة، كما يقال: لك إكرامٌ عندي؛ أي: يَنالك: مني ذلك. ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الثَّناء في الدنيا والثوابُ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: صَدَّقوا «لِيُكَفِّرَ اللهُ عنهم» ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي: يُكرمهم ولا يُؤاخذهم بما عملوا قبلَ الإسلام ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي: يُثيبهم على الطاعات في الدنيا ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهي الجنة.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ﴾ حُذفت الياء من «كاف» لِسُكونها وسكون التنوين بعدها؛ وكان الأصل ألا تُحذف في الوقف لِزوال التنوين، إلا أنها حُذفت لِيُعْلَمَ أنها كذلك في الوصل. ومن العرب من يُثبتها في الوقف على الأصل فيقول: كافي[(١)].

وقراءة العامة: «عَبْدَهُ» بالتوحيد؛ يعني محمداً ﷺ يَكفيه اللهُ وعيدَ المشركين وكَيْدَهم. وقرأ حمزة والكسائي: «عِبَادَهُ»[(٢)] وهم الأنبياء، أو الأنبياء والمؤمنون بهم. واختار أبو عُبيد قراءة الجماعة لقوله عقيبه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾[(٣)]. ويَحتمِلُ أن يكون العبدُ لفظ الجنس؛ كقوله عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] وعلى هذا تكون القراءةُ الأولى راجعةً إلى الثانية.

والكفاية [من][(٤)] شر الأصنام، فإنهم كانوا يُخوِّفون المؤمنين بالأصنام، حتى قال إبراهيم عليه السلام. ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢ .

(٢) السبعة ص٥٦٢ ، والتيسير ص١٨٨ .

(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٨١ .

(٤) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ.

﴿بِٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٨١]. وقال الجُرجاني: إنَّ الله كافٍ عبدَه المؤمن وعبدَه الكافر، هذا بالثواب وهذا بالعقاب.

قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ وذلك أنهم خوَّفوا النبيَّ ﷺ مَضَرَّةَ الأوثان، فقالوا: أتسبُّ آلهتَنا؟ لئن لم تَكُفَّ عن ذِكْرِها لَتَخْبِلَنَّكَ أو تُصيبنَّك بسوء[1]. وقال قتادة: مشى خالدُ بن الوليد إلى العُزَّى ليكسرَها بالفأس، فقال له سادِنها: أُحَذِّرُكَها يا خالد، فإن لها شدّةً لا يقوم لها شيء، فَعَمَدَ خالد إلى العُزَّى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس[2]. وتخويفُهم لخالد تخويفٌ للنبيِّ ﷺ؛ لأنه الذي وجَّه خالداً. ويدخل في الآية تخويفُهم النبيّ ﷺ بِكَثْرة جَمْعهم وقُوَّتهم؛ كما قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ تقدّم. ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي: ممن عاداه أو عادى رُسُلَه.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: ولئن سألتَهم يا محمد ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ بيَّنَ أنهم مع عبادتهم الأوثان مُقِرُّون بأنَّ الخالقَ هو الله، وإذا

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٢ بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢١٠.

كان الله هو الخالقَ فكيف يُخوِّفونَك بآلهتهم التي هي مخلوقةٌ لله تعالى، وأنت رسولُ اللهِ الذي خلقها وخلقَ السماواتِ والأرضَ؟!.

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾ أي: قل لهم يا محمد بعد اعترافهم بهذا: «أَفرأَيْتُمْ» ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بشدة وبلاء ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ يعني هذه الأصنام ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ نعمة ورَخاء ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ قال مقاتل: فسألهم النبيُّ ﷺ فسكتوا[1]. وقال غيره: قالوا: لا تَدْفَعُ شيئاً قدَّره الله، ولكنها تشفع، فنزلت: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ وترك الجواب لدلالة الكلام عليه؛ يعني فسيقولون: لا، ف «قُلْ» أنت: «حَسْبِيَ اللهُ» أي: عليه توكَّلتُ، أي: اعتمدتُ و﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يعتمد المعتمدون[2]. وقد تقدّم الكلام في التوكل[3].

وقرأ نافع وابن كثير والكوفيون ما عدا عاصماً: «كَاشفَاتُ ضُرِّه» بغير تنوين[4]. وقرأ أبو عمرو وشيبة ـ وهي المعروفة من قراءة الحسن ـ وعاصم[5]: «هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ»، «مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ» بالتنوين على الأصل[6]، وهو اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم؛ لأنه اسم فاعل في معنى الاستقبال، وإذا كان كذلك كان التنوين أجودَ. قال الشاعر:

الضاربون عُمَيْراً عن بيوتهم ... بالليل يوم عُمَير ظالمٌ عادي[7]

ولو كان ماضياً لم يَجُزْ فيه التنوين، وحذفُ التنوين على التخفيف[8]، فإذا

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨٠.

(٢) الكلام السالف في تفسير الطبري ٢٠/ ٢١١-٢١٢ بنحوه.

(٣) ٥/ ٢٩١ و٣٨٥.

(٤) السبعة ص٥٦٢، والتيسير ص١٩٠، وقراءة عاصم المشهورة عنه بغير تنوين، وقرأ بها ابن عامر أيضاً.

(٥) هذه رواية الكسائي عن أبي بكر عن عاصم، كما في السبعة ص٥٦٢، وهو غير المشهورة عنه.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣.

(٧) قائله القطامي، وهو في ديوانه ص٨٨، وفي الحُلل للبطليوسي ص١١٩.

(٨) في (ف) و(م): التحقيق، والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣، والكلام منه.

حذفت التنوين لم يَبْقَ بين الاسمين حاجزٌ، فخفضت الثاني بالإضافة. وحذفُ التنوين كثيرٌ في كلام العرب موجودٌ حسن؛ قال الله تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥] وقال: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ [القمر: ٢٧] قال سيبويه: ومثل ذلك ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ [المائدة: ١] وأنشد سيبويه[1]:

هل أنْتَ باعِثُ دِينارٍ لحاجتِنا ... أو عَبْدَ رَبٍّ أخا عَوْنِ بنِ مِخْراقِ[2]

وقال النابغة:

احْكُمْ كَحُكْمِ فتاةِ الحَيِّ إذْ نَظَرَتْ ... إلى حَمَام شِراعٍ وارِدِ الثَّمَدِ[3]

معناه: واردٍ الثَّمَدَ، فحذف التنوين؛ مثل «كَاشِفَاتُ ضُرِّه»[4].

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي: على مكانتي، أي: على جهتي التي تمكَّنتْ عندي[5] ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وقرأ أبو بكر: «مَكَانَاتِكُمْ» وقد مضى في «الأنعام»[6]. ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يُهينه ويُذِلُّه، أي: في الدنيا، وذلك بالجوع والسيف. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي: في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ تقدَّم الكلامُ في هذه الآيةِ مستوفىً في غير موضع[7].

---

(١) في الكتاب ١/ ١٧١ .

(٢) قال البغدادي في الخزانة ٨/ ٢١٩ : والبيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف قائلها، وقال ابن خلف: وقيل: هو لجابر بن رألان السِّنْبسي، وسِنبس: أبو حي من طيئ، ونسبه غير خَدمة سيبويه إلى جرير، وإلى تأبط شرًّا، وإلى أنه مصنوع. ا.هـ.

(٣) ديوان النابغة ص٣٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣-١٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤ .

(٦) ٩/ ٣٥ ، وقراءة أبي بكر في السبعة ص٢٦٩ ، والتيسير ص١٠٧ .

(٧) ١١/ ٦٠ .

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: يَقْبِضها عند فَناء آجالها ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ اختلف فيه. فقيل: يَقْبِضها عن التصرف مع بقاء أرواحها في أجسادها. ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ وهي النائمة، فيطلقها بالتصرف إلى أجل موتها؛ قاله ابن عيسى[(١)]. وقال الفراء[(٢)]: المعنى: ويَقْبِض التي لم تَمُتْ في منامها عند انقضاء أَجَلها. قال: وقد يكون تَوَفِّيها نَوْمَها؛ فيكون التقدير على هذا: والتي لم تمتْ وفاتُها نومُها.

وقال ابن عباس وغيره من المفسرين: إن أرواحَ الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله منها، فإذا أراد جميعُها الرُّجوعَ إلى الأجساد أَمْسك الله أرواحَ الأموات عنده، وأرسل أرواحَ الأحياء إلى أجسادها.

وقال سعيد بن جُبير: إن الله يقبض أرواحَ الأموات إذا ماتوا وأرواحَ الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ فيُعيدها[(٣)].

قال علي ﷺ: فما رأته نَفْسُ النائم وهي في السماء قبل إرسالها إلى جسدها فهي الرؤيا الصادقة، وما رأته بعد إرسالها وقبل استقرارها في جسدها تلقيها الشياطين، وتُخيِّل إليها الأباطيل فهي الرؤيا الكاذبة[(٤)]. وقال ابن زيد: النوم وفاةٌ والموتُ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٢٨ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤٢٠ .

(٣) في (م): أي: يعيدها.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٢٨ - ١٢٩ ، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري ٢٠/ ٢١٥ .

وفاة[١]. وعن النبي ﷺ قال: «كما تنامون فكذلك تموتون، وكما توقظون فكذلك تُبعثون»[٢]. وقال عمر: النوم أخو الموت. ورُوي مرفوعاً من حديث جابر بن عبد الله قيل: يا رسولَ الله، أينام أهلُ الجنة؟ قال: «لا، النومُ أخو الموت، والجنةُ لا موتَ فيها» خرجه الدارقطني[٣]. وقال ابن عباس: في ابن آدم نفسٌ وروح بينهما مثلُ شعاع الشمس، فالنفسُ التي بها العقل والتمييز، والروحُ التي بها النَّفَسُ والتحريك، فإذا نام العبدُ قبضَ اللهُ نَفْسَه ولم يقبضْ رُوحَه[٤]. وهذا قولُ ابن الأنباري والزجاج[٥].

قال القشيري أبو نصر: وفي هذا بُعْدٌ، إذ المفهوم من الآية أنّ النَّفْسَ المقبوضة في الحالين شيء واحد؛ ولهذا قال: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فإذاً يَقبِضُ اللهُ الروحَ في حالين، في حالة النوم وحالة الموت، فما قبضَه في حال النوم فمعناه أنه يَغْمُرُه بما يَحْبِسُه عن التصرف، فكأنه شيء مقبوض، وما قبضَه في حال الموت فهو يُمسكه ولا يُرسله إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي: يُزيل الحابسَ عنه فيعود كما كان. فَتوفّي الأنفس في حال النوم بإزالة الحِسّ وخَلْق الغَفْلة والآفة في مَحَلّ الإدراك. وتوفِّيها في حالة الموت بخلق الموت وإزالةِ الحِسّ بالكُلِّية.

﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ بألا يَخلُقَ فيها الإدراكَ، كيف وقد خلقَ فيها الموت؟ ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ بأنْ يُعيدَ إليها الإحساسَ.

الثانية: وقد اختلف الناسُ من هذه الآية في النفس والروح؛ هل هما شيءٌ واحد أو شيئان على ما ذكرنا. والأظهر أنهما شيءٌ واحد، وهو الذي تدلُّ عليه

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٢١٦ .

(٢) لم نقف عليه.

(٣) لم نقف عليه عند الدارقطني، وسلف ٥/ ١٥٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٤ بنحوه.

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٥٦ .

الآثار الصحاح على ما نذكره في هذا الباب، من ذلك حديث أُمِّ سلمة قالت: دخل رسولُ الله ﷺ على أبي سلمة وقد شقَّ بصرُه فأغمضه، ثم قال: «إنَّ الرُّوحَ إذا قُبِض تَبِعه البصرُ» وحديث أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ألم تروا الإنسانَ إذا مات شَخَصَ بَصرُه» قال: «فذلك حين يَتْبع بَصَرُه نَفْسَه» خرجهما مسلم[1].

وعنه عن النبي ﷺ قال: «تحضرُ الملائكةُ فإذا كان الرجلُ صالحاً قالوا: اخرجي أيتها النَّفْسُ الطَّيِّبة كانت في الجسدِ الطَّيِّب، اخرجي حميدةً، وأَبشري برَوْح ورَيْحان وربٍّ راضٍ غيرِ غَضْبان، فلا يزالُ يقال لها ذلك حتى تخرجَ، ثم يُعرج بها إلى السماء» وذكر الحديث، وإسناده صحيح، خرجه ابن ماجه[2]؛ وقد ذكرناه في «التذكرة»[3].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: «إذا خَرجَتْ روحُ المؤمن تلقَّاها مَلَكان يَصْعَدان بها». وذكر الحديث[4].

وقال بلال في حديث الوادي: أخذ بنَفْسي يا رسول الله الذي أَخَذَ بنفسك[5]. وقال رسولُ الله ﷺ مقابلاً له في حديث زيد بن أسلم في حديث الوادي: «يا أيها الناس، إن الله قبضَ أرواحَنا، ولو شاء ردَّها إلينا في حينٍ غيرِ هذا»[6].

الثالثة: والصحيح فيه أنه جسمٌ لطيفٌ مُشابِكٌ للأجسام المحسوسة، يُجذَب ويُخْرج وفي أكفانه يُلَف ويُدرَج، وبه إلى السماء يُعرَج، لا يموت ولا يفنى، وهو مما له أوّل وليس له آخر، وهو بعينين ويدين، وأنه ذو ريح طيبة وخبيثة؛ كما في حديث

(١) برقم (٩٢٠) و(٩٢١)، والحديث الأول أخرجه أحمد (٢٦٥٤٣).

(٢) الحديث (٤٢٦٢)، وهو في مسند أحمد (٨٧٦٩).

(٣) ص٥٠ .

(٤) صحيح مسلم (٢٨٧٢).

(٥) أخرجه مسلم (٦٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) أخرجه مالك ١/ ١٤ بهذا اللفظ، وأخرجه بنحوه أحمد (٢٢٦١١)، والبخاري (٥٩٥) من حديث أبي قتادة ﷺ.

أبي هريرة. وهذه صفةُ الأجسام لا صفة الأعراض؛ وقد ذكرنا الأخبارَ بهذا كلِّه في كتاب «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة»(١). وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣] يعني النَّفْس إلى خروجها من الجسد؛ وهذه صفةُ الجسم. والله أعلم.

الرابعة: خرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن رسولَ الله ﷺ قال: «إذا أوى أحدُكم إلى فِراشه فَلْيأخُذْ داخِلةَ إزاره فلينفُضْ بها فِراشَه وَلْيُسَمِّ اللهَ، فإنه لا يعلم ما خَلَفَهُ بعده(٢) على فراشه، فإذا أرادَ أن يضطجعَ فَلْيضطجِعْ على شِقِّه الأيمن، وليقل: سبحانك ربي، بك(٣) وضعتُ جنبي وبك أرفعه، إن أمسكتَ نَفْسي فاغفِرْ لها». وقال البخاري وابن ماجه والترمذي: «فارحمها» بدل«فاغفر لها»، «وإنْ أَرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» زاد الترمذي «وإذا استيقظ فليقل: الحمد لله الذي عافاني في جسدي وردَّ عليَّ روحي، وأَذِنَ لي بذِكْره»(٤).

وخرج البخاري عن حُذَيْفة قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا أخذ مَضْجعه من الليل وضعَ يدَه تحت خدِّه؛ ثم يقول: «اللهم باسمك أموتُ وأحيا» وإذا استيقظ قال «الحمدُ لله الذي أحيانا بعدما أماتَنا وإليه النُّشور»(٥).

قوله تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ هذه قراءة العامة على أنه مسمَّى الفاعل «الموْتَ» نصباً؛ أي: قضى الله عليها، وهو اختيار أبي حاتم وأبي عُبيد؛ لقوله في أول الآية: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ فهو يقضي عليها.

---

(١) ص٥٧ وما بعدها.

(٢) في النسخ: بعد، والمثبت من صحيح مسلم.

(٣) قوله: بك، ليس في (د) و(ز) و(م)، وفي (ف): لك وأثبتناه من المصادر.

(٤) صحيح البخاري (٦٣٢٠)، وصحيح مسلم(٢٧١٤)، وسنن ابن ماجه (٣٨٧٤) وسنن الترمذي (٣٤٠١). وهو في مسند أحمد (٧٨١١)، وقوله: بداخلة إزاره: أي: بالطرف الذي يلي الجسد. قاله السندي في حاشية مسند أحمد.

(٥) صحيح البخاري (٦٣١٤)، وهو في مسند أحمد (٢٣٢٨٦).

وقرأ الأعمش ويحيى بن وثَّاب وحمزة والكسائي: «قُضِيَ عليها الموتُ» على ما لم يُسَمَّ فاعله[١]. النحاس[٢]: والمعنى واحدٌ غير أن القراءةَ الأُولى أبينُ وأشبهُ بنسق الكلام؛ لأنهم قد أجمعوا على «وَيُرْسِلُ» ولم يقرؤوا: «ويُرسَل».

وفي الآية تنبيهٌ على عظيم قُدرته وانفراده بالأُلوهية، وأنه يفعل ما يشاء، ويُحيِي ويُميت، لا يقدر على ذلك سواه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ يعني في قبض الله نَفْسَ الميت والنائم، وإرساله نَفْسَ النائم وحَبْسه نَفْسَ الميت ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقال الأصمعي: سمعتُ معتمراً يقول: روحُ الإنسان مثلُ كُبَّة الغَزْل، فترسل الروح، فتمضي ثم تمضي، ثم تُطوى فتجيء فتدخل، فمعنى الآية أنه يُرسَل من الروح شيء في حال النوم ومعظمُها في البدن متصلٌ بما يخرج منها اتصالاً خفيّاً، فإذا استيقظ المرءُ جذب معظمَ روحه ما انبسط منها فعاد. وقيل غير هذا؛ وفي التنزيل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] أي: لا يعلم حقيقته إلا الله. وقد تقدّم في «سبحان».

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ أي: بل اتَّخذوا، يعني: الأصنام، وفي الكلام ما يتضمَّن لم؛ أي: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لم يتفكَّروا، ولكنهم اتَّخذوا آلهتهم شُفعاء.

---

(١) قراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٥٦٢، والتيسير ص١٩٠.

(٢) في إعراب القرآن ٤/ ١٤، وما قبله منه.

﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ أي: قُلْ لهم يا محمد: أَتتخذونهم شُفعاءَ وإن كانوا لا يَملِكون شيئاً من الشفاعة ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ لأنها جمادات[١]. وهذا استفهامُ إنكار.

﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ نصٌّ في أن الشفاعةَ لله وحدَه كما قال: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٤] فلا شافعَ إلا من شفاعته ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

«جَميعاً» نصب على الحال. فإن قيل: «جَميعاً» إنما يكون للاثنين فصاعداً والشفاعة واحدة. فالجواب أن الشفاعة مصدر والمصدر يؤدَّى عن الاثنين والجميع[٢] ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ نصب على المصدر عند الخليل وسيبويه، وعلى الحال عند يونس. ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ قال المبرد: انقبضت[٣]. وهو قول ابن عباس ومجاهد[٤]. وقال قتادة: نفرتْ واستكبرتْ وكَفرتْ وتعصَّتْ[٥]. وقال المُؤَرِّج: أنكرت. وأصلُ الاشمئزاز النُّفور والازورار. قال عمرو بن كُلْثوم:

إذا عَضَّ الثِّقافُ بِها اشْمَأَزَّتْ ... وَوَلَّتْهُمْ عَشَوْزَنَةً زَبُونا[٦]

وقال أبو زيد: اشمأَزَّ الرجلُ: ذُعِرَ من الفَزَع، وهو المذعور[٧]. وكان المشركون إذا قيل لهم: لا إله إلا الله نفروا وكفروا[٨]، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ يعني

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٨١ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢١٦ بنحوه.

(٦) معلقة عمرو بن كلثوم (بشرح ابن كيسان) ص٨٥. قال الشارح: الثِّقاف: الخشبة التي تُقوَّم بها الرماح، والعَشَوْزنة: الناقة السيئة الخلق التي تزبن من يحتلبها، أي: تدفعه بيدها ورجلها.

(٧) الصحاح (شمز).

(٨) تهذيب اللغة ١١/ ٣٠٦.

الأوثان حين ألقى الشيطان في أُمنية النبي ﷺ عند قراءته سورة «والنجم»: تلك الغَرانيقُ العُلَى وإن شفاعتَهم تُرْتَجَى. قاله جماعةُ المفسرين[1]. ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يظهر في وجوههم البِشر والسُّرور.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٤٦ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ۝٤٧ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ نصب لأنه نداء مضاف، وكذا ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ﴾ ولا يجوز عند سيبويه أن يكون نعتاً[2].

﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وفي «صحيح» مسلم: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشةَ رضي الله عنها: بأي شيء كان النبيُّ ﷺ يستفتح صلاتَه إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاتَه: «اللهم ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ اهدني لما اختُلف فيه من الحقّ بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[3].

ولمَّا بلغ الربيع بن خُثيم[4] قَتْلَ الحسين بن علي ﷺ قرأ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٨١ بنحوه، وقصة الغرانيق باطلة موضوعة، وسلفت ١٤/ ٤٢٧ ، ينظر الكلام عليها ثمة.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٥ .

(٣) صحيح مسلم (٧٧٠)، وأخرجه أحمد (٢٥٢٢٥).

(٤) في (د) و(ظ) و(ف) و(م): خيثم، والمثبت من (ز) وكتب الرجال.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[١].

وقال سعيد بن جُبير: إني لأعرفُ آيةً ما قرأها أحدٌ قطُّ فسألَ اللهَ شيئاً إلاَّ أعطاه إيَّاه؛ قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: كذَّبوا وأَشركوا ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: من سوء عذاب ذلك اليوم. وقد مضى هذا في سورة «آل عمران» و«الرعد»[٣].

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ من أجلِّ ما رُوي فيه ما رواه منصور عن مجاهد قال: عَمِلوا أعمالاً توهَّموا أنها حسناتٌ فإذا هي سيئات. وقاله السدي. وقيل: عملوا أعمالاً توهَّموا أنهم يتوبون منها قبلَ الموت، فأدركهم الموتُ قبل أن يتوبوا، وقد كانوا ظنُّوا أنهم ينجون بالتوبة. ويجوز أن يكونوا توهَّموا أنه يُغفر لهم من غير توبة ف ﴿بَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ من دخول النار[٤].

وقال سفيان الثوري في هذه الآية: ويلٌ لأهل الرِّياء، ويلٌ لأهل الرِّياء، هذه آيتُهم وقصَّتُهم. وقال عكرمة بن عمار[٥]: جَزِعَ محمدُ بن المنكدر عند موته جزعاً شديداً، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: أخاف آيةً من كتاب الله ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ١١١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٣٠ .

(٣) ٥/ ١٩٨ وما بعدها و١٢/ ٥٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٥ دون قوله: وقاله السدي، وذكره عن السدي البغوي في تفسيره ٤/ ٨٢ .

(٥) أبو عمار العجلي، البصري، الحافظ، من حملة الحجة وأوعية الصدق، مات سنة (١٥٩هـ). السير ٧/ ١٣٤ . وقوله هذا في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٥ ، وقول سفيان الذي قبله فيه وفي الكشاف ٣/ ٤٠١ .

﴿لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ فأنا أخشى أن يَبدوَ لي ما لم أكن أحتسب.

﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي: ظهر لهم ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: عقابُ ما كسبوا من الكُفر والمعاصي. ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم ونزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ قيل: إنها نزلت في أبي[1] حُذَيفة بن المغيرة.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ قال قتادة: «على عِلْم»[2] عندي بوجوه المكاسب، وعنه أيضاً «على عِلْم» على خير عندي. وقيل: «على عِلْم» أي: على علم من الله بفضلي. وقال الحسن: «على عِلْم» أي: بعلم علَّمني اللهُ إيَّاه[3]. وقيل: المعنى أنه قال: قد علمتُ أني إذا أُوتيت هذا في الدنيا أن لي عند الله منزلةً؛ فقال الله: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي: بل النِّعم التي أُوتيتَها فتنةٌ تُختبر بها[4].

قال الفراء[5]: أنَّثَ «هي» لِتأنيث الفتنة، ولو كان: بل هو فتنة لجاز. النحاس: التقدير: بل أُعطِيتَهُ فتنةً.

---

(١) لفظة: أبي، ليست في (م). والكلام من النكت والعيون ٥/ ١٣٠ .

(٢) قوله قال: قتادة: «على علم» من (م).

(٣) الأقوال السالفة في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٦ ، والنكت والعيون ٥/ ١٣٠ .

(٤) معاني القرآن للنحاس٦/ ١٨٢ - ١٨٣ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٤٢٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٥ .

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن إعطاءهم المالَ اختبار.

قوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ أنّثَ على تأنيث الكلمة[١] ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني الكفار قبلَهم، كقارون وغيره حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ «ما» للجحد، أي: لم تُغن عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من عذاب الله شيئاً[٢]. وقيل: أي: فما الذي أغنى أموالهم؟ ف«ما» استفهام.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: جزاء سيئات أعمالهم. وقد يُسمَّى جزاء السيئة سيئةً. ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا ﴿مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأمة ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: بالجوع والسيف. ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: فائتين الله ولا سابقيه. وقد تقدّم[٣].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خصَّ المؤمن بالذِّكر؛ لأنه هو الذي يتدبَّر الآياتِ وينتفع بها. ويعلم أن سَعةَ الرِّزق قد يكون مكراً واستدراجاً، وتقتيره رِفعةً وإعظاماً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوٓا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ وإنْ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٥ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٨٢ بنحوه.

(٣) ٩/ ٣٥ و١١/ ٨ .

شئتَ حذفتَ الياء؛ لأن النداء موضع حذف. النحاس[١]: ومن أجلّ ما رُوي فيه ما رواه محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال: لما اجتمعنا على الهجرة، اتَّعَدْتُ أنا وهشام بن العاصي بن وائل السَّهْمي وعَيَّاش بن أبي ربيعة بن عُتْبة[٢]، فقلنا: الموعد أَضاةَ[٣] بني غفار، وقلنا: من تأخَّر منا فقد حُبِس فَلْيمضِ صاحبُه، فأصبحتُ أنا وعيَّاش بن عُتبة، وحُبس عنا هشام، وإذا به قد فُتن فافتتن، فكنا نقول بالمدينة: هؤلاء قد عَرَفوا الله عز وجل وآمنوا برسوله ﷺ، ثم افتتنوا لبلاءٍ لحقهم لا نرى لهم توبة، وكانوا هم أيضاً يقولون هذا في أنفسهم، فأنزل الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

قال عمر: فكتبتها بيدي ثم بعثتُها إلى هشام. قال هشام: فلما قدمَتْ عليَّ خرجت بها إلى ذي طُوًى، فقلت: اللهم فَهِّمْنيها، فَعَرَفْتُ أنها نزلت فينا، فرجَعْتُ فجلست على بعيري، فلحقتُ برسول الله ﷺ[٤].

وعن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: كان قومٌ من المشركين قَتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فقالوا للنبيِّ ﷺ، أو بعثوا إليه: إنَّ ما تدعو إليه لحسن، لو تُخبرنا[٥] أن لنا توبةً؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[٦]

---

(١) إعراب القرآن ٤/ ١٦ ، وما قبله منه.

(٢) كذا في النسخ: عيَّاش بن أبي ربيعة بن عتبة، وفي إعراب القرآن للنحاس: عيَّاش بن عتبة، والذي في المصادر: عياش بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله القرشي المخزومي. الإصابة ٧/ ١٨٤ ، والقصة فيها في ترجمة هشام بن العاص ١٠/ ٢٤٦ وصحَّح الحافظ ابن حجر إسنادها.

(٣) الأضاة: الغدير. اللسان (أضي).

(٤) السيرة النبوية ١/ ٤٧٥ - ٤٧٦ ، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣٩٠-٣٩١ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): أو تخبرنا، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمصادر.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٦ .

ذكره البخاري بمعناه[١]. وقد مضى في آخر «الفرقان»[٢].

وعن ابن عباس أيضاً نزلت في أهل مكة قالوا: يزعم محمدٌ أن مَن عَبَدَ الأوثانَ وقتلَ النَّفس التي حرَّم الله لم يُغفر له، وكيف نُهاجر ونُسْلم وقد عَبَدنا مع الله إلهاً آخرَ، وقتلنا النَّفْس التي حرَّم الله؟! فأنزل الله هذه الآية[٣].

وقيل: إنها نزلتْ في قوم من المسلمين أَسرفوا على أنفسهم في العبادة، وخافوا ألّا يتقبلَ منهم لذنوب سبقتْ لهم في الجاهلية.

وقال ابن عباس أيضاً وعطاء: نزلت في وحشيّ قاتل حمزةَ؛ لأنه ظنَّ أن الله لا يقبل إسلامَه. وروى ابن جُريج عن عطاء عن ابن عباس قال: أَتَى وَحْشيٌّ إلى النبيّ ﷺ؛ فقال: يا محمد، أتيتُك مُستجيراً فأَجِرْني حتى أسمعَ كلامَ الله. فقال رسولُ الله ﷺ: «قد كنتُ أُحِبُّ أن أراك على غير جوار، فأما إذ أتيتني مُستجيراً فأنت في جواري حتى تسمعَ كلامَ الله» قال: فإني أشركتُ بالله وقتلتُ النفس التي حرم الله وزنيتُ، هل يقبلُ الله مني توبة؟ فصمتَ رسول الله ﷺ حتى نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨] إلى آخر الآية، فتلاها عليه؛ فقال: أرى شرطاً فلعلي لا أعمل صالحاً، أنا في جوارك حتى أسمعَ كلام الله. فنزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] فدعا به فتلاها عليه؛ قال: فلعلي ممن لا يشاء، أنا في جوارك حتى أسمع كلامَ الله. فنزلت: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ فقال: نعم، الآن لا أرى شرطاً. فأسلم[٤].

---

(١) الحديث (٤٨١٠)، والسائل هو وحشي بن حرب قاتل حمزة رضي الله عنهما فيما ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٥٥٠.

(٢) ١٥/ ٤٧٩.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٢٤، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٨٩.

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٧١٤٠)، والواحدي في أسباب النزول ص٣٤٩ - ٣٥٠.

وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن شَهْر بن حَوْشَب عن أسماء أنها سمعت النبيَّ ﷺ يقرأ: «قُلْ يا عبادِيَ الذين أَسْرَفُوا على أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحمةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جمِيعاً ولا يُبالي، إنَّه هو الغَفُورُ الرحيمُ»[١]. وفي مصحف ابن مسعود: «إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعاً لِمَنْ يشاءُ»[٢].

قال أبو جعفر النحاس[٣]: وهاتان القراءتان على التفسير، أي: يغفر الله لمن يشاء. وقد عرَّف الله عز وجل من شاء أن يغفر له، وهو التائب أو من عمل صغيرةً ولم تكن له كبيرة، ودلّ على أنه يريد التائب ما بعده «وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ» فالتائب مغفور له ذنوبُه جميعاً، يدل على ذلك ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢] فهذا لا إشكالَ فيه.

وقال عليّ بن أبي طالب: ما في القرآن آيةٌ أوسعَ من هذه الآية ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[٤] وقد مضى هذا في «سبحان»[٥].

وقال عبد الله بن عمر: وهذه أرجى آية في القرآن، فردَّ عليهم ابن عباس وقال: أرجى آية في القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾[٦] وقد مضى في «الرعد» [الآية: ٦].

وقُرئ: «لا تَقْنُطُوا» بكسر النون وفتحها[٧]. وقد مضى في «الحجر» بيانه[٨].

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: ارجعوا إليه بالطاعة. لمَّا بيَّن أن من تاب

(١) أخرجه الدوري في قراءات النبي ﷺ (٦٠)، والترمذي (٣٢٣٧) وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث ثابت عن شهر بن حوشب. وأسماء: هي بنت يزيد أم سلمة الأنصارية رضي الله عنها.

(٢) ذكره ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٢ .

(٣) في إعراب القرآن ٤/ ١٦ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٣١ .

(٥) ١٠/ ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٦ .

(٧) قرأ بكسر النون أبو عمرو والكسائي، والباقون بفتحها. السبعة ص٣٦٧ ، والتيسير ص١٣٦ .

(٨) ١٢/ ٢٢٣ - ٢٢٤ .

من الشِّرك يغفر له أمر بالتوبة والرجوع إليه، والإنابةُ الرجوع إلى الله بالإخلاص. ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُۥ﴾ أي: اخضعوا له وأطيعوا ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: لا تُمنعون من عذابه. ورُوي من حديث جابر أن رسولَ الله ﷺ قال: «مِن السعادة أن يُطيل اللهُ عُمُرَ المرء في طاعة الله[١] ويرزقه الإنابةَ، وإنَّ من الشَّقاوة أن يعملَ المرءُ ويُعجب بعمله»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ «أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ» هو القرآن، وكلُّه حسنٌ، والمعنى ما قال الحسن: التزموا طاعتَه، واجتنبوا معصيتَه. وقال السدّي: الأحسنُ ما أمر الله به في كتابه[٣].

وقال ابن زيد: يعني المُحكمات، وكِلُوا عِلْمَ المُتشابه إلى عالمه. وقيل: أنزل الله كُتباً: التوراة والإنجيل والزبور، ثم أنزل القرآن، وأمر باتّباعه، فهو الأحسن، وهو المُعجِز. وقيل: هذا أحسنُ، لأنه ناسخٌ قاض على جميع الكتب، وجميع الكتب منسوخة. وقيل: يعني العفو؛ لأن الله تعالى خيَّر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بين العفو والقِصاص. وقيل: ما علَّم الله النبيَّ عليه الصلاة والسلام وليس بقرآن فهو حسن، وما أوحى إليه من القرآن فهو الأحسن. وقيل: أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية.

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ «أَنْ» في موضع نصب، أي: كراهةَ «أَنْ تقولَ» وعند الكوفيين: لئلا تقول[٤]، وعند البصريين حَذَرَ «أَنْ تقولَ». وقيل: أي:

---

(١) في (م): الطاعة.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٨٩)، وفي إسناده كثير بن زيد الأسلمي. ضعَّفه أكثرهم. كما في الميزان ٣/ ٤٠٤ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٨٥ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ .

من قبل «أَنْ تقولَ نَفْسٌ» لأنه قال قبل هذا: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾[١].

الزمخشري[٢]: فإنْ قلتَ: لم نُكِّرتْ؟ قلت: لأن المُرادَ بها بعضُ الأنفس، وهي نفسُ الكافر. ويجوز أن يُريد نفساً متميزة من الأنفس، إمّا بلجاج في الكفر شديد، أو بعقاب عظيم. ويجوز أن يُراد التكثير كما قال الأعشى:

ورُبَّ بَقيعٍ لو هَتَفْتُ بِجَوِّهِ أتاني كَريمٌ يَنْفُضُ الرأسَ مُغْضَبا[٣]

وهو يريد أفواجاً من الكرام ينصرونه، لا كريماً واحداً، ونظيره: رُبَّ بلدٍ قطعتُ، وربَّ بطلٍ قارعتُ، ولا يقصد إلا التكثير[٤].

«يا حَسْرَتا» والأصل «يا حَسْرَتي» فأُبدل من الياء ألف؛ لأنها أخفُّ وأمكن في الاستغاثة بمد الصوت[٥]، وربما ألحقوا بها الهاء؛ أنشد الفراء:

يا مَرْحَباهِ بحمارِ ناجِيَهْ إذا أتَى قَرَّبْتُه لِلسَّانِيَهْ[٦]

وربما ألحقوا بها الياء بعد الألف؛ لتدلَّ على الإضافة. وكذلك قرأها أبو جعفر: «يا حَسْرتايَ»[٧]. والحَسْرة الندامة.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ قال الحسن: في طاعة الله[٨]. وقال الضحاك: أي: في ذكر الله عزّ وجلّ. قال: يعني القرآن والعمل به[٩]. وقال أبو عُبيدة: «في جَنْب

---

(١) زاد المسير ٧/ ١٩٢ بنحوه.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٠٤ .

(٣) ديوان الأعشى ص١٦٥ .

(٤) الكشاف ٣/ ٤٠٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ بنحوه.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٢٢ ، وفيه: ناهيه، بدل ناجيه. والرجز في الخزانة ٢/ ٣٨٧ . وفيها: السانية: الدلو العظيمة وأداتها.

(٧) النشر ٢/ ٣٦٢ .

(٨) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨٥ .

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ .

الله» أي: في ثواب الله[1]. وقال الفراء: الجَنْب القُرب والجوار؛ يقال: فلان يعيشُ في جَنْبِ فلان، أي: في جِواره؛ ومنه ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦] أي: على ما فرَّطْتُ في طلب جِواره وقُربه، وهو الجنة[2]. وقال الزجاج[3]: أي: على ما فرَّطتُ في الطريق الذي هو طريق الله الذي دعاني إليه.

والعرب تُسمِّي السببَ والطريق إلى الشيء جَنْباً؛ تقول: تجرعتُ في جَنْبك غصصاً؛ أي: لأجلك وسببك ولأجل مَرْضاتك. وقيل: «في جَنْبِ اللهِ» أي: في الجانب الذي يؤدِّي إلى رضا الله عزّ وجلّ وثوابه، والعرب تُسمِّي الجانبَ جَنْباً[4]، قال الشاعر:

قُسِمَ مَجْهُوداً لِذاكَ القَلْبُ ... النَّاسُ جَنْبٌ والأميرُ جَنْبُ[5]

يعني: الناس من جانب والأمير من جانب. وقال ابن عرفةَ: أي: تركتُ من أمر الله؛ يقال: ما فعلت ذلك في جَنْب حاجتي؛ قال كُثَيِّر:

ألا تَتَّقِينَ اللهَ في جَنْبِ عاشِقٍ ... له كَبِدٌ حرَّى عليكِ تَقَطَّعُ[6]

وكذا قال مجاهد؛ أي: ضيعت من أمر الله[7]. ويُروى عن النبي ﷺ أنه قال: «ما جلسَ رجلٌ مَجْلِساً، ولا مَشَى ممشى، ولا اضطجع مُضطجعاً لم يذكُرِ اللهَ عزَّ وجلَّ فيه إلا كان عليه تِرَةً يومَ القيامة» أي: حسرةً؛ خرجه أبو داود بمعناه[8]. وقال إبراهيم التيمي: من الحَسَرات يومَ القيامة أن يرى الرجلُ مالَه الذي آتاه اللهُ في الدنيا يومَ

---

(١) في مجاز القرآن، ٢/ ١٩٠ لأبي عبيدة: «في جنب الله» وفي ذات الله واحد.

(٢) ذكره عن الفراء ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ١٩٢.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٥٩.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٨٥.

(٥) لم نقف على قائل هذا الرجز، وأورد البيت الثاني الأخفش في معاني القرآن ١/ ٤٤٦.

(٦) ديوان كُثَيِّر ص١٧٧، وفيه: حبّ، بدل: جنب، وتصدّع، بدل: تقطّع.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٨ بنحوه.

(٨) سنن أبي داود (٤٨٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أحمد (٩٥٨٣) بنحوه، واللفظ الذي أورده المصنف في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧.

القيامة في ميزان غيره قد وَرِثه وعَمِلَ فيه بالحق، كان له أجرُه وعلى الآخر وِزْرُه، ومن الحَسَرات أن يرى الرجلُ عبدَه الذي خوَّله الله إياه في الدنيا أقربَ منزلةً من الله عزّ وجلّ، أو يرى رجلاً يعرفه أعمى في الدنيا قد أبصر يومَ القيامة وعَمِيَ هو[(١)].

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي: وما كنت إلا من المُستهزئين بالقرآن وبالرسول في الدنيا بأولياء الله، قال قتادة: لم يَكْفِهِ أن ضيَّع طاعةَ الله حتى سَخِرَ من أهلها[(٢)].

ومحلّ «إن كنت» النصب على الحال؛ كأنه قال: فرَّطْتُ وأنا ساخر؛ أي: فرَّطت في حال سُخريتي[(٣)]. وقيل: وما كنت إلا في سُخرية ولعب وباطل؛ أي: ما كان سعيي إلا في عبادة غيرِ الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ هذه النَّفس ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ أي: أرشدني إلى دينه ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الشِّركَ والمعاصي. وهذا القولُ: لو أن الله هداني لاهتديت، قولُ صِدْق. وهو قريبٌ من احتجاج المشركين فيما أخبر الربُّ جلّ وعزّ عنهم في قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] فهي كلمةُ حقٍّ أُريد بها باطل؛ كما قال عليٌّ ﷺ لمَّا قال قائلٌ من الخوارج: لا حكم إلا لله[(٤)].

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ يعني هذه النَّفس ﴿حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ أي: رَجْعة. ﴿فَأَكُونَ﴾ نصب على جواب التمني، وإن شئت كان معطوفاً على «كَرَّةً» لأن معناه: أنْ أكرَّ؛ كما قال الشاعر:

لَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وتَقَرَّ عَيْنِي ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ[(٥)]

وأنشد الفراء:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٣٤ .

(٣) الكشاف ٣/ ٤٠٤ .

(٤) أخرجه مسلم (١٠٦٦): (١٥٧).

(٥) قائلته ميسون بنت بحدل الكلبية، وسلف الشطر الأول ٨/ ٥٠ ، ينظر تخريجه ثمة، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨ .

فما لكَ مِنها غيرُ ذِكْرى وخَشْيَةٍ   وتسألَ عن رُكْبَانِها أين يَمَّمُوا[١]

فنصب وتسألَ على موضع الذِّكرى؛ لأن معنى الكلام: فمالكَ منها إلا أن تذكرَ. ومنه: لَلُبْسُ عباءة وتَقَرَّ؛ أي: لأنْ أَلْبَسَ عباءةً وتقرَّ.

وقال أبو صالح: كان رجلٌ عالم في بني إسرائيل وجد رقعة: إنَّ العبدَ لَيعملُ الزمانَ الطويل بطاعة الله، فيختمُ له عملُه بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن الرجلَ لَيعمل الزمنَ الطويل بمعصية الله، ثم يختمُ له عمله بعمل رجل من أهل الجنة فيدخل الجنة؛ فقال: ولأي شيء أُتعِبُ نفسي، فترك عملَه وأخذ في الفسوق والمعصية، وقال له إبليس: لك عمرٌ طويل، فتمتَّعْ في الدنيا ثم تتوب، فأخذ في الفسوق وأنفق مالَه في الفجور، فأتاه ملكُ الموت في ألذِّ ما كان، فقال: يا حسرتا على ما فرَّطتُ في جَنْب الله؛ ذهب عمري في طاعة الشيطان، فندم حين لا ينفعه النَّدم؛ فأنزل الله خبره في القرآن[٢].

وقال قتادة: هؤلاء أصناف؛ صِنْفٌ منهم قال: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، وصنفٌ منهم قال: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وقال آخر: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٣]. فقال الله تعالى ردّاً لِكلامهم: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾.

قال الزجاج[٤]: «بلى» جوابُ النفي، وليس في الكلام لفظُ النفي، ولكن معنى «لو أنَّ الله هَدَانِي» ما هداني، وكأن هذا القائلَ قال: ما هُدِيت؛ فقيل: بلى، قد بُيِّن لك طريق الهُدى، فكنت بحيث لو أردتَ أن تُؤمِنَ أمكنك أن تُؤمن.

«آيَاتِي» أي: القرآن. وقيل: عنى بالآياتِ المُعجزاتِ؛ أي: وَضَحَ الدليل فأنكرتَه وكذَّبته ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ أي: تكبَّرت عن الإيمان ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقال: ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ﴾ وهو خِطاب الذَّكَر؛ لأن النَّفس تقع على الذَّكَر

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٢٣، وفيه: وحسبة، بدل: وخشية. ولم نهتد إلى قائله.

(٢) ذكر القصة بنحوها ومختصرة الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٠٤ ولم ينسبها.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٣٦.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٥٩ - ٣٦٠.

والأُنثى. يقال: ثلاثة أنفس. وقال المبرّد: تقول العرب: نفسٌ واحدٌ، أي: إنسان واحد.

وروى الربيع بن أنس عن أُمّ سَلَمة عن النبي ﷺ قرأ: «قد جاءَتْكِ آياتي فَكَذَّبْتِ بهَا واستَكْبَرْتِ وكنت من الكافرين»[١].

وقرأ الأعمش: «بلى قد جاءَتْهُ آيَاتي»[٢] وهذا يدلُّ على التذكير. والربيع بن أنس لم يَلْحَقْ أُمَّ سَلَمَةَ إلا أن القراءةَ جائزة؛ لأن النَّفس تقع للمذكَّر والمؤنث. وقد أنكر هذه القرءاةَ بعضُهم وقال: يجب إذا كسر التاء أن تقول: وكنتِ من الكوافر أو من الكافرات.

قال النحاس[٣]: وهذا لا يلزم؛ ألا ترى أن قبلَه «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ» ثم قال: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ﴾ ولم يقل: من السواخر، ولا من الساخرات. والتقدير في العربية على كسر التاء: «واستَكْبَرْتِ وكنتِ» من الجمع[٤] الساخرين، أو من الناسِ الساخرين، أو من القوم الساخرين.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أي: مما حاط بهم من غضب الله ونقمته. وقال الأخفش[٥]: «تَرَى» غير عامل في قوله:

---

(١) أخرجها الدوري في قراءات النبي ﷺ (٩٩)، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣١، والكلام من معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٨٧ - ١٨٨ .

(٢) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٨ .

(٣) في معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٨٧ - ١٨٨ ، وما قبله منه.

(٤) في النسخ: الجميع، والمثبت من (م).

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٢ .

«وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ» إنما هو ابتداءٌ وخبر.

الزمخشري[١]: جملة في موضع الحال إنْ كان «تَرَى» من رؤية البصر، ومفعولٌ ثانٍ إنْ كان من رؤية القلب.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وبيَّن رسولُ الله ﷺ معنى الكِبْر فقال عليه الصلاة والسلام: «سَفَهُ الحقِّ وغَمْصُ الناس» أي: احتقارهم. وقد مضى في «البقرة»[٢] وغيرها.

وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ «يُحشَرُ المُتكبِّرون يومَ القيامة كالذَّرِّ يلحقهم الصَّغار حتى يُؤتى بهم إلى سجن جهنم»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وقُرِئ: «ويُنْجي»[٤] أي: من الشِّرك والمعاصي. ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ على التوحيد قراءة العامة؛ لأنها مصدر. وقرأ الكوفيون: «بمَفَازَاتهِمْ»[٥]، وهو جائز كما تقول: بسعاداتهم.

وعن النبي ﷺ تفسير هذه الآية من حديث أبي هريرة، قال: «يَحشُر اللهُ مع كلِّ امرئ عملَه، فيكون عملُ المؤمن معه في أحسن صورة وأطيبِ ريح، فكلما كان رُعْبٌ أو خَوْفٌ قال له: لا تُرَعْ، فما أنت بالمُراد به، ولا أنت بالمَعْنيِّ به، فإذا كَثُرَ ذلك عليه قال: فما أحسنك، فمن أنت؟! فيقول: أما تَعرفني، أنا عَمَلُكَ الصالح حملتَني على ثِقَلي، فوالله لأحملنَّكَ ولأدفعنَّ عنك، فهي التي قال الله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»[٦].

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٠٦.

(٢) ١/ ٤٤١، والحديث أخرجه أحمد (٦٥٨٣) مطولاً من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ومسلم (٩١) من حديث ابن مسعود ﷺ بلفظ: «.. الكِبْر بَطَرُ الحقّ وغَمْطُ الناس».

(٣) أخرجه أحمد (٦٦٧٧)، والترمذي (٢٤٩٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. والكلام السالف من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٩.

(٤) قرأ بها يعقوب في رواية روح. النشر ٢/ ٢٥٩.

(٥) قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي: «بمفازاتهم» بالألف على الجمع، والباقون بغير ألف على التوحيد. السبعة ص٥٦٢، والتيسير ص١٩٠.

(٦) لم نقف عليه بهذا اللفظ، ونقله المصنف من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٩.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ﴾ أي: حافظ وقائم به. وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ واحدُها مِقْليد. وقيل: مِقْلاد، وأكثر ما يُستعمل فيه إقليد. والمَقاليد المفاتيح؛ عن ابن عباس وغيره. وقال السُّدي: خزائن السماوات والأرض[١]. وقال غيره: خزائن السماوات المطر، وخزائن الأرض النبات[٢]. وفيه لغةٌ أخرى: أقاليد، وعليها يكون واحدُها إقليد[٣].

قال الجوهري[٤]: والإقليد المِفْتاح، والمِقْلَد مِفْتاحٌ كالمِنْجل، ربما يُقلد به الكلأ كما يُقلد القَتُّ إذا جعل حِبالاً؛ أي: يُفتل، والجمع المَقاليد. وأقلدَ البحرُ على خلقٍ كثير، أي: غرَّقهم، كأنه أُغلقَ عليهم.

وخرَّج البيهقي عن ابن عمر أن عثمانَ بن عفان ﷺ سأل رسولَ الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ فقال رسولُ الله ﷺ: «ما سألني عنها أحدٌ؛ لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن، يُحيي ويُميت؛ بيده الخير وهو على كل شيء قدير»[٥]. ذكره الثعلبي في «تفسيره»، وزاد: «مَنْ قالها إذا أصبح أو أمسى عشرَ مرات أعطاه الله ستَّ خِصال: أولها: يُحرَس من إبليس، والثانية: يحضره اثنا عشر ألف ملك، والثالثة: يُعطى قنطاراً من الأجر، والرابعة: تُرفع له درجة، والخامسة: يُزوِّجه الله من الحور العين، والسادسة: يكون له من الأجر كمن قرأ القرآنَ والتوراةَ والإنجيل والزَّبور، وله أيضاً من الأجر كمن حجَّ واعتمر فَقُبلت

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٩ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠ ، وقولا ابن عباس رضي الله عنهما والسدي أخرجهما الطبري ٢٠/ ٢٤٢ .

(٢) زاد المسير ٧/ ١٩٤ .

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٤٢ .

(٤) في الصحاح (قلد).

(٥) الأسماء والصفات للبيهقي (١٩)، وينظر التعليق التالي.

حجَّته وعُمرته، فإنْ مات من ليلته مات شهيداً»[1].

وروى الحارث[2] عن عليٍّ قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن تفسير المقاليد فقال: «يا عليّ، لقد سألتَ عن عظيم، المقاليد: هو أن تقول عشراً إذا أصبحت وعشراً إذا أمسيت: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وأستغفر الله، ولا قوّة إلا بالله الأوّلِ والآخرِ والظاهرِ والباطنِ، له الملك وله الحمد، بيده الخيرُ وهو على كلِّ شيء قدير» من قالها عشراً إذا أصبح وعشراً إذا أمسى أعطاه الله خِصالاً ستّاً: أولها يَحْرُسه من الشيطان وجنودِه، فلا يكون لهم عليه سلطان، والثانية: يُعطى قِنطاراً في الجنة هو أثقلُ في ميزانه من جبل أحد، والثالثة: تُرفع له درجة لا ينالها إلا الأبرار، والرابعة: يُزوِّجه الله من الحور العين، والخامسة: يشهده اثنا عشرَ ألف مَلَك يكتبونها له في رَقٍّ منشور ويشهدون له بها يومَ القيامة، والسادسة: يكون له من الأجر كأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وكمن حجَّ واعتمر فَقَبِلَ اللهُ حِجَّته وعُمرتَه، وإنْ مات من يومه أو ليلته أو شهره طُبِعَ بطابَع الشهداء.

وقيل: المقاليد الطاعة يقال: ألقى إلى فلان بالمقاليد، أي: أطاعه فيما يأمره؛ فمعنى الآية: له طاعةُ من في السماوات والأرض.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ﴾ أي: بالقرآن والحُجَج والدلالات. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ﴾ وذلك حين دعوا النبيَّ ﷺ إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام، وقالوا: هو دينُ آبائك.

---

(١) أخرجه بتمامه ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٩٦ - ٩٧، وقال: وهذا الحديث من الموضوعات النادرة التي لا تليق بمنصب رسول الله ﷺ، لأنه مُنزَّه عن الكلام الركيك والمعنى البعيد. قال الذهبي في الميزان ٤/ ٨٤ - ٨٥ بعد أن أورد الحديث: هذا موضوع فيما أرى، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ١١٢: غريب، فيه نكارة شديدة، وفي صحته نظر.

(٢) هو الحارث بن عبد الله الهمداني الأعور، كذَّبه الشعبي وابن المديني، وكان ابن سيرين يرى أن عامَّة ما يرويه عن علي ﷺ باطل. ميزان الاعتدال ١/ ٤٣٦.

و«غير» نصب بـ «أَعْبُدُ» على تقدير: أَعبدُ غيرَ اللهِ فيما تأمرونني. ويجوز أن ينتصب بـ «تَأْمُرُونِّي» على حَذْف حرف الجرّ؛ التقدير: أتأمرونِّي بغير الله أن أَعبُدَه، لأنّ أن مُقَدرة، وأنْ والفعل مصدر، وهي بدل من غير؛ التقدير: أتأمرونّي بعبادة غير الله[١].

وقرأ نافع: «تَأْمُرُونيَ» بنون واحدة مخففَّة وفتح الياء. وقرأ ابن عامر: «تَأْمُرُونَنِي» بنونين مُخفَّفتين على الأصل. الباقون بنون واحدة مُشدَّدة على الإدغام[٢]، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنها وقعت في مصحف عثمان بنون واحدة. وقرأ نافع على حذف النون الثانية، وإنما كانت المحذوفة الثانية؛ لأن التكرير والتثقيل يقع بها، وأيضاً حذفُ الأُولى لا يجوز؛ لأنها دلالةُ الرفع. وقد مضى في «الأنعام» بيانُه عند قوله تعالى: «أَتُحَاجُّونِّي»[٣].

«أَعْبُدُ» أي: أن أعبدَ، فلما حذف «أن» رفع؛ قاله الكسائي[٤]. ومنه قول الشاعر:

أَلَا أَيُّهَذا الزاجِرِي أَحْضُرُ الوَغَى[٥]

والدليل على صحة هذا الوجه قراءة من قرأ: «أَعْبُدَ» بالنصب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ قيل: إنَّ في الكلام تقديماً وتأخيراً؛ والتقدير: لقد أُوحي إليك لئن أشركتَ، وأُوحي إلى الذين من قبلك

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٣٢ .
(٢) السبعة ص٥٦٣ ، والتيسير ص١٩٠ .
(٣) ٨/ ٤٤٣ .
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠ .
(٥) قائله طرفة، وسلف بتمامه ١٤/ ١٨ .

كذلك. وقيل: هو على بابه[1]؛ قال مقاتل: أي: أُوحي إليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد، والتوحيد محذوف. ثم قال: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ» يا محمد ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وهو خِطابٌ للنبي ﷺ خاصَّةً. وقيل: الخِطاب له والمُراد أُمته؛ إذْ قد عَلِمَ اللهُ أنه لا يُشرك، ولا يقع منه إشراك. والإحباطُ الإبطالُ والفساد. قال القُشيري: فمن ارتدَّ لم تنفعه طاعاته السابقة، ولكن إحباط الرِّدة العملَ مشروطٌ بالوفاة على الكُفر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [البقرة:٢١٧] فالمُطلق ها هنا محمولٌ على المُقيّد؛ ولهذا قلنا: مَن حَجَّ ثم ارتدَّ؛ ثم عاد إلى الإسلام لا يجب عليه إعادةُ الحجِّ.

قلت: هذا مذهب الشافعي. وعند مالك تجب عليه الإعادة، وقد مضى في «البقرة» بيانُ هذا مستوفى[2].

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ النحاس[3]: في كتابي عن أبي إسحاق[4] لفظ اسم الله عز وجل منصوب بـ «اعبُدْ» قال: ولا اختلاف في هذا بين البصريين والكوفيين.

قال النحاس: وقال الفراء[5] يكون منصوباً بإضمار فعل. وحكاه المهدوي عن الكسائي. فأما الفاء، فقال الزجاج: إنها للمجازاة. وقال الأخفش: هي زائدة.

وقال ابن عباس: «فاعْبُدْ» أي: فوحِّد. وقال غيره: «بَلِ اللهَ» فأَطِعْ ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لنعمه بخلاف المشركين[6].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٠ بنحوه.

(٢) ٣/ ٤٣٠ .

(٣) إعراب القرآن ٤/ ٢١ .

(٤) هو الزجاج، وقوله في معاني القرآن ٤/ ٣٦١ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٤٢٤ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٥٦ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ قال المبرد: ما عظَّموه حقَّ عَظَمته من قولك: فلانٌ عظيم القدر. قال النحاس[1]: والمعنى على هذا: وما عظَّموه حقَّ عَظَمته إذ[2] عبدوا معه غيره، وهو خالقُ الأشياء ومالكها. ثم أخبر عن قُدرته وعَظَمته، فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾.

ثم نزّه نفسَه عن أن يكون ذلك بجارحة فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وفي الترمذي عن عبد الله قال: جاء يهودي إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، إنَّ الله يُمسك السماوات على إصبع [والأرَضين على إصبع، والجبال على إصبع] والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدَتْ نواجِذُه، ثم قال: «ومَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[3].

وفي البخاري ومسلم: عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَقْبِضُ اللهُ الأرضَ يومَ القيامة ويطوي السماءَ بيمينه، ثم يقول: أنا المَلِكُ، أين مُلوكَ الأرض»[4]. وفي الترمذي: عن عائشة أنها سألت رسولَ الله ﷺ عن قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ قالت: قلت: فأين الناسُ يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على جِسْر جهنم» في رواية «على الصِّراطِ يا عائشة» قال:

---

(١) في إعراب القرآن ٤/ ٢١ - ٢٢ ، وما قبله منه.

(٢) في (م): إذا، والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس.

(٣) سنن الترمذي (٣٢٣٨)، وأخرجه أحمد (٤٠٨٧)، والبخاري (٧٤١٤)، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٤) صحيح البخاري (٦٥١٩)، وصحيح مسلم (٢٧٨٧)، وأخرجه أحمد (٨٨٦٣).

حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[١].

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾، و«يَقْبِضُ اللهُ الأرضَ» عبارة عن قُدرته وإحاطته بجميع مخلوقاته[٢]؛ يقال: ما فلان إلا في قبضتي بمعنى: ما فلان إلا في قُدرتي، والناس يقولون: الأشياء في قبضته، يريدون في مُلكه وقُدرته. وقد يكون معنى القَبْض والطّي إفناءَ الشيء وإذهابَه فقوله جلّ وعزّ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ يَحتَمِلُ أن يكون المرادُ به: والأرض جميعاً ذاهبةٌ فانيةٌ يومَ القيامة. والمراد بالأرض الأَرَضون السَّبع؛ يشهد لذلك شاهدان: قوله: «والأَرْضُ جميعاً»، ولأن الموضعَ موضعُ تفخيم، فهو مُقتضٍ للمبالغة. وقوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦٓ﴾ ليس يريد به طيّاً بعلاج وانتصاب، وإنما المرادُ بذلك الفَناء والذَّهاب؛ يقال: قد انطوى عنّا ما كنا فيه وجاءنا غيره. وانطوى عنّا دهرٌ بمعنى المُضِيّ والذهاب. واليمين في كلام العرب قد تكون بمعنى القُدرة والمُلك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] يريد به الملك؛ وقال ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٥] أي: بالقوّة والقُدرة، أي: لأخذنا قوتَه وقُدرتَه. قال الفرّاء[٣] والمبرد: اليمين القوّة والقدرة. وأنشدا:

إذا ما رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاها عَرابةُ بِاليَمِينِ[٤]

قال آخر:

ولمّا رَأَيْتُ الشَّمْسَ أَشْرَق نورُها ... تَناولتُ مِنها حاجتي بِيَمينِ

قتلتُ شُنَيْفاً ثم فارانَ بَعده ... وكان على الآيات غيرَ أمينِ

وإنما خصَّ يوم القيامة بالذِّكر وإن كانت قُدرته شاملةً لكل شيء أيضاً؛ لأن

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٤١) و(٣٢٤٢)، وأخرجه أحمد (٢٤٨٥٦) و(٢٤٠٦٩).

(٢) الصواب إثبات صفة القبضة لله عز وجل من غير تشبيه ولا تأويل ولا تمثيل.

(٣) نقله المصنف عنه بواسطة البيهقي في الأسماء والصفات ٢/ ١٥٩ - ١٦٠، والكلام السالف منه.

(٤) قائله الشماخ بن ضرار، وسلف ٦/ ٣٨.

الدعاوى تنقطع ذلك اليوم، كما قال: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩] وقال: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ حسب ما تقدَّم في «الفاتحة»[١] ولذلك قال في الحديث: «ثم يقول: أنا الملكُ، أين ملوكُ الأرض» وقد زدنا هذا الباب في «التذكرة» بياناً[٢]، وتكلَّمنا على ذكر الشِّمال في حديث ابن عمر قوله: «ثم يطوي الأرضَ بشماله»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ بيَّن ما يكون بعد قبض الأرض وطيِّ السماء، وهو النفخ في الصور، وإنما هما نفختان؛ يموت الخَلْق في الأُولى منهما ويحيون في الثانية، وقد مضَى الكلامُ في هذا في «النمل» و«الأنعام» أيضاً[٤]. والذي ينفخ في الصور هو إسرافيلُ عليه السلام. وقد قيل: إنه يكون معه جبريلُ؛ لحديث أبي سعيد الخُدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ صاحِبَي الصور بأيديهما ـ أو في أيديهما ـ قرنان يُلاحظان النَّظر متى يُؤْمران» خرجه ابن ماجه في «السنن»[٥].

وفي كتاب أبي داود: عن أبي سعيد الخدري قال: ذكر رسولُ الله ﷺ صاحبَ الصُّور، وقال: «عن يمينه جبرائيلُ وعن يساره ميكائيلُ»[٦].

واختلف في المُستثنى مَنْ هم. فقيل: هم الشهداء مُتقلِّدين أسيافَهم حولَ العرش. روي مرفوعاً من حديث أبي هريرة فيما ذكر القشيري[٧]، ومن حديث عبد الله بن عمر فيما ذكر الثعلبي.

---

(١) ١/ ٢١٥ وما بعدها.

(٢) ص١٩٠ .

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٨٨) وفيه: الأرضين، بدل: الأرض.

(٤) ١٣/ ٢٣٩ وما بعدها، ٨/ ٤٣٠ وما بعدها.

(٥) الحديث (٤٢٧٣)، وفي إسناده الحجاج بن أرطاة وعطية العوفي، وكلاهما ضعيف. تهذيب التهذيب ١/ ٣٥٦ و٣/ ١١٤ .

(٦) سنن أبي داود (٣٩٩٩)، وأخرجه أحمد (١١٠٦٩)، وفي إسناده عطية العوفي، وهو ضعيف كما ذكرنا في التعليق السابق.

(٧) وأخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٧) .

وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام. ورُوي من حديث أنس أن النبي ﷺ تلا ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ فقالوا: يا نبيَّ الله، مَنْ هم الذين استثنى الله تعالى؟ قال: «هم جبريلُ وميكائيل وإسرافيلُ ومَلَك الموت، فيقول الله تعالى لمَلَك الموت: يا مَلَكَ الموت، مَن بقي من خَلْقي، وهو أعلمُ فيقول: يا رب، بقي جبريلُ وميكائيل وإسرافيل وعبدُك الضعيف مَلَكُ الموت، فيقول الله تعالى: خُذْ نَفْسَ إسرافيلَ وميكائيلَ، فَيَخِرَّان ميتين كالطَّوْدين العظيمين، فيقول: مُتْ يا مَلَك الموت، فيموت، فيقول الله تعالى لجبريل: يا جبريل، مَن بقي، فيقول: تباركتَ وتعاليتَ يا ذا الجلال والإكرام، وجهُك الباقي الدائم وجبريلُ الميتُ الفاني، فيقول الله تعالى: يا جبريل، لا بدَّ من موتك فيقع ساجداً يخفقُ بجناحيه يقول: سبحانك ربي، تباركتَ وتعاليتَ يا ذا الجلال والإكرام» فقال النبي ﷺ: «إنَّ فَضْلَ خَلْقه على خَلْق ميكائيل كالطَّود العظيم على الظَّرِب من الظِّراب» ذكره الثعلبي[1]. وذكره النحاس أيضاً من حديث محمد بن إسحاق، عن يزيد الرَّقاشي، عن أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ في قوله جلّ وعزّ: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ قال: «جبريلُ وميكائيلُ وحَمَلةُ العرش ومَلَك الموت وإسرافيل»[2].

وفي هذا الخبر[3] أنَّ آخرَهم موتاً جبريل عليه وعليهم السلام، وحديث أبي هريرة في الشهداء أصحُّ على ما تقدَّم في «النمل»[4].

وقال الضحاك: هو رضوان والحور ومالك والزَّبانية. وقيل: عقاربُ أهل النار وحيَّاتُها.

---

(١) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٨) وسنده ضعيف فيما قاله الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٧١. والظَّرِب: الجبل الصغير. القاموس (ظرب).

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٩٣ - ١٩٤، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٢٥٤ من طريق محمد بن إسحاق به ويزيد الرَّقاشي ضعيف كما في تهذيب التهذيب ٤/ ٤٠٣.

(٣) في (م): الحديث.

(٤) ١٣/ ٢٤١.

وقال الحسن: هو اللهُ الواحد القهَّار وما يدعُ أحداً من أهل السماء والأرض إلا أذاقَه الموت[١]. وقال قتادة: اللهُ أعلمُ بِثُنْياه[٢].

وقيل: الاستثناء في قوله: «إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ» يرجع إلى مَنْ مات قبلَ النفخةِ الأولى؛ أي: فيموت مَن في السماوات والأرض إلا من سبق موتُه؛ لأنهم كانوا قد ماتوا.

وفي «الصحيحين» وابن ماجه ـ واللفظ له ـ عن أبي هريرة قال: قال رجلٌ من اليهود بسوق المدينة: والذي اصطفى موسى على البَشر؛ فرفع رجلٌ من الأنصار يدَه فَلَطمه؛ قال: تقولُ هذا وفينا رسولُ الله ﷺ. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «قال الله عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ فأكون أوَّلَ من رفع رأسَه، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش، فلا أدري أرَفَعَ رأسَه قبلي أو كان ممن استثنى اللهُ؟ ومن قال: أنا خيرٌ من يونس بن متّى فقد كذب»[٣] وخرَّجه الترمذي أيضاً وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح[٤].

قال القشيري: ومَن حمل الاستثناءَ على موسى والشهداء فهؤلاءِ قد ماتوا غير أنهم أحياءٌ عند الله. فيجوز أن تكون الصَّعقة بزوال العقل دون زوال الحياة، ويجوز أن تكونَ بالموت، ولا يبعدُ أن يكونَ الموتُ والحياة، فكلٌّ ذلك مما يُجوِّزه العقلُ، والأمر في وقوعه موقوفٌ على خبر صدق.

قلت: جاء في بعض طرق أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا تُخيِّروني

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٣٦ مختصراً.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٥٨ .

(٣) صحيح البخاري (٣٤١٤) و(٣٤١٥)، وصحيح مسلم (٢٣٧٣)، وسنن ابن ماجه (٤٢٧٤)، وأخرجه أحمد (٩٨٢١).

(٤) سنن الترمذي (٣٢٤٥).

على موسى، فإنَّ الناسَ يَصْعَقون، فأكونُ أوّلَ من يُفيق، فإذا موسى باطِشٌ بجانب العرش، فلا أَدري أكان فيمن صَعِقَ فأفاق قبلي أَمْ كان ممن استثنى الله؟» خرجه مسلم[١]. ونحوه عن أبي سعيد الخدري[٢]؛ والإفاقةُ إنما تكون عن غشيةٍ وزوالِ عقل، لا عن موت بردِّ الحياة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ أي: فإذا الأمواتُ من أهل الأرض والسماء أحياء بُعثوا من قبورهم، وأُعيدت إليهم أبدانهم وأرواحهم، فقاموا ينظرون ماذا يُؤمرون. وقيل: قيامٌ على أرجلهم ينظرون إلى البعث الذي وُعدوا به. وقيل: هذا النظر بمعنى الانتظار؛ أي: ينتظرون ما يفعل بهم.

وأجاز الكسائي قياماً بالنصب؛ كما تقول: خرجتُ فإذا زيدٌ جالساً[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ إشراقُها إضاءتها؛ يقال: أَشرقت الشمسُ إذا أضاءتْ، وشَرَقت إذا طَلَعتْ. ومعنى: «بِنُورِ رَبِّها» بعدل ربِّها؛ قاله الحسن[٤] وغيره. وقال الضحاك: بحكم ربِّها؛ والمعنى واحد؛ أي: أنارتْ وأضاءتْ بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده. والظُّلم ظُلُماتٌ والعَدْل نور.

وقيل: إن الله يخلقُ نوراً يومَ القيامة يُلبسه وجهَ الأرض فَتُشرق الأرضُ به.

وقال ابن عباس: النور المذكور ها هنا ليس من نور الشمس والقمر، بل هو نورٌ

---

(١) الحديث (٢٣٧٣): (١٦٠)، وهو في صحيح البخاري (٢٤١١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩١٧)، ومسلم (٢٣٧٤).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/١٣٦ .

يخلقه اللهُ فيضيء به الأرض. وروي أن الأرضَ يومئذ من فضة تُشرق بنور الله تعالى حين يأتي لفصل القضاء. والمعنى: أنها أشرقتْ بنورٍ خَلَقه الله تعالى، فأضاف النورَ إليه على حدِّ إضافة المُلك إلى المالك. وقيل: إنه اليومُ الذي يقضي فيه بين خلقه؛ لأنه نهارٌ لا ليلَ معه.

وقرأ ابن عباس وعُبيد بن عُمير: «وأُشْرِقَتِ الأَرْضُ» على ما لم يُسَمَّ فاعله[١]، وهي قراءة على التفسير.

وقد ضلَّ قومٌ ها هنا فتوهَّموا أن الله عزّ وجلّ من جنس النور والضِّياء المحسوس، وهو مُتعالٍ عن مُشابهة[٢] المحسوسات، بل هو مُنوِّر السماوات والأرض، فمنه كلُّ نور خلقاً وإنشاء.

وقال أبو جعفر النحاس[٣]: وقوله عز وجل ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ يُبيّن هذا الحديث المرفوع من طرق كثيرة صحاح: «تنظرون إلى الله عزّ وجلّ لا تُضامون في رؤيته»[٤] وهو يُروى على أربعة أوجه: لا تُضامُون، ولا تضارُون، ولا تضامُّون، ولا تضارُّون؛ فمعنى «لاتُضامُون» لا يلحقكم ضَيْم كما يلحقكم في الدنيا في النظر إلى الملوك. و«لا تُضارُون» لا يلحقكم ضَيْر. و«لا تَضامُّون» لا ينضم بعضكم إلى بعض ليسأله أن يُريه. و«لا تضارُّون» لا يُخالف بعضُكم بعضاً؛ يقال: ضارَّه مُضارَّة وضِراراً، أي: خالفه.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٢، والمحتسب ٢/ ٢٣٩.

(٢) في النسخ الخطية: مباينة. وهو خطأ.

(٣) في معاني القرآن ٦/ ١٩٥ - ١٩٦.

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله ﷺ بلفظ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر، لا تُضامون في رؤيته...» وسلف ٤/ ١٨٠. وأخرجه البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ مطولاً وفيهما: «.. ما تُضارّون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تُضارّون في رؤية أحدهما..» يعني الشمس والقمر، وهو في مسند أحمد (١٩١٩٠) و(١١١٢١) ينظر أحاديث الباب ثمة.

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ قال ابن عباس: يريد اللَّوح المحفوظ[1]. وقال قتادة: يُريد الكتب[2] والصُّحف التي فيها أعمال بني آدم، فآخذٌ بيمينه وآخذٌ بشماله[3]. ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: جيء بهم فيسألهم عما أجابتهم به أُممهم.

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين شَهِدوا على الأُمم من أُمة محمد ﷺ[4]؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣]. وقيل: المرادُ بالشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله، فيشهدون يومَ القيامة لمن ذبَّ عن دين الله؛ قاله السُّدي. وقال ابن زيد: هم الحَفَظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق:٢١] فالسائق يسوقُها إلى الحساب والشهيدُ يشهد عليها، وهو المَلَكُ المُوكَّل بالإنسان، على ما يأتي بيانُه في «ق».

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصِّدق والعَدْل. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ قال سعيد بن جُبير: لا ينقص من حسناتهم ولا يُزاد على سيئاتهم[5]. ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير أو شرٍّ. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ في الدنيا، ولا حاجةَ به عزَّ وجلَّ إلى كتابٍ ولا شاهد، ومع ذلك فتشهد الكُتب والشهود إلزاماً لِلحُجَّة.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ هذا بيانُ توفية كلِّ نفس

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٢ دون نسبة، وقال: وهذا شاذ، وليس فيه معنى التوعّد، وهو مقصد الآية.

(٢) في (م): الكتاب.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٣٦، وزاد المسير ٧/ ١٩٨ بنحوه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٨٨ وزاد المسير ٧/ ١٩٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٣٧.

عملها، فيساقُ الكافر إلى النار والمؤمن إلى الجنة. والزُّمَر: الجماعاتُ، واحدتها زُمْرة، كظُلْمة وغُرْفة. وقال الأخفش وأبو عبيدة[1]: «زُمَراً» جماعاتٍ متفرقةً بعضها إثر بعض. قال الشاعر:

وتَرى النَّاسَ إلى مَنْزِلِهِ زُمَراً[2] تَنْتَابُه بَعْدَ زُمَر

وقال آخر:

حتّى احْزَأَلَّتْ زُمَرٌ بعد زُمَرْ[3]

وقيل: دفعاً وزجراً بصوت كصوت المزمار[4].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ جواب إذا، وهي سبعةُ أبواب. وقد مضى في «الحجر»[5].

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ واحدهم خازن، نحو سَدَنة وسادِن، يقولون لهم تقريعاً وتوبيخاً: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ أي: الكُتب المُنزلة على الأنبياء، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾ أي: يُخوِّفونكم ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي: قد جاءتنا، وهذا اعترافٌ منهم بقيام الحُجَّة عليهم، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهي قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: يقال لهم: ادخلوا جهنم. وقد مضى الكلامُ في

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ١٩١، وقول الأخفش ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨٨.

(٢) في النسخ الخطية: زمرة، والمثبت من (م). والبيت لم نقف عليه.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤١٠، والسمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٤٤٦، وقوله: احزألَّت، جاء في اللسان (حزل): احزألَّت الإبل، إذا اجتمعت ثم ارتفعت عن متن من الأرض في ذهابها.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٣٧.

(٥) ١٢/ ٢١٧ وما بعدها.

أبوابها. قال وهب: تستقبلُهم الزَّبانية بمقامعَ من نار، فيدفعونهم بمقامعهم، فإنه ليقع في الدَّفعة الواحدة إلى النار بعدد ربيعةَ ومُضر. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ تقدَّم بيانُه[1].

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ يعني من الشهداء والزُّهَّاد والعلماء والقُرَّاء وغيرهم، ممن اتَّقى الله تعالى وعَمِلَ بطاعته. وقال في حقِّ الفريقين: «وَسِيق» بلفظ واحد، فسوقُ أهل النار طَرْدُهم إليها بالخِزْي والهَوان، كما يُفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سِيقوا إلى حَبْس أو قتل، وسَوْقُ أهل الجِنان سوقُ مراكبهم إلى دار الكرامة والرِّضوان؛ لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين كما يُفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السَّوقين.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ قيل: الواو ها هنا للعطف عطف على جملة، والجواب محذوف. قال المبرد: أي: سعدوا وفُتحت، وحذفُ الجواب بليغٌ في كلام العرب. وأنشد:

فلو أنَّها نَفْسٌ تَموتُ جَميعةً ... ولكنَّها نَفْسٌ تَساقَطُ أنْفُسا[2]

فحذف جواب لو، والتقدير: لكان أروح.

وقال الزجاج[3]: «حتى إذا جاءُوها» دخلوها، وهو قريبٌ من الأول. وقيل:

---

(١) ١٢/ ٣١٧.

(٢) قائله امرؤ القيس، وسلف ١٢/ ٧١، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢ - ٢٣.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٦٤.

الواو زائدة. قاله الكوفيون، وهو خطأ عند البصريين[(١)].

وقد قيل: إن زيادةَ الواو دليلٌ على أن الأبوابَ فُتحت لهم قبلَ أن يأتوا، لكرامتهم على الله تعالى، والتقدير: حتى إذا جاءوها وأبوابُها مفتحة، بدليل قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ وحذف الواو في قصة أهل النار؛ لأنهم وقفوا على النار وفُتحت بعد وقوفهم إذلالاً وترويعاً لهم. ذكره المهدوي، وحكى معناه النحاس قبلَه. قال النحاس[(٢)]: فأما الحِكمة في إثبات الواو في الثاني وحَذْفِها من الأول، فقد تكلّم فيه بعضُ أهل العلم بقول لا أعلمُ أنه سبقه إليه أحد، وهو أنه لما قال الله عزّ وجلّ في أهل النار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ دلَّ بهذا على أنها كانت مغلقةً، ولما قال في أهل الجنة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ دلَّ بهذا على أنها كانت مُفتحةً قبل أن يجيئوها؛ والله أعلم.

وقيل: إنها واو الثمانية. وذلك من عادة قريش أنهم يَعُدُّون من الواحد فيقولون: خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، فإذا بلغوا السبعة قالوا: وثمانية. قاله أبو بكر بن عياش[(٣)].

قال الله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [الحاقة: ٧] وقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] ثم قال في الثامن: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ وقال: ﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ﴾ [الكهف: ٢٢] وقال ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ [التحريم: ٥] وقد مضى القول في هذا في «براءة» مستوفى، وفي «الكهف» أيضاً[(٤)].

قلت: وقد استدلَّ بهذا مَن قال: إن أبوابَ الجنة ثمانية؛ وذكروا حديثَ عمر بن الخطاب، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما منكم مِن أحدٍ يتوضأ فَيُبْلِغُ ـ أو فَيُسْبِغ ـ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢ .

(٢) في إعراب القرآن ٤/ ٢٣ .

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٠٠ ، ونسبه للثعلبي.

(٤) ١٠/ ٣٩٧ و١٣/ ٢٤٦ .

الوضوء، ثم قال: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدُه ورسوله إلا فُتحت له أبوابُ الجنة الثمانية يدخلُ من أيِّها شاء» خرَّجه مسلم وغيره[١]. وقد خرج الترمذي حديثَ عمر هذا وقال فيه: «فُتِحَ له من أبواب الجنة ثمانيةُ أبواب يومَ القيامة»[٢] بزيادة «مِن»، وهو يدلُّ على أن أبوابَ الجنة أكثرُ من ثمانية. وقد ذكرنا ذلك في كتاب «التذكرة»[٣] وانتهى عددُها إلى ثلاثةَ عشرَ باباً، وذكرنا هناك عِظَم أبوابها وسَعتها حَسَبَ ما ورد في الحديث من ذلك، فمن أراده وَقَفَ عليه هناك.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ قيل: الواو مُلغاة تقديره: حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها «قال لهم خزَنَتُها»[٤].

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أي: في الدنيا. قال مجاهد: بطاعة الله. وقيل: بالعمل الصالح. حكاه النقاش، والمعنى واحد[٥]. وقال مقاتل: إذا قطعوا جسرَ جهنم حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فَيُقَصّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا وطُيِّبوا قال لهم رضوان وأصحابه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، بمعنى التحية ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[٦].

قلت: خرج البخاري حديثَ القنطرة هذا في «جامعه» من حديث أبي سعيد الخُدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَخْلُص المؤمنون من النار فَيُحبَسون على قنطرة بين الجنة والنار، فَيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة، فو الذي نفس محمد بيده، لأَحدهم أهدى

(١) صحيح مسلم (٢٣٤)، وأخرجه أحمد (١٧٣١٤).

(٢) سنن الترمذي (٥٥) والمثبت في مطبوعه مثل رواية مسلم السالفة، وذكر محققو سنن الترمذي أنه في أكثر النسخ: ثمانية أبواب من الجنة.

(٣) ص٤٥٥ وما بعدها.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٨٩ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٣٨ .

(٦) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨٩ بنحوه ونسبه لقتادة.

بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»[١].

وحكى النقَّاش: إنَّ على باب الجنة شجرةً ينبع من ساقها عينان، يشرب المؤمنون من أحداهما فتطهر أجوافُهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] ثم يغتسلون من الأخرى فتطيبُ أبشارهم، فعندها يقول لهم خزنتُها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ وهذا يُروى معناه عن عليٍّ ﷺ[٢].

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ أي: إذا دخلوا الجنة قالوا هذا، ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرض الجنة. قيل: إنهم وَرِثوا الأرضَ التي كانت تكون لأهل النار لو كانوا مؤمنين؛ قاله أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسُّدي وأكثرُ المفسرين وقيل: إنها أرضُ الدنيا على التقديم والتأخير[٣].

قوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ قيل: هو من قولهم، أي: نعم الثوابُ هذا. وقيل: هو مِن قول الله تعالى؛ أي: نعم ثواب المُحسنين هذا الذي أعطيتُهم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ يا محمد ﴿حَآفِّينَ﴾ أي: مُحدِقين ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ في ذلك اليوم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ مُتلذِّذين بذلك لا مُتعبدين به؛ أي: يُصلّون حولَ العرش شُكراً لربهم. والحافُّون أُخِذَ من حافَّات الشيء ونواحيه. قال الأخفش: واحدُهم حافٌّ. وقال الفرَّاء: لا واحدَ له إذْ لا يقع لهم الاسم إلا مجتمعين[٥].

ودخلت «مِن» على «حَوْل» لأنه ظرف، والفعل يتعدَّى إلى الظرف بحرف وبغير

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٣٥)، وأخرجه أحمد (١١٠٩٥).

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٦٦ - ٢٦٧ عن علي ﷺ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٣٨ عن مقاتل.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٨٧ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣ .

(٤) ذكره الرازي في تفسيره ٢٧/ ٢٣ عن مقاتل.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣ .

حرف. وقال الأخفش[١]: «مِنْ» زائدة، أي: حافّين حولَ العرش. وهو كقولك: ما جاءني من أحد، فمن توكيد.

الثعلبي: والعرب تُدخل الباء أحياناً في التسبيح وتحذفها أحياناً، فيقولون: سبِّح بحمدِ ربِّك، وسبِّح حمداً لله؛ قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]. ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بين أهل الجنة والنار. وقيل: قُضي بين النبيين الذين جيء بهم مع الشهداء وبين أُممهم بالحقّ والعَدْل[٢].

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: يقول المؤمنون: الحمدُ لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ونَصَرنا على مَن ظَلَمنا.

وقال قتادة في هذه الآية: افتتح اللهُ أولَ الخَلْق بالحمد لله، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وختم بالحمد، فقال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣]. فلزم الاقتداء به، والأخذ في ابتداء كلِّ أمر بحمده وخاتمته بحمده.

وقيل: إن قول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من قول الملائكة، فعلى هذا يكون حَمْدُهم لله تعالى على عَدْله وقضائه[٤]. ورُوِيَ من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ على المنبر آخر سورة «الزمر» فتحرَّك المِنبر مرَّتين[٥].

تم تفسير سورة «الزمر».

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٣.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٧٢.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٧٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٣٩.

(٥) أخرجه أحمد (٥٤١٤)، ومسلم (٢٧٨٨) بنحوه، وأورده بلفظ المصنف الذهبي في الميزان ٢/ ٣٧٨ وفي إسناده عبّاد بن ميسرة، ضعَّفه أحمد ويحيى فيما قاله الذهبي.

تفسير سورة غافر

وهي سورة المؤمن، وتسمى سورة الطَّوْل

وهي مكيةٌ في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر[1]. وعن الحسن إلا قوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» لأن الصلواتِ نزلت بالمدينة[2]. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة، وهما ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٣٥] والتي بعدها[3]. وهي خمسٌ وثمانون آية. وقيل: ثنتان وثمانون آية[4].

وفي «مسند» الدارمي قال: حدّثنا جعفر بن عون، عن مِسْعر، عن سعد بن إبراهيم قال: كنَّ الحواميم يُسمَّين العرائسَ[5]. ورُوي من حديث أنس أن رسولَ الله ﷺ قال: «الحواميمُ دِيباجُ القرآن»[6]. ورُوي عن ابن مسعود مثلُه. وقال الجوهري وأبو عُبيد[7]: وآل حم سورٌ في القرآن. قال ابن مسعود: آلُ حم دِيباج القرآن[8]. قال الفراء: إنما هو كقولك: آلُ فلان وآلُ فلان، كأنه نَسَبَ السورةَ كلَّها إلى حم؛ قال الكُمَيْت:

وَجَدْنا لكم في آلِ حَاميمَ آيةً ... تأوَّلَها مِنَّا تَقيٌّ ومُعْزِبُ[9]

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٤١ .

(٢) مجمع البيان ٢٤/ ١٧٨ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٤١ ، وزاد المسير ٧/ ٢٠٤ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٥ : هذه السورة مكية بإجماع، وقد روي في بعض آياتها أنها مدنية، وهذا ضعيف، والأول أصح.

(٤) ذكرهما السيوطي في الإتقان ١/ ٢١٤ .

(٥) سنن الدارمي (٣٤٢٢).

(٦) أخرجه أبو الشيخ وأبو نعيم كما في الدر المنثور ٥/ ٣٤٤ .

(٧) في (د) و(م): أبو عبيدة.

(٨) أخرجه البيهقي في الشعب (٢٤٧١).

(٩) ديوان الكميت بن زيد ص١٨ ، وفيه وفي الصحاح (حمم) والخزانة ٤/ ٣١٨: ومعرب. قال البغدادي: يقول الشاعر: من تأوّل هذه الآية لم يسعه إلا التشيّع في آل النبي ﷺ وإبداء المودة لهم على تَقِيَّة كانت أو غير تقية. وقوله: تقيٌّ ومعرب، قال الجوهري [الصحاح (عرب)]: أعرب بحجته إذا أفصح بها ولم يتقِ أحداً.

قال أبو عُبيد[١]: هكذا رواها الأُموي بالزاي، وكان أبو عمرو يرويها بالراء. فأما قولُ العامة: الحواميم، فليس من كلام العرب.

وقال أبو عُبيدة: الحواميمُ سورٌ في القرآن على غير قياس؛ وأنشد:

وبالحواميم التي قد سُبِّعَتْ[٢]

قال: والأولى أن تُجمع بذوات حم[٣].

ورُوي أن النبي ﷺ قال: «لكلِّ شيء ثمرةٌ، وإن ثمرةَ القرآن ذواتُ حم، هنَّ روضاتٌ حِسان مُخصبات مُتجاورات، فمن أحبَّ أن يرتعَ في رياض الجنة فَلْيقرأ الحواميم»[٤]. وقال النبي ﷺ: «مَثَلُ الحواميم في القرآن كمثل الحِبَرَاتِ في الثياب» ذكرهما الثعلبي[٥].

وقال أبو عُبيد: وحدّثني حجّاج بن محمد عن أبي مَعْشر، عن محمد بن قيس قال: رأى رجلٌ سبعَ جوارٍ حِسان مُزيَّنات في النوم، فقال: لمن أنتنَّ بارك الله فيكنَّ؟ فقلن: نحن لمن قرأنا، نحن الحواميم[٦].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ اختلف في معناه؛ فقال عكرمة: قال النبيُّ ﷺ: «حم» اسمٌ

---

(١) في (م): أبو عبيدة. والكلام في غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٩٤ .

(٢) ذكره صاحب اللسان (حمم)، وقبله: وبالطواسين التي قد ثُلِّثتْ.

(٣) الصحاح (حمم).

(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٤٤ ، وعزاه لابن الضُّريس.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) غريب الحديث ٤/ ٩٣ .

من أسماء الله تعالى، وهي مفاتيحُ خزائن ربِّك»[١] قال ابن عباس: «حم» اسمُ الله الأعظم. وعنه: «الر» و«حم» و«ن» حروفُ الرحمنُ مقطَّعة. وعنه أيضاً: اسمٌ من أسماء الله تعالى أقسم به. وقال قتادة: إنه اسمٌ من أسماء القرآن. مجاهد: فواتحُ السُّور[٢].

وقال عطاء الخُراساني: الحاء افتتاحُ اسمه حَميدٌ وحنانٌ وحليمٌ وحكيمٌ، والميم افتتاحُ اسمه مَلِكٌ ومجيدٌ ومنَّانٌ ومُتكبِّرٌ ومصوِّرٌ[٣]؛ يدلُّ عليه ما روى أنسٌ أن أعرابيًّا سأل النبيَّ ﷺ: ما «حم» فإنَّا لا نعرفها في لساننا؟ فقال النبيُّ ﷺ: «بَدْءُ أسماء وفواتح سُوَرِه»[٤]. وقال الضحاك والكسائي: معناه: قُضِي ما هو كائن. كأنه أراد الإشارة إلى تهجِّي «حم»؛ لأنها تصير حُمَّ، بضم الحاء وتشديد الميم؛ أي: قُضِي ووَقَع[٥]. قال كعب بن مالك:

فلما تَلاقَينا ودارت بِنَا الرَّحى وليس لِأَمْر حَمَّهُ اللهُ مَدْفَعُ[٦]

وعنه أيضاً: إن المعنى: حُمَّ أمرُ الله، أي: قَرُبَ؛ كما قال الشاعر:

قد حُمَّ يومي فسُرَّ قومٌ قومٌ بهم غَفْلَةٌ ونَومٌ

ومنه سُمِّيت الحُمَّى؛ لأنها تُقرِّب من المَنِيَّة[٧].

والمعنى المراد: قَرُبَ نصرُه لأوليائه، وانتقامُه من أعدائه كيوم بدر. وقيل: حروف هجاء؛ قال الجَرْمي: ولهذا تُقرأ ساكنةَ الحروف، فخرجت مخرجَ التهجِّي،

---

(١) لم نقف عليه، وهو هكذا مرسل.

(٢) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٠/ ٢٧٤-٢٧٥، والنكت والعيون ٥/ ١٤١، وتفسير البغوي ٤/ ٩٠.

(٣) أورده البغوي في تفسيره ٤/ ٩٠.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٩٠.

(٦) ديوان كعب بن مالك ص١٨٣.

(٧) النكت والعيون ٥/ ١٤١.

وإذا سَمَّيت سورةً بشيء من هذه الحروف أعربت؛ فتقول: قرأتُ «حمَ» فتنصب؛ قال الشاعر:

يُذَكِّرني حاميم والرُّمح شاجِرٌ فهلَّا تلا حاميمَ قَبْلَ التَّقدُّمِ[1]

وقرأ عيسى بن عمر الثقفي: «حمَ» بفتح الميم على معنى: اقرَأْ حم، أو لالتقاء الساكنين. وابن أبي إسحاق وأبو السَّمَّال بكسرها. والإمالة والكسر لالتقاء الساكنين[2]، أو على وجه القسم. وقرأ أبو جعفر بقطع الحاء من الميم. الباقون بالوصل. وكذلك في ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾ [الشورى: ١-٢]. وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان بالإمالة في الحاء. ورُوي عن أبي عمرو بين اللَّفظين، وهي قراءة نافع وأبي جعفر وشيبة. الباقون بالفتح مُشبعاً[3].

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ابتداء، والخبر ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾. ويجوز أن يكون «تَنْزِيلُ» خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: هذا «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ»[4]. ويجوز أن يكون «حم» مبتدأ و«تَنْزِيلُ» خبره، والمعنى: إن القرآنَ أنزله اللهُ، وليس منقولاً ولا مما يجوز أن يُكذَّب به.

قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ قال الفراء[5]: جعلها كالنعت للمعرفة، وهي نكرة. وقال الزجاج: هي خفضٌ على البدل[6]. النحاس[7]:

(١) قائله شريح بن أبي أوفى العبسي، أورده البخاري قبل الحديث (٤٨١٥)، والطبري ٢٠/ ٢٧٥، وقيل: البيت للأشتر النخعي، وقيل غير ذلك، كما في فتح الباري ٨/ ٥٥٤ .

(٢) قراءة عيسى بن عمر في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥ ، وقراءة أبي السمّال في المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٦ .

(٣) السبعة ص٥٦٦ ، والتيسير ص١٩١ ، والنشر ٢/ ٧٠ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٦ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٦٦ ، وفيه: «غافرِ الذنب وقابلِ التوب» على صفات الله، فأما خفض «شديدِ العقاب» فعلى البدل لأنه مما يوصف به النكرة.

(٧) إعراب القرآن ٤/ ٢٦ .

وتحقيقُ الكلام في هذا وتلخيصُه أن ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ يجوز أن يكونا معرفتين على أنهما لِمَا مضَى فيكونا نعتين، ويجوز أن يكونا للمستقبل والحال فيكونا نكرتين، ولا يجوز أن يكونا نعتين على هذا، ولكن يكون خَفْضُها على البدل، ويجوز النصب على الحال، فأما «شديدِ العقابِ» فهو نكرةٌ، ويكون خفضُه على البدل.

قال ابن عباس: «غَافِرِ الذَّنْبِ» لمن قال: «لا إله إلا الله» «وقَابِلِ التَّوْبِ» ممن قال: «لا إله إلا الله» «شَدِيدِ العقابِ» لمن لم يقل: «لا إله إلا الله»[١].

وقال ثابت البُنَاني: كنتُ إلى سرادق مُصْعَب بن الزبير في مكان لا تمرُّ فيه الدوابُّ، قال: فاستفتحت ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ فمر عليَّ رجلٌ على دابة، فلما قلت: «غَافِرِ الذَّنْبِ» قال: قل: يا غافرَ الذنب، اغفِرْ لي ذنبي، فلما قلت: «قَابِلِ التوْبِ» قال: قل: يا قابلَ التوب، تقبَّل توبتي، فلما قلت: «شَدِيدِ العقابِ» قال: قلْ: يا شديدَ العقاب، اعفُ عني، فلما قلتُ: «ذِي الطَّوْلِ» قال: قل: يا ذا الطَّول، طُلْ عليّ بخير؛ فقمتُ إليه فَأُخِذَ ببصري، فالتفتُّ يميناً وشمالاً فلم أرَ شيئاً[٢].

وقال أهلُ الإشارة: «غَافِرِ الذَّنْبِ» فَضْلاً «وَقَابِلِ التَّوبِ» وعداً «شَدِيدِ العِقَابِ» عدلاً «لا إله إلا هو إليه المصيرُ» فرداً.

ورُوي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام؛ فقيل له: تتابعَ في هذا الشَّراب؛ فقال عمر لكاتبه: اكتبْ: من عمرَ إلى فلان، سلامٌ عليك، وأنا أحمدُ اللهَ إليك الذي لا إله إلا هو ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * حمٓ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ثم ختمَ الكتابَ، وقال لرسوله: لا تدفعْه إليه حتى تَجِدَهُ صاحياً، ثم أمر مَن عنده بالدُّعاء له بالتوبة، فلما أتَتْه الصحيفةُ جعل يقرؤها ويقول:

(١) تفسير البغوي ٤/ ٩٠ .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٢٨ بنحوه.

قد وعدني الله أن يغفِرَ لي، وحذَّرني عِقابَه، فلم يبرحْ يُرَدِّدها حتى بكى، ثم نزع فأحسن النَّزع وحسنت توبته. فلما بلغ عمرَ أمرُه قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أحدَكم قد زلَّ زلَّةً، فسدِّدوه وادعوا اللهَ له أن يتوبَ عليه، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه[1].

و«التَّوْب» يجوز أن يكون مصدر تابَ يتوبُ تَوْباً، ويَحتمِلُ أن يكون جمعَ توبة، نحو دَوْمَة ودَوْم وعَزْمة وعَزْم؛ ومنه قوله:

فَيَخْبو ساعَةً ويَهُبُّ ساعا[2]

ويجوز أن يكون التوبُ بمعنى التوبة. قال أبو العباس: والذي يسبق إلى قلبي أن يكون مصدراً؛ أي: يقبل هذا الفعل، كما تقول: قال قولاً، وإذا كان جمعاً فمعناه: يقبل التوبات. ﴿ذِى ٱلطَّوْلِۖ﴾ على البدل [لأنه نكرة] وعلى النعت، لأنه معرفة[3].

وأصل الطول الإنعام والفضل يقال منه: اللهم طُلْ علينا، أي: أنعم وتفضَّل. قال ابن عباس: «ذِي الطَّوْلِ» ذي النعم. وقال مجاهد: ذي الغنى والسَّعة[4]؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ [النساء: ٢٥] أي: غِنًى وسَعَةً. وعن ابن عباس أيضاً: «ذِي الطَّوْلِ» ذي الغِنى عمن لا يقول: لا إله إلا الله[5]. وقال عكرمة: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِۖ﴾ ذي المَنّ[6].

قال الجوهري[7]: والطَّوْل بالفتح المنّ؛ يقال منه: طال عليه وتطوَّل عليه، إذا

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٤/ ٩٧ بنحوه.

(٢) قائله القطامي، وهو في ديوانه ص٣٤، وصدره: وكنا كالحريق أصاب غابا.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦، وما بين حاصرتين منه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٤٢، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٧٨.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٩٠.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٤٢.

(٧) في الصحاح (طول).

امتنَّ عليه. وقال محمد بن كعب: «ذِي الطَّوْلِ» ذي التفضُّل؛ قال الماوردي[١]: والفرق بين المَنِّ والتفضُّل أن المنَّ عفوٌ عن ذنب. والتفضل إحسانٌ غيرُ مُستَحَق. والطَّول مأخوذٌ من الطُّول، كأنه طال بإنعامه على غيره. وقيل: لأنه طالت مُدَّة إنعامه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: المرجع.

قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ سجَّل سبحانه على المُجادِلين في آيات الله بالكُفر، والمراد الجِدالُ بالباطل؛ من الطَّعن فيها، والقَصْد إلى إدحاض الحقِّ، وإطفاءِ نور الله تعالى. وقد دلَّ على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

فأما الجِدال فيها لإيضاح مُلتبَسها، وحلِّ مُشْكِلها، ومُقادحة أهل العلم في استنباط مَعانيها، وردِّ أهل الزَّيْغ بها وعنها، فأعظمُ جهاد في سبيل الله. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ [الآية: ٢٥٨] مستوفى.

﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ﴾ وقُرئ: «فَلَا يَغُرَّكَ»[٢]، ﴿تَقَلُّبُهُمۡ﴾ أي: تصرُّفهم ﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ فإني وإن أمهلتُهم لا أُهمِلُهم، بل أُعاقبهم. قال ابن عباس: يُريد تجارتهم من مكة إلى الشام وإلى اليمن. وقيل: «لَا يَغْرُرْكَ» ما هم فيه من الخير والسَّعة في الرزق، فإنه متاعٌ قليلٌ في الدنيا. وقال الزجاج[٣]: «لَا يَغْرُرْكَ» سلامتُهم بعد كُفرهم، فإن عاقبتَهم الهَلاك. وقال أبو العالية: آيتان ما أشدّهما على الذين يُجادلون في القرآن: قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾[٤] [البقرة: ١٧٦].

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ١٤٢، وقول محمد بن كعب الذي قبله منه.
(٢) قرأ بها زيد بن علي وعبيد بن عمير، كما في البحر المحيط ٧/ ٤٤٩.
(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٦٦.
(٤) تفسير البغوي ٤/ ٩١.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ على تأنيث الجماعة، أي: كذَّبتِ الرُّسُلَ[1]. ﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: والأُمم الذين تحزَّبوا على أنبيائهم بالتكذيب، نحو عاد وثمود فَمن بعدَهم[2].

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: ليحبسوه ويُعذِّبوه. وقال قتادة والسُّدِّي: لِيقتلوه[3] والأَخْذُ يَرِد بمعنى الإهلاك؛ كقوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤]. والعرب تُسمِّي الأسيرَ الأخيذ؛ لأنه مأسورٌ للقتل؛ وأنشد قطرب قول الشاعر:

فإمَّا تأخُذوني تَقْتُلوني ... فكَمْ مِنْ آخِذٍ يَهْوَى خُلودِي[4]

وفي وقت أَخْذِهم لرسولهم قولان: أحدهما: عند دعائه لهم. الثاني: عند نزول

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٩١ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٤٣ .

(٤) جاء الشطر الثاني في النسخ الخطية: ومن أخذ فليس إلى خلودي، وضبط في (ز): أَخْذٍ، ووضع عليها «صح». والمثبت من (م)، وهو كذلك في الدر المصون ٩/ ٤٥٨ ، والبيت أورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٤٣ (والكلام منه) وعجز البيت فيه: ومن يأخذ فليس إلى خلودي.

العذاب بهم.

﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ أي: لِيُزيلوا. ومنه: مكان دَحْض، أي: مَزْلَقة[١]، والباطل داحض؛ لأنه يَزْلَق ويَزِلّ فلا يستقر. قال يحيى بن سلّام: جادَلوا الأنبياء بالشِّرك لِيبطلوا به الإيمان[٢]. ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي: بالعذاب. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: عاقبة الأمم المُكذِّبة. أي: أليس وجدوه حقًّا؟!.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ﴾ أي: وجبت ولَزِمتْ؛ مأخوذٌ من الحق لأنه اللازم[٣]. ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هذه قراءةُ العامة على التوحيد. وقرأ نافع وابن عامر: «كَلِمَاتُ» جمعاً[٤].

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ﴾ قال الأخفش[٥]: أي: لأنهم وبأنهم. قال الزجاج: ويجوز: إنهم بكسر الهمزة[٦]. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: المُعذَّبون بها، وتمَّ الكلام، ثم ابتدأ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ويُروى: أن حَمَلَة العرش أرجلُهم في الأرض السُّفلى ورؤوسهم قد خَرقت العرش، وهم خشوعٌ لا يرفعون طَرْفهم، وهم أشرافُ الملائكة وأفضلُهم. ففي الحديث: «إن اللهَ تبارك وتعالى أمرَ جميعَ الملائكة أن يَغْدُوا ويروحوا بالسَّلام على حَمَلةِ العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة»[٧].

ويقال: خلقَ اللهُ العرشَ من جوهرة خضراء، وبين القائمتين من قوائمه خَفَقان الطير المسرع ثمانين ألف عام. وقيل: حولَ العرش سبعون ألف صفٍّ من الملائكة

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٤٤ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦ .

(٤) السبعة ص٥٦٧ ، والتيسير ص١٢٢ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٦ وما بعده منه.

(٦) يعني في اللغة لا في التلاوة، والكلام في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٦٧ .

(٧) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٥ ، ولم نقف عليه عند غيره.

يَطوفون به مُهَلِّلين مُكَبِّرين، ومِن ورائهم سبعون ألف صفٍّ قيام، قد وَضَعوا أيديَهم على عواتقهم، ورافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومِن ورائهم مئة ألف صفٍّ، قد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحد إلا وهو يُسبِّح بما لا يُسبِّح[(١)] به الآخر.

وقرأ ابن عباس: «العُرْش» بضم العين[(٢)]؛ ذَكَر جميعه الزمخشري رحمه الله.

وقيل: اتصل هذا بذكر الكفار؛ لأن المعنى ـ والله أعلم ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ يُنزِّهون الله عزَّ وجلَّ عما يقوله الكفار ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يسألون لهم المغفرة من الله تعالى[(٣)].

وأقاويلُ أهل التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم مُجَسَّم خلقه اللهُ عزّ وجلّ، وأمرَ ملائكةً بحمله، وتَعبَّدهم بتعظيمه والطَّوافِ به؛ كما خلق في الأرض بيتاً وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله في الصلاة[(٤)].

وروى ابن طَهْمان، عن موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أُذِنَ لي أنْ أُحَدِّثَ عن مَلَكٍ من ملائكة الله من حَمَلة العرش ما بين شحمةِ أُذنه إلى عاتقه مسيرُ سبع مئة عام» ذكره البيهقي[(٥)]، وقد مضى في «البقرة» في آية الكرسي عِظَم العرش، وأنه أعظمُ المخلوقات[(٦)].

وروى ثور بن يزيد، عن خالد بن مَعْدان، عن كعب الأحبار أنه قال: لما خَلَقَ اللهُ تعالى العرشَ قال: لن يخلقَ اللهُ خلقاً أعظمَ مني؛ فاهتزَّ فطوَّقه الله بحية، للحية

---

(١) في النسخ الخطية: بما سبّح، والمثبت من (م)، وهو الموافق للكشاف ٣/ ٤١٥ ، والكلام منه كما سيذكر المصنف.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٢ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦-٢٧ .

(٤) الأسماء والصفات ٢/ ٢٧٢ .

(٥) في الأسماء والصفات (٨٤٦).

(٦) ٤/ ٢٧٥ وما بعدها.

سبعون ألفِ جناح، في الجناح سبعون ألفِ ريشة، في كلِّ ريشة سبعون ألف وجه، في كلِّ وجه سبعون ألف فم، في كلِّ فم سبعون ألف لسان. يخرجُ من أفواهها في كلِّ يوم من التسبيح عَدَدَ قَطْر المطر، وعددَ ورق الشجر، وعددَ الحصى والثرى، وعددَ أيام الدنيا، وعددَ الملائكة أجمعين، فالتَوَت الحيةُ بالعرش، فالعرشُ إلى نصف الحية وهي ملتوية به[١].

وقال مجاهد: بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب، حجاب نور وحجاب ظُلْمة، وحجاب نور وحجاب ظُلمة[٢].

﴿رَبَّنَا﴾ أي: يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وَسِعَتْ رحمتُك وعِلْمُك كلَّ شيء، فلما نقل الفعل عن الرحمة والعلم نصب على التفسير[٣]. ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ أي: من الشِّرك والمعاصي ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ أي: دين الإسلام. ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: اصرفه عنهم حتى لا يَصِلَ إليهم.

قال إبراهيم النخعي: كان أصحابُ عبد الله يقولون: الملائكةُ خيرٌ من ابن الكَوَّاء؛ هم يستغفرون لمن في الأرض وابن الكَوَّاء يشهد عليهم بالكفر[٤]، قال إبراهيم: وكانوا يقولون: لا يَحْجُبون الاستغفار عن أحد من أهل القبلة. وقال مُطَرِّف ابن عبد الله: وجدنا أنصحَ عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغشَّ عبادِ الله لعباد الله الشيطان، وتلا هذه الآية[٥].

وقال يحيى بن معاذ الرازي لأصحابه في هذه الآية: افهموها، فما في العالم جنةٌ أرجى منها؛ إنَّ مَلَكاً واحداً لو سأل الله أن يغفرَ لجميع المؤمنين لَغفرَ لهم، كيف

---

(١) هذا الخبر من الإسرائيليات التي يرويها كعب الأحبار عن كتب أهل الكتاب.

(٢) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٥٦).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧، وتفسير البغوي ٤/ ٩٣ بنحوه.

(٤) أخرجه أبو عبيد وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣، وعبد الله هو ابن مسعود ﷺ، وابن الكوَّاء رجل من الخوارج، كما في تفسير أبي الليث ٢/ ١٦٢ والخبر فيه.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٧٨-١٧٩.

وجميعُ الملائكة وَحَملةُ العرش يستغفرون للمؤمنين. وقال خلف بن هشام البزار القارئ: كنتُ أقرأُ على سليم بن عيسى فلما بلغتُ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بكى، ثم قال: يا خلف، ما أكرمَ المؤمن على الله، نائماً على فراشه والملائكة يستغفرون له.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ يُروى أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار: ما جنات عدن. قال: قصورٌ من ذهب في الجنة يدخلُها النبيُّون والصِّدِّيقون والشهداء وأئمةُ العدل[1].

﴿ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ «التي» في محل نصب نعتاً للجنات. ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ «مَنْ» في محل نصب عطفاً على الهاء والميم في قوله: «وَأَدْخِلْهُم»[2]. «وَمَنْ صَلَحَ» بالإيمان.

﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ وقد مضى في «الرعد» نظيرُ هذه الآية[3]. قال سعيد ابن جُبير: يدخلُ الرجلُ الجنة، فيقول: يا رب، أين أبي وجدِّي وأُمي؟ وأين ولدي وولدُ ولدي؟ وأين زوجاتي؟ فيقال: إنهم لم يعملوا كعملك؛ فيقول: يارب، كنتُ أعملُ لي ولهم؛ فيقال: أدخِلوهم الجنة. ثم تلا: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾[4]. وَيقرُبُ من هذه الآية قوله: ﴿والَّذين آمَنُوا وأَتْبعناهم ذُرِّيَّاتِهم بإيمانٍ ألْحَقْنا بهم ذُرِّيَّاتهم﴾[5] [الطور: ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال قتادة: أي: وَقِهم ما يسوءهم، وقيل: التقدير: وَقِهم عذابَ السيئات[6]، وهو أمرٌ من: وَقَاه الله يَقِيه وِقايةً؛ بالكسر؛ أي: حَفِظَه. ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ أي: بدخول الجنة ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: النجاة الكبيرة.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٧٨.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧.

(٣) ١٢/ ٦٠.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٨٦.

(٥) هذه قراءة أبي عمرو. السبعة ص٦١٢، والتيسير ص٢٠٣.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٨ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ قال الأخفش[١]: «لَمَقْتُ» هذه لام الابتداء وقعت بعد «يُنَادَوْنَ» لأن معناه: يقال لهم، والنداء قول. وقال غيره: المعنى: يقال لهم: «لَمَقْتُ اللهِ» إيَّاكم في الدنيا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ «أَكْبَرُ» من مقت بعضِكم بعضاً يومَ القيامة؛ لأن بعضَهم عادَى بعضاً وَمقَتَهُ يومَ القيامة، فأذعنوا عند ذلك، وخَضَعوا وطلبوا الخُروجَ من النار[٢].

وقال الكلبي: يقول كلُّ إنسان من أهل النار لنفسه: مَقَتُّكِ يا نفس؛ فتقول الملائكة لهم وهم في النار: لَمقتُ الله إيَّاكم إذ أنتم في الدنيا وقد بُعِثَت[٣] إليكم الرُّسل فلم تؤمنوا أشدُّ من مَقْتكم أَنْفُسَكم اليوم.

وقال الحسن: يُعْطَون كتابَهم، فإذا نظروا إلى سيئاتكم مقتوا أنفسَهم، فينادَوْن «لَمقْتُ الله» إيَّاكم في الدنيا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ اليوم. وقال معناه مجاهد[٤]. وقال قتادة: المعنى: «لَمَقْتُ اللهِ» لكم «إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإيمانِ فَتَكْفُرُونَ» «أكبرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أنْفُسَكُمْ» إذ عاينتم النار[٥]. فإن قيل: كيف يَصِحُّ أن يَمقُتوا أنْفُسَهم؟ ففيه وجهان: أحدهما: أنهم أحلوها بالذُّنوب محلَّ

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٥ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧ .

(٣) في (م): بعث.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٠٦-٢٠٧ .

(٥) أخرج قول مجاهد بنحوه وقول قتادة الطبري ٢٠/ ٢٨٨ .

الممقوت. الثاني: أنهم لما صاروا إلى حال زال عنهم الهوى وعلموا أن نفوسَهم هي التي أوْبقتهم[١] في المعاصي مَقَتُوها[٢].

وقال محمد بن كعب القُرَظي: إنَّ أهل النار لمَّا يَئِسوا مما عند الخَزَنةِ وقال لهم مالك: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] على ما يأتي. قال بعضُهم لبعض: يا هؤلاء، إنه قد نزل بكم من العذاب والبلاء ما قد ترون، فهلمَّ فلنصبر، فلعلَّ الصبر ينفعنا كما صبر أهلُ الطاعة على طاعة الله، فنفعهم الصبرُ إذ صبروا، فأجمعوا رأيَهم على الصبر، فصبروا، فطال صبرُهم، ثم جَزِعوا فنادَوْا ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: من ملجأ؛ فقال إبليسُ عند ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ إلى قوله: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ يقول: بمغنٍ عنكم شيئاً ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] فلما سَمِعوا مَقَالته مَقَتُوا أنفُسَهم. قال: فَنُودوا: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ قال: فردَّ عليهم: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ ذكره ابن المبارك[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ اختلف أهلُ التأويل في معنى قولهم: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة والضحاك: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم، ثم أحياهم، ثم أماتَهم المَوْتَةَ التي لابدَّ منها في الدنيا، ثم أحياهم للبعث والقيامة، فهاتان حياتان وموتتان، وهو قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

---

(١) في (م): أبقتهم.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٤٥-١٤٦.

(٣) وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٢٧ و٦٣١ من طريق ابن المبارك.

وقال السدي: أُميتوا في الدنيا، ثم أَحياهم في قبورهم[١] للمسألة، ثم أُميتوا، ثم أُحيوا في الآخرة[٢]. وإنما صار إلى هذا؛ لأن لفظَ الميت لا ينطلق في العُرف على النطفة.

واستدلَّ العلماء من هذا في إثبات سؤال القبر، ولو كان الثوابُ والعقابُ للروح دون الجسد، فما معنى الإحياء والإماتة؟ والروحُ عند من يقصر أحكامَ الآخرة على الأرواح لا تموتُ ولا تتغير ولا تفسدُ، وهو حيٌّ لنفسه لا يتطرَّق إليه موتٌ ولا غشية ولا فَناء.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ الآية قال: خلقَهم في ظهر آدم، وأخرجهم[٣] وأحياهم، وأخذَ عليهم المِيثاق، ثم أماتَهم، ثم أحياهم في الدنيا، ثم أماتهم[٤]. وقد مضى هذا في «البقرة»[٥].

﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ اعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف ونَدِمُوا حين لا ينفع[٦] النَّدم.

﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ أي: هل نُرَدُّ إلى الدنيا لِنعملَ بطاعتك؛ نظيره: ﴿هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقوله: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢] وقوله: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾ الآية [الأنعام: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ «ذلكم» في موضع رفع، أي: الأمر «ذَلكُم» أو «ذَلِكُم» العذاب الذي أنتم فيه بكفركم. وفي الكلام متروكٌ تقديره: فأُجيبوا بأن لا سبيلَ إلى الردّ. وذلك لأنكم «إذا دُعِيَ الله» أي: وُحِّدَ الله

---

(١) في (م): القبور.

(٢) أخرج الأقوال السالفة الطبري ٢٠/ ٢٩٠-٢٩٢ .

(٣) في النسخ الخطية: واستخرجهم، والمثبت من (م).

(٤) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٩ بنحوه، وقال: هذا قول ضعيف، لأن الإحياء فيه ثلاث مرات.

(٥) ١/ ٣٧٤-٣٧٥ .

(٦) في (م): حيث لا ينفعهم.

«وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ» وأنكرتم أن تكون الألوهية له خاصة، وإن أشركَ به مشركٌ صدَّقتموه وآمنتم بقوله[١].

قال الثعلبي: وسمعتُ بعضَ العلماء يقول: ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾ بعد الردّ إلى الدنيا لو كان ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾ تُصدِّقوا المُشرِكَ؛ نظيره: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨] ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ عن أن يكون له صاحبة أو ولد.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: دلائلَ توحيده وقُدرته ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ جَمَعَ بين إظهارِ الآيات وإنزال الرِّزق؛ لأن بالآيات قِوامَ الأديان، وبالرِّزق قِوامَ الأبدان. وهذه الآياتُ هي السماوات والأرَضون وما فيهما وما بينهما من الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والبحار والأنهار والعيون والجبال والأشجار وآثار قوم هَلَكوا.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي: ما يَتَّعِظُ بهذه الآياتِ، فيوحِّد الله ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي: يرجع إلى طاعة الله ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: العبادة. وقيل: الطاعة[٢]. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عبادةَ الله، فلا تعبدوا أنتم غيرَه.

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ «ذُو العَرْش» على إضمار مبتدأ. قال

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧، وتفسير البغوي ٤/ ٩٣.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٩٤ بنحوه.

الأخفش[١]: ويجوز نصبُه على المدح .

ومعنى «رَفِيعُ الدَّرَجات» أي: رفيع الصِّفات. وقال ابن عباس والكلبي وسعيد بن جُبير: رَفَعَ[٢] السماواتِ السَّبع. وقال يحيى بن سلَّام: هو رفعه درجات[٣] أوليائه في الجنة. فـ«رَفِيعُ» على هذا بمعنى رافع؛ فَعِيل بمعنى فاعل. وهو على القول الأول من صفات الذات، ومعناه: الذي لا أرفع قدراً منه، وهو المُستَحِقُّ لدرجات المَدْحِ والثناء، وهي أصنافُها وأبوابها لا مُستَحِقَّ لها غيره؛ قاله الحَلِيمي[٤]. وقد ذكرناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[٥] والحمد لله.

«ذُو العَرْشِ» أي: خالقه ومالِكُه، لا أنه مُحتاج إليه. وقيل: هو من قولهم: ثُلَّ عرشُ فلان، أي: زال مُلكه وعِزُّه[٦]، فهو سبحانه «ذُو العَرْش» بمعنى ثبوت مُلكه وسُلطانه، وقد بيَّناه في «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[٧].

﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ﴾ أي: الوحي والنبوة ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وسُمِّي ذلك روحاً لأن الناس يَحيون به؛ أي: يَحيَوْن من موت الكفر كما تحيا الأبدانُ بالأرواح[٨]. وقال ابن زيد: الرُّوح القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾[٩] [الشورى: ٥٢]. وقيل: الروح جبريل؛ قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: من قوله. وقيل: من قَضائه. وقيل: «مِنْ» بمعنى الباء، أي:

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٨ .

(٢) في النسخ: رفيع، والمثبت من النكت والعيون ٥/ ١٤٧ . والكلام منه.

(٣) في (م): رفعة درجة.

(٤) في المنهاج في شعب الإيمان ١/ ١٩٠ .

(٥) ص١٧٧ .

(٦) الصحاح (عرش) بنحوه.

(٧) ص١٨٣ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٩٤ .

(٩) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٩٥ .

بأمره[١]. ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهم الأنبياء، يشاء هو أن يكونوا أنبياءَ، وليس لأحد فيهم مشيئة.

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي: إنما يبعث الرسول لإنذار يوم البعث. فقوله: «لِيُنْذِرَ» يرجع إلى الرسل[٢]. وقيل: أي: لينذر اللهُ ببعثه الرُّسلَ إلى الخلائق «يَوْمَ التَّلَاقِ». وقرأ ابن عباس والحسن وابن السَّمَيْفَع: «لِتُنْذِرَ» بالتاء خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام[٣].

«يَوْمَ التَّلَاقِ» قال ابن عباس وقتادة: يوم تلتقي أهلُ السماء وأهل الأرض. وقال قتادة أيضاً وأبو العالية ومقاتل: يلتقي فيه الخَلْق والخالق. وقيل: العابدون والمعبودون. وقيل: الظالم والمظلوم. وقيل: يَلْقى[٤] كل إنسان جزاءَ عمله. وقيل: يلتقي الأولون والآخرون على صعيدٍ واحد؛ رُوي معناه عن ابن عباس[٥]. وكلُّه صحيح المعنى.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ يكون بدلاً من «يوم» الأول[٦]. وقيل: «هم» في موضع رفع بالابتداء، و«بَارِزُونَ» خبرُه، والجملة في موضع خفض بالإضافة؛ فلذلك حذف التنوين من «يومَ» وإنما يكون هذا عند سيبويه إذا كان الظرف بمعنى إذ؛ تقول: لقيتك يومَ زيدٌ أميرٌ. فإن كان بمعنى إذا لم يَجُزْ، نحو: أنا ألقاك يومَ زيدٌ أميرٌ[٧].

ومعنى «بَارِزُونَ» خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء[٨]؛ لأن الأرضَ يومئذ

(١) زاد المسير ٧/ ٣١٠-٣١١ .

(٢) في (م): الرسول.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨ .

(٤) في النسخ الخطية: يلتقي، والمثبت من (م).

(٥) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٤٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ٩٤ ، وزاد المسير ٧/ ٣١١ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥١ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨ .

(٨) تفسير البغوي ٥/ ٩٤ .

قاع صفصف، لا عوج فيها ولا أمْتًا على ما تقدَّم في «طه» بيانه[١].

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ قيل: إن هذا هو العامل في «يومَ هم بارِزُون»، أي: لا يخفى عليه شيء منهم ومن أعمالهم «يوم هم بارِزُونَ»[٢].

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ وذلك عند فَناء الخَلْق. وقال الحسن: هو السائل تعالى وهو المُجيبُ[٣]؛ لأنه يقول ذلك حين لا أحد يُجيبه، فَيُجيب نَفْسه سبحانه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

النحاس[٤]: وأصحُّ ما قيل فيه ما رواه أبو وائل عن ابن مسعود قال: يُحشَرُ الناسُ على أرض بيضاءَ مثل الفضة لم يُعْصَ اللهُ جلّ وعزّ عليها، فيؤمر منادٍ ينادي: «لِمَن المُلْكُ اليوم» فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم: «للهِ الواحدِ القهَّارِ» فيقول المؤمنون هذا سروراً وتلذُّذاً، ويقول الكافرون غمًّا وانقياداً وخُضوعاً. فأما أن يكون هذا والخَلْق غير موجودين فبعيد؛ لأنه لا فائدةَ فيه، والقولُ صحيح عن ابن مسعود، وليس هو مما يُؤخذ بالقياس ولا بالتأويل.

قلت: والقولُ الأول ظاهرٌ جدًّا؛ لأن المقصودَ إظهارُ انفراده تعالى بالمُلك عند انقطاع دعاوى المُدَّعين وانتساب المُنتسبين؛ إذ قد ذهب كلُّ مَلِك ومُلْكه ومُتكبِّر ومُلكه، وانقطعت نسبهم ودعاويهم، ودلَّ على هذا قولُه الحقّ عند قَبْضِ الأرواح وطيّ السماء: «أنا الملِك، أين ملوكُ الأرض» كما تقدَّم في حديث أبي هريرة[٥]، وفي حديث ابن عمر: «ثم يطوي الأرض بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبَّارون، أين المتكبِّرون»[٦]. وعنه: قوله سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ هو انقطاعُ زمن الدنيا وبعدَه يكون البعثُ والنَّشْر.

---

(١) ١٤/ ١٣٦ وما بعدها.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥١ بنحوه.

(٣) المصدر السابق.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨-٢٩ .

(٥) ١/ ٢١٨ و١٨/ ٣٠٨ ، وهو عند البخاري (٧٣٨٢)، ومسلم (٢٧٨٧).

(٦) أخرجه البخاري (٧٤١٢)، ومسلم (٢٧٨٨).

قال محمد بن كعب: قوله سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ بين النفختين حين فني الخلائق وبقي الخالق فلا يرى غير نفسه مالكاً ولا مملوكاً فيقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فلا يُجيبه أحد؛ لأن الخَلْقَ أمواتٌ فيجيب نفسَه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ لأنه بقي وحده وقهر خَلْقَه[1]. وقيل: إنه ينادي منادٍ فيقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فيجيبه أهل الجنة: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ فالله أعلم. ذكره الزمخشري[2].

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: يقال لهم إذا أقرُّوا بالملك يومئذ لله وحده: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خيرٍ أو شرٍّ. ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: لا يُنقَص أحدٌ شيئاً مما عَمِلَه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: لا يحتاجُ إلى تفكُّر وعَقْدِ يدٍ كما يفعله الحُسَّاب؛ لأنه العالم الذي لا يَعزُبُ عن عِلْمه شيء، فلا يُؤخِّرُ جزاءَ أحدٍ للاشتغال بغيره؛ وكما يرزقهم في ساعة واحدة يُحاسبهم كذلك في ساعة واحدة. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[3]. وفي الخبر: لا ينتصف النهار حتى يقيل أهلُ الجنة في الجنة وأهلُ النار في النار[4].

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ أي: يوم القيامة. سُمِّيت بذلك لأنها قريبة؛ إذْ

(١) النكت والعيون ٥/ ١٤٨ .

(٢) في الكشاف ٣/ ٤٢٠ .

(٣) ٣/ ٣٥٩ وما بعدها.

(٤) قاله ابن عباس وابن مسعود ﷺ كما سلف ١٥/ ٣٩٨ .

كل ما هو آتٍ قريب. وأَزِفَ فلانٌ، أي: قرب يَأْزَفُ أَزَفًا؛ قال النابغة:

أَزِف التَّرحُّلُ غيرَ أنَّ رِكابَنا لَمَّا تَزَلْ بِرحالِنا وَكَأنْ قَدِ[1]

أي: قَرُبَ. ونظيرُ هذه الآية: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧] أي: قَرُبت الساعة.

وكان بعضهم يتمثل ويقول:

أزِف الرَّحيلُ وليس لي مِن زَادِ غير الذُّنُوب لِشِقْوَتِي ونَكادِي[2]

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ على الحال، وهو محمول على المعنى. قال الزجاج[3]: المعنى: إذ قلوبُ الناس «لَدَى الحناجِرِ» في حال كَظْمهم. وأجاز الفراء[4] أن يكون التقدير: «وأَنْذِرْهُمْ» كاظِمِينَ. وأجاز رفع «كَاظِمِينَ» على أنه خبرٌ للقلوب[5]. وقال: المعنى: إذ هم كاظمون. وقال الكسائي: يجوز رفع ﴿كَٰظِمِينَ﴾ على الابتداء.

وقد قيل: إن المراد بـ«يوم الآزِفَةِ» يوم حضور المنية؛ قاله قطرب، وكذا ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ عند حضور المَنِيَّة. والأوّل أظهر. وقال قتادة: وقعت في الحناجر من المَخافة، فهي لا تخرجُ ولا تعود في أمكنتها[6]، وهذا لا يكون إلا يوم القيامة كما قال: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

وقيل: هذا إخبارٌ عن نهاية الجَزَع؛ كما قال: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]. وأُضيف اليومُ على ﴿ٱلْءَازِفَةِ﴾ على تقدير: يوم القيامةِ ﴿ٱلْءَازِفَةِ﴾، أو يوم المجادلة ﴿ٱلْءَازِفَةِ﴾. وعند الكوفيين هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، مثل:

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص٣٨، وفيه: أَفِدَ، بدل: أزف، وهو برواية المصنف في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٣، وتفسير الرازي ٢٧/ ٤٩.

(٢) قائله ابن الجهم الحوفي المصري، كما في خريدة القصر للعماد الأصفهاني (شعراء مصر) ٢/ ٢٠٠.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٦٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٩.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٦.

(٥) يعني في اللغة لا في التلاوة.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٤٩.

مسجد الجامع، وصلاة الأولى[١].

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: من قريب ينفع ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فيشفع فيهم.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ قال المُؤَرِّجُ: فيه تقديمٌ وتأخير، أي: يعلم الأعينَ الخائنة. وقال ابن عباس: هو الرجل يكون جالساً مع القوم فتمرُّ المرأةُ فَيُسارقهم النظرَ إليها. وعنه: هو الرجل ينظر إلى المرأة، فإذا نظر إليه أصحابُه غَضَّ بصرَه، فإذا رأى منهم غَفْلةً تدسَّسَ بالنظر، فإذا نظر إليه أصحابُه غَضَّ بصره، وقد علم الله عزَّ وجلَّ منه أن بودِّه[٢] لو نظر إلى عورتها[٣].

وقال مجاهد: هي مسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه. وقال قتادة: هي الهَمْزة بعينه وإغماضه فيما لا يحبُّ الله تعالى[٤].

وقال الضحاك: هو قول الإنسان: ما رأيتُ، وقد رأى، ورأيتُ، وما رأى. وقال السدي: إنها الرَّمْز بالعين. وقال سفيان: هي النظرة بعد النظرة[٥].

وقال الفراء[٦]: «خَائِنَةَ الأَعْيُنِ» النظرة الثانية، «ومَا تُخْفِي الصُّدُورُ» النظرة الأولى. وقال ابن عباس: «ومَا تُخْفِي الصُّدُورُ» أي: هل يزني بها لو خلا بها أو لا. وقيل: «وما تُخْفي الصُّدورُ» تُكِنُّه وتُضْمِرُه[٧].

ولما جيء بعبد الله بن أبي سَرْح إلى رسول الله ﷺ، بعد ما اطمأنَّ أهلُ مكة وطلب له الأمانَ عثمانُ ﷺ، صَمَتَ رسولُ الله ﷺ طويلاً ثم قال: «نعم» فلما انصرف، قال رسولُ الله ﷺ لمن حوله: «ما صَمَتُّ إلا لِيقومَ إليه بعضُكم فيضربَ عُنُقَه» فقال رجلٌ من

---

(١) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧ .
(٢) في (م): أنه يودّ.
(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢١٤ .
(٤) أخرجهما الطبري ٢٠/ ٣٠٤ .
(٥) النكت والعيون ٥/ ١٥٠ .
(٦) معاني القرآن ٣/ ٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٩ .
(٧) النكت والعيون ٥/ ١٥٠ .

الأنصار: فهلَّا أومأتَ إليَّ يا رسولَ الله؛ فقال: «إنَّ النبيَّ لا تكون له خائنةُ أعين»[١].

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: يُجازي من غَضَّ بصرَه عن المحارم، ومَن نظر إليها، ومن عَزَمَ على مُواقعة الفواحش إذا قدر عليها[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأوثان ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾ لأنها لا تعلم شيئاً ولا تقدر عليه ولا تملك[٣].

وقراءة العامة بالياء على الخبر على الظالمين، وهي اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم. وقرأ نافع وشيبة وهشام: «تَدْعُونَ» بالتاء[٤]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ «هو» زائدة فاصلة. ويجوز أن تكون في موضع رفع بالابتداء وما بعدها خبرٌ، والجملة خبر «إن»[٥].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ في موضع جزم عطف على «يَسِيرُوا»، ويجوز أن يكونَ في موضع نصب على أنه جواب، والجزم والنصب في التثنية والجمع واحد. ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ اسم كان، والخبر في «كيف». و﴿وَاقٍ﴾ في موضع خَفْض معطوف على اللفظ. ويجوز أن يكون في موضع رَفْع على الموضع، فرفعُه وخَفْضُه واحد؛ لأن الياء تُحذف وتبقى الكسرة دالَّةً عليها[٦]. وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في غير موضع، فأغنى عن الإعادة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٨٣)، والنسائي ٧/ ١٠٥-١٠٦ من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ، وعبد الله بن أبي سرح كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، ثم ارتدّ ولحق بالمشركين، فأمر النبي ﷺ يوم فتح مكة بقتله... وأسلم أيام الفتح، وولاّه عثمان رضي الله عنهما مصر، وسلفت قصته ٨/ ٤٥٩ وما بعدها.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٠٣ بنحوه.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٩٥.

(٤) السبعة ص٥٦٨، والتيسير ص١٩١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ وهي التسعُ الآياتُ المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ وقد مضَى تعيينها[1]. ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بِحُجَّة واضحةٍ بينة، وهو يُذكَّر ويُؤنَّث[2]. وقيل: أراد بالسلطان التوراة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ﴾ خصَّهم بالذِّكر لأن مدارَ التدبير في عداوة موسى كان عليهم[3]؛ ففرعون الملك وهامان الوزير وقارون صاحب الأموال والكنوز فجمعه اللهُ معهما؛ لأن عمله في الكفر والتكذيب كأعمالهما.

﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ لما عَجزوا عن معارضته حملوا المُعجزات على السِّحر.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ وهي المُعجزة الظاهرة ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ قال قتادة: هذا قَتْلٌ غير القتل الأول؛ لأنَّ فرعون كان قد أمسك عن قتل الوِلدان وقت[4] ولادة موسى، فلما بعثَ اللهُ موسى أعاد القتل على بني إسرائيل عقوبةً لهم، فيمتنع الإنسان من الإيمان؛ ولئلا يَكثُرَ جمعُهم فيعتضدوا بالذُّكور من أولادهم، فشغلهم اللهُ عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب،

---

(١) ١٨/ ١٨١ وما بعدها.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥٤ ، بنحوه.

(٤) في (م): بعد.

كالضفادع والقُمَّل والدَّم والطُّوفان إلى أن خرجوا من مصر، فأغرقهم الله. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ أي: في خُسران وهَلاك، وإن الناسَ لا يمتنعون من الإيمان وإن فعل بهم مثل هذا فكيده يذهب باطلاً[١].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ «أَقْتُلْ» جزم؛ لأنه جوابُ الأمر. «وَلْيَدْعُ» جزم؛ لأنه أمر، و«ذَرُونِي» ليس بمجزوم وإن كان أمراً، ولكن لفظُه لفظُ المجزوم، وهو مَبنيّ. وقيل: هذا يدلُّ على أنه قيل لفرعون: إنا نخاف أن يدعوَ عليك فيجاب؛ فقال: «وَلْيَدْعُ رَبَّه»[٢] أي: لا يهولنَّكم ما يذكر من ربِّه، فإنه لا حقيقةَ له، وأنا ربُّكم الأعلى.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي: عبادتَكم لي إلى عبادة ربِّه ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ إنْ لم يُبدلْ دينكم، فإنه يظهر في الأرض الفساد. أي: يقع بين الناس بسببه الخلاف.

وقراءة المدنيين وأبي عبد الرحمن السُّلَمي وابن عامر وأبي عمرو: «وَأنْ يُظْهرَ في الأرضِ الفَسادَ»، وقراءة الكوفيين: «أوْ أنْ يَظْهرَ» بفتح الياء «الفَسادُ» بالرفع[٣]، وكذلك هي في مصاحف الكوفيين: «أو» بألف، وإليه يذهب أبو عُبيد؛ قال: لأن فيه زيادَة حرف، وفيه فصل؛ ولأن «أو» تكون بمعنى الواو. النحاس[٤]: وهذا عند حُذَّاق النحويين لا يجوز أن تكون بمعنى الواو؛ لأن في ذلك بطلانَ المعاني، ولو جاز أن

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠ بنحوه، وقول قتادة ذكره أيضاً البغوي في تفسيره ٤/ ٩٥ وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢١٥ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١ .

(٣) قرأ نافع أبو عمرو: «وأن يُظْهِرَ»، وقرأ ابن كثير وابن عامر: «وأنْ يَظْهرَ»، وقرأ عاصم في رواية شعبة وحمزة والكسائي: «أو أنْ يَظْهر»، وقرأ عاصم في رواية حفص: «أَوْ أنْ يُظْهِرَ». ومن قرأ: «يُظهِرَ» بضم الياء، قرأ: «الفسادَ» بالنصب، ومن قرأ: «يَظْهر» بفتح الياء، قرأ: «الفسادُ» بالضم. السبعة ص٥٦٩ ، والتيسير ص١٩١ .

(٤) إعراب القرآن ٤/ ٣١ ، وما قبله منه.

تكون بمعنى الواو لما احتيج إلى هذا ها هنا؛ لأن معنى الواو «إنّي أخَافُ» الأمرين جميعاً، ومعنى «أو» لأحد الأمرين، أي: «إنّي أخَافُ أن يُبَدِّلَ دِينكُمْ» فإن أعوزَه ذلك أظهرَ في الأرض الفساد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾ لما هدَّده فرعون بالقتل استعاذ موسى بالله ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: مُتعظِّم عن الإيمان بالله، وصفتُه أنه ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «وَقَالَ رَجُلٌ مؤْمِنٌ» ذكر بعض المفسرين: أن اسم هذا الرجل حبيب[١]. وقيل: شمعان، بالشين المعجمة. قال السُّهيلي[٢]: وهو أصحُّ ما قيل فيه. وفي «تاريخ» الطبري رحمه الله: اسمه خير[٣]. وقيل: حزفيل؛ ذكره الثعلبي عن ابن عباس[٤] وأكثرِ العلماء. الزمخشري[٥]: واسمه سمعان أو حبيب. وقيل: خربيل أو حزبيل.

واختُلف هل كان إسرائيلياً أو قِبْطياً، فقال الحسن وغيره: كان قبطياً. ويقال: إنه

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٥٢ وعزاه لابن إسحاق.

(٢) في التعريف والإعلام ص١٣١ و١٥١ . وعنه نقل المصنف قول الطبري التالي، وهو في تاريخه ١/ ٤٠٧ .

(٣) في (ظ): جبر، والمثبت موافق للتعريف والإعلام، وفي تاريخ الطبري: حبرك، وفي تفسير الطبري ٢٠/ ٣١١ : خبرك.

(٤) في كتب التفسير أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اسم الرجل: حزبيل.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٢٤ .

كان ابنَ عم فرعون؛ قاله السدي. قال: وهو الذي نجا مع موسى عليه السلام؛ ولهذا قال: «مِنْ آلِ فِرعونَ» وهذا الرجُل هو المُرادُ بقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ الآية [القصص: ٢٠]. وهذا قول مقاتل. وقال ابن عباس: لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذي أنذر موسى فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾[1].

وفي هذا تسليةٌ للنبي ﷺ، أي: لا تَعْجب من مُشركي قومك. وكان هذا الرجل له وَجاهة عند فرعون؛ فلهذا لم يتعرض له بسوء. وقيل: كان هذا الرجلُ من بني إسرائيل يَكتُم إيمانَه من آل فرعون؛ عن السُّدي أيضاً. ففي الكلام على هذا تقديم وتأخير، والتقدير: وقال رجلٌ مؤمنٌ يَكْتُم إيمانَه من آل فرعون[2].

فمن جعل الرجل قِبطيًّا فـ«من» عنده متعلقة بمحذوف صفة لرجل؛ التقدير: وقال رجلٌ مؤمن منسوبٌ من آل فرعون؛ أي: من أهله وأقاربه. ومن جعله إسرائيليًّا فـ«مِن» مُتعلِّقة بـ«يكتم». في موضع المفعول الثاني لـ«يكتم» القشيري: ومن جعله إسرائيليًّا ففيه بُعْدٌ؛ لأنه يقال: كَتَمه أمر كذا، ولا يقال: كَتَم منه. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[3] [النساء: ٤٢] وأيضاً ما كان فرعون يحتمل من بني إسرائيل مثلَ هذا القول.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ أي: لِأَنْ يقول، ومن أجل «أنْ يقولَ رَبِّيَ اللهُ» فـ«أنْ» في موضع نصب بنزع الخافض.

﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني الآيات التسع ﴿مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ ولم يكن ذلك لشكٍّ منه في رسالته وصِدْقه، ولكن تَلطُّفًا في الاستكفاف

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٥٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ٩٦ ، وزاد المسير ٧/ ٢١٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٩٦ بنحوه.

(٣) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢٧/ ٥٧ .

واستنزالاً عن الأذى[١]. ولو كان و«إنْ يكن» بالنون جاز[٢]، ولكن حُذفت النون لِكَثْرةِ الاستعمال على قول سيبويه؛ ولأنها نونُ الإعراب على قول أبي العباس[٣].

﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي: إن لم يُصبكم إلا بعض الذي يعدكم، به هَلَكْتُم. ومذهبُ أبي عُبيدة[٤] أن معنى ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ كل الذي يَعِدُكم وأنشد قولَ لبيد:

تَــرَّاكُ أَمِــكِـنَـةٍ إذا لــم أرْضَـهـا ... أو يَرْتَبِطْ بعضَ النفوسِ حِمامُها[٥]

فبعض بمعنى كلّ[٦]؛ لأن البعضَ إذا أصابهم أصابهم الكلّ لا محالةَ؛ لدخوله في الوعيد، وهذا ترقيق الكلام في الوعظ. وذكر الماوردي[٧]: أن البعض قد يستعمل في موضع الكلّ تلطُّفاً في الخِطاب وتوسُّعاً في الكلام؛ كما قال الشاعر:

قد يُـدْرِك الـمتـأنّـي بـعـضَ حَـاجـتِـهِ ... وقد يكون مع المُستعجِلِ الزَّلَلُ[٨]

وقيل أيضاً: قال ذلك لأنه حذَّرهم أنواعاً من العذاب كل نوع منها مُهلِكٌ؛ فكأنه حذَّرهم أن يُصيبهم بعضُ تلك الأنواع. وقيل: وعدَهم موسى بعذاب الدنيا أو بعذاب الآخرة إن كفروا؛ فالمعنى: يُصبكم أحدُ العذابين. وقيل: أي: يُصِبْكم هذا العذابُ الذي يقوله في الدنيا وهو بعضُ الوعد[٩]، ثم يترادف العذابُ في الآخرة أيضاً.

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ١٥٣ .

(٢) يعني في اللغة لا في التلاوة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١ .

(٤) مجاز القرآن ٢/ ٢٠٥ .

(٥) شرح ديوان لبيد ص٣١٣ ، وفيه: يعتلق، بدل: يرتبط.

(٦) قال النحاس في معاني القرآن ٦/ ٢١٦ : وهذا قول مرغوب عنه، لأن فيه بطلان المعاني. وقال الرازي في تفسيره ٢٧/ ٥٨ : والجمهور على أن هذا القول خطأ، قالوا: وأراد لبيد ببعض النفوس نفسه.

(٧) النكت والعيون ٥/ ١٥٣ .

(٨) قائله القطامي، وهو في ديوانه ص٢٥ .

(٩) في (م): الوعيد.

وقيل: وعدَهم العذابَ إن كفروا والثوابَ إنْ آمنوا، فإذا كفروا يُصيبهم بعضُ ما وُعِدوا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ على نفسه ﴿كَذَّابٌ﴾ على ربِّه، إشارة إلى موسى، ويكون هذا من قول المؤمن. وقيل: «مُسْرِفٌ» في عناده، «كَذَّابٌ» في ادّعائه إشارة إلى فرعون، ويكون هذا من قول الله تعالى[1].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ قال القاضي أبو بكر بن العربي[2]: ظنَّ بعضُهم أن المُكلَّف إذا كتم إيمانَه ولم يتلفَّظ به بلسانه أنه لا يكون مؤمناً باعتقاده، وقد قال مالك: إن الرجلَ إذا نوى بقلبه طلاقَ زوجته أنه يلزمه، كما يكون مؤمناً بقلبه وكافراً بقلبه. فجعل مدارَ الإيمان على القلب وأنه كذلك، لكن ليس على الإطلاق، وقد بيَّناه في أصول الفقه؛ بما لُبابه أن المُكلَّف إذا نوى الكفر بقلبه كان كافراً وإن لم يتلفَّظ بلسانه، وأما إذا نوى الإيمانَ بقلبه فلا يكون مؤمناً بحال حتى يتلفظ بلسانه، ولا تمنعه التَّقِيَّةُ والخوف من أن يتلفَّظَ بلسانه فيما بينه وبين الله تعالى، إنما تمنعه التَّقِيَّةُ من أن يسمعه غيره، وليس من شرط الإيمان أن يسمعَه الغيرُ في صحته من التكليف، وإنما يُشترط سماعُ الغير له ليكفَّ عن نفسه وماله.

الرابعة: روى البخاري ومسلم عن عروةَ بن الزبير قال: قلتُ لعبد الله بن عمرو بن العاص: أَخبِرْني بأشدِّ ما صنعه المشركون برسول الله ﷺ؛ قال: بينا رسولُ الله ﷺ بِفِنَاء الكعبة، إذ أقبل عقبةُ بن أبي مُعَيط، فأخذ بِمَنْكِبِ رسول الله ﷺ، ولوى ثوبَه في عُنقه فخنقه به خَنقًا شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بِمَنْكِبِهِ ودفع عن رسول الله ﷺ، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ لفظ البخاري[3].

خرجه الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي ﷺ قال: اجتمعَتْ قريش بعد وفاة أبي طالب بثلاث، فأرادوا قَتْلَ

(١) النكت والعيون ٥/ ١٥٣ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٤٧ .

(٣) الحديث (٤٨١٥)، ولم نقف عليه في صحيح مسلم، وأخرجه أحمد (٦٩٠٨).

رسول الله ﷺ، فأقبل هذا يجؤه وهذا يُتَلتله[١]، فاستغاث النبيُّ ﷺ يومئذ فلم يُغِثه أحدٌ إلا أبو بكر، وله ضفيرتان، فأقبل يَجَأُ ذا ويُتلتل ذا، ويقول بأعلى صوته: ويلكم «أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أن يقولَ رَبِّيَ الله» والله، إنه لرسول الله؛ فَقُطِعَتْ إحدى ضفيرتي أبي بكر يومئذ. فقال عليٌّ: والله، لَيوم أبي بكر خيرٌ من مؤمن آل فرعون؛ إنَّ ذلك رجلٌ كَتَمَ إيمانَه، فأثنى الله عليه في كتابه، وهذا أبو بكر أظهر إيمانَه وبذلَ مالَه ودمَه لله عزّ وجلّ[٢].

قلت: قول عليّ ﷺ: إن ذلك رجلٌ كَتَم إيمانه يُريد في أول أمره بخلاف الصدّيق، فإنه أظهر إيمانَه ولم يَكْتُمْه؛ وإلا فالقرآن مُصَرِّح بأن مؤمنَ آل فرعون أظهر إيمانه لمَّا أرادوا قَتْلَ موسى عليه السلام على ما يأتي بيانه[٣].

وفي «نوادر الأصول» أيضاً عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالوا لها: ما أشدُّ شيءٍ رأيتِ المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان المشركون قعوداً في المسجد، ويتذاكرون رسولَ الله ﷺ ما يقول في آلهتهم، فبيناهم كذلك إذ دخل رسولُ الله ﷺ، فقاموا إليه بأجمعهم، وكانوا إذا سألوه عن شيء صدَقهم، فقالوا: ألستَ تقول كذا في آلهتنا، قال: «بلى» فَتَشبَّثوا فيه بأجمعهم فأتى الصَّريخ إلى أبي بكر فقال له: أدرِكْ صاحبَك. فخرج من عندنا وإن له غدائرَ، فدخل المسجد وهو يقول: ويلكم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ فلهوا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبي بكر، فَرَجَعَ إلينا أبو بكر فجعل لا يمسُّ شيئاً من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام، إكرام إكرام[٤].

---

(١) قوله: يجؤه، أي: يضربه، والتَّلْتلة: التحريك، والإقلاق، والزعزعة. القاموس المحيط (وجأ) و(تلل).

(٢) نوادر الأصول ص٢٤٤ ، وأخرجه البزار في البحر الزخار (٧٦١) بنحوه مطولاً وقال: وهذا الحديث لا نعلمه يُروى عن علي إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد.

(٣) في الآيات التالية.

(٤) نوادر الأصول ص٢٤٥ ، وأخرجه الحميدي في مسنده (٣٢٤).

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ هذا من قول مؤمن آل فرعون، وفي قوله «يا قَوْمِ» دليل على أنه قبطيّ، ولذلك أضافهم إلى نفسه فقال: «يَا قَوْمِ» ليكونوا أقربَ إلى قَبول وَعْظه «لكم المُلْكُ» فاشكروا الله على ذلك.

﴿ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: غالبين، وهو نصب على الحال[١]، أي: في حال ظُهوركم. والمراد بالأرض أرضُ مصر في قول السدي وغيره؛ كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١] أي: في أرض مصر.

﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي: من عذاب الله؛ تحذيراً لهم من نِقَمِهِ إن كان موسى صادقاً، فذكَّر وحذَّر، فعلم فرعون ظُهور حُجَّته فقال: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما أُشير عليكم إلا ما أرى لنفسي ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ في تكذيب موسى والإيمان بي[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ﴾ زادهم في الوعظ ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني أيام العذاب التي عُذِّب فيها المتحزِّبون على الأنبياء المذكورين فيما بعد.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ زاد في الوعظ والتخويف وأفصحَ عن إيمانه، إما مستسلماً مُوَطِّنًا نفسَه على القتل، أو واثقاً بأنهم لا يَقصِدونه

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٥٤.

بسوء، وقد وَقَاهُ الله شرَّهم بقوله الحق ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾. وقراءة العامة ﴿ٱلتَّنَادِ﴾ بتخفيف الدال وهو يوم القيامة؛ قال أمية بن أبي الصَّلت:

وبَثَّ الخَلْقَ فيها إذْ دَحاها فهم سُكَّانُها حتى التَّناد[1]

سُمِّي بذلك لمناداة الناس بعضَهم بعضاً؛ فينادي أصحابُ الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم، ويُنادي أصحابُ الجنة أصحابَ النار: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ ويُنادي أصحابُ النار أصحابَ الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠] ويُنادي المنادي أيضاً بالشِّقوة والسعادة: ألا إنَّ فلانَ بن فلان قد شقي شقاوةً لا يسعدُ بعدَها أبداً، ألا إن فلان بن فلان قد سَعِدَ سعادةً لا يشقى بعدَها أبداً. وهذا عند وزن الأعمال. وتُنادي الملائكةُ أصحابَ الجنة: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] ويُنادَى حين يذبح الموت: يا أهلَ الجنة، خلودٌ لا موت، ويا أهلَ النار، خلودٌ لا موت. ويُنادَى كلُّ قوم بإمامهم، إلى غير ذلك من النداء[2].

وقرأ الحسن وابن السَّميفع ويعقوب وابن كثير ومجاهد: «التَّنَادي» بإثبات الياء في الوصل والوقف على الأصل[3]. وقرأ ابن عباس والضحاك وعكرمة: «يوم التَّنَادِّ» بتشديد الدال[4]. قال بعضُ أهل العربية: هذا لحنٌ؛ لأنه من نَدَّ يَنِدُّ، إذا مَرَّ على وجهه هارباً؛ كما قال الشاعر:

وبَرْكٍ هُجُودٍ قد أثارتْ مَخافتي نَواديَها أسْعى بِعَضْبٍ مُجَرَّدِ[5]

قال: فلا معنى لهذا في القيامة. قال أبو جعفر النحاس[6]: وهذا غلطٌ، والقراءة

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٥٤.

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ١٥٤-١٥٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٥٨، وتفسير الرازي ٢٧/ ٦١.

(٣) قراءة ابن كثير في التيسير ص١٩٢، وقراءة يعقوب من العشرة في النشر ٢/ ٣٦٦.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٢، والمحتسب ٢/ ٢٤٣.

(٥) قائله طرفة بن العبد، وهو في ديوانه ص٣٧، وفيه: بواديها أمشي، بدل: نواديها أسعى. وقوله: بَرْك: أي: جماعة الإبل الباركة، وهجود: جمع هاجد، وهو النائم. والعَضْب: السيف القاطع. اللسان (برك) و(هجد) و(عضب).

(٦) في معاني القرآن ٦/ ٢٢٠، وما قبله منه.

بها حسنةٌ على معنى يوم التنافر.

قال الضحاك: ذلك إذا سَمِعوا زفيرَ جهنم نَدُّوا هرباً، فلا يأتون قِطْراً من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة، فيرجِعون إلى المكان الذي كانوا فيه[١]؛ فذلك قوله: «يَوْمَ التَّنَادِ»، وقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية [الرحمن: ٣٣]، وقوله: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ [الحاقة: ١٧] ذكره ابن المبارك بمعناه؛ قال: وأخبرنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: حدّثنا عبد الجبار بن عُبيد الله بن سلمان في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ ثم تستجيبُ لهم أعينُهم بالدَّمع فيبكون حتى يَنْفَدَ الدَّمع، ثم تستجيبُ لهم أعينُهم بالدَّم فيبكون حتى يَنْفَدَ الدم، ثم تستجيب لهم أعينُهم بالقَيْح. قال: يُرسَل عليهم من الله أمرٌ، فَيُوَلُّون مُدْبرين، ثم تستجيبُ لهم أعينهم بالقيح، فيبكون حتى يَنْفَدَ القيح، فتغورُ أعينُهم كالخَرْق في الطين.

وقيل: إن هذا يكون عند نَفْخِ إسرافيلَ عليه السلام في الصُّور نَفْخةَ الفَزَع[٢].

ذكره علي بن مَعْبد والطبري وغيرهما من حديث أبي هريرة، وفيه: «فتكون الأرضُ كالسفينة في البحر تَضْرِبها الأمواجُ، فيميدُ الناسُ على ظَهْرها وتَذْهَلُ المراضعُ، وتضعُ الحواملُ ما في بطونها، وتشيبُ الوِلدانُ، وتتطاير الشياطين هاربةً، فتلقاها الملائكةُ تضربُ وجوهَها، ويُوَلِّي الناس مُدبرين يُنادي بعضُهم بعضاً، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ الحديثَ بكماله[٣]. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٤] وتكلّمنا عليه هناك.

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٢٠ .

(٢) الزهد لابن المبارك (زوائد نعيم) (٣٥٦).

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٣١٧ . وهو حديث طويل أخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال (٣٦) وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣/ ٢٨٢-٢٨٧ بطوله، ثم قال: هذا حديث مشهور، وهو غريب جداً، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة.

(٤) ص١٧٣ و١٩٣ .

وروى عليّ[١] بن نصر عن أبي عمرو إسكانَ الدال من «التَّناد» في الوصل خاصة. وروى أبو معمر عن عبد الوارث[٢] زيادةَ الياء في الوصل خاصة، وهو مذهبُ ورش. والمشهور عن أبي عمرو حَذْفُها في الحالين. وكذلك قرأ سائرُ السبعة سوى ورش على ما ذكرنا عنه، وسوى ابن كثير على ما تقدَّم[٣].

وقيل: سُمِّي يومُ القيامة يومَ التَّناد؛ لأن الكافرَ ينادي فيه بالويل والثُّبور والحَسْرة. قاله ابن جريج[٤]. وقيل: فيه إضمارٌ، أي: إني أخافُ عليكم عذابَ يوم التناد؛ فالله أعلم.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ على البدل من «يوم التَّناد»[٥].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي: مَن خَلَق اللهُ في قلبه الضَّلالَ فلا هاديَ له. وفي قائله قولان: أحدُهما: موسى. الثاني: مؤمن آل فرعون[٦]، وهو الأظهرُ. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قيل: إنَّ هذا من قول موسى. وقيل: هو من تَمام وعظ مؤمن آل فرعون؛ ذَكَّرهم قديمَ عُتُوِّهم على الأنبياء؛

---

(١) في (م): عن علي.

(٢) كذا في النسخ: عن عبد الوارث، ولعله يريد: عبد الوارث عن أبي عمرو.

(٣) التيسير ص١٩٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٥٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٢ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٥٥ .

وأراد: يوسفُ بن يعقوب جاءهم بالبينات: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[1] [يوسف: ٣٩]. قال ابن جُريج: هو يوسفُ بن يعقوب بعثه الله تعالى رسولاً إلى القِبط بعد موت الملك من قَبْلِ موسى بالبينات؛ وهي الرؤيا[2]. وقال ابن عباس: هو يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبيّاً عشرين سنة[3]. وحكى النقاش عن الضحاك: إن الله تعالى بعثَ إليهم رسولاً من الجن يقال له: يوسف[4].

وقال وهب بن منبِّه: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف عُمِّر. وغيره يقول: هو آخر.

النحاس[5]: وليس في الآية ما يدلُّ على أنه هو؛ لأنه إذا أتى بالبينات نبيٌّ لمن معه ولمن بعده فقد جاءهم جميعاً بها، وعليهم أن يُصدِّقوه بها.

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ﴾ أي: أسلافُكم كانوا في شكٍّ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أي: مَن يدَّعي الرسالة ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ﴾ أي: مثل ذلك الضَّلال ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مُشرِكٌ ﴿مُّرْتَابٌ﴾ شاكٌّ في وحدانية الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: في حُجَجِهِ الظاهرة ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي: بغير حُجَّة وبرهان، و«الذين» في موضع نَصْب على البدل من «مَنْ»، وقال الزجاج[6]: أي: كذلك يُضِلُّ الله الذين يُجادلون في آيات الله فـ«الذين» نصب.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٩٧.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٥٥.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٢٦ دون نسبة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٥٥. قال ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٢١ هو يوسف بن يعقوب، ويقال: إنه ليس به، وليس بشيء.

(٥) إعراب القرآن ٤/ ٣٣.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٣، وما قبله منه.

قال: ويجوز أن يكون رَفْعًا على معنى: هم الذين، أو على الابتداء، والخبر ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾.

ثم قيل: هذا من كلام مؤمن آل فرعون. وقيل: ابتداء خطاب من الله تعالى. «مَقْتًا» على البيان، أي: «كَبُرَ» جِدالهم «مَقْتًا»؛ كقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾[١] [الكهف: ٥] ومَقْتُ الله تعالى ذَمُّه لهم ولَعْنُه إيَّاهم وإحلالُ العذاب بهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما طبعَ الله على قلوب هؤلاء المُجادلين، فكذلك ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ أي: يَختِمُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ حتى لا يعقل الرَّشاد، ولا يقبلَ الحقَّ.

وقراءة العامة: ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ بإضافة قلب إلى المتكبر، واختاره أبو حاتم وأبو عُبيد.

وفي الكلام حذف، والمعنى: «كذلكَ يَطْبَعُ اللهُ على كُلِّ قَلْبِ» على كل «مُتَكبِّرٍ جَبَّارٍ» فحذف «كُلّ» الثانية لِتقدُّم ما يدلُّ عليها. وإذا لم يُقدَّر حذفُ «كلّ» لم يستقم المعنى؛ لأنه يصير معناه: أنه يطبعُ على جميع قلبه، وليس المعنى عليه. وإنما المعنى أنه يطبع على قلوب المتكبرين الجبارين قلباً قلباً. ومما يدلُّ على حذف «كُلّ» قول أبي دُؤَاد:

أكُلَّ امرِئٍ تَحْسَبِينَ امرأً ... ونارٍ تَوَقَّدُ بالليلِ نارا[٢]

يريد: وكلّ نارٍ. وفي قراءة ابن مسعود: «على قَلْبِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ»[٣] فهذه قراءةٌ على التفسير والإضافة. وقرأ أبو عمرو وابن مُحيصن وابن ذكوان عن أهل الشام: «قلبٍ» مُنَوَّن[٤] على أن «متكبرٍ» نعت للقلب، فكَنَى بالقلب عن الجُملة؛ لأن القلب هو الذي يتكبَّر، وسائرُ الأعضاء تَبَعٌ له؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ في الجسد مُضغةً إذا صَلَحتْ

(١) إعراب القرآن ٤/ ٣٣ ، بنحوه.

(٢) البيت في الكتاب ١/ ٦٦ ، والحجة للفارسي ٦/ ١١٠-١١١ والكلام الذي قبله فيه بنحوه.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٢ .

(٤) السبعة ص٥٧٠ ، والتيسير ص١٩١ . وينظر الحجة للفارسي ٦/ ١٠٩-١١٠ .

صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسدَت فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب»[١] ويجوز أن يكون على حذف المضاف؛ أي: على كل ذي قلب مُتكبِّر؛ تجعلُ الصفةَ لصاحب القلب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ لما قال مؤمنُ آل فرعون ما قال، وخاف فرعونُ أن يتمكَّن كلامُ هذا المؤمن في قلوب القوم، أَوْ هَمَ أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد، فإنْ بانَ له صوابُه لم يُخفِه عنهم، وإن لم يَصِحَّ ثَبَّتَهُمْ على دينهم؛ فأمر وزيره هامان ببناء الصَّرح. وقد مضى في «القصص» ذكره[٢].

﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ . أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ «أسْبابَ السَّمواتِ» بدل من الأول. وأسبابُ السماء أبوابُها في قول قتادة والزهري والسُّدِّي والأخفش؛ وأنشد:

ومَنْ هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ ... ولو رامَ أسْبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ[٣]

وقال أبو صالح: أسباب السماوات طُرقها[٤]. وقيل: الأمور التي تستمسك بها السماوات. وكرَّر «أسباب» تفخيماً؛ لأن الشيء إذا أُبهم ثم أُوضح كان تفخيماً لشأنه[٥]. والله أعلم.

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ فأنظُرَ إليه نظرَ مُشْرِفٍ عليه. تَوهَّم أنه جسمٌ تحويه الأماكن. وكان فرعون يدَّعي الأُلوهية، ويرى تحقيقها بالجلوس في مكان مُشرِف.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بَشير ﷺ، وسلف ١/ ٢٨٧ .

(٢) ١٣/ ٢٨٨ .

(٣) قائله زهير، وهو في شرح ديوانه ص٣٠ ، والبيت من معلقته، ينظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص٨٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٥٦ . والبيت وما قبله منه.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٢٨ .

وقراءة العامة: «فَأَطَّلِعُ» بالرفع نسقاً على قوله: «أَبْلُغُ»، وقرأ الأعرج والسُّلَمي وعيسى وحفص: «فَأَطَّلِعَ» بالنصب[١]؛ قال أبو عُبيد[٢]: على جواب «لعل» بالفاء. النحاس: ومعنى النصب خلافُ معنى الرفع؛ لأن معنى النصب: متى بلغتُ الأسباب اطَّلعتُ. ومعنى الرفع لعلِّي أبلغُ الأسبابَ، ثم لَعلّي أَطَّلِعُ بعد ذلك؛ إلا أن ثم أشدُّ تراخياً من الفاء.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَٰذِبًا﴾ أي: وإني لأظن موسى كاذباً في ادِّعائه إلهاً دوني، وإنما أفعلُ ما أفعلُ لإزاحةِ العِلَّة. وهذا يوجب شكَّ فرعون في أمر الله. وقيل: إن الظن بمعنى اليقين، أي: وأنا أتيقَّن أنه كاذب، وإنما أقولُ ما أقولُه لإزالة الشُّبهة عمن لا يَتيقّن[٣] ما أتيقَّنه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: كما قال هذه المَقالة وارتابَ زَيَّن له الشيطانُ، أو زَيَّن الله سوءَ عمله، أي: الشرك والتكذيب.

﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قراءة الكوفيين «وصُدَّ» على ما لم يُسمَّ فاعلُه[٤]، وهو اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم. ويجوز على هذه القراءة «وَصِدَّ» بكسر الصاد، نُقلت كسرة الدال[٥] على الصاد؛ وهي قراءة يحيى بن وثَّاب[٦] وعلقمة. وقرأ ابن أبي إسحاق وعبد الرحمن بن أبي بَكْرة «وَصَدٌّ عَنِ السَّبِيلِ» بالرفع والتنوين[٧]. الباقون «وَصَدَّ» بفتح الصاد والدال. أي: صدَّ فرعونُ الناسَ عن السبيل.

---

(١) السبعة ص٥٧٠، والتيسر ص١٩٢.

(٢) في (م): أبو عبيدة، والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣، والكلام منه.

(٣) في (م): أتيقن.

(٤) السبعة ص٥٧١، والتيسير ص١٣٣.

(٥) يعني الدال الأُولى من «صُدَّ». والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣، وينظر الدر المصون ٩/ ٤٨٣.

(٦) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٤٦٦.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣-٣٤. وينظر المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٠.

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: في خُسران وضلال، ومنه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾[1] [المسد:١] وقوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود:١٠١] وفي موضع ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود:٦٣] فهدّ الله صرحه، وغرَّقه هو وقومه على ما تقدّم[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ هذا من تمام ما قاله مؤمنُ آل فرعون؛ أي: اقتدوا بي في الدين، ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: طريقَ الهُدى، وهو الجنة. وقيل: من قول موسى[3].

وقرأ معاذ بن جبل: «الرَّشَّادِ» بتشديد الشين[4]، وهو لحنٌ عند أكثر أهل العربية؛ لأنه إنما يقال: أرشد يُرشد، ولا يكون فَعَّال من أفعل، إنما يكون من الثلاثي، فإن أردتَ التكثيرَ من الرُّباعي قلت: مِفْعال. قال النحاس[5]: يجوز أن يكون رَشَّاد بمعنى

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٠ .

(٢) ١٣/ ٢٨٨ وما بعدها.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٠ ، وزاد المسير ٧/ ٢٢٤ بنحوه.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٢ ، والمحتسب ٢/ ٢٤١ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٢١٨-٢١٩ وما قبله منه.

يُرشد لا على أنه مشتقٌّ منه، ولكن كما يقال: لَأّال من اللؤلؤ. فهو بمعناه، وليس جارياً عليه، ويجوز أن يكون رشَّاد من رَشَدَ يَرشُدُ، أي: صاحب رشاد؛ كما قال:

كـلـيـنـي لِـهَـمٍّ يـا أمَـيْـمَـةَ نـاصِـبِ[١]

الزمخشري[٢]: وقُرئ: «الرَّشَّادِ» فَعَّال من رَشِد[٣] ـ بالكسر ـ كعَلَّام، أو من رَشَد بالفتح، كعبَّاد. وقيل: من أرشد كجبَّار من أجبر، وليس بذاك؛ لأن فعَّالاً من أفعل لم يجئ إلا في عدّة أحرف: نحو درَّاك وسأَّر وقصَّار وجَبَّار. ولا يصحُّ القياس على هذا القليل. ويجوز أن يكون نسبته إلى الرشد، كعَوَّاج وبتّات[٤] غير منظور فيه إلى فعل.

ووقع في المصحف «اتَّبِعْونِ» بغير ياء، وقرأها يعقوب وابن كثير بالإثبات في الوصل والوقف. وحَذَفَها أبو عمرو ونافع[٥] في الوقف، وأثبتوها في الوصل، إلا وَرْشًا حذفها في الحالتين، وكذلك الباقون[٦]؛ لأنها وقعت في المصحف بغير ياء، ومَن أثبتها فعلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ أي: يُتَمَتَّع بها قليلاً، ثم تنقطع وتَزول. ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ أي: الاستقرار والخُلود. ومُراده بالدار الآخرة الجنة والنار، لأنهما لا يَفنيان. بيَّن ذلك بقوله: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ﴾ يعني: الشِّرك ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ وهو العذاب[٧]. ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ قال ابن عباس:

---

(١) قائله النابغة الذبياني وهو في ديوانه ص٩، وعجزه: وليلٍ أُقاسيهِ بطيءِ الكواكبِ.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٢٥.

(٣) في النسخ الخطية: أرشد، والمثبت من (م)، وهو الموافق للكشاف.

(٤) العوَّاج: بائع العاج. والبتَّات: بائع البتّ، وهو الطيلسان من خزّ ونحوه. القاموس المحيط (عوج) و(بتت).

(٥) يعني في رواية قالون.

(٦) السبعة ص٥٧٣، والتيسير ص١٨٢، والنشر ٢/ ٣٦٦.

(٧) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٢٩-٣٣٠ بنحوه.

يعني لا إله إلا الله[١] . ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مُصدِّق بقلبه لله وللأنبياء.

﴿فأُولئكَ يُدْخَلُونَ الجنَّةَ﴾ بضمِّ الياء على ما لم يُسَمَّ فاعلُه. وهي قراءةُ ابن كثير وابن مُحَيْصن وأبي عمرو ويعقوب وأبي بكر عن عاصم[٢]، يدلُّ عليه ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الباقون: «يَدْخُلُونَ» بفتح الياء.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ أي: إلى طريق الإيمان المُوصل إلى الجنان ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بيَّن أن ما قال فرعون من قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ سبيل الغيّ عاقبته النار، وكانوا دَعَوْه إلى اتّباعه؛ ولهذا قال: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وهو فرعون ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾.

﴿لَا جَرَمَ﴾ تقدَّم الكلامُ فيه[٣]، ومعناه: حقًّا ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ «ما» بمعنى الذي[٤] ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ قال الزجاج[٥]: ليس له استجابةُ دعوة تنفع؛ وقال غيره: ليس له دعوةٌ تُوجب له الألوهية ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ﴾.

وقال الكلبي: ليس له شفاعةٌ في الدنيا ولا في الآخرة[٦]. وكان فرعون أولًا يدعو الناس إلى عبادة الأصنام، ثم دعاهم إلى عبادة البقر، فكانت تُعبَدُ ما كانت شابَّة، فإذا هَرمت أمر بِذَبْحها، ثم دعا بأُخرى لِتُعبد، ثم لما طال عليه الزمان قال: أنا ربُّكم الأعلى.

﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ قال قتادة وابن سيرين: يعني المشركين.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٢٤ دون نسبة.

(٢) وهي قراءة أبي جعفر من العشرة. السبعة ص٥٧١ ، والتيسير ص٩٧ ، والنشر ٢/ ٢٥٢ .

(٣) ١١/ ٩٤ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦١ .

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٦ . ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٤ ، وما بعده منه.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٥٨ .

وقال مجاهد والشعبي: هم السفهاءُ السفَّاكون للدِّماء بغير حقِّها[١]. وقال عكرمة: الجبَّارون والمُتكبِّرون. وقيل: هم الذين تعدَّوا حُدودَ الله. وهذا جامعٌ لما ذُكر.

و«أنَّ» في المواضع في موضع نصب بإسقاط حرف الجر. وعلى ما حكاه سيبويه عن الخليل من أن «لَا جَرَمَ» ردٌّ لكلام يجوز أن يكون موضعُ «أنَّ» رفعاً على تقدير: وجب أن ما تدعونني إليه، كأنه قال: وجب بُطلانُ ما تدعونني إليه، والمَردُّ إلى الله، وكون المسرفين هم أصحاب النار[٢].

قوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ﴾ تهديد ووعيد، و«ما» يجوز أن تكون بمعنى الذي، أي: الذي أقولُه لكم. ويجوز أن تكون مصدريةً، أي: فستذكرون قولي لكم إذا حلَّ بكم العذاب. ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي: أتوكَّل عليه وأُسَلِّم أمري إليه. وقيل: هذا يدلُّ على أنهم أرادوا قتْلَه. وقال مقاتل: هربَ هذا المؤمنُ إلى الجبل فلم يقدروا عليه. وقد قيل: القائل موسى[٣]. والأظهرُ أنه مؤمن آل فرعون، وهو قول ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾ أي: من إلحاق أنواعِ العذاب به، فطلبوه فما وجدوه؛ لأنه فَوَّضَ أمرَه إلى الله. قال قتادة: كان قبطيًّا فنجَّاه الله مع بني إسرائيل[٤]. فالهاء على هذا لمؤمن آل فرعون. وقيل: إنها لموسى على ما تقدَّم من الخِلاف.

---

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٥٨ دون ذكر ابن سيرين، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٣٤ .

(٢) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٤/ ٥٦١ ، وينظر ما سلف ١١/ ٩٤ .

(٣) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ١٥٩ دون ذكر مقاتل.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٩٩ .

﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ قال الكسائي: يقال: حاق يَحِيقُ حَيْقاً وحُيُوقاً؛ إذا نزل ولزم[1]. ثم بيَّن العذاب فقال: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ وفيه ستةُ أوجه: يكون رفعاً على البدل من «سُوءُ». ويجوز أن يكون بمعنى هو النار. ويجوز أن يكون مرفوعاً بالابتداء. وقال الفراء[2]: يكون مرفوعاً بالعائد على معنى: النار عليها يُعرَضون، فهذه أربعةُ أوجه في الرفع، وأجاز الفراء النصب؛ لأن بعدها عائداً وقبلَها ما يتَّصل به، وأجاز الأخفشُ[3] الخفضَ على البدل من «العَذَابِ». والجمهور على أن هذا العَرْضَ في البرزخ.

واحتجَّ بعضُ أهل العلم في تثبيت عذاب القبر بقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ ما دامت الدنيا[4]. كذلك قال مجاهد وعكرمة ومقاتل ومحمد بن كعب كلهم قال: هذه الآية تدلُّ على عذاب القبر في الدنيا، ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

وفي الحديث عن ابن مسعود: إن أرواحَ آل فرعون ومَن كان مِثْلَهم من الكفار تُعرَض على النار بالغَداة والعَشِيِّ، فيقال: هذه دارُكم[5]. وعنه أيضاً: إنّ أرواحَهم في أجواف طير سُود تغدو على جهنم وتروح كلَّ يوم مرتين، فذلك عَرضُها[6].

وروى شعبة عن يعلى بن عطاء قال: سمعتُ ميمون بن مَيْسرة[7] يقول: كان أبو هريرة إذا أصبح ينادي: أصبحنا والحمدُ لله، وعُرِضَ آلُ فرعون على النار. فإذا أمسى

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٤-٣٥ وما قبله منه.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٧ .

(٤) تفسير الرازي ٢٧/ ٧٣ بنحوه.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٥ ، وينظر التعليق التالي.

(٦) هذا الأثر والذي قبله واحد، أخرجه ابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير في تفسيره ٧/ ١٤٨ .

(٧) غيَّرها محققوا (م) إلى مهران، وهو خطأ.

نادى: أمسينا والحمد لله، وعُرِض آلُ فرعون على النار؛ فلا يسمع أبا هريرة أحدٌ إلا تعوَّذ بالله من النار[١].

وفي حديث صخر بن جُوَيْرية عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن الكافر إذا مات عُرِضَ على النار بالغَداة والعَشِيّ، ثم تلا: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ وإن المؤمنَ إذا مات عُرِضَ روحه على الجنة بالغَدَاة والعَشِيّ»[٢].

وخرَّج البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أحدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقْعده بالغَداة والعشيّ، إنْ كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهلِ النار فمن أهلِ النار فيقال: هذا مَقْعدُك حتى يبعثكَ الله إليه يومَ القيامة»[٣].

قال الفراء[٤]: في الغَداة والعشِيّ بمقادير ذلك في الدنيا. وهو قول مجاهد. قال: «غُدُوًّا وَعَشِيًّا» قال: من أيام الدنيا[٥].

وقال حماد بن محمد الفزاريّ: قال رجلٌ للأوزاعي، رأينا طيوراً تخرجُ من البحر تأخذُ ناحية الغرب، بيضاً صِغاراً، فَوْجاً فَوْجاً لا يعلم عددَها إلا الله، فإذا كان العشاء رَجَعتْ مثلَها سوداً. قال: تلك الطيورُ في حواصلها أرواحُ آل فرعون، يُعرضون على النار غُدوًّا وعَشِيًّا، فترجع إلى أوكارها وقد احترقت رِياشُها وصارت سوداً، فينبتُ عليها من الليل رياشها بيضاً وتتناثر السود، ثم تغدو فَتُعرض على النار غُدوًّا وعشيًّا، ثم ترجع إلى وَكْرها، فذلك دَأْبها ما كانت في الدنيا، فإذا كان يومُ القيامة قال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ وهو الهاوية. قال

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٠٠).

(٢) ذكره بهذا الإسناد وهذا اللفظ النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٥ ، وعنه نقله المصنف، ولم نقف عليه بهذا السياق عند غيره، وينظر الحديث التالي.

(٣) صحيح البخاري (١٣٧٩)، وصحيح مسلم (٢٨٦٦)، وأخرجه أحمد (٥٩٢٦).

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٥ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٢٩ ، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٥٦٦ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٣٣٩ ولفظه: يعني: ما كانت الدنيا.

الأوزاعي: فبلغنا أنهم ألفا ألفٍ وستُّ مئة ألف[١].

و«غُدُوًّا» مصدر جُعل ظرفاً على السعة. وَ«عَشِيًّا» عطف عليه وتم الكلام. ثم تبتدئ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ على أن تنصبَ يوماً بقوله: «أَدْخِلوا» ويجوز أن يكون منصوباً بـ«يُعْرَضُونَ» على معنى «يُعْرَضُونَ» على النار في الدنيا «ويومَ تَقُومُ الساعةُ» فلا يُوقف عليه[٢].

وقرأ نافع وأهل المدينة وحمزة والكسائي: «أَدْخِلُوا» بقطع الألف وكسر الخاء من أدخل[٣]، وهي اختيار أبي عُبيد؛ أي: يأمر الله الملائكةَ أن يُدخلوهم، ودليلُه «النَّار يُعْرَضُونَ عليها». الباقون: «ادخُلُوا» بوصل الألف وضمّ الخاء من دخل، أي: يقال لهم: «ادْخُلُوا» يا «آل فرعونَ أَشَدَّ العذابِ» وهو اختيار أبي حاتم. قال: في القراءة الأولى: «آل» مفعولٌ أول و«أَشَدَّ» مفعولٌ ثانٍ بحذف الجر، وفي القراءة الثانية منصوب؛ لأنه نداء مضاف[٤].

وآل فرعون: مَنْ كان على دينه وعلى مذهبه، وإذا كان من كان على دينه ومذهبه في أشدّ العذاب كان هو أقربَ إلى ذلك. وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ: «إنَّ العبدَ يُولَدُ مؤمناً، ويحيا مؤمناً، ويموت مؤمناً؛ منهم يحيى بن زكريا عليهما السلام، وُلِدَ مؤمناً، وحيي مؤمناً، ومات مؤمناً، وإنَّ العبدَ يُولَدُ كافراً، ويحيا كافراً، ويموت كافراً؛ منهم فرعون، وُلِدَ كافراً، وحيي كافراً، ومات كافراً» ذكره النحاس[٥].

وجعل الفرَّاء في الآية تقديماً وتأخيراً مجازه: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ فجعل العرضَ في الآخرة، وهو خِلافُ

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٣٨ . وفيه: إنهم ست مئة ألف مقاتل.
(٢) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٥ ، وينظر الدر المصون ٩/ ٤٨٥ .
(٣) وقرأ بها عاصم في رواية حفص، السبعة ص٥٧٢ ، والتيسير ص١٩٢ ، والنشر ٢/ ٣٦٥ .
(٤) الحجة للفارسي ٦/ ١١٣ بنحوه.
(٥) في إعراب القرآن ٤/ ٣٥ ، وما قبله منه. والحديث أخرجه ابن مردويه من حديث ابن عباس ﷺ كما في الدر المنثور ٦/ ٢٢٧ وليس فيه ذكر يحيى عليه السلام ولا فرعون.

ما ذهب إليه الجمهور من انتظام الكلام على سياقه على ما تقدَّم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: يختصمون فيها ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ عن الانقياد لِلأَنْبِيَاءِ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ فيما دعوتمونا إليه من الشِّرك في الدنيا ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ أي: مُتحمِّلون ﴿عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: جزءاً من العذاب. والتَّبَعُ يكون واحداً، ويكون جمعاً في قول البصريين، واحدُه تابع. وقال أهلُ الكوفة: هو جمعٌ لا واحدَ له كالمصدر، فلذلك لم يُجمع، ولو جُمع لقيل: أتباع[1].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي: في جهنم. قال الأخفش[2]: «كُلٌّ» مرفوعٌ بالابتداء. وأجاز الكسائي والفراء[3] «إنَّا كُلًّا فيها» بالنصب على النعت والتأكيد للمضمر في «إنَّا»، وكذلك قرأ ابن السَّمَيْفَع وعيسى بن عمر[4]. والكوفيون يُسمُّون التأكيد نعتًا. ومنع ذلك سيبويه؛ قال: لأن «كُلًّا» لا تُنعت ولا يُنعت بها. ولا يجوز البدلُ فيه؛ لأن المُخبر عن نفسه لا يُبدل منه غيره، وقال معناه المبرد، قال: لا

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٠٠، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦.

(٢) في معاني القرآن ١/ ٦٧٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٦، وما بعده منه.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ١٠.

(٤) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٤٦٩.

يجوز أن يُبدل من المُضمر هنا؛ لأنه مُخاطَب، ولا يُبدل من المُخاطَب ولا من المُخاطِب؛ لأنهما لا يُشكلان فَيُبدَل منهما؛ هذا نصُّ كلامه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ أي: لا يُؤاخِذُ أحداً بذنب غيره؛ فكلٌّ منّا كافر[1].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ﴾ من الأمم الكافرة. ومن العرب من يقول: اللذون على أنه جمعُ مُسلَّم مُعرب، ومن قال: «الذين» في الرفع بَنَاه كما كان في الواحد مَبْنيًّا. وقال الأخفش: ضُمَّت النون إلى الذي فأشبه خمسةَ عشرَ، فَبُنيَ على الفتح. ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ خزنة جمع خازن، ويقال: خُزَّان وخُزَّن. ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمًا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ «يُخَفِّفْ» جواب مجزوم، وإن كان بالفاء كان منصوباً، إلا أن الأكثرَ في كلام العرب في جواب الأمر وما أشبهه أن يكون بغير فاء، وعلى هذا جاء القرآن بأفصح اللُّغات كما قال:

قِفا نَبْكِ مِن ذِكْرى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ[2]

قال محمد بن كعب القُرَظي: بلغني ـ أو ذُكِرَ لي ـ أن أهلَ النار استغاثوا بالخَزَنةِ؛ فقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمًا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ فسألوا يوماً واحداً يُخفَّف عنهم فيه العذابُ فَرُدَّت عليهم ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ الخبر بطوله[3].

وفي الحديث عن أبي الدرداء ـ خرجه الترمذي وغيره ـ قال: يُلقى على أهل النار الجوع حتى يَعْدِلَ ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون منه فَيُغاثون بالضَّريع لا يُسمن ولا يُغني من جوع، فيأكلونه لا يُغني عنهم شيئاً، فيستغيثون فَيُغاثون بطعام ذي غُصَّة،

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦-٣٧ ، والبيت لامرئ القيس، وهو من معلقته، وسلف ١٠/ ٣٦٤ .

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠ .

فَيغَصُّون به، فيذكرون أنهم كانوا في الدنيا يُجيزون الغَصَص بالماء، فيستغيثون بالشَّراب فَيُرفَعُ لهم الحميم بالكلاليب، فإذا دنا من وجوههم شواها، فإذا وقع في بطونهم قطَّع أمعاءهم وما في بطونهم، فيستغيثون بالملائكة يقولون: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فيُجيبونهم ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[1] أي: خسار وتَبار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾، ويجوز حذفُ الضَّمة لِثقِلها، فيقال: «رُسْلنَا» والمراد موسى عليه السلام. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في موضع نصب عطف على الرُّسل[2]، والمراد المؤمن الذي وعظ. وقيل: هو عامٌّ في الرُّسل والمؤمنين. ونَصْرهم بإعلاء الحُجج وإفلاحها في قول أبي العالية. وقيل: بالانتقام من أعدائهم. قال السدي: ما قَتَل قومٌ قطُّ نبيًّا أو قوماً من دُعاة الحقِّ من المؤمنين إلا بعثَ اللهُ عزَّ وجلَّ من ينتقم لهم، فصاروا منصورين فيها وإن قُتِلوا[3].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ يعني: يومَ القيامة. قال زيد بن أسلم: «الأشْهادُ» أربعة: الملائكة والنبيون والمؤمنون والأجساد[4]. وقال مجاهد والسدي: «الأشْهادُ» الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ، وعلى الأُمم بالتكذيب. وقال قتادة:

---

(١) نقله المصنف بهذا اللفظ من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧ ، وأخرجه الترمذي (٢٥٨٦) بنحوه وقال: إنما نعرف هذا الحديث..... عن أبي الدرداء قوله، وليس بمرفوع.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٦٠ .

(٤) في النسخ الخطية: الأشهاد، والمثبت من (م).

الملائكةُ والأنبياء[١].

ثم قيل: «الأشْهَادُ» جمع شهيد مثل شريف وأشراف[٢]. وقال الزجاج[٣]: «الأشْهَادُ» جمع شاهد، مثل صاحب وأصحاب. النحاس[٤]: ليس باب فاعل أن يُجمع على أفعال، ولا يُقاس عليه، ولكن ما جاء منه مسموعاً أُدِّيَ كما سُمع، وكان على حذف الزائد. وأجاز الأخفش والفراء: «وَيَوْمَ تَقُومُ الأَشْهَادُ» بالتاء على تأنيث الجماعة[٥].

وفي الحديث عن أبي الدرداء ـ وبعض المُحدِّثين يقول عن النبي ﷺ ـ قال: «من ردَّ عن عِرْض أخيه المسلم كان حقًّا على الله عزَّ وجلَّ أن يَرُدَّ عنه نارَ جهنم، ثم تلا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾»[٦]. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «مَن حمى مؤمناً مِن منافق يغتابُه بعثَ اللهُ عزّ وجلّ يومَ القيامة مَلَكاً يحميه من النار. ومَن ذَكَر مسلماً بشيء يَشِينه به وَقَفَهُ اللهُ عزّ وجلّ على جسرٍ من جهنم حتى يخرجَ مما قال»[٧].

﴿يَوْمَ﴾ بدل من «يوم» الأول[٨]. ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ قرأ نافع والكوفيون: «يَنْفَعُ» بالياء. الباقون بالتاء[٩]. ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ «اللَّعنةُ»

(١) النكت والعيون ٥/ ١٦٠-١٦١، وقولا مجاهد وقتادة أخرجهما الطبري ٢٠/ ٣٤٦.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٤.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٦.

(٤) في إعراب القرآن ٤/ ٣٨. وقول الزجاج الذي قبله عنه.

(٥) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٧٩، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ١٠، و«تقوم» بالتاء؛ قرأ بها ابن هرمز وإسماعيل، كما في البحر المحيط ٧/ ٤٧٠.

(٦) أخرجه أحمد (٢٧٥٣٦) مرفوعاً، وأشار إلى الموقوف أبو نعيم في الحلية ٧/ ٢٥٧ - ٢٥٨.

(٧) أخرجه أحمد (١٥٦٤٩)، وأبو داود (٤٨٨٣) من حديث معاذ بن أنس الجهني ، وفي إسناده إسماعيل بن يحيى المعافري، قال الذهبي في الميزان ١/ ٢٥٤: فيه جهالة، وذكر هذا الحديث من غرائبه. وهذا الحديث والذي قبله نقلهما المصنف من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٨.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٤.

(٩) السبعة ص٥٧٣، والتيسير ص١٩٢.

البُعد من رحمة الله، و«سُوءُ الدَّارِ» جهنم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ هذا دخل في نُصرة الرُّسل في الدنيا والآخرة، أي: آتيناه التوراة والنبوة. وسُمِّيت التوراة هدًى بما فيها من الهُدى والنور؛ وفي التنزيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يعني: التوراة جعلناها لهم ميراثاً. ﴿هُدًى﴾ بدل من «الكتاب»، ويجوز بمعنى هو هُدًى؛ يعني ذلك الكتاب. ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أي: موعظة لأصحاب العقول.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: فاصبِرْ يا محمد على أذى المشركين. كما صبر مَن قبلك ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بنصرك وإظهارك، كما نصرتُ موسى وبني إسرائيل. وقال الكلبي: نُسِخَ هذا بآية السيف[1].

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ قيل: لذنب أُمَّتك، حُذف المُضاف وأُقيم المضاف إليه مُقامه. وقيل: لذنب نَفسِكَ على من يُجَوِّز الصغائر على الأنبياء[2]. ومَن قال: لا تجوز قال: هذا تعبُّد للنبي عليه الصلاة والسلام بالدعاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾ [آل عمران: ١٩٤] والفائدة زيادةُ الدرجات، وأن يصيرَ الدعاءُ سنةً لمن

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٤، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٠١.

(٢) تفسير الرزاي ٢٧/ ٧٧-٧٨ بنحوه.

بعده[١]. وقيل: فاستغفر الله من ذنب صَدَرَ منك قبلَ النبوة.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ يعني صلاة الفجر وصلاةَ العصر؛ قاله الحسن وقتادة. وقيل: هي صلاةٌ كانت بمكة قبل أن تُفرضَ الصلواتُ الخمس؛ ركعتان غُدْوة وركعتان عشيّة. عن الحسن أيضاً، ذكره الماوردي[٢]. فيكون هذا مما نُسخ والله أعلم.

وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ بالشُّكر له والثناء عليه. وقيل: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: استدم التسبيحَ في الصلاة وخارجاً منها لِتشتغلَ بذلك عن استعجال النصر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ يُخاصِمون ﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي: حُجَّة ﴿أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ قال الزجاج[٣]: المعنى: ما في صدورهم إلا كِبْرٌ ما هم ببالغي إرادتهم فيه. قدَّره على الحذف. وقال غيره: المعنى: ما هم ببالغي الكِبْر، على غير حذف؛ لأن هؤلاء قومٌ رأَوْا أنهم إن اتَّبعوا النبيَّ ﷺ قلَّ ارتفاعهم، ونقصتْ أحوالُهم، وأنهم يرتفعون إذا لم يكونوا تَبعاً، فأَعْلم اللهُ عزَّ وجلَّ أنهم لا يَبلُغون الارتفاع الذي أملوه بالتكذيب[٤]. والمراد المشركون. وقيل: اليهود[٥]؛ فالآيةُ مدنيةٌ على هذا كما تقدَّم أولَ السورة.

والمعنى: إن تَعَظَّموا عن اتّباعِ محمد ﷺ، وقالوا: إن الدجَّال سيخرج عن قريب فيردّ المُلك إلينا، وتسير معه الأنهار، وهو آيةٌ من آيات الله، فنزلت الآية فيهم. قاله أبو العالية وغيره[٦]. وقد تقدَّم في «آل عمران» أنه يخرج ويطأُ البلادَ كلَّها إلا مكةَ

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٠١ .

(٢) في النكت والعيون ٥/ ١٦١ ، وفيه قول قتادة السالف، وقول الحسن الأول ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٥ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٩ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٩ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٦١ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٦١ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٠١ بنحوه.

والمدينة[١]. وقد ذكرنا خبره مستوفى في كتاب «التذكرة»[٢] وهو يهودي، واسمه صاف، ويُكْنَى أبا يوسف[٣].

وقيل: كل مَن كَفَرَ بالنبيِّ ﷺ. وهذا حسن؛ لأنه يَعُمُّ. وقال مجاهد: معناه: في صدورهم عظمةٌ ما هم ببالغيها، والمعنى واحد[٤]. وقيل: المراد بالكِبْر الأمرُ الكبير. أي: يطلبون النبوة أو أمراً كبيراً يَصِلُون به إليك من القتل ونحوه، ولا يبلغون ذلك. أو يتمنَّون موتَك قبل أن يتمَّ دينُك، ولا يبلغونه.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ قيل: من فتنة الدجال على قول من قال: إن الآية نزلت في اليهود. وعلى القول الآخر من شرِّ الكفار. وقيل: من مثل ما ابتُلوا به من الكفر والكِبْر. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ «هو» يكون فاصلاً، ويكون مبتدأ، وما بعده خبرُه، والجملة خبرُ إنَّ على ما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ مبتدأ وخبره. قال أبو العالية: أي: أعظم من خَلْق الدجال حين عظَّمَتْه اليهود. وقال يحيى بن سلام: هو احتجاجٌ على مُنكري البعث؛ أي: هما أكبرُ من إعادة خَلْق الناس، فَلِمَ اعتقدوا عجزي عنها[٥]؟! ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: المؤمن والكافر والضالُّ والمهتدي. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: ولا يستوي العاملُ للصالحات

---

(١) ٥/ ١٣٦ وما بعدها.

(٢) ص٦٥٨ وما بعدها.

(٣) صاف هو اسم ابن صياد. قال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم ١٨/ ٤٦ : قال العلماء: وقصته مُشكلة، وأمره مُشتبه في أنه هل هو المسيح الدجال المشهور أم غيره، ولا شك في أنه دجّال من الدجاجلة. اهـ. وحديث ابن صياد أخرجه أحمد (٦٣٦٣)، والبخاري (١٣٥٥)، ومسلم (٢٩٣١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٥٦٦ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٦١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٦٢ .

﴿وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ﴾ الذي يعمل السيئات. ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قراءةُ العامة بياء على الخبر، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأجل ما قبله من الخبر وما بعده. وقرأ الكوفيون بالتاء على الخطاب[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ هذه لامُ التأكيد دخلت في خبر إنَّ، وسبيلُها أن تكون في أوّل الكلام؛ لأنها توكيدُ الجملة إلا أنها تُزَحلَق عن موضعها؛ كذا قال سيبويه. تقول: إنَّ عَمراً لخارجٌ؛ وإنما أُخِّرتْ عن موضعها لئلا يُجمع بينها وبين إنَّ؛ لأنهما يُؤدّيان عن معنى واحد، وكذا لا يُجمع بين إنَّ وأنَّ عند البصريين. وأجاز هشام: إنَّ أنَّ زيداً منطلقٌ حقّ؛ فإن حذفت حقًّا لم يَجُزْ عند أحدٍ من النحويين عَلِمتُه؛ قاله النحاس[2].

﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا شكَّ ولا مِرْية. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يُصدِّقون بها، وعندها يبين فرق ما بين الطائع والعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٦٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٤ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ الآية؛ روى النُّعمان بن بَشِير

---

(١) السبعة ص٥٧٢، والتيسير ص١٩٢.

(٢) في إعراب القرآن ٤/ ٣٩-٤٠.

قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «الدُّعاءُ هو العبادة» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[1]. فدلَّ هذا على أن الدعاءَ هو العبادة. وكذا قال أكثرُ المفسرين؛ وأن المعنى: وَحِّدوني واعبُدوني أتقبَّلْ عبادتكم وأغفِر لكم. وقيل: هو الذِّكر والدعاء والسؤال. قال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «لِيسألْ أحدُكم ربَّه حاجتَه كلَّها حتى يسألَه شِسْعَ نَعْله إذا انقطع»[2]. ويقال: الدُّعاء: هو تَرْكُ الذُّنوب[3]. وحكى قتادة أن كعب الأحبار قال: أُعطِيَتْ هذه الأمةَ ثلاثاً لم تُعْطَهن أُمةٌ قبلَهم إلا نبيّ: كان إذا أُرسل نبيٌّ قيل له: أنت شاهدٌ على أمتك، وقال تعالى لهذه الأمة: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وكان يقال للنبيّ: ليس عليك في الدين من حرج، وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وكان يقال للنبيّ: ادعُني أَستجِبْ لك، وقال لهذه الأمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[4].

قلت: مثل هذا لا يقال من جهة الرأي. وقد جاء مرفوعاً؛ رواه ليثٌ، عن شَهْر ابن حَوْشَب، عن عُبادة بن الصامت، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أُعطِيَتْ أمتي ثلاثاً لم تُعطَ إلا للأنبياء: كان اللهُ تعالى إذا بعثَ النبيَّ قال: ادعُني أستجِبْ لك، وقال لهذه الأمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. وكان اللهُ إذا بعثَ النبيَّ قال: ما جعلَ عليك في الدين من حرج، وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وكان اللهُ إذا بعثَ النبيَّ جعله شهيداً على قومه، وجعل هذه الأمةَ شهداءَ

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٧٢)، وأخرجه أحمد (١٨٣٥٢)، وسلف ٣/ ١٧٨.

(٢) أخرجه الترمذي كما في تحفة الأشراف ١/ ١٠٧، وابن حبان (٨٦٦). وفي إسناده قَطَن بن نُسَير، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٣٩١: كان أبو حاتم يحمل عليه، وقال ابن عدي: كان يسرق الحديث... رواه القواريري عن جعفر فأرسله، فقيل للقواريري: إن شيخنا يوصله. فقال القواريري: باطل. يعني وَصْلَه. اهـ.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٣٣ عن الثوري.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٦٢-١٦٣.

على الناس» ذكره الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول»[(١)].

وكان خالد الربعي يقول: عَجِبتُ[(٢)] لهذه الأمة! قيل لها: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ أمرهم بالدُّعاء ووَعَدَهم الاستجابة، وليس بينهما شرط. قال له قائل: مثل ماذا؟ قال: مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥] فهاهنا شرطٌ، وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ﴾ [يونس: ٢] فليس فيه شرطُ العمل؛ ومثل قوله: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤] فهاهنا شرط، وقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ ليس فيه شرط، وكانت الأمة تَفزَعُ إلى أنبيائها في حوائجها حتى تسأل الأنبياءُ لهم ذلك[(٣)].

وقد قيل: إن هذا من باب المُطلق والمُقيد على ما تقدَّم في «البقرة» بيانه[(٤)]. أي: «أسْتَجِبْ لكم» إنْ شئت؛ كقوله: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ﴾. وقد تكون الاستجابةُ في غير عين المطلوب على حديث أبي سعيد الخدري على ما تقدَّم في «البقرة» بيانُه فتأمَّلْه هناك[(٥)].

وقرأ ابن كثير وابن مُحيصن ورُوَيس عن يعقوب، وعَباس[(٦)] عن أبي عمرو، وأبو بكر والمُفضَّل عن عاصم: «سيُدخَلون» بضمِّ الياء وفتح الخاء على ما لم يُسَمَّ فاعله[(٧)]. الباقون: ﴿يَدۡخُلُونَ﴾ بفتح الياء وضمِّ الخاء. ومعنى ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين

---

(١) ص٣٩١ ، وليث بن أبي سُليم وشهر بن حوشب ضعيفان كما في تقريب التهذيب، وسلف الحديث ٢/ ٤٣٦ .

(٢) في (م): عجيب.

(٣) نوادر الأصول ص٣٩١ ، وسلف ٣/ ١٧٨-١٧٩ .

(٤) ٣/ ١٧٩ .

(٥) ٣/ ١٨٠ ، وينظر متن الحديث وتخريجه ثمة.

(٦) في (م): عيّاش، وهو خطأ، وعباس: هو ابن الفضل بن عمرو الواقفي الأنصاري، قاضي الموصل، من أكابر أصحاب أبي عمرو في القراءة. غاية النهاية ٢/ ٣٥٣ .

(٧) وقرأ بها أبو جعفر من العشرة كما في النشر ٢/ ٢٥٢ ، وينظر السبعة ص٥٧٢ ، والتيسير ص١٩٢ .

أَذِلَّاء، وقد تقدَّم(١).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ «جَعَلَ» هنا بمعنى خَلَقَ؛ والعربُ تُفرِّق بين جَعَلَ إذا كانت بمعنى خَلَقَ، وبين جعل إذا لم تكن بمعنى خَلَقَ؛ فإذا كانت بمعنى خَلَقَ فلا تُعدِّيها إلا إلى مفعول واحد، وإذا لم تكن بمعنى خلق عدَّتها إلى مفعولين؛ نحو قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣](٢) وقد مضى هذا المعنى في غير موضع(٣).

﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مُضيئاً، لِتُبصروا فيه حوائجَكم، وتتصرَّفوا في طلب معائشكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضلَه وإنعامَه عليهم.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ بيَّن الدلالةَ على وحدانيته وقُدرته. ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف تنقلبون وتنصرفون عن الإيمان بعد أن تبيَّنت لكم دلائِلُه كذلك؛ أي: كما صُرِفتم عن الحقّ مع قيام الدليل عليه فـ ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ﴾ يُصْرَفُ عن الحقّ ﴿الَّذِينَ كَانُوا بِآيَتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ زاد في تأكيد التعريف والدليل؛ أي: جعل لكم الأرضَ مستقرًّا لكم في حياتكم وبعد الموت. ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ تقدَّم(٤). ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: خَلَقَكم في أحسن صورة. وقرأ أبو رَزين والأشهبُ العُقَيلي: «صِوَرَكُمْ» بكسر الصاد(٥).

قال الجوهري(٦): والصِّوَر ـ بكسر الصاد ـ لغة في الصُّوَر، جمع صورة، ويُنشد

---

(١) ١٢/ ٣٣٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠.

(٣) ٨/ ٣١٧.

(٤) ١/ ٣٤٤-٣٤٥.

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٢، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠.

(٦) في الصحاح (صور).

هذا البيت على هذه اللغة يصفُ الجواري:

أشبَهْنَ مِن بَقَرِ الخَلْصَاءِ أعيُنَها وهُنَّ أحْسَنُ مِن صِيرانِها صِورا[١]

[والصِّيران جمع صِوار، وهو القطيع من البقر، والصِّوار أيضاً وِعاءُ المِسْك][٢] وقد جمعهما الشاعر بقوله:

إذا لَاحَ الصِّوارُ ذكَرتُ لَيْلَى وأذْكُرُها إذا نَفَحَ الصِّوَارُ[٣]

والصِّيارُ لغة فيه.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تقدَّم. ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ أي: الباقي الذي لا يموت ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ أي: الطاعة والعبادة. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الفراء: هو خبرٌ، وفيه إضمارُ أمر، أي: ادعوه واحمَدُوه. وقد مضى هذا كلُّه مستوفى في «البقرة» وغيرها[٤]. وقال ابن عباس: من قال: لا إله إلَّا الله، فليقل: الحمدُ للهِ ربِّ العالمين[٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ﴾ أي: قل يا محمد: نهاني الله الذي هو الحيُّ القيوم، ولا إلهَ غيره ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ غيره. ﴿لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى﴾ أي: دلائلُ توحيده ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ أذِلَّ وأخضعَ ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وكانوا دَعَوْه إلى دين آبائه،

---

(١) قائله أبو ثروان كما في إصلاح المنطق ص١٥٠. والخَلْصاء: ماء بالبادية. اللسان (خلص).

(٢) ما بين حاصرتين من الصحاح.

(٣) قائله بشار بن برد، وهو في ديوانه ٢/ ٣٣١.

(٤) ١/ ٢٠٢ في سورة الفاتحة.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٠٤، وفيه قول الفراء، وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٥٧.

فَأُمِرَ أن يقولَ هذا.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: أطفالاً. وقد تقدَّم هذا[1]. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ وهي حالة اجتماع القوّة وتمام العقل. وقد مضَى في «الأنعام» بيانه[2].

﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ بضم الشين قراءةُ نافع وابن مُحيصن وحفص وهشام ويعقوب وأبو عمرو على الأصل؛ لأنه جمع فَعْل، نحو: قَلْب وقُلُوب، ورأس ورؤوس.

وقرأ الباقون بكسر الشين لمراعاة الياء[3]، وكلاهما جمع كَثْرة، وفي العدد القليل أشياخ، والأصل أشْيُخ؛ مثل فَلْس وأَفْلُس، إلا أن الحركة في الياء ثقيلة[4]. وقرئ: «شَيْخًا» على التوحيد[5]؛ كقوله: «طِفْلًا» والمعنى: كلٌّ واحد منكم. واقتصر على الواحد لأن الغرضَ بيانُ الجنس. وفي «الصحاح»[6]: جمع الشّيخ شُيوخ وأشياخ وشِيَخة وشِيخان ومَشْيَخة ومَشايخ ومَشْيُوخاء، والمرأة شَيخة. قال عَبيد:

كأنَّها شَيْخَةٌ رَقُوبُ[7]

وقد شاخ الرجلُ يَشِيخ شَيَخًا ـ بالتحريك على أَصْله ـ وشَيْخوخةً، وأصلُ الياء متحركة فسكنت؛ لأنه ليس في الكلام فَعَلول. وشَيَّخ تَشْيِيخًا، أي: شاخ. [وشَيَّخْته] دعوته شيخًا للتبجيل. وتصغير الشيخ شُيَيْخ وشِيَيْخ أيضاً ـ بكسر الشين ـ ولا تقل: شُوَيخ[8].

---

(١) ١٤/ ٣٢١ وما بعدها.

(٢) ٩/ ١١١ وما بعدها.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وابن كثير، وأبو بكر وابن ذكوان بكسر الشين، والباقون بضمها. السبعة ص١٧٨ ، والتيسير ص١٩٢ ، والنشر ٢/ ٢٢٦ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤١ .

(٥) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٣٦ .

(٦) الصحاح (شيخ).

(٧) ديوان عَبيد بن الأبرص ص٢٩ ، وصدره: باتَتْ على إِرَم عذوباً.

(٨) الصحاح (شيخ) وما بين حاصرتين منه.

النحاس[١]: وإن اضطرَّ شاعرٌ جاز أن يقول: أشْيُخ، مثل: عَيْن وأعْيُن، إلا أنه حَسُنَ في عين؛ لأنها مؤنثة. والشيخُ مَن جاوز أربعين سنة. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ قال مجاهد: أي: مِن قبل أن يكون شيخاً، أو مِن قبل هذه الأحوال إذا خرج سَقْطاً. ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ قال مجاهد: الموتُ للكل. واللام لامُ العاقبة. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ذلك فتعلموا أن لا إلهَ غيره.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ زاد في التنبيه، أي: هو الذي يقدرُ على الإحياء والإماتة. ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي: أراد فِعْلَه قال: ﴿لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. ونصب «فيكون» ابن عامر على جواب الأمر[٢]. وقد مضَى في «البقرة» القول فيه[٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ قال ابن زيد: هم المشركون بدليل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾. وقال

---

(١) إعراب القرآن ٤/ ٤١ .

(٢) السبعة ص١٦٨ ، والتيسير ص٧٦ .

(٣) ١/ ٣٣٩ .

أكثرُ المفسرين: نزلت في القَدَرية[١]. قال ابن سيرين: إنْ لم تكن هذه الآيةُ نزلَتْ في القَدَريّة، فلا أدري فيمن نزلت. قال أبو قَبِيل: لا أَحْسِبُ المُكَذِّبين بالقَدَر إلا الذين يُجادلون الذين آمنوا[٢]. وقال عقبة بن عامر: قال النبي ﷺ: «نزلَتْ هذه الآيةُ في القَدَرِيّة» ذكره المهدوي[٣].

قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ أي: عن قريب يعلمون بُطلانَ ما هم فيه إذا دخلوا النار وغُلَّت أيديهم إلى أعناقهم. قال التَّيمي: لو أن غُلًّا من أغلال جهنم وُضِع على جبل لوَهَصه حتى يبلغ الماء الأسود[٤]. ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ بالرفع قراءة العامة عطفاً على الأغلال.

قال أبو حاتم: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ مستأنف على هذه القراءة. وقال غيره: هو في موضع نصب على الحال، والتقدير: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ مسحوبين. وقرأ ابن عباس وأبو الجوزاء وعكرمة وابن مسعود: «والسَّلاسِلَ» بالنصب، «يَسْحَبُونَ» بفتح الياء، والتقدير في هذه القراءة: ويَسحبون السلاسلَ[٥]. قال ابن عباس: إذا كانوا يَجُرُّونها فهو أشدُّ عليهم[٦].

وحكي عن بعضهم: «والسلاسِلِ» بالجرّ[٧]، ووجهُه أنه محمولٌ على المعنى؛ لأن المعنى: أعناقهم في الأغلال والسلاسلِ؛ قاله الفرّاء[٨]. وقال الزجاج[٩]: ومن

(١) المحرر الوجيز ٤/٥٦٨ .

(٢) أخرجهما الطبري ٢٠/ ٣٦١ . وأبو قَبيل: هو حيّ بن هانئ بن ناضر ـ بمعجمة ـ المعافري، المحدّث، يماني استوطن مصر. مات سنة (١٢٨هـ). السير ٥/ ٢١٤ .

(٣) لم نقف عليه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٨٣ . وقوله: وهصة: الوَهْص: الرمي العنيف. القاموس (وهص).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٢ . وقراءة ابن عباس وابن مسعود ﷺ في القراءات الشاذة ص١٣٣ .

(٦) زاد المسير ٧/ ٢٣٦ .

(٧) ذكرها السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٤٩٥ عن ابن عباس وجماعة.

(٨) في معاني القرآن ٣/ ١١ .

(٩) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٨ .

قرأ: «والسلاسِلِ يُسحبون» بالخفض فالمعنى عنده: وفي «السلاسِل يُسْحَبُونَ».

قال ابن الأنباري[١]: والخفضُ على هذا المعنى غير جائز؛ لأنك إذا قلت: زيد في الدار، لم يحسن أن تُضمر «في» فتقول: زيد الدارِ، ولكنَّ الخفضَ جائزٌ على معنى: إذ أعناقهم في الأغلال والسلاسل، فتخفض السلاسل على النَّسق على تأويل الأغلال؛ لأن الأغلالَ في تأويل الخفض؛ كما تقول: خاصمَ عبدُ الله زيداً العاقِلَيْن؛ فتنصب العاقِلَيْن، ويجوز رَفْعُهما؛ لأن أحدَهما إذا خاصمَ صاحبَه فقد خاصمَه صاحبُه؛ أنشد الفرّاء:

قد سَالَمَ الحياتِ مِنه القَدَما   الأُفْعُوانَ والشُّجاعَ الشَّجْعَما[٢]

فنصب الأُفعوان على الإتباع للحيات [لأن الحيَّاتِ] إذا سالمت القدمَ فقد سالمتها القدمُ. فمن نَصَبَ السلاسل أو خَفَضَها لم يَقِفْ عليها[٣].

و«الحميم» المتناهي في الحر. وقيل: الصديد المَغْلي. ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي: يُطرحون فيها فيكونون وَقوداً لها؛ قاله مجاهد[٤]. يقال: سَجَرتُ التنور، أي: أوقدته، وسَجَرته: ملأته؛ ومنه ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور:٦] أي: المملوء. فالمعنى على هذا: تُملأ بهم النار، وقال الشاعر يصف وَعْلاً:

إذا شَاءَ طَالَعَ مَسْجُورَةً   تَرَى حولها النَّبْعَ والسَّاسَما[٥]

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٧٣-٨٧٤.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١، والرجز قيل: هو لمساور العبسي، وقيل: للعجّاج، وقيل: لأبي حيان الفقعسي، وقيل: للدُّبَيري، وقيل: لعبد بني عبس، وقوله: الأُفعوان ـ بالضم ـ: الذكر من الأفاعي، والشُّجاع: الذكر من الحيات، والشجعم: الجريء، وقيل: الطويل مع عِظَم جسم، والميم زائدة. خزانة الأدب ١١/ ٤١٧-٤١٨.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٧٣-٨٧٤، وما بين حاصرتين منه.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٣٤، وتفسير البغوي ٤/ ١٠٥.

(٥) في (ظ): السماسما، وفي (م): السَّمسما. والبيت للنمر بن تولب، وهو في معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٣٤ (وما قبله منه) وخزانة الأدب ١١/ ٩٩. والنَّبع والسَّاسَم: شجر يُعمل منه القسي. القاموس (نبع) و(سسم).

أي: عيناً مملوءة. ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ . مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهذا تقريعٌ وتوبيخ[١]. ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: هلكوا وذهبوا عنا وتركونا في العذاب؛ مِنْ ضَلَّ الماءُ في اللبن، أي: خفي. وقيل: أي: صاروا بحيث لا نَجِدُهم.

﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي: شيئاً لا يُبصر ولا يسمع ولا يضرُّ ولا ينفع[٢]. وليس هذا إنكاراً لعبادة الأصنام، بل هو اعترافٌ بأن عبادتَهم الأصنامَ كانت باطلةً؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: كما فعل بهؤلاء من الإضلال يفعل بكل كافر.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم﴾ أي: ذلكم العذابُ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ بالمعاصي، يقال لهم ذلك توبيخاً. أي: إنما نالَكم هذا بما كنتم تُظهرون في الدنيا من السُّرور بالمعصية وكَثْرة المال والأتباع والصِّحة. وقيل: إن فرحَهم بها عندهم أنهم قالوا للرُّسل: نحن نعلمُ أنا لا نُبعث ولا نُعذَّب. وكذا قال مجاهد في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾. ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ قال مجاهد وغيره: أي: تَبْطَرون وتَأشَرون[٣]. وقد مضَى في «سبحان» بيانُه[٤].

وقال الضحاك: الفرحُ السرورُ، والمَرَحُ العُدوان.، وروى خالد عن ثور عن معاذ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ يُبغض البَذِخين الفرحين، ويحبُّ كلَّ قلبٍ حزين، ويُبغض أهلَ بيتٍ لَحِمين، ويُبغض كلَّ حِبْر سمين»[٥] فأما أهلُ بيت لَحِمين: فالذين يأكلون لحومَ الناس بالغِيبة. وأما الحِبْر السمين: فالمُتحبِّرُ بعلمه ولا يُخبر بعلمه الناس؛ يعنى المُستكثِرُ من عِلْمه ولا ينتفع به الناس. ذكره الماوردي. وقد قيل في

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٩ .
(٢) زاد المسير ٧/ ٢٣٧ بنحوه.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٣ .
(٤) ١٣/ ٨١ .
(٥) نقله المصنف بهذا اللفظ عن الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٦٥ ، وقوله منه: «إن الله يحب كل قلب حزين» أخرجه البيهقي في الشعب (٨٩٣) من طريق ضمرة بن حبيب عن أبي الدرداء مرفوعاً. وهذا إسناد منقطع، فإن ضمرة لم يلقَ أبا الدرداء ﷺ وقوله: «ويبغض أهل بيت لَحِمين، ويبغض كل حبر سمين» أخرجه أيضاً البيهقي في الشعب (٥٦٦٨) عن كعب قوله.

اللَّحِمِين: إنهم الذين يُكثرون أكل اللحم؛ ومنه قول عمر: اتقوا هذه المجازر فإنَّ لها ضراوةً كَضَراوة الخمر[١]؛ ذكره المهدوي. والأوّل قول سفيان الثوري[٢]. ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: يقال لهم ذلك اليوم، وقد قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ [الحجر: ٤٤]. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ تقدم جميعه[٣].

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ هذا تسليةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام؛ أي: إنا لَننتقم لك منهم إما في حياتك أو في الآخرة. ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ في موضع جزم بالشرط، وما زائدة للتوكيد، وكذا النون، وزال الجزم وبُني الفعل على الفتح. ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ عطف عليه ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ الجواب[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ عزّاه أيضاً بما لَقِيَتِ الرُّسل من قبله. ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ أي: أنبأناك بأخبارهم وما لَقُوا من قومهم. ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ﴾ أي: من قِبَلِ نفسه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا جاء الوقتُ المُسمى لِعذابهم أهلكهم اللهُ، وإنما التأخيرُ لإسلام من عَلِمَ اللهُ إسلامَه منهم، ولمن في أصلابهم من المؤمنين. وقيل: أشار بهذا إلى القتل ببدر. ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: الذين يتَّبعون الباطلَ والشِّرك.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ قال أبو إسحاق الزجاج[٥]: الأنعام

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٣٥ بلفظ: إياكم واللحمَ، فإن له ضراوةً كضراوة الخمر. وسلف ٩/ ٢٠٨ .

(٢) ذكره ابن الجوزي في غريب الحديث ٢/ ٣١٧ .

(٣) ١٢/ ٢١٤ وما بعدها.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٣ .

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٨ .

هاهنا الإبل. ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فاحتجَّ من مَنَعَ من أكل الخيل وأباح أكل الجِمال بأنّ الله عزَّ وجلَّ قال في الأنعام: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وقال في الخيل: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل:٨] ولم يذكر إباحةَ أكلها[١]. وقد مضى هذا في «النحل» مستوفى[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ في الوبر والصوف والشَّعر واللَّبن والزُّبْد والسمن والجبن وغير ذلك. ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: تحمل الأثقالَ والأسفار. وقد مضى في «النحل» بيانُ هذا كلِّه فلا معنى لإعادته[٣]. ثم قال: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ يعني الأنعام في البر ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ . وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: آياتهِ الدالَّة على وحدانيته وقُدرته فيما ذكر. ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ نصب «أيًا» بـ«تُنكرون» لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبله، ولو كان مع الفعل هاء لكان الاختيار في «أيّ» الرفع، ولو كان الاستفهام بألف أو هل وكان بعدهما اسم بعده فعل معه هاء لكان الاختيار النصب[٤]، أي: إذا كنتم لا تُنكرون أن هذه الأشياء من الله، فلم تُنكرون قُدرته على البعث والنَّشر؟

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حتى يُشاهدوا آثارَ الأُمم السالفة. ﴿كَانُوا

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٣-٤٤ .

(٢) ١٢/ ٢٧٨ وما بعدها.

(٣) ١٢/ ٢٧٥ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٤ .

﴿أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ عدداً ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من الأبنية والأموال وما أدالوا به من الأولاد والأتباع؛ يقال: دلوت بفلان إليك، أي: استشفعت به إليك. وعلى هذا «ما» للجحد، أي: فلم يُغْنِ عنهم ذلك شيئاً. وقيل: «ما» للاستفهام، أي: أيّ شيء أغنى عنهم كسبهم حين هلكوا[١]. ولم ينصرف «أَكْثَرَ»؛ لأنه على وزن أفعل. وزعم الكوفيون أن كل مالا ينصرف فإنه يجوز أن ينصرف إلا أفعل من كذا، فإنه لا يجوز صرفه بوجه في شِعْرٍ[٢] ولا غيره إذا كانت معه من. قال أبو العباس: ولو كانت من المانعةَ من صرفه لَوجب ألا يقال: مررت بخير منك وشر من عمرو.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالآيات الواضحات ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ في معناه ثلاثة أقوال؛ قال مجاهد: إن الكفار الذين فرحوا بما عندهم من العلم قالوا: نحن أعلم منهم، لن نُعذّب ولن نُبعث. وقيل: فرح الكفار بما عندهم من علم الدنيا نحو ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم:٧]. وقيل: الذين فرحوا الرُّسلُ، لمَّا كذَّبهم قومُهم أعلمهم الله عزَّ وجلَّ أنه مُهلك الكافرين ومُنجيهم والمؤمنين، فـ «فرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ» بنجاة المؤمنين ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: بالكفار ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: عقاب استهزائهم بما جاء به الرسل صلوات الله عليهم[٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ أي: عاينوا العذاب. ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ أي: بالأوثان التي أشركناهم في العبادة ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ بالله عند مُعاينة العذاب وحين رَأَوُا البأس. ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ مصدر؛ لأن العرب تقول: سَنَّ يسن سنًّا وسُنةً؛ أي: سنّ الله عزَّ وجلَّ في الكفار أنه لا

(١) تفسير البغوي ٤/١٠٦ .

(٢) في النسخ الخطية: معرفة، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٤ ، والكلام منه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٤-٤٥ .

ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب[١]. وقد مضى هذا مُبيَّناً في «النساء» و«يونس»[٢] وأن التوبة لا تُقبل بعد رؤية العذاب وحصول العلم الضروري. وقيل: أي: احذروا يا أهل مكة سنَّة الله في إهلاك الكَفَرة فـ «سنّةَ الله» منصوب على التحذير والإغراء[٣].

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال الزجاج[٤]: وقد كانوا خاسرين من قبل ذلك إلا أنه تبيَّن لهم[٥] الخُسران لما رأوا العذاب.

وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ كَسُنَّتنا في جميع الكافرين فـ «سنة» نصب بنزع الخافض، أي: كسنّة الله في الأُمم كلِّها. والله أعلم.

تم تفسير سورة «غافر» والحمد لله.

---

(١) المصدر السابق بنحوه.

(٢) ٦/ ١٥٢ و١١/ ٥٥ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٠٦ .

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٤٥ .

(٥) في النسخ: بيّن لنا، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وفي معاني القرآن للزجاج: بيَّن لهم.

سورة فصلت مكية في قول الجميع[1]

وهي أربعٌ وخمسون[2]، وقيل: ثلاثٌ وخمسون آية[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الزجاج[4]: «تَنْزِيلٌ» رفع بالابتداء وخبره ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ وهذا قولُ البصريين. وقال الفراء: يجوز أن يكون رَفْعُه على إضمار هذا. ويجوز أن يقال: «كِتَابٌ» بدل من قوله: «تَنْزِيلٌ»[5]. وقيل: نَعتٌ لقوله: «تَنْزِيلٌ». وقيل: «حم» أي: هذه «حم» كما تقول: باب كذا، أي: هو باب كذا فـ«حم» خبر ابتداء مُضمر، أي: هو «حم»، وقوله: «تَنْزِيلٌ» مبتدأ آخر، وقوله: «كِتَابٌ» خبره.

«فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» أي: بُيِّنَت وفُسِّرت. قال قتادة: ببيان حلاله من حرامه، وطاعته من معصيته. الحسن: بالوعد والوعيد. سفيان: بالثواب والعقاب[6].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣، وزاد المسير ٧/ ٢٤٠.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٠٧.

(٣) ذكره السيوطي في الإتقان ١/ ٢١٥.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٤٧، وقول الفراء الذي بعده منه.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٤١.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٦٧.

وقُرِئ: «فَصَلَتْ» أي: فرَّقت بين الحقّ والباطل، أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها؛ من قولك: فصل، أي: تباعدَ من البلد[١].

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾. في نصبه وجوه؛ قال الأخفش[٢]: هو نَصْبٌ على المدح. وقيل: على إضمار فعل؛ أي: اذكر «قُرْآنًا عَرَبِيًّا». وقيل: على إعادة الفعل؛ أي: فصَّلنا «قُرْآناً عَرَبِيًّا». وقيل: على الحال، أي: «فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» في حال كونه «قُرْآناً عَرَبِيًّا». وقيل: لما شُغل التفصيل[٣] بالآيات حتى صارت بمنزلة الفاعل، انتصب «قُرآناً» لوقوع البيان عليه. وقيل: على القطع[٤].

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قال الضحاك: أي: إن القرآن مُنزَل من عند الله. وقال مجاهد: أي: يعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل. وقيل: يعلمون العربية فيعجِزون عن مثله[٥]، ولو كان غيرَ عربيّ لما علموه.

قلت: هذا أصحّ، والسورةُ نزلت تقريعاً وتوبيخاً لقريش في إعجاز القرآن.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ حالان من الآيات، والعامل فيه «فُصِّلَتْ»[٦]. وقيل: هما نعتان للقرآن[٧] «بَشِيرًا» لأولياء الله «نذيرًا» لأعدائه. وقرئ: «بَشِيرٌ ونذيرٌ»[٨] صفة للكتاب. أو خبر مبتدأ محذوف[٩]. ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعاً ينتفعون به.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٤١.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٨٠.

(٣) في (م): فصلت.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٧ بنحوه.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٦٨.

(٦) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٣٩.

(٧) ذكره السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٥٠٦.

(٨) نسبها أبو حيان في البحر ٧/ ٤٨٣ لزيد بن علي.

(٩) الكشاف ٣/ ٤٤١.

ورُوي أن الزَّيَّال[١] بن حرملة قال: [قال جابر بن عبد الله][٢]: قال الملأ من قريش وأبو جهل: قد التبس علينا أمرُ محمد، فلو التمستُم رجلاً عالماً بالشِّعر والكهانة والسِّحر فكلَّمه ثم أتانا ببيانٍ من أمره؛ فقال عتبةُ بن ربيعة: والله، لقد سمعتُ الكهانةَ والشِّعر والسِّحر، وعلمتُ من ذلك علماً لا يخفى عليَّ إن كان كذلك. فقالوا: إيته فحدِّثه. فأتى النبيَّ ﷺ فقال له: يا محمد، أنت خيرٌ أَمْ قصيّ بن كلاب؟ أنت خيرٌ أَمْ هاشم؟ أنت خيرٌ أَمْ عبد المطلب؟ أنت خيرٌ أم عبد الله؟ فبم تَشْتِمُ آلهتنا، وتُضَلِّل آباءنا، وتُسفِّه أحلامَنا، وتذمُّ ديننا؟ فإنْ كنتَ إنما تُريد الرِّياسة عَقَدْنا إليك ألويتنا، فكنت رئيسنا ما بقيت، وإن كنتَ تُريد الباءة زوَّجناك عشرَ نساء من أيِّ بنات قريش شئت، وإنْ كنتَ تُريد المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وَعقِبك من بعدك، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا من الجن قد غلب عليك بَذَلْنا لك أموالَنا في طلب ما تتداوى به أو نغلب فيك، والنبيُّ ﷺ ساكت، فلما فرغ قال: «قد فَرَغْتَ يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: اسمع[٣]: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فوثبَ عتبةُ ووضع يدَه على فم النبيِّ ﷺ، وناشدَه اللهَ والرَّحِمَ ليَسْكُتَنَّ، ورَجَعَ إلى أهله ولم يَخرجْ إلى قريش فجاءه أبو جهل؛ فقال: أصبوتَ إلى محمد؟ أَمْ أعجبكَ طعامُه؟ فغضب عُتبة وأقسم ألا يُكلِّم محمداً أبداً، ثم قال: والله، لقد تعلمون أني من أكثر قريش مالاً، ولكني لما قصصت عليه القصة أجابني بشيء ـ والله ـ ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر؛ ثم تلا عليهم ما سمع منه إلى قوله: ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ وأمسكتُ بفيه وناشدتُه بالرَّحِم أن يَكُفَّ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فوالله، لقد خفت أن ينزلَ بكم العذاب؛ يعني الصاعقة[٤].

---

(١) في النسخ: الريان، وهو خطأ، والمثبت من المصادر.

(٢) ما بين حاصرتين من مصادر التخريج.

(٣) عبارة (م): «قد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. فقال: «يا ابن أخي اسمع» قال: أسمعُ، قال...

(٤) أخرجه بنحوه عبد بن حميد في مسنده (١١٢٣)، والبغوي في تفسيره ٤/ ١١٠. وفي إسناده الأجلح =

وقد روى هذا الخبر أبو بكر الأنباري في كتاب «الردّ» له عن محمد بن كعب القرظي، وأن النبي ﷺ قرأ «حم. فُصِّلَتْ» حتى انتهى إلى السجدة فسجد وعُتبة مُصْغٍ يستمع، قد اعتمد على يديه من وراء ظهره. فلما قطع رسولُ الله ﷺ القراءة قال له: «يا أبا الوليد، قد سمعتَ الذي قرأتُ عليك، فأنت وذاك» فانصرف عتبةُ إلى قريش في ناديها فقالوا: والله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي مضَى به من عندكم. ثم[1] قالوا: ما وراءك أبا الوليد؟ قال: والله، لقد سمعتُ كلاماً من محمد ما سمعتُ مثلَه قط، والله، ما هو بالشِّعر ولا بالسِّحر ولا بالكهانة. فأطيعوني في هذه وأنزلوها بي؛ خلُّوا محمداً وشأنه واعتزلوه، فوالله ليكونن لِمَا سَمعتُ من كلامه نبأٌ، فإنْ أصابته العربُ كُفِيتُموه بأيدي غيركم، وإن كان مَلِكاً أو نبيًّا كنتم أسعدَ الناس به؛ لأن مُلْكَه مُلْكُكُم وَشَرَفَهُ شرفُكم. فقالوا: هيهات، سحرك محمدٌ يا أبا الوليد. وقال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما شئتم[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ الأَكِنَّة جمع كنان، وهو الغطاء. وقد مضَى في «البقرة»[3]. قال مجاهد: الكنان للقلب كالجَعْبة[4] للنبل. ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: صَمَم؛ فكلامُك لا يدخل أسماعَنا، وقلوبنا مستورةٌ عن فهمه. ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي: خلاف في الدين، لأنهم يعبدون الأصنامَ وهو يعبدُ اللهَ عزّ وجلّ. قال معناه الفراء[5] وغيره. وقيل: سِتْرٌ مانعٌ عن الإجابة. وقيل: إنَّ أبا جهل استغشى على رأسه ثوباً وقال: يا محمد، بيننا وبينك حجاب؛ استهزاء منه. حكاه النقاش[6]، وذكره القشيري. فالحجابُ هنا الثوب.

= ابن عبد الله الكندي. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ١٦٢ : وقد ضُعِّف بعض الشيء.

(١) قوله: ثم، من (م).

(٢) وأخرجه عن محمد بن كعب القرظي ابنُ إسحاق كما في السيرة النبوية ١/ ٢٩٣ - ٣٩٤ .

(٣) ٢/ ٢٤٦ .

(٤) في النسخ: كالجنة، والمثبت من تفسير مجاهد ٢/ ٥٦٩ ، وتفسير الطبري ٢٠/ ٣٧٧ ، والنكت والعيون ٥/ ١٦٨ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٢ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٦٨ .

﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: اعمل في هلاكِنا فإنا عاملون في هلاكك؛ قاله الكلبي. وقال مقاتل: اعمل لإلهك الذي أرسلك، فإنا نعمل لآلهتنا التي نعبدها. وقيل: اعمل بما يقتضيه دينُك، فإنا عاملون بما يقتضيه ديننا. ويحتمل خامسًا[1]: فاعمل لآخرتك، فإنا نعمل لدنيانا؛ ذكره الماوردي[2].

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ أي: لست بمَلَك، بل أنا من بني آدم. قال الحسن: علَّمه الله تعالى التواضع[3]. ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: من السماء على أيدي الملائكة ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ ﴿فـ﴾ آمِنوا به و﴿اسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: وجِّهوا وجوهكم بالدُّعاء له والمسألة إليه، كما يقول الرجل: استقم إلى منزلك؛ أي: لا تعرج على شيء غير القَصْد إلى منزلك. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ أي: من شِرْككم.

﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ . ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال ابن عباس: لا يشهدون أن لا إله إلا الله، وهي زكاةُ الأنفس. وقال قتادة: لا يُقِرُّون بالزكاة أنها واجبة[4]. وقال الضحاك ومقاتل: لا يتصدَّقون ولا يُنفقون في الطاعة[5]. قرَّعهم بالشُّح الذي يأنَفُ منه الفُضَلاء. وفيه دلالةٌ على أن الكافر يُعذَّب بكفره مع منع وجوب الزكاة عليه[6]. وقال الفراء[7] وغيره: كان المشركون يُنفقون النَّفقات، ويَسقون الحجيج ويُطعمونهم، فحرَّموا ذلك على مَنْ آمن بمحمد ﷺ، فنزلت فيهم هذه الآية.

---

(١) كذا في النسخ: خامسًا، لكن المصنف رحمه الله لم يذكر إلا أربعةَ أقوال.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ١٦٨ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤ .

(٤) أخرجهما الطبري ٢٠/ ٣٧٩ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٥ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٦٨ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ١٢ .

﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ فلهذا لا يُنفقون في الطاعة ولا يستقيمون ولا يستغفرون. الزمخشري[١]: فإنْ قلتَ: لم خصَّ من بين أوصاف المشركين منعَ الزكاة مقروناً بالكُفر بالآخرة؟ قلت: لأنَّ أحبَّ شيء إلى الإنسان مالُه، وهو شقيقُ روحه، فإذا بَذَله في سبيل الله فذلك أقوى دليلٍ على ثَباته، ألا ترى إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥] أي: يُثَبِّتون أنفسهم، ويدلون على ثَباتها بإنفاق الأموال، وما خُدع المؤلفة قلوبهم إلا بِلُمظة[٢] من الدنيا، فقويت عُصْبتُهم ولانت شَكيمتهم؛ وأهل الرِّدة بعد رسول الله ﷺ ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة، فَنُصِبتْ لهم الحروب وجُوهدوا. وفيه بعثٌ للمؤمنين على أداء الزكاة، وتخويفٌ شديدٌ من مَنْعها، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين، وقُرِن بالكفر بالآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال ابن عباس: غير مقطوع؛ مأخوذٌ من: مننتُ الحبل إذا قطعتَه؛ ومنه قول ذي الإصبع:

إنِّي لَعَمْرُكَ ما بابي بِذِي غَلَقٍ ... على الصَّدِيق ولا خَيْرِي بممنونِ[٣]

وقال آخر:

فَتَرى خَلْفَها مِنَ الرَّجْعِ والوَقْـ ... ـعِ مَنِيناً كأنَّهُ أَهْبَاء[٤]

يعني بالمَنِين الغبار المنقطع الضعيف. وعن ابن عباس أيضًا ومقاتل: غير منقوص[٥]. ومنه المَنُون؛ لأنها تنقص مُنَّة الإنسانِ، أي: قوَّته؛ وقاله قطرب[٦]؛

(١) الكشاف ٣/ ٤٤٣ .

(٢) اللُّمظة: النُّكتة من البياض. اللسان (لمظ) والمراد هنا: الشيء اليسير.

(٣) البيت في المفضليات ص ١٦٠ . والكلام من النكت والعيون ٥/ ١٦٩ ، وفيه: ابن عيسى، بدل: ابن عباس.

(٤) قائله الحارث بن حِلِّزة اليشكري، والبيت من معلَّقته. ينظر شرح القصائد المشهورات للنحاس ص٥٧ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٨١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٦٩ .

وأنشد قول زهير:

فَضْلَ الجِيادِ على الخيل البِطاءِ فلا يُعْطي بذلك مَمْنُونًا ولا نَزِقا[١]

قال الجوهري[٢]: والمَنُّ القطع، ويقال: النَّقْص؛ ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. وقال لَبيد:

غُبْسٌ كَوَاسِبُ لا يُمَنُّ طَعامُها[٣]

وقال مجاهد: «غيرُ مَمْنُونٍ» غير محسوب. وقيل: «غيرُ مَمْنُون» عليهم به. قال السدي: نزلت في الزَّمْنى والمَرْضى والهَرْمى إذا ضَعُفُوا عن الطاعة كُتب لهم من الأجر كأصحّ ما كانوا يعملون فيه[٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ «أَئِنَّكُمْ» بهمزتين؛ الثانية بَيْن بَيْن، و«أائِنَّكُمْ» بألف بين همزتين[٥]، وهو استفهام معناه التوبيخ. أمره

(١) شرح ديوان زهير ص٤٩ .

(٢) في الصحاح (منن).

(٣) شرح ديوان لبيد ص ٣٠٨. وصدره: لمعفَّرٍ قَهْد تنازع شِلْوَهُ. قال شارحه: الغُبس: الذئاب أو الكلاب ذات اللون الأغبر. كواسب: تتعيَّش من الصيد. لا يُمَنّ طعامها: لا أحد يُطعمها فَيَمنَّ عليها.

(٤) تفسير البغوي ١٠٨/٤ .

(٥) قرأ نافع ـ في رواية قالون ـ وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية مع إدخال ألف بينهما. وقرأ نافع ـ في رواية ورش ـ وابن كثير بالتسهيل من غير إدخال ألف. والباقون بتحقيق الهمزتين من غير إدخال ألف. السبعة ص ١٣٧ ، والتيسير ص ٣٢ .

بتوبيخهم والتعجب من فِعْلهم، أي: لِمَ تكفُرون بالله وهو خالق السماوات والأرض؟! «فِي يَوْمَيْنِ» الأحد والاثنين[١].

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ﴾ أي: أضداداً وشُركاء ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾ يعني الجبال. وقال وهب: لما خلقَ اللهُ الأرضَ مادَتْ على وجه الماء؛ فقال لجبريل: ثبِّتها يا جبريل. فنزل فأمْسكها فغلبته الرياح، قال: يا رب، أنت أعلمُ، لقد غُلِبتُ فيها، فثبَّتها بالجبال وأرساها.

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ بما خلق فيها من المنافع. قال السدي: أنبت فيها شجرها. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ قال السدي والحسن: أرزاق أهلها ومصالحهم. وقال قتادة ومجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابَّها في يوم الثلاثاء والأربعاء. وقال عكرمة والضحاك: معنى «قَدَّرَ فيها أَقْوَاتَها» أي: أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة ما لم يجعله في الأُخرى لِيعيش بعضُهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد[٢]. قال عكرمة: حتى إنه في بعض البلاد لَيتبايعون الذهبَ بالمِلح مِثلاً بمثل. وقال مجاهد والضحاك: السابريّ من سابور، والطيالسة من الرّي، والحِبَرُ اليمانية من اليمن[٣].

﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ يعني في تتمة أربعة أيام. ومثاله قول القائل: خرجتُ من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسةَ عشرَ يوماً؛ أي: في تتمة خمسةَ عشر يوماً[٤]. قال معناه ابن الأنباري وغيره.

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ قال الحسن: المعنى: في أربعة أيام مستوية تامَّة. الفراء[٥]: في

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٧٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٧٠، وتفسير البغوي ٤/١٠٨ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٨٧ - ٣٨٨ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٧١ .

(٥) معاني القرآن ٣/ ١٢ - ١٣ .

الكلام تقديمٌ وتأخير، والمعنى: وقدَّر فيها أقواتَها سواء للمحتاجين. واختاره الطبري[١].

وقرأ الحسن البصري ويعقوبُ الحَضْرمي: «سَوَاءٍ لِلسَّائِلِينَ» بالجر. وعن ابن القَعْقاع: «سَواءٌ» بالرفع[٢]؛ فالنصب على المصدر، و«سَوَاءً» بمعنى استواء، أي: استوت استواء. وقيل: على الحال والقطع؛ والجرّ على النَّعت لأيام أو لأربعة، أي: «في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ» مستوية تامَّة. والرفع على الابتداء والخبر «لِلسَّائِلِينَ» أو على تقدير هذه «سَوَاءٌ لِلسَّائِلِينَ»[٣].

وقال أهل المعاني: معنى «سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ»: ولغير السائلين؛ أي: خلق الأرضَ وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل، ويُعطي مَنْ سأل ومَنْ لا يسأل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾أي: عَمَدَ إلى خَلْقها وقَصَدَ لِتسويتها[٤]. والاستواء من صفة الأفعال على أكثر الأقوال؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٩] وقد مضى القولُ هناك[٥]. وروى أبو صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني: صَعِدَ أمرُه إلى السماء[٦]؛ وقاله الحسن[٧]. ومَن قال: إنه صفةٌ ذاتية زائدةٌ قال: استوى في

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٩٠.

(٢) قراءة يعقوب ويزيد بن القعقاع (من العشرة) في النشر ٢/ ٣٦٦. وقراءة الحسن في المحرر الوجيز ٥/ ٦.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٦ بنحوه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٠٩.

(٥) ١/ ٣٨٠ وما بعدها.

(٦) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٧٢) من طريق محمد بن مروان - وهو السدي الصغير - عن الكلبي عن أبي صالح به. وهؤلاء كلهم متروكون عند أهل العلم بالحديث، لا يحتجون بشيء من رواياتهم لكثرة المناكير فيها. ذكره البيهقي. وينظر تقريب التهذيب.

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٧٢.

الأزل بصفاته. و«ثُمَّ» ترجع إلى نقل السماء من صفة الدُّخان إلى حالة الكثافة، وكان ذلك الدُّخان من تنفُّس الماء حين تنفس؛ على ما مضَى في «البقرة» عن ابن مسعود وغيره[١].

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: جيئا بما خلقتُ فيكما من المنافع والمصالح، وأخرِجاها لِخَلْقي. قال ابن عباس: قال اللهُ تعالى للسماء: أَطلِعِي شَمْسَك وقمرك وكواكبك، وأجري رياحَك وسحابَك، وقال للأرض: شُقِّي أنهارَك وأخرجي شجرَك وثمارَكِ طائعتين أوكارهتين ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[٢]. وفي الكلام حذف، أي: أتينا أمرَكَ «طَائِعِينَ». وقيل: معنى هذا الأمر التسخير؛ أي: كُونا فكانتا كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فعلى هذا قال ذلك قبلَ خَلْقهما. وعلى القول الأول قال ذلك بعد خلقهما. وهو قول الجمهور.

وفي قوله تعالى لهما وجهان: أحدهما: أنه قولٌ تكلَّم به. الثاني: أنها قُدرةٌ منه ظهرتْ لهما، فقام مَقامَ الكلام في بلوغ المُراد؛ ذكره الماوردي[٣].

«قالتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» فيه أيضاً وجهان: أحدُهما أنه ظُهور الطاعة منهما حيث انقادا وأجابا، فقام مقامَ قولهما، ومنه قول الراجز:

امتلأ الحَوْضُ وقال قَطْني … مَهْلًا رُوَيدًا قد مَلأت بَطْني[٤]

يعني ظهرَ ذلك فيه. وقال أكثرُ أهل العلم: بل خلقَ اللهُ فيهما الكلام فتكلَّمتا كما أراد تعالى؛ قال أبو نَصْر السَّكْسكي: فنطقَ من الأرض موضعُ الكعبة، ونطقَ من السماء ما بحيَالها؛ فوضع الله تعالى فيه حَرَمه[٥].

---

(١) ١/٣٨٣ - ٣٨٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/٣٩١.

(٣) في النكت والعيون ٥/١٧٢ . وما بعده منه.

(٤) سلف ٢/٢٥٥.

(٥) النكت والعيون ٥/١٧٣.

وقال: «طَائِعِينَ» ولم يقل: طائعتين على اللفظ، ولا طائعات على المعنى؛ لأنهما سماواتٌ وأَرَضُون؛ لأنه أخبر عنهما وعمن فيهما. وقيل: لما وَصَفَهُنَّ بالقول والإجابة وذلك مِن صفات مَن يعقل أجراهما في الكناية مُجرى مَن يعقِل[1]، ومثله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقد تقدَّم. وفي حديث: إن موسى عليه الصلاة والسلام قال: يا ربّ، لو أن السماواتِ والأرضَ حين قلت لهما: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ عَصَيَاكَ، ما كنتَ صانعاً بهما؟ قال: كنتُ آمرُ دابَّةً من دوابِّي فتبتلعهما. قال: يا ربّ، وأين تلك الدابَّة؟ قال: في مَرْج من مُرُوجي. قال: يا رب، وأين ذلك المَرْج؟ قال: عِلْم من علمي. ذكره الثعلبي[2].

وقرأ ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبير وعكرمة: «آتِيا» بالمَدّ والفتح. وكذلك قوله تعالى: «آتَيْنَا طَائِعِينَ»[3] على معنى: أَعْطِيَا[4] الطاعةَ من أنفسكما، «قالتا»: أَعْطَيْنَا «طَائِعِينَ» فحذف المفعولين جميعاً. ويجوز ـ وهو أحسنُ ـ أن يكون «آتَيْنَا» فاعَلْنا، فَحُذِفَ مفعولٌ واحد. ومَن قرأ: «أَتَيْنَا» فالمعنى: جئنا بما فينا؛ على ما تقدَّم بيانُه في غير ما موضع، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: أكملهنَّ وفرغَ منهنَّ. وقيل: أحكمهنَّ كما قال:

وعليهما مَسْرُودَتَانِ قَضَاهما داودُ أو صَنَعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ[5]

﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ سوى الأربعة الأيام التي خلقَ فيها الأرض، فوقع خلقُ السماوات والأرض في ستة أيام؛ كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤] على ما تقدَّم في «الأعراف» بيانُه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥١، وتفسير البغوي ٤/ ١٠٩ بنحوه.

(٢) هذا الخبر من الإسرائيليات.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٤٥، وينظر الدر المصون ٩/ ٥١١.

(٤) في النسخ الخطية: أعطينا، والمثبت من (م).

(٥) قائله أبو ذؤيب الهذلي، وسلف ٢/ ٣٣٦. وقوله: مسرودتان، أي: درعان. والصَّنَع: الحاذق بالعمل. شرح ديوان الهذليين ص ١٩.

قال مجاهد: ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدُّون[١]. وعن عبد الله بن سَلَام قال: خلق اللهُ الأرضَ في يومين، وقدَّر فيها أقواتَها في يومين، وخلق السماوات في يومين؛ خلق الأرضَ في يوم الأحد والاثنين، وقدَّر فيها أقواتَها يومَ الثلاثاء ويومَ الأربعاء، وخلقَ السماواتِ في يوم الخميس ويوم الجمعة، وآخرُ ساعة في يوم الجمعة خلقَ اللهُ آدمَ في عَجَل، وهي التي تقوم فيها الساعة، وما خلق الله من دابَّة إلا وهي تفزعُ من يوم الجمعة إلا الإنس والجن[٢]. على هذا أهل التفسير؛ إلا ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة قال: أخذَ رسولُ الله ﷺ بيدي، فقال: «خلق اللهُ التربةَ يومَ السبت» الحديث، وقد تكلَّمنا على إسناده في أول سورة «الأنعام»[٣].

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾ قال قتادة والسدي: خلق فيها شَمْسَها وقمرها ونجومَها وأفلاكَها، وخلق في كل سماء خَلْقها من الملائكة والخَلْق الذي فيها من البحار وجبال البَرَد والثلوج[٤]. وهو قول ابن عباس[٥]؛ قال: ولله في كل سماء بيت تحجُّ إليه وتطوفُ به الملائكة بحذاء الكعبة، والذي في السماء الدنيا هو البيت المعمور[٦]. وقيل: أوحى الله في كل سماء؛ أي: أوحى فيها ما أراده وما أمر به فيها[٧]. والإيحاء قد يكون أمراً؛ لقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١] أي: أمرتهم، وهو أمرُ تكوين.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١/ ٤٦٤ دون قوله: وما خلق الله من دابة إلا وهي تفزع من يوم الجمعة إلا الإنس والجن. وهذا قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ. أخرجه أحمد (٧٦٨٧).

(٣) ٨/ ٣١٤ وما بعدها، وينظر تخريج الحديث ثمة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٧٣ ، وتفسير الرازي ٢٧/ ١٠٧ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٠٩ .

(٦) ذكره الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٠٧ عن السدي.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ١٠٩ بنحوه.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي: بكواكب تُضيء. وقيل: إنَّ في كل سماء كواكبَ تُضيء. وقيل: بل الكواكبُ مختصةٌ بالسماء الدنيا. ﴿وَحِفۡظٗا﴾ أي: وحَفِظْناها حِفْظًا؛ أي: من الشياطين الذين يسترقون السمع. وهذا الحِفْظ بالكواكب التي تُرجم بها الشياطين على ما تقدَّم في «الحجر» بيانه[1].

وظاهر هذه الآية يدلُّ على أن الأرضَ خُلقت قبل السماء. وقال في آية أخرى: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧] ثم قال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] وهذا يدلُّ على خلق السماء أوّلاً. وقال قوم: خُلقت الأرضُ قبل السماء؛ فأما قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ فالدَّحْوُ غيرُ الخَلْق، فالله خَلَقَ الأرضَ، ثم خلق السماوات، ثم دحا الأرضَ، أي: مدَّها وبَسَطها؛ قاله ابن عباس. وقد مضى هذا المعنى مجوَّداً في «البقرة»[2]، والحمد لله. ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ۝١٣ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝١٤ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝١٥ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ يعني ـ كفار قريش ـ عمَّا تَدْعوهم إليه يا محمد من الإيمان. ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ أي: خوَّفتُكم هلاكاً مثلَ هلاك عاد وثمود. ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ يعني: مَنْ أُرسل إليهم وإلى مَن قَبْلهم ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ موضع «أنْ» نصب بإسقاط الخافض، أي: بـ «ألّا

---

(١) ١٢/ ١٨٧ وما بعدها.

(٢) ١/ ٣٨٣. وما بعدها.

تَعْبُدُوا». ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ بدلَ الرُّسل[١]، ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ من الإنذار والتبشير. قيل: هذا استهزاءٌ منهم. وقيل: إقرارٌ منهم بإرسالهم، ثم بعدَه جُحود وعناد.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على عبادِ الله هود ومَن آمن معه ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ اغتروا بأجسامهم حين تهدَّدهم بالعذاب، وقالوا: نحن نقدر على دَفْعِ العذاب عن أنفسنا بفضل قوَّتنا. وذلك أنهم كانوا ذوي أجسام طوال وخَلْق عظيم[٢]. وقد مضى في «الأعراف»[٣] عن ابن عباس: أن أطولَهم كان مئةَ ذراع وأقصرهم كان ستين ذراعاً. فقال الله تعالى ردًّا عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وقُدرة، وإنما يقدرُ العبدُ بإقدار الله؛ فالله أقدرُ إذًا. ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: بمعجزاتنا يكفرون.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ هذا تفسيرُ الصاعقة التي أَرسلها عليهم، أي: ريحاً باردةً شديدةَ البرد وشديدةَ الصوت والهُبوب. ويقال: أصلُها صَرَّرَ من الصّر فأبدلوا مكان الراء الوسطى فاء الفعل؛ كقولهم: كُبكِبُوا، أصله: كُبِّبوا، وتَجَفْجَفَ الثوبُ أصله تجفَّف[٤]. أبو عُبيدة[٥]: معنى صَرْصَر: شديدة عاصفة. عكرمة وسعيد بن جُبير: شديدة البرد. وأنشد قُطْرُب قول الحطيئة:

المُطْعِمون إذا هَبَّتْ بصَرْصَرةٍ والحامِلون إذا اسْتُودُوا على النَّاسِ

استودوا: إذا سُئلوا الدِّيَة. مجاهد: الشديدة السموم[٦]. وروى معمر عن قتادة

---

(١) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٠٩ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١١ .

(٣) ٩/ ٢٦٤ .

(٤) الصحاح (صرر).

(٥) مجاز القرآن ٢/ ١٩٦ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٧٤ ، والكلام السالف منه، ولم نقف على البيت في ديوان الحطيئة المطبوع.

قال: باردة[١]. وقاله عطاء؛ لأن «صَرْصَراً» مأخوذ من صرّ، والصِّرُّ في كلام العرب البرد، كما قال:

لـهـا عُـذَرٌ كـقُـرون الـنِّـسـا ءِ رُكِّـبْـنَ فـي يـومِ ريـح وصِـرّ[٢]

وقال السدي: الشديدة الصَّوت[٣]. ومنه صَرّ القلمُ، والبابُ يَصِرّ صريراً، أي: صَوَّت. ويقال: درهم صَرِّيٌّ وصِرِّيٌّ للذي له صوت إذا نُقِد[٤]. قال ابن السِّكِّيت[٥]: صَرْصَر يجوز أن يكون من الصِّر، وهو البرد، ويجوز أن يكون من صرير الباب، ومن الصَّرة، وهي الصيحة. ومنه ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩]. وصَرْصَر اسم نهر العراق[٦].

﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أي: مشؤومات؛ قاله مجاهد وقتادة. كُنَّ آخرَ شوال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء، وذلك ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] قال ابن عباس: ما عُذِّب قومٌ إلا في يوم الأربعاء. وقيل: «نَحِسَاتٍ» باردات؛ حكاه النقاش. وقيل: متتابعات؛ عن ابن عباس وعطية. الضحاك: شِداد. وقيل: ذات غُبار؛ حكاه ابن عيسى. ومنه قول الراجز:

قـدِ اغْـتَـدى قـبـلَ طُـلـوعِ الـشَّـمـس لـلـصَّـيْـدِ فـي يـومٍ قَـلـيـلِ الـنَّـحْـسِ[٧]

قال الضحاك وغيره: أمسك اللهُ عنهم المطر ثلاثَ سنين، ودرَّت الرياحُ عليهم من غير مطر[٨]، وخرج منهم قومٌ إلى مكة يستسقون بها للعباد، وكان الناسُ في ذلك

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٣٩٨ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٥٥ ، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٦٥ . والعُذَر: شعرات من القفا إلى وسط العنق. اللسان (عذر).

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٧٤ .

(٤) الصحاح (صرر).

(٥) ذكره عنه الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ١٠٧ .

(٦) ذكره ابن منظور في اللسان (صرر).

(٧) الرجز والأقوال التي قبله كلها من النكت والعيون ٥/ ١٧٤ - ١٧٥ ما عدا قول الضحاك، فقد ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١١١ .

الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جَهْدٌ طلبوا إلى الله تعالى الفَرَجَ منه، وكانت طلبتهم ذلك من الله تعالى عند بيته الحرام مكة؛ مُسلمهم وكافرهم، فيجتمع بمكة ناسٌ كثير شتى، مختلفةٌ أديانهم، وكلُّهم مُعَظِّم لمكة، عارفٌ حُرمتها ومكانها من الله تعالى.

وقال جابر بن عبد الله والتَّيمي: إذا أراد اللهُ بقوم خيراً أرسلَ عليهم المطرَ وحبس عنهم كَثْرة الرياح، وإذا أراد اللهُ بقوم شرًّا حبس عنهم المطر وسلَّط عليهم كَثرة الرياح[١]. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: «نَحْساتٍ» بإسكان الحاء على أنه جمع نَحْس الذي هو مصدر وصف به. الباقون: «نَحِسَاتٍ» بكسر الحاء[٢]، أي: ذوات نحس. ومما يدلُّ على أن النَّحْس مصدر قوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر:١٩] ولو كان صفةً لم يُضف اليوم إليه؛ وبهذا كان يحتجُّ أبو عمرو على قراءته[٣]؛ واختاره أبو حاتم. واختار أبو عُبيد القراءةَ الثانيةَ وقال: لا تصحُّ حُجَّةُ أبي عمرو؛ لأنه أضاف اليومَ إلى النحس فأسكن، وإنما كان يكون حُجَّةً لو نوّن اليوم ونعت وأسكن؛ فقال: في يَوْمٍ نَحْسٍ، وهذا لم يقرأْ به أحدٌ نعلمه. وقال المهدوي: ولم يُسمَعْ في «نَحْسٍ» إلا الإسكان.

قال الجوهري[٤]: وقُرئ في قوله: «في يَوْمٍ نَحْسٍ» على الصفة، والإضافة أكثرُ وأجودُ. وقد نَحِسَ الشيء ـ بالكسر ـ فهو نَحِسٌ أيضًا؛ قال الشاعر:

أَبْلِغْ جُذاماً ولَخْماً أنّ إخوتهم ... طَيًّا وبَهْراءَ قومٌ نصرُهم نَحِسُ[٥]

ومنه قيل: أيام نَحِسَات. ﴿لِنُذِيقَهُمْ﴾ أي: لكي نُذيقهم ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالريح العقيم. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ أي: أعظمُ وأشدُّ ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٩ .

(٢) السبعة ص ٥٧٦ ، والتيسير ص ١٩٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/٩ بنحوه.

(٤) في الصحاح (نحس).

(٥) لم نقف عليه في غير الصحاح.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٧ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: بيَّنا لهم الهُدى والضلال؛ عن ابن عباس وغيره[١]. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وغيرهما: «وَأَمَّا ثَمُودَ» بالنصب[٢]، وقد مضى الكلامُ فيه في «الأعراف»[٣]. ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أي: اختاروا الكفر على الإيمان. وقال أبو العالية: اختاروا العمى على البيان. السدي: اختاروا المعصية على الطاعة[٤].

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ «الهُونِ» بالضم الهوان. وهون بن خُزَيْمة بن مدركة بن إلياس بن مُضَر أخو كنانة وأسد. وأهانه: استخفَّ به. والاسمُ الهَوان والمهانة[٥]. وأُضيف الصاعقة إلى العذاب، لأن الصاعقةَ اسمٌ للمبيد المُهلك، فكأنه قال: مُهلك العذاب؛ أي: العذاب المُهلك. والهُون وإن كان مصدراً فمعناه الإهانة، والإهانة عذاب، فجاز أن يجعل أحدهما وصفاً للآخر؛ فكأنه قال: صاعقة الهون. وهو كقولك: عندي علمُ اليقين، وعندي العلم اليقين. ويجوز أن يكون الهُون اسماً مثل الدُّون؛ يقال: عذابٌ هون، أي: مُهين؛ كما قال: ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]. وقيل: أي: صاعقةُ العذاب ذي الهُون. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من تكذيبهم صالحاً وعقرهم الناقةَ، على ما تقدّم[٦].

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني صالحاً ومَن آمن به؛ أي: ميَّزناهم عن الكفار، فلم يحلَّ بهم ما حلَّ بالكفار، وهكذا يا محمد نفعل بمؤمني قومك وكُفَّارهم.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١١١ .

(٢) القراءات الشاذة ص ١٣٣ .

(٣) ٩/ ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٧٥ .

(٥) الصحاح (هون).

(٦) ١١/ ١٥٢ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ قرأ نافع: «نَحْشُرُ» بالنون، «أَعْدَاءَ» بالنصب. الباقون: «يُحْشَرُ» بياء مضمومة «أَعْدَاءُ» بالرفع[1]، ومعناهما بيِّن. وأعداء الله: الذين كذَّبوا رُسُلَه وخالفوا أمْرَه. «فَهُمْ يُوزَعُونَ» يُساقون ويُدفعون إلى جهنم. قال قتادة والسدي: يُحبس أوَّلُهم على آخرهم حتى يجتمعوا[2]؛ قال أبو الأحوص: فإذا تكاملت العدةُ بُدئ بالأكابر فالأكابر جُرماً[3]. وقد مضى في «النمل» الكلامُ في «يُوزَعُونَ» مستوفًى[4].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ «مَا» زائدة ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الجلود يعني بها الجلود بأعيانها في قول أكثر المفسرين. وقال السدي وعُبيد الله بن أبي جعفر[5] والفراء: أراد بالجلود الفروج[6]؛ وأنشد بعض الأدباء لعامر بن جُوَيّة:

المرءُ يسعى للسلا ... مةِ والسلامةُ حسبه
أوْ سالمٌ من قد تثـ ... ـنَّى جلدُه وابيضَّ رأسه[7]

وقال: جلده كناية عن فرجه. ﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني الكفار ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ وإنما كنا نُجادل عنكم ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ لما خَاطَبتْ وخُوطِبَتْ

---

(١) السبعة ص ٥٧٦، والتيسير ص ١٩٣.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٢. وقول قتادة والسدي أخرجهما الطبري ٢٠/ ٤٠٥.
(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٥٧.
(٤) ١٦/ ١١٧ وما بعدها.
(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٠٦.
(٦) معاني القرآن ٣/ ١٦.
(٧) لم نقف عليهما.

أُجريتْ مُجرى من يعقل. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: ركَّب الحياة فيكم بعد أن كنتم نُطفاً، فمن قدر عليه قدر على أن يُنطق الجُلودَ وغيرَها من الأعضاء. وقيل: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ابتداءُ كلامٍ من الله.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وفي «صحيح» مسلم: عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فَضَحِكَ فقال: «هل تدرون مِمَّ أضحك؟» قلنا: اللهُ ورسولهُ أعلم، قال: «مِن مُخاطبةِ العبدِ ربَّه، يقول: يا رب، ألم تُجرني من الظُّلم، قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أُجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: يقول: كفى بِنفسِكَ اليوم عليك شهيداً، وبالكرامِ الكاتبين شُهوداً، قال: فَيُخْتَم على فيه فيقال لأركانه: انطِقي، فَتَنْطِقُ بأعماله قال: ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام قال: فيقول: بُعْدًا لَكُنَّ وسُحْقًا، فعنكُنَّ كنتُ أُناضِلُ»[1].

وفي حديث أبي هريرة: ثم يقال: «الآن نبعثُ شاهِدَنا عليك، ويتفكَّر في نَفْسه؛ مَنْ ذا الذي يشهدُ فَيُخْتَم على فيه، ويقال لفخذه [ولحمه وعظامه]: انطِقي، فَتنطِقُ فَخْذُه ولحمه وعظامُه بعمله، وذلك لِيُعْذِر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي سَخِط الله عليه» خرجه أيضاً مسلم[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ يجوز أن يكون هذا من

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٦٩).

(٢) الحديث (٢٩٦٨)، وما بين حاصرتين منه.

قول الجوارح لهم، ويجوز أن يكونَ من قول الله عز وجل أو الملائكة[١].

وفي «صحيح» مسلم: عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثةُ نفر؛ قُرَشيان وثَقَفيٌّ، أو ثَقَفِيَّان وقرشيٌّ؛ قليلٌ فِقْهُ قلوبهم، كثيرٌ شحمُ بطونهم، فقال أحدهم: أترون اللهَ يسمعُ ما نقول؟ فقال الآخر: يسمعُ إنْ جَهَرْنا، ولا يسمعُ إنْ أَخفينا؛ وقال الآخر: إنْ كان يسمع إذا جَهَرْنا فهو يسمع إذا أَخْفَيْنا؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ﴾ الآية[٢].

خرجه الترمذي فقال: اختصم عند البيت ثلاثةُ نفرٍ. ثم ذكره بلفظه حرفاً حرفاً وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح؛ حدّثنا هَنّاد قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمارة بن عُمَير، عن عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: كنتُ مستتراً بأستار الكعبة، فجاء ثلاثة نفرٍ كثيرٌ شحمُ بطونهم قليلٌ فِقهُ قلوبهم، قرشيّ وخَتَناه ثَقَفيان، أو ثَقفيّ وخَتَناه قرشيان، فتكلَّموا بكلام لم أفْهَمه؛ فقال أحدُهم: أَترون أن الله يسمع كلامَنا هذا، فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتَنا سَمِعَه، وإذا لم نرفع أصواتَنا لم يَسْمعه، فقال الآخر: إنْ سمع منه شيئاً سمعه كلَّه، فقال عبد الله: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ قال: هذا حديث حسن صحيح[٣].

قال الثعلبي: والثقفيّ عبدُ يالِيل، وخَتَناه ربيعة وصفوان بن أمية[٤].

ومعنى «تَسْتَتِرُونَ»: تَستخفون، في قول أكثر العلماء؛ أي: ما كنتم تَستخفون من أنفسكم حَذَراً من شهادة الجوارح عليكم؛ لأن الإنسانَ لا يُمكنه أن يُخفي من نَفْسِهِ عَمَلَه، فيكون الاستخفاء بمعنى ترك المعصية. وقيل: الاستتار بمعنى الاتقاء؛ أي:

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١ .

(٢) صحيح مسلم (٢٧٧٥)، وأخرجه أحمد (٣٦١٤).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٤٨) و(٣٢٤٩).

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١١ .

ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحُكم في الآخرة فتتركوا المعاصي خوفاً من هذه الشهادة. وقال معناه مجاهد. وقال قتادة: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ أي: تظنون ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾[1] بأن يقول: سمعت الحقَّ وما وعيت، وسمعت ما لا يجوز من المعاصي، ﴿وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ﴾ فتقول: رأيت آياتِ الله وما اعتبرت، ونظرت فيما لا يجوز «ولا جُلُودُكُمْ» تقدَّم.

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من أعمالكم، فجادَلتُم على ذلك حتى شَهِدتْ عليكم جوارحُكم بأعمالكم.

روى بَهْز بن حَكيم، عن أبيه، عن جدِّه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ قال: «إنكم تُدْعَون يومَ القيامة مُفَدَّمة أفواهُكم بِفدام، فأول ما يُبين عن الإنسان فَخِذُه وكفُّه»[2] قال عبد الله بن عبد الأعلى الشامي[3] فأحسن:

العمرُ يَنْقصُ والذُّنوب تَزيدُ	وتقالُ عَثراتُ الفتى فيعودُ
هل يستطِيعُ جُحُود ذَنبٍ واحِدٍ	رجلٌ جوارِحُه عليهِ شُهودُ
والمرءُ يسأل عن سِنيهِ فيشتهي	تقليلَها وعنِ المماتِ يحِيدُ

وعن مَعْقِل بن يسار عن النبيّ ﷺ قال: «ليس مِن يومٍ يأتي على ابن آدمَ إلا يُنادى فيه: يا ابنَ آدمَ، أنا خلقٌ جديد، وأنا فيما تعملُ غداً عليك شهيد، فاعملْ فيَّ خيرًا أَشهدْ لك به غدًا، فإني لو قد مضيتُ لم ترني أبداً، ويقول الليلُ مثلَ ذلك» ذكره أبو

(١) هذه الأقوال بنحوها في تفسير الطبري ٢٠/٤٠٩ - ٤١٠، والنكت والعيون ٥/١٧٦.

(٢) أخرجه بنحوه ومطولاً أحمد (٢٠٠٤٣). والفِدام: ما يُشَدّ على فم الإبريق والكوز من خرقة لتصفية الشراب الذي فيه، أي: إنهم يُمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم. النهاية (فدم).

(٣) كذا في النسخ، وفي أدب الدنيا والدين ص ٨٩ - والأبيات التالية منه - وفي شرحه ص ١٦٦: عبد الأعلى بن عبد الله. وفي سير أعلام النبلاء ١٠/٢٢٨: عبد الأعلى بن مسهر بن عبد الأعلى، الإمام، توفي سنة (٢١٨هـ).

نُعيم الحافظ[١]، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٢] في باب شهادة الأرض والليالي والأيام والمال. وقال محمد بن بشير[٣] فأحسن:

مَضَى أمسُك الأدنى شَهيداً معدَّلًا ... ويومُك هذا بالفِعال شهيدُ

فإنْ تكُ بالأمسِ اقترفت إساءةً ... فثَنِّ بإحسانٍ وأنتَ حميدُ

ولا تُرْجِ فِعلَ الخير مِنك إلى غدٍ ... لعلّ غدًا يأتي وأنت فَقيدُ

قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي: أهلككم فأوردكم النار. قال قتادة: الظنّ هنا بمعنى العِلْم. وقال النبي ﷺ: «لا يَموتنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسِنُ الظَّنَّ بالله، فإن قوماً أساءوا الظنَّ بربِّهم فأهلكهم، فذلك قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾»[٤].

وقال الحسن البصري: إنَّ قوماً أَلْهتهم الأمانيُّ حتى خرجوا من الدنيا وما لهم من حسنة، ويقول أحدُهم: إني أُحسِنُ الظنَّ بربِّي، وكذب، ولو أحسنَ الظنَّ لأحسنَ العمل، وتلا قول الله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

---

(١) في حلية الأولياء ٢/ ٣٠٣ . وفي إسناده زيد بن الحواري العَمِّي، وهو ضعيف كما في تقريب التهذيب. قال أبو نعيم: حديث معاوية [يعني ابن قرة] تفرد به عنه زيد، ولا أعلمه رُوي مرفوعاً عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد.

(٢) ص ٢٨٨ .

(٣) لعله محمد بن بشير بن عبد الله بن عقيل أبو سليمان، من بني خارجة، ومن شعراء الدولة الأموية. الأغاني ١٦/ ١٠٢ . ووقع في (ق): يسير، ولعله محمد بن يَسير الرِّياسي، من شعراء أهل البصرة وأدبائهم. الأغاني ١٤/ ١٧ .

(٤) قوله منه: «لا يموتن أحدُكم إلا وهو يُحسن الظن بالله» صحيح، أخرجه أحمد (١٤٤٨١)، ومسلم (٢٨٧٧) من حديث جابر ﷺ، وأخرجه بتمامه أحمد (١٥١٩٧)، وفي إسناده النضر بن إسماعيل ومحمد ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وهما ضعيفان كما في التقريب.

وقال قتادة: من استطاع منكم أن يموتَ وهو حسنُ الظنِّ بربِّه فليفعل، فإن الظنَّ اثنان: ظنٌّ يُنْجِي وظنٌّ يُردي[١].

وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية: هؤلاء قومٌ كانوا يُدمِنون المعاصي ولا يتوبون منها، ويتكلَّمون على المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا مفاليسَ، ثم قرأ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: فإنْ يصبروا في الدنيا على أعمال أهل النار فالنار مثوًى لهم. نظيره: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] على ما تقدَّم.

﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ في الدنيا وهم مُقيمون على كُفرهم ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾.

وقيل: المعنى: «فَإِنْ يَصْبِرُوا» في النار أو يَجْزَعوا «فَالنَّارُ مُثْوًى لهم» أي: لا مَحيصَ لهم عنها، ودلَّ على الجَزَعِ قولُه: «وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا»؛ لأن الْمُسْتَعْتِبَ جَزِعٌ، والمُعتب المقبول عتابُه؛ قال النابغة:

فإنْ أَكُ مَظْلُوماً فَعَبْدٌ ظَلَمْتَه وإنْ تَكُ ذَا عُتْبَى فَمِثْلُكَ يُعْتِبُ[٢]

أي: مثلك من قَبِل الصُّلح والمراجعة إذا سُئِل. قال الخليل: العِتاب مُخاطبة الإدلال ومُذاكرة المَوْجِدة. تقول: عاتبته مُعاتبة، وبينهم أُعْتوبة يتعاتبون بها. يقال: إذا تعاتبوا أصلحَ ما بينهم العِتاب. وأعتبني فلان: إذا عاد إلى مَسَرَّتي راجعاً عن الإساءة، والاسم منه العُتْبى، وهو رجوعُ المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتب. واستعتبَ وأَعتب بمعنى، واستعتبَ أيضاً طلب أن يُعْتَب؛ تقول: استعتبته فأعتبني، أي: استرضيتُه فأرضاني[٣].

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري ٢٠/ ٤١٤ .

(٢) ديوان النابغة ص ١٨ .

(٣) الصحاح (عتب).

فمعنى «وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا» أي: طلبوا الرِّضا لم ينفعهم ذلك، بل لا بدَّ لهم من النار.

وفي التفاسير: وإن يستقيلوا ربَّهم فما هم من المُقالين[١].

وقرأ عُبيد بن عُمير وأبو العالية: «وَإِنْ يُسْتَعْتَبُوا» بفتح التاء الثانية وضم الياء على الفعل المجهول «فما هم مِنَ المُعْتِبِينَ» بكسر التاء[٢]، أي: إن أقالهم الله وردَّهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته لِما سبق لهم في علم الله تعالى من الشقاء، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨] ذكره الهروي[٣]. وقال ثعلب: يقال: أعتب إذا غَضِبَ، وأعتب إذا رَضِيَ[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ قال النقَّاش: أي: هيَّأنا لهم شياطين[٥]. وقيل: سلَّطنا عليهم قُرناء يُزيِّنون عندهم المعاصي، وهؤلاء القُرناء من الجنّ والشياطين ومن الإنس أيضاً؛ أي: سبَّبْنا لهم قُرناء؛ يقال: قَيَّض الله فلاناً لفلان، أي: جاءه به وأتاحه له، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾. القشيري: ويقال: قيّض الله لي رزقاً، أي: أتاحه كما كنتُ أطلبُه، والتقييض الإبدال، ومنه المُقايضة، قايضتُ الرجل مُقايضةً، أي: عاوضتُه بمتاع، وهما قيّضان، كما تقول: بيّعان.

﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا، فحسَّنوه لهم حتى آثروه على الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ حسَّنوا لهم ما بعد مَماتهم وَدَعَوْهم إلى التكذيب بأمور الآخرة؛ عن مجاهد. وقيل: المعنى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ في النار ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم﴾ أعمالَهم في الدنيا؛ والمعنى: قدَّرنا عليهم أن ذلك سيكون، وحَكَمنا به عليهم. وقيل: المعنى:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٧٧ .

(٢) القراءات الشاذة ص ١٣٣ ، والمحتسب ٢/ ٢٤٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢ ، والدر المصون ٩/ ٥٢٢ وعند جميعهم: عمرو بن عبيد، بدل: عبيد بن عمير.

(٣) تهذيب اللغة ٢/ ٢٧٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٧٧ .

(٥) المصدر السابق.

أحوجناهم إلى الأقران؛ أي: أحوجنا الفقيرَ إلى الغني لِينالَ منه، والغنيَّ إلى الفقير، لِيستعينَ به، فزيَّن بعضُهم لبعض المعاصي[١]. وليس قوله: «وما خَلْفَهُمْ» عطفاً على «ما بين أَيْدِيهِم» بل المعنى: وأَنْسَوهم ما خلفَهم، ففيه هذا الإضمار.

قال ابن عباس: «ما بين أيديهم» تكذيبُهم بأمور الآخرة «وما خَلْفَهُمْ» التسويف والترغيب في الدنيا[٢]. الزجاج[٣]: «ما بين أيديهم» ما عملوه «وما خلفهم» ما عَزَموا على أن يعملوه. وقد تقدَّم قولُ مجاهد.

وقيل: المعنى: لهم مثلُ ما تقدَّم من المعاصي «وما خلفهم» ما يعمل بعدَهم. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي: وجب عليهم من العذاب ما وجب على الأُمم الذين من قبلهم الذين كفروا كَكُفرهم. وقيل: «في» بمعنى مع؛ فالمعنى هم داخلون مع الأُمم الكافرةِ قبلَهم فيما دخلوا فيه[٤]. وقيل: «في أُمَمٍ» في جُملة أُمَمٍ، ومثلُه قولُ الشاعر:

إنْ تَكُ عن أحسنِ الصَّنيعةِ مَأْ ... فُوكاً ففي آخَرينَ قد أُفِكوا[٥]

يُريد: فأنت في جُملة آخرين لست في ذلك بأوحد. ومحل «في أُمَمٍ» النصب على الحال من الضمير في «عليهم» أي: حقَّ عليهم القولُ كائنين في جملة أُمم[٦]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ أعمالَهم في الدنيا وأنفسَهم وأهليهم يومَ القيامة.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥٨ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) معاني القرآن ٤/ ٣٨٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥٨ بنحوه.

(٥) قائله عروة بن أذينة، وهو في إصلاح المنطق ص ٢٧ ، وفيه: المروَّة، بدل: الصنيعة. قال ابن السِّكيت: الأَفْك: مصدر أَفَكَهُ عن الشيء يَأْفِكُه، إذا صرفه عنه وقلبه.

(٦) تفسير الرازي ٢٧/ ١١٩ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ لمَّا أخبر تعالى عن كُفر قوم هود وصالح وغيرهم أخبر عن مُشركي قريش وأنهم كذَّبوا القرآن فقالوا: «لا تَسْمَعُوا». وقيل: معنى «لا تَسْمَعُوا» لا تُطيعوا[١]؛ يقال: سمعتُ لك أي: أطعتُك. «والغَوْا فيهِ» قال ابن عباس: قال أبو جهل: إذا قرأ محمدٌ فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول. وقيل: إنهم فعلوا ذلك لمَّا أعجزهم القرآن[٢]. وقال مجاهد: المعنى: «والغَوْا فيهِ» بالـمُكَاء والتَّصفيق والتخليط في المَنْطِق حتى يصير لَغْوًا[٣]. وقال الضحاك أكثِروا الكلامَ لِيختلطَ عليه ما يقول[٤]. وقال أبو العالية وابن عباس أيضاً: قِعُوا فيه وعَيِّبوه[٥]، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ محمداً على قراءته فلا تظهر ولا تستميل[٦] القلوب.

وقرأ عيسى بن عمر والجَحْدري وابن أبي إسحاق وأبو حَيْوةَ وبكر بن حبيب السَّهمي: «والغُوا» بضم الغين[٧]، وهي لغةٌ مِن لغا يلغو. وقراءة الجماعة من لَغِيَ يَلْغَى.

---

(١) النكت والعيون ٥/١٧٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥/٥٩ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/٤١٨ .

(٤) تفسير البغوي ٤/١١٣ .

(٥) النكت والعيون ٥/١٧٨ .

(٦) في (د) و(ز) و(م): فلا يظهر ولا يستميل. والمثبت من (ظ).

(٧) القراءات الشاذة ص ١٣٣ ، والمحتسب ٢/٢٤٦ .

قال الهروي: وقوله: «والْغَوْا فيهِ» قيل: عارِضوه بكلام لا يفهم. يقال: لَغَوْت أَلغو وأَلْغَى، ولَغِيَ يَلْغَى، ثلاث لُغات. وقد مضَى معنى اللَّغو في «البقرة»[(١)] وهو ما لا يُعلَم له حقيقةٌ ولا تحصيل.

قوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قد تقدَّم أن الذَّوقَ يكون محسوساً، ومعنى العذاب الشديد: ما يتوالى فلا ينقطع. وقيل: هو العذابُ في جميع أجزائهم. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: وَلنجزينَّهم في الآخرة جزاءَ قُبْحِ أعمالهم التي عَمِلُوها في الدنيا. وأسوأُ الأعمال الشِّرك.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ أي: ذلك العذابُ الشديد، ثم بيَّنه بقوله: «النَّارُ». وقرأ ابن عباس: «ذلكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ دَارُ الْخُلْدِ»[(٢)] فترجم بالدار عن النار وهو مَجاز الآية. و«ذلك» ابتداء و«جَزَاءُ» الخبر، و«النَّارُ» بدل من «جَزَاءُ»، أو خبر مبتدأ مضمر، والجملة في موضع بيانٍ للجملة الأُولى[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: في النار، فذكره بلفظ الماضي، والمراد المستقبل ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعني إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه؛ عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما[(٤)]؛ ويشهد لهذا القول الحديثُ المرفوع: «ما مِن مسلم يُقتَلُ ظُلماً إلا كان على ابن آدم الأوّل كِفْل من ذَنْبه؛ لأنه أوّلُ من سنَّ القَتْل» ويروى: «أسنَّ القتل»[(٥)]. خرَّجه الترمذي[(٦)].

---

(١) ٤/ ١٧.

(٢) ذكرها الطبري ٢٠/ ٤١٩ عن ابن مسعود ﷺ.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٣.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٦٥ وأخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٠ - ٤٢١ عن علي ﷺ وقتادة. قال الآلوسي في تفسيره ٢٤/ ١٢٠ : وُتُعقِّب بأنه لا يصحّ عن علي كرم الله وجهه، فإن قابيل مؤمن عاصٍ، والظاهر أن الكفار إنما طلبوا إراءة المضلين بالكفر المؤدي إلى الخلود، وكونهم رئيس الكفرة ورئيس أهل الكبائر خلاف الظاهر. اهـ.

(٥) قوله: ويروى: «أسنَّ القتل» من (ظ) و(ق).

(٦) في سننه (٢٦٧٣). وأخرجه أحمد (٣٦٣٠)، والبخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧) من حديث ابن مسعود ﷺ وعندهم: نفس، بدل: مسلم. ودمها، بدل: ذنبه.

وقيل: هو بمعنى الجنس[١]، وبُني على التثنية لاختلاف الجنسين.

﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ سألوا ذلك حتى يشتفوا منهم بأن يجعلوهم تحت أقدامهم ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ في النار وهو الدَّرك الأسفل. سألوا أن يُضعِّف اللهُ عذابَ مَنْ كان سببَ ضلالتهم من الجن والإنس.

وقرأ ابن مُحيصن والسوسي عن أبي عمرو وابن عامر وأبو بكر والمُفضَّل: «أرْنَا» بإسكان الراء[٢]، وعن أبي عمرو[٣] أيضاً باختلاسها. وأشبع الباقون كسرتها، وقد تقدّم في «الأعراف»[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ قال عطاء عن ابن عباس: نزلَتْ هذه الآيةُ في أبي بكر الصدّيق ﷺ؛ وذلك أن المشركين قالوا: ربُّنا اللهُ والملائكةُ بناتُه، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله؛ فلم يستقيموا. وقال أبو بكر: ربُّنا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، ومحمدٌ ﷺ عبدُه ورسوله؛ فاستقام[٥].

وفي الترمذي: عن أنس بن مالك أن رسولَ الله ﷺ قرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ قال: «قد قال الناسُ، ثم كَفَرَ أكثرُهم، فمن مات عليها فهو ممن استقام» قال: حديثٌ غريب، ويُروى في هذه الآية عن النبيّ ﷺ وأبي بكر وعمر

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٤ .

(٢) وقرأ بها ابن كثير من السبعة. السبعة ص ٥٧٦ ، والتيسير ص ١٩٣ .

(٣) في رواية الدوري.

(٤) كذا في النسخ: الأعراف، وصوابه في البقرة ٢/٣٩٨ .

(٥) أسباب النزول للواحدي ص ٣٩٤ .

وعثمان وعليّ معنى ﴿ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾[1].

ففي «صحيح» مسلم: عن سفيان بن عبد الله الثقفيّ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عنه أحداً بعدَك ـ وفي رواية ـ غيرَك. قال: «قل: آمنتُ بالله ثم استَقِمْ»[2] زاد الترمذي: قلت: يا رسولَ الله، ما أخوفُ ما تخاف عليَّ؟ فأخذ بلسان نَفْسِه وقال: «هذا»[3].

وروي عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنه قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ لم يُشركوا بالله شيئاً. وروى عنه الأسودُ بن هلال أنه قال لأصحابه: ما تقولون في هاتين الآيتين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] فقالوا: استقاموا فلم يُذنبوا ولم يَلْبِسوا إيمانهم بخطيئة؛ فقال أبو بكر: لقد حملتموها على غير المَحْمل ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ فلم يلتفتوا إلى إلهٍ غيره ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم﴾ بشرك ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[4] [الأنعام: ٨٢].

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر وهو يخطب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ فقال: استقاموا ـ والله ـ على الطريقة لِطاعته ثم لم يَروغوا رَوَغان الثعالب[5].

وقال عثمان رضي الله عنه: ثم أخلصوا العملَ لله. وقال عليّ رضي الله عنه: ثم أدُّوا الفرائض. وأقوال التابعين بمعناها. قال ابن زيد وقتادة: استقاموا على الطاعة لله. الحسن: استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته. وقال مجاهد وعكرمة: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا. وقال سفيان الثوري: عَمِلُوا على

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٥٠) وليس في مطبوعه ذِكْر عثمان وعلي رضي الله عنهما، وسيذكر المصنف أقوالهم قريباً.

(٢) صحيح مسلم (٣٨)، وأخرجه أحمد (١٥٤١٦).

(٣) سنن الترمذي (٢٤١٠)، وأخرجه أحمد (١٥٤١٩).

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٣ بنحوه.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٥ .

وِفاق ما قالوا. وقال الربيع: أعرضوا عما سوى الله. وقال الفُضيل بن عِياض: زَهِدوا في الفانية ورَغِبوا في الباقية. وقيل: استقاموا إسراراً كما استقاموا إقراراً. وقيل: استقاموا فِعْلاً كما استقاموا قولاً[١].

وقال أنس: لما نزلتْ هذه الآيةُ قال النبيُّ ﷺ: «هم أمتي وربِّ الكعبة»[٢]. وقال الإمام ابن فُورَك: السين سين الطلب، مثل: استسقى، أي: سألوا من الله أن يُثبِّتَهم على الدين. وكان الحسنُ إذا قرأ هذه الآيةَ قال: اللهمَّ أنت ربُّنا فارزقنا الاستقامة[٣].

قلت: وهذه الأقوالُ وإن تداخلَتْ فتلخيصُها: اعتدَلوا على طاعة الله عقداً وقولاً وفعلاً، وداموا على ذلك.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال ابن زيد ومجاهد: عند الموت. وقال مقاتل وقتادة: إذا قاموا من قبورهم للبعث. وقال ابن عباس: هي بُشرى تكون لهم من الملائكة في الآخرة. وقال وكيع وابن زيد: البُشرى في ثلاثةِ مواطنَ عند الموت وفي القبر وعند البعث[٤].

﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ أي: بألَّا تَخافُوا، فحذف الجار. وقال مجاهد: لا تخافوا الموت ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على أولادكم[٥]، فإنَّ اللهَ خليفتُكم عليهم. وقال عطاء بن أبي رباح: لا تخافوا ردَّ ثوابكم فإنه مقبولٌ، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغْفِرُها لكم. وقال عكرمة: لا تخافوا أمامَكم، ولا تحزنوا على ذُنوبكم ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٦].

---

(١) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٢٤ - ٤٢٥، والنكت والعيون ٥/ ١٧٩، والمحرر الوجيز ٥/ ١٤ - ١٥.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١١٤.

(٤) الأقوال السالفة في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٢٥ - ٤٢٧، والنكت والعيون ٥/ ١٨٠، وتفسير البغوي ٤/ ١١٤.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٨٠.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١١٤ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: تقول لهم الملائكةُ الذين تتنزلُ عليهم بالبِشارة: «نحن أَوْلِيَاؤُكُمْ» قال مجاهد: أي: نحن قُرناؤكم الذين كنَّا معكم في الدنيا، فإذا كان يومُ القيامة قالوا: لا نُفارقكم حتى نُدخِلَكم الجنة. وقال السدي: أي: نحن الحَفَظَةُ لأعمالكم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة[١]. ويجوز أن يكون هذا من قول الله تعالى، والله وليُّ المؤمنين ومولاهم.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ أي: من الملاذِّ. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ تسألون وتتمنَّون. ﴿نُزُلًا﴾ أي: رِزْقاً وضيافةً. وقد تقدَّم في «آل عمران»[٢] وهو منصوبٌ على المصدر، أي: أنزلناه نُزُلاً. وقيل: على الحال[٣]. وقيل: هو جمع نازل، أي: لكم ما تدَّعون نازلين، فيكون حالاً من الضمير المرفوع في «تَدَّعُونَ» أو من المجرور في «لكم».

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ هذا توبيخٌ للذين تواصَوْا باللَّغو في القرآن. والمعنى: أيُّ كلام أحسنُ من القرآن، ومن أحسنُ قولاً من الداعي إلى الله وطاعته وهو محمد ﷺ. قال ابن سيرين والسُّدي وابن زيد والحسن: هو رسولُ الله ﷺ[٤].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٨، وأورده البغوي في تفسيره ٤/ ١١٤.

(٢) ٥/ ٤٨٢ - ٤٨٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦٠.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٣٠ عن السدي وابن زيد، وذكره عن ابن سيرين البغوي في تفسيره ٤/ ١١٤.

وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول: هذا رسولُ الله، هذا حبيبُ الله، هذا وليُّ الله، هذا صفوةُ الله، هذا خِيرة الله، هذا ـ والله ـ أحبُّ أهل الأرض إلى الله؛ أجاب اللهَ في دعوته، ودعا الناسَ إلى ما أجاب إليه(١).

وقالت عائشة رضي الله عنها وعكرمة وقيس بن أبي حازم ومجاهد: نزلت في المُؤَذِّنين(٢). قال فُضيل بن رُفيدة: كنتُ مُؤَذِّناً لأصحاب عبد الله بن مسعود، فقال لي عاصم بن هُبيرة: إذا أذَّنتَ فقلت: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، فقل: وأنا من المسلمين؛ ثم قرأ هذه الآية(٣).

قال ابن العربي(٤): الأول أصحُّ؛ لأن الآيةَ مكيَّةٌ والأذان مدني؛ وإنما يدخل فيها بالمعنى؛ لا أنه كان المقصودَ وقتَ القول، ويدخل فيها أبو بكر الصدّيق حين قال في النبيّ ﷺ وقد خَنَقَهُ الملعون(٥): ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] وتتضمَّن كلَّ كلام حَسَنٍ فيه ذِكْرُ التوحيد والإيمان.

قلت: وقولٌ ثالثٌ، وهو أحسنُها؛ قال الحسن: هذه الآيةُ عامةٌ في كل مَنْ دعا إلى الله. وكذا قال قيس بن أبي حازم قال: نزلت في كل مؤمن. قال: ومعنى «وَعَمِلَ صَالِحًا» الصلاة بين الأذان والإقامة. وقاله أبو أمامة؛ قال: صلَّى ركعتين بين الأذان والإقامة. وقال عكرمة: «وعَمِلَ صَالِحًا» صلّى وصام. وقال الكلبي: أدّى الفرائض(٦).

قلت: وهذا أحسنُها مع اجتناب المحارم وكَثْرةِ المندوب. والله أعلم.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٩ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٣٠ عن قيس بن أبي حازم، وذكره عن عائشة رضي الله عنها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٥ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٦ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٠ .

(٥) يعني عقبة بن أبي مُعَيط، وسلفت قصته ١٥/ ٣٠٨ .

(٦) هذه الأقوال في النكت والعيون ٤/ ١٨١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٥ - ١٦ وتفسير البغوي ٤/ ١١٤ .

﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، قال ابن العربي[١]: وما تقدَّم يدلُّ على الإسلام، لكن لمَّا كان الدعاء بالقول والسيف يكون للاعتقاد ويكون للحجة، وكان العملُ يكون للرِّياء والإخلاص، دلَّ على أنه لا بدَّ من التصريح بالاعتقاد لله في ذلك كلِّه، وأن العملَ لوجهه.

مسألة: لما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ولم يقل له: اشترط إنْ شاء الله، كان في ذلك ردٌّ على من يقول: أنا مسلم إنْ شاء الله[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ قال الفراء: «لا» صلة، أي: ولا تَسْتَوِي الحسنةُ والسيئةُ[٣]، وأنشد:

ما كان يَرْضَى رسولُ الله فِعْلَهُم والطَّيِّبانِ أبو بكر ولا عمرُ[٤]

أراد: أبو بكر وعمر؛ أي: لا يستوي ما أنت عليه من التوحيد، وما المشركون عليه من الشِّرك. قال ابن عباس: الحسنةُ لا إله إلا الله، والسيئة الشِّرك. وقيل: الحسنةُ الطاعة، والسيئة الشِّرك. وهو الأولُ بعينه. وقيل: الحسنة المُداراة، والسيئة الغِلْظة. وقيل: الحسنة العفو، والسيئة الانتصار. وقال الضحاك: الحسنة العلم[٥]، والسيئة الفحش. وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: الحسنةُ حبُّ آل الرسول، والسيئة بُغْضُهم.

قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ نُسِخَتْ بآية السيف[٦]، وبقي المُسْتَحَبُّ من ذلك: حسنُ العشرة والاحتمال والإغضاء. قال ابن عباس: أي: ادفع بحلمك جَهْلَ

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٠ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١١٥ .

(٤) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ١٥٩ ، وفيه: دينهم، بدل: فعلهم.

(٥) في النكت والعيون ٥/ ١٨٢ (والكلام منه): الحلم، وكذا في زاد المسير ٧/ ٢٥٨ .

(٦) زاد المسير ٧/ ٢٥٨ .

من يجهلُ عليك[١]. وعنه أيضاً: هو الرجل يَسُبُّ الرجلَ فيقول الآخر: إن كنتَ صادقاً فغفر الله لي، وإن كنتَ كاذباً فغفر الله لك. وكذلك يُروى في الأثر: إن أبا بكر الصديق ﷺ قال ذلك لرجل نالَ منه[٢].

وقال مجاهد: «بالتي هي أَحْسَنُ» يعني السلام إذا لَقِيَ من يُعاديه؛ وقاله عطاء[٣]. وقولٌ ثالثٌ ذكره القاضي أبو بكر بن العربي في «الأحكام»[٤] وهو المُصافحة. وفي الأثر: «تصافحوا يَذهبِ الغِلُّ»[٥]. ولم يَرَ مالكٌ المصافحة، وقد اجتمع مع سفيان فتكلَّما فيها فقال سفيان: قد صافح رسولُ الله ﷺ جعفراً حين قَدِمَ من أرض الحبشة[٦]؛ فقال له مالك: ذلك خاصٌّ. فقال له سفيان: ما خَصَّ رسول الله ﷺ يخصُّنا، وما عَمَّه يعمُّنا، والمصافحةُ ثابتةٌ فلا وجهَ لإنكارها.

وقد روى قتادة قال: قلت لأنس: هل كانت المصافحةُ في أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. وهو حديثٌ صحيح. وفي الأثر: «مِنْ تمامِ المحبةِ الأخذُ باليد»[٧]. ومن حديث محمد بن إسحاق ـ وهو إمامٌ مقدَّم ـ عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: قَدِمَ زيدُ بن حارثةَ المدينةَ ورسولُ الله ﷺ في بيتي، فقرع البابَ فقام إليه رسولُ الله ﷺ عُرياناً يَجُرُّ ثوبَه ـ والله ما رأيتُه عُرياناً قبلَه ولا بعدَه ـ فاعتنقه وقبَّله[٨].

قلت: قد رُوي عن مالك جوازُ المصافحة وعليها جماعةٌ من العلماء. وقد مضى ذلك في «يوسف»[٩]، وذكرنا هناك حديثَ البراء بن عازب قال: قال رسولُ الله ﷺ:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٨٢ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٥١ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٦ .

(٤) ٤/ ١٦٥١ .

(٥) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٠٨ عن عطاء مرسلاً. قال ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ١٢ : وهذا يتصل من وجوه شتى حسان كلها. وسلف ١١/ ٤٥٨ .

(٦) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢٨١ ، وسلف ١١/ ٤٥٨ .

(٧) أخرجه الترمذي (٢٧٣٠) من حديث ابن مسعود ﷺ، وفيه: التحية، بدل: المحبة. قال الترمذي هذا حديث غريب.. سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فلم يَعُدَّه محفوظاً.

(٨) أخرجه الترمذي (٢٧٣٢) وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث الزهري إلا بهذا الوجه.

(٩) ١١/ ٤٥٨ - ٤٥٩ .

«ما مِنْ مُسلمين يلتقيان فيأخذَ أحدُهما بيدِ صاحبه مَوَدَّةً بينهما ونصيحةً إلا أُلقيت ذنوبهما بينهما»[١].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: قريب صديق. قال مقاتل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، كان مُؤذياً للنبيِّ ﷺ، فصار له وليًّا بعد أن كان عدوّاًبالمصاهرة التي وقعت بينه وبين النبي ﷺ، ثم أسلم فصار وليًّا في الإسلام حميماً بالقرابة[٢].

وقيل: هذه الآيةُ نزلت في أبي جهل بن هشام، كان يُؤذي النبي ﷺ، فأمره الله تعالى بالصبر عليه والصَّفح عنه؛ ذكره الماوردي[٣]. والأول ذكره الثعلبي والقشيري وهو أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾. وقيل: كان هذا قبلَ الأمر بالقتال. قال ابن عباس: أمره اللهُ تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب، والحِلْم عند الجَهْل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعل الناس ذلك عَصَمهم اللهُ من الشيطان، وخضع لهم عدوُّهم. ورُوي أن رجلاً شتم قَنْبراً مولى علي بن أبي طالب فناداه عليٌّ: يا قَنْبَرُ، دَعْ شاتمكَ، والْهَ عنه تُرضِ الرحمن وتُسخط الشيطان، وتُعاقب شاتمك، فما عُوقب الأحمقُ بمثل السكوت عنه. وأنشدوا:

وَلَلْكَفُّ عن شَتْم اللَّئيم تَكَرُّمًا ... أَضَرُّ له مِنْ شَتْمِهِ حين يُشْتَمُ[٤]

وقال آخر:

وما شيءٌ أَحَبُّ إلى سَفيهٍ ... إذا سبَّ الكريمَ مِن الجوابِ

مُتاركَةُ السَّفيهِ بلا جوابٍ ... أَشَدُّ على السَّفيهِ من السِّبابِ[٥]

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٣٣٥)، وابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ١٣ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٥ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ١٨٢ .

(٤) قائله المُؤَمَّل بن أُمَيل، وهو في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣/ ٨٦ .

(٥) أوردهما ابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٦٠٨ ، وعنده البيت الثاني قبل الأول، وعجز البيت الأول عنده: إذا وقع الكريم من السباب. وعجز البيت الثاني: أشد على السفيه من العذاب.

وقال محمود الورّاق:

سَأُلزِم نفسي الصَّفْحَ عن كلّ مذنِبٍ ... وإن كَثُرَتْ منه لديَّ الجَرائمُ

فما الناس إلا واحِدٌ مِن ثلاثةٍ ... شريفٌ ومَشْروفٌ ومِثْلٌ مقاومُ

فأما الذي فَوْقي فأعرِفُ قَدْرَه ... وَأَتْبَعُ فيه الحقَّ والحقُّ لازِمُ

وأما الذي دوني فإنْ قال صُنْتُ عن ... إجابَتِه عِرضِي وإنْ لامَ لائِمُ

وأما الذي مِثْلِي فإنْ زَلَّ أوْهَفا ... تَفَضَّلْتُ إنّ الفَضْلَ بالحِلْم حاكِمُ[1]

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ يعني هذه الفعلة الكريمة والخَصْلة الشريفة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ بكظم الغيظ واحتمال الأذى. ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: نصيب وافر من الخير؛ قاله ابن عباس. وقال قتادة ومجاهد: الحظُّ العظيم الجنة. قال الحسن: والله ما عظم حظٌّ قطّ دون الجنة[2]. وقيل: الكناية في «يُلَقَّاهَا» عن الجنة؛ أي: ما يلقَّاها إلا الصابرون؛ والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ تقدَّم في آخر «الأعراف» مستوفًى[3]. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من كيدِه وشرّه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعالك وأقوالك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ علاماته الدالَّة على وحدانيته وقُدرته ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ

(١) ذكر هذه الأبيات ابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٦٠٦ باختلاف يسير في بعض الألفاظ.
(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٢.
(٣) ٩/ ٤٢٢ وما بعدها.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وقد مضى في غير موضع. ثم نهى عن السجود لهما؛ لأنهما وإن كانا خَلْقين فليس ذلك لفضيلةٍ لهما في أنفسهما فيستحقَّان بها العبادةَ مع الله؛ لأنَّ خالقَهما هو الله، ولو شاء لأعدمهما أو طمس نورَهما.

﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ وصوَّرهنَّ وسخَّرهنَّ؛ فالكناية ترجع إلى الشمس والقمر والليل والنهار. وقيل: للشمس والقمر خاصَّة؛ لأن الاثنين جمع[١]. وقيل: الضميرُ عائدٌ على معنى الآيات[٢]، ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٣]. وإنما أنَّثَ على جمع التكسير[٤]، ولم يجر على طريق التغليب للمذكر والمؤنث لأنه فيما لا يعقل.

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ يعني الكفار عن السجود لله ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ أي: لا يملُّون عبادتَه. قال زهير:

سَئِمتُ تَكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ ثمانِينَ حولًا - لا أبالَكَ - يَسْأَمِ[٥]

مسألة: هذه الآيةُ آيةُ سجدة بلا خلاف؛ واختلفوا في موضع السجود منها. فقال مالك: موضعه ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ لأنه متصلٌ بالأمر. وكان عليّ وابن مسعود وغيرهم يسجدون عند قوله: «تَعْبُدُونَ». وقال ابن وهب والشافعي: موضعُه ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ لأنه تمامُ الكلام وغايةُ العبادة والامتثال. وبه قال أبو حنيفة. وكان ابن عباس يسجد عند قوله: «يَسْأَمُونَ». وقال ابن عمر: السجدة[٦] بالآخرة منهما. وكذلك يُروى عن مسروق وأبي عبد الرحمن السُّلمي وإبراهيم النخعي وأبي صالح ويحيى بن وثَّاب وطلحة وزُبيد اليامِيِّين والحسن وابن سيرين. وكان أبو وائل وقتادة

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٧ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٧٢ .

(٣) وقع في النسخ قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ في هذا الموضع، وحقُّه أن يُذكر بعد قوله: فيما لا يعقل الآتي.

(٤) في (د) و(م): التكثير، وينظر الكلام في التفسير البغوي ٤/ ١١٥ ، والدر المصون ٩/ ٥٢٨ .

(٥) ديوان زهير ص ٢٩ ، وسلف ٤/ ٤٥٦ .

(٦) في (م): اسجدوا.

وبكر بن عبد الله يسجدون عند قوله: «يَسْأَمُونَ». قال ابن العربي[(١)]: والأمر قريب.

مسألة: ذكر ابن خُوَيْز مَنْدَاد: أن هذه الآيةَ تضمَّنت صلاةَ كسوف القمر والشمس؛ وذلك أن العربَ كانت تقول: إن الشمسَ والقمرَ لا يَكْسِفان إلا لموت عظيم، فصلَّى النبيّ ﷺ صلاةَ الكسوف.

قلت: صلاةُ الكسوف ثابتةٌ في الصحاح البخاري ومسلم وغيرهما[(٢)]. واختلفوا في كيفيتها اختلافاً كثيراً، لاختلاف الآثار، وحسبُك ما في «صحيح» مسلم من ذلك، وهو العُمدة في الباب.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ الخطاب لكل عاقل، أي: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالَّة على أنه يُحيي الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أي: يابسة جدبة، هذا وصفُ الأرض بالخشوع؛ قال النابغة:

رمادٌ كَكُحْلِ العينِ لأياً أُبِينُهُ ... وَنُؤْيٌ كَجِذْمِ الحَوْضِ أَثْلَمُ خاشِعُ[(٣)]

والأرض الخاشعة: الغبراء التي تنبت. وبلدة خاشعة: أي: مغبرة لا منزلَ بها. ومكانٌ خاشع[(٤)]. ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: بالنبات؛ قاله مجاهد[(٥)]. يقال: اهتزَّ الإنسان، أي: تحرَّك؛ ومنه:

تَرَاه كَنَصْلِ السيف يَهْتَزُّ لِلنَّدى ... إذا لم تَجِدْ عِند امرِئ السَّوْءِ مَطْمَعا[(٦)]

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٢ ، وما قبله منه دون ذكر أبي حنيفة وزبيد اليامي. وقول أبي حنيفة ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٥٤ .

(٢) صحيح البخاري (١٠٤٤)، وصحيح مسلم (٩٠١)، من حديث عائشة رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (٢٥٣١٣)، وفي الباب عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، تُنظر في مسند أحمد.

(٣) ديوان النابغة ٧٩ ، وسلف ٢/ ٧٠ ، والنُّؤيُ: حَفيرة تُحفر حول الخباء، ويُجعل ترابها حاجزاً لئلا يدخله المطر. والجِذْم: الأصل. خزانة الأدب ٢/ ٤٥٣ .

(٤) الصحاح (خشع).

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٣٨ .

(٦) قائله متمم بن نُويرة، وهو في الكامل للمبرد ٣/ ١٤٤١ . ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٧٢ - ٢٧٣ ، وما قبله منه.

﴿وَرَبَتْ﴾ أي: انتفخَتْ وَعَلَتْ قبلَ أن تَنبُتَ؛ قاله مجاهد[١]. أي: تصعدت عن النبات بعد موتها. وعلى هذا التقدير يكون في الكلام تقديمٌ وتأخير وتقديره: رَبَتْ واهتزت[٢]. والاهتزاز والرُّبُوُّ قد يكونان قبلَ الخروج من الأرض؛ وقد يكونان بعد خروج النبات إلى وجه الأرض؛ فَرُبُوُّها ارتفاعُها. ويقال للموضع المرتفع: ربوة ورابية؛ فالنبات يتحرك للبروز، ثم يزداد في جسمه بالكِبَر طولاً وعرضاً.

وقرأ أبو جعفر وخالد: «وَرَبَأَتْ» ومعناه: عَظُمَتْ؛ من الربيئة[٣]. وقيل: «اهْتَزَّتْ» أي: استبشرت بالمطر «وَرَبَتْ» أي: انتفخت بالنبات. والأرض إذا انشقَّت بالنبات: وُصِفَتْ بالضَّحِك، فيجوز وَصْفُها بالاستبشار أيضاً. ويجوز أن يقال: الرُّبُوُّ والاهتزاز واحد؛ وهي حالة خروج النبات. وقد مضى هذا المعنى في «الحج»[٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ﴾ تقدَّم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِىٓ ءَامِنًا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يميلون عن الحق في أدِلَّتنا[٥]. والإلحاد: المَيْل والعُدول. ومنه اللَّحد في القبر؛ لأنه أميلُ إلى ناحية منه. يقال: ألحدَ في دين الله، أي: حاد عنه وعَدَلَ. ولَحَدَ لغةٌ فيه. وهذا يرجع إلى الذين قالوا:

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٣٩ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٤ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٧٣ ، وقراءة أبي جعفر من العشرة في النشر ٢/ ٣٢٥ .

(٤) ١٤/ ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١١٦ .

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ وهم الذين ألحدوا في آياته ومالوا عن الحقّ فقالوا: ليس القرآن من عند الله، أو هو شِعر أو سحر؛ فالآياتُ آيات القرآن.

قال مجاهد: «يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا» يُكذِّبون في آياتنا. أي: عند تلاوة القرآن بالمُكَاءِ والتَّصْدِيةِ واللَّغوِ والغِناء. وقال ابن عباس: هو تبديلُ الكلام ووضعه في غير موضعه. وقال قتادة: «يُلْحِدُونَ في آيَاتِنَا»: يُكذِّبون في آياتنا. وقال السدي: يُعاندون ويشاقُّون. وقال ابن زيد: يُشركون ويكذبون. والمعنى متقارب. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل[١].

وقيل: الآياتُ المعجزات، وهو يرجع إلى الأوّل، فإن القرآن مُعجِزٌ.

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ على وجهه، وهو أبو جهل في قول ابن عباس وغيره ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ قيل: النبي ﷺ؛ قاله مقاتل. وقيل: عثمان. وقيل: عمار بن ياسر. وقيل: حمزة. وقيل: عمر بن الخطاب. وقيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي. وقيل: المؤمنون. وقيل: إنها على العموم؛ فالذي يلقى في النار الكافر، والذي يأتي آمناً يومَ القيامة المؤمن؛ قاله ابن بحر[٢].

﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ أمر تهديد؛ أي: بعد ما علمتم أنهما لا يستويان فلا بدَّ لكم من الجزاء. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيدٌ بتهديد وتوعُّد[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ الذِّكر ها هنا القرآن في قول الجميع؛ لأن فيه ذِكْرَ ما يُحتاج إليه من الأحكام. والخبر محذوف [تقديره][٤]: هالكون أو معذَّبون. وقيل: الخبر ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الآية: ٤٤] واعترضَ قولُه: «ما يُقال لك» ثم رَجَعَ إلى الذِّكر فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ ثم قال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ﴾ والأوّلُ الاختيار؛ قال النحاس[٥]: عند النحويين جميعاً

---

(١) الأقوال السابقة في النكت والعيون ٥/ ١٨٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ١١٦ .

(٢) الأقوال السابقة في المصدرين السابقين ما عدا قوله: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٨٥ .

(٤) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ.

(٥) في معاني القرآن ٦/ ٢٧٥ ، وما قبله فيه بنحوه.

فيما علمت.

﴿وَإِنَّهُ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي: عزيز على الله؛ قاله ابن عباس؛ وعنه: عزيز من عند الله. وقيل: كريم على الله. وقيل: «عَزِيزٌ» أي: أعزَّه الله فلا يتطرّق إليه باطل. وقيل: ينبغي أن يُعَزَّ ويُجَلّ وألا يُلغى فيه. وقيل: «عَزِيزٌ» من الشيطان أن يُبدِّله؛ قاله السدي. مقاتل: مُنع من الشيطان والباطل. السدي: غير مخلوق فلا مثلَ له. وقال ابن عباس أيضاً: «عَزِيزٌ» أي: ممتنع عن الناس أن يقولوا مثله[1].

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: لا يُكذبه شيء مما أنزلَ الله من قبلُ، ولا ينزلُ من بعده كتابٌ يُبطله وينسخُه؛ قاله الكلبي. وقال السدي وقتادة: «لا يَأْتِيهِ الباطلُ» يعني الشيطان ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ لا يستطيع أن يُغيِّر ولا يزيد ولا ينقص[2].

وقال سعيد بن جُبير: لا يأتيه التكذيب ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾. ابن جُريج: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ فيما أخبر عما مضى ولا فيما أخبر عما يكون[3]. وعن ابن عباس: «مِنْ بين يَدَيْهِ» من الله تعالى «وَلَا مِنْ خَلْفِهِ» يريد من جبريل ﷺ، ولا من محمد ﷺ.

﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ابن عباس: «حَكِيم» في خلقه «حَمِيد» إليهم. قتادة: «حَكِيم» في أمره «حَمِيد» إلى خلقه[4].

قوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ أي: من الأذى والتكذيب ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ يُعزِّي نبيه ويُسلِّيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لك ولأصحابك ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ يريد: لأعدائك وجيعاً. وقيل: أي: ما يقال لك من إخلاص العبادة لله إلا ما قد أُوحي إلى مَن قبلك، ولا خِلاف بين الشرائع فيما يتعلَّق بالتوحيد، وهو كقوله:

---

(١) الأقوال السالفة في المحرر الوجيز ٥/ ١٩ ، والنكت والعيون ٥/ ١٨٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ١١٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٦ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٨٥ ، وزاد المسير ٧/ ٢٦٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٨٦ .

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] أي: لم تدعهم إلا إلى ما تدعو إليه جميعَ الأنبياء، فلا معنى لإنكارهم عليك. وقيل: هو استفهامٌ، أي: أيّ شيء يقال لك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾؟

وقيل: «إِنَّ رَبَّكَ» كلامٌ مبتدأ، وما قبله كلامٌ تامٌّ إذا كان الخبر مضمراً. وقيل: هو متصل بـ «ما يقال لكَ»[1]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: إنما أُمِرْتَ بالإنذار والتبشير.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي: بلغة غير العرب ﴿لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي: بُيِّنَت بلغتنا، فإننا عربٌ لا نفهم الأعجميَّةَ. فبين أنه أنزله بلسانهم ليتقرَّر به معنى الإعجاز؛ إذ هم أعلمُ الناس بأنواع الكلام نَظْماً ونثراً. وإذا عَجَزوا عن مُعارضته كان من أدلِّ الدليل على أنه من عند الله، ولو كان بلسان العجم لقالوا: لا عِلْمَ لنا بهذا اللسان.

الثانية: وإذا ثبت هذا ففيه دليلٌ على أن القرآن عربي، وأنه نزل بلغة العرب، وأنه ليس أعجميًّا، وأنه إذا نُقِلَ عنها إلى غيرها لم يكن قرآناً[2].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي: «أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ» بهمزتين مُحققَّتين[3]، والعجميّ الذي ليس من العرب كان فصيحاً أو غيرَ

---

(١) بعدها في (ظ): أي: إنما يقال لك.

(٢) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٦٣.

(٣) في النسخ: مخففتين، وهو خطأ، والمثبت من كتب القراءات، ينظر السبعة ص ٥٧٧، والتيسير ص١٩٣.

فصيح، والأعجميُّ الذي لا يُفصح كان من العرب أو من العجم[١]. فالأعجم ضدُّ الفصيح، وهو الذي لا يُبين كلامه. ويقال للحيوان غير الناطق: أعجم، ومنه «صلاةُ النهار عَجْماء»[٢] أي: لا يُجهر فيها بالقراءة، فكانت النسبة إلى الأعجم آكَدَ، لأن الرجل العجمي الذي ليس من العرب قد يكون فصيحًا بالعربية، والعربيّ قد يكون غيرَ فصيح؛ فالنسبة إلى الأعجميّ آكدُ في البيان.

والمعنى: أقرآنٌ أعجميٌّ، ونبيٌّ عربي؟ وهو استفهامُ إنكار[٣].

وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم والمغيرة وهشام عن ابن عامر: «أَعْجَمِيٌّ» بهمزة واحدة على الخبر[٤]. والمعنى: «لولا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» فكان منهم عربيّ يفهمه العرب، وأعجميٌّ يفهمه العَجَم. وروى سعيد بن جُبير قال: قالت قريش: لولا أُنزل القرآنُ أعجميًّا وعربيًّا، فيكون بعضُ آياته عجميًّا وبعضُ آياته عربيًّا، فنزلت الآيةُ. وأُنزل في القرآن من كل لغة فمنه «السِّجِّيل» وهي فارسيةٌ، وأصلُها سنكَيل؛ أي: طين وحجر[٥]، ومنه «الفِرْدَوس» رومية، وكذلك «القِسْطَاس».

وقرأ أهلُ الحجاز وأبو عمرو وابن ذكوان وحفص على الاستفهام، إلا أنهم ليَّنُوا الهمزة على أصولهم[٦]. والقراءة الصحيحة قراءة الاستفهام. والله أعلم.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠ .

(٢) قال السخاوي في المقاصد الحسنة (٦٢٨): قال النووي: إنه باطل، لا أصل له، وكذا قال الدارقطني: لم يُروَ عن النبي ﷺ، وإنما هو من قول بعض الفقهاء.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١١٧ .

(٤) قراءة هشام عن ابن عامر في التيسير ص ١٩٣ . وقراءة الحسن في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٤٨ بنحوه. وفي المعجم الفارسي: سنكين، بالنون.

(٦) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الثانية مع إدخال ألف بينهما، وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وحفص ورُويس بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية من غير إدخال ألف، وسلفت قراءة هشام، وقرأ الباقون: بتحقيق الأولى والثانية من غير إدخال. السبعة ص ٥٧٦ - ٥٧٧ ، والتيسير ص١٩٣ ، والنشر ١/ ٣٦٦ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ أعلمَ اللهُ أن القرآن هُدًى وشفاءٌ لكل من آمن به من الشكِّ والرِّيب والأوجاع. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: صَمَمٌ عن سماع القرآن. ولهذا تواصَوْا باللَّغو فيه. ونظير هذه الآية: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] وقد مضَى مستوفى.

وقراءة العامة ﴿عَمًى﴾ على المصدر. وقرأ ابن عباس وعبد الله بن الزبير وعمرو ابن العاص ومعاوية وسليمان بن قَتَّة: «وهو عليهم عَمٍ» بكسر الميم[(١)]، أي: لا يتبيَّن لهم. واختار أبو عُبيد القراءةَ الأُولى؛ لإجماع الناس فيها؛ ولقوله أوّلاً: «هُدًى وَشِفَاءٌ» ولو كان: هادٍ وشافٍ، لكان الكسر في «عَمًى» أجودَ؛ ليكون نعتاً مثلَهما[(٢)]؛ تقديره: «والذين لا يؤمِنونَ» في ترك قبوله بمنزلة مَنْ في آذانهم «وقرٌ وهو» يعني القرآن «عليهم» ذو عمى، لأنهم لا يفقهون فحذف المضاف. وقيل: المعنى: والوَقْر عليهم عمى[(٣)].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل. وحكى أهلُ اللغة أنه يقال للذي يفهم: أنت تسمع من قريب. ويقال للذي لا يفهم: أنت تُنادَى من بعيد. أي: كأنه يُنادى من موضع بعيد منه، فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه. وقال الضحاك: «يُنَادَوْنَ» يوم القيامة بأقبح أسمائهم «مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ» فيكون ذلك أشدَّ لتوبيخهم وفضيحتهم[(٤)].

وقيل: أي: من لم يتدبَّر القرآن صار كالأعمى الأصمّ، فهو يُنادى من مكان بعيد فينقطع صوتُ المنادي عنه وهو لم يسمع. وقال علي ﷺ ومجاهد: أي: بعيد من قلوبهم. وفي التفسير: كأنما يُنَادَوْن من السماء فلا يسمعون. وحكى معناه النقاش[(٥)].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢١ .

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ١٣٤ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٨٠ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٨٠ - ٢٨١ ، وقول الضحاك أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٥١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٨٧ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِۗ﴾ أي: آمن به قومٌ وكذَّب به قوم. والكناية ترجِع إلى الكتاب، وهو تسليةٌ للنبي ﷺ؛ أي: لا يحزنك اختلافُ قومك في كتابك، فقد اختلَف مَن قبلهم في كتابهم[(١)]. وقيل: الكناية ترجع إلى موسى.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: في إمهالهم. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بتعجيل العذاب. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: شديد الريبة. وقد تقدَّم[(٢)].

وقال الكلبي في هذه الآية: لولا أن الله أخَّر عذابَ هذه الأُمة إلى يوم القيامة لأتاهم العذابُ كما فعل بغيرهم من الأُمم. وقيل: تأخيرُ العذاب لِمَا يخرج من أصلابهم من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ﴾ شرطٌ وجوابه، وكذا ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ﴾. والله جلّ وعزّ مُستغنٍ عن طاعة العباد، فمن أطاع فالثواب له، ومن أساء فالعقاب عليه. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ نَفَى الظُّلمَ عن نفسه جلّ وعزّ قليلَه وكثيرَه، وإذا انتفت المبالغة انتفى غيرها، دليلُه قوله الحق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤]. وروى العُدول الثِّقات، والأئمة الأثبات، عن الزاهد العدل، عن أمين الأرض، عن أمين السماء، عن الرب جل جلاله: «يا عبادي، إني حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّماً، فلا تَظالموا» الحديث[(٣)]. وأيضًا فهو الحكيم المالك، وما يفعله

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٦٤ بنحوه.

(٢) ١١/ ١٥٣.

(٣) قطعة من حديث أبي ذر ﷺ، أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، وسلف ٥/ ٤٣٠.

المالك في مُلْكه لا اعتراضَ عليه؛ إذ له التصرف في مُلْكه بما يُريد.

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ أي: حين وقتها. وذلك أنهم قالوا: يا محمد، إن كنت نبيًّا فخبِّرنا متى قيامُ الساعة فنزلت[(١)]. ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ «مِنْ» زائدة، أي: وما تخرج ثمرة. ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: من أوعيتها، فالأكمام أوعيةُ الثمرة، واحدُها كُمّة، وهي كل ظرف لمال أو غيره؛ ولذلك سمّى قِشْر الطَّلْع ـ أعني كُفُرّاه ـ الذي ينشقُّ عن الثمرة كُمَّةً؛ قال ابن عباس: الكُمّة الكُفُرَّى قبل أن تنشقّ، فإذا انشقَّتْ فليست بكمَّة[(٢)]. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «الرحمن»[(٣)].

وقرأ نافع وابن عامر وحفص: «مِنْ ثَمَرَاتٍ» على الجمع. الباقون: «ثَمَرَة» على التوحيد[(٤)]، والمراد الجمع، لقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ والمراد الجمع، يقول: «إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْم الساعةِ» كما يُرَدُّ إليه علمُ الثمار والنتاج. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: ينادي اللهُ المشركين: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ الذين زعمتم في الدنيا أنها آلهةٌ تشفع. ﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني الأصنام. وقيل: المشركون. ويَحتمِلُ أن يريدَهم جميعًا؛ العابد والمعبود: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أسمعناكَ وأعلمناكَ[(٥)]. يقال:

آذنَ يُؤْذِنُ: إذا أعلم، قال:

آذَنَـتْـنَـا بِـبَـيْـنِـهـا أَسْـمـاءُ رُبَّ ثَـاوٍ يُـمَـلُّ مـنـه الـثَّـوَاءُ[(٦)]

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٦٤.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٧.

(٣) في تفسير الآية (١١).

(٤) السبعة ص ٥٧٧، والتيسير ص ١٩٤.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١١٧ بنحوه.

(٦) قائله الحارث بن حِلِّزة اليشكري، والبيت مطلع معلقته. شرح القصائد المشهورات للنحاس ص ٥١.

﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: نُعلِمُكَ ما منا أحدٌ يشهد بأن لك شريكاً؛ لمَّا عاينوا القيامةَ تبرَّؤوا من الأصنام[١]، وتبرأتِ الأصنامُ منهم كما تقدّم في غير موضع[٢].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: بَطَلَ عنهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَظَنُّوا۟﴾ أي: أيقنوا وعَلِموا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: فرار عن النار. و«مَا» هنا حرف وليس باسم؛ فلذلك لم يعمل فيه الظنّ وجعل الفعل ملغى[٣]؛ تقديره: وظنوا أنهم ما لهم محيص ولا مهرب. يقال: حاص يَحيص حَيْصاً ومَحيصاً، إذا هرب. وقيل: إن الظنَّ هنا الذي هو أغلبُ الرأي، لا يشكون في أنهم أصحاب النار، ولكن يطمعون أن يخرجوا منها. وليس يبعد أن يكون لهم ظنٌّ ورجاءٌ إلى أن يُؤَيَّسوا.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: لا يَمَلُّ من دعائه بالخير. والخير هنا المال والصحة والسُّلطان والعِزّ. قال السدي: والإنسان هاهنا يُراد به الكافر[٤]. وقيل: الوليد بن المغيرة. وقيل: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف. وفي قراءة عبد الله: «لا يسأمُ الإنسانُ مِنْ دُعاءِ المال»[٥].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١١٧ .

(٢) ١٦/ ٣٠٣ وما بعدها.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٨٨ .

(٥) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٢٢ ، وفيه أن قراءة ابن مسعود ﷺ: «من دعاءِ بالخير» وهي كذلك في القراءات الشاذة ص ١٣٣ ، والكشاف ٣/ ٤٥٧ .

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الفقر والمرض ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ من رَوْح الله ﴿قَنُوطٌ﴾ من رحمته[١]. وقيل: «يَؤوسٌ» من إجابة الدعاء «قَنُوطٌ» بسوء الظن بربه[٢]. وقيل: «يَؤوسٌ» أي: يئس من زوال ما به من المكروه «قَنُوطٌ» أي: يظنُّ أنه يدوم؛ والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ عاقبةً ورخاء وغِنًى ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ ضُرّ وسُقْم وشِدَّة وفَقْر. ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ أي: هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملي؛ فيرى النعمة حتماً واجباً على الله تعالى، ولم يعلم أنه ابتلاه بالنعمة والمحنة؛ ليتبيَّن شكره وصبره. وقال ابن عباس: «هذا لِي» أي: هذا من عندي.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الجنة، واللام للتأكيد؛ يتمنَّى الأماني بلا عمل. قال الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب: للكافر أمنيتان؛ أما في الدنيا فيقول: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾، وأما في الآخرة فيقول: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧] و﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[٣] [النبأ: ٤٠].

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: لَنَجْزِيَنَّهم. قسمٌ أقسمَ اللهُ عليه. ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شديد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يريد الكافر ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾. وقال ابن عباس: يريد عُتبةَ بن ربيعةَ وشيبة بن ربيعة وأميةَ بن خلف، أعرضوا عن الإسلام وتباعدوا عنه.

ومعنى «نَأى بِجَانِبِهِ» أي: ترفَّع عن الانقياد إلى الحق وتكبر على أنبياء الله. وقيل: «نَأى» تباعد. يقال: نأيتُه ونأيتُ عنه نأيًا بمعنى: تباعدت عنه، وأنأيته فانتأى: أبعدته فبعُد، وتناءَوا تباعدوا، والمُنتأى الموضع البعيد؛ قال النابغة:

---

(١) تفسير البغوي ٤/١١٨ .

(٢) النكت والعيون ٥/١٨٨ .

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٢٢ مختصراً.

فإنَّك كاللَّيل الذي هو مُدْرِكي وإنْ خِلْتُ أنَّ المُنْتَأى عنكَ واسِعُ[١]

وقرأ يزيد بن القعقاع: «ونَاءَ بِجَانِبِهِ» بالألف قبل الهمزة[٢]. فيجوز أن يكون من «ناء» إذا نهض. ويجوز أن يكون على قلب الهمزة بمعنى الأوّل[٣].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي: أصابه المكروه ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير، والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة. يقال: أطال فلان في الكلام، وأعرض في الدعاء إذا أكثر[٤]. وقال ابن عباس: «فَذُوا دُعَاءٍ عَرِيض» فذو تضرع واستغاثة. والكافر يعرف ربه في البلاء ولا يعرفه في الرَّخاء[٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: «أرأيْتُمْ» يا مَعْشَرَ المشركين ﴿إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ﴾ أي: فأيُّ الناسِ أضلُّ، أي: لا أحدَ أضلُّ منكم لفرطِ شقاقكم وعداوتكم[٦]. وقيل: قوله: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يرجع إلى الكتاب المذكور في قوله: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ والأوّل أظهرُ، وهو قولُ ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ﴾ أي: علامات وحدانيتنا وقُدرتنا «في

---

(١) ديوان النابغة ص ٨١ ، والبيت وما قبله من الصحاح (نأي).

(٢) وقرأ بها ابن عامر في رواية ابن ذكوان. السبعة ص ٥٧٧ ، والتيسير ص ١٤١ ، والنشر ٢/ ٣٠٨ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٨٥ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١١٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٨٩ .

(٦) زاد المسير ٧/ ٢٦٧ بنحوه.

الآفَاقِ» يعني: خرابَ منازل الأُمم الخالية ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالبلايا والأمراض[١]. وقال ابن زيد: «فِي الآفَاقِ» آيات السماء «وَفِي أَنْفُسِهِمْ» حوادث الأرض[٢]. وقال مجاهد: «فِي الْآفَاقِ» فتح القرى[٣]؛ فيسَّرَ الله عز وجل لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده وأنصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموماً، وفي ناحية المغرب خصوصاً من الفتوح التي لم يتيسَّر أمثالُها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم، وتسليط ضعفائهم على أقويائهم، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجةً عن المعهود خارقةً للعادات[٤]. «وَفِي أَنْفُسِهِمْ» فتح مكة. وهذا اختيار الطبري[٥]. وقاله المِنهال بن عمرو والسدي[٦].

وقال قتادة والضحاك: «فِي الْآفَاقِ» وقائع الله في الأُمم «وَفِي أَنْفُسِهِمْ» يوم بدر. وقال عطاء وابن زيد أيضاً: «فِي الْآفَاقِ» يعني أقطار السماوات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغيرها[٧]. وفي «الصحاح»[٨]: الآفاق النواحي، واحدها أُفْقٌ وَأُفُقٌ مثل: عُسْر وعُسُر، ورجل أَفَقيّ؛ بفتح الهمزة والفاء: إذا كان من آفاق الأرض. حكاه أبو نصر. وبعضهم يقول: أُفُقيّ، بضمهما، وهو القياس. وأنشد غير الجوهري:

أَخَذْنَا بِآفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمُ ... لنا قَمَراها والنُّجُومُ الطَّوالِعُ[٩]

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١١٨ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٩ دون نسبة.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ١٨٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ١١٨ .

(٤) الكشاف ٣/ ٤٥٨ .

(٥) في تفسيره ٢٠/ ٤٦٢ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٦١ .

(٧) تفسير البغوي ٤/ ١١٨ - ١١٩ .

(٨) الصحاح (أفق).

(٩) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٤١٩ .

«وَفِي أَنْفُسِهِمْ» من لطيف الصنعة وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول؛ فإن الرجل يشرب ويأكل من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين[١]، وبديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما من السماء إلى الأرض مسيرة خمس مئة عام، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة. وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه.

وقيل: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ من كونهم نُطَفًا إلى غير ذلك من انتقال أحوالهم[٢]، كما تقدّم في «المؤمنون» بيانه[٣]. وقيل: المعنى: سيَرَوْن ما أخبرهم به النبي ﷺ من الفتن وأخبار الغيوب ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ فيه أربعة أوجه: أحدها: أنه القرآن. والثاني: الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه[٤]. والثالث: أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق. والرابع: أن محمداً ﷺ هو الرسول الحق.

﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ﴾ في: موضع رفع بأنه فاعل بـ «يَكْفِ» و﴿أَنَّهُۥ﴾ بدل من «رَبِّكَ» فهو رفع إن قدّرته بدلاً على الموضع، وجَرّ إن قدرته بدلاً على اللفظ. ويجوز أن يكون نصباً بتقدير حذف اللام، والمعنى: أولم يكفهم ربك بما دلهم عليه من توحيده؛ لأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾، وإذا شهده جازى عليه. وقيل: المعنى: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ» في معاقبته الكفار. وقيل: المعنى: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ» يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار[٥].

وقيل: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ» شاهداً على أن القرآن من عند الله. وقيل: «أَوَ لَمْ يَكْفِ بِربِّكَ أَنَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ» مما يفعله العبد «شَهِيدٌ»، والشهيد بمعنى العالم[٦]؛ أو

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٦٨ عن ابن زيد.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٩ .

(٣) ١٥/ ١٧ وما بعدها .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٨٩ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦٨ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٨٨ بنحوه.

هو من الشهادة التي هي الحضور.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة. وقال السدي: أي: من البعث .﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ أي: أحاط علمه بكل شيء. قاله السدي. وقال الكلبي: أحاطت قدرته بكل شيء[1].

وقال الخطابي: هو الذي أحاطت قدرته بجميع خلقه، وهو الذي أحاطَ بكل شيء علمًا، وأحصى كلَّ شيء عدداً. وهذا الاسم أكثرُ ما يجيء في مَعْرِض الوعيد، وحقيقتُه الإحاطةُ بكل شيء، واستئصال المُحاط به، وأصله مُحْيِطْ، نقلتْ حركةُ الياء إلى الحاء فسكنت. يقال منه: أحاط يُحيط إحاطةً وحِيْطةً؛ ومن ذلك حائطُ الدار، يحوطها أهلُها. وأحاطت الخيلُ بفلان: إذا أخِذ مأخذاً حاصراً من كل جهة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف:٤٢] والله أعلم بصواب ذلك.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٩٠ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الشُّورَى

مكِّيَّةٌ في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا أربعَ آيات منها أنزلت بالمدينة: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الآية: ٢٣] إلى آخرها. وهي ثلاثٌ وخمسون آية[١].

قوله تعالى: ﴿حمٓ ① عٓسٓقٓ ② كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ③ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ④﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ . عٓسٓقٓ﴾ قال عبد المؤمن: سألت الحسين بن الفضل: لِمَ قطعَ «حم» من «عسق» ولم تقطع «كهيعص» و«المر» و«المص»؟ فقال: لأن «حم. عسق» بين سُوَرٍ أوّلها «حم» فجرت مَجرى نظائرها قبلَها وبعدَها؛ فكأنَّ «حم» مبتدأ و«عسق» خبره. ولأنها عُدَّت آيتين، وعُدَّت أخواتُها اللواتي كُتبت جملةً آيةً واحدة[٢].

وقيل: إن الحروف المعجمة كلَّها في المعنى واحد، من حيث إنها أُسُّ البيان وقاعدةُ الكلام؛ ذكره الجُرْجَانِي.

وكتبت «حم. عسق» منفصلاً و«كهيعص» متصلاً لأنه قيل: حم؛ أي: حُمَّ ما هو كائن، ففصلوا بين ما يُقدَّر فيه فعل وبين ما لا يُقدَّر. ثم لو فُصل هذا ووُصِل ذا لجاز؛ حكاه القُشيري.

وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس: «حم. سق»[٣]. قال ابن عباس: وكان

(١) النكت والعيون ٥/ ١٩١ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٩ دون ذكر عبد المؤمن، ولم نعرفه.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٤ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥ .

عليٌّ ﷺ يعرف الفِتَنَ بها[١].

وقال أرطاةُ بن المنذر: قال رجلٌ لابن عباس وعنده حذيفة بن اليمان: أَخْبِرني عن تفسير قوله تعالى: «حم. عسق»؟ فأعرض عنه حتى أعاد عليه ثلاثاً، فأعرضَ عنه. فقال حُذيفة بن اليمان: أنا أنبئك بها، قد عرفتُ لِم تركها؛ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له: عبد الإله، أو عبد الله؛ ينزل على نهر من أنهار المشرق، يبني عليه مدينتين يشق النهر بينهما شقًّا، فإذا أراد اللهُ زوالَ مُلكهم وانقطاعَ دولتهم، بعث على إحداهما ناراً ليلاً فتصبح سوداءَ مُظْلِمةً، فتحترق كلُّها كأنها لم تكن مكانَها؛ فتصبح صاحبتُها متعجبةً كيف قُلبت، فما هو إلا بياضُ يومها حتى يجتمع فيها كلُّ جبار عَنيد، ثم يخسفُ الله بها وبهم جميعاً؛ فذلك قوله: «حم. عسق» أي: عَزْمةٌ من عَزَمات الله تعالى، وفتنةٌ وقضاء؛ «حم»: حُمَّ. «ع»: عدلاً منه، «س»: سيكون، «ق»: واقع في هاتين المدينتين[٢].

ونظير هذا التفسير ما روى جرير بن عبد الله البَجَليُّ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تُبنى مدينةٌ بين دِجْلة ودُجيل وقُطْرَبُّل والصَّراة، يجتمع فيها جبابرةُ الأرض تُجبى إليها الخزائنُ يخسفُ بها ـ وفي رواية: بأهلها ـ فَلَهِيَ أسرعُ ذهاباً في الأرض من الوَتِد الجيِّد في الأرض الرِّخوة»[٣].

وقرأ ابن عباس: «حم. سق» بغير عين. وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود؛ حكاه الطبري[٤].

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٦٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٦٤ ، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ١٨٩ ، وقال: أثر غريب عجيب منكر.

(٣) أخرجه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٣٥٠)، وهو حديث منكر جداً فيما ذكره الذهبي في الميزان ٣/ ١٦٥ ، وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٣٦٥ ـ ٣٧٢ ، من طرق عديدة وأعلَّها كلَّها، ثم نقل عن الإمام أحمد قوله: ليس لهذا الحديث أصل. ودُجيل: اسم نهر مخرجه من أعلى بغداد، وقُطْرَبُّل: كلمة أعجمية، اسم قرية بين بغداد وعُكبَرا. والصَّراة. نهران ببغداد؛ الصراة الكبرى والصراة الصغرى. معجم البلدان ٢/ ٤٤٣ و٣/ ٣٩٩ و٤/ ٣٧١ .

(٤) في تفسيره ٢٠/ ٤٦٥ ، وسلف قريباً.

وروى نافع عن ابن عباس: «الحاء» حِلْمه[١]، و«الميم» مَجْده، و«العين» عِلْمه، و«السين» سَنَاه، و«القاف» قُدرته؛ أقسم الله بها[٢].

وعن محمد بن كعب: أقسم الله بحِلمه[٣] ومَجْده وعُلُوِّه وسَنَاه وقُدرته ألا يُعذِّب من عاذ بلا إله إلا الله مُخلصاً من قلبه[٤]. وقال جعفر بن محمد وسعيد بن جُبير: «الحاء» من الرحمن، و«الميم» من المجيد، و«العين» من العليم، و«السين» من القُدُّوس، و«القاف» من القاهر.

وقال مجاهد: فواتح السور. وقال عبد الله بن بُريدة: إنه اسمُ الجبل المحيط بالدنيا.

وذكر القشيريّ، واللفظ للثعلبيّ: أن النبيَّ ﷺ لما نزلَتْ هذه الآيةُ عُرفت الكآبةُ في وجهه؛ فقيل له: يا رسولَ الله، ما أحزنك؟ قال: «أُخبِرتُ ببلايا تنزلُ بأُمتي مِن خَسْف وقَذْف ونارٍ تحشرهم، وريحٍ تَقْذِفهم في البحر وآياتٍ متتابعات مُتَّصلات بنزول عيسى وخروج الدَّجال»[٥]. والله أعلم.

وقيل: هذا في شأن النبيِّ ﷺ؛ فـ«الحاء» حوضه المورود، و«الميم» مُلكه الممدود، و«العين» عِزُّه الموجود، و«السين» سناه المشهود، و«القاف» قيامه في المقام المحمود، وقُربه في الكرامة من المَلِك المعبود.

وقال ابن عباس: ليس من نبيّ صاحب كتاب إلا وقد أُوحي إليه: «حم. عسق»؛ فلذلك قال: «يُوحِي إِلَيْكَ وإِلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ»[٦].

المهدويّ: وقد جاء في الخبر أن «حم. عسق» معناه: أَوْحيتُ إلى الأنبياء المتقدِّمين.

---

(١) في (د) و(ظ): حكمه.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١١٩ عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في (د) و(ظ): بحكمه.

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ١٨٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩٠ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥ .

وقرأ ابن مُحَيْصِن وابن كثير ومجاهد: «يُوحَى» بفتح الحاء على ما لم يُسَمَّ فاعلُه[١]؛ ورُوي عن ابن عمر. فيكون الجار والمجرور في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل، ويجوز أن يكون اسم ما لم يُسَمَّ فاعلُه مضمراً؛ أي: يُوحَى إليك القرآن الذي تضمَّنته هذه السورة، ويكون اسمُ الله مرفوعاً بإضمار فعل، التقدير: يُوحيه اللهُ إليك[٢]؛ كقراءة ابن عامر وأبي بكر: ﴿يُسَبَّحُ له فيها بالغُدُوِّ والآصَالِ رِجالٌ﴾[٣] [النور: ٣٦] أي: يُسبِّحه رجال. وأنشد سيبويه:

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومة[٤] وأشعثُ ممن طوَّحته الطوائح

فقال: لِيُبْكَ يزيدُ، ثم بيَّن من ينبغي أن يَبْكيَه، فالمعنى: يَبكيه ضارعٌ[٥].

ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف؛ كأنه قال: اللهُ يُوحيه. أو على تقدير إضمار مبتدأ، أي: المُوحي الله. أو يكون مبتدأ والخبر «العزيزُ الحكيمُ». وقرأ الباقون: «يُوحِي إِلَيْكَ» بكسر الحاء، ورفع الاسم على أنه الفاعل[٦].

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ تقدّم في غير موضع[٧].

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ⑤﴾

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قراءة العامة بالتاء. وقرأ نافع وابن وَثّاب والكسائيّ

---

(١) قراءة ابن كثير في السبعة ص ٥٨٠ ، والتيسير ص ١٩٤ . وقراءة مجاهد في المحرر الوجيز ٥/ ٢٦ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧١ بنحوه.

(٣) السبعة ص ٤٥٦ ، والتيسير ص ١٦٢ ، وسلفت ١٥/ ٢٨٦ .

(٤) في (د) و(م): بخصومه، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لكتاب سيبويه ١/ ٢٨٨ ، وقد نسبه للحارث ابن نهيك. قال البغدادي في الخزانة ١/ ٣١٣ : الصواب أنه لنهشل بن حَرِّيّ.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٩٣ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧١ بنحوه. وينظر السبعة ص٥٨٠ ، والتيسير ص١٩٤ .

(٧) ٢/ ٣١١ و٤/ ٢٧١ .

بالياء. ﴿يَنفَطِرْنَ﴾ قرأ نافع وغيره بالياء والتاء والتشديد في الطاء، وهي قراءة العامة. وقرأ أبو عمرو وأبو بكر والمفضّل وأبو عُبيد: «يَنْفَطِرْنَ» من الانفطار[1]؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] وقد مضى في سورة «مريم» بيانُ هذا[2].

وقال ابن عباس: «تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ» أي: تكاد كلُّ واحدة منها تنفطر فوقَ التي تليها؛ من قول المشركين: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾[3] [البقرة: ١١٦]. وقال الضحاك والسدي: «يَتَفَطَّرْنَ» أي: يتشقَّقْنَ من عَظَمةِ الله وجلاله فوقَهنَّ[4]. وقيل: «فوقهنَّ»: فوق الأَرَضين من خشية الله لو كُنَّ مما يعقل.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يُنزِّهونه عما لا يجوز في وَصْفه، وما لا يَليق بجلاله. وقيل: يتعجَّبون من جُرأة المشركين؛ فيذكر التسبيح في موضع التعجّب.

وعن عليّ ﷺ: أن تسبيحَهم تعجُّب مما يرون من تعرُّضهم لِسخط الله. وقال ابن عباس: تسبيحهم خضوع لما يرون من عظمة الله تعالى. ومعنى «بِحَمْدِ رَبِّهِمْ»: بأمر ربهم؛ قاله السُّدّي. ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال الضحاك: لمن في الأرض من المؤمنين؛ وقاله السدي. بيانه في سورة المؤمن: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الآية: ٧]. وعلى هذا تكون الملائكةُ هنا حَمَلَةَ العرش. وقيل: جميع ملائكة السماء؛ وهو الظاهر من قول الكلبيّ[5].

وقال وهب بن مُنَبِّه: هو منسوخ بقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[6]. وقال المهدويّ: والصحيح أنه ليس بمنسوخ؛ لأنه خبر، وهو خاصٌّ للمؤمنين.

---

(١) السبعة ص ٤١٣ و٥٨٠، والتيسير ص ١٥٠ و١٩٤.

(٢) ١٣/ ٥٢١.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢٠ دون نسبة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٩٢.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩١.

وقال أبو الحسن الماوَرْدِيّ[١] عن الكلبيّ: إن الملائكة لما رأت المَلَكين اللَّذَين اخْتُبروا وبُعِثا إلى الأرض لِيحكما بينهم، فافتتنا بالزُّهَرَة وهربا إلى إدريس ـ وهو جَدّ أبي نوح عليهما السلام ـ وسألاه أن يدعُوَ لهما؛ سبَّحت الملائكةُ بحمد ربهم واستغفرت لبني آدم[٢].

قال أبو الحسن بن الحصَّار: وقد ظنَّ بعضُ مَن جهل أن هذه الآيةَ نزلت بسبب هاروت وماروت، وأنها منسوخةٌ بالآية التي في المؤمن، وما علموا أن حَمَلَةَ العرش مخصوصون بالاستغفار للمؤمنين خاصة، ولله ملائكة أُخر يستغفرون لمن في الأرض.

الماورديّ[٣]: وفي استغفارهم لهم قولان: أحدهما: من الذنوب والخطايا؛ وهو ظاهرُ قول مقاتل. الثاني: أنه طلب الرزق لهم والسَّعة عليهم؛ قاله الكلبيّ.

قلت: وهو أظهرُ، لأن الأرضَ تعمُّ الكافرَ وغيره، وعلى قول مقاتل لا يدخل فيه الكافر. وقد رُوي في هذا الباب خبرٌ رواه عاصمٌ الأحولُ عن أبي عثمان عن سَلْمان قال: إنَّ العبدَ إذا كان يذكر اللهَ في السَّرَّاء فنزلت به الضَّرَّاء قالت الملائكة: صوتٌ معروفٌ من آدميٍّ ضعيف، كان يذكر الله تعالى في السَّرَّاء فنزلت به الضَّرَّاء؛ فيستغفرون له. فإذا كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضرَّاء قالت الملائكة: صوتٌ منكرٌ من آدميٍّ لا يذكر الله في السَّراء، فنزلت به الضَّرَّاء، فلا يستغفرون اللهَ له[٤].

وهذا يدلُّ على أن الآية في الذاكر لِله تعالى في السرَّاء والضرَّاء، فهي خاصَّة ببعض مَن في الأرض من المؤمنين. والله أعلم.

ويَحتمِل أن يقصِدوا بالاستغفار طلبَ الحِلْم والغُفران في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

(١) في النكت والعيون ٥/ ١٩٣.

(٢) هذه قصة باطلة، وسلفت ٢/ ٢٨٤، وينظر الكلام عليها ثمة.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٩٣.

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١١٤٠).

﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، وقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]. والمراد الحِلْم عنهم وألا يُعاجلهم بالانتقام؛ فيكون عامًّا؛ قاله الزمخشريّ[١].

وقال مُطَرِّف: وجدنا أنصحَ عبادِ الله لعباد الله الملائكةَ، ووجدنا أغشَّ عباد الله لعباد الله الشياطين. وقد تقدَّم[٢].

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قال بعضُ العلماء: هَيَّب وعَظَّم جلَّ وعزَّ في الابتداء، وألطفَ وبشَّرَ في الانتهاء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني أصناماً يعبدونها. ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يحفظ أعمالَهم لِيُجازيَهم بها. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ وهذه منسوخةٌ بآية السيف[٣]. وفي الخبر: «أَطّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطّ»[٤] أي: صوَّتَتْ من ثِقَل سُكَّانها لِكَثْرَتهم، فهم مع كَثْرتهم لا يفتُرُون عن عبادة الله؛ وهؤلاء الكفار يُشركون به.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أوحينا إليك وإلى مَن قبلك هذه المعاني فكذلك أوحينا إليك قرآناً عربيًّا بيَّناه بلغة العرب. وقيل: أي: أنزلنا

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٠ .

(٢) ١٨/ ٣٣٢ .

(٣) زاد المسير ٧/ ٢٧٣ ، وقال: لا يصح.

(٤) أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، وسلف ٥/ ٤٢٨ .

عليك قرآناً عربيًّا بلسان قومك؛ كما أرسلنا كلَّ رسول بلسان قومه. والمعنى واحد. ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني مكة. وقيل لمكة: أُمُّ القُرَى؛ لأن الأرضَ دُحيت من تحتها[1]. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من سائر الخلق. ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ أي: بيوم الجمع، وهو يومُ القيامة. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شكَّ فيه.

﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ ابتداء وخبر. وأجاز الكسائي النصب[2] على تقدير: لِتنذر فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير[3].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قال الضحاك: أهلَ دين واحد؛ أهل ضلالة أو أهل هُدًى. ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ قال أنس بن مالك: في الإسلام[4]. ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ رفع على الابتداء، والخبر ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ﴾، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ عطف على اللفظ. ويجوز: ولا نَصيرٌ، بالرفع على الموضع[5] و«مِنْ» زائدة.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟﴾ أي: بل اتَّخذوا. ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني أصناماً. ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ أي: وَليُّك يا محمد ووليُّ من اتَّبعك[6]، ولا وَلِيَّ سواه. ﴿وَهُوَ يُحْىِ

(١) سلف هذا الكلام ١/ ١٧٣.

(٢) قرأ بها زيد بن علي كما في البحر المحيط ٧/ ٥٠٩.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٢.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٩٤.

(٥) يعني في اللغة لا في التلاوة.

(٦) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٢١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يُريد عند البعث. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وغيره من الأولياء لا يقدر على شيء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾ حكايةُ قول رسول الله ﷺ للمؤمنين؛ أي: وما خالفكم فيه الكفارُ من أهل الكتاب والمشركين من أمر الدين، فقولوا لهم: حُكمه إلى الله لا إليكم[1]. وقد حكم أن الدِّين هو الإسلام لا غيره. وأمور الشرائع إنما تُتَلَقَّى من بيان الله.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أي: الموصوف بهذه الصِّفات هو ربي وحدَه؛ وفيه إضمار: أي: قل لهم يا محمد: ذلكم اللهُ يُحيي الموتى ويحكم بين المختلفين هو ربّي. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدتُ. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرْجِعُ.

قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالرفع على النعت لاسم الله، أو على تقدير هو فاطر. ويجوز النصب على النداء، والجرّ على البدل من الهاء في «عليه»[2]. والفاطر: المُبدع والخالق. وقد تقدَّم.

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ قيل: معناه: إناثًا. وإنما قال: «مِنْ أَنْفُسِكُمْ» لأنه خَلَقَ حوَّاء من ضِلَع آدم[3]. وقال مجاهد: نَسْلًا بعد نَسْل[4]. ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ يعني الثمانية التي ذكرها في «الأنعام»[5] ذكور الإبل والبقر والضأن والمَعْز وإناثها.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٦١-٤٦٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٣.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢١.

(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٥٧٣، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٤٧٥ لكن في تفسير قوله تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ التالي.

(٥) ٩/ ١٧٦.

﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يخلقكم ويُنشئكم «فِيهِ» أي: في الرحم. وقيل: في البطن. وقال الفرّاء[١] وابن كيسان: «فيه» بمعنى به. وكذلك قال الزجاج[٢]: معنى «يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ» يُكثركم به؛ أي: يُكثركم بجعلكم[٣] أزواجًا، أي: حلائلَ؛ لأنهن سبب النسل. وقيل: إن الهاء في «فِيهِ» للجعل، ودلّ عليه «جَعَلَ»؛ فكأنه قال: يخلقكم ويكثركم في الجعل. ابن قُتيبة[٤]: «يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ» أي: في الزوج؛ أي: يخلقكم في بطون الإناث. وقال: ويكون «فِيهِ» في الرحم، وفيه بُعْدٌ؛ لأن الرحم مؤنثة ولم يتقدَّم لها ذِكْر.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ قيل: إن الكاف زائدةٌ للتوكيد؛ أي: ليس مثله شيء[٥]. قال:

وصـالـيـاتٍ كَـكُـمَـا يُـؤْثَـفَـيْـن[٦]

فأدخل على الكاف كافاً تأكيداً للتشبيه. وقيل: المثل زائدة للتوكيد؛ وهو قول ثعلب[٧]: ليس كهو شيء؛ نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾[٨] [البقرة: ١٣٧]. وفي حرف ابن مسعود «فَإِنْ آمَنُوا بِمَا آمَنْتُمْ به فقد اهتَدَوْا»[٩] قال أَوْسُ بن حَجَر:

وقَـتْـلَـى كـمـثـل جـذوع الـنـخـيـ ـل يَـغْـشـاهـم مَـطَـرٌ مُـنـهـمِـرْ[١٠]

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٢ .

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٥ .

(٣) في (م): يجعلكم. وعبارة الزجاج: أي: يُكثركم بجعله منكم ومن الأنعام أزواجاً.

(٤) غريب القرآن ص ٣٩١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٤ .

(٦) نسبه سيبويه في كتابه ١/ ٣٢ ، والبغدادي في خزانته ٢/ ٣١٣ لخطام المجاشعي. والصَّاليات: الأثافيّ، وهي الأحجار التي يُنصب عليها القدر. قاله البغدادي.

(٧) النكت والعيون ٥/ ١٩٥ .

(٨) قال السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٥٤٥ : وهذا ليس بجيد؛ لأن زيادة الأسماء ليست بجائزة، وأيضاً يصير التقدير: ليس كهو شيء، ودخول الكاف على الضمائر لا يجوز إلا في شعر.

(٩) المحتسب ١/ ١١٣ .

(١٠) ديوان أوس بن حجر ص ٣٠ ، وفيه: تغشَّاهم، بدل: يغشاهم. ومُسبل، بدل: مطر، وكلاهما بمعنى واحد.

أي: كجذوع. والذي يُعتقد في هذا الباب أن الله جلّ اسمه في عَظَمته وكبريائه ومَلَكوته وحُسنى أسمائه وعَلِيّ صفاته لا يُشبه شيئاً من مخلوقاته ولا يُشبَّه به، وإنما جاء مما أطلقه الشرعُ على الخالق والمخلوق، فلا تشابُهَ بينهما في المعنى الحقيقي؛ إذ صفاتُ القديم جلّ وعزّ بخلاف صفاتِ المخلوق؛ إذ صفاتهم لا تنفكُّ عن الأغراض والأعراض، وهو تعالى منزَّهٌ عن ذلك؛ بل لم يزلْ بأسمائه وبصفاته على ما بيَّناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحُسنى»، وكفى في هذا قولُه الحقّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وقد قال بعضُ العلماء المحقِّقين: التوحيد إثباتُ ذاتٍ غيرِ مُشبهة للذوات ولا معطَّلة من الصِّفات. وزاد الواسطيّ رحمه الله تعالى بياناً فقال: ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللَّفظ؛ وجلَّت الذات القديمة أن يكون لها صفةٌ حديثة؛ كما استحال أن يكون للذات المُحدثة صفةٌ قديمة. وهذا كلُّه مذهبُ أهل الحقّ والسنة والجماعة ﷺ.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ تقدَّم في «الزُّمَر» بيانه[١]. النحاس[٢]: والذي يملك المفاتيحَ يملك الخزائن؛ يقال للمفتاح: إقليد، وجمعه على غير قياس؛ كمحاسن والواحد حُسن.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تقدَّم أيضًا في غير موضع[٣].

---

(١) ١٨/٣٠٤.

(٢) معاني القرآن ٦/٢٩٨.

(٣) ١٢/٦٤ و١٦/٣٨٦.

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ أي: الذي له مقاليدُ السماوات والأرض شرعَ لكم من الدين ما شرعَ لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، ثم بيَّن ذلك بقوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ وهو توحيدُ الله وطاعته، والإيمان برسله وكُتبه وبيوم الجزاء، وبسائرِ ما يكون الرجل بإقامته مسلماً. ولم يُرِد الشرائعَ التي هي مصالح الأُمم على حَسَب[1] أحوالها، فإنها مختلفةٌ متفاوتةٌ؛ قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨] وقد تقدم القولُ فيه.

ومعنى «شَرَعَ» أي: نهج وأوضح وبيَّن المسالك. وقد شَرَعَ لهم يَشْرَع شَرْعًا، أي: سنَّ. والشارع: الطريق الأعظم. وقد شَرَع المنزِلُ إذا كان على طريق نافذ. وَشَرَعْتُ الإبلَ إذا أمكنتها من الشريعة. وشرعتُ الأديمَ إذا سلختَه. وقال يعقوب[2]: إذا شَقَقْتَ ما بين الرِّجلين، قال: وسمعته من أم الحُمَارِس البَكْريّة. وشرعتُ في هذا الأمر شُروعاً، أي: خضت.

﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ «أَنْ» في محل رفع، على تقدير: والذي وصَّى به نوحًا أن أقيموا الدِّين، ويُوقف على هذا الوجه على «عيسى». وقيل: هو نصب، أي: شرعَ لكم إقامةَ الدين. وقيل: هو جرّ بدلاً من الهاء في «به»؛ كأنه قال: به أقيموا الدين. ولا يوقف

---

(١) في (م): حسن.

(٢) في إصلاح المنطق ص ٤٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (شرع)، وما قبله منه.

على «عيسى» على هذين الوجهين. ويجوز أن تكون «أن» مفسَّرة؛ مثل: أن امشوا، فلا يكون لها محلٌ من الإعراب[١].

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربيّ[٢]: ثبت في الحديث الصحيح أن النبيَّ ﷺ قال في حديث الشفاعة الكبير المشهور: «ولكن ائتوا نوحًا فإنه أوّلُ رسول بعثه اللهُ إلى أهل الأرض، فيأتون نوحًا فيقولون له: أنت أوّلُ رسول بعثه اللهُ إلى أهل الأرض»[٣] وهذا صحيحٌ لا إشكالَ فيه، كما أن آدمَ أوّلُ نبيٍّ[٤] بغير إشكال؛ إلا أن[٥] آدم لم يكن معه إلا بَنوه[٦]، ولم تُفرَض له الفرائض ولا شُرعت له المحارم، وإنما كان تنبيهاً على بعضِ الأمور واقتصاراً على ضرورات المعاش، وأخذًا بوظائف الحياة والبقاء؛ واستقرَّ المَدَى إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأُمَّهات والبنات والأخوات، ووظَّف عليه الواجبات وأوضحَ له الآدابَ في الديانات، ولم يزل ذلك يتأكَّد بالرُّسل ويتناصر بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم واحداً بعد واحد وشريعةً إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير المِلل مِلَّتِنا، على لسان أكرم الرُّسل نبينا محمد ﷺ؛ فكان المعنى: أوصيناك يا محمد ونوحًا ديناً واحداً؛ يعني في الأصول التي لا تختلف فيه الشريعة، وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرّب إلى الله بصالح الأعمال، والزّلَف إليه بما يردُّ القلب والجارحة إليه، والصدق والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة وصِلة الرحم، وتحريم الكفر والقتل والزنى والأذيَّة[٧] للخلق

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩ بنحوه، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٤.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٤ ـ ١٦٥٥.

(٣) أخرجه أحمد (٩٦٢٣)، والبخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) مطولاً من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي الباب عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم تنظر في مسند أحمد. وقد سلف قطعة من الحديث ٣/ ٤٠٦.

(٤) في (د) و(ز) و(ي): أول رسول نبي، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لأحكام القرآن لابن العربي.

(٥) في (م) وأحكام القرآن: لأن، والمثبت من النسخ الخطية.

(٦) في (م): نبوّة.

(٧) في النسخ الخطية: الاذاية، والمثبت من (م).

كيفما تصرفت، والاعتداء على الحيوان كيفا دار، واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات؛ فهذا كلُّه مشروعٌ دِينًا واحدًا ومِلَّةً متَّحدة، لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادُهم؛ وذلك قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي: اجعلوه قائمًا؛ يريد دائماً مستمراً محفوظًا مستقرًّا من غير خلاف فيه ولا اضطراب؛ فمن الخَلْق مَن وفّى بذلك ومنهم من نكث؛ ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠]. واختلفت الشرائعُ وراءَ هذا في معانٍ حَسبَما أراده اللهُ مما اقتضت المصلحةُ وأوجبت الحِكمةَ وَضْعَه في الأزمنة على الأُمم. والله أعلم.

قال مجاهد: لم يبعث اللهُ نبيًّا قطُّ إلا وصّاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة، فذلك دِينُه الذي شَرع لهم[١]؛ وقاله الوالِبيّ عن ابن عباس، وهو قول الكلبيّ.

وقال قتادة: يعني تحليل الحلال وتحريم الحرام. وقال الحكم: تحريم الأمهات والأخوات والبنات[٢]. وما ذكره القاضي يجمع هذه الأقوالَ ويزيد عليها. وخصَّ نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى بالذِّكر لأنهم أربابُ الشرائع.

قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: عَظُم عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ورفض الأوثان. قال قتادة: كَبُرَ على المشركين فاشتدَّ عليهم شهادة أن لا إله إلا الله، وضاق بها إبليسُ وجنوده، فأَبى الله عزّ وجلّ إلا أن ينصرها ويُعليها ويُظهرها على من ناوأها[٣]. ثم قال: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يختار. والاجتباء الاختيار؛ أي: يختار للتوحيد من يشاء. ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: يستخلص لدينه مَن رَجَع إليه.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ قال ابن عباس: يعني قريشًا ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٩٦ ـ ١٩٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩ بنحوه.

محمدٌ ﷺ[١]؛ وكانوا يتمنَّون أن يُبعَثَ إليهم نبيّ؛ دليله قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ [الآية: ٤٢] يريد نبيًّا. وقال في سورة البقرة: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [الآية: ٨٩] على ما تقدَّم بيانُه هناك.

وقيل: أُمَم الأنبياء المُتقدِّمين؛ فإنهم فيما بينهم اختلفوا لما طال بهم المَدى، فآمن قومٌ وكفر قومٌ. وقال ابن عباس أيضًا: يعني أهلَ الكتاب؛ دليلُه في سورة المُنفكِّين: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾[٢] [الآية: ٤]. فالمشركون قالوا: لِمَ خُصّ بالنبوَّة؟! واليهود حسدوه لمَّا بُعث؛ وكذا النصارى.

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: بغيًا من بعضهم على بعض طلبًا للرِّياسة، فليس تفرُّقُهم لِقصور في البيان والحُجَج، ولكن للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العقاب عن هؤلاء. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦]. وقيل: إلى الأجل الذي قضى فيه بعذابهم. ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين مَن آمن وبين مَن كَفَرَ بنزول العذاب.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يريد اليهود والنصارى. ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد المختلفين في الحق ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ من الذي أوصى به الأنبياء. والكتابُ هنا التوراة والإنجيل. وقيل: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ قريش.

«مِنْ بَعْدِهِمْ» من بعد اليهود النصارى. «لَفِي شَكٍّ» من القرآن أو من محمد. وقال مجاهد: معنى «مِنْ بَعْدِهِمْ» من قَبْلهم؛ يعني: من قَبْلِ مُشركي مكة، وهم اليهود والنصارى[٣].

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩٣ دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٢٢ .

(٣) المصدر السابق، ونسب قول مجاهد لقتادة.

قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ﴾ لما جاز أن يكون الشكُّ لليهود والنصارى، أو لقريش قيل له: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾ أي: فتبينت شكَّهم فادعُ إلى الله؛ أي: إلى ذلك الدين الذي شرعه اللهُ للأنبياء ووصَّاهم به. فاللام بمعنى إلى؛ كقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] أي: إليها. و«ذلك» بمعنى هذا. وقد تقدَّم أولَ «البقرة»[١]. والمعنى: فإلى هذا[٢] القرآن فادعُ. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى: كبر على المشركين ما تدعوهم إليه فلذلك فادع[٣]. وقيل: إن اللام على بابها؛ والمعنى: فمن أجل ذلك الذي تقدم ذكره فادع واستقم[٤]. قال ابن عباس: أي: إلى القرآن فادعُ الخَلْقَ.

﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ خطابٌ له عليه الصلاة والسلام. قال قتادة: أي: استَقِمْ على أمر الله. وقال سفيان: أي: استَقِمْ على القرآن. وقال الضحاك: استَقِمْ على تبليغ الرسالة[٥].

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: لا تنظر إلى خلاف مَن خالفك. ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: أنْ أعدِلَ؛ كقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦]. وقيل: هي لام كي، أي: أعدِلَ[٦]؛ قال ابن عباس وأبو العالية: لأُسوِّيَ بينكم في الدِّين، فأُؤمن بكلِّ كتاب وبكلِّ رسول. وقال غيرُهما:

(١) ١/ ٢٤٢.
(٢) في النسخ: فلهذا، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٥ـ ٧٦ والكلام فيه بنحوه.
(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٠٢.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٦/ ٧٦.
(٥) النكت والعيون ٥/ ١٩٩.
(٦) زاد المسير ٧/ ٢٧٩.

لِأعدِلَ في جميع الأحوال. وقيل: هذا العدل هو العدل في الأحكام. وقيل: في التبليغ[١].

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: الخِطاب لليهود؛ أي: لنا ديننا ولكم دينُكم. قال: ثم نُسخت بقوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ الآية [التوبة: ١٢٩] قال مجاهد: ومعنى ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ لا خصومةَ بيننا وبينكم. وقيل: ليس بمنسوخ، لأن البراهينَ قد ظهرت، والحُجَجَ قد قامت، فلم يبقَ إلا العِناد، وبعد العناد لا حُجَّةَ ولا جدال.

قال النحاس[٢]: ويجوز أن يكون معنى ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ على ذلك القول: لم يؤمر أن يحتجَّ عليكم ويُقاتلكم[٣]؛ ثم نسخ هذا. كما أن قائلاً لو قال من قبل أن تُحوَّلَ القبلة: لا تُصلِّ إلى الكعبة، ثم حوّل الناس بعد؛ لجاز أن يقال: نسخ ذلك.

﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ﴾ يريد يومَ القيامة. ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: فهو يحكم بيننا إذا صِرْنا إليه، ويُجازي كُلًّا بما كان عليه.

وقيل: إنَّ هذه الآيةَ نَزلت في الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة، وقد سألا رسولَ الله ﷺ أن يرجع عن دعوته ودينه إلى دين قريش، على أن يُعطيَه الوليدُ نصفَ ماله ويُزوِّجه شيبةُ بابنته[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ رَجع إلى المشركين ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ

(١) النكت والعيون ٥/١٩٩ .

(٢) في الناسخ والمنسوخ ٢/٦١٤ ، وما قبله منه.

(٣) عبارة (ظ): لن نؤمن أن نحتجَّ عليكم ونقاتلكم.

(٤) النكت والعيون ٥/١٩٩ .

لَهُۥ﴾ قال مجاهد: من بعد ما أسلم الناس. قال: وهؤلاء قد توهَّموا أن الجاهلية تعود[(١)]. وقال قتادة: الذين يُحاجُّون في الله اليهودُ والنصارى، ومُحَاجَّتهم قولُهم: نبيُّنا قبل نبيِّكم، وكتابُنا قبل كتابكم؛ وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلةَ بأنهم أهلُ كتاب وأنهم أولادُ الأنبياء[(٢)]. وكان المشركون يقولون: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] فقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا ثَباتَ لها، كالشيء الذي يَزِلُّ عن موضعه.

والهاء في «لَهُ» يجوز أن يكون لِله عز وجل؛ أي: من بعد ما وحَّدوا الله وشَهِدُوا له بالوحدانية. ويجوز أن يكون للنبيِّ ﷺ؛ أي: من بعد ما استُجيب لمحمد[(٣)] ﷺ في دعوته على[(٤)] أهل بدر ونَصْر الله المؤمنين.

يقال: دَحَضت حُجَّته دُحوضًا بطلت. وأَدْحضها اللهُ. والإدحاض: الإزلاق. ومكان دَحْضٌ وَدَحَضٌ أيضًا ـ بالتحريك ـ أي: زَلِق. ودَحَضت رجلُه تَدْحَض دَحْضًا زَلِقت. ودَحَضت الشمس عن كبد السماء زالت[(٥)].

﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ يريد في الدنيا. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يريد في الآخرة عذاب دائم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني القرآنَ وسائرَ الكتب المُنزلة.

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٧٩.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠٠، وتفسير البغوي ٤/ ١٢٣.

(٣) في (م): محمد.

(٤) في النسخ: من، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٦ - ٧٧، والكلام فيه بنحوه.

(٥) الصحاح (دحض).

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصدق. ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي: العَدْل؛ قاله ابن عباس وأكثر المفسرين. والعدل يُسمَّى ميزانًا؛ لأن الميزانَ آلةُ الإنصاف والعدل[١]. وقيل: الميزان ما بُيِّن في الكُتب مما يجب على الإنسان أن يعملَ به.

وقال قتادة: الميزان العَدْل فيما أمر به ونهى عنه. وهذه الأقوالُ متقاربةُ المعنى. وقيل: هو الجزاءُ على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب. وقيل: إنه الميزانُ نفسُه الذي يُوزَن به؛ أنزله من السماء وعلَّم العبادَ الوزنَ به؛ لئلا يكون بينهم تَظالمٌ وتباخُس[٢]؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

قال مجاهد: هو الذي يُوزَن به. ومعنى إنزال[٣] الميزان هو إلهامُه للخلق أن يعملوه ويعملوا [به][٤]. وقيل: الميزان محمد ﷺ، يقضي بينكم بكتاب الله[٥].

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فلم يُخبره بها. يحضُّه على العمل بالكتاب والعَدْل والسَّويَّة، والعمل بالشرائع قبل أن يُفاجئ اليوم الذي يكون فيه المُحاسبة ووزن الأعمال، فَيُوفَّى لمن أوفى ويُطفَّف لمن طفَّف.

فـ «لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ» أي: منك وأنت لا تدري. وقال: «قَرِيبٌ» ولم يقل: قريبة؛ لأن تأنيثَها غيرُ حقيقي؛ لأنها كالوقت؛ قاله الزجاج[٦]. والمعنى: لعلَّ البعثَ، أو لعلَّ مجيء الساعة قريب. وقال الكسائي: «قَرِيبٌ» نعت يُنعت به المُذكَّر والمُؤنَّث والجمع بمعنًى ولفظٍ واحد؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٣، وزاد المسير ٧/ ٢٨٠.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠٠.

(٣) في (د) و(م): أنزل، والمثبت من (ظ).

(٤) زاد المسير ٧/ ٢٨٠، وما بين حاصرتين منه.

(٥) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٥/ ٤٦ عن علقمة.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٧، وينظر الكلام في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٧.

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] قال الشاعر:

وكنا قريباً والديار بعيدةٌ   فلما وصلنا نُصْب أعينهم غِبنا[١]

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ يعني على طريق الاستهزاء، ظنًّا منهم أنها غيرُ آتية، أو إيهاماً للضَّعَفة أنها لا تكون. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون وَجِلون لاستقصارهم أنفسَهم مع الجهد في الطاعة؛ كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ أي: التي لا شكَّ فيها. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: يشكُّون ويُخاصمون في قيام الساعة. ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: عن الحق وطريق الاعتبار؛ إذ لو تذكَّروا لعلموا أن الذي أنشأهم من تراب ثم من نطفة إلى أن بلغوا ما بلغوا قادرٌ على أن يَبعثهم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس: حَفِيٌّ بهم. وقال عكرمة: بارٌّ بهم. وقال السُّديّ: رفيقٌ بهم. وقال مقاتل: لطيفٌ بالبَرِّ والفاجر؛ حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم[٢]. وقال القُرَظِيّ: لطيفٌ بهم في العرض والمُحاسبة. قال:

غدًا عند مَوْلَى الخَلْق للخلق موقفٌ   يُسائلهم فيه الجليل ويَلْطُفُ[٣]

وقال جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين: يَلطُفُ بهم في الرزق من وجهين: أحدهما: أنه جعل رزقَك من الطَّيِّبات. والثاني: أنه لم يَدْفَعْه إليك مرةً واحدة

---

(١) ذكره القزويني في تاريخ قزوين ٣/ ٢٦٧ ونسبه لأبي طاهر عبد العزيز الاستراباذي.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٢٣.

(٣) لم نقف عليه.

فتبذِّرَه[١].

وقال الحسين بن الفضل: لطيفٌ بهم في القرآن وتفصيله وتفسيره.

وقال الجنيد: لطيف بأوليائه حتى عَرَفوه، ولو لَطَفَ بأعدائه لما جَحَدوه[٢]. وقال محمد بن عليّ الكتّاني[٣]: اللطيف بمن لجأ إليه من عباده إذا يئس من الخلق وتوكَّل عليه، ورَجَع إليه، فحينئذ يقبلُه ويُقبِلُ عليه. وجاء في حديث النبيّ ﷺ: «إنَّ الله تعالى يطَّلعُ على القبور الدوارس فيقول جلّ وعز: إمَّحتْ آثارُهم، واضمحلَّتْ صُوَرُهم، وبقي عليهم العذابُ، وأنا اللطيفُ وأنا أرحمُ الراحمين، خفِّفوا عنهم العذابَ، فَيُخفَّف عنهم العذاب»[٤]. قال أبو عليّ الثقفِيّ ﷺ:

أَمـرُّ بـأفـنـاءِ الـقـبـور كـأنـنـي أخـو فِـطْـنـة والـثـوبُ فـيـه نـحـيـفُ

ومَـنْ شَـقَّ فـاه الـلـهُ قـدَّر رِزْقَـه وربِّـي بـمـن يـلـجـأ إلـيـه لـطـيـفُ[٥]

وقيل: اللطيفُ الذي ينشر من عباده المناقبَ ويستر عليهم المثالب؛ وعلى هذا قال النبيُّ ﷺ: «يا مَنْ أظهرَ الجميلَ وسَتَرَ القبيح»[٦]. وقيل: هو الذي يقبل القليلَ ويبذل الجَزيل. وقيل: هو الذي يجبر الكَسير ويُيسِّر العسير. وقيل: هو الذي لا يُخاف إلا عَدْلُه ولا يُرجَى إلا فَضْلُه[٧]. وقيل: هو الذي يبذُل لعبده النعمة فوق الهمَّة، ويُكلِّفه الطاعة فوق الطاقة؛ قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ﴾ [لقمان: ٢٠]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٣ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٢ .

(٣) لعله أبو بكر محمد بن علي بن جعفر البغدادي، شيخ الصوفية. توفي سنة (٣٢٢هـ). السير ١٤/ ٥٣٣ .

(٤) لم نقف عليه.

(٥) لم نقف عليهما، وأبو علي الثقفي: هو محمد بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن، النيسابوري، الشافعي، من ولد الحجاج، المحدث، شيخ خراسان. توفي سنة (٣٢٨هـ). السير ١٥/ ٢٨٠ .

(٦) قطعة من حديث أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٥٤٥ .

(٧) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٢ .

﴿فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨]. وقيل: هو الذي يُعين على الخدمة ويُكثر المِدْحة. وقيل: هو الذي لا يُعاجل مَن عصاه، ولا يُخَيِّب مَن رجاه. وقيل: هو الذي لا يردُّ سائِلَه ولا يُؤيِّس آمِلَه. وقيل: هو الذي يعفو عمن يهفو. وقيل: هو الذي يرحم مَن لا يرحم نَفْسَه. وقيل: هو الذي أوقد في أسرار العارفين من المُشاهدة سِراجًا، وجعل الصراط المستقيمَ لهم مِنْهاجًا، وأجزل لهم من سحائب بِرِّه ماء ثَجَّاجًا. وقد مضى في «الأنعام» قولُ أبي العالية والجُنَيد أيضًا[١]. وقد ذكرنا جميع هذا في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» عند اسمه اللطيف[٢]، والحمد لله.

﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ ويَحْرِم من يشاء. وفي تفضيل قوم بالمال حِكمةٌ؛ لِيحتاج البعض إلى البعض؛ كما قال: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، فكان هذا لُطْفًا بالعباد. وأيضًا ليمتحن الغنيّ بالفقير والفقير بالغنيّ؛ كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠] على ما تقدَّم بيانه. ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ الحَرْثُ العمل والكسب. ومنه قول عبد الله بن عمرو[٣]: واحْرُثْ لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمَلْ لآخرتك كأنك تموتُ غدًا[٤]. ومنه سُمِّي الرجل حارثًا[٥]. والمعنى: أي: مَن طلبَ بما رزقناه حَرْثًا لآخرته، فأدَّى حقوقَ الله، وأنفق في إعزاز الدِّين؛ فإنما نُعطيه ثوابَ

---

(١) ٨/ ٤٨٥ - ٤٨٦.

(٢) وهو ليس في المطبوع منه.

(٣) في (د) و(ز) و(م): عمر، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمصادر.

(٤) سلف ٣/ ٣٨٦.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٠٥ - ٣٠٦.

ذلك للواحد عشراً إلى سبع مئة فأكثر.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: طَلَبَ بالمال الذي آتاه اللهُ رِياسةَ الدنيا والتوصُّلَ إلى المحظورات، فإنا لا نَحرِمه الرِّزق أصلاً، ولكن لا حظَّ له في الآخرة من ماله؛ قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٨-١٩].

وقيل: «نَزِدْ له في حَرْثِه» نوفِّقه للعبادة ونُسهِّلها عليه. وقيل: حرث الآخرة الطاعة؛ أي: مَن أطاع فله الثواب. وقيل: «نَزِد لَهُ في حَرْثِهِ» أي: نُعطه الدنيا مع الآخرة. وقيل: الآية في الغَزْو؛ أي: من أراد بِغَزْوِه الآخرةَ أُوتي الثواب، ومن أراد بغزوه الغنيمةَ أُوتي منها[(١)].

قال القُشيريّ: والظاهر أن الآيةَ في الكافر؛ يُوسَّع له في الدنيا؛ أي: لا ينبغي له أن يَغْترَّ بذلك؛ لأن الدنيا لا تبقى.

وقال قتادة: إن الله يُعطي على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا[(٢)]. وقال أيضاً: يقول الله تعالى: مَن عَمِلَ لآخرته زِدْناه في عمله، وأعطيناه من الدنيا ما كَتبنا له، ومن آثرَ دنياه على آخرته لم نَجْعَلْ له نصيبًا في الآخرة إلا النارَ، ولم يُصِبْ من الدنيا إلا رزقًا قد قسمناه له لا بُدَّ أن كان يُؤتاه مع إيثار أو غير إيثار. قلت: قول قتادة حسن[(٣)].

وروى جُوَيبِرُ عن الضحاك عن ابن عباس قال: وقوله عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: مَن كان من الأبرار يُريد بعمله الصالح ثوابَ الآخرة «نَزِدْ له في حَرْثِهِ» أي: في حسناته. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: من كان من الفُجّار يُريد

(١) مجمع البيان ٢٥/ ٤٧ بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠١.

(٣) قوله: قلت: قول قتادة حسن، من (ظ).

بعمله الحَسَن الدنيا «نُؤْتِه منها»، ثم نُسخ ذلك في «سبحان»: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾[1] [الآية:١٨]. والصواب أن هذا ليس بنسخ؛ لأن هذا خبر، والأشياء كلُّها بإرادة الله عز وجل. ألا ترى أنه قد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا يَقُلْ أحدُكم: اللهم اغفِرْ لي، إن شئتَ، اللهم ارحمني إنْ شئتَ»[2]. وقد قال قتادة ما تقدَّم ذِكْره، وهو يُبيِّن لك أن لا نسخ. وقد ذكرنا في «هود» أن هذا من باب المطلق والمقيَّد، وأن النسخَ لا يدخل في الأخبار[3]. والله المستعان.

مسألة: هذه الآيةُ تُبطِلُ مذهبَ أبي حنيفة في قوله: إنه من توضَّأ تَبرُّدًا أنه يَجزيه عن فريضة الوضوء الموظَّف عليه؛ فإن فريضةَ الوضوء من حرث الآخرة والتبرُّد من حرث الدنيا، فلا يدخل أحدُهما على الآخر، ولا تَجزي نِيَّته عنه بظاهر هذه الآية؛ قاله ابن العربي[4].

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ أي: ألهم؟ والميم صِلة، والهمزة للتقريع. وهذا مُتَّصلٌ بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾، وقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ كانوا لا يؤمنون به، فهل لهم آلهة شَرَعوا لهم الشِّرك الذي لم يأذن به الله؟ وإذا استحال هذا فالله لم يشرع الشِّرك، فمن أين يدينون به؟!

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم القيامة حيث قال: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر:٤٦]. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا، فعاجلَ الظالم بالعقوبة وأثابَ الطائع. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المشركين. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا: القتلُ والأسْر والقهر، وفي

---

(١) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ (٧٨١)، وما بعده منه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٣/ ١٨٤.

(٣) ١١/ ٨٥ - ٨٦.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٥.

الآخرة عذابُ الدنيا.

وقرأ ابن هُرْمُز: «وأنّ» بفتح الهمزة[١]، على العطف على «ولولا كلمةٌ»، والفَصْلُ بين المعطوف والمعطوف عليه بجواب «لولا» جائزٌ. ويجوز أن يكون موضع «أنّ» رفعاً على تقدير: وجب أنَّ الظالمين لهم عذابٌ أليم؛ فيكون منقطعاً مما قبلَه كقراءة الكسر؛ فاعْلَمه.

قوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ أي: خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ أي: من جزاء ما كسبوا. والظالمون هاهنا الكافرون؛ بدليل التقسيم بين المؤمن والكافر. ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: نازلٌ بهم. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ الروضة: الموضع النَّزِه الكثير الخُضرة. وقد مضى في «الروم»[٢]. ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: من النعيم والثواب الجزيل. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: لا يُوصَفُ ولا تهتدي العقولُ إلى كُنْهِ صِفته؛ لأن الحقَّ إذا قال: كبير، فمن ذا الذي يقدر قَدْره؟.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قُرئ: «يُبْشِر» مِن بَشَره[٣]،

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٣٤، والمحتسب ٢/ ٢٥٠.

(٢) ١٤/ ١١ - ١٢.

(٣) قرأ بها نافع وعاصم وابن عامر. السبعة ص ٢٠٥ - ٢٠٦، والتيسير ص ١٩٥.

وَ«يُبْشِر» من أبشره[١]، وَ«يَبْشُر» مِن بَشَره[٢]، وفيه حذف؛ أي: يُبَشِّر اللهُ به عبادَه المؤمنين لِيتعجَّلوا السرور ويزدادوا منه وَجْدًا في الطاعة.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: قُلْ يا محمد: لا أسألكم على تبليغ الرسالة جُعْلاً. ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قال الزجاج[٣]: «إِلَّا الْمَوَدَّةَ» استثناء ليس من الأول؛ أي: إلا أن تَوَدُّوني لقرابتي فتحفظوني. والخِطاب لقريش خاصَّةً؛ قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو مالك والشعبيّ وغيرهم[٤]. قال الشعبيّ: أَكْثَر الناسُ علينا في هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها؛ فكتب أن رسولَ الله ﷺ كان أوسطَ الناس في قريش، فليس بَطْنٌ من بطونهم إلا وقد وَلَده؛ فقال الله له: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلا أن تَوَدُّوني في قرابتي منكم؛ أي: تُراعوا ما بيني وبينكم فتصدِّقوني[٥]. فـ«الْقُرْبَى» هاهنا قرابة الرَّحِم؛ كأنه قال: اتَّبعوني للقرابة إن لم تتَّبعوني للنبوَّة.

قال عكرمة: وكانت قريش تَصِلُ أرحامَها، فلما بُعث النبيّ ﷺ قَطَعَتْهُ؛ فقال: صِلُوني كما كنتم تفعلون. فالمعنى على هذا: قُلْ: لا أسألكم عليه أجراً، لكن أُذكِّركم قرابتي؛ على أنه[٦] استثناءٌ ليس من الأوّل؛ ذكره النحاس[٧].

وفي البخاريّ[٨]: عن طاوس عن ابن عباس أنه سُئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ

---

(١) قرأ بها مجاهد وحُميد بن قيس. المحتسب ٢/ ٢٥١ .

(٢) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي. السبعة ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ، والتيسير ص ١٩٥ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٨ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٠٨ ، وأخرج أقوالهم الطبري ٢٠/ ٤٩٥ - ٤٩٦ .

(٥) أخرجه سعيد بن منصور كما في فتح الباري ٨/ ٥٦٥ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٠/ ٤٩٥ .

(٦) قوله: أنه، ليس في (م).

(٧) في معاني القرآن ٦/ ٣٠٨ .

(٨) الحديث (٤٨١٨).

﴿فِي ٱلْقُرْبَىٰٓ﴾ فقال سعيد بن جُبير: قُربى آل محمد؛ فقال ابن عباس: عَجِلت، إن النبيَّ ﷺ لم يكن بطنٌ من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تَصِلوا ما بيني وبينكم[١] من القرابة. فهذا قول.

وقيل: القُربى قرابةُ الرسول ﷺ، أي: لا أسألُكم أجرًا إلا أن تودُّوا قرابتي وأهل بيتي، كما أمر بإعظامهم ذوي القُربى. وهذا قولُ علي بن حسين وعمرو بن شُعيب والسُّدّي[٢]. وفي رواية سعيد بن جُبير عن ابن عباس: لما أنزل اللهُ عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰٓ﴾ قالوا: يا رسولَ الله، من هؤلاء الذين نَوَدُّهم؟ قال: «عليٌّ وفاطمةُ وأبناؤهما»[٣]. ويدلُّ عليه أيضًا ما رُوي عن عليٍّ ﷺ قال: شكوتُ إلى النبيِّ ﷺ حَسَدَ الناس لي. فقال: «أما ترضى أن تكونَ رابعَ أربعة أوّل من يدخلُ الجنةَ: أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجُنا عن أيماننا وشمائلنا وذُرِّيتنا خلفَ أزواجنا»[٤]. وعن النبي ﷺ: «حُرِّمتِ الجنةُ على من ظلَمَ أهلَ بيتي وآذاني في عِتْرتي، ومن اصطنع صنيعةً إلى أحدٍ من ولد عبد المطلب ولم يُجازه عليها، فأنا أُجازيه عليها غدًا إذا لَقِيني يومَ القيامة»[٥].

وقال الحسن وقتادة: المعنى: إلا أن يتودَّدوا إلى الله عز وجل ويتقرَّبوا إليه بطاعته[٦]. فـ «الْقُرْبَى» على هذا بمعنى القربة. يقال: قُرْبَة وقُرْبى بمعنًى؛ كالزُّلفة والزُّلْفى.

---

(١) في (د) و(ز) و(ف) و(م): إلا أن تصلوا ما بينكم، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لصحيح البخاري.

(٢) أخرجه عنهم الطبري ٢٠/ ٤٩٩ - ٥٠٠ .

(٣) أخرجه الطبراني (١٢٢٥٩)، وفي إسناده حسين الأشقر، قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٥ : ضعيف ساقط، وقد عارضه ما هو أولى منه.. وذكر حديث طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما الذي أخرجه البخاري، وقد ذكره المصنف قريباً.

(٤) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٦٧ ، قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٥ : سنده واهٍ.

(٥) نسبه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٥ إلى الثعلبي من حديث علي ﷺ، ثم قال: فيه عبد الله بن أحمد بن عامر الطائي، عن أبيه، وهو كذاب.

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٠٠ - ٥٠١ .

وروى قَزَعةُ بن سُويد عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ «قل: لا أسألُكم على ما آتيتكم به أجرًا إلا أن تَوادُّوا وتقرَّبوا إليه بالطاعة»[١]. وروى منصور وعوف عن الحسن ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قال: يتودَّدون إلى الله عز وجل ويتقرَّبون منه بطاعته[٢].

وقال قوم: الآيةُ منسوخةٌ وإنما نزلت بمكة؛ وكان المشركون يُؤذون رسولَ الله ﷺ فنزلت هذه الآية، وأمرهم الله بمودَّة نبيِّه ﷺ وصِلة رَحِمِه، فلما هاجر آوته الأنصارُ ونصروه، وأراد الله أن يُلحقه بإخوانه من الأنبياء حيث قالوا: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧] فنسخت بهذه الآية وبقوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، وقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ [المؤمنون: ٧٢]، وقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠]؛ قاله الضحاك والحسين بن الفضل[٣]. ورواه جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس. قال الثَّعْلبيّ: وليس بالقويّ، وكفى قُبْحًا بقول من يقول: إن التقرّبَ إلى الله بطاعته ومودَّة نبيه ﷺ وأهلِ بيته منسوخٌ؛ وقد قال النبيّ ﷺ: «مَن ماتَ على حُبِّ آل محمد ماتَ شهيداً. ومَن مات على حُبِّ آل محمد جعل الله زُوَّار قبره ملائكةَ الرحمة[٤]، ومن مات على حُبِّ آل محمد مات على السُّنة والجماعة[٥]. ومَن مات على بُغْض آل

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤١٥)، والطبري ٢٠/ ٥٠٠ ، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٧٨٨)، وقَزَعَةُ بن سُويد ضعيف، كما في تهذيب التهذيب ٣/ ٤٣٩ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٠٠ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢٥ . وقال: وهذا قول غير مرضي؛ لأن مودة النبي ﷺ وكفَّ الأذى عنه ومودّة أقاربه، والتقرب إلى الله بالطاعة والعمل الصالح من فرائض الدين.

(٤) في (د) و(ز) و(ف) و(م): الملائكة والرحمة، وفي (ظ): الملائكة، والمثبت من الكشاف ٣/ ٤٦٧ ـ والكلام منه كما سيذكر المصنف ـ وسيأتي الحديث مطولاً عند المصنف بهذا اللفظ.

(٥) قوله: ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، زيادة من (ظ)، وهي قطعة من الحديث. وسيذكره المصنف بتمامه.

محمد جاء يومَ القيامة مكتوباً بين عينيه: آيسٌ اليومَ من رحمة الله. ومَن ماتَ على بُغض آل محمد لم يَرَحْ رائحة الجنة. ومَن مات على بُغض آل بيتي فلا نصيبَ له في شفاعتي»[١].

قلت: وذكر هذا الخبر الزمخشريُّ في «تفسيره» بأطولَ مِن هذا فقال: وقال رسولُ الله ﷺ: «مَن ماتَ على حُبِّ آلِ محمد ماتَ شهيداً، ألاَ ومن مات على حُبِّ آل محمد مات مؤمناً مُستكمِلَ الإيمان، ألَا ومن ماتَ على حُبِّ آل محمد بَشَّره ملكُ الموت بالجنة ثم مُنْكر ونكير، ألا ومَن مَات على حُبِّ آل محمد يُزَفُّ إلى الجنة كما تُزَفُّ العروس إلى بيت زوجها، ألا ومَن مات على حُبِّ آلِ محمد فُتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومَن ماتَ على حُبِّ آل محمد جَعَلَ اللهُ قبرَه مزارَ ملائكةِ الرحمة، ألا ومَن ماتَ على حُبِّ آل محمد مات على السُّنة والجماعة، ألا ومَن ماتَ على بُغض آل محمد جاء يومَ القيامة مكتوباً بين عينيه: آيسٌ من رحمة الله، ألَا ومَن ماتَ على بُغض آلِ محمد مات كافراً، ألَا ومَن مَات على بُغض آل محمد لم يَشَمَّ رائحةَ الجنة»[٢].

قال النحاس: ومذهبُ عِكرمة ليست بمنسوخة؛ قال: كانوا يَصِلون أرحامَهم، فلما بُعِثَ النبيُّ ﷺ قطعوه فقال: قل: لا أسألُكم عليه أجراً إلا أن تَوَدُّوني وتحفظوني لِقرابتي، ولا تُكذِّبوني[٣].

قلت: وهذا هو معنى قول ابن عباس في البخاريِّ والشعبيّ عنه بعينه؛ وعليه لا نسخ.

قال النحاس[٤]: وقول الحسن حسن، ويدلُّ على صحته الحديثُ المُسنَدُ عن

---

(١) ينظر التعليق التالي.

(٢) الكشاف ٣/٤٦٧ ، ونسبه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٥ إلى الثعلبي وقال: آثار الوضع عليه واضحة.

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٦١٩ ، وسلف قول عكرمة أول هذه المسألة.

(٤) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٠ .

رسول الله ﷺ كما حدَّثنا أحمدُ بن محمد الأزدي قال: أخبرنا الربيعُ بن سليمان المُرادي قال: أخبرنا أسدُ بن موسى قال: حدثنا قَزَعةُ ـ وهو ابن سُويد[1] البصري ـ قال: حدثنا عبد الله بن أبي نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس أن رسولَ الله ﷺ قال: «لا أسألُكم على ما أُنبئكم به من البيِّنات والهُدَى أجرًا إلا أن توادُّوا الله عزّ وجلّ وأن تتقرَّبوا إليه بطاعته». فهذا المُبيِّن عن الله عز وجل قد قال هذا، وكذا قالت الأنبياء صلى الله عليهم قبلَه: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٧٢].

الثانية: واختلفوا في سبب نزولها؛ فقال ابن عباس: لما قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ كانت تنوبه نوائبُ وحقوق لا يسعها ما في يديه؛ فقالت الأنصار: إنَّ هذا الرجل هداكم اللهُ به، وهو ابن أُختكم[2]، وتنوبه نوائبُ وحقوقٌ لا يسعها ما في يديه، فنجمع له؛ ففعلوا، ثم أتَوْه به فنزلت[3].

وقال الحسن: نزلت حين تفاخرت الأنصارُ والمهاجرون، فقالت الأنصار: نحن فعلنا، وفَخَرت المهاجرون بقرابتهم من رسول الله ﷺ. روى مِقْسَم عن ابن عباس قال: سمع رسولُ الله ﷺ شيئًا، فخطب فقال للأنصار: «ألم تكونوا أَذِلَّاءَ فَأعزَّكم الله بي. ألم تكونوا ضُلَّالاً فهداكم الله بي. ألم تكونوا خائفين فأمَّنكم الله بي، ألا تردُّون عليَّ»؟ فقالوا: بِمَ نُجيبكَ؟ قال: «تقولون: ألم يَطْرُدْكَ قومُك فآويناك. ألم يُكَذِّبك قومُك فصدَّقناك» فعدَّد عليهم. قال: فَجَثَوْا على رُكَبهم فقالوا: أَنْفُسنا وأموالنا لك؛ فنزلت: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[4].

---

(١) في النسخ: يزيد، وهو خطأ، والمثبت من المصادر، وسلف الحديث قريباً، وذكرنا أنه ضعيف.

(٢) في (د) و(ز) و(ف) و(م): أخيكم، والمثبت من (ظ).

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٣٩٣.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في الأوسط (٣٨٧٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٢ : رواه الطبراني عن شيخه علي بن سعيد، وفيه لين. قلنا: وفيه يزيد بن أبي زياد، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ٢٠١ : هو ضعيف. والحديث أخرجه - دون ذكر نزول الآية - أحمد (١٢٠٢١) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد ﷺ بنحوه. قال =

وقال قتادة: قال المشركون: لعلّ محمدًا فيما يتعاطاه يطلب أجرًا؛ فنزلت هذه الآية، لِيحُثَّهم على مودَّته ومودَّة أقربائه[١]. قال الثعلبي: وهذا أشبهُ بالآية، لأن السورةَ مكيةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ أي: يكتسب. وأصلُ القَرْف الكسب، يقال: فلان يَقْرِف لِعياله، أي: يَكسِبُ. والاقتراف الاكتساب[٢]، وهو مأخوذٌ من قولهم: رجلٌ قُرَفَة، إذا كان مُحتالاً[٣]. وقد مضى في «الأنعام» القول فيه[٤].

وقال ابن عباس: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ قال: المودّة لِآل محمد ﷺ[٥]. ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: نُضاعف له الحسنة بعشرٍ فصاعدًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ قال قتادة: «غَفُورٌ» للذنوب، «شَكُورٌ» للحسنات. وقال السّدي: «غَفُورٌ» لذنوب آل محمد عليه الصلاة والسلام، «شَكُورٌ» لحسناتهم[٦].

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الميم صلة، والتقدير: أيقولون: افترى. واتَّصل الكلام بما قبلُ؛ لأن الله تعالى لما قال: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: ١٥]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الشورى: ١٧] قال إتماماً للبيان: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يعني: كفار قريش قالوا: إنّ محمدًا

= الحافظ ابن كثير: وذِكْرُ نزولها في المدينة فيه نَظَرٌ، لأن السورة مكية، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياق مناسبة.

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٣٩٥ بنحوه.

(٢) الصحاح (قرف).

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣١٠ .

(٤) ٨/ ٥٠٥ .

(٥) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٥/ ٥١ عن السدي.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٠٢ .

اختلق الكذب على الله.

﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ﴾ شرطٌ وجوابُه. ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ قال قتادة: يطبع على قلبك فينسيك القرآن؛ فأخبرهم اللهُ أنه لو افترى عليه لَفعل بمحمد ما أخبرهم به في هذه الآية. وقال مجاهد ومقاتل: «إنْ يشأ اللهُ» يربِطْ على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبَك مشقَّةٌ من قولهم. وقيل: المعنى: إنْ يشأ يُزِلْ تمييزك. وقيل: المعنى: لو حدَّثت نَفْسَك أن تفتريَ على الله كذبًا لَطبع على قلبك؛ قاله ابن عيسى[(١)].

وقيل: فإن يشأ الله يَخْتِمْ على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم، ويعاجلهم[(٢)] بالعقاب. فالخِطاب له والمرادُ الكفار؛ ذكره القشيري.

ثم ابتدأ فقال: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ قال ابن الأنباري[(٣)]: «يَخْتِمْ على قَلْبِكَ» تامٌّ.

وقال الكسائي: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ مجازه: واللهُ يمحو الباطل؛ فحذف منه الواو في المصحف، وهو في موضع رفع. كما حُذِفت من قوله: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾[(٤)] [الإسراء: ١١] ولأنه عطفٌ[(٥)] على قوله: ﴿يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾.

وقال الزجاج: قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ﴾ تمام؛ وقوله: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ احتجاجٌ على مَن أنكر ما أتى به النبيّ ﷺ؛ أي: لو كان ما أتى به باطلًا لَمحاه كما جرت به عادته في المُفترين[(٦)].

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٢٠٢ - ٢٠٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٢٦ .

(٢) في النسخ: وعاجلهم، والمثبت من فتح القدير ٤/ ٥٣٥ ، وروح المعاني ٢٥/ ٣٥ ، والقول فيهما.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٨١ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٢٦ .

(٥) كذا في النسخ، والمفسرون على أنه مرفوع ـ كما ذكر المصنف آنفاً ـ وليس معطوفاً على «يختم». ينظر الكشاف ٣/ ٤٦٨ ، ومجمع البيان ٢٥/ ٤٨ ، وروح المعاني ٢٥/ ٣٤ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨١ .

﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: الإسلام فَيُبيِّنه[1] ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ أي: بما أنزله من القرآن. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عامٌّ، أي: بما في قلوب العباد. وقيل: خاصٌّ. والمعنى: إنك لو حدَّثت نفسَك أن تفتريَ على الله كذباً لَعلمه وطَبَعَ على قلبك.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] قال قومٌ في نفوسهم: ما يريد إلا أن يَحُثَّنا على أقاربه من بعده؛ فأخبر جبريلُ النبيَّ ﷺ، وأنهم قد اتَّهموه، فأنزل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الآية؛ فقال القوم: يا رسولَ الله، فإنا نشهدُ أنك صادقٌ ونتوب. فنزلت: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾. قال ابن عباس: أي: عن أوليائه وأهل طاعته[2].

والآية عامة. وقد مضى الكلامُ في معنى التّوبة وأحكامِها[3]؛ ومضى هذا اللفظ في «براءة»[4].

﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: عن الشِّرك قبلَ الإسلام. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: من الخير والشرّ.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف بالتاء على الخطاب[5]، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه[6]. الباقون بالياء على الخبر، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنه بين

---

(١) في (م): فيثبته.

(٢) ذكر قولي ابن عباس رضي الله عنهما البغوي في تفسيره ٤/ ١٢٦ .

(٣) ٦/ ١٤٩ وما بعدها.

(٤) ١٠/ ٣٦٦ .

(٥) السبعة ص ٥٨١ ، والتيسير ص ١٩٥ ، والنشر ٢/ ٣٦٧ .

(٦) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٥ .

خبرين: الأول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ والثاني: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

«الَّذِينَ» في موضع نصب؛ أي: ويستجيبُ اللهُ الذين آمنوا[١]، أي: يقبل عبادةَ من أخلص له بقلبه وأطاع ببدنه. وقيل: يُعطيهم مسألتَهم إذا دَعَوْه. وقيل: ويُجيب دعاء المؤمنين بعضهم لبعض؛ يقال: أجاب واستجاب بمعنًى، وقد مضى في «البقرة»[٢].

وقال ابن عباس: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يُشَفِّعهم في إخوانهم. ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ قال: يُشفِّعهم في إخوان إخوانهم[٣].

وقال المُبرِّد: معنى ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾: وَلِيستدع[٤] الذين آمنوا الإجابة؛ هكذا حقيقةُ معنى استفعل. فـ«الَّذِينَ» في موضع رفع[٥]. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: في نزولها؛ قيل: إنها نزلت في قوم من أهل الصُّفَّة تمنَّوْا سَعةَ الرزق. وقال خَبَّاب بن الأرَتّ: فينا نزلت؛ نظرنا إلى أموال بني النَّضير وقُريظة وبني قَيْنُقَاع فتمنَّيناها فنزلت[٦].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨٢ .

(٢) ٣/ ١٧٧ وما بعدها.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢٧ .

(٤) في (ظ): ويستدع.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣١٣ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦ .

﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾ معناه: وَسَّع. وبسط الشيء نشره. وبالصاد أيضًا. ﴿لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ طغَوْا وعصَوْا. وقال ابن عباس: بَغْيهم طَلَبهم منزلةً بعد منزلة، ودابَّةً بعد دابَّة، ومركباً بعد مركب، ومَلْبساً بعد مَلْبس[1].

وقيل: أراد: لو أعطاهم الكثيرَ لَطلبوا ما هو أكثرُ منه، لقوله: «لو كان لابن آدمَ واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثًا»[2] وهذا هو البَغْيُ، وهو معنى قول ابن عباس. وقيل: لو جعلناهم سواءً في المال لما انقاد بعضُهم لبعض، ولتعطَّلت الصنائع. وقيل: أراد بالرزق المطر الذي هو سببُ الرزق؛ أي: لو أدام المطرَ لَتشاغلوا به عن الدعاء، فيقبِض تارةً لِيتضرَّعوا وَيَبْسُط أُخرى لِيشكروا. وقيل: كانوا إذا أخصبوا أغار بعضُهم على بعض؛ فلا يبعد حملُ البغي على هذا.

الزّمخشرِيّ[3]: «لَبَغَوْا» من البغي وهو الظُّلم؛ أي: لَبغى هذا على ذاك وذاك على هذا؛ لأن الغِنَى مَبْطَرة مَأْشرة، وكفى بقارون عبرة. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «أَخْوَفُ ما أخاف على أمتي زَهْرةُ الدنيا وكَثْرتُها»[4]. ولبعض العرب:

وقد جعل الوسْمِيُّ يُنبت بيننا وبين بني رُومان نَبْعًا وشَوْحَطا[5]

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٧ .

(٢) أخرجه أحمد (٢١١١١) من حديث أُبَيّ ﷺ بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري (٦٤٣٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم (١٠٤٨) من حديث أنس ﷺ وفيهما: «من مال» بدل: «من ذهب»، وفي الباب عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، تنظر في مسند أحمد.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٦٩ .

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ بنحوه، وسلف ٢٠٨/١٣ .

(٥) أورده أبو العلاء في رسالة الصاهل والشاحج ص ٥٤٠ ، وابن قتيبة في المعاني الكبير ٢/ ٨٩٥ ، وابن منظور في اللسان (شحط). وفيه وفي (م): دودان، بدل: رومان.

وبنو رومان: رَهْط من طيِّئ، كما في الاشتقاق ص ٣٨٠ ، والوسميّ: مطر الربيع الأول. القاموس (وسم)، والنَّبع والشَّوْحط ضربان من الشجر، وهي هاهنا القِسيّ. قاله ابن قتيبة.

يعني: أنهم أُحْيُوا فحدَّثوا أنفسهم بالبغي والتفاتن[١]. أو من البَغْي، وهو البَذَخُ والكِبْر؛ أي: لَتَكَبَّروا في الأرض وفعلوا ما يتبع الكِبْرَ من العُلوِّ فيها والفساد.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ أي: يُنزِّل أرزاقَهم بقدر ما يشاء لِكفايتهم. وقال مقاتل: «يُنَزِّلُ بِقَدَر ما يشاءُ» يجعل من يشاء غَنيًّا ومن يشاء فقيرًا.

الثانية: قال علماؤنا: أفعالُ الربِّ سبحانه لا تخلو عن مصالح وإن لم يَجِبْ على الله الاستصلاح؛ فقد يعلم من حال عبدٍ أنه لو بَسَطَ عليه قادَه ذلك إلى الفساد فَيَزْوِي عنه الدنيا؛ مصلحةً له. فليس ضيقُ الرزق هوانًا ولا سعةُ الرزق فضيلةً؛ وقد أعطى أقواماً مع علمه بأنهم يستعملونه في الفساد، ولو فعل بهم خلافَ ما فعل لكانوا أقربَ إلى الصلاح. والأمرُ على الجُملة مفوَّضٌ إلى مشيئته، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح في كل فعل من أفعال الله تعالى. وروى أنسٌ عن النبيّ ﷺ فيما يرويه عن ربِّه تبارك وتعالى قال: «مَنْ أهان لي وليًّا فقد بارزني بالمُحاربة، وإني لأسرعُ شيء إلى نُصْرة أوليائي، وإني لأغضبُ لهم كما يغضب الليث الحَرِد، وما تردَّدت في شيء أنا فاعلُه تردُّدي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموتَ وأنا أكره إساءتَه ولا بدَّ له منه. وما تقرَّب إليَّ عبدي المؤمنُ بمثل أداءِ ما افترضتُ عليه. وما يزال عبدي المؤمن يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا ومُؤَيِّدًا، فإن سألني أعطيته وإن دعاني أجبتُه. وإنَّ من عبادي المؤمنين من يسألني الباب من العبادة وإني عليمٌ أنْ لو أعطيتُه إيَّاه لَدخله العُجْب فأفسده. وإن من عبادي المؤمنين من لا يُصلحه إلا الغِنى، ولو أفقرتُه لأفسده الفَقْر. وإنَّ من عبادي المؤمنين من لا يُصلحه إلا الفقر، ولو أغنيتُه لأفسده الغِنى. وإني لَأُدَبِّر عبادي لِعلمي بقلوبهم، فإني عليمٌ خبير». ثم قال أنس: اللهم إني من عبادك المؤمنين الذين لا يُصلحهم إلا الغِنى، فلا تُفقرني برحمتك[٢].

---

(١) في (د) و(م) و(ي): التغابن، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للكشاف.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ البغوي في تفسيره ٤/ ١٢٧ . دون قول أنس ﷺ وضعَّفه الحافظ ابن حجر في الفتح =

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

قرأ ابن كثير وابن مُحيْصن وحُميد ومجاهد وأبو عمرو ويعقوب وابن وَثّاب والأعمش وغيرهما والكسائي: «يُنزِل» مُخفَّفًا. الباقون بالتشديد(١). وقرأ ابن وَثّاب أيضًا والأعمش وغيرهما: «قنِطوا» بكسر النون(٢)؛ وقد تقدَّم جميعُ هذا(٣). والغيث المطر؛ وسُمِّي الغيثُ غيثاً لأنه يَغيثُ الخلق. وقد غاث الغيثُ الأرضَ، أي: أصابها. وغاث اللهُ البلاد يَغيثها غَيْثًا. وغِيثت الأرضُ تُغاث غَيْثًا، فهي أرضٌ مَغيثة ومَغْيُوثة. وعن الأصمعيّ قال: مررتُ ببعض قبائل العرب وقد مُطِروا، فسألتُ عجوزاً منهم: أتاكم المطر؟ فقالت: غِثنا ما شئنا غَيْثًا؛ أي: مُطِرنا. وقال ذو الرُّمة: قاتل اللهُ أَمَةَ بني فلان ما أفصحَها! قلتُ لها: كيف كان المطرُ عندكم؟ فقالت: غِثْنا ما شئنا. ذكر الأوّل الثعلبي والثاني الجوهري(٤). وربما سُمِّي السحاب والنبات غَيْثًا.

والقنوط الإِياس؛ قاله قتادة(٥). ذُكِر أنّ رجلًا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قَحط المطرُ، وَقَلَّ الغيثُ، وقَنَطَ الناس؟ فقال: مُطِرتُم إنْ شاء الله؛ ثم قرأ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾(٦). والغيث ما كان نافعاً في وقته، والمطر قد يكون نافعاً وضارًّا في وقته وغير وقته؛ قاله الماوردِيّ.

﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ قيل: المطر؛ وهو قول السُّدي. وقيل: ظهور الشمس بعد

= ١١/ ٣٤٣ ، وأخرج بعض ألفاظه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٧/ ٤١١ ، وقول أنس ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦ .

(١) قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي ويعقوب - وقرأ بها حمزة - في السبعة ص ١٦٥ ، والتيسير ص٧٥ ، والنشر ٢/ ٢١٨ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦ .

(٣) ٢/ ٢٥١ و١٢/ ٢٢٣ .

(٤) في الصحاح (غيث).

(٥) بعدها في (م) و(ي): وغيره، قال قتادة. والمثبت موافق للنكت والعيون (والكلام منه) ٥/ ٢٠٣ .

(٦) وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦ ، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٦٩ .

المطر؛ ذكره المَهدَوِي. وقال مقاتل: نزلت في حبس المطر عن أهل مكةَ سبعَ سنين حتى قَنَطوا، ثم أنزل الله المطر[١]. وقيل: نزلت في الأعرابي الذي سأل رسولَ الله ﷺ عن المطر يومَ الجمعة في خبر الاستسقاء[٢]؛ ذكره القشيري، والله أعلم. ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ «الوَلِيُّ» الذي ينصر أولياءه. «الحَمِيدُ» المحمود بكل لسان.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۢ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: علاماته الدَّالة على قُدرته. ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۢ﴾ قال مجاهد: يدخل في هذا الملائكةُ والناس[٣]، وقد قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨]. وقال الفرَّاء: أراد: ما بثَّ في الأرض دون السماء؛ كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢] وإنما يخرج من الملح دون العَذْب[٤]. وقال أبو عليّ: تقديره: وما بثَّ في أحدهما؛ فحذف المضاف. وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ أي: من أحدهما. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍۢ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍۢ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّۢ وَلَا نَصِيرٍۢ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍۢ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قرأ نافع وابن عامر:

---

(١) تفسير البغوي ٤/١٢٨ .

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٩٣)، والبخاري (١٠٣٣)، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس ﷺ وأوله: بينا رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يوم الجمعة قام أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله، هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا أن يسقينا...

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/٥١٢ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/٢٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/٨٢ .

«بِمَا كَسَبَتْ» بغير فاء. الباقون «فَبِمَا» بالفاء[١]، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم للزيادة في الحرف والأجر.

قال المهدَوِيّ: إنْ قدَّرت أن «ما» الموصولة جاز حذفُ الفاء وإثباتُها، والإثباتُ أحسنُ. وإن قدَّرتها التي للشرط لم يَجُزِ الحذفُ عند سيبويه، وأجازه الأخفش واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[٢] [الأنعام: ١٢١].

والمصيبة هنا الحدود على المعاصي؛ قاله الحسن[٣]. وقال الضحاك: ما تعلَّم رجلٌ القرآنَ ثم نَسِيه إلا بذنب؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ثم قال: وأيّ مُصيبة أعظمُ من نسيان القرآن؛ ذكره ابن المبارك[٤] عن عبد العزيز بن أبي روَّاد. قال أبو عبيد[٥]: إنما هذا على الترك، فأما الذي هو دائبٌ في تلاوته، حريصٌ على حِفْظه إلا أن النِّسيان يغلِبه فليس من ذلك في شيء. ومما يُحقِّق ذلك أن النبيّ ﷺ كان ينسى الشيء من القرآن حتى يذكره؛ من ذلك حديث عائشة أنَّ[٦] النبي ﷺ سمع قراءةَ رجل في المسجد فقال: «ماله ـ رَحِمه الله ـ لقد أَذْكرني آياتٍ كنت أُنسيتها من سورة كذا وكذا»[٧].

وقيل: «ما» بمعنى الذي، والمعنى: الذي أصابكم فيما مضى بما كسبت أيديكم[٨]. وقال عليّ ﷺ: هذه الآيةُ أرجى آية في كتاب الله عز وجل. وإذا كان يُكفِّر عني بالمصائب، ويعفو عن كثير فيما يبقى بعدَ كفارته وعفوِه؟! وقد رُوي هذا المعنى

(١) السبعة ص ٥٨١، والتيسير ص ١٩٥.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧ بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥١٤.

(٤) في الزهد (٨٥).

(٥) في غريب الحديث ٣/ ١٤٩ - ١٥٠.

(٦) في (د) و(م): عن.

(٧) أخرجه أحمد (٢٤٣٣٥)، والبخاري (٥٠٣٨) ومسلم (٧٨٨). والرجل الذي سمع النبي ﷺ صوته هو عبّاد بن بشر ﷺ. كما في صحيح البخاري (٢٦٥٥) وفتح الباري ٥/ ٢٦٥.

(٨) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٨٣ واستبعده.

مرفوعًا عنه ﷺ، قال عليّ بن أبي طالب ﷺ: ألَا أُخبركم بأفضلِ آية في كتاب الله حدّثنا بها النبيُّ ﷺ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ الآية: «يا عليّ، ما أصابَكم من مرضٍ أو عقوبةٍ أو بلاءٍ في الدنيا فبما كسبت أيديكم. واللهُ أكرمُ من أن يُثنّيَ عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا عنه في الدنيا فالله أحلمُ من أن يُعاقب به بعد عَفْوه»[(١)]. وقال الحسن: لما نزلت هذه الآيةُ قال النبيّ ﷺ: «ما مِن اختلاج عِرْق ولا خَدْشِ عُود ولا نَكْبةِ حَجَر إلّا بذنب، ولما يعفو اللهُ عنه أكثر»[(٢)].

وقال الحسن: دخلنا على عمران بن حُصين فقال رجل: لا بدَّ أن أسألك عما أرى بك من الوَجَع؛ فقال عمران: يا أخي لا تفعل، فوالله، إني لأُحِبُّ الوَجَع، ومَنْ أحبَّه كان أحبَّ الناس إلى الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ فهذا مما كسبت يدي، وعَفْوُ ربي عما بقي أكثرُ. وقال مُرَّة الهَمْداني: رأيتُ على ظهر كفِّ شُريح قرحةً فقلت: يا أبا أُميَّة، ما هذا؟ قال: هذا بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير[(٣)].

وقال ابن عَون: إن محمد بن سِيرين لما رَكِبه الدَّين اغتمَّ لذلك فقال: إني لأعرفُ هذا الغمَّ، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة[(٤)]. وقال أحمد بن أبي الحَوَارِي: قيل لأبي سليمان الدّاراني: ما بال العقلاء أزالوا اللَّوْمَ عمن أساء إليهم؟ فقال: لأنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[(٥)]. وقال عِكرمة: ما من نكبةٍ أصابت عبدًا فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله لِيغفره له إلا بها أو لِينال درجةً لم يكن

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٦٤٩)، والبغوي في تفسيره ١٢٨/٤ . وفي إسناده الأزهر بن راشد الكاهلي، وهو ضعيف، والخضر بن القواس وأبو سُخيلة، وهما مجهولان، فيما قاله الحافظ ابن حجر في التقريب. وقد أخرجه بنحوه ودون ذكر الآية أحمد (٧٧٥). والترمذي (٢٦٢٦) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/ ٩ ، وهو هكذا مرسل.

(٣) ذكر هذا الخبر والذي قبله ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧ .

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٧١ .

(٥) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٨٨ .

يُوصله إليها إلا بها[١].

ورُوي أن رجلاً قال لموسى: يا موسى، سَلِ اللهَ لي في حاجة يقضيها لي هو أعلمُ بها؛ ففعل موسى؛ فلما نزل إذا هو بالرجل قد مزَّق السَّبع لحمه وقَتَله؛ فقال موسى: ما بال هذا يا رب؟ فقال اللهُ تبارك وتعالى له: يا موسى، إنه سألني درجةً عَلِمتُ أنه لم يبلُغْها بعمله فأصبتُه بما ترى لأجعلها وسيلةً له في نَيْل تلك الدرجة. فكان أبو سليمان الدَّارَاني إذا ذكر هذا الحديث يقول: سبحان من كان قادراً على أن يُنيلَه تلك الدرجة بلا بلوى! ولكنه يفعل ما يشاء[٢].

قلت: ونظيرُ هذه الآية في المعنى قولُه تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] وقد مضَى القولُ فيه.

قال علماؤنا: وهذا في حقِّ المؤمنين، فأما الكافر فعقوبته مؤخَّرةٌ إلى الآخرة. وقيل: هذا خطابٌ للكفار، وكان إذا أصابهم شرٌّ قالوا: هذا بشؤم محمد؛ فردَّ عليهم وقال: بل ذلك بشؤم كُفركم. والأوّل أكثرُ وأظهرُ وأشهر.

وقال ثابت البُنانِيّ: إنه كان يقال: ساعات الأذى يُذهبن ساعاتِ الخطايا. ثم فيها قولان: أحدهما: أنها خاصة في البالغين أن تكون عقوبةً لهم، وفي الأطفال أن تكون مَثُوبة لهم. الثاني: أنها عقوبةٌ عامة للبالغين في أنفسهم والأطفال في غيرهم من والد ووالدة.

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: عن كثير من المعاصي ألا يكون عليها حدود؛ وهو مقتضى قول الحسن. وقيل: أي: يعفو عن كثير من العُصاة ألّا يعجل عليهم بالعقوبة[٣]. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بفائتين الله؛ أي: لن تُعجزوه ولن تفوتوه ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ تقدَّم في غير موضع[٤].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٨.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩٨٥٣) بنحوه دون قول أبي سليمان.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٠٤.

(٤) ٢/ ٣١١.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٣٢ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي: ومن علاماته الدالَّة على قُدرته السفنُ الجارية في البحر كأنها من عِظَمها أعلامٌ. والأعلام: الجبال، وواحد الجواري جارية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١]. سُمِّيت جارية لأنها تجري في الماء. والجارية: هي المرأة الشابَّة؛ سُمِّيت بذلك لأنها يجري فيها ماء الشباب. وقال مجاهد: الأعلام القصور، واحدها علم؛ ذكره الثعلبي[١]. وذكر الماوَرْدي[٢] عنه أنها الجبال. وقال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم[٣]. قالت الخنساء ترثي أخاها صخراً:

وإنّ صخراً لتأتَمُّ الهُداة به كأنه علَمٌ في رأسهِ نار[٤]

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ كذا قراءة العامة، وقراءة أهل المدينة: «الرِّيَاح» بالجمع[٥]. ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي: فتبقى السفنُ سواكنَ على ظهر البحر لا تجري. رَكَد الماء ركودًا سكن. وكذلك الريح والسفينة، والشمس إذا قام قائم الظَّهيرة. وكلّ ثابتٍ في مكان فهو راكد. وركد الميزان استوى. ورَكد القوم هَدَؤوا. والمراكد: المواضع التي يَرْكُد فيها الإنسان وغيره[٦].

وقرأ قتادة: «فَيَظْلِلْنَ» بكسر اللام الأولى[٧] على أن يكون لغة، مثلُ ضَلِلت أَضِل[٨]. وفتح اللام هي اللغة المشهورة.

---

(١) وذكره البغوي في تفسيره ٤/١٢٨ .

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٠٥ .

(٣) تفسير البغوي ٤/١٢٨ .

(٤) ديوان الخنساء ص ٤٩ .

(٥) السبعة ص١٧٣ ، والتيسير ص٧٨ ، والنشر ٢/ ٢٢٣ .

(٦) الصحاح (ركد).

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨ .

(٨) في النسخ: ظللت أظل، والمثبت من الكشاف ٣/ ٤٧١ ، وينظر ما قاله أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٠ .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: دلالات وعلامات ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبَّار على البَلْوَى شكور على النعماء. قال قُطْرُب: نِعْمَ العبد الصبَّار الشَّكور، الذي إذا أُعطِي شكر وإذا ابتُلي صبر. قال عَوْن بن عبد الله: فكم من مُنْعَم عليه غير شاكر، وكم من مبتلًى غير صابر[1].

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: وإن يشأ يجعل الرياحَ عواصفَ فَيُوبق السفن؛ أي: يُغرقهن بذنوب أهلها. وقيل: يُوبق أهل السفن[2]. ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ من أهلها فلا يُغرقهم معها؛ حكاه الماوردي[3]. وقيل: «وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ» أي: ويتجاوز عن كثير من الذنوب فَيُنجيهم اللهُ من الهلاك.

قال القُشَيرِيّ: والقراءة الفاشية: «وَيَعْفُ» بالجزم، وفيها إشكال؛ لأن المعنى: إن يشأ يُسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكدَ ويُهلكها بذنوب أهلها، فلا يحسن عطف «يَعْفُ» على هذا لأنه يصير المعنى: إنْ يشأ يعفُ، وليس المعنى ذلك بل المعنى الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة، فهو إذًا عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى. وقد قرأ قوم: «ويعفو» بالرفع، وهي جيدة في المعنى[4].

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ يعني الكفار؛ أي: إذا توسَّطوا البحر وغَشِيتهم الرياح من كل مكان، أو بقيت السفن رواكدَ علموا أنه لا مَلْجأ لهم سوى الله، ولا دافع لهم إنْ أراد اللهُ إهلاكهم، فَيُخلصون له العبادة. وقد مضى هذا

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٠٥ .

(٢) زاد المسير ٧/ ٢٨٩ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٠٥ .

(٤) ذكر قول القشيري أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٠ - ٥٢١ ، ثم قال: ما قاله ليس بجيد، إذ لم يَفْهم مدلول التركيب، والمعنى: أنه تعالى إن يشأ أهلك ناساً وأنجى ناساً على طريق العفو عنهم.

المعنى في غير موضع[(١)]، ومضى القولُ في ركوب البحر في «البقرة» وغيرها بما يُغني عن إعادته.[(٢)]

وقرأ نافع وابن عامر: «وَيَعْلَمُ» بالرفع، الباقون بالنصب[(٣)]. فالرفع على الاستئناف بعد الشرط والجزاء؛ كقوله في سورة التوبة: ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ١٤-١٥] رفعًا. ونظيره في الكلام: إن تأتني آتِكَ وينطلقُ عبد الله. أو على أنه خبرُ ابتداء محذوف. والنصب على الصرف؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] صرف من حال الجزم إلى النصب استخفافاً كراهيةَ لتوالي الجزم[(٤)]؛ كقول النابغة:

فإن يَهْلِك أبو قابوسَ يَهْلِكْ ... ربيعُ الناس والشهرُ الحرامُ
ونُمْسِكَ[(٥)] بعده بذِناب عَيْشٍ ... أَجَبِّ الظَّهْرِ ليس له سَنامُ[(٦)]

وهذا معنى قول الفرّاء[(٧)]، قال: ولو جزم «ويعلم» جاز. وقال الزجاج[(٨)]: نصب على إضمار «أن» لأن قبلها جزمًا؛ تقول: ما تصنعْ أصنعْ مثلَه وأُكرمَك. وإنْ شئتَ قلت: وأُكرمْك، بالجزم.

وفي بعض المصاحف: «وليعلمَ». وهذا يدلُّ على أن النصب بمعنى: وليعلم، أو لأنْ يعلم.

---

(١) ١٠/ ٤٧٥ و١٦/ ١٩٣ .

(٢) ٢/ ٤٩٥ .

(٣) السبعة ص ٥٨١ ، والتيسير ص ١٩٥ .

(٤) الحجة للفارسي ٦/ ١٣٠ بنحوه.

(٥) في النسخ: ويمسك، والمثبت من المصادر.

(٦) ديوان النابغة ص ١١٠ . وأبو قابوس: هو النعمان بن المنذر، وسلف البيتان ١٠/ ١٢٩ . وينظر ضبط قوله: أجبّ الظهر في خزانة الأدب الشاهد (٧٥٦).

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٤ - ٢٥ .

(٨) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٩ .

وقال أبو عليّ والمبرّد: النصب بإضمار «أن» على أن يجعل الأوّل في تقدير المصدر؛ أي: ويكون منه عَفْوٌ وأن يعلم فلما حَمَله على الاسم أضمرَ أن، كما تقول: إنْ تَأْتِني وتُعطيَني أُكرمك، فتنصب تُعطيني، أي: إن يكن منك إتيانٌ وأنْ تُعطيني[١].

ومعنى ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: من فِرار ومَهْرب؛ قاله قُطْرُب. السدي: مِن مَلْجأ. وهو مأخوذٌ من قولهم: حاص به البعير حيصةً إذا رمى به. ومنه قولهم: فلان يحيص عن الحق، أي: يميلُ عنه[٢].

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ يريد من الغِنى والسَّعة في الدنيا. ﴿فَمَتَٰعُ﴾ أي: فإنما هو متاعٌ في أيام قليلة تنقضي وتذهب؛ فلا ينبغي أن يتفاخرَ به. والخِطاب للمشركين. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ يريد من الثواب على الطاعة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ صدَّقوا ووحَّدوا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ نزلت في أبي بكر الصدِّيق حين أنفق جميعَ ماله في طاعة الله فلامَه الناسُ[٣]. وجاء في الحديث أنه: أنفق ثمانين ألفاً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ الذين في موضع جرّ معطوفٌ على قوله: ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٤] أي: وهو للذين يجتنبون ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ وقد مضى القولُ

---

(١) الحجة للفارسي ٦/ ١٣٠ بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠٥ .

(٣) الكشاف ٣/ ٤٧٢ ، وحديث إنفاق أبي بكر ﷺ ماله كلّه وإنفاق عمر ﷺ نصف ماله أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥) من حديث عمر ﷺ.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨٦ .

في الكبائر في «النساء»[١].

وقرأ حمزة والكسائي: «كَبِيرَ الإِثْمِ»[٢] والواحد قد يُراد به الجمع عند الإضافة؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وكما جاء في الحديث: «مَنَعتِ العراقُ دِرْهمها وَقَفِيزَها»[٣]. الباقون بالجمع هنا وفي «النجم» [الآية: ٣٢].

﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ قال السُّدّي: يعني الزنى[٤]. وقاله ابن عباس، وقال: كبير الإثم الشِّرك[٥].

وقال قوم: كبائرُ الإثم ما تقع على الصغائر مغفورة عند اجتنابها. والفواحش داخلة في الكبائر، ولكنها تكون أفحشَ وأشنعَ، كالقتل بالنسبة إلى الجرح، والزنى بالنسبة إلى المراودة. وقيل: الفواحشُ والكبائرُ بمعنًى واحد، فكرَّر لِتعدُّد اللَّفظ؛ أي: يجتنبون المعاصي لأنها كبائرُ وفواحشُ.

وقال مقاتل: الفواحشُ مُوجِباتُ الحدود[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: يتجاوزون ويَحلُمون عمن ظَلَمهم. قيل: نزلت في عمر حين شُتِم بمكة. وقيل: في أبي بكر حين لامَه الناس على إنفاق ماله كله وحين شُتم فَحلُم. وعن علي ﷺ قال: اجتمع لأبي بكر مال مرة، فتصدّق به كلّه في سبيل الخير؛ فلامه المسلمون وخطّأه الكافرون فنزلت: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ إلى قوله

(١) ٦/ ٢٦١ وما بعدها.

(٢) السبعة ص ٥٨١، والتيسير ص ١٩٥.

(٣) أخرجه أحمد (٧٥٦٥)، ومسلم (٢٨٩٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. والقفيز: اثنا عشر صاعاً. حاشية السندي على مسند أحمد.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٢٢.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٧٢.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩.

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[١]. وقال ابن عباس: شَتَم رجل من المشركين أبا بكر فلم يردَّ عليه شيئًا؛ فنزلت الآية[٢]. وهذا من محاسن الأخلاق، يُشفقون على ظالمهم ويَصْفَحون لمن جَهِل عليهم؛ يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه؛ لقوله تعالى في آل عمران: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وهو أن يتناولك الرجلُ فتكظِم غيظَك عنه. وأنشد بعضهم:

إني عفوتُ لظالمي ظلمي ... ووهبتُ ذاك له على عِلْمي

ما زال يَظْلِمُني وأرحمُه ... حتى بَكيتُ له من الظُّلم[٣]

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد: هم الأنصار بالمدينة؛ استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيباً منهم قبل الهجرة. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدَّوها لمواقيتها بشروطها وهيئاتها[٤].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي: يتشاورون في الأمور. والشُّورَى مصدر شاورته، مثل البُشْرى والذِّكرى ونحوه.

فكانت الأنصارُ قبل قدوم النبيّ ﷺ إليهم إذا أرادوا أمرًا تشاوروا فيه، ثم عملوا عليه؛ فَمدَحَهُم الله تعالى به؛ قاله النقَّاش. وقال الحسن: أي: إنهم لانقيادهم إلى الرأي في أمورهم متَّفقون لا يختلفون؛ فَمُدِحوا باتِّفاق كلمتهم. قال الحسن: ما تشاور قوم قطُّ إلا هُدُوا لأرشدِ أمورهم. وقال الضحاك: هو تشاورُهم حين سمعوا

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٧٢ ، وسلف الخبر في تفسير الآية السابقة.

(٢) أخرجه أحمد (٩٦٢٤)، وأبو داود (٤٨٩٦) مطولاً دون ذكر الآية.

(٣) ذكرهما ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ٣٦٦ ونسبهما لمحمود الوراق.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٠٦ .

بظهور رسول الله ﷺ، وورد النُّقباء إليهم حتى اجتمع رأيُهم في دار أبي أيوب على الإيمان به والنُّصرة له. وقيل: تشاورُهم فيما يعرِض لهم؛ فلا يستأثر بعضُهم بخبر[١] دون بعض.

وقال ابن العربي[٢]: الشُّورَى أُلفةٌ للجماعة ومِسْبارٌ للعقول وسببٌ إلى الصواب، وما تشاور قومٌ قطُّ إلا هُدُوا. وقد قال الحكيم:

إذا بلغ الرأيُ المشورة فاستعِنْ ... برأي لبيبٍ أو مشورةِ حازم
ولا تجعل الشُّورى عليك غَضَاضة ... فإنَّ الخَوَافي نافعٌ للقوادم[٣]

فمدح اللهُ المشاورةَ في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يتمثَّلون ذلك. وقد كان النبيُّ ﷺ يُشاور أصحابَه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب؛ وذلك في الآثار[٤] كثيرٌ. ولم يكن يُشاورهم في الأحكام؛ لأنها مُنزلةٌ من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام. فأما الصحابة بعد استئثار الله تعالى به علينا فكانوا يَتَشاورون في الأحكام ويستنبطونها من الكتاب والسنة. وأوّل ما تشاور فيه الصحابة الخلافةُ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ لم يَنُصَّ عليها حتى كان فيها بين أبي بكر والأنصار ما سبق بيانه[٥].

وقال عمر ﷺ: نرضى لِدُنيانا مَنْ رَضِيَهُ رسولُ الله ﷺ لديننا[٦]. وتشاوروا في أهل الرِّدَّة فاستقرَّ رأيُ أبي بكر على القتال. وتشاوروا في الجَدّ وميراثه، وفي حدّ الخمر

(١) في النكت والعيون ٥/ ٢٠٦ (والأقوال السالفة كلها منه): بخير.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٦ . والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٣) البيتان لبشار بن برد، وهما في ديوانه ٢/ ٥٠٣ ، وعجز البيت الأول فيه: برأي نصيح أو نصيحة حازم.
وعجز البيت الثاني: مكان الخوافي قوة للقوادم. والخوافي: ريشاتٌ إذا ضمَّ الطائرُ جناحيه خَفِيَتْ، والقوادم: أربع أو عشر ريشات في مُقدَّم الجناح. القاموس المحيط (خفي) و(قدم).

(٤) في النسخ: الآراء، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٥) ١/ ٣٩٥ وما بعدها.

(٦) سلف ١/ ٤٠٦ - ٤٠٧ و٩/ ١٦٧ من قول علي ﷺ.

وعدده. وتشاوروا بعد رسول الله ﷺ في الحروب؛ حتى شاور عمرُ الهُرْمُزان حين وَفَدَ عليه مسلماً في المغازي، فقال له الهُرْمُزان: مَثَلُها وَمَثَلُ من فيها من الناس من عدوٍّ المسلمين مَثَلُ طائرٍ له رأس[1] وله جناحان ورجلان، فإن كُسِرَ أحدُ الجناحين نَهَضَتِ الرِّجلان بجناح والرأس، وإنْ كُسِرَ الجناحُ الآخر نَهَضتِ الرِّجلان والرأس وإن شُدِخ الرأسُ ذهب الرِّجلان والجناحان. والرأسُ كسْرى والجناح الواحد قيصر والآخر فارس؛ فَمُرِ المسلمين فَلْينفِروا إلى كِسْرى. وذكر الحديث[2].

وقال بعض العقلاء: ما أخطأت قطُّ! إذا حَزَبَني أمرٌ شاورتُ قومي ففعلت الذي يَرَوْن؛ فإن أصبتُ فهم المُصيبون، وإن أخطأتُ فهم المُخطئون[3].

الثالثة: قد مضى في «آل عمران» ما تضمَّنته الشُّورى من الأحكام عند قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [الآية: ١٥٩]. والمَشُورة بركة. والمَشْوَرة: الشُّورَى، وكذلك المَشُورة بضم الشين؛ تقول منه: شاوَرْته في الأمر واستشرته بمعنًى[4].

وروى الترمذي[5] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان أمراؤكم خيارَكم وأغنياؤكم سُمَحاءَكم وأمْرُكم شُورَى بينكم فظَهْرُ الأرض خيرٌ لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شِرارَكم وأغنياؤكم بُخَلاءَكم وأمورُكم إلى نسائكم فبطنُ الأرض خيرٌ لكم من ظَهْرها». قال حديث غريب[6]. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: ومما أعطيناهم يتصدَّقون. وقد تقدّم في «البقرة»[7].

---

(١) في النسخ: ريش، وهو تصحيف، والمثبت من المصادر.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٥٩).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٥٦ - ١٦٥٧ .

(٤) الصحاح (شور).

(٥) في سننه (٢٢٦٦).

(٦) وقال أيضاً: لا نعرفه إلا من حديث صالح المُرِّي، وصالح المُرِّيُّ في حديثه غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها، وهو رجل صالح.

(٧) ١/٢٧٣ وما بعدها .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ أي: أصابهم بَغيُ المشركين. قال ابن عباس: وذلك أن المشركين بَغَوْا على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه وآذَوْهم وأخرجوهم من مكة، فأَذِنَ اللهُ لهم بالخروج، ومَكَّنَ لهم في الأرض، ونَصَرهم على من بَغَى عليهم[١]؛ وذلك قوله في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا﴾ الآيات [٣٩-٤١] كلها. وقيل: هو عامٌّ في بَغْي كل باغ من كافر وغيره[٢]، أي: إذا نالهم ظُلم لم يستسلموا لِظُلمه. وهذه إشارةٌ إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود.

قال ابن العربي[٣]: ذَكَر اللهُ الانتصار في البغي في مَعْرِض المَدْح، وذكر العفو عن الجُرم في موضع آخرَ في مَعرِض المدح؛ فاحتمل أن يكون أحدُهما رافعاً للآخر، واحتمل أن يكون ذلك راجعًا إلى حالتين:

إحداهما: أن يكون الباغي مُعلناً بالفجور، وَقِحًا في الجمهور، مُؤذِيًا للصغير والكبير؛ فيكون الانتقام منه أفضلَ. وفي مثله قال إبراهيم النَّخَعِيّ: كانوا يكرهون أن يُذِلُّوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفُسَّاق.

الثانية: أن تكون الفَلْتة، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزَّلَّة ويسأل المغفرة؛ فالعفو

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٩١ بنحوه عن عطاء.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٩٢.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٧.

هاهنا أفضلُ، وفي مثله نزلت: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. وقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٨]. وقوله: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢].

قلت: هذا حسن، وهكذا ذكر الكِيا الطبري في «أحكامه»[1] قال: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ يدل ظاهرُه على أن الانتصار في هذا الموضع أفضل؛ ألا ترى أنه قرنه إلى ذكر الاستجابة لله سبحانه وتعالى وإقام الصلاة؛ وهو محمولٌ على ما ذكر إبراهيم النَّخَعِيّ أنهم كانوا يكرهون للمؤمنين أن يُذِلُّوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفُسَّاق؛ فهذا فيمن تعدّى وأصرَّ على ذلك. والموضع المأمور فيه بالعفو إذا كان الجاني نادماً مُقْلِعاً. وقد قال عَقِيب هذه الآية: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾. ويقتضي ذلك إباحةَ الانتصار لا الأمر به؛ وقد عقَّبه بقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾. وهو محمولٌ على الغفران عن غير المُصِرّ، فأما المُصِرّ على البغي والظلم فالأفضل الانتصار منه بدلالة الآية التي قبلَها.

وقيل: أي: إذا أصابهم البغي تناصروا عليه حتى يُزيلوه عنهم ويدفعوه؛ قاله ابن بحر[2]. وهو راجعٌ إلى العموم على ما ذكرنا.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ قال العلماء: جعل الله المؤمنين صِنفين: صنف يعفُون عن الظالم فبدأ بذكرهم في قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾. وصنف ينتصرون من ظالمهم[3]. ثم بين حدّ الانتصار بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فينتصر ممن ظَلَمه من غير أن يعتدي. قال مقاتل وهشام بن حُجَير: هذا في المجروح ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره من سبٍّ أو شَتْم. وقاله الشافعي وأبو حنيفة وسفيان[4]. قال سفيان: وكان ابن شُبْرُمَة يقول: ليس بمكة مثل هشام[5].

---

(١) ٤/ ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠٦.

(٣) زاد المسير ٧/ ٢٩١ بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٠٧.

(٥) ذكره الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب ٤/ ٢٦٧.

وتأوّل الشافعي في هذه الآية أنَّ للإنسان أن يأخُذَ من مال مَن خانَه مثلَ ما خانه من غير عِلْمه؛ واستشهد في ذلك بقول النبي ﷺ لهند زوجِ أبي سفيان: «خُذي من مالهِ ما يَكفيكِ وولدَكِ»[١] فأجاز لها أخذَ ذلك بغير إِذْنه. وقد مضى الكلام في هذا مستوفى في «البقرة»[٢].

وقال ابن أبي نَجيح: إنه محمولٌ على المُقابلة في الجراح. وإذا قال: أخزاه اللهُ، أو لعنه الله أن يقول مثلَه. ولا يُقابل القذفَ بقذف، ولا الكذب بكذب[٣].

وقال السُّدِّي: إنما مدح اللهُ من انتصر ممن بغى عليه من غير اعتداء بالزيادة على مقدار ما فعل به؛ يعني كما كانت العرب تفعله[٤].

وسُمِّي الجزاء سيئةً لأنه في مُقابلتها؛ فالأوّل ساء هذا في مال أو بدن، وهذا الاقتصاص يسوءه بمثل ذلك أيضاً؛ وقد مضى هذا كلُّه في «البقرة» مستوفى[٥].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ قال ابن عباس: من ترك القصاص وأصلح بينه وبين الظالم بالعفو ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إن اللهَ يأجُره على ذلك. قال مقاتل: فكان العفو من الأعمال الصالحة. وقد مضى في «آل عمران» في هذا ما فيه كفاية[٦]، والحمد لله.

وذكر أبو نعيم الحافظ[٧] عن علي بن الحسين ﷺ قال: إذا كان يوم القيامة نادى مُنادٍ: أيكم أهل الفضل، فيقوم ناسٌ من الناس، فيقال: انطلقوا إلى الجنة، فتتلقَّاهم

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) ٣/ ٢٤٩ ، وسلف ثمة حديث هند زوجة أبي سفيان رضي الله عنهما.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٠٧ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٥٧ .

(٥) ٣/ ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٦) ٥/ ٣١٩ وما بعدها.

(٧) في حلية الأولياء ٣/ ١٣٩ .

الملائكةُ، فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة، قالوا: قبل الحساب؟! قالوا: نعم، قالوا: من أنتم؟ قالوا: أهلُ الفَضْل؛ قالوا: وما كان فَضْلكم؟ قالوا: كنا إذا جُهل علينا حَلُمنا وإذا ظُلِمنا صَبَرْنَا وإذا سِيء إلينا عَفَوْنا؛ قالوا: ادخلوا الجنة، فنعم أجرُ العاملين. وذكر الحديث.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: مَن بدأ بالظلم؛ قاله سعيد بن جبير. وقيل: لا يحب مَن يتعدَّى في الاقتصاص ويُجاوز الحد؛ قاله ابن عيسى[1].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي: المسلم إذا انتصر من الكافر فلا سبيلَ إلى لَوْمه، بل يُحمَدُ على ذلك مع الكافر. ولا لومَ إن انتصر الظالم من المسلم؛ فالانتصار من الكافر حتم، ومن المسلم مباح، والعفو مندوب.

الخامسة: في قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ دليلٌ على أن له أن يستوفيَ ذلك بنفسه. وهذا ينقسم ثلاثة أقسام:

أحدها: أن يكون قصاصاً في بدن يستحقُّه آدميٌّ، فلا حرجَ عليه إن استوفاه من غير عُدوان وثبت حقُّه عند الحُكَّام، لكن يزجره الإمام في تفرُّده[2] بالقصاص لما فيه من الجُرأة على سفك الدم. وإن كان حقُّه غيرَ ثابت عند الحاكم فليس عليه فيما بينه وبين الله حرج، وهو في الظاهر مُطالَبٌ وبفعله مُؤاخَذٌ ومُعاقَب.

القسم الثاني: أن يكون حدًّا لله تعالى لا حقَّ لآدمي فيه، كحدّ الزنى وقطع السرقة؛ فإن لم يَثْبُتْ ذلك عند حاكم أُخِذَ به وعُوقب عليه، وإن ثبت عند حاكم نُظر، فإن كان قطعاً في سرقة سقط به الحدّ لزوال العضو المستحق قطعه، ولم يجب عليه في ذلك حقٌّ إلا التعزير أدباً[3]، وإن كان جَلْداً لم يسقط به الحَدُّ لِتعدّيه مع بقاء محلِّه، فكان مأخوذاً بحكمه.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٢) في (د): تقويه، وفي (ف) و(م): تفوته، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للنكت والعيون ٥/ ٢٠٨ والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٣) في النسخ: لأن التعزير أدب، والمثبت من النكت والعيون.

القسم الثالث: أن يكون حقًّا في مال؛ فيجوز لصاحبه أن يُغالب على حقِّه حتى يصل إليه إن كان هو ممن هو عالمٌ به[١]، وإن كان غيرَ عالم نُظر، فإنْ أمكنه الوصول إليه عند المطالبة لم يكن له الاستسرارُ بأخذه. وإن كان لا يصل إليه بالمُطالبة لِجُحود من هو عليه من عدم بيّنةٍ تشهد له ففي جواز استسراره بأخذه مذهبان: أحدهما: جوازه؛ وهو قول مالك والشافعي. الثاني: المنع؛ وهو قول أبي حنيفة.

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: بعدوانهم عليهم؛ في قول أكثر العلماء. وقال ابن جُريح: أي: يظلمونهم بالشِّرك المُخالف لدينهم. ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: في النفوس والأموال؛ في قول الأكثرين. وقال مقاتل: بَغْيُهم عَمَلُهم بالمعاصي. وقال أبو مالك: هو ما يرجوه كفارُ قريش أن يكون بمكة غير الإسلام ديناً[٢]. وعلى هذا الحدّ قال ابن زيد: إنَّ هذا كلَّه منسوخٌ بالجهاد، وإنَّ هذا للمشركين خاصة. وقول قتادة: إنه عامٌّ؛ وكذا يدل ظاهر الكلام[٣]. وقد بيَّنّاه والحمد لله.

السابعة: قال ابن العربي[٤]: هذه الآيةُ في مقابلة الآية المتقدّمة في «براءة» وهي قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [الآية: ٩٢]؛ فكما نفى اللهُ السبيل عمن أحسن فكذلك أثبتها[٥] على من ظلم؛ واستوفى بيان القسمين.

الثامنة: واختلف علماؤنا في السلطان يضع على أهل بلد مالاً معلوماً يأخذهم به ويؤدّونه على قدر أموالهم؛ هل لمن قدر على الخلاص من ذلك أن يفعل، وهو إذا تخلص أخذ سائر أهل البلد بتمام ما جعل عليهم. فقيل: لا؛ وهو قول سُحنون من علمائنا. وقيل: نعم، له ذلك إنْ قدر على الخلاص؛ وإليه ذهب أبو جعفر أحمد بن

---

(١) في النكت والعيون: إن كان من هو عليه عالماً به، وكلاهما بمعنى.

(٢) النكت والعيون ٥/٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٦٢٣ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/١٦٥٨ .

(٥) في النسخ: نفاها، والمثبت من أحكام القرآن.

نصر الداودي ثم المالكي. قال: ويدلُّ عليه قول مالك في الساعي يأخذ من غنم أحد الخُلطاء شاةً وليس في جميعها نصاب: إنها مظلمة على من أُخذت له لا يرجِع على أصحابه بشيء. قال: ولست آخذ بما روِي عن سحنون؛ لأن الظُّلم لا أُسوةَ فيه، ولا يلزم أحدٌ أن يُولج نفسَه في ظُلم مخافةَ أن يُضاعَفَ الظُّلمُ على غيره، والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ .

التاسعة: واختلف العلماء في التحليل؛ فكان ابن المُسَيَّب لا يُحلل أحدًا من عِرض ولا مال. وكان سليمان بن يَسار ومحمد بن سِيرين يُحلِّلان من العِرض والمال. ورأى مالك التحليل من المال دون العرض. روى ابن القاسم وابن وهب عن مالك وسئل عن قول سعيد بن المسيب: لا أُحلِّل أحدًا، فقال: ذلك يختلف؛ فقلت له: يا أبا عبد الله، الرجلُ يُسلف الرجلَ فَيَهْلِكُ ولا وفاء له؟ قال: أرى أن يُحلله وهو أفضل عندي؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر:١٨]. فقيل له: الرجل يظلم الرجل؟ فقال: لا أرى ذلك، هو عندي مُخالفٌ للأوّل؛ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ ويقول تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ [التوبة:٩٢] فلا أرى أن يجعله من ظُلمه في حِلّ .

قال ابن العربي[(١)]: فصار في المسألة ثلاثة أقوال: أحدها: لا يُحلِّله بحالٍ؛ قاله سعيد ابن المسيّب. الثاني: يُحلّله؛ قاله محمد بن سيرين. الثالث: إن كان مالاً حلَّله وإن كان ظُلماً لم يُحلِّله؛ وهو قول مالك .

وجه الأوّل ألّا يُحلِّل ما حرّم الله؛ فيكون كالتبديل لحكم الله. ووجه الثاني أنه حقُّه فله أن يُسقطَه كما يُسقط دمَه وعِرْضه. ووجه الثالث الذي اختاره مالك هو أن الرجل إذا غلب على أداء حقك فمن الرفق به أن تُحلِّله[(٢)]، وإن كان ظالماً فمن الحق ألا تتركَه لئلا تغترَّ الظَّلَمةُ ويسترسلوا[(٣)] في أفعالهم القبيحة .

---

(١) في أحكام القرآن ٤/١٦٥٨ ، وما قبله منه.

(٢) في (د): يحلله، وفي (م): يتحلله، والمثبت من (ظ).

(٣) في النسخ الخطية: يستشرون، والمثبت من أحكام القرآن.

وفي «صحيح» مسلم حديثُ أبي اليَسَر الطويل وفيه أنه قال لِغريمه: أُخرج إليّ، فقد علمتُ أين أنت؛ فخرج؛ فقال: ما حملك على أن اختبأتَ مني؟ قال: أنا والله أُحَدِّثُكَ ثم لا أَكذِبُك، خَشيتُ ـ والله ـ أن أُحدِّثَك فأكذِبَك، وأن أَعِدَك فأُخْلِفك، وكنتَ صاحبَ رسول الله ﷺ، وكنتُ والله مُعْسِرًا. قال: قلت: آللهِ؟ قال اللهِ[1]؛ قال: فأتى بصحيفة فمحاها فقال: إن وجدتَ قضاءً فاقضِ، وإلا فأنت في حِلّ. وذكر الحديث[2].

قال ابن العربي[3]: وهذا في الحي الذي يُرجى له الأداء لسلامة الذِّمَّة ورجاء التَّحَلُّل[4]، فكيف بالميت الذي لا مُحاللة له ولا ذِمّة معه.

العاشرة: قال بعض العلماء: إن مَن ظُلم وأُخِذ له مالٌ فإنما له ثوابٌ ما احتُبِس عنه إلى موته، ثم يرجع الثواب إلى ورثته، ثم كذلك إلى آخرهم؛ لأن المال يصير بعده للوارث. قال أبو جعفر الداودي المالكي: هذا صحيحٌ في النظر؛ وعلى هذا القول إن مات الظالمُ قبل مَن ظَلَمه ولم يترك شيئاً، أو ترك ما لم يعلم وارثُه فيه بظلم لم تنتقل تِباعةُ المظلوم إلى ورثة الظالم؛ لأنه لم يبقَ للظالم ما يستوجبه ورثة المظلوم.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ أي: صبر على الأذى و«غفر» أي: ترك الانتصار لوجه الله تعالى؛ وهذا فيمن ظَلَمه مسلم. ويُحكى أن رجلاً سبَّ رجلاً في مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظِم ويعرق فيمسح العرق، ثم قام فتلا هذه الآية؛ فقال الحسن: عَقَلها والله، وفهمها إذ ضيَّعها الجاهلون[5].

---

(١) قال الإمام النووي في شرح مسلم ١٨/ ١٣٥ : الأول بهمزة ممدودة على الاستفهام، والثاني بلا مدّ، والهاء فيهما مكسورة، هذا هو المشهور. قال القاضي: رويناه بكسرها وفتحها معاً، قال: وأكثر أهل العربية لا يُجيزون غير كسرها.

(٢) صحيح مسلم (٣٠٠٦).

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٩ .

(٤) في النسخ: التمحل، وجاء في هامش (ي): يقال: تمحل، أي: احتال، فهو مُتَمحِّل. قاله الجوهري [الصحاح (محل)]. والمثبت من أحكام القرآن.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٧٣ ، وما بعده منه.

وبالجملة العفو مندوب إليه، ثم قد ينعكس الأمر في بعض الأحوال فيرجع تركُ العفو مندوباً إليه كما تقدّم؛ وذلك إذا احتيج إلى كفّ زيادة البغي وقطع مادّة الأذى، وعن النبي ﷺ ما يدل عليه، وهو أن زينب أسمعت عائشةَ رضي الله عنهما بحضرته فكان ينهاها فلا تنتهي، فقال لعائشة: «دونَكِ فانتصري» خرجه مسلم في «صحيحه» بمعناه[1].

وقيل: «صَبَر» عن المعاصي وستر على المساوئ. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي من عزائم الله التي أمر بها. وقيل من عزائم الصواب التي وفق لها. وذكر الكلبي والفراء[2] أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ مع ثلاث آيات قبلها، وقد شَتَمه بعضُ الأنصار فردّ عليه ثم أمسك. وهي المَدَنِيَّات من هذه السورة.

وقيل: هذه الآيات في المشركين، وكان هذا في ابتداء الإسلام قبل الأمر بالقتال ثم نسختها آيةُ القتال؛ وهو قول ابن زيد، وقد تقدم[3].

وفي تفسير ابن عباس: «وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ» يريد حمزة بن عبد المطلب وعُبيدة[4] وعليًّا وجميع المهاجرين رضوان الله عليهم. ﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ يريد حمزة بن عبد المطلب وعُبيدة وعليًّا رضوان الله عليهم أجمعين. ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأبا جهل والأسود، وكل من قاتل من المشركين يوم بدر. ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يريد بالظلم والكفر. ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يريد وجيع. ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ يريد أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن

---

(١) صحيح مسلم (٢٤٤٢)، وأخرجه أحمد (٢٤٥٧٥)، والبخاري (٢٥٨١) بنحوه أيضاً، وأخرجه بلفظ المصنف أحمد (٢٤٦٢٠).

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٠٩ وما قبله وما بعده منه.

(٣) تقدم آخر المسألة السادسة.

(٤) هو عُبيدة بن الحارث بن المطلب، القرشي، أسلم قديماً، وشهد بدراً، وبارز فيها مع حمزة وعلي رضوان الله عليهم عُتبةَ وشيبة ابني ربيعة والوليدَ بن عتبة، وأصل قصتهم في صحيح البخاري (٣٩٦٥)، وينظر الإصابة ٦/ ٣٦٩ .

الجراح ومُصعب بن عُمير وجميع أهل بدر رضوان الله عليهم أجمعين. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ حيث قَبِلوا الفِداء وصبروا على الأذى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي: يَخذُله ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ هذا فيمن أعرض عن النبيِّ ﷺ فيما دعاه إليه من الإيمان بالله والمودّة في القُربى، ولم يُصدِّقه في البعث وأن متاعَ الدنيا قليل. أي: من أضلَّه اللهُ عن هذه الأشياء فلا يهديه هادٍ.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين. ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ يعني جهنم. وقيل: رَأَوُا العذابَ عند الموت. ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ يطلبون أن يُرَدُّوا إلى الدنيا لِيعملوا بطاعة الله، فلا يُجابون إلى ذلك[1].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار لأنها عذابهم؛ فكنى عن العذاب المذكور بحرف التأنيث؛ لأن ذلك العذابَ هو النار، وإن شئت جهنم، ولو راعى اللفظ لقال: عليه.

ثم قيل: هم المشركون جميعاً يُعرَضون على جهنم عند انطلاقهم إليها؛ قاله الأكثرون. وقيل: آل فرعون خصوصًا، تُحبس أرواحُهم في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح؛ فهو عَرْضُهم عليها؛ قاله ابن مسعود. وقيل: إنهم عامة المشركين، تعرض عليه ذنوبهم في قبورهم، ويُعرضون على العذاب في قبورهم؛

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/٥٢٩ بنحوه.

وهذا معنى قول أبي الحجاج[١].

﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ ذهب بعض القُرَّاء إلى الوقف على «خَاشِعينَ». وقوله: «مِنَ الذُّلِّ» ومُتعلِّقٌ بـ «يَنْظُرُونَ». وقيل: متعلق بـ «خَاشِعِينَ»[٢]. والخشوع الانكسار والتواضع.

ومعنى ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ﴾ أي: لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعًا تامًّا؛ لأنهم ناكسو الرؤوس. والعرب تصف الذليل بغَضِّ الطرف، كما يستعملون في ضدّه حديد النظر إذا لم يُتَّهم بريبة فيكون عليه منها غَضاضة. وقال مجاهد: «مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ» أي: ذليل، قال: وإنما ينظرون بقلوبهم لأنهم يُحشرون عُمياً[٣]، وعين القلب طرفٌ خفِيٌّ[٤]. وقال قتادة والسدّي والقُرَظِيّ وسعيد بن جبير: يسارقون النظر من شدّة الخوف[٥]. وقيل: المعنى ينظرون من عين ضعيفة النظر. وقال يونس: «مِن» بمعنى الباء؛ أي: ينظرون بطرف خفي، أي: ضعيف من الذُّل والخوف، ونحوه عن الأخفش[٦]. وقال ابن عباس: بطرف ذابل ذليل[٧]. وقيل: أي: يفزعون أن ينظروا إليها بجميع أبصارهم لِمَا يرون من أصناف العذاب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ أي: يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حلَّ بالكفار: إن الخُسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء، فإنهم خسروا أنفسهم لأنهم في العذاب المُخلّد، وخسروا أهليهم لأن

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٠٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤١ ، والكشاف ٣/ ٤٧٤ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٢٣ .

(٤) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤١ : في هذا التأويل تكلُّف، وقال الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٧٤ : فيه تعسُّف.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٣٣ عن قتادة والسدي.

(٦) ذكر الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٨٧ قول يونس.

(٧) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٣٢ .

الأهل إن كانوا في النار فلا انتفاع بهم، وإن كانوا في الجنة فقد حيل بينه وبينهم. وقيل: خسران الأهل أنهم لو آمنوا لكان لهم أهلٌ في الجنة من الحور العِين[١].

وفي «سنن» ابن ماجه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا له مَنْزلان: منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار، فإذا ماتَ فدخلَ النارَ وَرِثَ أهلُ الجنة منزلَه فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾». وقد تقدم[٢].

وفي «مسند» الدّارِميّ: عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ أحدٍ يُدخله الله الجنةَ إلا زوَّجه اثنين وسبعين زوجةً من الحور العين وسبعين من ميراثه من أهل النار، وما منهنَّ واحدةٌ إلا ولها قُبُلٌ شهِيّ وله ذَكَر لا يَنْثني». قال هشام بن خالد: «مِن ميراثه من أهل النار» يعني رجالاً أُدخلوا النار فورث أهلُ الجنة نساءهم كما ورثت امرأة فرعون[٣].

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: دائم لا ينقطع. ثم يجوز أن يكون هذا من قول المؤمنين، ويجوز أن يكون ابتداء من الله تعالى[٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: أعواناً ونُصراء ﴿يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من عذابه ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: طريق يَصِلُ به إلى الحقّ

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤١ بنحوه.

(٢) سنن ابن ماجه (٤٣٤١)، وصحَّح إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٤٤٢ ، وسلف ١٥/ ١٦ .

(٣) لم نقف عليه في مسند الدارمي، وأخرجه ابن ماجه (٤٣٣٧)، وفي إسناده خالد بن يزيد بن أبي مالك. وهَّاه ابن معين، وقال أحمد: ليس بشيء. ميزان الاعتدال ١/ ٦٤٥ . وهشام بن خالد هو شيخ ابن ماجه الذي روى عنه هذا الحديث.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٢ .

في الدنيا والجنة في الآخرة؛ لأنه قد سدَّت عليه طريق النجاة.

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ أي: أجيبوه إلى ما دعاكم إليه من الإيمان به والطاعة. استجاب وأجاب بمعنًى؛ وقد تقدّم. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يريد يومَ القيامة؛ أي: لا يردُّه أحدٌ بعد ما حكم اللهُ به وجعله أجلاً ووقتاً. ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ أي: من ملجأ يُنجيكم من العذاب.

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: من ناصر ينصركم؛ قاله مجاهد. وقيل: النكير بمعنى المُنكر؛ كالأليم بمعنى المُؤْلِم؛ أي: لا تجدون يومئذ مُنكِراً لما ينزل بكم من العذاب؛ حكاه ابن أبي حاتم؛ وقاله الكلبي[1]. الزجاج[2]: معناه: أنهم لا يقدرون أن يُنكروا الذنوبَ التي يُوقَفون عليها. وقيل: «مِنْ نَكِيرٍ» أي: إنكار ما ينزل بكم من العذاب، والنكير والإنكار تغييرُ المنكر.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ أي: عن الإيمان ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: حافظاً لأعمالهم حتى تُحاسبَهم عليها. وقيل: مُوَكَّلاً بهم لا تُفارقهم دون أن يؤمنوا؛ أي: ليس لك إكراهُهم على الإيمان. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ وقيل: نسخ هذا بآية القتال[3]. ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الكافر ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ رخاءً وصحة. ﴿فَرِحَ بِهَا﴾

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٠.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٤٠٢.

(٣) زاد المسير ٧/ ٢٩٥.

بَطِرَ بها. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بلاءٌ وشدَّةٌ. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ أي: لما تقدَّم من النعمة، فيعدِّد المصائب وينسى النعم.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ **فيه أربع مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ ابتداء وخبر. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ من الخلق. ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ قال عَبيدة[١] وأبو مالك ومجاهد والحسن والضحاك: يهب لمن يشاء إناثاً لا ذكور معهنّ، ويهب لمن يشاء ذكورًا لا إناثَ معهم؛ وأدخل الألف واللام على الذكور دون الإناث لأنهم أشرف، فميَّزهم بسمة التعريف[٢]. وقال واثلة بن الأسقع: إنَّ مِن يُمْن المرأة تبكيرَها بالأنثى قبل الذكر، وذلك أن الله تعالى قال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ فبدأ بالإناث[٣].

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ﴾ قال مجاهد: هو أن تَلِدَ المرأة غلاماً ثم تلد جاريةً، ثم تلد غلاماً ثم تلد جارية[٤]. وقال محمد بن الحنفية: هو أن تَلِدَ تَوْءَمًا، غلاماً وجارية، أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً[٥]. قال القُتبيّ[٦]: التزويج هاهنا هو الجمع بين

---

(١) في النسخ: أبو عبيدة: والمثبت من المصادر، وهو عَبيدة السلماني.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١١ ، وينظر معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٢٧ ، وأخرج أقوال عَبيدة السلماني والحسن والضحاك الطبري ٢٠/ ٥٣٧ - ٥٣٩ .

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٣٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١١ .

(٦) في غريب القرآن ص ٣٩٤ .

البنين والبنات؛ تقول العرب: زوَّجتُ إبلي، إذا جمعت بين الكبار والصغار.

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ أي: لا يُولَد له؛ يقال: رجل عقيم، وامرأة عقيم. وعَقِمَت المرأة تَعْقَم عقْمًا؛ مثل حَمِد يَحْمَدُ. وعَقُمت تَعْقُم، مثل عَظُم يَعْظُم. وأصله القطع، ومنه المُلْك العقيم، أي: تقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق خوفاً على الملك. وريح عقيم؛ أي: لا تلقح سحاباً ولا شجراً. ويوم القيامة يوم عقيم؛ لأنه لا يوم بعده. ويقال: نساء عُقُم وعُقْم؛ قال الشاعر:

عُقِم النساء فما يَلِدْنَ شبيهه إنَّ النساءَ بمثله عُقْمُ[1]

وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في الأنبياء خصوصًا وإن عمَّ حُكمها؛ وَهَبَ لِلُوطٍ الإناث ليس معهنّ ذكَر، ووهب لإبراهيم الذكور ليس معهم أنثى، ووهب لإسماعيل وإسحاق الذكور والإناث، وجعل عيسى ويحيى عقيمين[2]؛ ونحوه عن ابن عباس وإسحاق بن بشر. قال إسحاق: نزلت في الأنبياء، ثم عمَّت. ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ يعني لوطاً عليه السلام، لم يُولد له ذَكَر، وإنما ولد له ابنتان. ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ يعني إبراهيم عليه السلام لم يُولَد له أنثى، بل وُلِدَ له ثمانية ذكور. ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانًا وَإِنَٰثًاۖ﴾ يعني رسول الله ﷺ، ولد له أربعة بنين وأربع بنات. ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ يعني يحيى بن زكريا عليهما السلام[3]؛ لم يذكر عيسى.

ابن العربي[4]: قال علماؤنا: «يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا» يعني لوطاً، كان له بنات ولم يكن له ابن. ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ يعني إبراهيم، كان له بنون ولم يكن له بنت. وقوله: «أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا» يعني آدم، كانت حوّاء تلد له في كل بطن توأمين؛ ذكراً وأنثى، ويزوّج الذكر من هذا البطن من الأنثى من البطن الآخر، حتى أحكم الله

---

(١) البيت لأبي دَهْبل الجُمحي كما في شرح الحماسة البصرية للمرزوقي ٤/ ١٦٠٥ . والكلام السالف من الصحاح (عقم).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١١ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٠ .

التحريم في شرع نوح ﷺ. وكذلك محمد ﷺ كان له ذكور وإناث من الأولاد: القاسم والطيب والطاهر وعبد الله وزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة؛ وكلهم من خديجة رضي الله عنها، وإبراهيم وهو من مارية القِبطية. وكذلك قسم الله الخلق من لدن آدم إلى زماننا هذا، إلى أن تقوم الساعة، على هذا التقدير المحدود بحكمته البالغة ومشيئته النافذة؛ ليبقى النسل، ويتمادى الخَلْق، وينفذ الوعد، ويحق الأمر، وتعمر الدنيا، وتأخذ الجنة وجهنم كل واحد ما يملؤها ويبقى. ففي الحديث: «إنَّ النارَ لن تمتلئ حتى يَضَعَ الجَبَّارُ فيها قَدَمَه، فتقول: قَطْ قَطْ. وأما الجنة فيبقى منها، فينشئ اللهُ لها خَلْقاً آخر»[(١)].

الثانية: قال ابن العربي[(٢)]: إنَّ الله تعالى لِعموم قُدرته وشديد قوّته يخلق الخلق ابتداء من غير شيء، وبعظيم لطفه وبالغ حكمته يخلق شيئًا من شيء لا عن حاجة؛ فإنه قُدُّوس عن الحاجات سلام عن الآفات، كما قال: ﴿ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣] فخلق آدم من الأرض وخلق حوّاء من آدم، وخلق النشأة من بينهما منهما مرتبًا على الوطء، كائناً على الحمل، موجوداً في الجنين بالوضع؛ كما قال النبي ﷺ: «إذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة أَذْكَرا، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل آنثا»[(٣)]. وكذلك في الصحيح أيضاً «إذا علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة أَشبهَ الولدُ أعمامَه، وإذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل أشبهَ الولدُ أخواله»[(٤)].

قلت: هذا معنى حديث عائشة لا لفظه، خرّجه مسلم من حديث عروة بن الزبير عنها أن امرأة قالت لرسول الله ﷺ: هل تغتسل المرأة إذا احتلمت وأبصرت الماء؟

---

(١) أخرجه أحمد (٧٧١٨)، والبخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) مطولاً من حديث أبي هريرة ﷺ. وفي الباب عن أنس ﷺ أخرجه أحمد (١٢٤٤٠)، والبخاري (٧٣٨٤)، ومسلم (٢٨٤٨).

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٠ .

(٣) هذا حديث ثوبان ﷺ بنحوه، وسيذكره المصنف قريباً.

(٤) هو حديث عائشة رضي الله عنها بنحوه كما سيذكر المصنف بعده.

فقال: «نعم» فقالت لها عائشة: تَرِبَتْ يداك وأُلَّت؛ فقال رسول الله ﷺ: «دَعِيها، وهل يكون الشَّبه إلا مِن قِبَل ذلك. إذا علا ماؤها ماءَ الرجل أشبهَ الولد أخوالَهَ، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبهَ أعمامهَ»[١].

قال علماؤنا[٢]: فعلى مقتضى هذا الحديث أن العلو يقتضي الشبه؛ وقد جاء في حديث ثَوْبان ـ خرجه مسلم أيضاً ـ أن النبي ﷺ قال لليهودي: «ماءُ الرجل أبيضُ، وماءُ المرأة أصفرُ، فإذا اجتمعا فعلا مَنِيُّ الرجل مَنِيَّ المرأة أذْكَرا بإذن الله، وإذا علا مَنِيُّ المرأة مَنِيَّ الرجل آنثا بإذن الله» الحديث[٣]. فجعل في هذا الحديث أيضاً العلوَّ يقتضي الذكورة والأنوثة؛ فعلى مقتضى الحديثين يلزم اقتران الشَّبه للأعمام والذكورة إن علا مَنِيّ الرجل، وكذلك يلزم إن علا مَنِيّ المرأة اقتران الشبه للأخوال والأنوثة؛ لأنهما معلولَا عِلَّةٍ واحدة، وليس الأمر كذلك بل الوجود بخلاف ذلك؛ لأنا نجد الشَّبه للأخوال والذكورةَ والشّبه للأعمام والأنوثة، فتعيَّن تأويل أحد الحديثين.

والذي يتعين تأويله [العلو] الذي في حديث ثَوْبان فيقال: إن ذلك العلو معناه سبق الماء إلى الرحم، ووجهه أنَّ العلوَّ لما كان معناه الغَلَبَةَ من قولهم: سابقني فلان فسبقته، أي: غلبته؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠] أي: بمغلوبين، قيل عليه: علا. ويُؤيِّد هذا التأويل قولُه في الحديث: «إذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة أذكرا، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل آنثا».

وقد بنى القاضي أبو بكر بن العربي[٤] على هذه الأحاديث بناءً فقال: إن للماءين

(١) صحيح مسلم (٣١٤)، وأخرجه أحمد (٢٤٦١٠)، وهو عند البخاري (١٣٠) من حديث أم سلمة رضي الله عنها بنحوه ودون قوله: «إذا علا ماؤها ماء الرجل...» وقوله: وأُلَّت: أي: أُصيبت بالألَّة، وهي الحربة. المفهم ١/ ٥٧٢ .

(٢) هو قول أبي العباس القرطبي في المفهم١/ ٥٧١ - ٥٧٢ . وما بين حاصرتين الآتي منه.

(٣) صحيح مسلم (٣١٥).

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٠ - ١٦٦١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة أبو العباس القرطبي في المفهم ١/ ٥٧٢ والكلام منه إلى آخر المسألة.

أربعةَ أحوال: الأوّل: أن يخرج ماءُ الرجل أولاً، الثاني: أن يخرج ماء المرأة أوّلاً، الثالث: أن يخرج ماء الرجل أوّلاً ويكون أكثر، الرابع: أن يخرج ماءُ المرأة أوّلاً ويكون أكثر. ويتم التقسيم بأن يخرج ماءُ الرجل أوّلاً، ثم يخرج ماءُ المرأة بعده ويكون أكثر، أو بالعكس؛ فإذا خرج ماء الرجل أوّلاً وكان أكثرَ جاء الولد ذكراً بحكم السَّبق، وأشبه الولدُ أعمامَه بحكم الكَثْرة.

وإن خرج ماء المرأة أوّلاً وكان أكثر جاء الولد أُنثى بحكم السَّبق، وأشبه أخواله بحكم الغَلَبة. وإن خرج ماء الرجل أوّلاً لكن لمَّا خرج ماء المرأة بعدهاكان أكثر، كان الولد ذكراً بحكم السَّبق، وأشبه أخوالَه بحكم غَلَبة ماء المرأة، وإن سبق ماء المرأة لكن لما خرج ماء الرجل كان أعلى من ماء المرأة كان الولد أنثى بحكم سبق ماء المرأة وأشبه أعمامَه بحكم غَلَبة ماء الرجل. قال: وبانتظام هذه الأقسامِ يستتبُّ الكلام ويرتفع التعارضُ عن الأحاديث، فسبحان الخالق العليم.

الثالثة: قال علماؤنا[١]: كانت الخِلْقة مستمرةً ذكراً وأُنثى إلى أن وقع في الجاهلية الأولى الخُنثى، فأُتِي به فرِيضَ العرب ومُعمَّرها عامرَ بن الظَّرِب فلم يدرِ ما يقول فيه، وأرجأهم عنه؛ فلما جنّ عليه الليل تنكّر موضعه، وأَقَضَّ عليه مضجعه، وجعل يتقلّى ويتقلّب، وتجيء به الأفكارُ وتذهب، إلى أن أنكرت خادمُه حالَه، فقالت: ما بك؟ قال لها: سهِرت لأمر قُصدت به، فلم أدرِ ما أقول فيه؟ فقالت: ماهو؟ قال لها: رجلٌ له ذَكَر وفَرْج، كيف يكون حاله في الميراث؟ قالت له الأمَة: ورّثه من حيث يبول؛ فعَقَلها وأصبح، فعرضها عليهم وانقلبوا بها راضين.

وجاء الإسلام على ذلك فلم تنزل إلا في عهد عليّ ﷺ فقضي فيها[٢].

وقد روى الفَرَضيُّونَ عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ أنه سُئل عن مولود له قُبُل وذَكَرٌ من أين يُورَّث؟ قال: «من حيث يبول». وروي أنه أُتي

(١) هو قول ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦١ - ١٦٦٢، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٢٦١.

بخنثى من الأنصار فقال: «ورّثوه من أول ما يبول»[١]. وكذا روى محمد ابن الحنفية عن عليّ، ونحوه عن ابن عباس، وبه قال ابن المسيّب وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد، وحكاه المُزني عن الشافعي. وقال قوم: لا دلالة في البول؛ فإن خرج البولُ منهما جميعاً؛ قال أبو يوسف: يحكم بالأكثر. وأنكره أبو حنيفة وقال: أتكيله! ولم يجعل أصحاب الشافعي للكثرة حكماً. وحُكي عن عليّ والحسن أنهما قالا: تُعَدُّ أضلاعه، فإن المرأة تزيد على الرجل بِضِلَع واحد[٢]. وقد مضى ما للعلماء في هذا الحديث في آية المواريث في «النساء» مجوّداً[٣]، والحمد لله.

الرابعة: قال القاضي أبو بكر بن العربي[٤]: وقد أنكر قوم من رؤوس العوامّ وجودَ الخُنثى، لأن الله تعالى قسم الخَلْق إلى ذكر وأنثى. قلنا: هذا جهل باللغة، وغباوة عن مقطع الفصاحة، وقصور عن معرفة سَعة القُدرة. أما قدرة الله سبحانه فإنه واسعٌ عليم، وأما ظاهر القرآن فلا ينفي وجودَ الخُنثى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾. فهذا عموم مدح فلا يجوز تخصيصه؛ لأن القُدرة تقتضيه. وأما قوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ . أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ فهذا إخبارٌ عن الغالب في الموجودات، وسكت عن ذكر النادر؛ لدخوله تحت عموم الكلام الأوّل، والوجود يشهد له والعِيان يُكذِّب مُنكرَه، وقد كان يقرأ معنا برِباط أبي سعيد علي الإمام الشهيد من بلاد المغرب خُنثى ليس له لحية وله ثديان، وعنده جارية؛ فربُّك أعلم به، ومع طول الصُّحبة عقلني الحياء عن سؤاله، وبودّي اليوم لو كاشفته عن حاله.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٢٦١ باللفظ الأول، ومحمد بن السائب الكلبي متهم بالكذب كما في تقريب التهذيب.

(٢) قال أبو عبد الله الشقاق شيخ ابن العربي فيما نقله عنه في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٢ : ولو صح هذا لما أشكل حاله.

(٣) ٦/ ١٠٩ وما بعدها.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٣ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ سبب ذلك أن اليهود قالوا للنبيّ ﷺ: ألّا تُكلِّم الله وتنظر إليه إن كنتَ نبيًّا كما كلّمه موسى ونظر إليه؛ فإنا لن نُؤمن لك حتى تفعل ذلك. فقال النبي ﷺ: «إنَّ موسى لن ينظر إليه» فنزل قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾؛ ذكره النقاش والواحدي[1] والثعلبي.

﴿وَحْيًا﴾ قال مجاهد: نَفْثٌ يُنْفَث في قلبه فيكون إلهاما[2]؛ ومنه قوله ﷺ: «إن روح القُدُس نَفَث في رُوعِي أنّ نَفْساً لن تموت حتى تستكملَ رزقَها وأجلها، فاتقوا اللهَ وأَجْمِلوا في الطلب. خُذوا ما حلّ ودَعُوا ما حَرُم»[3].

﴿أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى. ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ كإرساله جبريل عليه السلام. وقيل: «إِلَّا وَحْيًا» رؤيا يراها في منامه؛ قاله زهير بن محمد[4]. «أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» كما كلم موسى. «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» قال زهير: هو جبريل عليه السلام. ﴿فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ وهذا الوحي من الرسل خطابٌ منهم للأنبياء يسمعونه نُطقاً ويَرَونه عِياناً. وهكذا كانت حال جبريل عليه السلام إذا نزل بالوحي على النبي ﷺ. قال ابن عباس: نزل جبريل عليه السلام على كل نبيّ فلم يَرَهُ منهم إلا محمدٌ وعيسى وموسى وزكريا عليهم السلام. فأما غيرهم فكان وحياً إلهاماً في المنام[5].

---

(١) في أسباب النزول ص ٣٩٦، وذكره عن النقاش الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢١٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١٢.

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١١٥١)، والبغوي في شرح السنة (٤١١١) و(٤١١٢) و(٤١١٣) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٤) في النسخ: محمد بن زهير، وهو خطأ، والمثبت من النكت والعيون ٥/ ٢١٢، والمصادر، وسلفت ترجمته ٢/ ٣٩٩.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١٢.

وقيل: «إِلَّا وَحْيًا» بإرسال جبريل «أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» كما كلم موسى «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» إلى الناس كافة.

وقرأ الزهري وشيبة ونافع: «أَوْ يرسلُ رسولاً فَيُوحِي» برفع الفعلين[١]. الباقون بنصبهما. فالرفع على الاستئناف؛ أي: وهو يُرسل. وقيل: «يُرسلُ» بالرفع في موضع الحال؛ والتقدير: إلا مُوحياً أو مُرسلاً. ومن نصب عطفوه على محل الوحي؛ لأن معناه: وما كان لِبشر أن يُكلِّمه اللهُ إلا أن يُوحي أو يُرسلَ. ويجوز أن يكون النصب على تقدير حذف الجار من أن المضمرة. ويكون في موضع الحال؛ التقدير: أو بأن يُرسلَ رسولاً. ولا يجوز أن يعطف «أَوْ يُرْسِلَ» بالنصب على «أَنْ يُكَلِّمَهُ» لفساد المعنى؛ لأنه يصير: ما كان لِبشر أن يُرسِلَه أو أن يُرسِلَ إليه رسولاً، وهو قد أرسل الرُّسلَ من البشر وأرسلَ إليهم[٢].

الثانية: احتجَّ بهذه الآية من رأى فيمن حلف ألا يُكلِّم رجلاً فأرسل إليه رسولاً أنه حانث؛ لأن المُرسِلَ قد سُميّ فيها مُكلِّماً للمرسَل إليه، إلا أن ينوي الحالف المواجهة بالخطاب.

قال ابن المنذر[٣]: واختلفوا في الرجل يحلف ألا يُكلِّم فلاناً فكتب إليه كتاباً، أو أرسل إليه رسولاً؛ فقال الثَّوْري: الرسول ليس بكلام. وقال الشافعي: لا يبين أن يحنثَ. وقال النَّخعي: والحكم في الكتاب يحنث. وقال مالك: يَحنَثُ في الكتاب والرسول. وقال مَرَّة: الرسول أسهلُ من الكتاب. وقال أبو عُبيد: الكلام سوى الخط والإشارة. وقال أبو ثور: لا يحنث من الكتاب. قال ابن المنذر: لا يَحْنَثُ في الكتاب والرسول.

قلت: وهو قول مالك[٤]. قال أبو عمر[٥]: ومن حلف ألّا يكلّم رجلاً فسلّم عليه

---

(١) قراءة نافع في السبعة ص ٥٨٢، والتيسير ص ١٩٥.

(٢) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٥٣ - ٢٥٤ بنحوه.

(٣) في الإشراف ١/ ٤٧٤.

(٤) كذا قال المصنف، وسلف أن مالكاً قال: يحنث في الكتاب والرسول. وينظر المدونة ٢/ ١٣١.

(٥) في الكافي ١/ ٤٥٠.

عامداً أو ساهياً، أو سلّم على جماعة هو فيهم فقد حنث في ذلك كلّه عند مالك. وإن أرسل إليه رسولاً، أو سلّم عليه في الصلاة لم يحنث.

قلت: يحنث في الرسول إلا أن ينويَ المُشافهة؛ للآية، وهو قول مالك وابن الماجشُون. وقد مضى في أول «سورة مريم» هذا المعنى عن علمائنا مستوفًى[1]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: وكالذي أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك ﴿رُوحًا﴾ أي: نبوة؛ قاله ابن عباس. الحسن وقتادة: رحمة من عندنا. السُّدّي: وحْيًا. الكلبي: كتاباً. الربيع: هو جبريل. الضحاك: هو القرآن. وهو قول مالك بن دينار[2]. وسمّاه روحًا لأن فيه حياةً من موت الجهل. وجعله من أمره بمعنى: أنزله كما شاء على من يشاء من النَّظم المُعجز والتأليف المُعجب.

ويمكن أن يُحمَلَ قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥] على القرآن أيضًا ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: يسألونك من أين لك هذا القرآن؟ قل: إنه من أمر الله أنزله عليّ مُعجزاً؛ ذكره القُشَيْري. وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن، ماذا زرع القرآنُ في قلوبكم؟ فإن القرآنَ ربيعُ القلوب كما أن الغيثَ ربيعُ الأرض[3].

الثانية: قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: لم تكن تعرف

---

(١) ١١/ ٨٦.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٣٢، ما عدا قول الضحاك فهو في النكت والعيون ٥/ ٢١٢.
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٥٨.

الطريق إلى الإيمان. وظاهرُ هذا يدلُّ على أنه ما كان قبل الإيحاء مُتَّصفًا بالإيمان. قال القُشَيري: وهو من مجوّزات العقول، والذي صار إليه المُعظم أن الله ما بعث نبياً إلا كان مؤمناً به قبل البِعثة. وفيه تحكّم، إلا أن يثبت ذلك بتوقيف مقطوع به.

قال القاضي أبو الفضل عياض(١): وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوّة فللناس فيه خلاف؛ والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك. وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ وُلدوا؛ ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة، ومن طالَعَ سِيَرَهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقَّق ذلك؛ كما عُرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢] قال المفسرون: أعطى يحيى العلم بكتاب الله في حال صباه. قال معمر: كان ابن سنتين أو ثلاث؛ فقال له الصبيان: لم لا تلعب! فقال: ألِلَّعب خُلقت(٢)؟! وقيل في قوله ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٣٩]: صدَّق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين، فشهد له أنه كلمة الله وروحه. وقيل: صدقه وهو في بطن أمه؛ فكانت أمّ يحيى تقول لمريم: إني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك تحية له(٣).

وقد نص الله على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ على قراءة من قرأ: «مَنْ تَحْتَهَا»(٤) وعلى قول من قال: إن المُنادي عيسى، ونصّ على كلامه في مهده فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم:٣٠]. وقال: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء:٧٩] وقد ذكر من حُكم سليمان وهو صبي يلعب في قصة المرجومة وفي قصة الصبيّ(٥) ما اقتدى به أبوه داود. وحكى الطبري

---

(١) في الشفا ٢/٢٥٧.

(٢) سلف ١١/٨٧.

(٣) سلف ٥/١١٦ و١١/٩٣.

(٤) قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو شعبة. السبعة ص٤٠٨، والتيسير ص١٤٨. وسلفت ١١/٩٣.

(٥) سلفت ١٤/٢٤١ - ٢٤٢.

أن عمره كان حين أوتي الملك اثني عشر عاماً. وكذلك قصة موسى عليه السلام مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل. وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]: أي: هديناه صغيراً؛ قاله مجاهد وغيره[١]. وقال ابن عطاء: اصطَفيناه قبل إبداء خلقه. وقال بعضهم: لما وُلِدَ إبراهيم بعث الله إليه مَلَكًا يأمره عن الله تعالى أن يعرِفه بقلبه ويذكره بلسانه فقال: قد فعلتُ؛ ولم يقل: أفعل؛ فذلك رُشده. وقيل: إن إلقاء إبراهيم في النار ومِحنته كانت وهو ابن ست عشرة سنة[٢]. وإن ابتلاء إسحاق بالذبح وهو ابن سبع سنين[٣]. وإن استدلال إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابن خمس عشرة سنة[٤]. وقيل: أُوحِي إلى يوسف وهو صبي عندما همّ إخوته بإلقائه في الجُبّ بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ الآية؛ إلى غير ذلك من أخبارهم.

وقد حكى أهل السِّيَر أن آمنة بنت وهب أخبرتْ أن نبينا محمداً ﷺ وُلِدَ حين وُلِدَ باسطاً يديه إلى الأرض رافعاً رأسه إلى السماء[٥]، وقال في حديثه ﷺ: «لما نشأت بُغِّضت إليّ الأوثان وبُغِّض إلي الشعر ولم أهمّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمني الله منهما ثم لم أعد»[٦]. ثم يتمكَّن الأمر لهم، وتترادف نفحاتُ الله تعالى عليهم، وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم حتى يصلوا الغاية، ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوّة في تحصيل الخصال الشريفة النهايةَ دون ممارسة ولا رياضة. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٩٠.

(٢) ١٤/ ٢٢٨.

(٣) سلفت قصة الذبيح في الصافات [١٠٣ - ١١٣] وذكرنا ثمة أن الصحيح المقطوع به أنه إسماعيل عليه السلام.

(٤) في النسخ: خمسة عشر شهراً، وسلف هذا القول ٨/ ٤٣٨.

(٥) طبقات ابن سعد: ١/ ١٠٢، والبداية والنهاية ٣/ ٣٨٥.

(٦) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/ ٢١٣.

قال القاضي[١]: ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نُبِّئ واصْطُفِي ممن عُرِف بكفر وإشراك قبل ذلك. ومستند هذا الباب النقل. وقد استدلَّ بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله. قال القاضي: وأنا أقول: إن قريشاً قد رمت نبينا عليه الصلاة والسلام بكل ما افترته، وعيّر كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته، مما نص الله عليه، أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في شيء من ذلك تعييرًا لواحد منهم برفضه آلهته[٢] وتقريعه بذَمِّه بترك ما كان قد جامعهم عليه. ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، وبتلوُّنه في معبوده مُحتجِّين، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبلُ أفظعَ وأقطعَ في الحُجَّة من توبيخه بنهيهم عن تركهم[٣] آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل؛ ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليلٌ على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليه، إذ لو كان لنُقل وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَاۚ﴾ كما حكاه الله عنهم.

الثالثة[٤]: وتكلم العلماءُ في نبينا ﷺ؛ هل كان مُتَعَبِّدًا بدين قبل الوَحْي أم لا؟ فمنهم من منع ذلك مطلقاً وأحاله عقلاً. قالوا: لأنه يبعد أن يكون متبوعاً من عُرف تابعاً، وبَنَوْا هذا على التحسين والتقبيح. وقالت فرقة أخرى بالوقف في أمره عليه الصلاة والسلام، وتركِ قطع الحكم عليه بشيء في ذلك، إذ لم يُحِل الوجهين منهما العقل، ولا استبان عندها في أحدهما طريق النقل، وهذا مذهب أبي المعالي. وقالت فرقة ثالثة: إنه كان متعبداً بشرع من قبله وعاملاً به؛ ثم اختلف هؤلاء في التعيين، فذهبت طائفة إلى أنه كان على دين عيسى، فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبلها؛ فلا يجوز أن يكون النبي على دين منسوخ. وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم؛

---

(١) هو القاضي عياض في الشفا ٢/ ٢٥٧ - ٢٥٨، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٢) في (د) و(م): آلهتهم، والمثبت من (ظ) و(ي)، وهو الموافق للشفا.

(٣) في (د) و(ي) و(م): تركه، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للشفا.

(٤) هذه المسألة في الشفا ٢/ ٢٦٧ - ٢٦٨ و٣٣٥ - ٣٣٧، وينظر الإبهاج للسبكي ٢/ ٢٧٥ وما بعدها.

لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء. وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى؛ لأنه أقدم الأديان. وذهبت المعتزلة إلى أنه لا بد أن يكون على دينٍ، ولكن عين الدين غير معلومة عندنا. وقد أبطل هذه الأقوال كلها أئمتُنا؛ إذ هي أقوال متعارضة وليس فيها دلالة قاطعة، وإن كان العقل يجوّز ذلك كلّه. والذي يُقطع به أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن منسوبًا إلى واحد من الأنبياء نسبةً تقتضي إلى أن يكون واحدًا من أمته ومخاطَبًا بكل شريعته؛ بل شريعتُه مستقِلَّة بنفسها مفتتحة من عند الله الحاكم جلَّ وعز، وأنه ﷺ كان مؤمناً بالله عز وجل، ولا سجد لصنم، ولا أشرك بالله، ولا زنى ولا شرب الخمر، ولا شهد السامر[١]، ولا حضر حلف المطر[٢]، ولا حلْفَ المُطَيِّبين[٣]؛ بل نزهه الله وصانه عن ذلك.

فإن قيل: فقد روى عثمان بن أبي شيبة حديثاً بسنده عن جابر أن النبي ﷺ قد كان يشهد مع المشركين مشاهدهم، فسمع مَلَكين خلفه أحدهما يقول لصاحبه: اذهب حتى تقوم خلفه، فقال الآخر: كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام فلم يشهدهم بعد[٤]؟ فالجواب أن هذا حديثٌ أنكره الإمام أحمد بن حنبل جدًا وقال: هذا موضوع أو شبيهٌ بالموضوع[٥]. وقال الدَّارَقُطْني: إن عثمان وَهِمَ في إسناده، والحديث بالجملة منكر غير متفق على إسناده فلا يُلتفَت إليه، والمعروف عن النبي ﷺ خلافه عند أهل العلم من قوله: «بُغِّضت إليّ الأصنام»[٦] وقوله في قصة بحِيرا حين

---

(١) السامر: مجلس السُّمَّار. القاموس (سمر).

(٢) كذا في النسخ، ولم نعرفه. والأحلاف المشهورة قبل البعثة هي حلف الأحلاف وحلف المُطيّبين وحلف الفضول. ينظر السيرة النبوية ١/ ١٣٠ - ١٣٣ .

(٣) لم يشهد النبي ﷺ حلف المطيبين لأنه كان قبل مولده ﷺ. كما في صحيح ابن حبان بعد الحديث (٤٣٧٤)، وسنن البيهقي ٦/ ٣٦٧ .

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٨٧٧).

(٥) نقله المصنف عنه بواسطة القاضي في الشفا ٢/ ٢٦٧ وما بعده منه.

(٦) سلف في المسألة السابقة.

استحلف النبيّ ﷺ باللّات والعزّى إذ لَقِيَه بالشام في سَفْرَتِه مع عمه أبي طالب وهو صبي، ورأى فيه علاماتِ النبوّة فاختبره بذلك؛ فقال له النبي ﷺ: «لا تسألني بهما، فواللهِ ما أبغضت شيئاً قطُّ بُغْضَهُمَا» فقال له بَحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال: «سل عما بدا لك». وكذلك المعروف من سيرته عليه الصلاة والسلام وتوفيقِ الله إياه له أنه كان قبل نبوّته يخالف المشركين في وقوفهم بمزدلِفة في الحج، وكان يقف هو بعرفة، لأنه كان موقف إبراهيم عليه السلام.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: ١٣٥] وقال: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣] وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ الآية [الشورى: ١٣]. وهذا يقتضي أن يكون مُتعبِّدًا بشرع. فالجواب أن ذلك فيما لا تختلف فيه الشرائع من التوحيد وإقامة الدّين؛ على ما تقدَّم بيانُه في غير موضع وفي هذه السورة عند قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ والحمد لله.

الرابعة: إذا تقرّر هذا فاعلم أن العلماء اختلفوا في تأويل قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾. فقال جماعة: معنى الإيمان في هذه الآية شرائع الإيمان ومعالمه؛ ذكره الثعلبي. وقيل: تفاصيل هذا الشرع؛ أي: كنتَ غافلاً عن هذه التفاصيل. ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع؛ ذكره القشيري.

وقيل: ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان؛ ونحوه عن أبي العالية. وقال بكر القاضي(١): ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام. قال: وكان قبل مؤمناً بتوحيده، ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل؛ فزاد بالتكليف إيماناً. وهذه الأقوال الأربعة متقاربة. وقال ابن خزيمة: عنى بالإيمان الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣](٢) أي: صلاتكم إلى بيت المقدس؛ فيكون اللفظ عاماً والمراد الخصوص.

---

(١) لعله بكر بن العلاء القشيري. وفي الشفا ٢/ ٢٦٦ (والكلام منه): أبو بكر القاضي.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٣٢ .

وقال الحسين بن الفضل: أي: ما كنت تدري ما الكتاب ولا أهل الإيمان. وهو من باب حذف المضاف؛ أي: مَن الذي يؤمن؟ أبو طالب أو العباس أو غيرهما. وقيل: ما كنت تدري شيئاً إذ كنتَ في المهد وقبل البلوغ. وحكى الماوردي نحوه عن عليّ بن عيسى قال: ما كنت تدري ما الكتاب لولا الرسالة، ولا الإيمان لولا البلوغ. وقيل: ما كنت تدري ما الكتاب لولا إنعامُنا عليك، ولا الإيمان لولا هدايتنا لك، وهو مُحتَمِل. وفي هذا الإيمان وجهان: أحدهما: أنه الإيمان بالله، وهذا يعرِفه بعد بلوغه وقبل نبوته. والثاني: أنه دين الإسلام، وهذا لا يعرفه إلا بعد النبوّة[1].

قلت: الصحيح أنه ﷺ كان مؤمناً بالله عز وجل من حين نشأ إلى حين بلوغه؛ على ما تقدّم. وقيل: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: كنتَ من قوم أُمّيين لايعرفون الكتابَ ولا الإيمان، حتى تكونَ قد أخذتَ ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨] روي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ قال ابن عباس والضحاك: يعني الإيمان. السدي: القرآن[2]. وقيل: الوحي؛ أي: جعلنا هذا الوحي ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ أي: من نختاره للنبوّة؛ كقوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:١٠٥]. ووحَّد الكنايةَ لأن الفعل في كَثْرة أسمائه بمنزله الفعل في الاسم الواحد؛ ألا ترى أنك تقول: إقبالك وإدبارك يعجبني؛ فتوحّد، وهما اثنان[3].

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ أي: تدعو وتُرشد ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ دين قويم لا اعوجاج فيه. وقال عليّ: إلى كتاب مستقيم[4].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١٢ - ٢١٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٢ .

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٤٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢١٣ .

وقرأ عاصم الجحدرِي وحَوْشب: «وَإِنَّكَ لَتُهْدى» غير مسمَّى الفاعل[١]؛ أي: لتُدْعَى. الباقون: «لَتَهدي» مسمى الفاعل. وفي قراءة أُبَيّ: «وَإِنَّكَ لَتَدْعُو»[٢].

قال النحاس[٣]: وهذا لا يُقرأ به؛ لأنه مخالف للسواد، وإنما يُحمل ما كان مثله على أنه من قائله على جهة التفسير؛ كما قال سفيان في قوله عز وجل[٤]: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي» أي: لتدعو. وروى مَعْمَر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدل من الأوّل بدل المعرفة من النكرة. قال عليّ: هو القرآن. وقيل الإسلام. ورواه النوّاس بن سمعان عن النبيّ ﷺ[٥].

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُلكًا وعبداً وخلْقًا. ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ وعيدٌ بالبعث والجزاء. قال سهل بن أبي الجَعْد: احترق مصحفٌ فلم يبقَ إلا قوله: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[٦] وغَرِقَ مصحفٌ فامَّحَى كلُّه إلا قولَه: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾. والحمد لله وحدَه.

[تم الجزء الثامن عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء التاسع عشر، ويبدأ بتفسير سورة الزخرف]

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٣٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٤ ، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٤ لابن مسعود ﷺ.

(٣) في معاني القرآن ٦/ ٣٢٩ .

(٤) قوله: سفيان في قوله عز وجل، ليس في (م)، و(ظ) و(ي)، وأثبتناه من (د) ومعاني القرآن.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١٣ ، وحديث النواس بن سمعان ﷺ أخرجه أحمد (١٧٦٣٤) مطولاً، وسلف ١٠/ ٤٨١ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٤٤ .

فهرس الجزء الثامن عشر